المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن

وكالة الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

عمادة الدراسات العليا

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة والأذى

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة والنقد

إعداد الباحثة

ابتسام بنت إبراهيم بن فواز المغذَّوي

معيدة بكلية التربية والآداب

جامعة تبوك

إشـــــــراف

فضيلة الأستاذ الدكتور سعد الدين كامل عبد العزيز شحاته

أستاذ البلاغة والنقد المشارك

كلية اللغة العربية – الجامعة الإسلامية

العام الجامعي

١٤٣١ هـــ - ٢٠١٠م

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry Of Higher Education
Princess Nora Bint Abdul Rahman University

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن
كلية الآداب

جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن
Princess Nora Bint Abdul Rahman University

اعتماد لجنة المناقشة والحكم

(ماجستير)

نوقشت رسالة الطالبة: ابتسام بنت إبراهيم بن فواز المقذوي بتاريخ ١/ ١٤٣١/٤ هـ وتكونت لجنة المناقشة والحكم من الأساتذة :

الاسم	المرتبة العلمية/التخصص	الجهة	صفة العضوية	التوقيع
١) د. سعد الدين كامل شحاته /	أستاذ البلاغة / والنقد المشارك	كلية اللغة العربية الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة	(مقرراً)	سعد الدين كامل
٢) أ. د. احمد بن سعد ناجي	/أستاذ البلاغة والنقد	/كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة	(عضواً)	[توقيع]
٣) أ. د. دخيل الله الصحفي	/أستاذ البلاغة والنقد	/ كلية اللغة العربية جامعة أم القرى	(عضواً)	[توقيع]

قرار اللجنة منح الطالبة درجة الماجستير / بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى

تخصص : بلاغة ونقد

تاريخ موافقة مجلس الكلية على المنح : / / / هـ

وكيلة الكلية للدراسات العليا	ختم الكلية	عميدة الكلية
د. هدى بنت عبد الرحمن الدريس		د. نورة بنت مسعود بالحارث

تم .... التاريخ : ..../..../........ المشفوعات ....

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى:

﴿ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

[النمل : ١٩]

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شكر وتقدير

الحمد لله وكفى .. والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى ... أما بعد .

فالشكر ليس حروفاً تصف ، ولا كلمات تقال ، ولا عبارات تردد ، ولا ألحاناً ترنم ، إنه صحيفة اعتراف ، ووثيقة عرفان أقدمها لمن يقرأها فيجد فيها صدى الحق الذي لا ينكره إلا جاحد .

فالشكر لله – عز وجل – أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وفي كل حين كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، ثم الشكر للنور الذي يضيء حياتي بصادق الدعوات ، وجميل الأمنيات إلى مشعل دربي ، ونبراس أيامي الماضية والحاضرة والباقية - بإذن الله - إلى أصدق قلبين وأعذب روحين .. إلى الدرتين (أبي وأمي) – أطال الله عمرهما – أهدي لهما ، وقليل والله ما أهدي ، هذا الجهد ، ولهما أعترف بأجمل وأسعد لحظات عمري .

فيا عينيَّ (أبي وأمي) تقبلا مني تحية إكبار وإجلال لعظيم ما منحتماني ، ولن أفيكما حقكما مهما خطت يدي من كلمات ففي داخلي لكما حب وامتنان لن تحصيه حروف مهما كُتبت .

والشكر موصول لرفيق الدرب ، والمعين – بعد الله – على الهم والكرب ، زوجي العزيز فجزاه الله كل خير لوقوفه بجانبي وتحمله تقصيري ، والشكر الأسمى لزهرتي بستاني، وفرحتي وجداني ، ومالكتي روحي وكياني ابنتيَّ على تحملهما ضيق وقتي ، وكثرة انشغالي جعلهما الله قرة عين لي ، وحفظهما من كل مكروه .

ويظل الفضل منسوبا لأهله ، فالشكر الأوفى والأكمل لفضيلة الأستاذ الدكتور سعد الدين كامل عبد العزيز شحاته – المشرف على الرسالة – على ما بذله من جهد ووقت وصبر على تقلّب ظروفي ، فكان نعم الأستاذ والأخ الحاني العطوف، أسأل الله أن يجزيه الجزاء الأوفى ، ويطيل في عمره على الطاعة والعمل الصالح .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أوجه الشكر والامتنان للأستاذ الدكتور عبد الموجــود متــولي - المــشرف السابق على الرسالة- على كرم بذله ، وسخاء عطائه ، فله مني كل التقدير .

كما أشكر لجنة المناقشة على ما بذلاه من جهد ووقت في تقييم هذا البحث .

والشكر موصول لجامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن ، وأخــص بالــشكر عمادة الدراسات العليا والبحث العلمي ، وعميدتي كلية التربية للأقسام الأدبية بالرياض وتبوك ، ورئيسة قسم اللغة العربية ، ووكيلات الدراسات العليــا بالريــاض الــسلف والخلف .

وكل الشكر و التقدير للأستاذة (عائشة سعيد العطوي) لوقوفها بجــانبي ، كمــا أشكر إخواني وأخواتي وأزواجهن لتشجيعهم ومساندقم لي .

والشكر موصول إلى كل من مدَّ لي يد عون أو مساعدة ، أو استحق الشكر على كلمة أو تشجيع أو دعوة ولو بظهر الغيب ، ولله المنة والفضل أولا وآخرا .

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد الأنام محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين .

****

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المقدمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المقدمة :

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله خير من نطق فأفصح ،وتكلم فأبان،وعلى آله وصحبه وسلم وبعد..

فكثيراً ما سألت نفسي لِمَ سُمي الوحي المنزل على محمد- صلى الله عليه وسلم- قرآناً ،هذا الاسم الذي يملأ الأسماع ويأخذ القلوب ؟:

أ لأنه الكتاب الوحيد الذي يُقرأ فيهدي إلى المعبود بحق ،ويبين عما يجب له من الأسماء والصفات ،وما تُلزمه هذه وتلك من الخضوع له والإقبال عليه ؟

أم لأنه الذي يُقرأ فيدرك ما فيه من روعة البيان، وسر الإعجاز ؟

أم لأنه الذي يُقرأ فيُومىء إلى أسرار الكون،ودقائق الخلق ،وما فيهما من روعة تفوق كل القُدر؟

أم لأنه الذي يلفت إلى دقائق العلم التي يجب أن يُكشف عنها وتسخر لتقدم الحياة، ليملك المؤمنون به مقاليد العالم ،وتكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ؟

وهداني الله إلى الإجابة فقلت: لِمَ لا يكون لهذا كله، ولأبعد من هذا كله مما لا يعلم سره إلا منزله سُمي هذا الوحي قرآنا ؟، ومن ثم أُمر المكلف بالتبليغ -وهو أُمي- بالقراءة في بدء نزول الوحي عليه في قوله - تعالى-: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾(١) .

ملأت الكلمة نفسي ، وأنا – على اليقين – أنها فعلت مثل هذا في نفوس المؤمنين جميعاً ، ولهذا وجدت نفسي مشدودة إلى القرآن رجاء أن أوفق إلى فكرة أتخذها موضوعا لدراسة تكون شاهداً على استعداد علمي يؤهلني لنيل درجة علمية في المجال الذي شاء الله أن أتخصص فيه (البلاغة والنقد).

وعلى الرغم من الميل البالغ ، فقد كنت متخوفة ؛ إذ كيف أستطيع أن أتحدث عن بلاغةِ القرآن أو جانب منها وهي التي سحرت العرب المقاويل فلم يكن منهم إلا أن

---

(١) سورة العلق ، آية (١) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قالوا ما يحكيه الله عنهم بقوله : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١)

ومن هنا بلغ بي التَّهيب مداه لكني على الرغم منه استخرت الله – تعالى – وغلَّبت جانب الرغبة راجية منه العون وهو أكرم من أن يرد يدَ سائله صفرا.

وشرعت أبحث عن ضالتي فالتمعت في خاطري فكرة معالجة القرآن لداعي الإساءة والأذى في نفوس البشر، فمضيت أجمع المواطن التي وردت فيها ألفاظهما فاجتمع لديّ من ذلك عددٌ ليس بالقليل - فيما أرى - وبلورت الفكرة في هذا العنوان : (بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة والأذى) وقد عرضت الفكرة على أستاذي الجليل الأستاذ الدكتور(عبد الموجود متولي) فاستحسنها ، فأجمعت رأيي متوكلةً على الله سائلةً إياه التوفيق والسداد .

ثم أكملت المسيرة مع فضيلة الأستاذ الدكتور سعد الدين كامل عبد العزيز شحاته وهأنذا أتقدم لكم بهذا البحث راجية من الله التوفيق والقبول ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

****

أسباب اختيار الموضوع :

تتمثل الأسباب الداعية لاختيار هذا الموضوع فيما يلي :-

- الاستظلال بظلال القرآن الوارفة أثناء البحث؛ لعلَّ الله يمدني بعونٍ منه.
- جدة الموضوع وطرافته و كونه شاملاً لمواضيع بلاغية كثيرة.
- إظهار كيفية معالجة القرآن الكريم للإساءة والأذى من حيث صورهما المختلفة باستعمال الأساليب الموحية .
- تزويد المكتبة العربية بجانب من بلاغة القرآن الكريم عسى أن تُلبي رغبة بعض الباحثين للوقوف على بلاغته ، أو يأخذ بيد بعض إلى تجلية جانب آخر.

---

(١) سورة سبأ ، آية (٤٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خطة البحث

و تتبلور خطة هذا البحث في :

تمهيد : أتناول فيه مفهوم الإساءة والأذى: اقتراباً وافتراقاً .

الباب الأول :- بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة.

ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول :- **بلاغة القرآن الكريم في سياق التعبير عن الإساءة في بيان أفعال المسيئين وأقوالهم .**

الفصل الثاني :- **بلاغته في التعبير عن الإساءة في سياق التنفير منها والبراءة من المتصفين بها .**

الفصل الثالث :- **بلاغته في التعبير عن الإساءة في سياق الجزاء وعدا ووعيدا وعدلا.**

****

الباب الثاني:- بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى.

ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول :- **بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في سياق التكليف.**

الفصل الثاني :- **بلاغته في سياق الدعوة إلى المصابرة.**

الفصل الثالث :- **بلاغته في سياق التنفير منه.**

****

الخاتمة :- وفيها ملخص للبحث ، ورصدٌ لأهم النتائج والتوصيات التي توصل إليها البحث .

****

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفهارس :-	فهرس المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

****

منهج البحث :

يتمثل المنهج الذي سأسير عليه - بمشيئة الله وعونه - في المنهج التحليلي ؛ حيث أنطلق من بيان خصائص الكلمة المفردة من حيث صور كينونتها من التعريف والتنكير ،والإظهار والإضمار ، إلى خصائص الجملة من حيث الإرسال والتأكيد ،والإخبار بالاسم أو بالفعل ،والتقـديم والتـأخير ،والقصر أو عدمه ،ثم إلى خصائص العبارة من حيث ارتباط الجملة بسابقتها ارتباطاً معنوياً أو لفظياً (الفصل والوصل)، وما يستلزم ذلك من كون الجملة خبرية أو إنشائية ، ثم ما يستتبع ذلك مـن الإيجاز أو الإطناب أو المساواة . إلى بيان نوع الصورة البيانية من التشبيه أو المجاز بأنواعه (العقلي، المرسل، الاستعارة أو الكناية أو التعريض) ثم في النهاية إلى ما فيها من أصباغ البديع ،وما لـذلك كله من قيمة فنية .

****

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التمهيد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مفهوم الإساءة والأذى :اقترابا وافتراقا

قبل الحديث عن أوجه التشابه والتخالف بين الإساءة والأذى؛ يجدر بي أن أُبين معنى كل منهما في اللغة، والألفاظ القريبة منهما، وأن أستأنس باستعمال كل منهما في القرآن الكريم؛ محاولةً للاقتراب من المعنيين: المعجمي والدلالي لكل من اللفظتين.

أولاً : الإساءة:

يقول ابن فارس[١] عن السين والواو والهمزة: «هي من باب القبح؛ تقول: رجل أسوأ؛ أي: قبيح، وامرأة سوآء؛ أي: قبيحة»[٢].

قال ابن سيده[٣]: أساء فلانٌ: أتى بسيِّئ، وأساء الشيءَ: لم يُحسن عملَه، وفي المثل: أساءَ كارِهٌ ما عَمِل؛ وذلك أن رجلًا أكرهه آخَرُ على عَمَلٍ فأساءَ عَمَلَه[٤]. يضرب هذا للرجل يطلب الحاجة فلا يبالغ فيها، وألحق به ما يشينه ويضره[٥].

وإذا كانت الإساءة فعل السوء أو السيئة فإنه يمكن تعريفها في ضوء تعريف هذين الأمرين:

قال الكفوي: السُّوء(بالضم) يجري مجرى الشر،ومنه مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة [٦].

وقال الراغب: السوء كل مايغم الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ، ومن

---

(١) هو: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، من أئمة اللغة والأدب، ولد سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وأقام مدة في همذان، ثم انتقل إلى الري، فتوفي فيها سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، وإليها نسبته. من تصانيفه: مقاييس اللغة، والمجمل، والصاحبي، وغيرها.
ينظر: وفيات الأعيان (٣٥/١) .

(٢) مقاييس اللغة (١١٣/٣).

(٣) هو: علي بن إسماعيل أبو الحسن المرسي المعروف بابن سيده، صاحب كتاب المحكم في لسان العرب وأحد من يضرب بذكائهم المثل، قال الحُمَيدي: هو إمام في اللغة والعربية حافظٌ لهما. توفي سنة ٤٥٨هـ.
ينظر: شذرات الذهب (٣٠٥/٣، ٣٠٦)، هدية العارفين (٦٩١/١).

(٤) ينظر: جمهرة الأمثال، للعسكري (١٩٧)، مجمع الأمثال، للميداني (٣٣٨/١) تاج العروس (سوء) (٢٧٤/١).

(٥) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم (٦٣٤/٨).

(٦) ينظر: الكليات للكفوي (٥٠٢)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأحوال النفسية والبدنية والخارجية [١].

أما السيئة ، فقال الراغب :هي الفَعْلَةُ القبيحة [٢]، ومن ثم تكون الاساءة :فعل أمر قبيح جارٍ مجرى الشر يترتب عليه غم الإنسان في أمور دينه ودنياه، سواء أكان ذلك في بدنه أو نفسه أو فيما يحيط به من مال أو ولد أو قُنْيَة[٣] .

ويستعمل «أساء» لازمًا ومتعديًا بنفسه وبالحرف، يقال: أساء فلانٌ، وأساء فلانًـــا، ويقال: أساءَ به، وأساءَ إليه، وأساءَ عليه، وأساءَ له: ضِدُّ أَحْسنَ معنًى واستعمالًا[٤]؛ قال كُثَيِّر [٥]:

أسيئي بِنا أو أَحْـــسني لا مَلولَـــةٌ   لـــدينا ولا مَقْلِيَّـــةٌ إنْ تَقَلَّـــتِ[٦]

وقال سبحانه وتعـــــالى: ﴿ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ ﴾ [يوسف:١٠٠]، وقال - عزَّ من قائلٍ: ﴿ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا ﴾ [الإسراء: ٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقــال - جـــلَّ وعزَّ-: ﴿ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ ﴾ [القصص: ٧٧].

والفرق بين السوء والضر: أن الضر يكون من حيث لا يعلم المقصود به، والـــسوء لا يكون إلا من حيث يعلم، ومعلوم أنه يقال: ضررت فلانًا من حيـــث لا يعلـــم، ولا يقال: سؤته إلا إذا جاهرته بالمكروه.

والفرق بين الإساءة والمضرة: أن الإساءة قبيحة، وقد تكون مضرةٌ حسنة؛ إذا قصد بها ما يحسن، نحو: المضرة بالضرب؛ للتأديب وبالكد للتعلم والتعليم.

أما عن استعمال هذه المادة ، فقد ورد لفظ «السوء» بمعان عدة في القرآن الكريم

---

(١) ينظر : المفردات (٢٥٢)
(٢) ينظر: المصدر السابق ، وبصائر ذوي التمييز (٣/٨٨)
(٣) تم استخلاص هذا التعريف مما أوردته كتب المصطلحات السابقة وغيرها عن السيئة والسوء .
(٤) المعجم الوسيط (سوء) (١/٤٥٩)، وتاج العروس (سوء) (١/٢٧٤).
(٥) هو: كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر الخزاعي، أبو صخر: شاعر، متيم مشهور، من أهل المدينة، له ديوان شعر. توفي بالمدينة سنة خمس ومائة هـــ.
ينظر: الأغاني (٨/٢٥)، وشذرات الذهب (١/١٣١)، الوفيات (١/٤٣٣).
(٦) البيت من الطويل، وهو لكثير عزة في ديوانه، (١٠١)، ولسان العرب (سوأ) (١/٩٦)، (حسن) (١٣/١١٥)، (قلا) (١٥/١٩٨)، والتنبيه والإيضاح (١/٢١)، وتهذيب اللغة (٤/٣١٨)، والأغاني (٩/٣٨)، وأمالي القالي (٢/١٠٩)، وتاج العروس (سوأ)، (قلى) (١/٢٧٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منها [1]:

الأول: بمعنى: الشدة، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٤٩]، أي: أشده وأفظعه وأقبحه بالنسبة إلى سائره.

الثاني: بمعنى «العَقْر»، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود: ٦٤]، أي: لا تصيبوها بعقر.

الثالث: «الزنى»، قال تعالى: ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ [يوسف: ٥١].

الرابع: «المرض»، قال تعالى: ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ [طه: ٢٢]، أي: من غير عاهة وقبح، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢] يعني: المرض، وهي من باب عطف العام على الخاص؛ لبيان شمول رحمته على عباده.

الخامس: «اللعنة»، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٧]، وقال بعض المفسرين: إن «السوء» هنا بمعنى: الذلة والعذاب.

السادس: «العذاب»، قال تعالى: ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾ [الزمر:٦١]، أي: لا يصيبهم الشدة والعذاب.

السابع: «الشرك»، قال تعالى: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ﴾ [النحل: ٢٨].

الثامن: «العصيان»، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ [النحل: ١١٩].

التاسع: «الشتم»، قال تعالى: ﴿ وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [الممتحنة: ٢]، أي: بالشتم، ومثله: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [النساء: ١٤٨]؛ أي: الشتم.

---

(١) ينظر: التصاريف.تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه ليحيى بن سلام - تحقيق: هند شلبي (١٢١-١٢٤)بتصرف، وكشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر لابن العماد - تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد- مراجعة محمد سليمان داود (٥٨-٦١) بتصرف ، اللباب (٥٧/٢)، بصائر ذوي التمييز (٢٨٨/٣) وما بعدها، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١/ ١٠٠)، زاد المسير (٢٢٤/٣)، تفسير البيضاوي (٤٦/٤)،(٣٩٤/٣)، تفسير الثعالبي (٤٩/٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العاشر: «الجنــون»، قال تعالى: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود: ٥٤] أي: بجنون.

الحادي عشر: «بِئْسَ»، قال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٥]؛ أي: بـئس الدار.يعني منازلهم .

الثاني عشر: «الفقر»، قـال تعـالى: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] أي: الفقر.

الثالث عشر: «الهزيمة»، قال تعالى: ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٤] أي: هزيمة.

الرابع عشر: الـصيد، قـال تعـالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ [الأعراف: ١٦٥] أي: الصيد.

ثانيًا: الأذى:

قال ابن فارس: «الهمزة والذال والياء أصل واحد، وهو الشيء تتكرهه ولا تقـرُّ عليه»[١].

والأذى لغة مصدر قـولهم :أَذِيَ الـشيء يـأْذَى ،وهـو مـأخوذ مـن مـادة (أ ذ ى)التي تدل على الشيء تتكرهه ولاتقرُّ عليه ،ومن ذلك الإيذاء ،يُقال : آذيـتُ فلاناً أُوذيه: أي ألحقت به مايكره [٢].

وقال القرطبي:الأذى كناية عن القَذَرعلى الجملة ،ويطلق على القول المكروه [٣].

وقال الجوهري: يقال:آذاه يُؤذيه فأذِي هو أذىً، وأذاةً وأَذِيّةً ،وتأذيتُ به[٤].

والأذى اصطلاحا:

قال الراغب :الأذى مايصل إلى الحيوان من الضرر إما في نفسه أو جـسمه ، أو تبعاته دنيويا كان ذلك أوأُخرويا [٥].

---

(١) مقاييس اللغة (١/٧٨).
(٢) ينظر:المفردات للراغب (١٥)
(٣) ينظر:الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣/٢٢٢)
(٤) ينظر:الصحاح (٦/٢٢٦٦)، مقاييس اللغة لابن فارس (١/٧٨)
(٥) ينظر: المفردات للراغب (١٥)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ذكر المُناويُّ هذا التعريف مع تعديل يسير يمكن الرجوع إليه [(١)].

قال المطرزي[(٢)]: والأذى: مصدر، يقال: أذي أذًى[(٣)]، وقال الخليل[(٤)]: «الأذى: كل ما تأذيت به، يقال: أَذِيَ به أَذًى وتَأَذَّى » [(٥)]، أَنْشَد ثَعْلبٌ[(٦)]:

تَأَذِّيَ العَوْدِ اشْتَكَى أَنْ يُرْكَبَا[(٧)]

والاسْمُ: الأَذِيَّةُ والأَذاةُ، أَنْشَدَ سيبَوَيْه[(٨)]:

ولا تَشْتُمِ المَـوْلَى وتَبْلُـغْ أذاتَـه ... فإِنَّكَ إِن تَفعَلَ تُسَفَّهْ وتَجْهَـلِ[(٩)]

ورَجُلٌ أَذِيٌّ: شَديدُ التَّأَذِّي.

وقد آذَيْتُه، وآذَى الرَّجُلُ: فَعَل الأَذَى، وفي حَدِيث النَّبيِّ - ﷺ - لِلَّذِي تخطَّى

---

(١) ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف لابن المناوي (٤٣)

(٢) هو: ناصر بن عبد السيد أبي المكارم بن علي، أبو الفتح، برهان الدين الخوارزمي المطرزي، النحوي الأديب المشهور، وكان يقال: هو خليفة الزمخشري، صنف: شرح المقامات، المعرب في لغة الفقه، الإقناع في اللغة ، مختصر المصباح في النحو، وغير ذلك، ولد سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، ومات سنة عشر وستمائة.

ينظر:إنباه الرواة (٣/٣٤٠)، ووفيات الأعيان (٥/٣٦٩-٣٧١)، وسير أعلام النبلاء (٢٢/٢٨)،وبغية الوعاة (٢/٣١٠).

(٣) ينظر:المغرب في ترتيب المعرب (٣٤).

(٤) هو: الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرحمن: من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض. وهو أستاذ سيبويه النحوي، ولد سنة (١٠٠)، ومات في البصرة سنة (١٧٠)، وعاش فقيرًا صابرًا. كان شعث الرأس، شاحب اللون، قشف الهيئة، متمزق الثياب، متقطع القدمين، مغمورًا في الناس لا يُعرف. من تصانيفه: كتاب العين، ومعاني الحروف، وغيرهما.

ينظر: وفيات الأعيان (١/١٧٢)، إنباه الرواة (١/٣٤١).

(٥) العين (٨/٢٠٦)،وينظر: وتهذيب اللغة (١٥/٣٩)، والمحكم والمحيط الأعظم (أذي) (١٠/١٢١، ١٢٢)، ولسان العرب (أذي)، والقاموس المحيط ص (١٦٢٥)، وبصائر ذوي التمييز (٢/٧٢، ٧٣).

(٦) هو: أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب، إمام الكوفيين في النحو واللغة، وكان راوية للشعر، محدثًا، مشهورًا بالحفظ وصدق اللهجة، من مصنفاته: الفصيح، المصون في النحو، اختلاف النحويين، معاني القرآن والقراءات، غريب القرآن، إعراب القرآن، وغيرها. توفي سنة إحدى وتسعين ومائتين هـ.

ينظر: بغية الوعاة (١/٣٩٦ - ٣٩٨)، تذكرة الحفاظ (٢/٢١٤).

(٧) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (أذي) (١/٥٤)، وتاج العروس (أذي) (٣٧/٥٨)، والمحكم (١٠/١٢١).

(٨) هو: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب بـ ((سيبويه))، إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو، ولد في إحدى قرى شيراز سنة ١٤٨هـ، صنف كتابه المسمى «كتاب سيبويه» في النحو، لم يصنع قبله ولا بعده مثله، ورحل إلى بغداد، فناظر الكسائي، وأجازه الرشيد بعشرة آلاف درهم، وعاد إلى الأهواز فتوفي بها سنة ١٨٠هـ.

ينظر: طبقات النحويين ص (٦٦-٧٤)، ووفيات الأعيان (١/٣٨٥)، وتاريخ بغداد (١٢/١٩٥).

(٩) البيت من الطويل، وهو لجرير في ملحق ديوانه، ص (١٠٣٦)، والرد على النحاة، ص (١٢٧)، والكتاب (٣/٤٢)، ولجحدر العكلي أو للخطيم بن الملاص في شرح أبيات سيبويه (٢/١٣٤، ١٨٨)، وبلا نسبة في أمالي ابن الحاجب (١/٣١٤)، وشرح المفصل (٧/٣٤)، ولسان العرب (أذى) (١٤/٢٧)، وتاج العروس (أذى).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رِقابَ النّاسِ يومَ الجُمُعَةِ: ((اجلس فقد آذَيْتَ! [١]))[٢].

وآذاه إيذاء: أصابــــه بأذى، والأذى - أيضًا -: الضرر غير الجـــسيم[٣]، قـــال تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗى ﴾ [آل عمران: ١١١].

وقالَ الخطابيُّ[٤]: الأَذَى: الشَّرُّ الخَفِيفُ، فإن زَادَ فهو ضَرَرٌ.

وقال الشاعر:

لَقَــدْ أَذُوا بِــكَ وَدُّوا لــو نُفــارِقُهم   أَذَى الهَراسةِ بينَ النَّعْلِ والقَــدَمِ[٥]

وقالَ امرؤ القيس[٦]:

وإذا أَذِيــــتُ ببَلْـــدَةٍ فارَقْتُهـــا   أَو لا أُقِــيم بغَــيرِ دَارِ مُقــام[٧]

ويقال: أذي بكذا: تضرر به وتألم منه؛ فهو أذٍ.

والأَذيُّ كغَنِي: الشَّديدُ التَّأَذِّي، فعْلٌ لازمٌ، ويُخَفَّــفُ فيقــالُ: رجُــلٌ أَذٍ، قـــال الزبيدي[٨]: «وشاهِدُ التَّشْديدِ قَوْلُ الرَّاجزِ:

---

(١) ينظر: العين (٨/٢٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١/٢٩٢) كتاب الصلاة، باب: تخطي رقاب الناس يوم الجمعــة (١١١٨)، والنــسائي (٣/١٠٣) كتاب الجمعة، باب: النهي عن تخطي رقاب الناس والإمام على المنبر.

(٣) ينظر: المعجم الوسيط (١/١٢).

(٤) هو: حمد - بفتح الحاء وسكون الميم، وقيل: اسمه أحمد - ابن محمد بن إبراهيم بن الخطاب، أبــو ســليمان البــستي المعروف بالخطابي، كان رأسًا في علم العربية والفقه والأدب وغير ذلك، من تصانيفه: «معالم السنن»، تكلم فيهــا على سنن أبي داود، و«أعلام البخاري» و«غريب الحديث»، و«شرح أسماء الله الحسنى»، و«الغنية عــن الكــلام وأهله»، وكتاب «العزلة»، وله شعرٌ حسن، نقل عنه النووي في «التهذيب» شيئا في اللغة، ثم قال: ومحله من العلــم مطلقًا ومن اللغة خصوصًا الغاية العليا، توفي بــ «بست» في ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة.

ينظر: طبقات ابن قاضي شهبة (١/١١٦)، طبقات السبكي (٢/٢٨٢).

(٥) البيت بلا نسبة في لسان العرب (أذي) (١/٥٤)، وتاج العروس (أذي) (٣٧/٥٨).

(٦) هو: امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي، من بني آكل المرار، من الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية، وهو أشــعر شعراء العرب على الإطلاق، يماني الأصل، من كندة: شاعر مخضرم من أهل حضر موت، وأسلم عند ظهور الإسلام، ولد في نجد سنة ثلاثين ومائة ق. هــ، وكان أبوه ملك أسد وغطفان، ويعرف باسم «الملك الضليل».

ينظر: الشعر والشعراء (١/١١١، ١٤٢)، وخزانة الأدب (١/١٦٠)، وتاريخ دمــشق (٢/٤٦)، وطبقــات فحول الشعراء، للجمحي (١/٥٢، ٨١- ٩٦)، والأغاني (٩/٧٧- ١٠٧)، تاريخ الشعراء الحضرميين (١/٤٤).

(٧) البيت من الكامل، وهو بلا نسبة في لسان العرب (أذي) (١٤/٢٧)، وتاج العروس (أذى).

(٨) هو: محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، أبو الفيض الملقب بمرتضى، ولد سنة خمــس وأربعــين ومائة وألف، من علماء اللغة والحديث، والرجال والأنساب، ومن كبار المصنفين، أقام بمصر، واشتهر فــضله، مــن تصانيفه: «إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين»، «وتاج العروس»، وغير ذلك. توفي بالطاعون في مصر سنة خمس ومائتين وألف.

ينظر: تاريخ الجبرتي (٢/١٩٦)، وفهرس الفهارس (١/٣٩٨) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُصاحبُ الشَّيطانَ مَنْ يُصاحبُه

فَهْوَ أَذيٌّ حَمَّةٌ مُصاوِبُه[١]»[٢]

وقد يكونُ الأَذيُّ: الشَّديدُ الإِيذاءِ؛ فهو من الأضداد.

والتأذي: أن يؤثر فيه الأذى، وقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «إياك والتأذي بالناس»[٣]. يراد به النهي عن إظهار أثره؛ لأنه هو الذي في ملكته.

أما عن استعمال هذه المادة في القرآن، فقد ورد لفظ «الأذى» بمعان عدة منها[٤]:

الأول: بمعنى الحرام، قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

الثاني: بمعنى القَمل، قال تعالى: ﴿ أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

الثالث: بمعنى الشدة والمحنة: ﴿ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ ﴾ [النساء: ١٠٢].

الرابع: بمعنى الشتم والسب: ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ﴾ [النساء:١٦]، ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ [آل عمران: ١١١]، ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

الخامس: بمعنى الزور والبهتان على البريء ﴿ كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ ﴾ [الأحزاب: ٦٩]، ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ [الصف: ٥].

السادس: بمعنى الجفاء والمعصية، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الأحزاب: ٥٧]؛ أي: يعصونهما.

السابع: شغل الخاطر وتفرقة القلب: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

الثامن: المنّ عند العطية: ﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

---

(١) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (أذي) (١٤/٢٧)، وتاج العروس (أذي).

(٢) تاج العروس (أذي) (٣٧/٥٨ -٦٠).

(٣) العقد الفريد (١/٨٥).

(٤) ينظر :بصائر ذوي التمييز (٢/٧٢-٧٣)، نزهة الأعين النواظر (١٦١-١٦٢)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التاسع : بمعنى العذاب والعقوبة: ﴿ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠].
العاشر : بمعنى غيبة المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ ﴾ [الأحزاب:٥٨].

ومما سبق يمكن أن أجمل العلاقة بين الإساءة والأذى اقترابًا وافتراقًا من حيث البنية، والدلالة، فيما يلي:

أولاً: أوجه التشابه بين كل من الإساءة والأذى:

أنه يجمع كُلاًّ منهما صفةُ الكراهة ونفرة النفس منه؛ فلا شك أن كلًّا من المتأذي والمساء إليه يكرهان ما وقع عليهما من إساءة أو أذى.

كما قد تتعاور دلالة كل منهما فيما إذا جاء بمنأًى عن صاحبه؛ فيُعنَى بالأذى: الإساءة، والعكس، كلٌّ من اللفظين للدلالة على معنى مجازي واحد؛ ففي الآيات السابق ذكرها استعمل كلٌّ من «السوء» و«الأذى» في الدلالة على أربعة معان متحدة بينهما، وهي: العذاب، والشدة، والمعصية، والشتم.

ثانيًا: أوجه التخالف:

أما أوجه الخلاف بين «الإساءة»، و«الأذى» فيمكن بيانها من جانبين:

الجانب الصرفي: يفترق كل من «الإساءة» و«الأذى» صرفيًّا من عدة نواحٍ، أهمها:

- أن فعل الإساءة -وهو: «ساء»- فعل أجوف بابه «نصر»، أما فعل الأذى -وهو: «أذي»- فهو فعل ناقص بابه فرِح.

- أن الفعل «ساء» يدخله من أحرف الزيادة: الهمزة فقط، فيقال: «أساء»، أما الفعل «أذي» فتدخله الزيادة عن طريقين: أولهما: زيادة ألف الجعل أو التصيير؛ فيصير: «آذى»، وثانيهما: زيادة التاء وتشديد عينه، فيصير «تأذَّى» على وزن «تَفعَّل».

- أن الفعل «أذي» إن استخدم مجردًا عن الزيادة، فهو لازم لا يتعدى إلا بالحرف، كما يُستخدم المتعدي منه استخدام الفعل اللازم فيقال: آذى الرجلُ، بمعنى: فَعَلَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأذى[١].

أما «ساء» فهو يستخدم لازمًا ومُتعديًا؛ سواء أكان مزيدًا فيه «أساء»، أم كان مجردًا عن الزيادة «ساء»، فيقال - كما سبق -: أساء فلانٌ: أتى بسيئ، وأساء الشيءَ: لم يُحسن عملَه، ويقال: ساءه[٢]؛ كما يعدى بالحرف.

- أن مصدر «أساء» مصدر قياسي هو «الإساءة»، أما «الأذى» فمصادرفعله: أذى وأذاة وأذية، وكلها أسماء مصادر وليست مصادر، وقياس مصدره (الإيذاء) لكنه لم يُسمع في كلام العرب؛ فلذلك قال صاحب القاموس: لا يقال: إيذاء [٣]، وقال الراغب: يقال: إيذاء [٤]، ولعل الخلاف مبني على الخلاف في أن القياسي يصح إطلاقه ولو لم يسمع في كلامهم، أو يتوقف إطلاقه على سماع نوعه من مادته، ومن أنكر على صاحب القاموس فقد ظلمه، وأيًّامًّا كان فالإيذاء لفظ غير فصيح لغرابته، ولقد يعد على صاحب الكشاف استعماله هنا وهو من هو في علم البلاغة[٥].

<u>الجانب الدلالي:</u>

لكل من «الإساءة» و«الأذى» خصائص لغوية تميزها عن صاحبتها، ومن هذه الخصائص:

- أن الأصل في السوء: القبح؛ كما ذكر ابن فارس، ويقول أبو حيان[٦]: «معنى: «ساءه» أحزنه، هذا أصله، ثم يستعمل في كل ما يُستقبح»[٧].

---

(١) ينظر: العين (٨/٢٠٦).

(٢) ينظر: تاج العروس (سوأ) (١/٢٧٠).

(٣) ينظر: القاموس المحيط (١٦٢٥) ومابعدها

(٤) ينظر: المفردات للراغب (٢٤)

(٥) ينظر: التحرير والتنوير (٣/٢٠١، ٢٠٢).

(٦) هو: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الغرناطي الأندلسي الجياني، النفزي، أثير الدين، أبو حيان: من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. ولد في إحدى جهات غرناطة سنة أربع وخمسين وستمائة، ورحل إلى مالقة. وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة. وتوفي فيها سنة خمس وأربعين وسبعمائة هـ، بعد أن كُف بصره ، واشتهرت تصانيفه في حياته وقرئت عليه. من كتبه: البحر المحيط في تفسير القرآن، تحفة الأريب في غريب القرآن، منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك.
ينظر: الدرر الكامنة (٤/٣٠٢)، وفوات الوفيات (٢/٢٨٢)، وغاية النهاية (٢/٢٨٥)، وشذرات الذهب (٦/١٤٥).

(٧) تفسير البحر المحيط؛ لأبي حيان (١/٣٤٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وليس كذلك في «الأذى»؛ فإنه يطلق على الشيء الذي يُكره مطلقًا؛ سواء أكـان قبيحًا أم لا؛ والدليل على أن «الأذى» لا يختص بالقبيح قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ [النساء: ١٦]، والله - عز وجل - لا يأمر بقبيح؛ كما أن الأذى قد يكون بالضرب؛ لغرض التأديب، أو بغير ذلك مما لا يقبح.

- أن الأذى لا يشترط فيه صحة التأثير على الذي وُجِّه إليه فعل الأذى؛ والـدليل على ذلك قولـه- تعـالى- : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقولـه - تعـالى - في الحـديث القدسي: «يوذيني ابن آدم»[(١)]، ومعلوم أن الشر لا يصل إلى الله، يقـول القـرطبي[(٢)]: معناه: يخاطبني من القول بما يتأذى به من يجوز في حقه التأذي، والله منزه عن أن يـصير إليه الأذى، وإنما هذا من التوسع في الكلام. والمراد أن من وقع ذلك منه تعرض لسخط الله عز وجل. وقال الطيبي[(٣)]: الإيذاء: إيصال المكروه إلى الغير قولاً أو فعلاً؛ أثَّر فيه أو لم يؤثر. وإيذاء الله عبارة عن فعل ما يكرهه ولا يرضى به، وكذا إيذاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم - [(٤)]. قال زين الدين العراقي[(٥)]:« وأحسن النووي[(٦)] التعبير عن ذلـك

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨/٨)، كتاب التفسير، باب: سورة الجاثيـة، حـديث (٤٨٢٦)، ومـسلم (١٧٦٢/٤)، كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب: النهي عن سب الدهر، حديث (٢٢٤٦/١).

(٢) هو: أحمد بن عمر بن إبراهيم أبو العباس الأنصاري القرطبي، ولد سنة ثمان وسبعين وخمسمائة هـ، فقيه مـالكي من رجال الحديث يعرف بابن المزين، من تصانيفه: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، واختصار صحيح البخاري. توفي بالإسكندرية سنة ست وخمسين وستمائة هـ.
ينظر: نفح الطيب (٦٤٣/٢)، والبداية والنهاية (٢١٣/١٣).

(٣) هو: الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطيبي، بكسر الطاء. الإمام المشهور العلامة في المعقول والعربيـة والمعاني والبيان، من علماء الحديث والتفسير والبيان. قال ابن حجر: كان آية في استخراج الدقائق من القـرآن والسنن، مقبلاً على نشر العلم، متواضعًا حسن المعتقد، شديد الرد على الفلاسفة والمبتدعة. من تصانيفه: شـرح الكشاف، التفسير، التبيان في المعاني والبيان، شرح التبيان ، شرح المشكاة،وغير ذلك . صلى النافلـة، وجلـس ينتظر الإقامة للفريضة، فقضى نحبه، متوجهًا إلى القبلة، وذلك يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة.
ينظر: بغية الوعاة (٥٢٢/١)، الدرر الكامنة (٦٨/٢)، البدر الطالع (٢٢٩/١)..

(٤) ينظر: عمدة القاري (١٦٧/١٩).

(٥) هو: عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم، زين الدين أبو الفضل، العراقي الأصل، ولـد في جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وسبعمائة، ومن تصانيفه: نكتًا على ابن الصلاح، وشرع في تكملة شـرح الترمذي تذييلا على ابن سيد الناس، توفي في شعبان سنة ست وثمانمائة.
ينظر: طبقات ابن قاضي شهبة (٢٩/٤).

(٦) هو: يحيى بن شرف بن مري بن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام، الفقيه، الحـافظ، الزاهـد، أحـد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مختصرًا بقوله معناه يعاملني معاملة توجب الأذى في حقكم»[1].

- أنه بالنظر إلى مواضع استعمال كُلٍّ من «الأذى» و«الإساءة» يتبين أن لفظ «الإساءة» له شبه اختصاص بالإنسان أو ما يعقل بوجه عام، ولا يقال للحيوان أو ما لا يعقل: إنه أساء لفلان، بل يقال: آذاه.

- أن الأصل أن يطلق «الأذى» على الضرر أو الشر الخفيف، حتى قال ابن عاشور[2]: «الأذى أعم من التكذيب؛ لأن الأذى هو ما يسوء ولو إساءة ما؛ قال تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ [آل عمران: ١١١]، ويطلق على الشديد منه»[3].

- أن الأغلب في استعمال «الأذى» أن يكون موجهًا إلى شيء خارجًا عنه، أما «الإساءة» فتأتي أحيانًا في نفس الشيء، وأحيانًا تكون صادرة عنه.

- أن السوء أكثر استعمالًا من الأذى، وورد له إطلاقات مجازية تفوق بها استعمال الأذى، وإن كان ميل «الإساءة» للأمور المعنوية أكثر من «الأذى»، فيقال -بالإضافة إلى ما سبق-: أساء الظن، وأساء خُلُقَه.

- يشعر كلام الفقهاء حول الأدب مع القاضي أن «الأذى» أخف وأيسر من «الإساءة»، يقول ابن فرحون[4]: «إذا لمزه -أي: القاضي- أحدُ الخصمين بما يكره؛ فقال له: ظلمتني! وأراد أذاه؛ فليعزره إذا كان القاضي من أهل الفضل. والعقوبة في مثل

الأعلام، شيخ الإسلام، محيي الدين، أبو زكريا، الحزامي النووي، ولد في المحرم سنة إحدى وثلاثين وستمائة، كان – رحمه الله – على جانب كبير من العلم والزهد، وكان كثير السهر في العبادة والتصنيف، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، من تصانيفه: الروضة، والمنهاج، وشرح المهذب، وغير ذلك من المصنفات المشهورة النافعة، توفي في رجب سنة سبع وسبعين وستمائة.

ينظر: طبقات ابن قاضي شهبة (١٥٣/٢)، طبقات السبكي (٣٩٥/٨).

(١) طرح التثريب في شرح التقريب (١٥٠/٨).

(٢) محمد الطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة، ولد سنة ست وتسعين ومائتين وألف هـ، عين شيخًا للإسلام مالكيًّا، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. من تصانيفه: مقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، والتحرير والتنوير، والوقف وآثاره في الإسلام، وغير ذلك. توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف هـ.

ينظر: مجلة المنهل (٧٩٢/٣٩)، الأعلام، للزركلي (١٧٤/٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٠١/٣).

(٤) هو: إبراهيم بن علي بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن فرحون. فقيه مالكي، ولد بالمدينة سنة (٧١٩) ونشأ بها، وتفقه وولي قضاءها، كان عالمًا بالفقه والأصول والفرائض وعلم القضاء. من تصانيفه: تسهيل المهمات في شرح جامع الأمهات، وتبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام.

ينظر: نيل الابتهاج (٣٠-٣٢)، وشذرات الذهب (٣٥٧/٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا أمثلُ من العفو، وهذا في اللمز، وأما إذا صرح بالإساءة على القاضي، فظاهر كلام مالك[1] أن هذه المسألة يجب فيها تأديب القائل»[2].

بقي أن أقول أن من مضار الإساءة أنها خلق ذميم ،وسلوك مشين ، تُذهب حلاوة الإيمان ،ونور الإسلام ، وهي معول هدّام وشر مستطير تؤذي وتضر، وتجلب الخصام والنفور، وهي طريق موصل إلى غضب الله وسخطه، فالمسيء بعيد عن الله بعيد من الناس.

وأما الأذى فلا تختلف مضاره عن مضار الإساءة كثيرا فهو سبب في سخط الله – عز وجل – على العبد ؛فالمؤذي يمقته الله ويمقته الناس ويعيش في المجتمع منبوذا فريدا يخاف الناس أذاه فيكرهون مخالطته ومصاحبته ، وإذا كثر المؤذون في المجتمع وسكت الناس عنهم فسدت أحواله وآل إلى الزوال .

فالأذى يسبب العداوة والبغضاء بين المسلمين ، وهو دليل سوء الأخلاق وانحطاط النفس وخُبثها .

****

(١) هو: الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي أبو عبد الله المدني، أحد أعلام الإسلام، وإمام دار الهجرة. روى عن نافع، والمقبري، ونعيم بن عبد الله، وابن المنكدر، ومحمد بن يحيى بن حبان، وإسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، وأيوب، وزيد بن أسلم وخلق، قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، وتوفي سنة تسع وسبعين ومائة، ودفن بالبقيع.

ينظر: تهذيب التهذيب (١٠/٥)، سير أعلام النبلاء (٨/٤٨)، تقريب التهذيب (٢/٢٢٣).

(٢) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام،لابن فرحون (١/٤١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الباب الأول

بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة

<u>ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول:</u>

<u>الفصل الأول</u> : بلاغة القرآن الكريم في سياق التعبير عن الإساءة في بيان أفعال المسيئين وأقوالهم .

<u>الفصل الثاني</u> : بلاغته في التعبير عن الإساءة في سياق التنفير منها والبراءة من المتصفين بها.

<u>الفصل الثالث</u> : بلاغته في التعبير عن الإساءة في سياق الجزاء وعدا ووعيدا وعدلا.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الأول

بلاغة القرآن الكريم في سياق التعبير عن الإساءة في بيان أفعال المسيئين وأقوالهم

يتناول هذا الفصل من الباب الأول الحديث عن بلاغة القرآن الكريم في سياق التعبير عن الإساءة في بيان أفعال المسيئين وأقوالهم ، وقد عملت على جمع تلك الآيات التي ورد فيها لفظ الإساءة في هذا السياق ، وهأنذا أعرضها محاولة – قدر طاقتي – تجلية بلاغة القرآن في التعبير عن تلك الإساءة سواءً أكانت بالقول أو بالفعل مستعينة بالله .

ومما ورد فيه لفظ الإساءة في سياق التعبير عن أفعال المسيئين وأقوالهم قوله – تعالى- : M فَطَوَّعَتْ لَهُۥ ´ µ ¶ ¸ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ L [المائدة : ٣٠ – ٣١] .

كشفت الآية الكريمة عن الإثم العظيم والجريمة المنكرة التي ارتكبها قابيل بقتل أخيه الصالح هابيل الذي لا دخل له في عدم قبول قربانه ، فقتله بعد أن بذل له من النصح والإرشاد والترغيب والترهيب فما زاده ذلك إلا الإصرار على الظلم والعدوان والفساد، فأصبح بسبب جريمته النكراء التي لا مبرر لها إلا الحسد والحقد من الخاسرين الذين خسروا دنياهم وأخراهم ، وخسروا أنفسهم فأفسدوا فطرتها ، وعذبوها بالحزن والألم لفراق أقرب الناس إليها وأعوانهم على بأساء الحياة وشدائدها ، وذلك هو الخسران المبين ، وهذه الآية بيان لأول مشاهد العلم على الأرض اكتسبه البشر بالتقليد والتجربة ، بحيث تلقى قابيل معارفه من عوالم أضعف منه ، وفي ذلك عبرة لأولي الألباب(١) .

كانت هذه نهاية الحوار في قصة ابني آدم هابيل وقابيل ، فقد رغب قابيل عن حظه المقسوم له وتطلعت نفسه إلى حظ أخيه هابيل فطلب أن يتركه له فأبى هابيل ونشب

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (٤ / ٥٣٨) ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦ / ٩٥) ، مفاتيح الغيب للرازي (١١ / ١٦٤) ، فتح القدير للشوكاني (٢ / ٣٥) ، المحرر الوجيز لابن عطية (٢ / ١٨١) ، معالم التنزيل للبغوي (٢ / ٢٥٥) ، البحر المحيط لأبي حيان (٣ / ٤٨١) ، مدارك التنزيل للنسفي (٤٠٥) ، وتفسير القاسمي (٦ / ١٦٢) ، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي (٧ / ٢٩٣) ، الدر المصون للسمين الحلبي (٢ / ٥١٤) ، التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٦ / ١٧٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بينهما خلاف فأرشدهما الله _لحسم هذا الخلاف_ بأن يتقدم كل منهما بقربان إليه تعالى، فمن قبل قربانه فاز بالأمر المتنازع عليه ، وهو الحظ الأوفر الذي هو حق لأخيه هابيل .

كان هذا الاقتراح جدير بحسم الخلاف لو صفت النفوس ورضيت بما قسم الله ، ولكن الهوى غلب على نفس هابيل ، فما إن ظهر أمر الله بقبول قربان أخيه حتى نكص على عقبيه ، ولم يرض بقضاء الله ، فانطلق يهدد أخاه بالقتل ، ولم يقتنع برد أخيه بأن ذلك أمر الله وقضاؤه ولا دخل له فيه ؛ فهو – جل شأنه – إنما يتقبل من المتقين ، فراجع نفسك ؛ وارجع إلى ربك ، وارض بما قسمه لك . ولكن هيهات أن يُصغي مَنْ غلبه الهوى إلى صوت العقل ، فانقاد وراء نفسه التي زينت له قتل أخيه ، فأقدم على قتله غير عابئ بما يكون بعد ذلك ، فعصى ربه وأهلك نفسه .

وهنا بعث الله هذا الطائر القبيح المنظر الذي لا تهش النفوس لمرآه .

أجل بعث الغراب ينبش الأرض بمنقاره وأظافره الضعيفة ، لكي يرى هذا الإنسان الحقود كيف يواري سوأة أخيه ، وأدرك جهله ، وحمقه ، وندم على فعلته ، ولكن ليت ساعة مندم .

هذه هي الحلقة الأخيرة ، والمشهد الحزين لهذه القصة ، أما معالجة القرآن لها وروعة بلاغته في التعبير عنها فهذا ما أحاول بيانه فيما يلي والله المستعان .

بالنظر إلى المفردات لا يجد القارئ كلمة غريبة تدعو إلى استشارة معجم لغوي ، ولا صعبة تستعصي على اللسان ، ولا منحرفة عن المسموع من اللسان العربي الأصيل ، لكن تطالعه كلمتان فيهما ملمح أدائي يحتاج إلى شيء من النظر :

أولاهما : ماثلة في الفعل (طوعت) حيث أوثر على ما يقاربه معنى وهو : زينت، أو سولت ؛ لأن أياً منهما لا يدل على مقاومة فهما لا يَعْدُوَانِ تصوير القبيح في صورة الحسن [1] بخلاف (طوعت) فإنه يدل على مغالبة ، لوجود إباء فيمن تحاول دفعه إلى

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن – كتاب السين ،(٢٥٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فعل ما يأبى فعله فكأن قابيل كان يغالب نفسه ، وتغالبه إلى أن انتزعت منه كل مقاومة ، فانقاد لها ؛ ولذلك لم يفسره الزمخشري بالتزيين كما فعل غيره بل قال : " فطوعت له نفسه قتل أخيه فوسعته له ، ويسرته من طاع له المرتع إذا اتسع " [١]، ولا جرم فالقتل جريمة لا تعدلها جريمة أخرى ، ولذلك لا يُقدم المرء على القتل إلا بعد تفاعلات وجدانية هائلة تذوب معها كل الوسائل المانعة من ارتكاب هذا الفعل ؛ ولهذا عدا القرآن قتل النفس بغير حق قتلاً للناس جميعاً : M ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 L [المائدة :٣٢] .

وثانيتهما : كلمة (بعث) ، فقد أوثر هذا الفعل على ما يقاربه ، وهو قَيَّض ، أو هيَّأ ، أو سوى ذلك مما يترجم معناه ؛ لأن في البعث معنى أوسع من التقييض ، أو التهيئة، وهو الإيحاء والتوجيه وكأنه – جل شأنه – كلف هذا الغراب القيام بهذه المهمة، وناطه بها ليقوم بأدائها قهراً ، ومن غير اختيار ، فإن نبشه التراب ؛ لعلّة هي تعليم من أقدم على جريمته أنه أعجز من أن يداريها ، وأنه كان مُغيب العقل حين ارتكبها .

ذكر المسند إليه (الله) بلفظه في قوله – تعالى - : Mفَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا L ؛ لإفادة التعظيم وكمال القدرة مع الرحمة الإلهية [٢] ، وجعل المتعلق (غراباً) لما فيه من السواد المشير إلى حال القاتل ، فإن الغراب من الطيور التي ينفر منها الناس،بل ويقتله كل من يقدر عليه ، ومن ثَمَّ سمي الغراب : البيْن ، ودفع الناس إلى التشاؤم من هيئته وصوته، ثم وصف الغراب بجملة Mيَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ L والمضارع لتصوير ما كان منه ، فإنه يفتش الأرض ويزيح التراب على التوالي مع السرعة واستعمال القوة ؛ لإخلاء مكان يضع فيه الغراب الذي قتله ، ثم يُهيل التراب عليه مواريًا وساتراً لجثة المقتول .

ثم علل هذا الفعل (المسند) بما يترتب عليه من التعليم لقابيل فقال - سبحانه - Mلِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِ L ، والمسند " أرى يُرى " يفيد التعليم بطريق التجربة المرئية ، ولذا قال (كيف) ، أي : كيفية ستر الجثة لأنها سوأة وعورة وفضيحة . ومن هنا قال بعضهم : إن (كيف) مجردة عن الاستفهام يراد منها " الكيفية" ، وإذا كانت

---

(١) الكشاف للزمخشري (٦/ ٢٨٧) .

(٢) ينظر : نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (٢ / ٤٤٨) ، روح المعاني للألوسي (٤ / ٤٥٧ – ٤٥٨ – ٤٥٩) ، تفسير البيضاوي (١٧٨) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للاستفهام كان المعنى " ليريه بالبحث في الأرض " ، وهو جواب : كيف يواري سوأة أخيه ؟ .

كما أن في إضافة السوأة إلى أخيه زيادة تأسيف له ، وإنكار على فعلته الشنيعة ، فإنه لم يقتل واحداً بعيداً عنه غريباً عليه ، بل قتل أخاه ، وهذا هو الذي دعاه إلى حمله على عاتقه حتى أراحه الله ببعث الغراب لتعليمه دفنه في التراب .

واستعمال الفعل (وارى) بوزن فاعل ، يفيد أن المعنى فيه اشتراك اثنين ؛ لأن الحدث بينهما ، فكل منهما يريد أن يتوارى ويستتر بصاحبه بحيث لا يرى واحد منهما الآخر ، وهذا دليل على شناعة فعل القتل (١) ، ومازال شنيعاً ، والمسند إليه في " ليريه" هو : الغراب ، وهو الأظهر ؛ لأن الضمير يعود على أقرب مذكور ، ويكون الإسناد في الإراءة إلى الغراب مجازاً عقلياً (٢) ؛ لأن الغراب وما صنع سبب في تعليم الإنسان الأول كيفية مواراة الميت تحت مستوى سطح الأرض ؛ ليكون هذا العمل قائماً إلى يوم القيامة، على مستوى الشريعة الإلهية من لدن آدم إلى قيام الساعة .

أما إذا جُعل المسند إليه الفعل هو (الله) فهو حقيقة عقلية ؛ لأن المعلم في الأصل هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، فمن اتقاه تولاه ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، وجعل له ولاية على ما يعلم ، والله بكل شيء عليم .

فماذا قال قابيل حينما رأى الغراب يفعل ذلك ؟ إنه يقول متحسراً ومنكراً على نفسه مع التعجب : ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ [المائدة: ٣١] . فقد صدر كلامه بما يدل على أن الحزن ملكه ، وملأه ، حتى أصدر لسانه حكماً بالهلاك عليه ، داعياً الهلاك أن يَحْضُره ، فإن حياته صارت لا قيمة لها وقد قتل أخاه " هابيل" ، وهذه الكلمة " يا ويلتي " قالها بعدما رأى الغراب أعلم منه ، وأشفق ، فهذه الكلمة لا تكون إلا مع الأسف الشديد لفعل منكر عليه شديد الوعيد .

فجملة (يا ويلتي) جملة إنشائية طلبية ، نداء خرج لغرض التحسر والتفجع من أثر شيء ندمت عليه النفس وملأها بالحزن ، والمعنى : يا ويلتي احضري فهذا أوانك ، فقد بلغ به الحزن مبلغاً طلب معه الهلاك حتى يخلص من الحياة ، واستعملت هذه الصيغة في

---

(١) ينظر : تفسير البيضاوي (١٧٨) ، والتحرير والتنوير (٦ / ١٧٣) .
(٢) ينظر : الكشاف للزمخشري (٦ / ٢٨٧) ، التحرير والتنوير (٦ / ١٧٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدعاء بالويل والثبور في مقام الانفعال بالحزن والأسى الذي ملأ النفس ، وكأنه يرى عجباً فدعا على نفسه بالهلاك ، فهي من صيغ الاستغاثة المستعملة في التعجب ، وتقال على اللسان في هذا المقام .

كذلك في قوله - تعالى -: Mأَعَجَزْتُ L جملة إنشائية طلبية خرج الاستفهام فيها لغرض الإنكار والتعجب والتوبيخ لنفسه الأمارة بالسوء التي قتلت نفساً بغير نفس ، فكأنه قتل الناس جميعاً – وقد كان – فلا يوجد سوى هذه الأسرة الأولى في الأرض .

وقد تكرر الوصل في الآيتين بالربط بالفاء التي تفيد السببية تارة وتفيد التعقيب تارة أخرى .

ففي تتالي الأفعال (فطوعت ... فقتله ... فبعث ... فأواري ... فأصبح) ووصلها بالفاء تفيد التعقيب أي أنه لم تكن هناك مهلة بين حدوثها ، والفاء في قوله - تعالى -: M فَطَوَّعَتْ L دلت على التفريع[1] والتعقيب ، والمفرّع منه محذوف ، تقديره : فتردّد ملياً ، أو فترصد فرصاً فطوعت له نفسه .

وفي قوله - تعالى - : Mفَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا L الفاء سببية تدل على أن ما قبلها سبب فيما بعدها ، لأنه أول قتل وقع في الأرض ، فكان سبباً في بعث الغراب ليريه كيفية الدفن ، وليصير بعد ذلك الدفن سنة بشرية إلى يوم الدين .

---

(١) التفريع : عرفه القزويني بقوله:"هو أن يثبت لمتعلق أمر حكم بعد إثباته لمتعلق له آخر".

وهو ضربان: الأول: أن تأتي بالاسم منفيا بما ، وتتبعه بمعظم أوصافه اللائقة به، ثم تخبر عنه بأفعل التفضيل موافقا لمعنى الأوصاف معدى بمن ،فيفرع من ذلك مبالغة في مدح المجرور بها أو ذمة. وأكثر مايجيء منه في بيتين فصاعدا ،كقول الأعشى :

ما روضةٌ من ريـــاض الحَزْنِ معشبةٌ   خضراء جـــاد عليها مُسْبِلٌ هَطِلُ
يضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شرقٌ   مؤزرٌ بعميـــم النَّبْـــت مُكْـــتَهِلُ
يومـــاً بأطيبَ منها نـــشرَ رائـــحة   ولا بأحسن منـــها إذ دنا الأُصُلُ

الضرب الثاني: أن تأتي للممدوح أو غيره بصفة يقرب منها أبلغ منها في معناها ، فيذكرك به فتفرعه منها .نحو قول الكميت:

أحلامُكُم لسقام الجهلِ شافيةٌ   كما دماؤكم تشفي من الكَلَبِ

فوصف شيئا ، ثم فرّع شيئا آخر لتشبيه شفاء هذا بشفاء هذا أي : فرع منهم، ومن وصفهم بشفاء أحلامهم لسقام الجهل وصفهم بشفاء دمائهم من داء الكلب .

ينظر: الإيضاح (٣٤٦) ،معجم البلاغة العربية (٥٠٢) وما بعدها ،المصباح (٢٣٨-٢٣٩) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والفاء في " فأواري" عاطفة على " أكون " لبيان سبب إنكاره وتعجبه ، وهذا الإنكار ينسحب على ما بعدها بالعطف أو بالسببية .

وفي قوله - عز من قائل - : ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ فاء العطف هنا أفادت السببية،أي : تسبب عن القتل ، وما كان بعده أنه صار من النادمين على فعلته ، وقد قال رسول الله - ﷺ - : " ومن سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة " (١) ، وكذلك قوله - صلوات الله عليه وسلامه - : " ولا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم هذا كفل من دمها بما سنَّ " (٢) .هذا ما لم يتب الفاعل وإلا تاب الله عليه ، وتحمل عنه ما كان منه (٣) .

وجملة : ﴿قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ فصلت عما قبلها لشبه كمال الاتصال أي: الاستئناف البياني (٤) ، جواباً لسؤال مقدر من الكلام السابق ، فكأنه قيل : فماذا قال حينما رأى الغراب يبحث في الأرض ويواري سوأة أخيه ؟ فجاء الجواب: ﴿قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ﴾ (٥).

ومن الصور البيانية في هاتين الآيتين ما جاء في قوله – تعالى - : (فطوعت) شُبِّه قتل أخيه بشيء متعاص عن قابيل ولا يُطيعه بسبب معارضته التعقل والخشية ، وشُبِهَت

---

(١) أخرجه مسلم (٢ / ٧٠٥) ، كتاب الزكاة ، باب : الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ، أو كلمة طيبة ، حديث (٦٩ / ١٠١٧) .

(٢) الحديث أخرجه البخاري معلقاً (٣ / ٤٩٤) ، كتاب الجنائز باب : قول النبي صلى الله عليه وسلم : " يعذب الميت ببكاء أهله عليه إذا كان النواح من سنته " قبيل حديث (١٢٨٤) .

(٣) ينظر : الكشاف (١ / ٦٢٦) ، نظم الدرر (٢ / ٤٤٨) ، البحر المحيط (٣ / ٤٨٠ ، ٤٨١) ، الدر المصون (٢ / ٥١٣) ، المحرر الوجيز (٢ / ١٨١) .

(٤) الاستئناف: من ائتنف واستأنف الشيء: أخذ فيه وابتدأه، الاستئناف عرفه التنوخي بقوله: هو الإتيان - بعد تمام كلام - بقول يفهم منه جواب سؤال مقدر. ثم تابع قوله: فمنه ما يكون بإعادة اسم أو صفة كقولك: «احترم زيدًا فزيد أهل للاحترام» أو «احترم سميرًا صديقك الصدوق» كأنه توهم أن قائلا يقول له: «لم يحترم سميرًا؟» فكان استئنافه كالجواب لذلك. ومنه قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٤، ٥]، والاستئناف هنا قوله: «الرحمن على العرش استوى»، وقد يكون الاستئناف بما ليس فيه إعادة اسم ولا صفة، كقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، فقوله: «بل فعله كبيرهم هذا» تم الجواب به، وقوله: ﴿ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ على الاستئناف، تنبيهًا على أن جوابه كان تهكمًا بهم وليس على حقيقته، وأن من لا ينطق كيف يفعل هذا بل كيف يكون.

ينظر: معجم البلاغة العربية (٥٣) وما بعدها .

(٥) ينظر : تفسير البيضاوي (١٧٨) ، والتحرير والتنوير (٦ / ١٧٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

داعية القتل في نفسه بشخص يُعينه ويذلل له القتل المتعاصي ، فكان (طوّعت) استعارة تمثيلية [١]، والمعنى الحاصل من هذا التمثيل أن نفس قابيل سوّلت له وقرّبت عليه قتل أخيه بعد ممانعة أي: سهّلت نفسه عليه ذلك حتى أتاه طوعا وانقاد إليه سمحا [٢].

وفي قوله - تعالى - : ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ نداء لما لا يعقل تشبيهاً له بما يعقل ، ولذا نادى على الويل والثبور ، فهذه استعارة مكنية شبه فيها الويل بما يعقل، ثم حذف المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه وهو : " يا " التي لنداء العقلاء تنزيلاً وتخييلاً لما لا يعقل بأنه صار من العقلاء ، فكان له ما لهم فنودي عليه .

وفي قوله – تعالى - : ﴿سَوۡءَةَ أَخِي﴾ السوأة هي : العورة والفضيحة ، ولما كانت السوأة واجبة الستر ، وكان الميت يصير بعد موته كله سوأة ، لأن الكل صار كالجزء بعد الموت ، وتغير البدن بالروائح الكريهة ، قال منبهاً على ذلك وعلى أنها السبب في الدفن بالقصد الأول ، ثم صارت على البدن كله ، فاستعمل الجزء وأريد الكل مجازاً مرسلاً بعلاقة الجزئية [٣] .

---

(١) ذكر السكاكي «الاستعارة التحقيقية» وعد التمثيل منها، وعدها ابن رشيق من باب «التمثيل»، وقال: ومن ضروب الاستعارة التمثيل، وهي المماثلة عند بعضهم، وذلك أن تمثل شيئًا بشيء فيه إشارة.

وعرفه القزويني بقوله: «وأما المركب فهو اللفظ المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة، كما يقال للمتردد في أمرٍ: إني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى؛ وهذا يسمى التمثيل على سبيل الاستعارة، وقد يسمى التمثيل مطلقًا».

وقال السيوطي: «هي أن يكون وجه الشبه فيها منتزعًا من متعدد، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] والمقصود: أن مثل الأرض في تصرفها تحت أمر الله وقدرته مثل الشيء يكون في قبضة الآخذ له منّا والجامع يده عليه». تسمى في حالة التركيب"التمثيل"أو" الاستعارة التمثيلية"، وهي مجاز مركب علاقته المشابهة،ومتى اشتهرت الاستعارة التمثيلية وكثر استعمالها صارت مثلا.

ينظر: معجم البلاغة العربية (٤٦٩-٤٧٠) .

(٢) ينظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي(٣٨)، التحرير والتنوير (٦ / ١٧٢) .

(٣) ينظر : تفسير روح المعاني للألوسي (٤ / ٤٥٧ – ٤٥٩) ، نظم الدرر للبقاعي (٢ / ٤٤٨) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الإساءة في سياق بيان أفعال المسيئين وأقوالهم قوله–تعالى - : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٠].

نزلت هذه الآية في المنافقين الذين تخلفوا بالمدينة حيث جعلوا يخبرون عن النبي - ﷺ - أخبار السوء ، يقولون : إنَّ محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم، وهلكوا ، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي - ﷺ - وأصحابه فساءهم ذلك ، فأنزل الله : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ الآية (١) .

هذا كشف للمستور من بغض المنافقين للنبي - ﷺ - والمؤمنين ، وإظهار للمخبوء من خبث بواطنهم وما انطوت عليه قلوبهم من حقد وحسد وبغضاء للمؤمنين.

فإنهم كانوا إذا أصاب النبي - ﷺ - في بعض الغزوات حسنة سواء أكانت انتصارًا وظفرًا، أو كانت غنيمة وفيئًا، أو كانت انقيادًا لبعض ملوك الأطراف وتخضيدا لشوكتهم ساءهم ذلك وأورثهم حزنًا شديدًا؛ لفرط حسدهم وعداوتهم، وإن حلت بالنبي مصيبة وشدة ونزل بالمؤمنين مكروه كهزيمة أو انكسار جيش ملأ الفرح نفوسهم، وجعلوا يقولون متبجحين بما صنعوا، وما كان منهم من ترك الخروج معه للقتال: ﴿ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا ﴾ يعنون بمقالتهم التخلف والقعود عن الحرب والمداراة مع الكفرة، وغير ذلك من أمور الكفر والنفاق قولاً وفعلاً، وانقلبوا إلى أهلهم مسرورين بما أصاب النبي والمؤمنين من السيئة (٢) .

وهذا نظير قوله في سورة آل عمران: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

والصلة الواشجة بين هذه الآية من سورة التوبة وما ورد قبلها أنها بيان واستدلال على كذب المنافقين فيما اعتذروا به وطلبوا الاستئذان لأجله،وهو قوله - تعالى -: ﴿ لَوْ

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول – السيوطي (١٥٤) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (٣٨٧/٦)، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١٨١١/٦)، المحرر الوجيز لابن عطية (٤١/٣)، معالم التنزيل للبغوي (٢٩٩/٢)، مفاتيح الغيب للرازي (٦٨/١٦)، مدارك التنزيل للنسفي (٦٥٦/١)، البحر المحيط لأبي حيان (٥٢/٥)، الدر المصون للسمين الحلبي (٤٧١/٣)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي(١١١/١٠)، فتح القدير للشوكاني (٤٢١/٢) ، تفسير القاسمي (٢٣٣/٨)، التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢٢٢/٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٤٢ - ٤٩] .

فكان قوله بعد ذلك : ﴿ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٠] ، بياناً لسبب إحاطة النار بهم ؛ وهو عداوتهم المكبوتة في صدورهم للمؤمنين ، فهم لا يودون ظهور أمرهم ويتمنون خيبتهم ، ومن ثم يشقيهم ما يظفر به المسلمون من خير ، ويسعدهم ما يلحق بهم من ضر .

ومقام الآية في هذه السورة: بيان علة إحاطة جهنم بهم، وأنها بسبب أنفسهم المريضة بحسب ما ظهر منهم كما تفيده الآية، فهم يحزنون إذا جاء الخير للمسلمين، ويفرحون عند المصيبة لهم .

كلمات هذه الآية مستوفية عناصر الفصاحة من الوضوح والسهولة ، وموافقة العرف العربي في الصياغة غير أن التعبير بالفعل (تصب) في جانب الحسنة والسيئة لافت للنظر ؛ ذلك أن المادة المأخوذ منها (ص ، و ، ب) تدور حول النزول ، والتوجه نحو شيء(ما) في اعتدال: فالصوب الانصباب ونزول المطر من السماء ، ومنه الصيِّب ، والمجيء من علٍ ، والصواب : إدراك الحق والوصول إلى الأمر الصحيح ، والإصابة وصول السهم إلى الرمية ونفوذه فيها ، ومنه المصيبة ، وهي الشر الذي يلحق الإنسان ، أي يترل به وهي أيضاً وجدان الشيء المطلوب ، فإصابة الحسنة الظفر بها ، وإصابة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السيئة لحاقها والتلبس بها [(١)].

فاستعمال هذا اللفظ في جانب الحسنة يومئ إلى ما يشعر به المؤمنون من الرضا وما يتبعه من الشكر ، وفي جانب السيئة يومئ إلى ما يشعرون به من الألم وما يستدعيه من الاحتمال والصبر ، والمنافقون على النقيض من هذا وذاك ، يستاءون إذا ظفر المؤمنون بما يرضيهم ، ويسرون إذا نزل بهم ما يؤلمهم .

وهناك كلمة أخرى لافتة للنظر وهي ضمير الخطاب للمفرد أعني الكاف في ﴿ تُصِبْكَ ﴾ . فإن القارئ يتساءل : هل المقصود بذلك الضمير النبي - ﷺ - والمؤمنون جميعا تبع له ، أو المقصود من يصح خطابه فيكون شاملاً للنبي - ﷺ - والمؤمنين جميعاً ؟ ومع صحة الغرض في الاحتمالين فإن الذي يلوح لي هو الاحتمال الأول ؛ ويعزز ذلك الأمر ﴿ قُل ﴾ في الآية التي تليها وهي قوله: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة : ٥١] ؛ فإنه موجه للنبي ﷺ وحده ، والمؤمنين تبع له كما يومئ إلى ذلك ضمير المتكلمين (نا) في ﴿ يُصِيبَنَآ ﴾ وفي قوله ﴿ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾.

والآن فقد وجب النظر في النظم ، والنظرة المتأنية في النظم تبرز الكثير من الومض البلاغي :

ففي الجملة الأُولى : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ تتراءى ﴿ إِن ﴾ الشرطية وهي تستعمل فيما يترجح بين أن يكون ، وأن لا يكون ، فهل إصابة الحسنة شيء مشكوك في حصوله أو هي منزلة المشكوك فيه وإن كان محققاً لغرض ؟

الذي يلوح لي أن حصول الحسنة أمر محقق لكن نزل تحققها منزلة المشكوك للإيماء إلى ما يعتمل في صدور المنافقين من تمني عدم حصول الحسنة أيا كانت للمؤمنين ، ويؤازر هذا تنزيل أمران :

الأول : إيراد المسند (تصب ، تسوء) فعلاً مضارعاً لإفادة التجدد والحدوث .

والثاني: تنكير المسند إليه ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ ؛لإفادة العموم والشمول فإنه يسوءهم حصول أي حسنة يسيرة أو عظيمة ، قليلة أو كثيرة في كل آن ، أعني أنه يتجدد استياؤهم بتجدد حصول الحسنة ، وكلما ظفر المؤمنون بحسنة اغتموا لذلك .

---

(١) ينظر : لسان العرب لابن منظور مادة (ص و ب) (٨/٣٠٠-٣٠١) ، مختار الصحاح (ص و ب) (١٨٠) ، المعجم الوسيط م (صوب) (١ / ٥٢٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الملحوظ أن الجملة سيقت خالية من التأكيد ؛ لأن المخاطبين لم يكن لديهم سابق علم بمضمون الخبر ، فهو - كما يقول البلاغيون - من الضرب " الابتدائي " .

وعلى هذه الوتيرة سيقت الجملة الثانية ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ ﴾ مسبوقة بـ ﴿ إِن ﴾ ؛لتنزيل المحقق منزلة المشكوك فيه ؛ للإيماء إلى الخوف من عدم نزول السيئة أيا كانت بهم ، وكذلك إبراز المسند في صورة المضارع ﴿ تُصِبْكَ ، يَقُولُواْ ﴾ لإفادة التجدد وتنكير المسند إليه ﴿ سَيِّئَةٌ ﴾ للعموم : فإنه كلما تجدد حدوث سيئة أيا كان وصفها تجدد القول منهم ﴿ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا ﴾ .

ومن الملحوظ أن معمول القول ﴿ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا ﴾ صدر بأداة التحقيق والتأكيد ﴿ قَدْ ﴾ وأبرز المسند فيها ﴿ أَخَذْ ﴾ في صورة الماضي ؛ للإيماء إلى تحقق صواب رأيهم في عدم الخروج مع النبي – ﷺ – وذكر فيه المفعول تحديداً له ، وتبياناً لمن يعرف ممن عاصرهم ، ومن لم يعاصرهم نوع ما أخذوه ، وهو الأمر الذي يعنيهم ؛ وهو ما ظنوه تيقظاً وحزماً ، ودقة في التقدير لما يكون بعدم الخروج ، وفي هذه الجملة إيماء إلى ابتهاجهم بحصول ما يغم المؤمنين من الهزيمة ، وفقدان الأموال ، وما أصابهم من الجراح ، وما كان لبعضهم من الاستشهاد .

وقد وصلت جملة جواب الشرط بما يعبر عن ابتهاجهم تصريحاً ، وهو قوله- تعالى-: ﴿ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ ، ليكون توكيداً لما ذكروه تلميحاً بقولهم ﴿ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ ، وقد كان هذا التصريح من الله بعد التلميح من المنافقين لفضح مشاعرهم لدى المؤمنين ؛ ليقفوا على طواياهم التي يبالغون في إخفائها بما يتفوهون به من أكاذيب الأيمان ، وقيد المسند في الجملة المعطوفة على مقول القول ﴿ وَيَتَوَلَّواْ ﴾ بجملة الحال المسوقة في إطار الجملة الاسمية لمزيد التأكيد ، ولولا أن التأكيد مقصود لقيل (ويتولوا فرحين) بسوق الحال مفردة .

ولا يخفى أن جملة الشرط الثانية قد وصلت بالأولى بالواو للتوسط بين الكمالين (١) ؛ لكونهما خبريتين لفظاً ومعنى ، ولوجود الجامع بينهما ، وهو كون المسند بلفظ الإصابة أعني

---

(١) التوسط بين الكمالين: من مواضع الوصل، ومعناه: التوسط بين كمال الانقطاع، وكمال الاتصال، ويكون بين الجملتين إذا اتفقتا خبرا أو إنشاء لفظا ومعنى ، أو معنى فقط مع وجود جامع بينهما .

فالمتفقان خبرا، لفظا ومعنى ،كقوله-تعالى-: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾[النساء:١٤٢]

والمتفقتان إنشاء ، لفظا ومعنى ، كقوله- تعالى -: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ ﴾[الأعراف:٣١]

ينظر: معجم البلاغة العربية (٧٢٧-٧٢٨) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اتحاد المسند ، والتضاد بين المسند إليه فيهما .

وفي إسناد الإصابة إلى الحسنة والسيئة مجاز عقلي[1]، ولو جاء الفعل مسنداً إلى الفاعل الحقيقي لقيل : (إن يصبك الله بحسنة تسوؤهم ، وإن يصبك بسيئة يفرحوا) .

ويمكن أن يعد المسند إليه إستعارة مكنية بأن يقال شبهت الحسنة والسيئة بالصائد الماهر بجامع القصد إلى غرض في كل، ثم اُستعير الصائد للحسنة والسيئة ، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإصابة ، وفي المجاز على هذا التقدير أو ذاك إيماء إلى التمكن من حصول الحسنة والسيئة ،وما يلزم ذلك من المساءة والمسرة الحاصلة للمنافقين في الحالين المختلفين .

وفي جملة ﴿ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا ﴾ إستعارة مكنية حيث شبه الأمر المعنوي وهو الحذر والتيقظ بشيء مادي ، بجامع المنفعة المتوخاة في كل ، ثم اُستعير الشيء المادي للأمر ، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الأخذ ، وفي هذا التصوير إيماء إلى البهجة الغامرة وقد أكد هذا الإيماء بالتصريح في قوله: ﴿ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ﴾ كما سبق بيان ذلك .

وفي هذه الآية من فنون البديع: الطباق [2] في قوله: ﴿ حَسَنَةٌ﴾، و﴿ مُصِيبَةٌ ﴾،

---

(١) المجاز العقلي: هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له؛ لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي، وعرفه السكاكي :بأنه الكلام المفاد به خلاف ماعند المتكلم من الحكم فيه ،لضرب من التأوّل إفادة للخلاف ،لابوساطة وضع ،كقولك:أنبت الربيع البقل،وشفى الطبيب المريض.

ومن أنواع العلاقة بين المسند والمسند إليه في المجاز العقلي :

- تكون سببية، نحو : (بنى خوفو الهرم الأكبر)،فالحقيقة أن الفرعون خوفو لم ين الهرم الأكبر بنفسه، وإنما كان سببًا في بنائه.

- تكون زمانية، نحو قول الشاعر: [الطويل]

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فالذي سيبدي لك ما كنت جاهلًا ليس (الأيام) وإنَّما حوادثها، والذي سوغ للشاعر أن يقول ذلك كون الأيام زمانًا للحوادث.

- تكون مكانية، نحو: (كان المترل عامرًا ، وكانت حُجرُه مضيئة)، فإن المنزل يكون (معمورًا) أي: مسكونًا وتكون حجره مضاءة، والذي سوغ القول السابق علاقة المفعولية.

ينظر:معجم البلاغة العربية(٤٤٢-٤٤٦)،مفتاح العلوم للسكاكي(١٨٥)،الإيضاح (٢٦٢)،علم المعاني والبيان والبديع(٣٣٧-٣٤٩).

(٢) الطباق: هو أن يجمع بين متضادين، أي: معنيين متقابلين في الجملة: كالبياض والسواد، والليل والنهار.

وهو قسمان: لفظي ومعنوي:

فمن الطباق اللفظي قوله- تعالى-: ﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلاً وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرًا ﴾ [التوبة: ٨٢] طابق بين الضحك والبكاء والقليل والكثير.

ومن الطباق المعنوي قوله- تعالى-: ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴾ معناه: ربنا يعلم إنا لصادقون.

ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة (٣١٧)، البرهان في علوم القرآن (٣/٤٥٥، ٤٥٦)،الصناعتين (٣٠٧)، تحرير التحبير (١١١) ومابعدها ، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (١٩٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو طباق خفي، ومعناه: ذكر الشيء وما يتعلق بمقابله؛ لأن السيئة تصيب الإنسان بما يسوءه، ولذا عبر عن الضر بما يتعلق به لإظهار المعنى بدليله، وهو أوقع في النفس، وأشد تأثيرًا [١]،وهذا كقوله - تعالى - :﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارًا ﴾ [نوح:٢٥] فالإغراق يقابله الإحراق، ويتعلق به الدخول للنار التي بها يكون الإحراق[٢]، ولذا سمي بالطباق الخفي، وهو من لواحق الطباق.

وهذه الآية بجملتها بيان تام لقوله - تعالى-:﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة:٤٥].

وما بعدها في الآيات الأربع استدلال على كذبهم في كل ما اعتذروا به، وأظهروا الاستئذان لأجله، ثم جاء البيان لهذا التردد منهم فكان على ما قال رب العالمين في الآية.

---

(١) ينظر : المطول (٤١٨)، الأطول (٢/١٨٥).

(٢) ينظر : علم البديع د. بسيوني (١٤٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما ورد فيه لفظ الإساءة في بيان أفعال المسيئين وأقوالهم – قوله تعـــــــــالى – :

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٧ –٩٩].

حكى جمهور المفسرين[١] أن هذه الآية نزلت في أعراب أسد[٢] وغطفان[٣] وتميم[٤]، كانوا يعدون ما يؤخذ منهم من الصدقات غرماً يؤخذ منهم بغير حق ، وينتظرون وقوع الكوارث بالمؤمنين .

تتحدث الآيات الثلاث عن الأعراب ، فتقرر أن السمة الغالبة عليهم أهم أشــد الناس كفراً ، وأعظمهم نفاقاً ، وهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رســوله من أحكام الشرع ومعالم الدين لبعدهم عن رسول الله - ﷺ - وعدم مشاهدهم مجالسه ، وما يكون فيها من تربية النفوس وهذيبها، وبعد بيان هذه السمة تقرر أهم فريقان :

أحدهما: ينظر إلى الزكاة عند دفْعها فيعدها غرماً وخسارة ، وينتظر في تلهف مجيء

---

(١) ينظر:أسباب النزول للواحدي (١٨٤) ، تفسير البغوي (٢/٣٢٠) البحر المحيط (٥/٩٤)، اللباب (١٠/١٨١).

(٢) أســـد: قبيلـــة عظيمة من العدنانية، تنتسب إلى أسد بن خزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مضر بن نزار، وهي ذات بطون كثيرة ، وتعد قبيلة أسد بن خزيمة من القبائل الحربية ، التي سجل لها التاريخ كثيراً من الحروب والغــزوات في الجاهلية والإسلام .

ينظر: معجم القبائل (١/٢١- ٢٢)

(٣) غطفان بن سعد : بطن كثير الشعوب، والأفخاذ من قيس بن عيلان، من العدنانية، وقد حاربهم الرســول ﷺ في غزوة الخندق، وهي الأحزاب، وكانوا ألوفًا، ثم ارتدوا بعد انتقاله ﷺ عن الإسلام، فحاربهم أبو بكر الــصديق، فبعث إليهم خالد بن الوليد، فقتلهم شر قتله.

ينظر: معجم القبائل (٣/٨٨٨) ، صفة جزسرة العرب للهمداني (١٢٩) ، وتاريخ ابن خلدون(٢ / ٣٠٥) .

(٤) تميم بن مُرّ: قبيلة عظيمة من العدنانية تنتسب إلى تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معــد بن عدنان، تمتاز هذه القبيلة بتاريخها الحربي في الجاهلية والإسلام.

وقدم على النبي ﷺ سنة تسعة للهجرة وفد بني تميم، وهم سبعون، أو ثمانون رجلا، منــهم: الأقــرع بــن حابس، والزبرقان بن بدر ، وانطلق معهم عيينة بن حصن، فقدموا المدينة، فــدخلوا المــسجد، فوقفــوا عنــد الحجرات، فنادوا بصوت عال جاف، فخرج إليهم رسول الله - ﷺ- فقالوا :إنا أكرم العرب، فقال رســول الله ﷺ: أكرم منكم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم - عليه السلام.

ينظر: معجم القبائل: (١/١٢٦- ١٢٧، ١٢٩- ١٣٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اليوم الذي تدول فيه دولة الإسلام فيتخلص من المسلمين ومن المغارم التي يدفعونها اتقاء صولتهم ، وهنا يتضمن النص القرآني الدعاء عليهم بالهلاك ، ثم يومئ إلى الوعيد بالعقاب في الإخبار بأن الله سميع لما يقولون ، وعليم بما يضمرون .

وثانيهما: ينظر إلى الزكاة عند دفعها فيحتسبها وسيلة قربى إلى الله وإلى صلوات رسوله - ﷺ - ، ولا غرو فإنها – عند الله – كذلك ، وهنا يذكر النص القرآني وعداً صريحاً لهم بأنه – تعالى – سيدخلهم في جنته ، وهو – سبحانه – عظيم المغفرة لأهل طاعته ، واسع الرحمة بهم [1] .

ومقام هذه الآيات في السورة هو : بيان حال الأعراب بتقرير أنهم أشد كفراً ونفاقاً، وأجْدر أن يجهلوا حدود الدين ، وأبعد من أن يعلموا معالم ما أنزله الله على رسوله ، ومنهم من يضيق ذرعاً بالزكاة وينتظرون بتلهف بالغ أن يحين الوقت الذي تنتهي سيطرتهم فيه فيتخلصون منهم ومن مغارم المال التي يدفعونها اتقاء صولتهم .

ذلك هو المضمون الذي تحمله هذه الآيات ، وقد حملت الآية الثانية منها لفظ السَّوء الذي يُعنى البحث بدراسة بلاغة التعبير عنه، وذلك يتبين من خلال ما يلي :

النظر في مفردات الآيات ثم النظر في نظمها ، وأبدأ بالنظر في المفردات :

وتبدو المفردات واضحة المعنى ، ويجري بها اللسان في سهولة ويسر ، ثم هي جارية على المألوف عند العرب في بناء الصيغة،لكن القارئ يلحظ انتقاء الألفاظ﴿ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾، ﴿ أَجۡدَرُ﴾ ، ﴿ حُدُودَ ﴾ ، ﴿ يَتَّخِذُ ﴾ ، ﴿ وَيَتَرَبَّصُ﴾ ، ﴿ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾ .

ولا يخفى أن كلمة الأعراب تومئ إلى الجفاء والغلظة ؛ فإنها لا تطلق إلا والمراد بها ساكنو البادية حيث البعد عن الحضر ، ومجتمع البشر ، وتبادل المنافع ، وما ينشأ عنه من رقة الطباع ولطف المعاشرة ، ولا عجب أن نجد في الأثر (من بدا جفا) [2] ، وكأنما انتقى هذا اللفظ ليكون مهاداً للحكم الذي بُني عليه ، وهو مضمون الجملة بأسرها .

وفي لفظ ﴿ أَجۡدَرُ﴾ إيماء إلى قوة الاستحقاق أو الاختصاص بنفي العلم عنهم ، فحروف هذه المادة (جـ ، د ، ر) مجهورة ، والجيم والدال من حروف الشدة ، وفي صوت الراء تكرار ، فإذا انضاف إلى ذلك الهمزة المزيدة على أصل الكلمة – وهي أيضاً

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري (٤٥١/٦) ، الكشاف للزمخشري (٤٦٥/٢) ، روح المعاني للألوسي (٣٣٩/٧) .

(٢) ينظر لسان العرب – باب الباء (٢ / ٣١) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مجهورة ، وثقيلة لكونها من حروف الحلق – تبين مدى القوة في أهلية الأعــراب لنفــي العلم بأسرار ما شرّع الله ، وقد أومأ إلى ذلك الشيخ الجمل حين تحدث عــن الأصــل الذي أخذ منه اللفظ فقال: " وقد نبه الراغب على أصل اشتقاق هذه المادة ، وأنها مــن الجدار أي الحائط، فقال: والجدير المنتهي لانتهاء الأمر إليه انتهاء الــشيء إلى الجــدار، والذي يظهر أن اشتقاقه من الجَدْر – وهو أصل الشجرة – فكأنه ثابت ثبوت الجدر في قولك جدير بكذا. أ . هــ سمين " (١).

وفي لفظ ﴿ حُدُودَ ﴾ المضاف إلى لفظ الجلالة المراد به حقائق الــشرع الــشريف الموصى به إلى رسول الله - ﷺ - إيماء إلى أن الجهل بها أفضى إلى الحرمان مــن إدراك أهدافها ومراميها، ومن ثمَّ رأوا أن الزكاة إتاوة تؤخذ منهم على كره ، فهــم يقــدموها ونفوسهم تمور سخطاً ، وتطلعاً إلى اللحظة التي يكون فيها الخلاص .

وفي لفظ ﴿ يَتَّخِذُ ﴾ إيماء إلى تغلغل اعتقاد المغرم ، وتغوره في أعماقهم ، فهــم لا يتصورون أن الزكاة على ما يقابلها من الثواب المضاعف ، قد تكون من أسباب الزيادة في الرزق ، فإن جهلهم بحدود الشرع الشريف ، أبعدهم عن معرفة الإخــلاف الــذي يقرره قوله – تعالى – :﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ :٣٩] ، وإنما كان هذا اللفظ إيماء إلى ذلك ؛ لأن صيغة الافتعــال تعــني تكلــف الأمر(٢)، يقول الراغب:" الأخذ حوز الشيء وتحصيله.. والاتخاذ افتعال منه ، ويجــري مجرى الجعل، ومنه قوله: ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾" [المائدة : ٥١] (٣).

وفي لفظ ﴿ يَتَرَبَّصُ﴾ إيماء إلى تلهف شديد يجعلهم يتمنون عجلــة مجــيء وقــت الخلاص من ظهور المسلمين بانتهاء دولتهم ، وزوال سلطانهم ، وقد جرى اللغويون على أن التربص الانتظار(٤) ، خيراً كان المنتظر أو شراً ،ولتأكيد ذلك نقل ابن منظــور عــن الليث قوله : " التربص بالشيء أن تنتظر به يوماً (ما) ، والفعل : تربصت بــه ، وفي

---

(١) الفتوحات الإلهية: (٣/٣٠٠)، وكلمة (سمين) يقصد بها السمين الحلبي صاحب (الدر الثمين في ألفاظ القــرآن الكريم) ، والراغب هو الراغب الأصفهاني صاحب (المفردات في غريب القرآن).

(٢) ينظر: تكملة شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – معاني الأبنية:٤/٢٦٣ ، الطبعــة العــشرون ، مكتبــة دار التراث، القاهرة ، ١٤٠٠هــ - ١٩٨٠م.

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني _كتاب الألف (٢٢) .

(٤) ينظر : القاموس المحيط – باب الصاد – فصل الراء ، والمفردات في غريب القــرآن – كتــاب الــراء (١٩٢) ، ولسان العرب ، باب الراء (ربص) (٦ / ٧٩) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التنزيل العزيز : قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنين ؛ أي إلا الظفر ، وإلا الشهادة ، ونحن نتربص بكم أحد الشرين: عذاباً من الله ، أو قتلاً بأيدينا ، فبين ما ننتظـره ومـا تنتظرونه فرق كبير " [(١)].

والذي يلوح لي أن أكثر استعمالات هذه المادة – إن لم يكن كلـها – يكـون في انتظار أمر مكروه أو شديد على النفس. ففي الحديث الشريف الذي أورده ابن منظور : إنما يتربص بكم الدوائر ، وكذلك ما أورده من قولهم : لي على هذا الأمر رُبْصَة ، أي : تَلبُّث ، وقول ابن السكيت : يقال أقامت المرأة رُبْصَتها في بيت زوجها ، وهو الوقـت الذي جُعِل لزوجها إذا عنّن عنها ، فإن أتاها ، وإلا فرق بينهما ، وكذلك ما نقله عـن ابن بري من قوله : تربص فعل يتعدى بإسقاط حرف الجر ، كقول الشاعر :

تـربَّصْ بهـا ريـبَ المنـون لعلـها تطلَّقُ يومًـا أو يمـوت حليلُهـا[(٢)]

في هذا كله استعمل اللفظ فيما هو مكروه، أو في ظرف شديد .

واللافت للنظر أنهم لم يفرقوا بين المجرد والمزيد، فهم يقولون: ربص بالشيء ربصا ، وتربَّص به انتظر به ، وكأن لا فرق في الدلالة على الانتظار بينهما، مع أن من المسلم به أن زيادة المبنى يواكبها زيادة المعنى، و"بناء تفعَّل للدلالة على المطاوعة نحو هذبته فتهذَّب أو للدلالة على التكلف نحو: تكرم وتشجع ....، أو لغير ذلك من المعاني "[(٣)].

ومؤدى هذا أن الترقب والانتظار في (تربص) أقوى منه في (ربص) .

على أن الذي لم يلتفت إليه الليث أن الظفر لم يكن هو ما ينتظره المنافقون بل الذي انتظروه هو الدوائر ، وهي أحداث الزمان ونوائبه فإذا هلك المسلمون ، أو هزمـوا لم يكن ذلك خيراً في منظورهم ، والشهادة ليست عندهم خيراً بل عند المسلمين ، ولذلك كان الأمر بالرد عليهم من باب الكبت والإغاظة ، أي إن ما تنتظرونه لن يكون ونحـن بين أمرين: إما الظفر وهذا يغيظكم ويملأ نفوسكم حقداً ؛ لأنـه عكـس مـا تحبـون وتنتظرون ، وإما شهادة وهي ليست شرا بل هي خير نتطلع إليه .

وهنا يصل الحديث من ومض المفردات إلى كلمة ﴿ ٱلدَّوَآئِرَ ﴾ فهي توحي بالإحاطة

---

(١) لسان العرب ، الموطن السابق .

(٢) البيت في اللسان م [ربص]، الجمهرة (١/٢٥٩)، البحر المحيط (٢/١٨٦)، الدر المصون (١/٥٥١)، واللبـاب (٤/٩٩).

(٣) التكملة في تصريف الأفعال – محمد محي الدين عبد الحميد ، ملحق بشرح ابن عقيل (٤ / ٢٦٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بهم من كل جانب بحيث لا يجد المسلمون مخرجاً يفرون منه إلى النجاة ؛ ذلك أن أصل المادة يستعمل مراداً به الشيء المحيط بغير فرجة . من ذلك : " الدار المترل اعتباراً بدورانها الذي لها بالحائط ... والدائرة : عبارة عن الخط المحيط . يقال : دار يدور دوراناً، ثم عبر بها عن الحادثة ، والدَّوَّارِيُّ : الدهر الدائر بالإنسان من حيث إنه يدور بالإنسان ... والدَّوْرة والدائرة في المكروه ، كما يقال : دولة في المحبوب"[1] فالهلاك الذي ينتظره المنافقون للمسلمين هو الاستئصال التام بحيث لا تقوم لهم قائمة .

ويلحظ المتلقي في النظم :

تعريف المسند إليه في قوله ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ ﴾ بأل التي للجنس لإفادة الشمول ، أي أنهم جميعاً أشد كفراً، وجاء المسند على صورة التفصيل، فلم يقل شديدوا الكفر ؛ لإفادة أن كفرهم ، ونفاقهم بلغا الغاية في الشدة ، ومن الملحوظ تعدد المسند ﴿ أَشَدُّ ، وَأَجْدَرُ ﴾ مع تعدد البيان للأول للإشارة إلى تداخل الكفر والنفاق، وإن كان الثاني أشد من الأول ، وكأن الكفر والنفاق متلازمان وأمر البيان للمسند الثاني ؛ للإيحاء بأن الجهل أعظم من الكفر والنفاق ، ولا غرو فكلما أطبق الجهل اشتد توغل الكفر والنفاق في القلوب ، لا سيما الجهل بحدود وحقائق ما أنزل الله .

وقد اقتضت جزالة الأسلوب ورصانته أن يحذف المفضل عليه ؛ فإن ما دل عليه السياق إذا ذكر يصيب الكلام بالترهل ، ومن ثم قرر أهل العلم أنه " قد تحذف (من ومجرورها)؛ للدلالة عليهما كقوله - تعالى - : ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف : ٣٤] أي وأعز منك نفراً ... وأكثر ما يكون ذلك إذا كان أفعل التفضيل خبراً كالآية الكريمة ، وهو كثير في القرآن "[2]، وما هذه الكثرة إلا لمتانة الأسلوب ، ولهذا السبب نفسه حذف العائد على الموصول وهو مفعول (أنزل) .

ولا يخفى أن الجملة جاءت مرسلة لا يرى فيها أداة من أدوات التأكيد ؛ لخلو ذهن المخاطبين من مضمون ما احتوت عليه .

ويقف القارئ المتذوق عند جملة﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فهي تنبئ عن وعيد شديد لوقوعها عقب الإخبار عن كفر الأعراب ونفاقهم ، وكلام الزمخشري يومئ إلى تضمنها

---

(١) المفردات في غريب القرآن – كتاب الدال (١٧٠) .

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك – تحقيق محي الدين : (٣/١٧٦-١٧٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعداً ووعيداً، فهو يقول:" ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ يعلم حال كل أحد من أهل الوبـــر والمدر، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم ، ومخطئهم ومصيبهم من عقابه وثوابه " (١)

ولا أرى ما يراه؛ فما قبل هذه الجملة وما بعدها خاص بالأعراب الأشد كفراً ونفاقـــاً ، وإنما كان يصح كلامه لو كان ثَم حديث عن أهل المدر والوبــــــر ، ولكن الذي قبـــل قوله الأعراب أشد كفراً ونفاقاً أربع آيات تتحـــــدث عن المنافقــــين هي قولـــه – تعالى - : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٣ -٩٦]

وقد جيء – في هذه الجملة– بالمسند إليه ﴿ ٱللَّهُ ﴾ اسماً ظـــاهراً وكـــان الـــسياق يقتضي الإضمار ، فجاء على خلاف مقتضى الظاهر ؛ لما في لفظ الجلالة من الإيمــاء إلى تمام علمه وحكمته ؛ فهو – جل شأنه – الموصوف بكل كمال .

وقد خلت الجملة – كسابقتها – من التأكيد ، لكون المخاطب لا يماري في علمـــه تعالى وحكمته ، وإنما قيل هذا القول على حد قولهم: (إياك أعني واسمعي يا جارة) فهو يتضمن الوعيد ، وترك تأكيده ؛ لأن المعْنيَّ بالوعيد ، لو خلع أسباب الكفر والنفـــاق ، وعلم حدود ما أنزل الله لخرج من حظيرة الكفر ، ودخل في روض الإيمان .

وفي جملـــة ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ قـــدم المـــسند ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ على المسند إليه﴿ مَن يَتَّخِذُ ﴾ للتخصيص وانصباب الحديث عنهم لإبـــراز صفة من صفات اختصوا بها ، وتقييد المسند بالمسند إليه يدل على ذلك ، وفيها تحريك لأذهان المخاطبين ، وإيقاظٌ لما تضمنته الصلة التي بها عُرِّفَ المسند إليه ﴿ مَنْ ﴾ ؛ ليقفـــوا على طوية من يخدعوهم بدعوى الإيمان فهم يعتقدون أن الزكاة إتـــاوة مـــضروبة ، لا شريعة مفروضة ، ومن ثم فهي مغرم لا مغنم ويدفعوها قهراً وتقية لا رضاً وقـــربى ، وفي

---

(١) الكشاف للزمخشري (١١ / ٤٤٦) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اللحظة نفسها ينتظرون – على مضض – أن تدول دولة الإسلام بهزيمة منكرة يقتل فيها الأقوياء ويؤسر الضعفاء ، وهذا هو السر الذي يدركه المتأمل في تكوين الصلة من جملتين ﴿ يَتَّخِذُ ، وَيَتَرَبَّصُ ﴾ ، ولا يخفى سوق الجملة خالية من التأكيد ؛ لعدم علم المخاطبين بمحتواها ، وفي إيراد صدر الصلة على صورة المضارع ما ينبئ بالتجدد والاستمرار ، وذلك من شأنه الإشارة إلى استحقاق الوعيد .

وفي جملة ﴿ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ ﴾ قدم المسند على المسند إليه ؛ لإفادة القصر أي قصر دائرة السوء عليهم ، قصر صفة على موصوف ، أي أن دائرة السوء عليهم لا عليكم.

وقد رأى الزمخشري أن هذه الجمة دعائية [1] ، أي أنها خبرية لفظاً إنشائية معنى ، ولا أحسبها كذلك ؛ فهي إخبار للمؤمنين بأن دائرة السوء التي ينتظرونها واقعة عليهم لا عليكم ، وكأنما تحركت خواطر المؤمنين إذْ علموا أن المنافقين يتربصون بهم الدوائر قائلين يارب : وهل يترل بنا ما يتربصون ،فجاء قوله – تعالى- : ﴿ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ ﴾ تطمينا لهم . وتنقية لضمائرهم من تلك الهواجس ، ومن ثم خلت من المؤكدات إلا ما يفهم من أسلوب القصر[2]؛ لخلو ذهن المخاطبين مما تضمنته من الخبر .

وفي جملة ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أورد اسم الجلالة مسنداً إليه ، وجيء بالمسند على صيغة (فعيل) للإيماء بأن كماله – جل وعلا – اقتضى الإخبار عنه بصيغة المبالغة . والمراد أنه لا يفوته شيء مما يقولون عند تقديم الصدقة ، عليم بما يضمرونه ، وفي هذه الجملة من الإيماء إلى أنه – تعالى – مجازيهم على ذلك ما لا يخفى .

وفي قوله :﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ قدم المسند على المسند إليه ﴿ مَن ﴾ ؛ لما تتضمنه

---

(١) ينظر: الكشاف (١١/٤٤٦)

(٢) أسلوب القصر: هو تخصيص أمر بأمر بإحدى طرق القصر المعروفة: كالنفي والاستثناء؛ كما في الآية الكريمة، أو «إنما» كما في قوله- تعالى-: ﴿ إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَ ﴾، أو العطف بـ «لا»، و «بل»، و«لكن»؛ كما في قولك: «الفخر بالمرء، لا بأبيه»، و: «لا أجيد الأدب لكن البلاغة» ، ومن طرقه أيضًا: تقديم ما حقه التأخير؛ كقوله- تعالى-: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٤].

وفائدته: أنه يجعل الجملة الواحدة قائمة مقام جملتين مع الإيجاز، ويؤكد الكلام ،ويزيده تمكينًا وتقريرًا في الذهن، وينفي عن الفكر كل إنكار وشك.

ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، (١٢١ - ١٣٠)، دلائل الإعجاز، (٣٢٨- ٣٥٨)، المعجم المفصل في علوم البلاغة، (٦٢١_ ٦٢٢)، دراسات في علم المعاني، د. حسن طبل(١٣٨- ١٤٦)مكتبة الزهراء، القاهرة .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الصلة من صفة يتعلق بها القلب ، وتتشوق إليها النفس ، فالتقديم للتشويق إلى تلك الصفة التي هي الإيمان بالله واليوم الآخر ، واتخاذ الزكاة ، وصلوات الرسول وسيلة زلفى إلى الله جل وعلا ، والتعبير بالمضارع في جملتي الصلة إيماء إلى التجدد على وجه الدوام والاستمرار ، وهذه الجملة كسوابقها سيقت غير مؤكدة ؛ لأن المخاطبين لا علم لهم بمحتواها ، فالخبر في هذه الجمل كلها ابتدائي ، لعدم علم المخاطب بمضامينها .

وهنا يصل النظر إلى الآية الأخيرة ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فنتلقاها ثلاث جمل :

الأولى قوله : ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ ، وهي مؤكدة بثلاث مؤكدات : ألا ، إن ، واسمية الجملة ، والتأكيد هنا جار على خلاف مقتضى الظاهر ؛ فعلم المخاطبين بأن الزكاة ، وصلوات الرسول متقبلة ؛ لخلوص النوايا أمر غيبي لا علم للمخاطبين به إلا من قبل الله _عز وجل _ وقد أخبر سبحانه بذلك فكان مقتضى الظاهر أن يقال هي قربة لهم ، ولكن نزلوا منزلة المنكر ، ليتلقى الخبر بالتصديق لأول وهلة ، يقول الزمخشري :" ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات[(١)]، وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف مع حرفي التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه " [(٢)].

الجملة الثانية : قوله - تعالى - : ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ وهي خبرية تحمل الوعد بدخول الجنة ، وقد خلت من المؤكدات ؛ لأنها مسبوقة بأن صدقتهم مقبولة ودعاء الرسول لهم مستجاب على سبيل التأكيد المكثف ، ومن ثم لم يكن مضمونها بحاجة إلى تأكيد.

أما الجملة الثالثة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فقد جاءت مؤكدة لأمر هو من الأمور المعلومة سلفاً للمؤمن ، ولكن أكدت لمجيئها تعليلاً لإدخال المتصدقين في رحمته ، ومن شأن التعليل أن يؤكد ليؤخذ مأخذ التسليم .

وجيء بالمسند على صيغتي المبالغة (فعول ، فعيل) ؛ لإفادة عظم مغفرته ، ورحمته وشمولهما ، وأنهما تتسعان لكل مؤمن عرف ربه وآمن به ، وأخلص طاعته وإن صدرت

---

(١) قول الزمخشري : شهادة .. بصحة ما اعتقد الخ . يؤكد ما سبق بيانه من أن الاتخاذ ليس مجرد التناول بل هو للتكلف ، أعني: الاعتقاد .

(٢) الكشاف : (١١ / ٤٤٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منه بعض الهفوات لقوله - تعالى - : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم : ٣١ – ٣٢] .

هذا في نظم الجملة ، فإذا توجه النظر إلى العبارة تبين ما يلي :

في الآية الأولى فصلت جملة ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عما قبلها . كأنها سؤال لجواب اقتضته الجملة الأولى على تقدير ما حكم الله فيهم فقيل – توعداً – والله سميع عليم على أن الواو للاستئناف ، ويمكن أن تكون للحال ، والعامل محذوف دل عليه السياق : نافقوا وكفروا ، والحال أن الله عليم حكيم .

والآية الثانية كلها جملة وصلت بالأولى من طريق الواو بالتوسط بين الكمالين ، فهي والتي قبلها خبريتان لفظاً ومعنى ، والمسند إليه في الثانية بعض المسند إليه في الأولى ، والمسند في الثانية فيه معنى الكينونة ، وهو بذلك يرتبط بالحدث الذي في صلة المسند إليه، ومضمون الجملتين غاية في التناسب فكفرهم ونفاقهم يصدر عنه احتساب الصدقة مغرماً ، وترقب الدوائر بالمسلمين .

وفي هذه الآية الثانية وصلت جملة ﴿ يَتَرَبَّصُ ﴾ بجملة ﴿ يَتَّخِذُ ﴾ للسبب نفسه أعني التوسط بين الكمالين ،فكلتاهما خبريتان لفظاً ومعنى ، والمسند إليه واحد وهو الموصول ﴿ مَن ﴾ والتربص يناسب الاتخاذ .

وقد فصلت جملة ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ عما قبلها ؛ لكونها جملة اعتراضية بين كلامين متصلين معنى – كما رأى ذلك الزمخشري وغيره من أهل العلم – أو لأنها جملة مستأنفة ، بمثابة الجواب عما تضمنته الأولى من سؤال تقديره : ما جزاء هؤلاء ؟ فكان الجواب ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ ،كما جاءت جملة ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ مستأنفة تأكيداً لما تضمنته التي قبلها تأكيداً معنوياً .

والآية الثالثة بجملتها موصولة بالتي قبلها – أعني الثانية – للتوسط بين الكمالين ؛ لكونهما خبريتين لفظاً ومعنى مع اتخاذ المسند فيهما ، وتضاد المسند إليه فيهما ، إذ الموصول في الثانية في صلته الإيمان واتخاذ النفقة وصلوات الرسول قربات ، والموصول في الأولى بصلته اتخاذ النفقة مغرماً ويتربص الدوائر .

وفي هذه الآية الثالثة وصلت جملة ﴿ يَتَّخِذُ ﴾ بجملة ﴿ يُؤْمِنُ ﴾ لاتحاد المسند إليه في الجملتين ، وتناسب اتخاذ النفقة قربة يناسب الإيمان بالله واليوم الآخر ، أما جملة ﴿ أَلَآ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ ،فقد فصلت عما قبلها؛ لكونها استئنافاً بيانياً كأنه قيل: ما حال هذه الصدقة وصلوات الرسول لهؤلاء ؟ فكان الجواب : ألا إنها قربة، وكذلك الشأن في جملة ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ حيث فصلت لكونها جواباً عن سؤال اقتضته التي قبلها وإذا كانت هاتان قربة فما جزاؤهم فكان الجواب : ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ ، كما فصلت جملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ عما قبلها ؛ لكونها تذييلاً [1] مؤكداً لما قبلها ، ويتضمَّن التَّعليل له .

ومجيء إن على هذه الصورة يكسب الكلام حسناً بينه الإمام عبد القاهر بقوله: "

---

(١) التذييل من الذيل: آخر كل شيء، وذيل فلان ثوبه تذييلا أي طوله، عرف ابن حجة الحموي التذييل، فقال: « هو أن يُذيِّل الناظم أو الناثر كلامًا - بعد تمامه وحسن السكوت عليه - بجملة تُحَقِّق ما قبلها من الكلام وتزيده توكيدًا، وتجري مجرى المَثَل بزيادة التحقيق» .

وعرفه البعض فقال: «هو الإطناب بالتذييل»، وعرفه القزويني في باب «الإطناب»، وكذلك حذا حذوه شراحه. كما عرفه جرمانوس فرحات في كتابه «بلوغ الأرب في علم الأدب»، فقال: هو أن يحقق المتكلم كلامه المتقدم التام بجملة زائدة عن أصل كلامه. وتلك الجملة تنقسم إلى قسمين، فالقسم الأول: هو أن لا تزيد الجملة عن معنى البيت، ولكن يُؤتى بها للتأكيد والتحقيق، ومثل له بقول عنترة: [الكامل]

ودعوا نزال فكنت أول نازل ... وعلام أركبه إذ لم أنـزل

فالنصف الأخير تذييل حسن، مؤكد معنى البيت ومحققه.

والقسم الثاني: هو أن يخرج المتكلم الجملة مخرج السائر لتتحقق به ما قبله بما يتضمن من زيادة المعنى، ومن شواهده قول النابغة: [الطويل].

ولست بمستبقٍ أخًا لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب

والفرق بينه وبين التكميل: أن التكميل يرد على معنى يحتاج إلى الكمال، والتذييل لم يُفِدْ غيرَ تحقيق الكلام الأول وتوكيده.

ومن أعظم الشواهد عليه: قوله - تعالى -: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، فالجملة الأخيرة هي التذييل الذي خرج كلامه مخرج المثل السائر.

ومثله قوله- تعالى-: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧]، فالجملة الأخيرة هي تذييل خرج في الكلام مخرج الأمثال التي ليس لها مثيل.

وقوله- تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١١١] ففي هذه الآية الشريفة تذييلان:

أحدهما: قوله تعالى: ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ ؛ فإن الكلام كان قد تم قبل ذلك وحسن السكوت عليه.

والآخر: قوله- تعالى-: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ فخرج هذا الكلام مخرج المثل السائر.

ووقع ذلك في السنة الشريفة ، وهو قول النبي - ﷺ - : " من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة إن عملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه " .

ينظر : خزانة الأدب وغاية الأرب للحموي (٢ / ٢٤٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري (٣٧٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واعلم أن من شأن ﴿ إنَّ ﴾ إذا جاءت على هذا الوجه [١] أن تغني غناء الفاء العاطفة – مثلاً – وأن تُفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجيباً فأنت ترى الكلام بها مستأنفاً غير مستأنف، مقطوعاً موصولاً معاً. أفلا ترى أنك لو أسقطت (إنَّ) من قوله: [إنَّ ذاك النجاح في التبكير] لم تر الكلام يلتئم ؟ ولرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى ، ولا تكون منها بسبيل حتى تجيء بالفاء فتقول :

بَكِّرا صاحبي قبل الهجير فذاك النجاح في التبكير[٢]

ثم تَعَلَّم أن ليست الألفة بينهما من جنس ما كان ، وأن قد ذهبت الأَنَسةُ التي كنت تجد " [٣] .

وفي هذه الآيات من الإطناب[٤] ما مر به القارئ من صور الاستئناف التي فصلت فيها الجمل عما قبلها . كما أن في هذه الصور إغناء عن ذكر السؤال الذي تثيره الجملة الأولى ، فكان بذلك ما لا يخفى من الجمع بين الإيجاز والإطناب ، وفي ذكر الفريقين من الأعراب بيان بعد إبهام ؛ ذلك أنه أطلق الحكم على الأعراب بكونهم أشد كفراً ونفاقاً . وفي ذلك إبهام هو مدرجة إلى توهم التعميم بحيث يظن أنهم جميعاً كذلك فجاء البيان لرفع هذا الإبهام، ودفعاً لهذا الظن فقيل: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٩٨ - ٩٩] ، وفي البيان بعد الإبهام إراحة للنفس من قلق التوهم ، وإجابة لها بعد الانتظار والتشويق ، كما أن فيه لذة العلم بالشيء بعد التشوق إليه .

وفي قوله- تعالى-: ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ ﴾ "استعارة لأنه لاشيء هناك يوصف بالدوران ،وإنما المراد به الحال المنقلبة عن النعمة إلى البلية ، وعن المسرة إلى المساءة ، ويجوز أن يكون المعنى أيضا: عليهم أيام السوء؛ لأن الأيام والشهور

---

(١) يريد : أن تكون واقعة بأثر كلام تقدّمها ، ولا يكون المقصود بها ردَّ إنكار منكر .

(٢) البيت لبشار بن برد من بحر الخفيف ، من ديوانه_شرح وتحقيق:محمد الطاهربن عاشور: صنعة عاشور مصر ١٩٥٠ .

(٣) دلائل الإعجاز (٢١٢).

(٤) الإطناب: أداء المقصود بأكثر من العبارة المتعارفة، من: أطنب الرجل: إذا بالغ في قوله بمدح أو ذم.
ينظر: التعريفات (٢٩)، الكليات (١/٢٢٣)، مفتاح العلوم (٢٧٧)، التوقيف على مهمات التعاريف، (٧٢، ٧٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قد تسمى دوائر على طريق الاستعارة ليس لأنها ترجع بأعيانها وإنما يعود أمثالها فشهر كشهر ويوم كيوم وساعة كساعة وسنة كسنة يُقال: دارت السنون ، ودارت الشهور على هذا المعنى إلا أن هذه اللفظة - أعني الدائرة و الدوائر - قد اختص ذكرها بالمواضع المكروهة فيقال : دارت عليهم الدائرة إذا أهلكتهم الأيام ، وأفنتهم الأعوام ، وقد يقال:دارت لهم الدنيا إذا وصفوا بمواتاة الإقبال وانتظام الأحوال ؛ فكأن التمييز في الخير والشر إنما يقع بقول :دارت عليهم أوقول:دارت لهم " [١].

وفي قوله : ﴿ مَغْرَمًا ﴾ مجاز مرسل[٢] علاقته المسببية ؛ ذلك أن الأصل: (ويتخذ ما

---

(١) تلخيص البيان للشريف الرضي(٧٤-٧٥).

(٢) المجاز المرسل : هو من باب المجاز اللغوي، وهو نقل الألفاظ من حقيقتها اللغوية إلى معان أخرى لصلة غيرالمشابهة.أي:ماكانت العلاقة بين ما استعمل فيه وماوضع له ملابسة غير التشبيه، وله علاقات منها:

١- السَّببيَّة، وذلك بأن يطلق لفظ السبب، ويراد المسبب، نحو «رعينا الغيث» أي: المطر، وهو لا يُراعى، وإنما يرعى «النبات» وهو المقصود والغيث سبب النبات.

٢- المسببيَّة: وذلك بأن يطلق لفظ المسبَّب، ويراد السبب، نحو «أمطرت السماء نباتًا» والمراد «المطر» الذي هو سبب «النبات».

٣- الجزئيَّة، وهي تسمية الشيء باسم جزئه، وذلك بأن يطلق الجزء ويراد الكل، نحو: «الإسلام يحث على تحرير الرقاب» فالمقصود من «الرقاب» «العبيد» ولما كانت «الرقاب» موضع الأغلال عادة في العبد فقد أُطلق لفظها هنا على العبيد أنفسهم.

٤- الكليَّة، وذلك بتسمية الشيء باسم كلِّه، أي بأن يطلق الكل ويراد به الجزء، نحو: «أقام لبيب في لبنان» فالمراد بـ «لبنان» جزء منه.

٥- اعتبار ما كان، نحو: «شربتُ البن» فالمقصود بـ «البن» هنا «القهوة» التي أصلها «بن».

٦- اعتبار ما يكون، نحو: «إني أعصر خمرًا».

٧- المحليَّة، وذلك بذكر لفظ المحل مع إرادة الحال فيه، نحو: «إني أخاف ركوب البحر» فالمقصود ركوب السفن التي محلها البحر.

والمجاز المرسل يختلط عند كثير من الدارسين بالاستعارة، وقد حاول الإمام عبد القاهر إبراز الفرق بين هذين الضربين من المجاز، فرأى أن ما كانت علاقته المشابهة كان من الاستعارة، وما كانت علاقته غير المشابهة يطلق عليه المجاز، دون أن يطلق عليه المجاز المرسل، فهذا الإطلاق من مصطلحات المتأخرين.

وقد أشار المغربي إلى سر تسميته بالمجاز المرسل؛ وأنه سمي بذلك لإرساله، أي: إطلاقه عن التقييد بعلاقة المشابهة، فصح جريانه في عدة من العلاقات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينفق تقية، ولكون اعتداد الصدقة مغرماً مسبباً عن التقية، كانت العلاقة المسببية، وإنما أوثر المجاز؛ لكونه أدل على فساد الاعتقاد، فقد يتقي المرء شيئاً (ما) ويكون صحيح الاعتقاد ، ولكنه اتخذها لغرض صحيح كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

وفي قوله : ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ مجاز مرسل علاقته الحاليّة، فإن اللفظ المعبر عن الحقيقة أن يقال :(سيدخلهم الله في جنته) فالرحمة حالة في الجنة التي هي محل تنزُّل رحمة الله - عز وجل- فهو من باب إطلاق الحال وإرادة المحل ،أو إطلاق الصفة وإرادة الموصوف [(١)]، ولكن أوثر المجاز للإيماء إلى أن الجنة متزل رحمته لهم ؛ لإخلاصهم في اتفاقهم ، وحرصهم على أن تكون صلوات الرسول قربة لهم .

يقول عبد القاهر في تحرير الفرق بين الضربين: «إن المجاز أعم من الاستعارة، وإن الصحيح من القضية في ذلك أن كل استعارة مجاز، وليس كل مجاز استعارة؛ وذلك أنا نرى كلام العارفين بهذا الشأن — أعني: علم الخطابة ونقد الشعر، والذين وضعوا الكتب في أقسام البديع - يجري على أن الاستعارة نقل الاسم عن أصله إلى غيره؛ للتشبيه على المبالغة».

وكأنه يشير بذلك إلى أن المجاز المرسل دون الاستعارة في البلاغة إجمالا؛ لأنك تبني كلامك على إبراز علاقة ما بين اللفظ الذي وقع فيه المجاز وبين حقيقته، وقد حاول المتأخرون تحديد هذه العلاقات، وهي في جملتها لا يمكن الاقتناع بها؛ فالخطيب القزويني يذكر علاقات ثمانية للمجاز المرسل، وابن الأثير ينقل عن أبي حامد الغزالي أنها أربع عشرة علاقة، ويرى ابن الأثير بعد هذا النقل أن أكثرها يدخل بعضها في بعض، ويذكر السيوطي والزركشي غير هذا، وهي عند السبكي تزيد على ثلاثين علاقة.

ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة (٦٣٩- ٦٤٠) ، شروح التلخيص (٣١/٤) وما بعدها، أسرار البلاغة (٣١٩) وما بعدها، الإتقان للسيوطي (٣٦/٢) وما بعدها، المثل السائر (٥٧/١، ٦٣)، الإشارة إلى الإيجاز لعز الدين بن عبد السلام (٢٨)، الطراز للعلوي (٦٨/١)، الصناعتين (١٥)، الإيضاح مع البغية (٩٠/٣) وما بعدها، التصوير البياني (٣٤٢) وما بعدها، البيان بين عبد القاهر والسكاكي (١٤٢)، البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٩٩/٢)، الإشارات والتنبيهات (٢٠٣) وما بعدها.

(١) ينظر: الإبداع البياني للصابوني(١١٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما البديع في هذه الآيات فماثل في الجمع والتقسيم [(١)]، فقد ذكر لفظ الأعــراب

---

(١) الجمع مع التقسيم: عرفه السكاكي بعد أن أدرجه في المحسنات المعنوية، فقال: هو أن تجمع أمورًا كـثيرة تحـت حكم ثم تقسم، أو تقسم ثم تجمع ، ومثال النوع الأول وهو جمع المتعدد ثم تقسيمه كقول المتنبي في قصيدة يصف فيها موقعة دارت بين الروم والعرب بقيادة سيف الدولة بالقرب من بحيرة الحدث :

حتى أقــام على أرباض خرشنة ... يشقى به الروم والصلبان والبيــع

للسبي مانكحوا ،والقتل ماولدوا ... والنهب ماجمعوا،والنار مازرعــوا

فجمع في البيت الأول أرض العدو ومافيها من معنى الشقاوة ، ثم في البيت الثاني ذكر التقسيم

ومثال النوع الثاني وهو التقسيم ثم الجمع قول حسان بن ثابت :

قوم إذا حاربوا ضرُّوا عدوهــم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غــير محــدثةٍ ... إن الخــلائق فاعلم شرُّها البــدع

فقسم الشاعر في البيت الأول صفة المدوحين ، ثم عاد فجمعها في البيت الثاني حيث قال: (سجية تلك فيهم)

والنوع الأول هنا- كما يبدو- أحسن وأوقع في القلوب من الثاني ، وعليه مشى أهل البديعيات .

الجمع مع التفريق: تحدث عنه السكاكي في كتابه «عروس الأفراح» ضمن المحسنات المعنوية عن «الجمع مع التفريــق» وعرفه فقال: هو أن تُدخل شيئين في معنى واحد وتفرق جهتي الإدخال.

الجمع مع التفريق والتقسيم: تحدث الرازي عن هذا الفن البلاغي باسم «الجمع والتفريق والتقسيم» في وجه واحد في كتابه «نهاية الإيجاز». غير أن الحاتمي سماه «الجمع مع التفريق والتقسيم» ومثل له بقوله:

ومــن قيــد المعبــود قيــد عبــده ... وذلك بادٍ وهــو خــافٍ علــى القلــب

أما السكاكي فأدخله في المحسنات المعنوية ومثل له بقوله:

فكالنــــار ضـــوءًا وكالنــــار حــــرًّا ... محيــــا حبيــــبتي وحرقــــة بــــالي

فــــذلك في ضـــوئه في اختيــــال ... وهــــذا لحرقتــــه في احــــتلال

وتكلم القزويني في كتابه التلخيص عن الجمع مع التفريق والتقسيم، فقال: ومنه الجمع مع التفريــق والتقــسيم، كقوله تعــالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٥- ١٠٨]، وقد يطلق التقسيم على أمرين آخرين:

أحدهما: أن تذكر أحوال الشيء مضافًا إلى كل ما يليق به كما قال:

ســأطلب حقــي بالقنــا ومــشايخ ... كأنهم مــن طــول مــا التثمــوا مــرد

والثاني: استيفاء أقــسام الــشيء، كقولــه تعــالى: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على سبيل الجميع ثم قسم هذا الجمع فقيل: ومن الأعراب كذا ، ومن الأعراب كذا ، كما أن فيه اتفاق الفواصل في الوزن والقافية ؛ ففي الآية الأولى ﴿ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، وفي الثانية ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وفي الثالثة ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، ومجيء (الميم) بعد حرف المد (الياء) استراحة للإيقاع الذي توفره (الميم) الساكنة ، وفيها من حسن الجرس ما لا يخفى .

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الإساءة - أيضاً - في سياق بيان أفعال المسيئين وأقوالهم قوله- تعالى - : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة:١٠١ - ١٠٢].

اختلف أهل التأويل في المعني بهذه الآية ،والسبب الذي من أجله أُنزلت فيه ، فقال بعضهم : نزلت في عشرة أنفس كانوا تخلفوا عن رسول الله - ﷺ - في غزوة تبوك منهم أبو لبابة ، فربط سبعة منهم أنفسهم إلى السواري عند مقدم النبي - ﷺ - توبة منهم من ذنبهم ، وروي عن بعضهم أن المعني بهذه الآية أبو لبابة ؛ حيث أشار إلى بني قريظة حين أخذوا رأيه في النزول عن حكم الإسلام فأشار إليهم بالذبح (١) ، وهناك روايات أخرى تزيد وتنقص في عددهم غير أن أبا لبابة واحد منهم .

[الشورى: ٤٩].

ونهج طريقته هذه شُرَّاحه وكذلك السيوطي في كتابيه «الإتقان» و«معترك الأقران» وابن معصوم المدني في كتابه «أنوار الربيع». وكذلك جمع بين هذه الأمور الثلاثة الوطواط في كتابه حدائق السحر فعرف الفن ثم قال: «جمع هذه الأشياء الثلاثة مع بعضها مشكل للغاية».

وللاستزادة يمكن الرجوع إلى: معجم البلاغة العربية (١٣٣)،الإيضاح (٣٣٥-٣٣٦)،التبيان (٤٠٥-٤٠٦)،الطراز (٧٩/٣)،المصباح (٢٤٥) .

(١) ينظر : أسباب النزول للواحدي (١٨٤ – ١٨٥) ، لباب النقول للسيوطي (١٦٠ – ١٦٢) ، وتفسير الطبري (٦ / ٤٥٩ – ٤٦٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تتحدث الآية الأولى من هاتين الآيتين عن منافقي أهل المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيان أحوال أهل البادية منهم (١) ،فتقرر أنهم تمهروا في النفاق ، وبلغوا فيه الغاية حتى لم تعد تظهر عليهم أي علامة من علاماته ، وخفي أمرهم على النبي - ﷺ - مع فطنته وصدق فراسته ؛ " لفرط تنوّقهم في تحامي ما يشكك في أمرهم "(٢)، ولم يكن يعلم حقيقة طواياهم إلا الله عز وجل ، وقد توعدهم الله بالعذاب مرتين في الدنيا أولاهما: كشف سريرتهم ، والثانية: في القبر ، فإذا كان يوم القيامة كان لهم في جهنم عذاب عظيم .

وتتحدث الثانية عن فريق من الذين تخلفوا عن المسير مع رسول - ﷺ - إلى تبوك، فلما رجع النبي والمؤمنون معه أدركوا خطأهم وأعلنوا توبتهم، وقد قبل الله توبتهم فتاب عليهم ، وقد تعددت الروايات في سبب نزول هذه الآية ، فقيل إنها في أبي لُبابة وعدد ممن معه يزيد في بعض الروايات وينقص في بعضها ؛ فهم الذين تخلفوا ثم تابوا (٣) ، وأياً كان العدد فقد كان أبو لبابة واحداً منهم .

تطالع القارئ سمات الفصاحة في كلمات هاتين الآيتين من الوضوح ، والسهولة وموافقة العرف العربي فيما جرت به الألسنة من الفصاحة . لكن هناك كلمتان تستوقفان المتبصر لومض الألفاظ :

أولاهما :كلمة ﴿ مَرَدُواْ ﴾ فإن فيها ومضاً يكشف للمتأمل أنموذجاً من النفاق متفرداً لا نظير له . فهذه المادة (م ، ر ، د) تدل على الشدة الدائمة ، والخروج عن المعتاد . يتبين ذلك مما جاء في القاموس : " مرد – كنصر ، وكرم – مروداً ، ومرودة فهو مارد ، ومَريد ومتمرد أقدم وعتا ، أو هو أن يبلغ الغاية التي يخرج بها من جملة ما عليه ذلك الصنف " (٤). ومعنى هذا أن المنافقين من أهل المدينة بلغوا من النفاق درجة جعلتهم صنفاً متفرداً من النفاق؛ ولذلك قال الزمخشري:" ﴿ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ تمهّروا فيه من مرن فلان عمله ،ومرد عليه إذا درب به ،وضَرِي حتى لان عليه ، ومهر فيه" (٥)،

---

(١) ينظر : الفتوحات الإلهية : (٣/ ٣٠٣)
(٢) الكشاف : (١١ / ٤٤٧) .
(٣) ينظر جامع البيان لابن جرير الطبري (٦ / ٤٥٩ – ٤٦٠) .
(٤) القاموس المحيط : باب الدال ، فصل الميم .
(٥) الكشاف : (١١ / ٤٤٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فهو يريد بلفظة (التمهُّر) و(الضراوة) منتهى ما يصل إليه من يحاول أمراً من المهارة والتوغل فيه ، وقد كان منافقوا المدينة كذلك ، ومن ثم اتبعت الجملة التي فيها الفعل ﴿ مَرَدُواْ ﴾ بقوله - جل وعلا -:﴿ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ ﴾ .

يقول الزمخشري:"دلَّ على مرانتهم عليه ومهارتهم فيه بقوله:﴿ لَا تَعۡلَمُهُمۡ ﴾ أي: يخفون عليك مع فطنتك ... وصدق فراستك لفرط تنوقهم في تحامي ما يشكك في أمرهم"(١).

والثانية فيهما : كلمة ﴿ عَسَى ﴾ في قوله:﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ فإنها للرجاء ، فمن الذي منه الرجاء كائن : أهو الله ؟!

المتأمل في هذه الجملة يجدها إخباراً من الله برجاء كينونة التوبة! وهو– جل وعلا – أعظم من أن يكون منه رجاء،وإلا فمن هو أهل للرجاء غيره ؟ هنا يتجلى ومض ﴿ عَسَى ﴾ ، وفي بيانه يقول أولو العلم ، ومنهم القسطلاني إذ يقول: " وعبر بعسى للإشعار بأن ما يفعله – تعالى – ليس إلا على سبيل التفضل منه ، حتى لا يتكل المرء بل يكون على خوف وحذر"(٢)، وهذا قول ينم عن ذوق رفيع يدرك ما توميء إليه الألفاظ من إشارات تدق إلا على ذوي القريحة الوقادة .

على أن هناك من يرى أن كلمة﴿ عَسَى ﴾ هنا تومئ إلى ثبوت قبول التوبة ثبوتاً لازماً ، فقد نقل الشيخ الجمل عن المواهب ما نصه " اتفق المفسرون في أن كلمة ﴿ عَسَى ﴾ من الله واجب. قال أهل المعاني؛ لأن لفظة﴿ عَسَى ﴾ تفيد الإطماع ، ومن أطمع إنساناً في شيء ثم حرمه كان عاراً عليه ، والله – تعالى – أكرم من أن يطمع أحداً ثم لا يعطيه إياه " (٣).

على أن صاحب الدر السمين يجيز أن يكون الرجاء صادراً من الذين ندموا وتابوا ، أي إنهم تابوا راجين أن تقبل توبتهم ، نرى ذلك في قوله:"﴿ عَسَى ٱللَّهُ ﴾ يجوز أن تكون الجملة مستأنفة ، ويجوز أن تكون في محل رفع خبراً لآخرون ، ويكون قوله:﴿ خَلَطُواْ ﴾ في محل نصب على الحال و(قد) معه مقدَّرة " (٤).

---

(١) السابق .
(٢) الفتوحات الإلهية : (٣ / ٣٠٥) .
(٣) السابق .
(٤) الدر المصون للسمين الحلبي (٣ / ٥٠٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والذي يروق لي هو قول القسطلاني ، وإن كان ما ذكره صاحب المواهب والسمين، يمكن أن يكون صحيحاً ، فإن كون الجملة مستأنفة أظهر ، ودليل ذلك قوله - تعالى- : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ فهي بمثابة التعليل لقبول توبتهم ، وكون القبول تفضلاً منه أولى من أن يكون واجباً وإن كان من قبيل مراعاة ما هو الأكرم ، فإن في التفضل ما يجعل المتفضل عليه حذراً وخائفاً أن لا يكون فيبقى آملاً أن يتحقق فضله إلى أن يلقاه .

وعندما ينظر المتأمل في النظم يسترعى نظره في تركيب الجمل ما يلي :
في قوله – تعالى – : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾ قدم المسند ﴿ مِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ على المسند إليه ﴿ مُنَٰفِقُونَ ﴾ ، وسر هذا التقديم استدعاء الإصغاء وإيقاظ الأذهان للمسند إليه ماذا يكون ؟ فإذا قيل منافقون تمكن العلم لدى المخاطبين بمن حولهم ، وعرفوا حقيقة أمرهم أنهم منافقون فيكون التعامل معهم ذا طبيعة خاصة لا يوثق بهم ، ولا يركن إليهم ، وإن كان التعامل معهم مستنداً إلى ظاهر أمرهم، أعني أنهم لا يعاملون معاملة الكفار ولكن بيقظة ، وحذر وعدم اطمئنان إلى كل ما يصدر منهم في المواقف التي يُحتاج فيها إلى اليقظة والحذر ، ولو لم يقدم المسند فقيل : (ومنافقون من الأعراب ممن حولكم) لم يكن له هذا الوقع ؛ فقد يمر الخبر دون تنبه إليه، كسائر الأخبار المعتادة التي لا يؤبه بها فتمر دون علوق بالنفس ، وتجذر في القلب .
وكذلك الحال في جملة ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ ، فالتقديم لاستدعاء اليقظة وقوة الانتباه ليعرف على وجه اليقين ما ليس في الحسبان وهو كون المسند إليه (قوم) أو فريق مردوا على النفاق ، وكأنه قيل : لا تحسبوا أن النفاق مقصور على أهل البادية فقط ، بل هو موجود فيمن حول المدينة من الأعراب وليس مقصوراً على الأعراب وحدهم بل يوجد من أهل المدينة من هو أوغل في النفاق بيد أنهم عرفوا كيف يخفون أمرهم حتى لا يمكن لأحد من الفطناء ، وذوي المهارة في الفراسة أن يكشف سترهم ، ويخترق حجب التمويه فيفضح خبيئتهم ، ومن أجل تمكين اليقظة والقصد إلى إيصال مضمون الخبر إلى أغوار المخاطبين حذف المسند إليه وذكرت صفته ؛ لأن في الحذف مسارعة إلى بيان ما تومض به الصفة من ضراوة النفاق ، ومهارة الخداع عنه ، وقد جاءت الصفة في صورة الماضي؛للإيماء إلى تحقق حدوث المرود وتجذره فيهم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي جملة ﴿ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ ﴾ أوثر حرف النفي﴿ لَا ﴾ وجيء بالمسند في صورة المضارع وذلك يجعل النفي في المستقبل [(١)] ؛ مع أن الغرض نفي العلم بمن مردوا على النفاق حال التكلم، للإيماء إلى أن عدم العلم بهؤلاء المنافقين منسحب على الحال والاستقبال انسحابه على الماضي لو لم يخبره الله بأمرهم ، ولذلك عقبت جملة نفي العلم عنه - ﷺ - بإثبات العلم له عز شأنه في قوله: ﴿ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ ﴾ .

وفي هذه الجملة جيء بالمسند إليه في صورة جماعة المتكلمين ﴿ نَحۡنُ ﴾ ؛للإيماء إلى عظم نفاذ علمه إلى ما شأنه أن يخفى على غيره ، ولتأكيد ذلك قدم على المسند الفعلي لإفادة القصر ؛فالمعنى نحن نعلمهم لا أنت ، وهو من قبيل قصر الصفة على الموصوف قصر قلب كما هو ظاهر من السياق ، ولا يخفى الانتقال من خطاب الجمع في قوله ﴿ وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم... ﴾ إلى المفرد في قوله: ﴿ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ ﴾ ؛ لأن العلم بحال المنافقين إنما يتصور حصوله من الرسول سواء أكان ذلك بصدق فراسته ؛ فهو في ذلك أبعد منهم مدى، أو كان بالوحي إليه من رب العزة جل وعلا.

وفي قوله: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ﴾ أدخلت السين على المسند ؛ لأن إلحاق العذاب بهم – وهو مضمون الجملة الخبرية – سيكون في المستقبل أي بعد إعلام الله له بهؤلاء المنافقين ، وجيء بالمسند إليه في صورة ضمير العظمة ؛ للإيماء إلى شدة هذا العذاب ، سواء أكان ذلك بفضحهم وهم على قيد الحياة أو بعد موتهم في القبر ، ولا غرابة في شدة وقع الفضيحة على نفوس المنافقين فقد توهموا أن تمهرهم في إخفاء نفاقهم لن يمكن أحداً من كشفه ، فلما انكشف المستور كان الكشف عذاباً ما بعده عذاب . كما لا غرابة في شدة عذاب القبر ، فإنه أمر لا يعلم مداه إلا الله . وفي المفعول المطلق إيماء إلى مضاعفة العذاب في الدنيا ؛ حيث يردف الثاني الأول دون انقطاع .

وفي جملة ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ جيء بالحرف ﴿ ثُمَّ ﴾ داخلة على المضارع ﴿ يُرَدُّونَ ﴾ ؛للإيماء إلى حدوث العذاب في المستقبل ؛ لما يدل عليه من التراخي ، وهذا التراخي يشير إلى أنه سيكون بعد انتهاء أعمارهم ، ومدة بقائهم في

---

(١) يقول عبد القاهر في سياق حديثه عن النظم : " وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في كل باب وفروقه .. وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصيته في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه نحو أن يجيء بـ (ما) في نفي الحال، وبـ (لا) إذا أراد نفي الاستقبال " . دلائل الإعجاز (٧٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

القبر، وذلك إنما يكون يوم القيامة يوم يبعث الناس من القبور .وهو ما عبر عنه بالمسند الفعلي ﴿ يُرَدُّونَ ﴾.

وقد حذف المسند إليه ، وبني الفعل للمفعول ، للعلم بالفاعل وهو الله – جل وعلا – إن بأمره أو بملائكته، وجيء بالمتعلق ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ ﴾ للمساءة ، وذكر لفظ ﴿ عَذَابٍ ﴾ للتهويل ، وأكد هذا التهويل بالوصف ، لتشتد مساءة المنافقين ، لا سيما الماردين على النفاق.

هذا ما يتراءى للناظر المتأمل في تكوين جمل الآية الأولى أما الثانية فإنه يتراءى له في نظم الجمل فيها ما يلي :

في جملة قوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ حذف المسند إليه المدلول عليه بصفته﴿ ءَاخَرُونَ ﴾ ؛ لأن ذكره يعوق الذهن عن الوصول إلى ما يتعلق به وهو المسند﴿ خَلَطُواْ ﴾ ، والتقدير: وأناس آخرون اعترفوا، وذكر مقدماً على المسند؛ لما فيه من طول يجعل الفكر متعلقاً به ، متطلعاً إليه ففي ذكر الصفتين ﴿ ءَاخَرُونَ ﴾، ﴿ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ – رغم حذف المسند إليه – طول يجعل حركة الذهن قوية رغبة في معرفته، فإذا ذكر المسند كان ذكره تلبية لتطلبه وإجابة لتطلعه ، وسيق هذا المسند في صورة الفعل الماضي ؛ لإفادة الحدوث لأمر لم يكن من قبل، وهو خلط العملين . وقد ذكر المفعول – هنا– ؛ لبيان ما وقع عليه الخلط ، وهو قوله:﴿ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾، وقيد المفعول بالوصف، لتمام البيان حتى لا يضل الفكر في متاهة الاحتمالات، ولا يخفى أن المعطوف محذوف ؛ لدلالة ما قبله عليه وسر الحذف المعاجلة بذكر الوصف الذي يميز المتعاطفين بعضهما من بعض.

هذا . ولا يخفى أن الجمل التي تكونت منها الآية الأولى والثانية إلى قوله : ﴿ وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ مرسلة من التأكيد ؛ لأن المخاطبين لم يكن لهم علم بمضامين الخبر في هذه الجمل ، فالخبر فيها من الضرب الابتدائي الذي يقدم للمتلقي عندما يكون خالي الذهن من محتواه .

وفي قوله: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ جملة إنشائية صدرت بالفعل الدال على الرجاء ﴿ عَسَى ﴾ وهو يومئ – كما سلف بيانه – إلى إشعار المتلقي بأن قبول التوبة بمحض الفضل ليظل على حذر وخشية من ألا تقبل ، وإنما كان مشعراً بذلك لإسناده لله عز وجل .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهنا يصل المتأمل إلى الجملة الأخيرة التي وقعت ختاماً للآية الثانية فيجدها مصدرة بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ والسر في التأكيد هو الإيماء إلى عظمة الخبر ؛ ليتلقاه القارئ بالقبول؛ لأول وهلة. وفي إيراد المسند إليه اسماً ظاهراً هو لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ خروج على خلاف مقتضى الظاهر ؛ إذ الظاهر أن يقال (إنه غفور رحيم) لسبق ذكره ، والسر في ذلك الإيماء إلى أنه أهل لكثرة حصول الرحمة والمغفرة ؛ ولم لا ومن معاني لفظ الجلالة (السيادة ،والملك)، ومن كان هذا معنى اسمه ، فهو – كما قال – أهل التقوى وأهل المغفرة .

ويصل إمعان النظر بالمتلقي إلى ارتياد ملامح تكوين العبارة ، وأعني بذلك الربط بين الجملتين فيرى لوناً ترتبط فيه الجملة بسابقتها ارتباطاً عضوياً أي ارتباط بغير رابط لفظي وهو ما اصطلح على تسميته بالفصل ، ولوناً آخر ترتبط فيه الجملة بسابقتها برابط سببي ، وأعني به الرابط اللفظي ، وهو ما اتفق على تسميته بالوصل .

ومن الأول : فصل جملة ﴿ لَا تَعۡلَمُهُمۡ ﴾عما قبلها وهي جملة قوله: ﴿ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ ؛ لأن الثانية تأكيد معنوي لها ، فالجملتان مختلفتان معنى ولكن يلزم من حصول الأولى حصول الثانية ، ولا يخفى أنه يلزم مُرودهم على النفاق انتفاء علمه - ﷺ - بهم ، ويكشف عن هذا اللزوم الزمخشري في تفسيره لقوله- تعالى- : ﴿ لَا تَعۡلَمُهُمۡ ﴾ بقوله : " أي يخفون عليك مع فطنتك .. وصدق فراستك لفرط تنوّقهم في تحامي ما يشكك في أمرهم "(١) ، فقوله لفرط تنوّقهم الخ هو معنى الجملة الأولى : ﴿ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ .

وكذلك فصلت جملة ﴿ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ ﴾ عما قبلها وهي جملة ﴿ لَا تَعۡلَمُهُمۡ ﴾ ؛ لأنها تأكيد لفظي.ويبين ذلك– أيضاً – قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ ﴾ :" أي لا يعلمهم إلا الله" (٢). فانتفاء العلم بهم ممن سوى الله تأكيد لانتفاء علمه - ﷺ - بهم ، وتأكيد الجملة لما قبلها لفظياً أو معنوياً يسمى كمال الاتصال .

كما فصلت جملة ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ﴾ عما قبلها بدءاً من قوله:﴿ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡ ﴾ لشبه كمال الاتصال. فإن ما قبلها يثير سؤالاً

---

(١) الكشاف : (١١ / ٤٤٧) .

(٢) السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقديره: إذا مردوا على النفاق بحيث لا يعلمهم إلا الله فما مصيرهم ؟ فكان قوله:﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ جواباً عن هذا السؤال المقدر .

هذا في الآية الأولى، أما الآية الثانية فقد فصلت جملة ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ عما قبلها لشبه كمال الاتصال أيضاً ؛ إذ أنها جواب سؤال تقديره : وما حال من اعترفوا بذنوبهم فخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ؟ كما فصلت جملة قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ عن جملة ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، لكونها تذييلاً لها مؤكدة لمعناها، فإن الجملة السابقة إخبار بتوبة الله عليهم ، وجملة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تقتضي تأكيد قبول التوبة .

أما النوع الثاني: فيتمثل في قوله:﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ الآية . فقد وصلت بالآية السابقة عليها وهي قوله:﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ ، حيث الآيات السابقة تتحدث عن أعراب البادية منافقهم ومؤمنهم، وهذه الآية تتحدث عن الأعراب حول المدينة ، وعن المنافقين من أهلها. وهذه الآيات خبرية لفظاً ومعنى ، والصلة بين المسند إليه والمسند فيهن لا تخفي على باحث .

ووصلت جملة ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ بجملة ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾ ، والجملتان خبريتان لفظاً ومعنى والجامع بينهما هو الاشتراك في صفة النفاق .

ووصلت جملة ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ... ﴾ بجملة ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ من طريق (ثم) المفيد الترتيب والتراخي ولا غرو ، فإن العذاب العظيم يعقب العذاب في الدنيا بعد زمن طويل هو مدة العمر ، والإقامة في البرزخ إلى يوم القيامة .

ووصلت الآية الثانية﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ ﴾ بالآية الأولى فهي تتحدث عن صنف ثالث شاركوا المنافقين في التخلف ، ولكنهم ندموا وتابوا فتاب الله عليهم ، والآيتان خبريتان لفظاً ومعنى ، والجامع بينهما لا يخفى وهو التخلف بغير عذر صحيح . فبينهما التوسط بين الكمالين .

وفي الآيتين إيجاز بالحذف(١) يتمثل في حذف الموصوف في الآية الأولى وهو المسند إليه في قوله:﴿ مَرَدُواْ ﴾ أي: أناس أو قوم مردوا وفي الآية الثانية حذف الموصوف

---

(١) سماه الجاحظ «الإيجاز المحذوف» وعرفه بقوله: «وهو ما يكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعين المحذوف»، أو هو كما قال ابن الأثير: «ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف، ولا يكون إلا فيما زاد

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في قـــوله: ﴿ ءَاخَرُونَ ﴾ أي: وقوم آخرون، وكذلك في قوله: ﴿ وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ أي: وعملاً آخر سيئاً ، وقد سلف الحديث عن ذلك .

وفيهما من فنون البديع الاحتباك[1]: وهو أن يحذف من الأول ما يـدل عليـه في الثاني ويحذف من الثاني ما يدل عليه في الأول.وذلك ماثل في قوله - تعالى -: ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صَلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ إذ الأصل خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيئ ، وعملاً سـيئاً بآخر صالح ، وقد ألمح إلى ذلك الزمخشري حيث قال:" فإن قلت قد جعل كل واحـد منهما مخلوطاً فما المخلوط به ؟ قلت : كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به ؛ لأن المعـنى خلط كل واحد منهما بالآخر كقولك : خلطت الماء واللبن . تريد خلطت كل واحـد منهما بصاحبه ، وفيه ما ليس في قولك خلطت الماء باللبن ؛ لأنك جعلت الماء مخلوطـاً واللبن مخلوطاً به، وإذا قلته بالواو وجعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما كأنك قلت: خلطت الماء باللبن ، واللبن بالماء " [2] .

معناه على لفظه»، ثم قال: «أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر أشبه بالسحر، وذلك أنك ترى فيـه تـرك الـذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ مـا تكـون مبيّنًـا إذا لم تبين، وهذه الجملة تنكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنظر». وسماه الجاحظ «الإيجاز المحذوف» بينما سماه أبو عبيدة «مجـاز المختصر».

والأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها كما ذكرها ابن الأثير فقال: «وأن يكون في الكلام ما يـدل علـى المحذوفات فإن لم يكن هناك دليلٌ على المحذوف فإنه لغو من الحديث ولا يجوز بوجه ولا سبب»، ومن شرط المحـذوف في حكم البلاغة أنه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غث لا يناسب ما كان عليه أولًا من الطلاوة والحسن.

ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة (٢٤٥).

(١) الاحتباك من الحبك: الشد والإحكام، وكل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته، والاحتباك أحد أقسام الحـذف، وقد سماه الزركشي «الحذف المقابلي» وعرفه بقوله: «هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف مـن واحـد منـهما مقابله لدلالة الآخر عليه».

وذكره السيوطي باسم «الاحتباك» وقال: «وهو من ألطف الأنواع وأبدعها، وقلّ من تنبه له أو نبه عليه من أهـل البلاغة، و لم أره إلاّ في شرح بديعية الأعمى «ابن جابر» لرفيقه الأندلسي. وأشار إليه الزركشي في البرهـان و لم يـسمه هذا الاسم بل سماه «الحذف المقابلي» وأفرده بالتصنيف من أهل العصر العلامة برهان الدين البقاعي.

وقال الأندلسي في شرح البديعية: «من أنواع البديع الاحتباك، وهو نوع عزيز، وهو أن يحـذف مـن الأول مـا أثبت نظيره في الثاني، وفي الثاني ما أثبت نظيره في الأول».

ومنه قوله- تعالى-: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: ٣٥]، الأصل: فإن افتريته فعلي إجرامي وأنتم براء منه، وعليكم إجرامكم، وأنا بريء منكم وممّا تجرمون، فنـسبة قوله تعالى: «إجرامي» وهو الأول إلى قوله: (وعليكم إجرامكم) وهو الثالث كنسبة قوله: (وأنتم براء منه) وهو الثـاني إلى قوله تعالى: «وأنا بريء مّما تجرمون» وهو الرابع، واكتفى من كل متناسبين بأحدهما.

ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة (٣٣، ٣٤).

(٢) الكشاف : (٢ / ٤٤٨)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونقل الكرخي عن التفتازاني أن الواو بمعنى الباء حيث قال التفتازاني:"وتحقيقه أن الواو للجمع والباء للإلصاق ، والجمع والإلصاق من قبيل واحد ، فسلك به طريق الاستعارة "[1].

والذي رآه التفتازاني جد بعيد ، لذلك كان قول الزمخشري أقرب إلى الصواب فيما يلوح لي - والله أعلم ونسبة العلم له أسلم - .

وفي الآيات إطناب يتمثل في كون الجملة الثانية تأكيداً للأولى ، كما أن فيها تذييلاً .

وفي الآيتين توافق الفاصلتين في حرف الميم مسبوقة بالياء في كل من ﴿ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وفي ذلك إطالة للصوت يعقبه انتهاء إلى الميم الساكنة ، وذلك يضفي على الكلام نغماً تستطيبه النفس ، وذلك نوع من البديع لا يخفى حسنه .

ومما ورد فيه لفظ الإساءة في سياق التعبير عن بيان أفعال المسيئين وأقوالهم ما جاء في سورة يوسف في قوله- تعالى- : ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [يوسف: ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥] .

تصور هاتان الآيتان موقف امرأة العزيز من سيدنا يوسف - عليه السلام، وتكشف في بلاغة معجزة عن أبعاد المحنة العصيبة التي مرَّ بها يوسف - عليه السلام؛ فصمد لها مستعصمًا بالله ونجاه الله من تأثيراتها ومغرياتها ووسائلها الخبيثة .

فلقد أحبت امرأة العزيز يوسف حبًّا شديدًا لشبابه وجماله وبهائه، فتجملت له ودعته إلى نفسها بعد أن أوصدت دونه كل باب يستطيع الفرار منه .

فأبى يوسف وامتنع منها أشد الامتناع، ولكن إلحاحها في طلبه وإسرافها في التهالك عليه نقل الصراع بينهما إلى طور جديد؛ (قد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) .

---

(١) الفتوحات الإلهية : (٣ / ٣٠٥) ، نقلاً عن الكرخي .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتخلص منها، فعدت خلفه لتمسك به، فخرجا يستبقان إلى الباب يوسف يفر منها وهي تطلبه، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه فقدته نتيجة جذبها له، واستمر يوسف هاربًا وهي في إثره، فوجدا زوجها عند الباب ، هنالك بدا مكـرُ تلـك المـرأة وكيدها وخداعها، فقالت على الفور تتهم الفتى وتجيب على السؤال المنطقـي الـذي يهتف به موقفهما المريب: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسـف: ٢٥]. وكأنها تشير إلى العقاب المأمون الذي تقرره امرأة عاشقة فالسجن أو التعذيب أما القتل فلا [١].

ومقام الآية من السورة: أن هذه الآية في مقام بيان ما دار بين امرأة العزيز ونبي الله يوسف – عليه السلام – في موطن إشباع الغريزة النسوية عند امرأة العزيز وتحصن نبي الله يوسف – عليه السلام – بإخلاصه لمولاه، وكذلك نجزي المحسنين.

لا حاجة لقارئ هذه الآيات إلى استشارة معجم لغوي ليقف على معاني ألفاظها إن كان على ذرو من رصيد لغوي ، ولا أظنه يجد ثقلاً في نطقها ، وهي ليست خارجة على مقتضى العرف العربي في صياغة ألفاظه .

لكن بعض كلماتها له إيماءات تتراءى من خلال السياق منها : الفعل (راودتـه) ، فإنه على صيغة المفاعلة من (راد يرود) إذا جاء وذهب كما ذكر ذلـك الزمخـشري في تفسيره [٢] .

وفي لسان العرب : الرود : مصدر فعلْ الرائد ... وأصل الرائد الذي يتقدم القوم يُبْصِر لهم الكلأ ومساقط الغيث ... قال أَبو حنيفة : رادت الإبل ترود رياداً : اختلفت في المَرعى مقبلة ومدبرة ... والموضع مَرَاد ، وكذلك مَراد الريح ، وهو المكـان الـذي يُذْهَبُ فيه ويجاء [٣] .

ومؤدى هذا أن الفعل (راود) بصيغة المفاعلة يومئ إلى الإغراء فهي تجيء أمامـه ،

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (١٨٨/٧، ١٨٩)، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢١٢/٦)، المحـرر الوجيز لابن عطية (٢٣٢/٣)، معالم التنزيل للبغوي (٤٢٠/٢، ٤٢١)، مفاتيح الغيب للرازي (٩٦/١٨، ٩٧)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١١٢/٩)، مدارك التنزيل للنسفي (٩٨/٢، ٩٩)، البحـر المحـيط لأبي حيـان (٢٩٣/٥، ٢٩٤)، الدر المصون للسمين الحلبي (١٦٩/٤، ١٧٠)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلـي (٥٥/١١)، فتح القدير للشوكاني (٢٠/٣) ، تفسير القاسمي (٢١٥/٩)، التحرير والتنوير للطاهر بـن عاشـور (٢٥٤/٥، ٢٥٥).

(٢) الكشاف : (٥٠٩/١٢) .

(٣) ينظر : لسان العرب لابن منظور ، باب الراء ، مادة (رود) (٦ / ٢٥٩ – ٢٦٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتذهب مبرزة مفاتنها لتقع من نفسه موقعاً قبل أن تصرح له بمرادها ؛ لتنزع من نفسه التأبي ، وإذا صرحت له برغبتها أجابها دون مراجعة .

وقد أُوثر حرف الجر (عن) في قوله -تعالى-: ﴿ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ مع أن (راود) الأصل فيه أن يتعدى بـ(على) وأيضا في مراودة امرأة العزيز ليوسف مايوحي بالمغالبة التي تتطلب حرف الإستعلاء ، فلمَ عدل عن حرف الإستعلاء إلى حرف المجاوزة ؟

والجواب: أن المراودة مفاعلة من راد يرود ، إذا جاء وذهب ، كأن المعنى خادعته عن نفسه ، أي: فعلت مايفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لايريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه ويأخذه منه [1]، وكأن امرأة العزيز تلطفت إليه ، وحاولت اغراءه وشغله عن نفسه ، إيمانا منها بأن الحيلة والخداع هما الوسيلة لما تريد وليست المغالبة والقهر ، وفي ضمن ذلك ايحاء بأن ماتبغيه منه هو خسارة النفس وضياعها ، وذلك مايقتضيه مجاوزة النفس والبعد عنها[2].

والفعل (غلّق) بمجيئه على صيغة (تفعل) يدل على الكثرة وليس للكثرة هنا معنى؛ لأن لفظ (الأبواب) ينهض بها . فالمراد بالكثرة هنا (الإحكام) ، وفي إحكام (غلق) الأبواب إشارة إلى الاحتراس الذي توخته ، فإنه ربما لا يطيعها ، فإذا رأى أبواباً كثيرة شديدة الإحكام لا يجد بداً من النزول على رغبتها ، (وربما) جاء من لا يتوقع مجيئه وعندئذ يكون في فتح الأبواب واحد بعد آخر نوع من المهلة يتيح (لهما) إصلاح (هيئتهما) فلا يرتاب في أمرهما .

والفعل (همَّ) مسند إلى ضمير الغائبة يدل في الاستعمال اللغوي إلى القصد والعزم ، ومن ذلك قول الخنساء [3] :

وفضّل مرداساً على الناس حلْمُه   وأنْ كُلُّ هَمٍّ هَمَّهُ فهو فاعلُه [3]

ولكنه في سياق هذه القصة يدل على الجذب والشد ، وفي ذلك إيماء إلى تمكن

---

(١) ينظر: الكشاف (٥٠٩/١٢).

(٢) ينظر:من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم لمحمد الأمين الخضري (٣١٩-٣٢٠).

(٣) تُماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية السُّلَمية. من بني سُليم. أشهر شواعر العرب. وأشعرهن على الإطلاق. توفيت سنة أربع وعشرين.

ينظر: معاهد التنصيص (٣٤٨/١)، وأعلام النساء (٣٠٥/١).

(٤) ديوان الخنساء (١٨٠)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الشهوة منها ، ومن ثمّ إلى إصرارها على قضائها منه ، فقد انتقلت من الإغراء بالمجيء والذهاب أمامه مظهرة مفاتنها إيماء منها إلى دعوته إليها صراحة بقولها : (هيت لك) ولما رأت إباءه جذبته إليها .

وفي إسناده إلى ضمير الغائب (همَّ بها) إيماء إلى شدة الباعث على مطاوعتها ، ولكنَّ برهان ربه – وهو ما آتاه من الحكم والعلم – كان أقوى . وهذا ما أراده البقاعي بقوله : " لكن لما كان البرهان حاضراً لديه حضور من يراه بالعين ، لم يغطِّه وُفورُ شهوة ولا غلبة هوى ، فلم يهم أصلاً مع كونه في غاية الاستعداد لذلك ؛ لما آتاه الله من القوة مع كونه في سن الشباب " [١] .

والفعل (استبقا) يشير إلى بلوغ الصراع بينهما أشده ، فإن صيغة (افتعل) تدل على التصرف باجتهاد ومبالغة [٢] وحين فسر الأزهري قوله - تعالى-: ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ قال : " معناه ابتدرا الباب يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه فإن سبقها يوسف فتح الباب وخرج ولم يجبها إلى ما طلبت منه،وإن سبقته أغلقت الباب دونه" [٣].

ومعنى هذا أنها عندما فشلت المواثبة في تحقيق غايتها ، وحين لم تتمكن منه لفراره تعقبته لتحول بينه وبين الخروج من المكان الذي أحكمت غلقه ، ولحقته عند الباب الأخير وجذبته من قميصه حيث كانت المفاجأة التي أنهت الصراع فقد ﴿ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ ﴾ .

ومن الكلمات الموحية الفعل (قدت) فإنه يشير إلى بركان ثائر بداخلها يتشكل من عناصر الرغبة الجامحة ، والغيظ المتدفق لإبائه ، والإصرار على تطويعه لما تريد ؛ ذلك أن: " القد : القطع المستأصل أو المستطيل ، أو الشق طولاً " [٤] ، ولا يكون على هذه الصورة أو تلك إلا إذا كان القاطع شديداً ، ولا غرو فقد كانت في عنفوان العصبية والانفعال ، وحينما تجذب قميصه تكون في غاية القوة التي تجعل قطعه يمتد من أعلاه إلى أسفله .

تلك هي الكلمات الموحية في الآيات وفق ما بدا لي منها ، والآن فإن للقارئ أن

---

(١) نظم الدرر : (٤ / ٣٠) .
(٢) ينظر : التكملة في تصريف الأفعال – ملحقه بشرح ابن عقيل – تحقيق محيي الدين : (٤ / ٢٦٤) .
(٣) لسان العرب ، باب السين (سبق) (٧ / ١١٦) .
(٤) القاموس المحيط : باب الدال ، فصل القاف .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتأمل في النظم .

وفي النظم يلحظ المتأمل ما يلي :

في الآية الأولى تبدو جملة ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ وقد جيء بالمسند على صيغة المفاعلة مع أنه كان منها وحدها . وذلك بجعل السبب الذي أدى إليه بمترلة المشاركة فيه ، فالذي دعاها إلى المراودة فتنتها بجمال يوسف وفتائه ، فأقيمت الفتنة به مقام مشاركته في المراودة .

وهكذا جميع الأفعال التي يكون الفعل فيها من أحد الجانبين ، والآخر سببه نحو مطالبة الدائن ، ومماطلة المدين ، ومداواة الطبيب ؛ " فإن هذه الأفعال وإن كانت صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما ، وهذا باب لطيف المسلك مبني على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشيء يقام مقامه ، ويطلق عليه اسمه " (١) .

وهناك احتمال آخر يتمثل في أن يكون الغرض مجرد المبالغة في حدوث الفعل (٢) ، وأسند الفعل إلى الموصول دون الاسم العلم الخاص بها ؛ للمحافظة على الستر ، أو لاستهجان التصريح به، ولتقرير الغرض الذي جيء بالخبر من أجله وهو حدوث المراودة ، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك ؛ " ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام ، فإن عدم ميله إليها مع دوام المشاهدة لمحاسنها ، واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكها ينادى بكونه – عليه السلام– في أعلى معارج العفة والنزاهة " (٣) .

وقد عرف المفعول في جملة قوله: ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ ﴾ بأل التي تدل على العهد فالمقصود أبواب القصر الذي تقيم فيه ، وقد أغنت (أل) عن الإضافة فلم تذكر في اللفظ مع إرادتها ، وفي ذلك من الحسن ما لا يجهل قدره ؛ حيث أشير إلى الشيء ولم يذكر لفظه . يقول الإمام عبد القاهر في سياق بيان الجمال في قوله - تعالى - : L 7 6 5 M حيث بين حسن الاستعارة الناشئ من النظم : " واعلم أن في الآية شيئاً آخر من جنس النظم ، وهو تعريف الرأس بالألف واللام ، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة ، وهو أحد ما أوجب المزيَّة ، ولو قيل واشتعل رأسي

---

(١) الفتوحات الإلهية : (٤ / ٢٢) .

(٢) ينظر : السابق .

(٣) تفسير أبي السعود: (٣ / ٣٧٩) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فصُرِّح بالإضافة لذهب بعض الحُسْن فاعرفْه " [١] ، وكذلك الشأن لو قيل : وغلقت أبواب قصرها .

وفي جملة ﴿ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَ ﴾ يلحظ لفظ ﴿ هَيۡتَ ﴾ مقروءاً بالياء وقد كسرت منه الهاء وفتحت ، أما التاء فجاءت مبنية على الفتح ، والكسر ، والضم ، وهو على ذلك اسم فعل ، وعليه فاللام في (لك) للبيان . وقرئ بالهمز مبنياً على الضم (هئتُ) وهو بذلك فعل ماض من : هاء يهيء إذا تهيأ ، وعليه فاللام من صلة الفعل أي إن الفعل (هئت) عدى إلى المفعول باللام [٢]وسواء أكان اسم فعل أو فعلاً فجملة (هيت لك) خبرية لفظاً إنشائية معنى، ومن ثم فسرت باسم الفعل (هلم) بمعنى أقبل [٣].

وفي قوله (معاذ الله) جيء بالمصدر نائباً عن الفعل ، والأصل أعوذ بالله ، ويجوز أن يكون المصدر معمولاً لفعل محذوف والتقدير : أعوذ بالله معاذاً وعلى هذا التقدير ففي الجملة إيجازٌ بالحذف يراد منه الوصول إلى المتعوذ به بسرعة ، وذكر العامل يبطئ من ذلك .

وعلى أي من الاحتمالين فالكلام خبر يراد به الطلب ، إذ الغرض منه رب أعذني من ارتكاب تلك الخطيئة .

وفي جملة ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ يحتمل أن تكون الهاء ضمير الشأن والمراد بربه سيده ، ويكون المعنى : الحال والشأن ربي أحسن مثواي ، ودخول إن على ضمير الشأن يكسب الكلام حُسناً وطلاوةً ، ويتمثل هذا الحسن فيما يضفيه الضمير من الإبهام؛ لأنه لا مرجع له يفسره ، فتتعلق نفس القارئ به وتتطلع إلى معرفة المراد به ، فإذا جاء ما بعده بينه ، وعندئذ تتلقاه النفس بالقبول ؛ لمجيئه بعد الشوق إليه ، يقول الإمام عبد القاهر – في سياق حديثه عن خصائص (إن) : " ومن خصائصها أنك ترى لضمير الأمر والشأن [٤] معها من الحسن واللطف ما لا تراه إذا هي لم تدخل عليه ، بل تراه لا يصلح حيث صلح إلا بها ، وذلك في مثل قوله - تعالى - :

---

(١) دلائل الإعجاز : (٩٤) .

(٢) ينظر : الكشاف : (١٢/ ٥٠٩) .

(٣) ينظر : تفسير الجلالين – على هامش الفتوحات الإلهية : (٤ / ٢٣)

(٤) ضمير الشأن ، أو الأمر ، أو القصة ، أو الحديث ، أو المجهول : هو ضمير يلزم الإفراد والغيبة ، وهو لا يعطف عليه ولا يؤكد ، ولا يبدل منه ، ولابد أن يكون مبتدأ أو أصله مبتدأ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

M i j k l m n o p q r L [يوسف : ٩٠] ... و ... وقوله : M فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ L [الحج : ٤٦] ... فإنه لا يقال : هي لا تعمى الأبصار، كما لا يقال : هو من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع .. وتحتمل أن تكون ضمير الباري جل وعلا " [(1)] ، وبالأول جزم الزمخشري [(2)] وجوز الأمرين السمين [(3)]، ورأي الزمخشري – في نظري – أرجح ، وجملة ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ جارية مجرى ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ ﴾ . ولا يخفى على ذي نظر أن الجمل الأربع الأولى في هذه الآية سيقت خالية من التأكيد؛ لعدم سبق علم المخاطب بها . ومن ثم فهو خالي الذهن من مضمونها مما اقتضى سوقها على هذه الصورة ، أما الجملتان الأخيرتان منها فقد أكدتا مع كون المخاطب لا يشك في مضمونهما ؛ فامرأة العزيز تعلم أنه أكرم مثواه وتعلم أنه لا يفلح الظالمون ، ويعلم ذلك القارئ من قوله - تعالى - حكاية لقول العزيز: M أَكۡرِمِي © L [يوسف:٢١] لتنزيل المخاطب منزلة من شك في ذلك ؛ لفداحة ما أقدمت عليه، من المراودة ، وما تلاها من الأحداث فمن تراود فتاها عن نفسه، وتهم به ، وتغلق الأبواب ، وتدعوه إليها ، وتسارع نحو الباب لتمنع خروجه ، بمثابة من شك في إكرام مثواه ، وفي عدم فلاح الظالمين .

وفي جملتي ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾ احتمال أن يكون القسم منصباً عليهما وأن يكون منصباً على الأولى وحدها . وقد ذكر الزمخشري ذلك فقال : " فإن قُلْتَ : قوله: ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ داخل تحت حكم القسم ... أم هو خارج منه ؟ قُلْتُ : الأمران جائزان ، ومن حق القارئ إذا قدر خروجه من حكم القسم وجعله كلاماً برأسه أن يقف على قوله : ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ ﴾ ، ويبتدئ قوله : ﴿ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ وفيه إشعار للفرق بين الهمين "[(4)] ، ولكنه لم يبين السر في جواز الأمرين .

والذي يلوح لي : أنه على تقدير انصباب القسم على الجملة الأولى يكون الغرض تأكيد وقوع الهمَّ منها لما فيه من استغراب ، فإن ميل امرأة العزيز إلى قضاء شهوتها مع

---

(١) دلائل الإعجاز (٢٤٤) .
(٢) ينظر الكشاف : (١٢ / ٥٠٩) .
(٣) ينظر : الدر المصون (٤ / ١٦٨) ، الفتوحات الإلهية (٤ / ٢٣) .
(٤) الكشاف : (١٢ / ٥١٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

من هو في خدمتها شيء مستبعد مهما كان له من وسامة وفتاء ، فهو من طبقة – بحسب العرق الاجتماعي – دون طبقتها ، ومن ثم فإن الوضع يقتضي أن تترفع عن النزول إلى تلك الهوة ، ويستأنس لذلك بأنه لما عرف الخبر لاكته الألسن في مجالس علية القوم كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : ٣٠] . فكان التأكيد بالقسم لإثبات حدوث ذلك ، وإن كان غريباً .

أما خروج الجملة الثانية من دائرة القسم ؛ فلأن الهم مِنْ يوسف – عليه السلام – مقيد بالشرط ، ولكون أداة الشرط (لولا) الموضوعة لامتناع الجواب لوجود الشرط كان حصول الهم منه منفياً ، ونفي الهم منه لا يحتاج إلى تأكيد ؛ فهو نبي يعلم علم اليقين أن اجتناب الخطيئة مأمور به ، وكفى بذلك حائلاً بينه وبين الهم بالفاحشة .

وعلى تقدير دخوله في دائرة القسم يكون لتأكيد نفي الهم منه .

وفي جملة الشرط ﴿ لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ حذف جواب الشرط ، لدلالة ما قبله عليه وهو جملة ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ حرصاً على متانة الأسلوب ، بالتخفف مما يورثه الترهل المؤدي إلى الملل ، وذلك بناء على رأي البصريين الذين لا يجيزون تقدم جواب الشرط . وعلى رأي الكوفيين لا يكون في الكلام حذف [(١)]. والذي يلوح لي أن رأي البصريين أرجح- والله أعلم ونسبة العلم له أسلم - .

وفي جملة ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ حذف المسند والمسند إليه، وبقي المتعلق به وهو الجار والمجرور ، والأصل (ثبتناه كذلك التثبيت) ، ويرى الزمخشري وغيره أنه يجوز أن يكون الجار والمجرور في موقع المسند ، وأن المسند إليه محذوف والتقدير : الأمر كذلك [(٢)] : وأياً ما كان المحذوف فإن الإيجاز يضفي على الأسلوب متانة ؛ إذ يقدم من الألفاظ ما يفي بالغرض ، ويترك ما يؤدي إلى الإطالة بغير طائل .

غير أن القارئ يلحظ ذكر لفظين قد يكفي أحدهما عن الآخر ، وهما : (السوء والفحشاء) فلو قيل (كذلك لنصرف عنه السوء) لدلَّ على المراد بواسطة السياق ،

---

(١) للاستزادة يمكن الرجوع إلى: تتريه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار(١٩٠)، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم للدكتور على أبو القاسم عون (٣/١٠٧٥_١٠٧٦)

(٢) ينظر الكشاف : (١٢ / ٥١٠) ، والفتوحات الإلهية : (٤ / ٢٣) . وتفسير الجلالين على هامش الفتوحات.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك الحال لو قيل: (لنصرف عنه الفحشاء) . ولكن المفسرين لحظوا أن هناك معصيتين صرفا عن يوسف - عليه السلام - : خيانة العزيز ، والزنا ، فلو اكتفى بأحد اللفظين لانصرف الذهن إلى معصية واحدة هي الزنا ، ولم يلتفت إلى الخيانة ، فكأن لفظة الفحشاء ذكرت بعد لفظة السوء للاحتراس من توهم أن المصروف عنه هو ما ابتغته منه امرأة العزيز .

وفي جملة ﴿ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ أوثر التعبير عن المسند إليه بضمير المتكلمين (النون) ؛ لأن وجود العزيز في تلك اللحظة لم يكن إلا بتقدير العظيم - جل شأنه - لينقذ يوسف - عليه السلام - من الإرغام علي الخطيئة ، وسيقت الجملة كلها ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ ﴾ خالية من التأكيد لخلو ذهن المتلقي من مضمون الخبر ، وفي جملة ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ كان الإخبار عن يوسف بالإضافة إلى ضمير العظمة تشريفاً له – عليه السلام – ورفعاً لمكانته ، ولا غرو فهو من المخلِصين الذين أخلصوا دينهم لله ، أو من المخلَصين الذين أخلصهم الله لطاعته [(١)]، ومن اللافت للنظر مجيء الجملة مؤكدة مع أن المتلقي للخبر لم يسبق له العلم به ، ولكن صرف السوء والفحشاء مسنداً إلى ضمير العظمة يلوح بجنس الخبر مما يجعل المتلقي له يتساءل : ما شأن يوسف حتى يصرف عنه الأمران فجاء الجواب مؤطراً بالتأكيد حتى يتلقى بالتسليم ، ونظير ذلك ما نراه في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

وفي جملة ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ ﴾ حذف حرف الجر (إلى) كما حذف الوصف ، فإن الأصل واستبقا إلى الباب الأخير . ويدل على هذا الحذف سياق الكلام ، ولذا قال أبو السعود [(٢)]: " ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ﴾ أي تسابقا إلى الباب البراني الذي هو المخلص ؛ ولذلك وُحّد بعد الجمع فيما سبق ، وحُذف حرف الجر ، وأوصل الفعل إلى المجرور نحو ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمۡ ﴾ [المطففين : ٣]... وإسناد السبق – في ضمن الاستباق – إليها مع أن مرادها

---

(١) ينظر الكشاف (١٢ / ٥١٠ – ٥١١) .

(٢) محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود، مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين، ولد بقرب القسطنطينية سنة ٨٩٨ هـ، ودرس ودرّس في بلاد متعددة، وتقلد القضاء في بروسة فالقسطنطينية فالروم، وكان حاضر الذهن سريع البديهة، وهو صاحب التفسير المعروف باسمه، وقد سماه: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، توفي سنة ٩٨٢هـ.

ينظر: شذرات الذهب (٣٩٨/٨)، وفيات الأعيان (٢٨٢/٢)، الفوائد البهية (٨١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مجرد منع يوسف،وهذا لا يوجب الانتهاء إلى الباب؛ لأنها لما رأته يسرع إلى الباب ليتخلص منها أسرعت هي – أيضاً – لتسبقه إليه ، وتمنعه من الفتح والخروج" [١].

وبالنظر إلى الفرق بين ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ ﴾ وبين قولنا : واستبقا إلى الباب الأخير يتبين أن النص القرآني وصل إلى المقصود بأقصر عبارة ، ومنح ذلك الأسلوب قوة وجزالة حيث طوى من اللفظ ما يؤدي إلى الترهل . .

وبالتأمل في قوله: ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ ﴾ يلحظ الفطن أن الحذف امتد ليشمل ثلاث جمل بين هاتين الجملتين ، فلا يخفى أن المراد واستبقا الباب فلحقته فأمسكت ما استطاعت أن تصل إليه يدها منه وهو قميصه فجذبته إليها لتمنعه من الخروج فقدت قميصه . ولكن القرآن ألقى هذه الجمل في ستار ؛ لتتراءى من خلاله ، فأضفى على الأسلوب خفة وأكسبه ملاحة ؛ فلم يشغل الذهن بتلقي ما يدرك من السياق ، وقدم إليه ما يتعلق به ، وهو معرفة ما حدث إثر هذا الاستباق .

وفي جملة ﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ تبدو (ما) محتملة لأن تكون أداة نفي ، وأن تكون للاستفهام ، وعلى الاحتمالين فالجملة مفرغة في إطار القصر ، أعني قصر الجزاء على إحدى العقوبتين (السجن أو العذاب الأليم) قصر موصوف على صفة . والطريق هو النفي والاستثناء ، بيد أنه على تقدير (ما) نافية يكون النص صريحاً وعلى تقدير أنها للاستفهام يكون النفي ضمنياً ، كأن امرأة العزيز تسأله عما إذا كان هناك جزاء أنسب من السجن ، أو العذاب الأليم ، وحين لا يذكر شيئاً آخر يتحقق النفي لما سواهما . وبهذا تظهر وكأنها لا تلزمه بما رأت فإذا لم يكن ثم غيرهما كان ذلك بموافقته واختياره .

وفي قولها : ﴿ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا ﴾ يتراءى التعميم ، ذلك أنها لم تقل ما جزاء هذا الخادم حين أراد بأهلك سوءاً ، لتشير إلى أن هذا الجرم يستدعي هذا الجزاء سواء أكان يوسف أو غيره ، أعني أنها قصدت تهويل الجرم وبيان شدة قبحه ، ويؤيد هذا أنها لم تقل من أراد بي سوء – بذكر ضمير المتكلم – بل عبرت بلفظ (أهل) مضافاً إلى ضمير العزيز وكأنها تومئ إلى أن من يقدم على هذا الجرم فقد تطاول عليك وتعدى على

---

(١) تفسير أبي السعود : (٣ / ٣٨٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

شرفك [1].

وهي إذ تستثير حميته بهذا القول تدرك أنه لن يكون إلا ما اقترحت ، ومن ثم فهي تقصد من وراء هذه الاستثارة إلى إظهار غضبها على يوسف وتخويفه طمعاً في أن يستجيب لها اتقاء مكرها . وهذا ما عبر عنه الزمخشري بقوله : " لما اطلع منها زوجها على تلك الهيئة المريبة – وهي مغتاظة على يوسف إذ لم يؤاتها – جاءت بحيلة جمعت فيها بين غرضيها وهما : تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف ، وتخويفه طمعاً في أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها ، وكرهاً لما أيست من مؤاتاته طوعاً . ألا ترى إلى قولها: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ [يوسف : ٣٢] " [2] .

هذا . وذكر الشيخ الجمل – نقلاً عن الكرخي قوله : " قال ابن الخطيب : في الآية لطيفة وهي أن حبها الشديد ليوسف حملها على رعاية دقيقتين في هذا الموضع ؛ وذلك لأنها بدأت بذكر السجن ، وأخرت ذكر العذاب ؛ لأن المحب لا يسعى في إيلام المحبوب ، وأيضاً لم تقل إن يوسف يجب أن يقابل بأحد هذين الأمرين بل ذكرت ذلك ذكراً كلياً صوناً للمحبوب عن الذكر بالشر " [3].

وأرى أن ذلك بعيد عن الصواب ، فإن الموقف يقتضي غير هذا ، فقد راودته ، ثم همت به ، فلم يكن منه إلا أن يسرع قاصداً أن يفلت ، فتعقبته وأمسكت بقميصه وجذبته إليها فلم يتوقف ومضى مندفعاً فقدّت قميصه ، وفجأة وجدَا زوجها لدى الباب . إنه موقف مثير للغيظ والغضب فلم تتمالك ، ولم تجد وسيلة للتنفيس عن غيظها سوى أن تعرض عن ذكر اسمه ، وتخرج العبارة مخرج العموم بذكر الموصول (من) ، وتعبر عن نفسها بلفظ الأهل مضافاً إلى ضميره؛ إيماء إلى شناعة الجرم ، وشدة قبحه ؛ لتستثير حميته ، وتوقع به أقصى العقوبة ماثلة في السجن أو العذاب الأليم .

هذا . وقد أضاف ثالثة إلى الدقيقتين اللتين ذكرهما فقال : " وأيضاً قالت : إلا أن يُسجن ، أي : أن يسجن يوماً أو يومين أو أقل على سبيل التخفيف ، فأما الحبس الدائم فإنه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال : يجب أن يجعل من المسجونين كما قال فرعون لموسى حين هدده ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾

---

(١) ينظر: روح المعاني: (٨/٤٨٥)

(٢) الكشاف : (١٢ / ٥١١) .

(٣) الفتوحات الإلهية : (٤ / ٢٦) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[الشعراء: ٢٩]" [١] .

ولا أدري كيف يكون السجن يوماً أو يومين أو أقل مقابلاً للعذاب الأليم؟ . لقد ذكر الكرخي أن (أو) للتنويع [٢] . والتنويع ليس في الدرجة ، بل في أمرين مختلفين درجتهما واحدة ، والذي يبدو لي أنها للتخيير فأي الأمرين مال إليه زوجها واختاره نفذه.

وأما قوله فالحبس الدائم لا يعبر عنه بهذه العبارة إلى آخره ، ففيه غفلة عن السياق، فيوسف – عليه السلام – بحسب الواقع مملوك للعزيز ، وهو في قبضته يستطيع إدخاله السجن وَقْتما يريد ، ولا يستطيع أن يهرب منه ، أما موسى – عليه السلام – فلم يكن كذلك . فإذا أراد أن يسجنه فإنه يحتاج إلى أعوان وجنود كي يصيره سجيناً ؛ ذلك أنه قد يفر منه ، وقد حاول اللحاق به كما يرشد إليه قوله - تعالى - : حكاية عن أصحابه ﴿ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] .

ثم من أين لنا التقييد بالظرف (يوماً أو يومين أو أقل) ؟ ولماذا لم ينظر إلى المضارع الذي يفيد التجدد والحدوث على نحو مستمر ؟ ثم ماذا يقول في قول يوسف لصاحبه الذي حكاه الله عنه بعد أن دخل السجن ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف : ٤٢] ؟ .

وفي الآيات فصل ووصل :

ففي الآية الأولى : وصلت جملة ﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ بجملة ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ﴾ كما وصلت جملة ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ بجملة ﴿ وَغَلَّقَتِ ... ﴾ وذاك للتوسط بين الكمالين فثلاثتها من قبيل الخبر لفظا ومعنى مع كون المسند إليه واحد ، وتناسب المسند، وفصلت جملة ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ ، لشبه كمال الاتصال ؛ إذ أنها جواب عن سؤال اقتضاه ما قبلها ، وتقديره : فماذا كان من يوسف ؟ كما فصلت جملة ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ ﴾ ، وجملة ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ لكونهما تعليلاً للجملة التي قبلهما .

وفي الآية الثانية : فصلت جملة ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ﴾ عما قبلها لكونها استئنافاً بيانياً ووصلت جملة قوله ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ﴾ للتوسط بين الكمالين،

---

(١) الفتوحات الإلهية : (٤ / ٢٦) .

(٢) السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفصلت جملة ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ ﴾ لكونها معترضة ، كما فصلت جملة ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ لكونها استئنافاً تعليلياً .

وفي الآية الثالثة وُصلت جملة ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ ﴾ بجملة ﴿ وَهَمَّ بِهَا ... ﴾ للتوسط بين الكمالين ، وكذلك جملة ﴿ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ... ﴾ ، وجملة ﴿ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا... ﴾ للتوسط بين الكمالين ، وفصلت جملة ﴿ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لكونها جواب عن سؤال اقتضاه ما قبلها أعني لشبه كمال الاتصال .

وفي جملة ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ ﴾ إيجاز بالقصر فإنه في تقدير : إنه لطف بي ، وأحسن معاملتي، وأمرك بإكرامي ، فلا أقابل إحسانه بالإساءة إليه في شرفه ، وعليك أن ترعى حقه ، وتصوني نفسك تقديراً لمكانته .

وفي الآيات إطناب بالاعتراض(١) وذلك في قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ

---

(١) الاعتراض عند البلاغيين من ضروب الإطناب وهو: أن يجيء في وسط الكلام ،أو بين جملتين متصلتين معنى بجملة، أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة كالتتريه والتعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧]، ومنه الدعاء في قول عوف بن محلم الشيباني:[السريع]

إنَّ الثمانين – وبُلِّغْتَهَا- قد أحوجتْ سمعي إلى ترجمان

ومنه التنبيه في قول الشاعر: [السريع]

واعلمْ – فعلم المرء ينفعه- أن سوف يأتي كلُّ ما قُدِرَا

وتخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد في أمر علّق بهما كقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ ﴾ [لقمان: ١٤].

ثم المطابقة مع الاستعطاف في قول المتنبي : [الكامل]

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه - يا جنتي – لرأيت فيه جهنما

أما التنبيه على سبيل أمر فيه غرابة، ففي قول الشاعر : [الطويل]

فلا هجره يبدو – وفي اليأس راحة - ولا وصله يبدو لنا فنكارمه

وينقسم الاعتراض إلى قسمين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ﭐﻟﺴُّﻮٓءَ وَﭐﻟۡﻔَﺤۡﺸَﺎٓءَۚ إِﻧَّﻪُۥ ﻣِﻦۡ ﻋِﺒَﺎﺩِﻧَﺎ ﭐﻟۡﻤُﺨۡﻠَﺼِﻴﻦَ ﴾ والسّر في هذا الاعتراض تقرير نزاهة يوسف عليه السلام [1] .

ومما ورد فيه التعبير عن الإساءة في سياق بيان أفعال المسيئين وأقوالهم قوله – تعالى - : M وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا ´ µ ¶ ¸ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥
! " # $ % & ' ( ) + , - . /
0 1 3 4 5 6 7 L [الرعد : ٥ – ٦] .

تتحدث الآيتان عن أمر حقيق بالعجب وهو إنكار الكافرين للبعث بعد الموت مع وجود الأدلة على قدرة الله عليه ماثلة بين أيديهم تراها أعينهم لو أنهم أعملوا عقولهم. فالسموات مرفوعة بغير عمد ، والشمس والقمر مسخران في دورة مشاهدة ، والليل والنهار يتعاقبان ، والأرض ممتدة ممهدة لمصالحهم مثبتة بالجبال الرواسي ، وفيها قطع متجاورات متنوعة بين خصبة وسبخة ، ومثمرة وقاحلة ، والزروع والأشجار متنوعة ، والثمار مختلفة ، والثمار مختلفة الألوان ، والأشكال والطعوم ، ولكنهم أبطلوا عقولهم عن التفكير فكان منهم الإنكار .

فأولئك هم الكافرون حقاً ، وهم لكفرهم جديرون بالخلود في النار ولا جرم ، فإنهم يستعجلون بالعذاب قبل الرحمة استهزاء بالرسول ، وإنكاراً لما ينذرهم به ، وقد حلَّ العذاب بأمم قبلهم ، وهم يتقلبون في آثارهم ولكنهم لا يعتبرون ، ومع ذلك فإن الله يمهلهم رجاء أن يتوبوا فإن لم يفعلوا فإن عقابه الشديد جزاؤهم .

هذا . وقد تعددت رؤى القائلين في سبب نزول الآية الثانية فمن قائل أنها نزلت في

أحدهما : لا يأتي في الكلام إلا لفائدة، وهو جار مجرى التأكيد في كلام العرب .

والآخر : يأتي في الكلام لغير فائدة .

ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة (١٦٢)،التبيان في علم المعاني والبديع والبيان(٣٨٣)وما بعدها، معجم البلاغة العربية (٤١٣)وما بعدها .

(١) ينظر : تفسير أبي السعود ، (٣ / ٣٨١) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النضر بن الحارث [1] الذي نسب إليه ما حكاه الله M وَإِذْ قَالُواْ © إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا ´ µ ¶ ¸ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ L ومن قائل: أنها نزلت في كفار مكة ، ومنهم من قال إنها نزلت في مشركي العرب حيث سألوا رسول الله - ﷺ - أن يأتيهم العذاب استهزاء به [2] ، وأياً ما كان الأمر فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

كلمات الآيتين واضحة سهلة جارية على العرف العربي أي أنها مستوفية عناصر الفصاحة بيد أن فيها ما يستوقف النظر ، وها هي ذي كلمة (عجب) في قوله : M فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ L تشير إلى أن هذا القول خارج عن نطاق تصور العقل ، لا سيما وقد مهد له بالشرط (إن تعجب) كأنه قيل : (إن بدا لك أن تعجب فعجب قولهم) ، أو إن كان منك عجب فاعجب من قولهم ، وهذا معناه أن لا شيء يفوقه في العجب .

وإنما كان كذلك ؛ لأنهم قد عميت بصائرهم عن إدراك الأدلة المنشورة في الكون من حولهم ، فالسماء مرفوعة بغير عمد ، والشمس والقمر يجريان على نحو تبادلي إلى أجل ، والأرض مبسوطة ومثبتة بالجبال الرواسي لتتيسر المنافع ، والأنهار تجري من فوقها وفيها من كل الثمرات زوجان اثنان ، والليل يغشى النهار ، وفيها قطع متجاورة ، ومع تجاورها مختلفة متنوعة : طيبة ومسبخة ، وصلبة ، ورخوة، وصالحة للزرع لا للشجر وصالحة للشجر لا للزرع ، فيها حدائق من أعناب ، وأنواع من الزرع ، فيها نخيل صنوان وغير صنوان . وكل هذه الأصناف تسقى بماء واحد ولكنها مختلفة الطعوم والألوان . أليس الذي أنشأ هذا كله وأبدعه قادر على أن يبعث الناس بعد الموت ،

---

(١) النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف، من بني عبد الدار، من قريش: صاحب لواء المشركين ببدر. كان من شجعان قريش ووجوهها؛ ومن شياطينها له اطلاع على كتب الفرس وغيرهم؛ قرأ تاريخهم في «الحيرة». وقيل: هو أول من غنى على العود بألحان الفرس. وهو ابن خالة النبي ﷺ ولما ظهر الإسلام استمر على عقيدة الجاهلية وآذى رسول الله ﷺ كثيرًا. وكان إذا جلس النبي مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من مثل ما أصاب الأمم الخالية من نقمة الله، جلس النضر بعده فحدث قريشًا بأخبار ملوك فارس ، ويقول: أنا أحسن منه حديثًا! إنما يأتيكم محمد بأساطيرالأولين!. وشهد وقعة «بدر» مع مشركي قريش، فأسره المسلمون، وقتلوه بالأثيل (قرب المدينة) سنة اثنتين من الهجرة.

ينظر: جمهرة الأنساب (١١٧)، ونسب قريش (٢٥٥)، والبيان والتبيين (٤/٤٣، ٤٤)، ونهاية الأرب للنويري (١٦/٢١٩/ ٢٢٠، ٢٧١).

(٢) ينظر : زاد المسير لابن الجوزي (٤ / ٢٣٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستحالة أجسادهم إلى تراب ؟ أي شيء أعجب من قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ؟ أليس ذلك صادر عمن ألغوا عقولهم ، ولم يعملوها فيما حولهم ؟

ومما يستوقف النظر كلمة (الأغلال) جمع غُل ، والغَلَل أصله : تدَرُّع الشيء وتوسطه .. وانغل الماء بين الشجر دخل فيه ، والغُلُّ مختص بما يقيد به فيجعل الأعضاء وسطه [١] وفي ذلك إشارة إلى إحكام القيد وتمكينه من أعناق هؤلاء الكافرين ، ومن ثم فلا قدرة لهم على الإفلات مما ينتظرهم من الجزاء .

وفي كلمة (أصحاب) إشارة إلى دوام بقائهم فيها كأنهم مالكوها ؛ ذلك أن الصاحب : الملازم إنساناً كان أو حيواناً أو مكاناً ، أو زماناً ... ولا يقال في العرف إلا لمن كثرت ملازمته ، ويقال للمالك للشيء هو صاحبه . قال تعالى : Mإِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا © L ، M ; < = > ? L ، SM T U V W X L ، M P Q L .[٢] وفي هذا تلويح بعذاب دائم لا نهاية ، ومن ثم كان قوله :M هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ L تصريحاً بعد تلويح ، ترويعاً لهم .

وفي كلمة (المثلات) ما يوحي بالشدة البالغة ، التي لم يعهد مثلها فيتداولها الناس فيما بينهم كما يتداول المثل ، يشير إلى ذلك قول الخازن : " والمثلة نقمة تنزل بالإنسان فتجعل مثالاً لا يرتدع به غيره "[٣] وهي لا تصير مثالاً يرتدع به الغير إلا إذا كانت مشهورة شهرة المثل ، وذلك لشدتها .

هذا هو ما يلفت النظر من الكلمات ويستوقفه ، أما النظم فأحاول الكشف عن دلالاته فيما يلي :

صدرت جملة الشرط بأنَّ وهي خطاب للنبي - ﷺ - ولا شك أنه تحقق عجبه من قول الكافرين ، ولكنه نُزِّل منزلة من يكون العجب منه مُردَّداً بين أن يكون ، وألا يكون، فقد كثر الجدل منهم حول قضية البعث دون أن يقتنعوا مع تقديم الدليل فصار العجب أمراً مألوفاً بحيث يقل حدوثه بعد ذلك أو يندر ، ويبين تحقق العجب منه بشأن هذه القضية قوله - تعالى - : M [\ ] ^ _ ` a b c d e f
g h i j k l m n o p q r s t u v w x

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن . كتاب الغين (٣٦٤) .
(٢) ينظر : المفردات في غريب القرآن ، كتاب الصاد (٢٧٨) .
(٣) الفتوحات الإلهية : (٤ / ٩٨) نقلاً عن الخازن .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

z y { | } ~ مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ © قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ١٨ L [الصافات : ١١-١٨] .

والآيات حول الجدل في هذه القضية كثيرة أذكر منها قوله - تعــالى - : M ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٤٨ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا à وَرُفَٰتًا â لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 3 4 5 6 7 9 : ; < = > @ A B C D E L [الإسراء : ٤٨ – ٥١] .

أجل : لقد كثر هذا القول العجيب إلى درجة أنه لم يعد مثيرا للعجب منه فإن بــدا له - ﷺ - أن يعجب من أمر فليعجب من هذا القول الذي يصدر منهم ، فإنه لا شـــيء أعجب منه . وأوثر المضارع (تعجب) ، لإيمائه إلى التجدد والحدوث . وجيء بــالجواب جملة اسمية Mفَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ L دون الجملة الإنشائية الفعلية التي يقتضيها ظاهر الــسياق (فأعجب من قولهم)، للدلالة على الثبوت والدوام ، وقدم المسند على المسند إليه؛ لإثارة الاهتمام إليه ، ذلك أنه عندما يقال (فعجب) تتطلع النفس إلى المسند إليه ما هو، وماذا سيكون؟ فإذا قيل: (قولهم) تمكن من النفس أفضل تمكن.

والاستفهام في قولهم: Mأَءِذَا كُنَّا ´ µ ¶ ¸ جَدِيدٍ L [الرعــد : ٥] إنكاري يفيد التهكم والاستهزاء والاستبعاد ، ألا ترى إلى قولهم: M 0 1 L فلما قيــل: ﴿ 3 4 5 6 7 ﴾ فكان منهم ما أخبر الله M 9 : ; L [الإسراء: ٥١] ويقولون : (متى هو ؟) وفي جملة Mأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ L عرف المسند إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد ؛ للإيماء إلى تحقيرهم وإلى بلوغهم فيه منزلة بعيــدة ، كما عرف المسند بالموصول لما تتضمنه الصلة من التسجيل عليهم بالكفر ، واستحقاقهم بسببه أشد العذاب .

وجيء بالمسند إليه اسم إشارة للبعيد في قولــه : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ L ؛للإشارة إلى وصولهم في الذلة إلى أقصى غاياتها ، وجئ بالمسند جملة اسمية ؛للإيمــاء إلى الدوام وفي جملة ﴿ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ L وجملة Mهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ L جيء بالمسند اسما للدلالة على الثبوت والدوام ،والغرض من الخبر في هذه الجملــة (أولئــك الــذين كفروا...خالدون) التهديد والوعيد .

وهاهنا ملحظ أحب أن أنوه به، وهو: من المخاطب بقوله (وإن تعجب) أهو محمد -

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صلي الله عليه وسلم – وحده ، أم أنه كل من يصح خطابه من ذوي العقول الناضجة التي تتوصل إلى الحقائق عبر دلائلها ؟ ومن المعني بالضمير في (قولهم) ؟ أهم كفار مكة وحدهم أم هم الكفار في كل عصر؟

والذي يلوح لي : أن الخطاب لكل من يصح خطابه ، ويستنبطون الحقائق من أولها ويدخل فيها النبي - ﷺ- دخولا أوليا فهو أول من خوطب بذلك لتزول الوحي عليه ، كما أن ضمير الغائب مراد به الكفار المنكرون للبعث في كل ، وآية ذلك التعبير بلفظ (الناس) في قوله: M - . / 0 1 L ،وهو جزء من الآية الأولى في سورة الرعد فلم يُقل: ولكن أكثر أهل مكة لا يؤمنون . ولو كان ذلك مرادا لخصص أهل مكة بالحكم، وحيث لا تخصيص يكون المراد العموم ، وكذلك الشأن في الخطاب ، فلو كان الرسول هو المراد – وحده – به لقيل: (وإن تعجب يا محمد) .

وفي قوله: M ! " # $ L جيء بالمسند بصيغة المضارع للإيماء إلى الحدوث والتجدد، فاستعجالهم بالعذاب متجدد بتجدد التذكير والإبلاغ .

والمقصود بالسيئة هنا: العذاب ، والمقصود بالرحمة : ما ينالهم من الخيرات بتأخير العذاب ، وهذا الخبر مقصود به التَّعجب من شأن الكافرين ولو أن الله أجابهم إلى ما طلبوا تعجيله لأهلكهم ، ولكن تركهم وأمهلهم رحمة بهم لعلهم يراجعون أنفسهم وهذا ما يدل عليه قوله – تعالى - : ﴿ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ ﴾ [يونس : ١١] .

يقول صاحب الكشاف :" ﴿ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ﴾ تعجيله لهم الخير ، فوضع ﴿ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ ﴾ موضع تعجيله لهم الخير إشعارا بسرعة إجابته لهم ، وإسعافه بطلبتهم حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم ، والمراد أهل مكة .

وقوله :﴿ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنفال : ٣٢] يعني : ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نُعجل لهم الخير ونجيبهم إليه ﴿ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ ﴾ لأميتوا وأهلكوا" [١] .

وقيدت الجملة المفيدة للاستعجال بجملة الحال وهي قوله : M % & ' ( ) L إشعارا بأنهم عطلوا آلة التفكير ، حتى كأنهم بلا عين تنظر ، وبلا عقل يفكر،

(١) الكشاف : (١١ / ٤٥٧ - ٤٥٨) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولو أنهم لم يعطلوها لاعتبروا بمن نزلت بهم المهلكات التي شاعت شيوع المثل جرَّاء تكذيبهم فهذه الحال هي مناط التعجيب من استعجالهم العذاب ؛ "وذاك لأن الحال خبر في الحقيقة من حيث إنك تثبت بها المعني لذي الحال كما تثبته بخبر المبتدأ للمبتدأ، وبالفعل للفاعل" (١) . وأكدت جملة الحال بحرف التحقيق (قد) مع سوق الفعل في صورة الماضي ، مع أنهم يروها في أسفارهم كما يحكي الله ذلك بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [الروم : ٩].

أقول : أكدت الجملة الحالية بقد ، وسوق الفعل على سورة الماضي ، لتتريلهم مترلة من يشك في الخبر، لكونهم فقدوا ما به العظة والعبرة .

وفي جملة M + , - . / 0 1 L جيء بالمسند إليه مضافا إلى ضمير المخاطب لما في لفظ الربوبية من الإيماء إلى حياطته وأفضاله ، فهو يفيض عليه النعم التي بها حياته سواء في بدنه ، أو في وسائل عيشه أو فيما يتصل به من الألطاف التي لا تُحصى ، وجيء بالمسند M - . L بمعنى صاحبها المتصف بها ، ونكرت المغفرة لتعظيمها وشمولها ، وقد فسرت المغفرة هنا بالإمهال وتأخير العذاب (٢) وفي هذا تضييق وتقليل لها ؛ فالإمهال جانب من جوانبها ؛ فإنه أوضح ما يكون للكافر ، ولكن هناك جوانب أخرى منها مرتكب الصغائر ومرتكب الكبائر من المؤمنين ، ويساعد على ذلك تفسير الزمخشرى للظلم في قوله - تعالى - : M 0 1 L : " وفيه أوجه : أن يريد السيئات المكفرة لمجتنب الكبائر ، أو الكبائر بشرط التوبة ، أو يريد بالمغفرة : الستر والإمهال " (٣) وقد عقب عليه ابن المنير قائلا :" والوجه الحق بقاء الوعد على إطلاقه ، إلا حيث دل الدليل على التقييد في غير الموحِّد ، فإن ظلمه - أعني شركه - لا يغفر ، وماعدا الشرك فغفرانه في المشيئة ، والزمخشري يبني على عقيدته .. في استحالة الغفران لصاحب الكبائر ، وإن كان موحدا ، إلا بالتوبة ، فيقيد مطلقا ، ويحجر واسعا" (٤) وإذا

---

(١) دلائل الإعجاز: (١٤٠)

(٢) ينظر : الفتوحات الإلهية : (٤ / ٩٨) .

(٣) الكشاف : (١٣ / ٥٣٤) .

(٤) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال – ناصر الدين أحمد بن المنير- على هامش الكشاف (٥٣٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كان ماعدا الشرك في المشيئة غفرانه ، فإن المغفرة أوسع ، وأبعد مدى من الإمهال ، والغرض الذي يَتوخاه الإخبار بهذه الجملة الترغيب في الإقبال على الطاعة فيؤمن الكافر، ويتوب العاصي .

والتقيد بالحال هو مناط هذا الترغيب ، فإن الذنوب قد تكثر وتعظم حتى يظن المرء أنه لا أمل في المغفرة . وإضافة الظلم إلى الناس فيه إشارة إلى كثرته ، وشدة قبحه ، ومن ثم كان التقيد بالحال مناط الترغيب في الإقبال على الطاعة كما سبق بيانه.

وقد أكدت هذه الجملة بأن، واسمية الجملة ، واللام الداخلة على الجملة ، وتكثيف المؤكدات على هذه الصورة ؛ ليتلقى الخبر بالتسليم لأول وهلة ، فلو قيل: (يغفر ربك للناس) لتساءل المرء تساؤل المنكر : أيغفر لي على كثرة ذنوبي وشدة ظلمي؟ فللتنبيه على أن ذلك حاصل ، وتجنيب الناس مثل هذا التساؤل ورد الخبر على ماهو عليه من التأكيد المكثف .

وفي جملة قوله : M 3 4 5 6 L جيء بالمسند إليه بلفظ الرب مضافا إلى ضمير المخاطب وبالمسند مضافا إلى لفظ (العقاب) معرفا (بأل) للتنبيه إلى أن المربي بنعمه، وأفضاله ، قد يعاقب أشد العقاب تحقيقا لعدله فلا يسوي بين المؤمن والكافر ، والمحسن والمسيء كما يبين ذلك قوله- تعالى-:﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] وجيء بالجملة مكثفة التأكيد؛ ليتلقى الخبر بالتسليم لأول وهلة _كما سبق بيانه في الجملة التي قبلها _، وفى هذه الجملة جيء بالمظهر في موطن الضمير، حيث كان السياق يقتضي أن يقال : (وإنه لشديد العقاب) لما في لفظ الربوبية من التذكير بالنعم ، التي تقتضي الإقبال على طاعته ، والشكر لأنعمه.

وهنا يصل الحديث إلى النظم في تكوين العبارة، بعد الفراغ من النظم في بناء الجملة .

وأول ما يلفت النظر هو العلاقة بين جملة M µ ¶ ¸ L ، وقوله : Mوَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٌ قَوۡلُهُمۡ L أهي جملة مقول القول أم بدل منها ؟

فإذا اعتبرت مقول القول كان الجميع جملة واحدة ، وإذا اعتبرت بدلا كانت جملة تامة، وليست جزء جملة كما هو الحال في الاعتبار الأول ، غير أنها تكون مفصولة عنها ؛ حيث لم تقم الواو بالربط بينهما ، وهذا ما ذكره الزمخشري حيث قال : " Mأَءِذَا كُنَّا L

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى آخر قولهم ، يجوز أن يكون في محل الرفع بدلا من قــولهم ، وأن يكــون منــصوبا بالقول"[١].

ولكن السؤال هنا : أيبدل الإنشاء من الخبر ؟ والذي يلوح لي أنه لو جرى علــى الوجه الأول – وهو الإبدال- كانت الجملة الإنشائية معمولا لفعل محذوف دل عليــه المصدر (قولهم) والتقدير : فعجب قولهم يقولون أئذا كنا ترابا...الخ ، وإذا جرى علــى الاعتبار الثاني ، وهو أن تكون جملة الاستفهام معمولة للمصدر ، ومع جواز هذا فــإن الإبدال أوجه ؛لما فيه من تقوية المعنى بما يشبه التكرار؛ لأنّ بدل الكل من الكل بمثابــة التأكيد، يقول السمين بعد أن ذكر أن جملة الاستفهام في محل رفع على البدل :" وعلــى هذا فقولهم بمعنى: مقولهم ، ويكون بدل كل من كل ؛ لأن هذا هو نفس قولهم" [٢] .

وفي قوله : Mأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ L ثلاث جمل وصلت الثانية بالأولى والثالثة بالثانية للتوســط بــين الكمالين ؛ فكل منها خبر لفظا ومعنى ، والمسند إليه واحد والمسند في الأولى يــستدعي نظيره في الثانية والثالثة.

وقد فصلت الجملة الأولى من هذه الثلاث عما قبلها ؛ لأنها بمثابة جواب عن سؤال يثيره ما قبلها. كأنه قيل :ما صفة هؤلاء القوم عند الله وما جزاؤهم؟ فقيــل : أولئــك الذين كفروا،...الخ ، والآية الثانية بجملتها موصولة بالآية الثالثة بجملتها ، للتوسط بــين الكمالين ؛ لأن الغرض بيان حالهم ، والآية الأولى تذكر قولهم العجيب ، وهــو أنهــم ينكرون البعث ، والآية الثانية تذكر من قولهم ما يدعو إلى العجب ،وهو أنهم يستعجلون العذاب ، وفي داخل هذه الآية جاءت جملة M + , - . L جملــة مــستأنفة مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال ؛ لكون ما قبلها مثيرا لسؤال مــؤداه : ومــاذا يكون من الله بشأنهم ؟ فجاءت جملة M + , L مجيبة بأن الله واسع المغفرة ، فيمهل أمثالهم لعلهم يراجعون أنفسهم ، ويغفر وفقا لمشيئته لغيرهم من العصاة.

ووصلت جملــة M 3 4 5 6 L بجملــة M + , - . L للتوسط بين الكمالين لكون كل منهما خبرية لفظا ومعنى ، مع اتحاد المسند إليه ومناسبة

---

(١) الكشاف : (١٣ / ٥٣٤) .

(٢) الدر المصون (٤ / ٢٢٧) ، الفتوحات الإلهية – نقلا عن السمين : (٤ / ٩٦) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التضاد في المسند .

وفي قوله : Mأَءِذَا كُنَّا ´ L إيجاز بالحذف ، حيث حذف الفعل العامـــل في إذا ، والتقدير : أئذا كنا ترابا نبعث ، يقول الزمخشري : " وإذا نصب بما دل عليه قوله : أئنا لفي خلق جديد " (١) .

وفي هاتين الآيتين يظهر الإطناب بالتكرار في صورتين : تكرار الاستفهام وهو جملة؛ والغرض منه المبالغة في الإنكار. وقد ذكر هذا الاستفهام المكرر في تسع سور من القرآن الكريم لهذه الغاية (٢) فأولهـــــا: ما في هذه السورة ، والثـــــاني: تكرار المسند إليه في قوله :M أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ L مجردا من العوامل لإيقاع الحكم عليه على صريح لفظه ، ليكون التحقير في أبعد غاياته ، ثم تكراره مع العامل الناتج في قوله : M + , - . L - ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ للإشعار بأن المربي لا يرخي للناس الحبل على غاربـه فيرتعـون في مراتـع هواهم،ثم يغفر لهم.

وفي الآية الثانية إطناب بالاحتراس ، فإنه قد يقع في الوهم أنه – تعالى- مـادام ذا مغفرة فللمرء أن يمضي على هواه فكان قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾دفعـا لهذا الوهم .

وفي قوله-تعالى-: ﴿ µ ¶ ¸ جَدِيدٍ ﴾ "جديد ههنا استعارة لأن أصله مأخوذ من الجد وهو القطع يقال:قد جد الثوب فهو جديد بمعنى مجدود إذا قطع من منسجه أو قطع لاستعمال لابسه ، والمراد - والله أعلم- ﴿ µ ¶ ¸ جَدِيدٍ ﴾ أي :قد فـرغ من استئنافه وأُعيد إلى موضع ثوابه وعقابه فصار كالثوب الذي قطع من منسجه بعـد الفراغ من عمله " (٣) .

وفي قولـــه-تعـــالى-: ﴿ ! " # $ % & ' (﴾[الرعد:٦] "استعارة والمراد بها مضي المثلات ،وهي العقوبات للأمـم الـسالفة

---

(١) الكشاف : (١٣ / ٥٣٤) ، وينظر : الفتوحات الإلهية : (٤ / ٩٦) .
(٢) سورة الرعد آية : [٥] – سورة الإسراء، آية : [٤٩] ، [٩٨] - المؤمنون ، آية : [٨٢] - النمل ، آية : [٦٧] – السجدة، آية :[١٠] – الصافات ، آية : [١٦] ، [٥٣] – الواقعة ، آية :[٤٧] – النازعات ، آية : [١٠ – ١١]-العنكبوت[٢٨] ، ينظر : الفتوحات الإلهية : (٤ / ٩٦ – ٩٧) .
(٣) تلخيص البيان (١٠٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قبلهم ،وتقدمها أمامهم ،وقولهم خلت الدار أي: مضى سكانها عنها ،وخلوا هم أي: مضوا عن الدار وتركوها ،وقولهم القرون الخالية أي: الماضية ،والعقوبات على الحقيقة لم تمض ،وإنما مضى المعاقبون بها ،والمصابون بمكروهها ؛فكأنهم ذكروا بالعقوبات الواقعة قبلهم ليعتبروا بها ،ويحذروا من وقوع مثلها " [١].

وفي لفظ (السيئة) و(الحسنة) مجاز مرسل علاقته المسببية حيث ذكر المسبب وأريد السبب ، والقرينة حالية، وإنما أوثر المجاز للتنفير من العذاب ، فإنه يسوء من يقع ، وللترغيب في الخير ، فإنه يستحسن وتميل إليه النفس ، وقد وشح هذا المجاز بالطباق ؛ فإن السيئة بمعناها اللغوي ، ضد الحسنة بمعناها اللغوي كذلك ، ومقابلة السيئة بالحسنة يظهر قبح السيئة ، ويزداد حسن الحسنة ، كما قال : [وبضدها تتميز الأشياء] ومثل هذا الطباق ماثل في المغفرة والعقاب ، وكفى بالمغفرة حسنا إذا قوبلت بالعقاب الأليم الذي يتضاعف قبحه بمقارنته بالمغفرة .

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الإساءة في سياق أفعال المسيئين وأقوالهم ماجاء في سورة العنكبوت في قوله- تعالى-: ﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[العنكبوت: ٣١ – ٣٣] .

هذا مقطع من قصة لوط - عليه السلام - يمثل الخاتمة التي انتهت بها وهي هلاك أهل القرية الذين أرسل إليهم .

غير أن اللافت للنظر أن الملائكة المكلفين بإهلاكها لم يأتوا إليها، وينزلوا بلوط ليخبروه بمهمتهم بل نزلوا بإبراهيم -عليه السلام- وبشروه بإسحاق ويعقوب من بعده، وبعد البشرى أخبروه بأنهم جاءوا لإهلاك هذه القرية ، لكفرهم فحاورهم إبراهيم مخبرا إياهم أن فيها لوطا ، وهو ليس بكافر ، فأجابوه بأنهم أعلم منه بمن فيها يعلمون حال

---

[١] السابق، الصفحة نفسها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لوط ، وحال قومه ، وأنه لا يستأهل ما يستأهلون فلن يناله سوء.

وحين جاءت الملائكة لوطا ناله من الحزن والغم ما لم يقدر على دفعه خوفا عليهم من قومه فقد جاءوه في صورة بشر حسان الوجوه ، فأخبروه أنهم رسل ربه وبينوا له ما جاءوا من أجله وطمأنوه قائلين : لا تخف ولا تحزن إنا سننجيك وأهلك إلا امرأتك ، فإنها ستبقي مع الظالمين ، وستهلك بهلاكهم [1]

كلمات هاتين الآيتين مستوفية عناصر الفصاحة المعروفة من السهولة والوضوح ، وموافقة العرف العربي في بنيتها الصرفية ، بيد أن فيها كلمات لها وميض ينبثق من خلال السياق وهي :

الفعل (جاء) أوثر هذا الفعل دون ما يقرب منه في المعنى وهو: (أتى) لما يومي إليه من خطر الغاية التي كان من أجلها المجيء . يدل على ذلك ما يشير إليه الراغب من الفرق بين الإتيان والمجيء فهو يقول: " الإتيان مجيء بسهولة ، ومنه قيل للسيل المار على وجهه أتِيٌّ ، والمجيء كالإتيان لكن المجيء أعم ،والإتيان قد يقال باعتبار القصة وإن لم يكن منه الحصول ،والمجيء يقال اعتبارا بالحصول"[2] ، ففي المجيء تحمل ما لا يكون مثله في الإتيان ، ولا يعبر به إلا إذا كان الحدث محققا ، والغرض الذي جاء من أجله الملائكة ماثل في أمرين :

الأول: التبشير بما لا نظير له وهو حمل امرأة عقيم بلغت من العمر ما لا أمل معه في الحمل كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى- " حكاية عنها : ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود : ٧٢]

والثاني: إهلاك قرية بأكملها عدا بيتا واحداً كما يحكيه - جل وعلا – في قوله: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الذاريات :٣٢ – ٣٦] وكلا الأمرين يمثلان أمراً على درجة عالية من الأهمية ، ومن ثم كان المجيء موحيا بخطر المهمة التي كان من

(١) ينظر : الكشاف للزمخشري(٨١٨-٨١٩) ، وتفسير أبي السعود(١٥١/٥) ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٢٨/١٣)، وتفسير القرآن العظيم (٣٣/٩) .

(٢) المفردات في غريب القرآن – كتاب الألف(أتى) (١٨) ، وكتاب الجيم (جاء) (٩١) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أجلها.

ومن هذه الكلمات الفعل (ضاق) فإن المراد به العجز، ولو كان لفظ العجز وافيا بما يشعر به لوط لما عدل عنه إلى غيره ،فالعاجز عن شيء قد يتركه ، ولا يشعر بألم ، ولا يلم به قلق ، ولا حيرة . ولكون المراد التعبير عما يعتمل في نفس لوط من الغم ، والحيرة ، القلق ، كان إيثار الفعل (ضاق) على ما سواه ، ويؤكد هذه المشاعر التي يوحي بها قول الملائكة: (لا تخف ، ولا تحزن) ، فهم قالوا ذلك لما رأوا ملامحه تنطق بما تنطوي عليه نفسه .

وفي بيان النظم ينبغي الإلمام بالجمل ووصف صورها البنائية :

ففي الجملة الأولى : عبر عن المسند بالفعل (جاء) على صورة الماضي للإيماء إلى تحقق حدوث المجيء ،وجيء المسند إليه جمعاً ؛ للإشارة إلى كثرة الرسل المكلفين بهذه المهمة، وأضيف المسند إليه إلى ضمير العظمة ؛ للإشارة إلى عظم القدرة التي لا يعجزها شيء ، فعلى الرغم من شيخوخة إبراهيم -عليه السلام - وعقم المرأة التي بلغت من التقدم في العمر مبلغا يجعلها غير مؤهلة للحمل ، كانت البشرى الخارقة للنواميس المعتادة ، كما كان إهلاك القرية بإرسال حجارة من طين عليها ، أيضا من مظاهر تلك القدرة القاهرة.

وترتبط جملة ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ بلما ولكنها أول ما قاله الملائكة بعد البشرى . بل هي جزء من حوار طوته هذه الآية ، كما يفهم من قوله – تعالى – : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الذاريات : ٣١ – ٣٤] .

وفي جملة مقول القول﴿ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ جيء بالمسند في صورة الاسم ليسير إلى التحقق، وإن كان معناه مستقبلا، فهم لم يهلكوها بعد، ولكن المحقق وقوعه في المستقبل عبرعنه بما يعبر به عن الواقع الحاصل. يقول الزمخشري :" وإضافة مهلكو إضافة تخفيف لا تعريف والمعنى الاستقبال "[١] ، فالإخبار باسم يفيد الثبوت والدوام كما هو مقرر عند البلاغيين .

---

(١) الكشاف : (٨١٨) - وقوله تخفيف لا تعريف معناه أن الإضافة لفظية لأنها من إضافة المشتق إلى معموله ، وهي لا تفيد تعريفا ولا تخصيصا بل هو لمجرد تخفيف اللفظ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتحديد القرية التي هي بصدد الإهلاك باسم الإشارة للقريب ؛للإيماء إلى التحقير، وانحطاط المنزلة، والحقير المنحط موطئ للأقدام ، وجيء بالخبر مؤكدا مع أن المخاطب (إبراهيم عليه السلام) خال الذهن ولا يتصور وقوع الشك فيما يخبر به رسل الله (الملائكة)؛ للإشارة إلى أن الأمر لا مراجعة فيه، وبذلك ينتهي الجدال في شأنه كما يوضح ذلك قوله – تعالى - : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [هود : ٧٤ – ٧٦].

وفي جملة ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ وضع المظهر موضع المضمر إذ الأصل أن يُقال : (إنهم كانوا) وذلك ليقع الحكم بالظلم على صريح لفظ الأهل كما في قول ذي الرمة :

ولم أمدح لأرضيه بشعري | لئيما أن يكون أصاب مالا

" فإنه أعمل الفعل الأول الذي هو(أمدح) في صريح لفظ اللئيم ،والثاني الذي هو (أرضي) في ضمير؛ إذ كان غرضه إيقاع نفي المدح على اللئيم صريحاً دون الإرضاء"[1].

ومجيء الفعل (كان) للإشارة إلى الإصرار والاستمرار على الظلم ، ولو لم يكن ذلك مقصوداً لقيل : (إن أهلها ظالمون) وأكدت هذه الجملة مع تسليم إبراهيم – عليه السلام - بمضمون الخبر ومعرفته به ؛لكونه جادل في إهلاكهم فنزل منزلة الشاك في ذلك، وكان حرياً به أن لا يجادل فيه مادام عالماً بظلمهم .يقول الزمخشري :" (كانوا ظالمين) معناه: أن الظلم قد استمر منهم إيجاده في الأيام السالفة، وهم عليه مصرون، وظلمهم كفرهم وألوان معاصيهم " [2] .ولا يخفى أنه أخذ استمرار إيجاد الظلم في الأيام السالفة وإصرارهم عليه إلى لحظة الخطاب مع إبراهيم من الفعل (كان) .

وفي جملة ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ إشارة إلى استفهام تعجبي ، كأنه قيل : كيف تهلكون هذه القرية الظالم أهلها، وفيها من ليس بظالم وهو لوط وأهله ؟ وساق

---

(١) الإيضاح (١٠٧-١٠٨)
(٢) الكشاف : (٨١٨)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إبراهيم - عليه السلام - هذه الجملة مؤطرة بالتأكيد؛ تنـزيلا لهم منزلة الشاك، لأن تأكيدهم لإهلاكها يوحي بأنهم ماضون لغايتهم كأنهم يجهلون أن فيها لوطاً : فالجملة مسوقة مساق الخبر، ولكنها متضمنة استفهاما يعبر عن قلق بشأن لوط - عليه السلام – وهذا ما أفهمه من قول الزمخشري : " (إن فيها لوطا) ليس إخبارا لهم بكونه فيها، وإنما هو جدال في شأنه ؛ لأنهم لما عللوا إهلاك أهلها بظلمهم اعترض عليهم بأن فيها من هو بريء من الظلم ،وأراد بالجدال إظهار الشفقة عليه"(١) فقوله هذا يوحي بأن الجملة المذكورة تطوي في سياقها استفهاماً بأن قيل: كيف تهلكونها ؟ إن فيها لوطا .

وفي جملة :﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ إشارة إلى جملة مطوية تقديرها : لا تخف عليه ولا تحزن ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ . وقد خلت هذه الجملة من التأكيد ؛ لعلمهم أن إبراهيم سيتلقاها بالتسليم وجاءت الجملة بعدها ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾ مكثفة التأكيد بالقسم الذي تومىء إليه اللام ، ونون التوكيد الثقيلة ؛ لتقوية الاطمئنان في نفس إبراهيم على نجاة لوط – عليهما السلام – .

وفي الآية الثالثة ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ يلحظ القارئ توسط (أن) بين (لما) والفعل (جاء) وهي لا تكون على هذه الصورة إلا إذا كان الخبر غريباً، أو كريهاً فكأنه لغرابته، أوكراهته مشكوكٌ فيه فأكد حتى لا يعتوره الشك، ويقابل بالتسليم ، فمن الخبر الغريب نجده في قوله – تعالى - : ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ [يوسف : ٩٦]، فارتداد يعقوب بصيراً بعد أن ابيضت عيناه(٢) لسنوات ست أمر غريب، واستياء لوط وضيقه ذرعا بمجيء الرسل أمر قبيح، فكان مجيء (أن) لتأكيد الخبر ، ويقول الخطيب الإسكافي في جوابه عن: لَمِ أكدت لّما بأن، وما الفرق بينها وبين ذكرها في سائر القرآن خالية من التوكيد بأن ؟ " الجواب أن يقال: اقتران أن بها تكملة لمعناها في نفسها ليدل بذلك على أنه قد قارن جوابها متصلا به مايكمله ويخلصه لتحقيق أو بطلان،فالتي في

---

(١) الكشاف : (٨١٨)

(٢) ابيضت عيناه : عمي من شدة الحزن – ينظر : الفتوحات الإلهية : (٧١/٤)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سورة العنكبوت قد اتصل بجوابها وهي ﴿ سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا ﴾ مايكمله ويخلصه لبطلان الذرع السابق إليه ، ومثله ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ ﴾ [يوسف : ٩٦] فقوله: القاه جواب لما ،وقوله متصلا به ﴿فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾ تكملة للجواب، .... وهي في قوله في سورة هود لم يتصل بجوابها مايخلصه لتحقيق أو بطلان إلا في الآية الخامسة عند قوله : ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ ﴾ [هود:٨١] فَبَعُدَ هذا عن الجواب ولم يتصل به مايكون من تمامه " (١) .

يقول الزمخشري :"(أن)صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخـــر، وفي وقتين متجاورين، لا فاصل بينهما كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان كأنه قيل : لمـــا أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه " (٢)،وما قاله مـــسلم، لكن لماذا التأكيد ؟ أكان التأكيد لوجود فعلين مترتباً أحدهما علـــى الآخـــر في وقـــتين متجاورين لا فاصل بينهما أم لشئ آخر ؟

الذي يلوح لي أن وجود فعلين مترتبا أحدهما على الآخر من غير فاصل بينـــهما لا يقتضي تأكيدا ،ولكن الذي يقتضيه خروج الخبر عما جرى عليه الحال كمـــا في عـــودة البصر بعد عمى ، وكونه مكروها كما في مجيء الملائكة للوط . فقد كان حريـــاً بـــه – وهو نبي – ألا يستاء ولا يضيق ذرعه ، فإن من نبأه كفيل بأن يجعل له مخرجـــا . لكنـــه تحت وطأة الحدث قال : ﴿ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود : ٨٠].

وفي كلمة آسية قال رسول الله - ﷺ - : " رحم الله أخي لوطا . كان يـــأوي إلى ركن شديد " (٣) .

وفي جملة ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ ﴾ إظهار في مقام الإضمار، فمقتضى ظاهر المقام أن يقال : ولما جاءوا لوطا لأن في التعبير بلفظ (رسل) مـــضافا إلى

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي برواية ابن أبي الفرج الأردستاني (ط١)دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان١٤١٦- ١٩٩٥.

(٢) الكشاف : (٨١٩)

(٣) رواه البخاري،كتاب الأنبياء،باب:قول الله "ولوطا إذ قال لقومه..."(الحديث رقم٣٣٧٥)،ومسلم كتاب : الفضائل ،باب:من فضائل إبراهيم الخليل (الحديث رقم ٦٠٩٤)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ضمير العظمة بيانا لخطر المهمة التي كلفوا بها، فهم رسل العظيم المسيطر الذي لا يرد قضاؤه ومن كان هذا شأنه كان الكفر بما جاء به رسله موجباً للعقاب الذي تقتضيه مشيئته .

والتعبير بالفعل ﴿ سِيٓءَ ﴾ مبيناً للمفعول إشارة إلى بلوغ الاستياء أقصى المدى ؛ لأن عدم ذكر المسند إليه يشير إلى أن المسند هو مناط الاهتمام ؛ فالغرض بيان حدوث الاستياء دون نظر إلى محدثه من يكون ، ولو كان تعلق الاهتمام به أدنى تعلق لذكر، فكان يمكن أن يقال: (ساءه مجيئهم) بإسناد الفعل إلى سببه، أو يقال: (ساءه الله لمجيئهم) بإسناده إلى خالق الأفعال كلها ، فعدم ذكر المسند إليه بوجه من الوجوه اقتضى أن يجيء الفعل مسنداً إلى المفعول ؛لأن الغرض بيان اتصافه به لا بيان من أحدثه.

وفي جملة﴿ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا ﴾ تقف كلمة ﴿ ذَرۡعٗا ﴾ منارة على المعنى الذي يحمله المسند إليه والمسند، أعني أنها تكشف الإبهام في نسبة الضيق إلى سيدنا لوط - عليه السلام - ؛ ذلك أنها تمييز محول عن الفاعل، والأصل ضاق ذرعه بهم ، ولو جاء التعبير على هذا الأصل لم يكن فيه تشويق إلى معرفة المقصود بالجملة ، فالقارئ الذي عنده ذَرْوٌ من الإدراك حين يطلع على هذا القول يدرك أن المراد به العجز عن التصرف في هذا الموقف ، حتى يحميهم من قومه ، فذلك معنى مباشر لا يحتاج إلى إعمال فكر ؛ ولأن القرآن الكريم يخاطب الفكر جاء التعبير على هذه الصورة المثيرة للاهتمام لمعرفة ما كان الضيق وصفاً له، وهو الذرع ، وفي بيان ذلك يقول البيضاوي : "﴿ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا ﴾ وضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أي: طاقته، كقولهم: ضاقت يده ، ومقابلة رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقا له"(١).

والواو في جملة ﴿ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ عاطفة على محذوف ؛ إذ لا يصح عطف جملة ﴿ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ على جملتي ﴿ سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا ﴾ لأن هاتين الجملتين ليستا من مقول الملائكة حتى يصح عطف جملة ﴿ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ.... ﴾ عليهما ،وتقدير المحذوف – كما يبينه المفسرون – : " فأعلموه أنهم رسل ربه "(٢) .

وقولهم : ﴿ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ ﴾ نهي يراد به التوجيه والإرشاد، والغرض منه

---

(١) تفسير البيضاوي (٥٣٥) .

(٢) تفسير الجلالين على هامش الفتوحات الإلهية (٧١/٦)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعث الطمأنينة في نفسه ؛ فهم ملائكة لا قدرة لأحد أن ينالهم بسوء، وسيلقى هؤلاء المجرمون المفسدون جزاء جرمهم وفسادهم .ففي ذكر النهي عن الخوف – لبيان أنه لا خوف عليهم ، وفي ذكر النهي عن الحزن إيماء إلى هلاكهم استجابة لدعائه -عليه السلام -بقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت ، ٣٠].

وفي قولهم: ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ أكدت الجملة الخبرية بـ(إن) مع أن لوطا لم يسبق له علم بالخبر ، لأن في قولهم: ﴿ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ تلويحاً بأن قومه سيترل بهم هلاك ،ومن شأن ذلك أن يبعث في نفسه تساؤلاً مؤداه : وهل يحل بي ما يحل بهم ؟ فجاء قولهم: (إنا منجوك ..) مؤكدا ليدفع عن نفسه الشك ، ويبعث فيها الطمأنينة لأول وهلة.

وجيء بالفعل (كان) في قوله :﴿ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ وكان يمكن أن يقال: (هي من الغابرين) للإيماء إلى سبق قضاء الله بكونها من الغابرين ؛ لأنها أوغل في الكفر ، لمعايشتها نبي الله وكان أجدر بها أن تؤمن كما يومئ إلى جدارتها بذلك قوله – تعالى - : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [التحريم : ١٠] .

وفي الآيات من الفصل والوصل ما يلي :

فصلت جملة : ﴿ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ عن جملة ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ ؛ لشبه كمال الاتصال، ذلك لأنها مستأنفة استئنافا تعليليا لتجيب على سؤال اقتضته الجملة الأولى عن سبب إهلاكها : كأنه قيل : ولم تهلكونها ؟ فأجابوا : إن أهلها كانوا ظالمين .

وكذلك الحال في جملة ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ ، وفي جملة ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ ، وجملة ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ ﴾ .

فكل منها جواب عن سؤال يثيره ما قبلها ، وتقدير الأولى: فماذا قال إبراهيم ؟ وتقدير الثانية: فماذا قال الملائكة ؟ وتقدير الثالثة: فماذا أنتم فاعلون ؟

ووصلت جملة ﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا . . . ﴾ الآية بجملة الآيتين اللتين قبلها ، وهما ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ الآيتان ، ذلك لأن مجموع الآية الثالثة وصف لحال لوط وقت مجيء الملائكة إليه ، وما كان منهم له ، معطوف على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جملة حال إبراهيم عند مجيء الملائكة إليه ، وما دار بينهم من حوار ؛وذلك للتوسط بين الكمالين. فالآيات الثلاث خبرية في اللفظ والمعنى والمسند إليه واحد ، وكذلك المسند . وبين إبراهيم ولوط مناسبة واضحة فكلاهما نبي ، وكلاهما عايش الأحــداث ،وبينـهما آصرة قربى .

وفي داخل الآية الثالثة وصلت جملــة ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ بجملــة ﴿ سِيٓءَ بِهِمْ ﴾ للتوسط بين الكمالين فكلتاهما خبرية لفظاً ومعنىً ، وكلتاهما جواب ﴿ لَمَّا ﴾. وكذلك وصلت جملة ﴿ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ بجملة ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ للسبب نفسه فكلتاهما إنشائية لفظا ومعنى ، وكلتاهما مقول القول .

أما الجملة ﴿ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ فقد فصلت عــن جملــة ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ لأنها بمثابة جواب عن سؤال اقتضته : فكأنه لما قالت الملائكة إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك قال : ولماذا استثنيت من النجاة ؟ فقالوا : كانــت مــن الغابرين.

وثمة إيجاز بحذف جزء جملة وهو : الجار والمجرور في قـــــول الملائكة لإبراهيــم: ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ... ﴾ أي : من الهلاك، ومثـــله في قولهم للوط :﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ ... ﴾ أي : من الهلاك ،كما حذف المفضل عليه في قوله ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ... ﴾ أي : منك .

وفي الآية الثالثة إيجاز بحذف الجملة – كما سبق بيانه – وهي جملة (فأعلموه أنهــم رسل ربه)

والإيجاز بالحذف سواء أكان جملة أو جزء جملة يطوي ما يمكن الإشارة إليه ، ويبادر المتلقي بما هو مناط الغرض ، وما تتعلق به النفس ، ومع ذلك يكسب الأسلوب جزالــة ورصانة.

وفي الآية الأولى إيماض بالاستفهام المفهوم من الكلام تضمنه قول إبراهيم: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ ، وإيماض إلى جملة محذوفة يشير إليها قول الملائكة: ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ فالتقدير : لا تخف على لوط . نحن أعلم بمن فيهــا ،وإلى نحــو هــذا أومــأ الزمخشري بقوله : " نحن أعلم منك وأخبربحال لوط وحال قومه...وأنه لا يستأهل مــا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يستأهلون فخفض على نفسك وهون عليك الخطب "[1].

ومن المجاز [2]في هذه الآيات الشريفة :

ما هو كائن في قول الملائكة :﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ ﴾ ، وقولهم :﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ ﴾ حيث أسند الفعل ، والوصف إلى الضمير الواقع فاعلاً والمراد به الملائكة ، وهو من المجاز العقلي ؛ حيث أسند الفعل إلى سببه ،وقيمة هذا المجاز بيان أهمية السبب ولا غرو فالملائكة سبب في النجاة وهم منفذون لأمره .

ومن المجاز قوله - تعالى- في وصف لوط:﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ فهو كناية [3]عن

---

(١) الكشاف : (٨١٩) .

(٢) المجاز – كما يعرفه عبد القاهر الجرجاني – هو «كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها؛ لملاحظة بين الثاني والأول»، أي: بين المعنى الثاني الذي استخدمت فيه، والمعنى الأول الذي وضعت له.

وقيل: «المجاز هو ما أريد به غير الموضوع له في أصل اللغة، وهو مأخوذ من: جاز في هذا الموضع إلى هذا الموضع إذا تخطاه».

وقسم البلاغيون المجاز إلى قسمين:

أحدهما: مجاز لغوي، وقد عرفه الطيبي بأنه: «اللفظ المستعمل في غير ما وضع له بالتحقيق في اصطلاح التخاطب، مع قرينة عدم إرادته».

ويدخل في هذا القسم، المجاز المرسل، وقد عرفه القزويني بأنه «ما كانت فيه العلاقة بين ما استعمل فيه، وما وضع له ملابسة غير التشبيه؛ كاليد إذا استعملت في النعمة؛ لأن من شأنها أن تصدر عن الجارحة، ومنها تصل إلى المقصود بها».

والقسم الثاني: المجاز العقلي، وقد عرفه الطيبي بأنه «الكلام المحكوم فيه بخلاف ما عند المتكلم بالتأول؛ كقول الموحِّد: «أنبت الربيع البقل»؛ لما أنه رأى دوران الإنبات مع الربيع وجودًا أو عدمًا دوران الفعل، مع اختيار القادر، حَكَم أنه من الربيع مبالغة.

وقيل: المجاز العقلي: هو إسناد الفعل، أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة، مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي.

ينظر: أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني (٣٥١)، التبيان للطيبي (٢١٧، ٢١٨، ٢٥٤، ٢٥٥)، والإيضاح في علوم البلاغة (٢٢٩ – ٢٣٩)، المعجم المفصل في علوم البلاغة (٦٣٧- ٦٣٩)، المستصفى للغزالي (٣٤١/١) .

(٣) الكناية - كما يعرفها عبد القاهر الجرجاني-: «أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به، ويجعله دليلا عليه».

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صفة وهي العجز . يبين ذلك الزمخشري بقوله : " وقد جعلت العرب ضيق الذراع والذرع عبارة عن فقد الطاقة كما قالوا: رَحُبَ الذراع بكذا إذا كان مطيقا له ، والأصل فيه أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير الذراع ، فضرب ذلك مثلا في العجز والقدرة " [1] ، وإطلاقه لفظ التمثيل – هنا – على الكناية من باب التسامح في المصطلح فهو يطلق عليها اسم الكناية حينا ، واسم التمثيل حينا آخر. يتبين ذلك في تحليله لقوله - تعالى - : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] .

إذ يقول: " لما كان الاستواء على العرش - وهو سرير الملك - مما يردف الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا : استوى فلان على العرش يريدون ملك ... ونحوه قولك : يد فلان مبسوطة ، ويد فلان مغلولة بمعنى: أنه جواد أو بخيل لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت ، حتى أنّ من لم يبسط يده قط بالنوال أو لم تكن له يد رأسا قيل فيه يده مبسوطة ، لمساواته عندهم قولهم: هو جواد ،ومنه قول الله - عز وجل -: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ ﴾ - أي: هو بخيل - ﴿ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] أي: هو جواد من غير تصور يد ولا غل ، ولا بسط " [2] ، فهو هنا يجعل غل اليد كناية عن البخل ويجعل بسطها كناية عن الجود ، ثم نراه في تحليل قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩] ، يقول:"هذا تمثيل لمنع الشحيح وإعطاء المسرف ،وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير " [3]

أعرف أنني أطلت هنا ، لكني أردت أن أبين أن إطلاقه لفظ التمثيل في قوله - تعالى- : ﴿ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعًا ﴾ إنما هو من الكناية وليس من التمثيل سواء أكان على سبيل التشبيه أم على سبيل الاستعارة .

ولا يخفى ما في الفاصلة المبنية على حرف النون المسبوق بالياء من التمكن ، مع ما فيه من الإيقاع الذي يمتد معه الصوت امتدادا يصور هول الموقف وما فيه من شدة .

ينظر: دلائل الإعجاز، (٦٦).

ويقول الدكتور عبد الفتاح عثمان: «الذي استقر عليه رأي البلاغيين هو أن الأسلوب الكنائي هو التعبير الذي لا يراد به معناه الأصلي الذي وضعه اللغويون، وإنما يراد به المعنى اللازم؛ لعلاقة بينهما تقوم على التبعية أو اللزوم، والذي يحدد هذه العلاقة العرف الاجتماعي».

ينظر: التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني، د. عبد الفتاح عثمان.

(١) الكشاف : (٨١٩) .

(٢) السابق : (٦٥١) .

(٣) الكشاف : (٥٩٦)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الإساءة في سياق بيان أفعال المسيئين وأقوالهم ما جاء في سورة الصافات من قوله - تعالى - : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الصافات : ١٧٧] .

لا يستقيم مغزى هذه الآية إلا في ضوء ما ورد قبلها من آيات ؛ لارتباطها بها ارتباطاً وثيقاً حيث قال - تعالى -: ﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الصافات : ١٦٧ – ١٧٦] .

فالله – تعالى – في هذه الآيات يكذب المشركين في مقالتهم : ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[1] ، ويهددهم ويتوعدهم لكفرهم بالنبي وتكذيبهم له بقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾. ثم عقب هذا بما يفيد تسلية النبي -ﷺ -وتثبيت فؤاده، فأخبره أن العاقبة دائمًا للرسل وأتباعهم، وأن النصر والتأييد حليفهم دائمًا، فقال: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

ثم يخبر - تعالى - نبيه أن انتظاره النصرَ على أعدائه لن تطول مدته؛ فظهوره عليهم جدُّ قريب، فاصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر؛ قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٤، ١٧٥].

---

(١) يقول الزمخشري في تفسير هاتين الآيتين: " ﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا ﴾ أي: كتابا ﴿ مِّنَ ﴾ كتب ﴿ ٱلْأَوَّلِين ﴾ الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله،ولما كذبنا كما كذبوا...فجاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب فكفروا به ونحوه فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا" وفي تقديمه لهذه الآية من سورة فاطر يقول :"بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله - ﷺ -أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا:لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم ،فو الله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم ،فلما بعث رسول الله- ﷺ - كذبوه "

- الكشاف : (٩١٦)،(٨٨٩) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثم تنتقل الآيات إلى بيان عاقبة البغي والكفر وتكذيب الأنبياء والمرسلين حتى لقد بلغ من عنادهم وإصرارهم على الكفر أنهم كانوا يستعجلون العذاب، جهلًا بحقيقته، فهم لا يعرفون مدى شدته وإهلاكه، فذكر الله لهم صفة العذاب الذي استعجلوه مُبيِّنًا لهم شدة وقعه عليهم حين يترل بهم، فقال: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾.

تلك هي صفة العذاب الذي استعجلوه، إنه يترل بهم بغتة فيقطع دابرهم ويستأصلهم بالكلية، فبئس عاقبة الذين أنذروا على لسان الرسل ولم يؤمنوا بهم؛ لأنه يوم هلاكهم ودمارهم.

ومقام الآية هو بيان إهلاك الله لعدوه بجيش المسلمين.وتبدو صفات فصاحة الكلمات واضحة لمن يوجه النظر إليها فهي سهلة قريبة إلى الفهم ، جارية على العرف العربي من حيث صيغتها بيد أن بعض منها له وميض يستوقف القارئ .

فكلمة ﴿ ذِكْرًا ﴾ أوثرت على كلمة (كتاب) : لما تومئ إليه من الإيقاظ من الغفلة، فهو مذكر لهم ناطق بذكر ما يجب عليهم من الإيمان بالله والانصراف إليه عما سواه يصبحهم ويمسيهم بذلك . أما لفظة (كتاب) فإنها لا تعد الدلالة على ما هو مكتوب وقد يقرءونه ، وقد ينصرفون عنه .

وفي كلمة ﴿ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ ما يشير إلى الإحاطة بهم ومحاصرتهم فلا يستطيعون الإفلات مما نزل ، ولو قيل (بهم) بدلا منها لكان من الممكن لبعضهم أن يظفر بالنجاة بوسيلة يتخذها أو حيلة يتحيل بها ، ونزول العذاب بأكثرهم يصدق إنه نزل بهم ، أما كلمة الساحة فتشير إلى لحاقه بهم جميعاً ، لا تجدي في ذلك حيله ، ولا تنفع وسيلة.
وأوثرت كلمة (ساء) على (بئس) وكلتاهما للذم ؛ لأن المذموم قد يكون قبحه قليلاً فيتحمله المرء ولو على مضض . أما كلمة (ساء) فتوحي بأن ما نزل بهم من العذاب لا يطاق ، ولا قدرة لأحد على تحمله، فهو يسوء كل من نزل به .

وكذلك الحال في كلمة (تول) ، فقد أوثرت على كلمة (أعرض) ؛ لإيمائها إلى مفارقتهم ، والبعد عنهم ، فهم لا ينفع معهم التذكير ، ولا يفيدهم التحذير ، وأما الإعراض، فقد يعني مجرد الترك ولو لبعض الوقت حتى تهدأ نفوسهم فعندئذ قد يزول عناهم، ويصبح من الممكن العودة إلى تذكيرهم فيتذكرون .

وكلمة (أبصر - يبصرون) موحية بشدة ما سيترل بهم ،كأن ما لا يتوقعون

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حدوثه أمر مشاهد له من الهول ما لم يدر بخلدهم.

وذكر لفظ (العباد) في قوله : ﴿ لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ؛للإيماء إلى أن الرسالة لم ترتفع بهم عن درجة البشرية ، على نحو قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [فصلت : ٦] فهم مع ما حملوا من الرسالة عباد لله.

وفي جملة ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴾، ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾ تأكيد مكثف ،حيث أكدتا بإن ، واللهم ، واسمية الجملة، وضمير الفصل ، وإنما كان التأكيد مع أن المخاطب لا يشك فضلاً عن أنه لا ينكر؛ لأن المعني بالخبر ليس هو المخاطب ، بل المعني به هم الكافرون تعريضا [(١)] بما سيلحق بهم من عقاب لا قدرة لهم على احتماله على نحو قوله : (إياك أعني وأسمعي يا جارة) .

وصدرت جملة ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات : ١٧٤] بالفاء ؛ للإشارة إلى محذوف تقديره :إذا كان الأمر ما علمت ، وأنه سبق لك الوعد بالنصر فتولى عنهم حتى حين ، وفي هذا الأمر تسليه للنبي - ﷺ- وتسرية لما به من هم وحزن ، لإعراض هؤلاء المكذبين وهم كانوا أجدر بأن يكونوا أول المؤمنين به .

ونكرت كلمة ﴿ حِينٍ ﴾ ؛للإيماء إلى قصر الزمن الذي يعقبه العقاب . يقول الزمخشري : " (حتى حين : إلى مدة يسيره)[(٢)] ، وقد اختلف المفسرون في تقدير هذا الزمن القصير فقيل: إلى يوم بدر، وقيل : الموت ،وقيل : يوم القيامة [(٣)] ، وأياً كان الحين فإنه قصير إذا قيس بما يكون من العذاب كما يحكيه الله - عز وجل-: ﴿ قَـٰلَ كَمْ

---

(١) التعريض – كما يعرفه يحيى بن حمزة العلوي–: «اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي».

وسمي تعريضا؛ لما فيه من التعوج عن المطلوب.

وجعل السكاكي التعريض نوعًا من أنواع الكناية، فقال: «الكناية تتفاوت إلى تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء وإشارة؛ فإن كانت عرضية فالمناسب أن تسمى تعريضا، وإلا فإن كان بينها وبين المكني عنه مسافة متباعدة؛ لكثرة الوسائط، فالمناسب أن تسمى تلويحًا؛ لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بعد، وإلا فإن كان فيها نوع خفاء، فالمناسب أن تسمى رمزًا؛ لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية، وإلا فالمناسب أن تسمى إيماء وإشارة».

ينظر: ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة (٣٨٣). الطراز للعلوي (١/١٩٣)،الإيضاح في علوم البلاغة (٣٠٩)، بتصرف، التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، (٢٧٤، ٢٧٥).

(٢) الكشاف : (٩١٦)

(٣) السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [المؤمنون : ١١٢ – ١١٤] .

ويطالع المتلقي ذلك الحذف الذي يتراء من خلال جملتي ﴿ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴾؛ فقد حذف عقب الجملة الأولى ما يدل على ما يراد بها من الوعيد ، وعقب الثانية ما يدل على ما يراد بها من الوعد .. والتقدير كما يقول الزمخشري : " ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ ﴾ وما يقضي لهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضي لك من النصرة والتأييد والثواب في العاقبة " (١) . وفي هاتين الجملتين من التهديد ما لا يخفى. يقول الزمخشري : " والمراد بالأمر بإبصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدلالة على إنها كائنة واقعة لا محالة وإن كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك " (٢) ، والاستفهام في قوله - تعالى - : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ توبيخ لهم، وسخرية من جهالتهم؛ لأنهم لو علموا هول ما استعجلوا ،ما بدر منهم لفظ الاستعجال ، ولأسرعوا إلى ما يدفع به عذابهم .

وفي جملة ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴾ حذف المخصوص بالذم ، والتقدير : فساء هو الصباح ،كما وضع المظهر موضع المضمر ، فإن الأصل : فساء صباحهم ، والسر في ذلك بيان سبب هلاكهم وعذابهم وهو الإنذار.

يروع القارئ ما يلحظه في هذا النظم الذي يثير بجزالة تركيبه مشاعر التعجب من قوم تفاوتت بهم الحال من استعداد للإيمان إلى إصرار على الكفر .

ويتبين ذلك من الخبر المؤكد تأكيد مكثفا ﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ .

لقد أكد قولهم هذا بإن ، واللام ، مع ضمير الشأن الذي لا يذكر إلا فيما هو بالغ غاية العظمة أو غاية الاستغراب . يقول الزمخشري : " وإن هي المخففة من الثقيلة ، واللام هي الفارقة . وفي ذلك أنهم كانوا يقولونه مؤكدين للقول جادين فيه . فكم بين أول أمرهم وآخره " (٣) على أن جملة مقول القول مؤكدة بأن واللام الواقعة في جواب

---

(١) الكشاف (٩١٦- ٩١٧) .
(٢) نفسه (٩١٧) .
(٣) الكشاف : (٩١٦) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(لو) ،ولو لم يكن القصد إلى التأكيد لقيل : لو عندنا ذكر، أو لو جاءنا كتاب لآمنا .

والفاء في جملة ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِۦ ... ﴾ تشير إلى محذوف تقديره : فجاءهم الذكر الذي تطلعوا إليه - أو أخبروا بإيمانهم به لو جاء - فكفروا به ، وكذلك حذف مفعول ﴿ يَعۡلَمُونَ﴾ ، وتقديره: (وسوف يعلمون عاقبة كفرهم) ، وسر الحذف في هذا وذاك المسارعة إلى بيان ما كان منهم ، والإيماء إلى ما ينتظرهم كأن جزاء ما ينتظرهم أكبر من أن يعبر عنه بلفظ .

وقد سيقت هذه الجملة غير مؤكدة ؛ لأن كفرهم أمر لا مراء فيه ، ولأن ما هددوا به لا يحتاج إلى تأكيد ، لأن المخاطب به يعلم حق العلم أنه كائن لا محالة .

وفي جملة ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ أكد الخبر بالواو - وهي للقسم - والمقسم به محذوف، والتقدير (والله) كما أكد باللام الواقعة في جواب القسم ، وكذلك أكد بحرف التحقيق (قد) ، وأضيف المسند إليه (كلمة) إلى ضمير العظمة ؛للإيماء إلى أنها قرار لا رجعة فيه ، فهي صادرة عن العزيز القادر الذي لا مرد لأمره .

هذا بالنظر إلى الجملة ، فإذا توجه النظر إلى العبارة تبين : أن جملتي ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ قد ارتبطتا بما قبلهما بالفاء ؛ للإشارة إلى أن الكفر أعقب مجيء الرسول إليهم ، ومن ثم كان التهديد مواكبا لكفرهم ،ودون تراخ . أما جملة ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا...﴾ ، فقد فصلت عما قبلها لأنها مستأنفة استئنافا بيانيا ،فهي بمثابة الجواب عن سؤال أثارته الجملة قبلها ،كأنه قيل :وماذا يكون جزاء الكافرين ؟: فكان الجواب يسبق كلمة العظيم لعباده المرسلين مؤكداً بما سبق بيانه، وفصلت جملة ﴿ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴾ ، وما عطف عليها عما قبلها ؛ لكونها بيانا لمضمون الكلمة ، أما جملة ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا ... ﴾ فقد وصلت بما قبلها للتوسط بين الكمالين ؛فهما خبريتان لفظا ومعنى، مع كون المسند إليه واحداً ، فجند الله هم رسله ومن آمن بهم ،وكون المسندين متناسبين ، فالغلب بمعنى النصرة.

ووصلت جملتا ﴿ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴾ بما قبلها، للتوسط بين الكمالين فهما إنشائيتان لفظا ومعنى، ولأنهما يحملان معنى التهديد والوعيد .

وفصلت جملة ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ عما قبلها ﴿ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴾ لكمال الانقطاع ؛ فإحداهما خبرية لفظا ومعنى، والثانية إنشائية لفظا ومعنى .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله ﴿ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا ﴾ مجاز مرسل ، حيث عبر بالكلمة مرادا بها الكلام علاقته الجزئية فإن الكلمة أساس في بناء الكلام ، إذ هو كلمات يضم بعضها إلى بعض على وجه مخصوص ،ويمكن أن يكون المراد به الوعد ، والوعد كائن فيها فعبر بالظرف مرادا به المظروف ،فهو مجاز علاقته المحلية . والسر في هذا المجاز بيان أهمية الجزء في حصول الجزء ، أو بيان أهمية الظرف في حمل المظروف و الاحتفاظ به .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ ﴾ كناية عن نسبة ، حيث نسب النزول إلى الساحة والمراد نسبته إلى القوم . كقول الشنفرى الأزدي يصف امرأة بالعفة (١) :

يبيتُ بمنجاة من اللَّوم بيتها   إذا ما بيوتٌ بالملامة حَلَّت (٢)

حيث نسب النجاة من اللوم إلى بيتها ،والمراد نسبته إليها ، وفيه إلى ذلك استعارة مكنية حيث شبة العذاب بالجيش ، ثم استعير الجيش للعذاب ، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو النزول .

وفي إثبات النزول للعذاب استعارة تخييلية ، وهي استعارة تمثيلية بديعة، "والمعنى: إذا نزل العذاب بفناء المكذبين ،فبئس هذا الصباح صباحهم ،مثَّل للعذاب بجيش كثيف مدجج بالسلاح هجم عليهم وقت الصباح فأحاط بهم من كل جانب ، ونصحهم بعض الناصحين فلم يلتفتوا له ولم يأخذوا أُهبتهم حتى اجتاحهم الجيش وقطع دابرهم "(٣) ، وفي هذه إيحاء بشدة العذاب فهو في صورة جيش كثير العدد ، قوي العدة لا يقدر عليه من ينازله.

وفي قوله: ﴿ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ﴾ طباق خفي حيث جعل ما قضى لهم به من الأسر والقتل والعذاب في مقابلة ما قضى له به من النصرة ، والتأييد ،والثواب .

---

(١) البيت من الطويل وغير مذكور في ديوان الشنفرى طبعة الميمني .ومذكور في المفضليات (١٠٩)وهو شاعر جاهلي من العدائين ، والشنفرى:العظيم الشفة .

(٢) روايته في المفضليات :

تحلُّ بمنجاة من اللوم بيتها   إذا ما بيوتٌ بالمذمَّة حُلَّتِ

المنجاة:من النجوة ، وهي الارتفاع .

ينظر :المفضليات للمفضل الضبي تحقيق:أحمدشاكر وعبدالسلام هارون (ط٢) دار المعارف،القاهرة ١٩٥٢م، دلائل الاعجاز (٢٣٩)،الإيضاح (٣٠٨)

(٣) الإبداع البياني للصابوني (٢٧٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي الطباق تتداعى المعاني فيظهر الضد ضده ، ويبدو الفرق شديدا بين الأمرين .

وقد بنيت الفواصل على الواو والنون ، أو الياء والنون ، وفي ذلك من الجرس ما يضفي على الكلام جزالة .

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الإساءة في سياق بيان أفعال المسيئين وأقوالهم ما جاء في سورة غافر في قوله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [غافر : ٣٦ – ٣٧] .

هذا جانب من أحداث القصة . يحكي ما كان من أمر فرعون بعد أن أظهر المؤمن من آل فرعون إيمانه وقال ما قال (١) ،فخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن من قلوب القوم، فأوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى ، فإن ظهر صوابه لم يخفه عنهم ، وإن ظهر كذبه كان ذلك أدعى إلى أن يثبتوا على إيمانهم ،فأمر هامان أن يبني له صرحا شامخا ليبلغ به أبواب السماء أو طرقها لينظر إلى ما زعمه موسى إلها متوهما أنه جسم تحتويه الأماكن، وإنه ليعتقد اعتقاداً جازماً أنه كاذب ، وإنما فعل ما فعل لإزالة الشبهة عمن لا

---

(١) ينظر ما قاله المؤمن في قوله – تعالى - : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ الآيات ٢٨-٣٥ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يتقن ما يتقنه هو .

أجل. فقد كان فرعون يدعي الإلوهية ، ويرى تحققها بالجلوس في مكـــان شـــرف وكان عليه أن يفعل ما فعل ليظل القوم على عبوديتهم له، وعلى هـــذه الـــوتيرة زيـــن لفرعون عمله السيئ ، وصد عن الإيمان بالله ، وكان من أمر الله أن أفســد تـــدبيره ، وانتهي أمره إلى الهلاك غرقاَ (١) .

والناظر في كلمات هاتين الآيتين يظن للوهلة الأولى أنها تبوح بما وضعت له ، فهي قريبة سهلة ، مستوفية عناصر فصاحتها غير أن في بعض كلماتها إيحاء يتراءى مـــن وراء ستار:

فكلمة (فرعون) : أوثرت على ما يراد منها وهو: (ملك مصر) : لما توحي بـــه من العناد والتكبر ، والاستبداد ، فالفرعنة : الكبر والتجبر ، وفرعون : كل (حـــاكم) ملك دهره .قال القطامي :

وشق البحر عن أصحاب موسى وغرقت الفراعنــــــة الكفار (٢)

وقال الراغب:" وفرعون اسم أعجمي ، وقد اعتبر عرامته فقيل : تفرعن فلان إذا تعاطى فعل فرعون " (٣)

وكلمة الصرح : أوثرت عما يقرب منها في المعنى وهو (القصر) ؛ لدلالتها علـــى العلو الذاهب في السماء ،كأنه انفرد وتميز عما سواه ، فالـــصرح -كمـــا في لـــسان العرب- : " بيت يبنى منفردا ضخما طويلا في السماء " (٤) ،فإيثار فرعون لهذا اللفظ ؛ لأنه يريد بناء شديد الارتفاع ليمكنه - فيما يزعم - من الإشراف على إله موسى.

وإيثار كلمة ﴿ زُيِّنَ ﴾ على ما يقرب منها في المعنى (حَسَّن) ؛ لما توحي بـــه مـــن بلوغ التحسين مداه ، ليموّه على فرعون عمله السيء ، فلا يدرك ما فيه من الـــسوء، وإن كان السوء في أحط دركاته .

وأوثرت كلمة (التباب) على الكلمة القريبة منها في المعنى وهـــي (الخـــسران)؛ للإشارة لما تومئ إليه من بلوغ الخسران أقصى مداه ؛ فالتباب " الاستمرار في الخسران .

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : (٨/٢٠٧)

(٢) ينظر: لسان العرب باب الفاء (فرعن) (١١/١٦٧) .

(٣) المفردات:كتاب الفاء (فرع) (٣٧٩)_ وجاء في المعجم الوسيط :فرعون لقب ملك مصر في التاريخ القديم .

(٤) لسان العرب باب الصاد(صرح) (٨/٢٢١) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقال تبًّا له ، وتَّبَّ له ، وتبَّبْتُه : إذا قلت له ذلك ،ولتضمن الاستمرار قيل: استتب لفلان كذا أي: استمر ،و ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾[المسد:١] أي : استمرت في خسرانه [(١)]، والاستمرار المضمن في هذه المادة يعني أنه بلغ مبلغا لانظير له، وقد كان أمر فرعون كذلك .فأي خسران أبلغ من الهلاك غرقا ممن كان يعتبرهم شرذمة قليلة ؟.

تلك ملحوظات من أسرار الكلمات لعلها تكون على جانب من الصواب .

يلحظ المتأمل في بناء الجمل ما يلي :

عرف المسند إليه باللقب الذي يحضره في ذهن المتلقي بما شهر من أمره مما سبق إيراده من مراعاة التجبر والاستعلاء ، وأوثر في النداء (يا) في قوله ﴿ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ﴾ مع قربه إليه مما يستدعي أدوات النداء القريب كالهمزة ، وأي؛ ليكون على وعي تام وتنبه لما يلقى إليه من أمر .

وفي جملة ﴿ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾ نكر المفعول (صرحا) ؛لإفادة التعظيم أي: صرحا عظيما ، أو النوعية أي: صرحا من نوع خاص بحيث يبدو فريدا متميزاً على كل ما يسمى صرحاً .

وفي جملة ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴾ استخدمت (لعل) في التمني ، وهي موضوعة للترجي ، وإنما أوثرت على (ليت) الموضوعة أصلا للتمني ؛ إشعارا بأن المتمنى خارج عن إطار المستحيل داخل في إطار الممكن القريب الحصول ، مبالغة في إيهام القوم بأنه ينشد الحقيقة ، وأنه لن يخفي عليهم أمرا ، وعرف المفعول ﴿ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴾ بأل التي للجنس المفيد للاستغراق ، فإنه يريد أن يبلغ جميع أبواب السماء أو طرقها ليكشف ما يزعمه موسى .

وفي جملة ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ ﴾ عبر عن المسند بلفظ (أظن) وهو يريد اليقين، وكان الأصل أن يقول: (وإني لموقن) ، ولكنه فعل ذلك أبرازاً لجانب الاحتمال حتى يظهر أمام القوم بالنصفة ، فقد يتبين أن إله موسى صادق ، وحينئذ لن يخفى عليهم أمره . وهذا إمعان في الإيهام ، ولو كان يريد ذلك حقا ما أكد ظنه هذاً التأكيد المكثف، وكان يكفي أن يقول: (وأظنه كاذبا) ، ولكن ذلك غير وارد على خاطره ، ولا يخفى بعد ذلك أن تأكيد الخبر هذا التأكيد المكثف ، ليشير من وراء ستار (الظن) أنه على

---

(١) المفردات :كتاب التاء (التب والتباب) (٧٩) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقين من كذبه .

وفي جملة ﴿ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ حذف المسند إليه ، وبني الفعل للمجهول؛ لأن الغرض هو إبراز حصول التزيين للعمل السيء فهو مناط الاهتمام ، أما من أحدثه فلم يتعلق به ، وليس في مناط الاهتمام ، وكذلك الشأن في الفعل (صد) فالغرض متعلق بحدوث الصد من فرعون عن السبيل ، أما من صده عنه فلا يتعلق به غرض .

وفي جملة ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ قصر طريقته النفي والاستثناء قصر موصوف على صفة حيث قصر الكيد على صفة التباب ، وهو من قبيل قصر القلب دفعا لوهم من قد يتوهم أنه مقصور على الفوز .

وفي نظم العبارة يلحظ القارئ أن الواو في جملة ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ ربطت بين حدثين من أحداث القصة ، فجملة (قال فرعون) وما بعدها إلى قوله: (كاذبا) معطوفة على جملة (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) إلى قوله: (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) .

ومن الوصل في هذه الآيات ما هو كائن في قوله: (زين له سوء عمله ، وصد عن السبيل) حيث وصلت الثانية بالأولى ؛لكونهما خبريتين لفظا ومعنى. ومشاركتها في الموقع الإعرابي فكانت بمثابة وصل المفرد بالمفرد .

ووصلت جملة ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ بجملة ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ ؛للتوسط بين الكمالين ، فهما ابتدائيتان لا محل لهما من الإعراب ،وهما أيضا خبريتان لفظا ومعنى ؛للتناسب في المسند إليه فيهما، فلفظ المثل المعبر عنه بالكاف مضاف إلى التزيين مناسب للكيد ، وللتناسب بين المسندين فيهما، فالمسند (تزين العمل السيء مناسب للتباب)

أما قوله: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ ؛ لكونها بمثابة الجواب عن سؤال اقتضاه الأمر بالبناء ، فكأنه قيل : ولماذا أبني؟ فكان قوله (لعلي ..) إلخ جواب ذلك السؤال .

وفي الآية الأولى إطناب ماثل في قوله: ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ، وهو من قبيل الإيضاح بعد الإبهام ، يوضح ذلك الزمخشري فيقول :" فإن قلت ما فائدة هذا التكرير ، ولو قيل لعلي أبلغ أسباب السموات لأجزأ ؟ قلت : إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

السموات أبهمها ثم أوضحها ، ولأنه لما كان بلوغها أمراً عجيباً أراد أن يورده على نفس متشوفة إليه ليعطيه السامع حقه من التعجب فأبهمه ليشوف إليه نفس هامان ، ثم أوضحه"[١] ، وفي إسناد الأمر بالبناء إلى هامان مجاز عقلي أسند فيه الفعل (ابن) إلى سببه وهو هامان كأنه – لكونه السبب الآمر – هو القائم بالبناء بنفسه ، قال الخطيب القزويني : " وهو – يعني المجاز العقلي – غير مختص بالخبر بل يجري في الإنشاء كقوله _ تعالى _ : (يا هامان ابن لي صرحا) "[٢] ، وفي ذلك بيان لأهمية السبب في حصول الفعل.

وفي ﴿ لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴾ استعارة تبعية[٣] في الحرف (لعل) حيث شبه مطلق التمني بمطلق الترجي بجامع المحبة ، ثم سرى التشبيه من الكليات إلى الجزيئات ، واستعير من مطلق التمني الحرف (لعل) على سبيل الاستعارة التبعية ، وقد سبق بيان السر في وضع الترجي موضع التمني وهو الإشعار بأن المتمنى ممكن قريب الحصول .

وفي قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ تشبيه،والمشبه هو المدلول عليه باسم الاشارة (ذلك)، فالكاف داخله على المشار إليه ، وهو القول الذي قاله فرعون والتقدير : زين له سوء عمله كما زين له سوء قوله. فالعمل السيء شبيه بالقول السيء.

---

(١) الكشاف : (٩٥٧) .

(٢) الإيضاح : (٣٣)

(٣) الاستعارة التبعية: هي التي لا يكون المستعار فيها اسم جنس غير مشتق ، فيكون فعلا أو اسما مشتقا أو حرف ، وسميت هذه الاستعارة (تبعية) لأنها تابعة لاستعارة أخرى في المصدر ، وهي ما يقع في الأفعال والصفات والحروف فإنها لا توصف فلا تحتمل الاستعارة بأنفسها ، وإنما المحتمل لها في الأفعال والصفات مصادرها ، وفي الحروف متعلقات معانيها ، فتقع الاستعارة هناك ، ثم تسري في هذه الأشياء ،فلا تقول: (نطقت الحال) وهي ناطقة بكذا،إلا بعد تقرير استعارة النطق لدلالة الحال،ولا: (سال به الوادي)، و(طارت به العنقاء)، إلا بعد تقرير استعارة سيلان الوادي به لهلاكه.وطيران العنقاء به لطول غيبته.وقوله- تعالى-: ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [التوبة:٣٤]،(بدل أنذرهم)من الاستعارة التهكمية على هذا الأسلوب ومثله: ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾[هود:٨٧] بدل السفيه القوي . والمقصود بمتعلقات معاني الحروف مايعبر عنها عند تفسيرها كما تقول :إن معنى (من)ابتداء الغاية ، ومعنى(إلى)انتهاء الغاية ،و(لعل) للترجي ،فما جاءت لعل في مثل: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة:١٨٩] إلا بعد ما استعير الترجي لإرادة الطاعة الخفي عنا سببها دون المعصية من العبد الممكن منهما، ثم استعير لجانب المشبه " لعل" اعتمادا على القرينة.

وللعلم فإن قرينة التبعية في الأفعال، والصفات تعود تارة إلى الفاعل ، وأخرى إلى المفعول الأول، أو إلى المفعول الثاني، أو إلى المفعولين معا،أو إلى المجرور.

ينظر: معجم البلاغة العربية (١١٠-١١١)،التبيان في علم المعاني والبديع والبيان(٢٣٦) وما بعدها،المصباح في المعاني والبيان والبديع(١٧٨-١٧٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي لفظ ﴿ ٱلسَّبِيلِ ﴾ استعارة تصريحيه حيث شبه الدين الصحيح بالسبيل المستقيم، والجامع هو التوصيل إلى الغاية المبتغاة من السلامة فمن سلك سبيلا صحيحا وصل إلى غايته من السير دون تعرض للهلكة ، ومن اتبع الدين الصحيح نجا من الهلاك في الآخرة.

وفي قوله: ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ استعارة مكنية حيث شبه الكيد بشئ مادي يوضع في ظرف ، ثم حذف ذلك الشيء المادي بعد تناسي التشبيه واستعارة الشيء المادي للكيد ، ودل عليه بشيء من لوازمه وهو قوله: ﴿ فِي تَبَابٍ ﴾ وفي ذلك تشخيص للكيد كأنه شيء يحرص عليه ويوضع في ظرف حماية من أن يناله سوء .

ويمكن أن يقال: أن التباب شبه بالظرف الذي تحفظ فيه الأشياء ، ثم استعير الظرف للتباب ، ثم حذف المستعار وهو الظرف ، ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو (في) التي تدل على الظرفية ، وفي ذلك تشخيص للتباب وهو أمر معنوي وإبرازه في صورة ظرف تصان فيه الأشياء الثمينة .

هذا ولا يخفى أن الفواصل قد طالت فيها قرائنها ، وجاء حرف الباء القوي الجرس بعد ألف المد ، فأضفى على الكلام إيقاعا تهتز له النفوس المتذوقة .

ومن البديع : الجناس الناقص[1] بين الكلمتين (إلى) ، (إله) ، وهو يضفي على الكلم تجانساً صوتياً ، كما أن فيه خداعا للمتلقي ، فقبل أن يصل المتكلم إلى الحرف الأخير من كلمة (إله) يظن أن الثاني هو الأول ،فإذا وصل إلى هذا الحرف تبين أنه

---

(١) الجناس الناقص: من الجناس غير التام ، وهو أن يختلف اللفظان المتجانسان في الهيئة دون الصورة في نوع ، وعدد الحروف أو هيئتها وترتيبها، بأن يكون في أحد اللفظين حرف زائد أو أكثر إذا أسقط ذلك الحرف الزائد حصل الجناس التام ، وسُمي هذا الجناس ناقصا لنقصان أحد اللفظين عن الآخر. ويكون ذلك على وجهين :

أحدهما: أن يختلفا بزيادة حرف واحد في الأول كقوله- تعالى- : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ ﴾[القيامة ٢٩-٣٠]، أو في الوسط كقولهم: (جَدّي جَهْدي)، أو في الآخر كقول أبي تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم ... تصول بأسياف قواض قواضب

وقد يُسمى هذا القسم الأخير (مطرفا).

والوجه الثاني: أن يختلف المتجانسان بزيادة أكثر من حرف واحد كقول الخنساء :

إن البُكاء هو الشفا ... ءُ في الجوى بين الجوانح

وسُمي هذا الضرب (مذيلا).

ينظر: الإيضاح للقزويني (٣٥٦-٣٥٧)، معجم البلاغة العربية لبدوي طبانة (٦٨٤-٦٨٥)، المعجم المفصل في علوم البلاغة(٤٦٦)،البديع في المعاني والألفاظ د.عبد العظيم المطعني (١١١)،التبيان للطيبي (٤٨٢)، الطراز للعلوي(٢/١٨٦-١٨٧)، المصباح(٢٠٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غيره ، وفي ذلك من الروعة ما فيه . يقول عبد القاهر : " فمما يظهر فيه ذلك – يعني حسن الجناس – نحو قول أبي تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم   تصول بأسياف قواض قواضب

...وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة – كالميم من عواصم والباء من قواضب – أنها هي التي مضت ، وقد أرادت أن تجيئك ثانية وتعود إليك مؤكدة، حتى إذا تمكن في نفسك تمامها ، ووعى سمعك آخرها ،انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذي سبق لك من التخيل ، وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال "(١).

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الإساءة في سياق بيان أفعال المسيئين وأقوالهم قوله - تعالى - : M Q R S T U V W X Y Z [\ ^ _ ` a b c
d e f g h i j k l m o p q r s t u v w x
y z { | } ~ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴿٤٨﴾ L [الشورى : ٤٧ – ٤٨]

في هاتين الآيتين يخاطب الله من لم يؤمن من الناس داعياً إياهم إلى الإيمان به بوصفه منعما رباهم بنعمه التي أغدقها عليهم ليحرزوا النجاة من يوم هو آت لا محالة، ولا يستطيع أحد أن ينكر ما اقترفه من سيئات فهي مدونه في كتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها .

ثم وجه خطابه إلى نبيه الكريم مقرراً أنهم إن أبوا أن يؤمنوا فلا تأس عليهم فلست مكلفا بحملهم على الإيمان ، وما عليك إلا أن تبلغهم بما أرسلت به فتبشر وتنذر ، فالناس جبلوا على الفرح إذا أنعم الله عليهم بنعمة ، فإن نزلت بهم نازلة جزعوا ، وكفروا النعم الكثيرة التي تحيط بهم من كل جانب (٢) .

لا مراء في أن كلمات هاتين الآيتين غاية في وضوح المعنى وسهولة النطق ، وهي

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (١٢-١٣) .

(٢) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (١١/١٦١) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/٣٢) ، مفاتيح الغيب للرازي (٢٧/١٥٨) ، المحرر الوجيز لابن عطية (٦/٨٥) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جارية على ما جرى به اللسان العربي في الصياغة غير أن بها كلمات تستوقف المتذوق بما لها من ومض.

فقد أوثرت كلمة (استجيبوا) على ما يقرب منها في المعنى مثـــل (أطيعـــوا) أو (آمنوا): لما في هذه اللفظة من الإيماء إلى قطيعة ما كانوا عليه من الكفـــر والـــدخول في طاعة من تولاهم بنعمه ذلك أن مادة هذه الكلمة تدل على القطع . يقـــول الراغـــب : "الجوب : قطع الجوْبة – وهي كالغائط من الأرض – ثم يستعمل في قطع كـــل أرض . قال تعالى : M F G H I J L [الفجر : ٩] ، ويقال هل عندك جائبة خبر ؟ وجواب الكلام هو ما يقطع الجوب فيصل من فم القائل إلى سمْع المستمع. لكن خص بما يعود من الكلام دون المبتدأ من الخطاب قال تعـــالى : M " # $ % & ' (L [النمل: ٥٦] "[1] ، والهمزة والسين والتاء تدل على التلبس بالجوب والمبالغة فيه كأنه قيل: تلبسوا بقطع ما أنتم عليه من الكفر وأقبلوا على من رباكم بنعمه .

وأوثرت كلمة (الرب) على ما سواها من أسماء الله الحسنى لما تـــوحي بـــه مـــن السبب الداعي إلى الإقبال عليه والانصراف عما سواه .

وأوثر التعبير عن العصيان بالفعل (أعرضوا) دون الفعل (عصوا) لما يومئ إليـــه هذا اللفظ من النفور والكراهية ؛ فإن من نفر عن شيء وكرهه التفـــت عنـــه ، وأولاه جانبه ، ومادة (عرض) تشير إلى إيلاء العرض وهو الجنب ؛ ذلك أن : " العرض خلاف الطول ، وأصله أن يقال في الأجسام ثم يستعمل في غيرها ... والعرض خص بالجانب... وأعرض أظهر عرضه أي ناحيته ... فإذا قيل: أعرض لي كذا ،أي: بدا عرضه فـــأمكن تناوله، وإذا قيل: أعرض عني فمعناه :ولَّى مبديا عرضـــه قـــال: M1 2 3 L [الـــسجدة:٢٢] "[2] فالتعبير بالإعراض يشير إلى التولي كأنهم لا يريدون الاستماع إلى مـــا يدعوهم إليه ، فهم ينصرفون عنه لا يلوون على شيء .

وأوثر التعبير عن إيلاء الرحمة بالفعل (أذاق) ؛ للإيماء إلى ما جُبل عليه من النسيان للمنعم ، والاغترار بالنعمة ، فإن الذوق : إدراك الطعم بالفم فإن استطابه مالت نفـــسه إليه وفرح به .

---

(١) المفردات في غريب القرآن كتاب الجيم ، مادة (جوب) (١٠٩) .

(٢) المفردات في غريب القرآن _كتاب العين _مادة (عرض) (٣٣٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول الراغب : " وأصله في ما يقل تناوله دون ما يكثر ... وقوله: M t u v w x y L [الشورى:٤٨] ؛ فإنه استعمل في الرحمة الإذاقة ... تنبيهاً على أن الإنسان بأدنى ما يُعْطى من النعمة يأشر ويبطر " (١) .

وأوثر التعبير عن إيقاع السيئة بالفعل (تصب) ، للإشارة إلى ما يصاحبها من الألم وإن كان قليلا فهذا الفعل مأخوذ من (الصواب) ، " والصوب : الإصابة . يقال: صابه، وأصابه ، وجعل الصوب للمطر إذا كان بقدر ما ينفع ... وأصاب السهم أي: وصل إلى المرمى بالصواب ... والإصابة في الخير اعتبارا بالصوب أي بالمطر ، وفي الشر اعتبارا بإصابة السهم " (٢) . ولا ريب أن في إصابة السهم إيلاما ، وفي ذلك دلالة على البرم ، والضيق بنزول السيئة مما يجعله ينسى ما هو مغمور به من النعم . وهو المراد بقوله فإن الإنسان كفور .

ذلك هو ما أمكن إدراكه من أسرار الكلمات ، أما النظم فما أروع ما يلحظ القارئ من بلاغة تركيب الجملة ، وبناء العبارة ، وهذا ما سأحاول الوقوف عنده فيما يلي:

بدأت الجملة بالمسند (استجيبوا) وهو أمر يتضمن الدعوة إلى الله في لطف والمسند إليه هو الضمير المعبر عنه بواو الجماعة . وهو ما يعود على الظالمين الذين سبق ذكرهم في قوله : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الشورى :٤٤] ، وقيد الاستجابة بكونها لربهم الذي تولاهم بنعمه فتربوا بها . وفي ذلك إشارة إلى سبب استجابتهم له كما سبق بيانه ثم قيد حصول هذه الاستجابة بحصولها قبل إتيان يوم لا سبيل إلى رده .

وَوَصْفُ هذا اليوم بجملة : MX Y Z [\ L ؛للتقييد بكونه لله، وللتهويل فهو يوم فيه العذاب الذي إذا عاينوه يشتد همهم وغمهم ويتمنون أن يردوا إلى الحياة ليستدركوا ما فاتهم ، وهذا هو ما عبر عنه في الآية السابقة Mوَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ à رَأَوُا۟ â يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ ç è L ، ثم عبر عن انتفاء وسائل النجاة بقوله: M ^ _ ` a b c d e f L وفي هاتين الجملتين جيء بالمسند إليه نكره

(١) السابق :كتاب الذال مادة (ذوق) (١٨٧ – ١٨٨) .
(٢) السابق :كتاب الصاد ، مادة (صوب) (٢٩١) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في سياق النفي ؛لإفادة العموم ، أي أن النفي شامل لجميع أفراد الملجأ ، وجميع أفراد الإنكار وجاءت (من) داخلة على المسند إليه لتأكيد هذا النفي وفي ذلك من التيئيس من وجود الملاذ ، وحصول الإنكار لما اقترف من السيئات ، فالعذاب واقع لا محالة .

وفي جملة M h i j k l m L التفات[1] من الخطاب إلى الغيبة إشعارا بأن المعرضين ليسوا أهلاً لشرف الخطاب ، ومن ثم أعرض عنهم ، وأقبل على رسوله - ﷺ - يخاطبه مسريا عنه بقوله : M j k l m o p q r L .

وقيد الإعراض بأداة الشرط (إن) مع أنه متوقع الحصول ، وظاهر المقام يقتضي أن يقيد بأداة الشرط (إذا) ؛ للإشارة إلى جدارتهم بالاستجابة ، اتقاء العذاب في اليوم

---

(١) الالتفات :من فعل لَفَتَ، ولَفَتَ وجهه عن القوم: صَرَفَه، عرَّف الالتفاتَ أبو هلال العسكري، وقال: «الالتفات على ضربين: فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى، فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به»، وهذا النوع من إبداع الأصمعي؛ كقول جرير:

أتنسى إذ تودعنا سليمى ... بعود بشامة سقي البشام

قوله: «سقي البشام» التفات عن سير شعره بالدعاء له. والضرب الآخر: أن يكون الشاعر آخذًا في معنى وكأنه يعترضه شك أو ظن أن رادًّا يرد قوله أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعًا إلى ما قدمه.. فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يزيل الشك عنه، ومثاله قول المعطل الهذلي:

تبين صلاة الحرب منا ومنهم ... إذا ما التقينا والمسالم بادن

فقوله: «والمسالم بادن» رجوع من المعنى الذي قدمه، حتى بين أن علامة صلاة الحرب من غيرهم أن المسالم بادن والمحارب ضامر، وكذلك عرفه ابن الأثير الجزري بقوله: يكون هذا النوع من الكلام خاصة؛ لأنه يُنتقل فيه من صيغة إلى صيغة، كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب، أو من خطاب غائبٍ إلى حاضر، أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماض؛ كقول الخنساء:

وما يكون مثل أخي ولكن ... أُعزي النفس عنه بالتأسي

ويسمى أيضًا «شجاعة العربية» وإنما سمي بذلك لأن الشجاعة هي الإقدام، وذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره. وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: في الرجوع من الغَيْبة إلى الخطاب، والعكس. ومثاله قوله- تعالى-: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الفاتحة: ٧]، عطفا على الأول، لأن الأول موضع التقربِ من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب، فأسند النعمة إليه لفظًا، وروى عنه لفظ الغضب تحَنُّنًا ولُطفًا.

الثاني: في الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، والعكس. كقول أحدهم: «اشهد عليَّ أني أحبك» تهكمًا به واستهانة بحاله.

القسم الثالث: في الإخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل، والعكس. كقوله- تعالى-: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر:٩]. فإنه إنمَا قال: ﴿ فَتُثِيرُ ﴾ مستقبلا، وما قبله وما بعده ماضٍ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي عرفوا هَوله ، ولا سبيل إلى رده ، فمن عرف أنه لا ملجأ يعصمه من العــذاب ، وإنه لا يمكن إنكار ما اقترف من السيئات كان حصول الإعراض منه غير متوقع .

وفي إسناد الفعل (أرسل) إلى ضمير العظمة إيماء إلى لزوم الوقوف عنــد حــدود المهمة المنوطة به كما صرح بذلك أسلوب الجملة التي بعدها . وهذه الجملة فيها إشــارة إلى إيجاز بحذف جواب الشرط ؛ إذ هي دليل عليه ، والتقدير: (فإن أعرضوا فلا تحــزن لإعراضهم ، وقد بلّغت ولا تَبِعَة عليك في إعراضهم فما أرسلناك عليهم حفيظا) .

وفي جملة M o p q r L قصر طريقته النفي والاستثناء .قُصر فيه ما علــى الرسول - ﷺ- على البلاغ قصر موصوف على صفة ، وهو من قبيل قصر الإفــراد ، فكأن الرسول لشدة حرصه على إيمان من يدعوهم ظن أنه يجمع إلى مهمة الإبلاغ مهمة القهر على الإيمان فقصرت مهمته على الإبلاغ دون القهر . وفي هذه الجملــة وجملــة جواب الشرط التي قبلها تسليه للرسول - ﷺ - وتسرية لما يعانيه من الحــزن جَــرَّاء إعراضهم عن الإيمان .

وفي قوله: M t u v w x y z { L جاء الفعل (أذقنا) مسنداً إلى ضمير العظمة ؛ لتعظيم الإذاقة ، والإيماء إلى جحود الإنسان الذي يبطر النعمة ،وفي تأكيد هذه الجملة إيماء إلى غرابة في سلوك الإنسان ، إذ يفرح بالنعمة فينسى المنعم وقد تمثل هذا التأكيد في تصدير الجملة بحرف التوكيد (إن) وفي التعبير عن المــسند إليــه بضمير العظمة ، وإرادة اسما لها ، ثم في تكرار الإسناد ، حيث أسند الفعــل (أذاق) إلى ضمير العظمة فاعلاً للإذاقة ، ثم بجعل الفعل وفاعله مسندا إلى ضمير العظمة الواقع اسماً لإن .

وفي جملة M } ~ سَيِّئَةٌ L جيء بالمسند إليه نكرة ؛ إيماء إلى القلة ، وقــد آزر تنكير المسند إليه التعبير بإن في صدر الجملة في هذا الإيماء ، غير أن مــن الملحــوظ مجيء إذاقة الرحمة مسندا إلى ضمير العظمة ، ومجيء الإصابة مسندا إلى السيئة ، فكــأن الإصابة جاءت تلقائيا نتيجة مباشرة لما قدموه من عمل ســيء، وفي ذلــك إشــارة إلى استحقاقهم لما نزل بهم . فإن المعصية سبب في حصول السيئة .

وجاءت جملة جواب الشرط مؤكدة بإن واسميه الجملة Mفَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ L ، وفي التأكيد المكثف إيماء إلى شدة قبح الكفران . وفي هذه الجملة إظهار في مقام الإضمار فإن ظاهر المقام يقتضي أن يقال : (وإن تصبهم سيئة ، فإنه كفور) لسبق التصريح بــه في

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قوله: M u v w L ، وإنما أظهر ليقع الإخبار بالكفر بصيغة المبالغة على صريح لفظ الإنسان وفي تقييد الفعل في جملة الشرط بقوله: (بما قدمت أيديهم) حذف العائد على الموصول قصدا إلى الإيجاز وبعدا عما يؤدي إلى ترهل الجملة بما يمكن أن يدل عليه السياق ليكسب الكلام جزالة ومتانة .

وقد عرَّف الإنسان في قـــوله : M u v w L وفي قوله: Mفَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ L بأل التي للجنس ؛لإفادة الشمول ؛ فليس الفرح بالنعمة والبطر بها ، والكفران لوقوع السيئة خاصا بفرد دون آخر ، ولا بأمة دون أمة بل ذلك أمر عام شامل ، إلا من رحم الله .

هذا في تركيب الجملة . أما العــبارة فمن الملحوظ فصل جملــة : M o p q r L عن الجملة الشرطية بأسرها ؛ لأنها وقعت استئنافا تعليليا للنــهي الــوارد في جواب النهي المدلول عليه بقوله : M j k ...L كما سبق بيانه . كأنه قيل: لم لا أحزن وقد أعرضوا وكذبوا ؟ فكان قوله : Mo p q r L بمثابة الجواب عن هذا السؤال.

ووصلت جملة M { ~ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ L بما قبلها وهي جملة الشرط M u v ...L للتوسط بين الكمالين ؛لكونهما خبريتين لفظا ومعنى ، وفيهما من التناسب ما لا يخفى فإن السيئة في مقابل الحسنة ، والفرح بالرحمــة يقابلــه الكفران .

وفي التعبير عن الإنعام بالإذاقة استعارة تبعية حيث شبه الإنعــام بالإذاقــة بجــامع الإدراك في كل ، ثم أُستعيرت الإذاقة للإنعام ، ثم اشتق من الإذاقة بمعنى الإنعــام أذقنــا بمعنى أنعمنا على سبيل الاستعارة التبعية ، ويمكن أن تكون الاستعارة في الرحمــة حيــث شُبهت الرحمة بشيء مادي حلو بجامع ما في كل من الاستطابة ، ثم أستعير الشيء المادي للرحمة ، ثم حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإذاقــة علــى ســبيل الاســتعارة المكنية[١]، وفي ذلك تصوير الشيء المعنوي بصورة مادية محسوسة ؛ للإيماء إلى حــلاوة

---

(١) عرف السكاكي الاستعارة بقوله: هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الآخر، مدّعيا دخول المشبه في جنس المشبه به.

واجتمع الجمهور على أن الاستعارة بالكناية هي اسم المشبه به المستعار في النفس للمشبه المحذوف المرموز إليه بإثبات بعض لوازمه للمشبه، ويمثلون لذلك بقوله- تعالى-: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرحمة ، وتعلق الإنسان بها ، وميله إليها.

وفي التعبير عن نزول السيئة بالإصابة استعارة تبعية ، أو استعارة مكنية على نحو ما سبق بيانه.

على أن في لفظ الرحمة مجاز مرسل علاقته السببية ، فالمراد بالرحمة : النعمة فأطلق السبب وهو الرحمة ، وأراد المسبب وهو النعمة ؛ للإيماء إلى أهمية السبب ؛ فبوجوده يوجد المسبب ، وفي عدمه عدمه .

وفي قوله : M بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ L مجاز مرسل علاقته الجزئية ؛ فالأصل بما قدموا فعبر بالجزء وهو الأيدي ، وأريد الكل ، وهو أفراد الإنسان جميعا ، وإنما أوثر هذا الجزء لأهميته في حدوث الفعل، فأكثر ما يكون عمل الإنسان بيديه . فلليدين خصوصية واضحة في صدور الأعمال من الإنسان .

وفي جملتي الشرط مقابلة [1] حيث جعلت الإصابة في الثانية مقابلة للإذاقة في الأولى، والسيئة في مقابل الرحمة ، والكفران في مقابل الفرح .

ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤].

على أن الخطيب القزويني يعرف الاستعارة بالكناية بقوله: قد يضمر التشبيه في النفس فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه، ويدل عليه بأن يُثْبَت للمشبه أمرٌ مختص بالمشبه به من غير أن يكون هناك أمر ثابت حسا أو عقلا أجرى عليه ذلك الأمر، فيسمى التشبيه استعارة مكنيًّا عنها أو بالكناية، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخييلة. وبهذا فمذهب الخطيب القزويني في الاستعارة المكنية: أنها التشبيه المضمر في النفس المتروك أركانه سوى المشبه المدلول عليه بإثبات لازم المشبه له للمشبه؛ وبهذا تكون الاستعارة المكنية عند الخطيب فعلا من أفعال النفس وليست مجازًا لغويًّا؛ لأنها ليست لفظا مستعملا في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة، وأيضًا لا ينطبق عليها استعمال اللفظ في غير ما وضع له كما هو الشأن في المجاز في الكلمة.

والذي دفع الخطيب إلى هذا رغبته في إيجاد فرق جوهري بين الاستعارة التصريحية والمكنية، ورأيه هذا مأخوذ من كلام الإمام عبد القاهر في حديثه على قول لبيد:

وغداة ريح قد كشفت وقرة   إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

عندما قال: وذلك كله لا يتعدى التخييل والوهم والتقدير في النفس.

ينظر: مفتاح العلوم للسكاكي (٣٨٠) وما بعدها، تلخيص المفتاح (٢٩٥)، شروح التلخيص (٥٦/٤)، سر الفصاحة لابن سنان(١١٥)وما بعدها، أسرار البلاغة(٤٣)،الصناعتين (٢٩٥)،الإيضاح مع البغية(١٥٥/٣)،المثل السائر(٨٣/٢)، الطراز للعلوي (٣٣٤/٣)، الإكسير في علم التفسير للطوفي(١٠٩)، المطول (٣٨٢)،الإيضاح (٢٩٠)وما بعدها، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (٨٥-٩٤) و(١٧٥-١٨١).

(١) المقابلة: هي ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته ويخالفه في بعضها، وهي قريبة من الطباق، والفرق بينهما من وجهين:

الأول: أن الطباق لا يكون إلا بين الضدين غالبا، والمقابلة تكون لأكثر من ذلك غالبا.

والثاني: لا يكون الطباق إلا بالأضداد، والمقابلة بالأضداد وغيرها.

ينظر: البرهان في علوم القرآن (٤٥٨/٣)،الصناعتين (٣٣٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي التقابل : تداعي المعاني ، وجود الضد في مقابل ضده يـــشتد ظهـــور حـــسن الحسن، وقبح القبيح ، فبضدها تتميز الأشياء .

ومن البديع ذلك الجناس التام بين M o L في قولـــــه: M o p q r L و M o L في قوله : M { ~ سَيِّئَةٌ L ؛ فالأولى نافية ، والثانية شرطية ،والقارئ العجل لا يلحظ الفارق بينهما في المعنى ، فيظن أن الثانية هي الأولى ، فإذا تأمـــل أدرك أنها غيرها ، وفي ذلك من الروعة ما لا يخفى .

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الإساءة في سياق بيان أفعال المسيئين وأقوالهم مـــا جـــاء في قولـــه - تعـــالى - : M = > ? @ A B C D E F H I J K L M O P Q R S T U V W X Y Z [\ ] _ ` a b c d e f g h i j k l m n o p q r s t u v w x y z L [الفتح ١١ – ١٢] .

تدور هاتان الآيتان حول الكشف عن سوء ظن المخلفين من الأعـــراب ، وفـــضح اعتذارهم الذي تقدموا به بين يدي رسول الله – ﷺ – يبررون به ترك الخروج معـــه يوم الحديبية.

ولقد أوحى الله – عز وجل – إلى الرسول - ﷺ - بحقيقة موقـــف المخلفـــين ، وأطلعه على أمرهم وما ساورهم من الظنون السيئة ، ولما يرجع إليهم بعد ، وأخبره عما سيعتذرون به من اعتذارات متهافتة ، يظنون أنها تنفي عنهم خطيئة التخلف وتدرأُ عنهم عار التخاذل . لقد قالوا لرسول الله : إن أموالنا وأهلينا شغلتنا عن الخروج بـــصحبتك إلى العمرة ؛ فلم يكن بالمدينة من يخلفنا على رعايتها ، وكأنهم استشعروا بطـــلان هـــذا الاعتذار وتهافته ، فطلبوا إلى النبي - ﷺ - أن يستغفر لهم ؛ فهم معترفون بالتقصير مع وجود داعي التخلف وترك الخروج .

ولكن الله - عز وجل - أبى إلا أن يفضحهم ،ويكشف للنبي كذبهـــم وخداعهم ، قال - تعالى - : M H I J K L M L .

إن اعتذارهم قول باللسان لا شيء فيه من الصدق ، أما قلوبهم فقد انطوت علـــى

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خلافه من ظنون سيئة ، فسجل الله – عز وجل – عليهم الخزي والخسران .

ومع ذلك كله فقد أمر الله – عز وجل – رسوله - ﷺ - أن يتلطف بهم ويتدرج معهم في الخطاب ، فأجابهم النبي الكريم عن اعتذارهم بفرض صدقهم فيه ، فقال لهم : إن الضار النافع هو الله – تعالى – ولا أحد يقدر على رد قضاء الله ، فمن يملك لكم الضر إن أراد بكم الخير ، ومن يملك لكم الخير إن أراد بكم الضر ، ومن يدفع العدو المغير على أموالكم وأهليكم إذا شاء الله أن يخذلكم ويزيله منكم ؟ [(١)] .

لقد كشف الله دخيلتهم ، وبين السبب الحقيقي الذي أغراهم بالتخلف عن رسول الله إنما هو ظنهم أنه لن يرجع ، وأن من خرجوا معه لن يرجعوا إلى أموالهم وأهليهم أبداً، فلو خرجوا لحل بهم ما حلّ بالخارجين مع النبي ﷺ .

لقد ظنوا بالله ظن السوء إذ صورت لهم أنفسهم أن الله لن ينصر نبيه ، وزين لهم الشيطان هذا الظن فأخلف الله ظنهم ، وعاد سالماً هو ومن معه من المؤمنين ، أما هم فقد خاب ظنهم فكانوا من الخاسرين الهالكين .

ومقام الآيتين من السورة هو الرد على المنافقين والمخلفين من الأعراب الذين يظنون ظن السوء ، وكشف أمرهم وفضح تدبيرهم ؛ ليطمئن قلب رسول الله - ﷺ - والمؤمنين بنصر الله – سبحانه – لهم ، وتأييده إياهم على هؤلاء الهالكين .

هذا هو المعنى الذي حملته هاتان الآيتان ، أما بلاغة التعبير عنه فأحاول الإبانة عنها فيما يلي:

تتراءى كلمات هاتين الآيتين واضحة المعنى ، سهلة على اللسان ، جارية على العرف العربي في صوغ المفردات . بيد أن لبعض كلماتها ومضاً يستوقف من يملك الحاسة التي ينفذ بها إلى سرائر الألفاظ .

ففي إيثار الفعل (شغل) على ما يقاربه معنى وهو الفعل (منع) بأن قالوا شغلتنا دون منعتنا ، ما يشير إلى أن تخلفهم عن الخروج معه كان أمراً طارئاً أذهلهم عما يجب

---

(١) ينظر:جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (١١ / ٣٤٠) ، المحرر الوجيز لابن عطية (٦ / ١٤٩) ، معالم التنزيل للبغوي (٤ / ١٩١) ، مفاتيح الغيب للرازي (٢٨ / ٧٧) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦ / ١٧٨)، مدارك التنزيل للنسفي (٣ / ٣٧٩) ، البحر المحيط لأبي حيان (٨ / ٩١) ، الدر المصون للسمين الحلبي (٦ / ١٥٩) ، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي (١٧ / ٤٨٩) ، فتح القدير للشوكاني (٥ / ٥٧) ، تفسير القاسمي (١٥ / ٧٩) ، التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١٠ / ١٦٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن يكون . ذلك أن " الشَّغْلَ والشُّغْلُ : العارض الذي يُذْهِل الإنسان " (١) فكأن أموالهم، وأهليهم نزل بها ما يستدعي انصرافهم إليها ، وطرأ عليها ما يوجب انشغالهم بها ، وإلا فكل إنسان له أهل وأموال تتطلب الرعاية والتدبير ، ولو كانت رعاية الأموال والأهل مانعة من المواقف التي تقتضيها الضرورات لما كان جهاد ، ولا حج ولا غير ذلك من الأمور التي من شأنها أن توجه همة الإنسان من المهم إلى الأهم .

وإيثار التعبير بطلب المغفرة M 9 : L على التعبير بطلب العذر بأن يقولوا (فاعذرنا) فيه مايوحي بالمبالغة في ادعاء العذر فكأنهم يقولون : نحن مع شغلنا الشاغل فكل الأمر إلى تقديرك فإن كنا قصرنا ، وأخطأنا وفعلنا ما هو خلاف الأولى فاستغفر لنا.

وإيثار التعبير بالفعل M Q L دون يقدر ؛ لأن في ذلك إيحاء بالعجز التام عن النفع أو الضر ، فالملك : " ضربان : ملك هو التملك والتولي ، وملك هو القوة على ذلك تولى أو لم يتول " (٢) فنفي الملك المفهوم من الاستفهام يراد به نفي امتلاك النفع أو الضرر ونفي القدرة على الامتلاك والتولي ، وإن لم ينفع ولم يضر .

والتعبير بالخبرة دون العلم في قوله : bM c d L ؛ للإيماء إلى الإحاطة التامة بما طوته نفوسهم ؛ فالخبرة هي : " المعرفة ببواطن الأمور " (٣) ، أو هي العلم بكنه الأشياء وحقائقها(٤) فكأنه تعالى يقول : بل كان الله عليما بكنه وحقيقة أمركم ، فلا مجال لانتحال المعاذير .

والتعبير بالانقلاب دون العود أو الرجوع في قوله : fM g h i j k L كما في قوله : dM e f g h i L [التوبة : ٨٣] ، وقوله: &M ' (L [الإسراء :٨]؛ للإيماء إلى أن المظنون هنا هو الهلاك .

فالانقلاب :الانصراف إلى أمر عظيم تكون عاقبته النجاة أو الهلاك ، متوقعا أو محققاً فالهلاك المتوقع كما هنا iM j L والمحقق كما في قوله - تعالى -: Mوَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ L [الشعراء : ٢٧٧] ، والانقلاب الذي عاقبته النجاة ما نراه في قوله - تعالى- : Mإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ L [الأعراف :١٢٥] .

---

(١) المفردات في غريب القرآن -كتاب الشين - مادة (شغل) (٢٦٦) .
(٢) المفردات في غريب القرآن - كتاب الميم مادة (ملك) (٤٧٥) .
(٣) المفردات في غريب القرآن - كتاب الخاء مادة (خبر) (١٤٨) .
(٤) ينظر: الكشاف في بيانه لقوله تعالى(لطيف خبير) (٨٣٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما العود أو الرجوع فإنه يكون في الأمور المعتادة كما في قوله : M d e f g h i L [التوبة : ٨٣] ، وقوله: M & ' (L [الإسراء ، آية: ٨] .

والتعبير بلفظ M 9 L فيه إشارة إلى تمكن هذا الظن في نفوسهم فالمرء لا يتمكن شيء في قلبه إلا إذا رآه حسناً ، كما أن فيه إيماء إلى خطأ فادح ، إذ تمكن في نفوسهم ظن لم يكن لهم أن يظنوه لو أنهم أحسنوا التفكير والتقدير ، ذلك أن الله لم يمكن الكافرين من رسوله وممن آمن به.

وفي قوله : M w x y L عبر بالبوار دون الفساد ؛ للإيماء إلى أنهم تمحضوا للفساد ، فليس فيهم شائبة من صلاح ، فالبور الأرض التي لم تزرع . يقول ابن منظور : "والبور الأرض التي لم تزرع .. وفي كتاب النبي - ﷺ - لأُكَيْدِرِ دُومَة : (ولكم البَوْرُ والمعامي وأَغفال الأرض) ؛ وهو بالفتح مصدر وصف به ، ويروى بالضم، وهو جمع البَوار ، وهي الأرض الخراب التي لم تزرع" (١) ، فالبور أرض خربة خالية من الزرع ، وهؤلاء فاسدون ليس في سلوكهم لمحة من خير ، وقد يكون التعبير بالبور ، مراد به الهلاك وإنما أوثر على التعبير بالهلاك ، لأن البوار يؤدي إليه . يقول الراغب: "البوار فرط الكساد ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد – كما قيل كسد حتى فسد – عبر بالبوار عن الهلاك " (٢) ، ولذلك يقول الزمخشري في تفسيره لقوله: M w x y L : " وكنتم قوما فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم أو هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه " (٣) .

يبدو من التأمل في جملة M سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ L تعريف المسند إليه بال التي للعهد؛ ذلك بأنهم قوم بأعيانهم معرفون للمخاطب عند نزول هذه الآية وهم أعراب غفار ، ومزينه ، وجهينة ، وأشجع ، وأسلم ، والديل (٤) ، ولما كان قوله: M ? L قد ينصرف إلى أصحاب الأعذار الكاذبة وغيرهم بينهم بقوله : (من الأعراب) حتى لا ينصرف إلى غيرهم من أصحاب الأعذار الصادقة .

وفي جملة مقول القول جاء المسند فعلا ماضيا ؛ لبيان أنه واقع محقق ، وجاء المسند إليه (أموالنا ، وأهلونا) بصيغة الجمع للإشارة إلى كثرة ما يحتاج إلى العناية والرعاية _

---

(١) لسان العرب _ باب الباء _ مادة (بور) (٢ / ١٧٩) .
(٢) المفردات في غريب القرآن - كتاب الباء _ مادة (بور) (٧٤) .
(٣) الكشاف : (١٠٢٦) .
(٤) ينظر : الكشاف (١٠٢٥) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في زعمهم _ والأمر في قولهم: M 9 : L جاء تفريعاً على ما ذكروا مـــن الـــشغل بالأموال والأهلين ، وأرادوا بهذا الأمر الدعاء ، فهم يدعونه - ﷺ - لطلب المغفرة لهم من الله عز شأنه .

وجيء بالمسند في قوله : M F G H I J K L فعلا مضارعا مرادا به الحال، استحضارا لحالهم ،كأنهم ينطقون به الآن ،أعني الوقت الـــذي يخـــبر الله فيـــه رسوله بما سيكون منهم ، والواقع أنهم سيقولونه مستقبلاً ، كما يشير إلى ذلك حـــرف الاستقبال في قوله : M = > ? L ، والمفعول الذي وقع عليـــه الفعـــل (يقولون) يحتمل أن يكون اسما موصولاً ، أي: الذي ليس في قلوبهم ، وأن يكون نكره موصوفة، أي: قولاً ليس في قلوبهم ، ومجيء الخبر في جملة الصلة أو الصفة جاراً ومجروراً للإشارة إلى أن متعلقه من جنس الكينونة أو الوجود، إذ المعنى هو أنهم يقولون قولا ليس كائنا في قلوبهم أو موجودا فيها، وهنا يطالعنا الأمر بما يلـــزم أن يجيبـــهم بـــه - ﷺ- ومضمونه نفي أن يكون ثمة أحد يملك لهم نفعا إن أراد الله بهم الضرر ، أو ضرا إن أراد بهم النفع ، وهو المعبر عنه بقوله – تعالى - : (قـــل ... إلخ) ، والأمـــر للوجـــوب ، والاستفهام في قوله : (فمن يملك لكم ... إلخ) مراد به النفي ، فالجملة إنشائية لفظـــا إنشائية معنى . وإنما أفرغت في إطار الاستفهـــام ؛ للإشارة إلى أنهـــم لا يـــستطيعون أن يزعموا أن هناك أحداً يملك شيئا من ذلك .

وفي قوله - تعالى -: M_ ` a b c d L انتقال من نفي وجود من يملك جلب النفع لهم عندما يشاء الله لهم الضرر ، أو الضرر عندما يشاء لهم النفع إلى الإخبار بإحاطته التامة بما يعملون ، وفي الإخبار بالجملة الاسمية إيحاء بأن خبرته بعملـــهم أمـــر ثابت، غير أنه يلحظ إيقاع الجملة الاسمية في حضن فعل الكينونة ، وكان يمكن أن يقال: (بل الله بما تعملون خبير) ، وذلك للإشارة إلى أن خبرته بما يعملونه ممتـــدة في أعمـــاق الماضي قبل أن يحدث منهم العمل امتداداً يبدأ مع بدء الكون ، وفي ذلك من التهديد ما فيه ، فهو – تعالى – لا يخفى عليه أمرهم وإن طووه في أعماق سرائرهم .

وفي قولـــه - تعـــالى -: Mf g h i j k l m n o L انتقال آخر إلى فضح سرائرهم ، ومواجهتهم بما استقر في قلوبهم ،وهو الاعتقاد الخاطئ أن الكفار سيحيطون بالرسول وبالمؤمنين ويقتلونهم عن بكره أبيهم ، ولن يتمكنوا مـــن الرجوع إلى أهليهم .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجيء بالمسند معبرا عنه بالظن ، مع أنه اعتقـــاد جـــازم بدليل التقييــــد بقولـــه: L o M، وقوله بعد ذلك L s r q p M ؛ للإشارة إلى أنه قائم على غير دليل يسنده إلا دليل التوقع القائل ، حيث قالوا : " يذهب إلى قوم قد غـــزوه في عقـــر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فيقاتلهم ؟ " [١] .

وجيء بالمسند L p M في قوله : L s r q p M مبنيا للمجهول ؛ لأن الغرض ليس بيان من كان منه التزيين ، بل الغرض بيان حصوله في نفسه أياً كـــان محدثه ، أو لتذهب النفس في تصوره كل مذهب، فيكون المزين له هو نفوسهم الأمـــارة بالسوء ، أو الشيطان ، أو الله - جل شأنه - حيث لا يقع في الكون شيئا إلا بمشيئته ، وإنما لم يذكر إعظاما لنفسه أن يقرن اسمه بتزيين السوء .

وقد تضمنت الآية الأولى لونا من البديع هو : طباق الإيجاب بين: (ضرا) و(نفعا) وفيه ما يوحي إلى اتضاح المعنى من خلال التضاد .

---

(١) الكشاف: (١٠٢٥) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني

بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة في سياق التنفير منها والبراءة من المتصفين بها

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني

بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة في سياق التنفير منها والبراءة من المتصفين بها

يتناول هذا الفصل الحديث عن بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة في سياق التنفير منها، والبراءة من المتصفين بها...وبإذن الله سوف أعرض بعضا مما ورد في القرآن الكريم من آيات مباركات ورد فيها لفظ الإساءة في نطاق هذا السياق مستمدة العـــون من الله- تعالى- في تسليط الضوء على أبرز أسرارها البلاغية راجية منه السداد.

ومما ورد في لفظ الإساءة في سياق التنفير منها ، والبراءة من المتصفين بها ما جاء في قوله - تعالى - :﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف : ٥١] .

وفي هذه الآية حوار بين الملك والنسوة اللاتي استدعتهن امرأة العزيز بعد أن سمعت بمكرهن ، ورأينه فأكبرنه ﴿ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف:٣١] فقد استدعاهن بناءً على مطلب يوسف لتظهر براءته مما رمي به ووضع بسببه في السجن ، فقال : ماذا كان من أمركن مع يوسف حين راودتنه عن نفسه ، فما كان منهن إلا أن اعترفن ببراءته ، ولم تجد امرأة العزيز بداً من الإقرار بما حدث منها، والإعلان عن توبتها ، وندمها على ما كان من ذلك (١) .

مقام الآية : إظهار براءة نبي الله يوسف - عليه السلام - مما أدعته عليه امرأة العزيز أمام سيدها إذ رأته فجأة لدى الباب فقالت : ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٥] ، وكان ما كان من أمر السجن بضع

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢١٥٦/٧) ، المحرر الوجيز لابن عطية (٢٥٣/٣) ، معالم التتريل للبغوي (٣٧٩/٣) ، البحر المحيط لأبي حيان (٣١٥/٥) وغير ذلك .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سنين ، ثم أرسل إليه الملك ليعبر رؤياه ، ثم عرض عليه نبي الله يوسف - عليه السلام - أن يحضر النسوة اللاتي قطعن أيديهن للإقرار بما كان ، وكانت امرأة العزيز حاضرة كما أحضرهن من قبل، وقامت القضية لإظهار البراءة كما تحكي الآية .

ومن خصائص بعض الألفاظ في الآية الكريمة : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ ما شأنكن ؟

وأصله من الأمر العظيم الذي حقه أن يخطب فيه ويكثر فيه التخاطب ، ولذا يقال: ما الخطب ؟ أي: ما هذا الأمر العظيم الذي فيه طال الكلام ،وتخاطب فيه العالمون به؟(١)، واستخدام هذا اللفظ دون ما يقاربه في المعنى يشير إلى فداحة ما ارتكب في حق يوسف من ادعاء إرادته السوء بامرأة العزيز ، وما يترتب عليه من الزج في السجن.

﴿ رَٰوَدتُّن ﴾ المراودة : المخادعة والمراوغة لقصد أراده الرجل من غيره (٢) ، و هذه المادة (رود) تدور حول إرادة شيء من الغير يرغب فيه المراود بإثارة بواعث الرغبة لديه ، ففي لسان العرب : "والإرادة المشيئة ،وأصله الواو كقولك: راوده أي : أراده على أن يفعل كذا .قال الليث : وتقول راود فلان جاريته عن نفسها، وراودته هي عن نفسه إذا حاول كل واحد من صاحبه الوطء والجماع؛ومنه قوله- تعالى- : ﴿ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ...وراودته على كذا مراودة ...أي : أردته، وفي حديث أبي هريرة :حيث يراود عمه أبا طالب على الإسلام أي يراجعه ويُراوده " (٣) .

وإيثار هذه اللفظة دون غيرها كأن يقال : دعته إلى نفسها – مثلاً - لما تشير إليه من إثارة دواعي الشهوة في ممارسة الجنس معها بالحديث اللين ، ومحاولة إغرائه بذلك بخلاف دعته إلى نفسها فإنها مجردة عن مثل هذه الإثارة ، وفي ذلك ما يدل على نزاهة يوسف - عليه السلام - وتصونه عن الميل لما أرادته عليه امرأة العزيز .

﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ كلمة يقصد منها التعجب ، وهنا في الآية يراد منها التنزيه له عن الوقوع في الفاحشة مع التعجب من تمام عفته وطهارته .

﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ ظهر بعد خفاء مأخوذ من حص الشعر إذا استأصله فظهرت

---

(١) ينظر: روح المعاني للألوسي (٤٤/٩) .

(٢) ينظر: المعجم الوسيط (ر ا د) .

(٣) لسان العرب مادة (رود) (٢٦١/٦) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بشرة رأسه ، كما قال أبو قيس الأسلت :

قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نوماً غير تهجاع [١] .

وحصَّ الشيء: قطعه حسّاً أو حكماً ، وهذا كله يدور حول الانكشاف التام ، وزيادة التضعيف تفيد زيادة المعنى في الكشف والوضوح ، وهذا كله مع المقام الذي يقال فيه الكلام أعطانا المقصود الدائر حول نزاهة نبي الله يوسف – عليه السلام - ، وإيثار هذا اللفظ على ما يقاربه معنى مثل : (ظهر ، تبين) ؛ للإيماء إلى جلاء الأمر بصورة لا مجال معها للمداراة والتخلص من الاعتراف بالواقع ، وممارسة الضغط على يوسف لارتكاب الفاحشة وتأبيه على ذلك .

ومن صور المفردات القرآنية في هذه الآية الكريمة في قول النسوة: ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ [يوسف:٥١] مبالغة بتنكير كلمة ﴿ سُوٓء ﴾ مع ﴿ مِن ﴾ التي يؤتى بها(صلة) ؛ لإفادة استغراق أفراد الجنس كله في سياق النفي، ويؤول المعنى إلى :أي سوء قلَّ أو عَظُم لم نعلمه عنه ، وهذا أتم النفي الدال على تمام البراءة والطهارة والعفة [٢] .

ولما تم ذلك كان الأمر يستدعي كلام امرأة العزيز ، ولذا كان سؤالاً طرح ، فماذا كان قول امرأة العزيز؟، ويكون الجواب ما قاله القرآن العظيم : ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[يوسف:٥١] هذا الكلام إقرار من امرأة العزيز بالحق ، فلماذا اعترفت ؟

فهم العلماء في هذا المقام أنها لما وجدت أنه لا سبيل إلى الإنكار اعترفت ، أو أن الحب ملأ عليها قلبها وحناياها فأنطقها غير مبالية بما سيكون بعد هذا الاعتراف ، أو أن النسوة وهن جمع لما اعترفن بأنه في غاية النزاهة والطهارة ، أرادت أن تكون على شاكلتهن لأنها واحدة ، ومن شذَّ عن الجماعة أكله الذئب ، لأنه يأكل من الغنم القاصية[٣] .

وقدمت امرأة العزيز ﴿ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ وهو الزمان الذي يقع فيه الحدث؛ للدلالة على

---

(١) ينظر: شرح المفضليات (٢/١٠٠٧) ، خزانة الأدب (٦/٨٧) ، المفردات (١٢٧) ، الدر المصون (٤/١٩١) ، فتح القدير (٣/٣٤) ، روح المعاني (٩/٤٤) ، تهذيب اللغة (٣/٤٠٠) .

(٢) ينظر: روح المعاني (٩/٤٤) ، التحرير والتنوير (١٢/ ٢٨٩) .

(٣) ينظر: روح المعاني (السابق) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاختصاص [١] أي : هذا الوقت فقط دون سواه ، فلم يكن من امرأة العزيز اعتراف في الماضي بل اتهمته بقولها: ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٢٥] ، والقصر هنا للتعيين باعتبار أن الملك لا يدري أي الوقتين وقت الصدق في القول ، والإقرار بما كان ، وكأن الملك تردد في وقتين : وقت اعتراف النسوة بالطهارة والنزاهة لنبي الله يوسف - عليه السلام – ، والثاني: وقت رمي امرأة العزيز إيّاه بالمراودة ، فعينت الوقت بهذا التقديم قائلة: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ أي : الزمان الحاضر دون سواه ، ثم قالت : ﴿ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ - كما ذكر في أسرار المفردات - حيث اُختير هذا الفعل الدال على الظهور والانجلاء بعد استتار وعماء ، وقد أُخذ هذا الفعل مستعاراً من : (حص الشعر) إذا استأصله ، فظهرت البشرة ، ثم استعير لإنجلاء الغمة ، وانكشاف الحق بعد ما كان مكتوماً ، ثم أكدت على هذا المعنى " ظهور الحق " بقولها: ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ، وزادت التوكيد فقالت : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ فهذه العبارات الثلاث تؤكد كل منها سواها مع ما في كل تركيب من توكيد ، ففي قولها : ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ تقديم للمسند إليه ، وتأخير لفعله الرافع لضميره، وهذا هو سبيل القصد المؤكد للمعنى عند الإمام عبد القاهر – رحمه الله – إذ يقول : " إذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدِّث عنه بفعل ، فقدَّمت ذكره ، ثم بنيت الفعل عليه فقلت : زيدٌ قد فعل ، وأنا فعلت ، وأنتَ فعلتَ ؛ اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل . إلاَّ أن المعنى في هذا القصد ينقسم إلى قسمين : أحدهما جليٌّ لا يُشْكِلُ ، وهو أن يكون الفعل فعلاً قد أردت أن تنصَّ فيه على واحد فتجعله له ، وتزعم أنه فاعله دون واحد آخر ، أو دون كلِّ أحد . ومثال ذلك أن تقولَ : أنا كتبتُ في معنى فلان ، وأنا شفعْتُ في بابه؛ تُريدُ أن تدَّعيَ الانفراد بذلك ، والاستبداد به ، وتُزيل الاشتباه فيه ، وتردَّ على من زعم أنَّ ذلك كان من غيرك ، أو أنَّ غيرك قد كتب فيه كما كتبت" [٢] .

وقولها : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [يوسف:٥١] توكيد بعدة مؤكدات لتثبيت المعنى المراد:

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (السابق) .

(٢) دلائل الإعجاز (١١٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأول : بالحرف "إن " وهي لتوكيد الجملة الاسمية بما فيها من نسبة .

الثاني : " لام الابتداء " ، وهي لتوكيد الجملة ، داخله على المبتدأ في الأصل ، لكن لما جاءت " إن " وهي للتوكيد ولها الصدارة ، زحلقت اللام إلى الخبر ليتم التوكيد من الجانبين من جهة المسند إليه بـ " أن " والمسند باللام .

الثالث : التركيب في الجملة بنظمها جملة اسمية ؛ لتدل على الثبوت في الصدق والدوام والاستمرار عليه ، وهذا أبلغ مما لو قلت : وأنه لمما يصدق في قوله ، بطريق المضارع ، أو " قد صدق " بالماضي ، فكان هذا النظم الإلهي المعجز مفيداً للمعنى المراد وهو إثبات طهارته وصدقه بكل ألوان التوكيد على ذلك ؛ ليندفع كل شك كان عند السامعين ، وفي ذلك عبرة لقوم يوقنون (١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ [يوسف:٣١] جواب سؤال مقدر فحواه : فماذا قالت النسوة ؟ وهذا الجواب يفيد أن النسوة رأين أنفسهن أن الأمر صار إلى نهايته فلابد من الصدق في الشهادة أمام الملك بما كان منذ سنين ، ومرور الأيام والسنين يمحص الأمور ، ولذا قلن الكلمة التي قلنها من قبل أمام امرأة العزيز ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ وهي جملة تقال عند التعجب من أمر خرج عن طاقة البشر عادة ، وهنا أفادت تتريه يوسف - عليه السلام - مما نسب إليه زوراً وبهتاناً ، وهو العفيف لأنه رسول الله ، ولذا أكدت النسوة هذا المعنى بالجملة الثانية : ﴿ عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖ ﴾ ونفي العلم يدل على نفي المعلوم بداهة مع التوكيد .

والآية في بدايتها استئناف بياني (٢) فالتركيب في البداية جواب لسؤال أثارته الآية السابقة ، كأنه قيل : فما الذي كان بعد اجتماع النسوة ؟ فجاءت هذه الآية مفصولة عن الآية السابقة لشبه كمال الاتصال .

وفي قوله - تعالى- : ﴿ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ ﴾ : جملة إنشائية استفهامية ، وهذا الاستفهام بـ "ما" التي لغير العاقل عن الخطب وهو : الشأن العظيم الذي تحدث عنه الناس ، وسجن فيه يوسف الصديق - عليه السلام – والمقام يقتضي كون الاستفهام

---

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٢٦٥/٤) ، التحرير والتنوير (٢٨٩/١٢) .

(٢) ينظر : روح المعاني (٤٤/٩) ، نظم الدرر (٢٦٤/٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حقيقياً عن المراودة ، وكان الجواب في هذه المحاكمة صريحاً على ما كان في الواقع ونفس الأمر ، ومن الجواب كانت البراءة والكرامة .

وهذه الجملة ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ بعد قوله: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [يوسف:٥٠] تفيد أن في الكلام حذفاً ، وتقديره : فرجع فأخبر الملك ، فأحضر الملك النسوة اللاتي اجتمعن عند امرأة العزيز بأمرها من قبل ، وأعدت لهن متكأ ، وكان ما حدث فقال لهن: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ؟ [يوسف:٥١] .

والمتدبر في هذا الكلام الرباني المعجز يرى أن حذفاً في الكلام قد كان ، وهو : أن امرأة العزيز كانت حاضرة لمجلس النسوة ، وإن لم يشملها قول – يوسف عليه السلام – ﴿ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾[يوسف :٥٠] ؛ لأنها لم تقطع يدها معهن ، ولكن كلام الملك كان شاملاً لها ، ﴿ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [يوسف : ٥١] وهي التي راودته ، ففي الكلام إيجاز بالحذف ، وهو لون يعتمد على قرائن الكلام ، وتواصل الأساليب مع المعاني ، فما حذف من الكلام دلت عليه المعاني المتواصلة ؛ كما يتضح هذا في قصة الصديق – عليه السلام – والتي وصفها رب العالمين بأنها أحسن القصص ، وهي كذلك للإنسانية إلى يوم القيامة عبرة لأولي الألباب (١) .

أما عن الأساليب البيانية في هذه الآية الكريمة فقد جاء الخطاب لجميع النسوة ﴿رَٰوَدتُّنَّ﴾ مع أن المراودة كانت بداية من امرأة العزيز كما حكى ذلك النص القرآني إذ قال : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [يوسف : ٢٣] ، ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف :٣٠] .

لأنهن رغّبنه في طاعة مولاته بدليل قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣]، ولذا سار الخطاب لهن بعد ذلك (٢) ؛ أو لأنهن عذرنها في المراودة بعدما رأينه وأكبرنه ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٢/٢٨٩) .

(٢) ينظر : اللباب لابن عادل (١١/١٢٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

[يوسف :٣١] . وفي ذلك مجاز مرسل علاقته الكلية ،حيث أطلق الكل وهو النسوة ، وأريد الجزء وهو امرأة العزيز .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ كان التعبير بنفي العلم كناية عن نفي دعوتهن إياه إلى السوء ، ونفى دعوته إياهن إليه – أيضاً – لأن ذلك لو وقع لكان معلوماً ، وأُلاحظ في هذا الجواب أن النسوة لم يزدن على جواب سؤال الملك فلم يتعرضن لما حدث من امرأة العزيز وأنها راودته عن نفسه فاستعصم ؛ ربما كان للخوف منها أو من الملك ، أو من باب الستر مودة لها ، أو فتح باب الكلام لها ، لعل ذلك يدفعها إلى الاعتراف ببراءته ، فكلاهما له محل عند الملك العظيم ، وهذا ما كان ، وإليه صار الكلام (١) .

ومما ورد فيه لفظ الإساءة في سياق التنفير منها ، والبراءة من المتصفين بها ما جاء في قوله- تعالى- : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

بالنظر في بيان مضمون هذه الآية يتبين أن أكثر المفسرين على أن هذه الآية وما قبلها من كلام يوسف . وعليه يكون المعنى : لما أخبر الرسول يوسف في السجن بما قالته النسوة ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ ، وما قالته امرأة العزيز ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ قال - عليه السلام - : كان طلب البراءة الذي ضمنته قولي : ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ﴾ ... إلخ [يوسف : ٥٠] ؛ ليعلم العزيز أني لم أخنه في أهله حال غيبته عن بيته . على أنني لا أبرئ نفسي من الزلل ؛ فإن نفس الإنسان -كل الإنسان - لكثيرة الأمر بالسوء إلا من رحمه ربي فعصمه ، ولا حرج في حصول العصمة فإن ربي كثير الرحمة والمغفرة .

لكن بعض المفسرين يرى أن الآيتين من كلام امرأة العزيز وعليه فالمعنى إن اعترافي

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١٢/٢٨٩) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الماثل في قولي : ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ ؛ ليعلم يوسف – عليه السلام – أني لم أخنه ، ولم أكذب عليه حال غيبته وجئت بما هو الحق الواقع ، ومع ذلك فلا أبرئ نفسي من الخيانة حيث قلت ما قلت وفعلت به ما فعلت ، فكل نفس أمارة بالسوء إلا نفساً رحمها ربي بالعصمة كنفس يوسف ، إن ربي غفور لمن استغفر من ذنبه ، واعترف به ، رحيم له (١) .

وهذا أولى الرأيين بالقبول ، كما قرره بعض أهل العلم (٢) ، وسألم به في التحليل .

ومقام الآية في السورة الكريمة : ختام التبرئة والطهارة لنبي الله يوسف – عليه السلام – ،وأن ذلك لا يكون إلا بفضل الله ورحمته ، إن الله هو الرحيم الودود ، وأما شأن الإنسان ، فإنه يحمل نفساً أمارة بالسوء ، نزاعة إلى الأصل وهو الطين ، فمن رحمه الله ورفعه ، ومن بقي على ما في أصله ونفسه كان في مرتع وخيم ، وصدق رسول الله - ﷺ- : " أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك " (٣) .

ومن أسرار بعض المفردات في هذه الآية ما جاء في قوله :﴿ لَأَمَّارَةٌ ﴾ (اللام) للتوكيد ، وأصلها في المبتدأ ، لكن حرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ زحلقها إلى الخبر ، ومهمة هذه اللام في الجملة توكيد المعنى إضافة إلى التوكيد بـــ " إن " واسمية الجملة ، والفعل " أمر" بدون تضعيف يفيد معناه الذي يكون في الأعلى للأدنى ، وهي على وزن " فعَّال" الذي يدل على الدوام والحرص والاستمرار ، فالنفس حريصة على أمر الإنسان بالسوء ودوامها على تزيين هذه السوء في نظره ، فالواحد لا يأمر نفسه ، ولكن ما فيها من نوازع الشر تدفعه ، فكأنها تأمره ، لذا كان اسم الفاعل " آمر "، والمبالغة فيه " أمَّارة " للمؤنث يفيد أن النفس البشرية دافعة للإنسان كما يؤمر ممن هو أعلى منه ، "ولم يقل:(لآمرة) مبالغة في صفتها بكثرة الدفع في المهاوي، والقود إلى المغاوي ؛لأن فعّالا من أمثلة التكثير كما أن فاعلا من أمثلة التقليل" (٤). وهذا دليل على اشتغالها بما يميلها إلى

---

(١) ينظر : تفسير الرازي (١٨ / ١٢٦) ، وتفسير أبي السعود (٣ / ٤٠٥) ، وتفسير الجلالين على هامش الفتوحات الإلهية (٤ / ٤٧) ، وينظر - أيضاً -الفتوحات الإلهية في الموضع نفسه .

(٢) ينظر : اللباب لابن عادل (١١ / ١٣٢) .

(٣) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٤٤٤٨٣) ، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧ / ٢٠٦) .

(٤) تلخيص البيان (١٠٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أصلها الأرضي ، وتسفلها الدنيوي .

ومن أسرار التراكيب القرآنية في الآية الشريفة قوله - تعالى - : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ ، كلام مبني على ما سبق ، ولذا كان للعلماء رأيان في مصدر هذا الكلام :

الأول : أن العبارة من امرأة العزيز ، بدليل وصل الكلام بعضه ببعض ، فإنها لما اعترفت ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف :٥١] وزادت توكيداً لهذا الاعتراف بقولها : ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: الاعتراف ﴿ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [يوسف : ٥٢] أي : في وقت غيبته عني في السجن ، لماذا ؟ قالت : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢ ﴾ [يوسف : ٥٢] ، ثم أرادت أن تضع الحق في نصابه ، فقالت : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓ ﴾ .

الثاني : أن هذا الكلام من نبي الله يوسف – عليه السلام – قاله لمعنى أراده لنفسه، ما المعنى ؟ أراد أن يهضم حق نفسه ، وأن يتواضع لمولاه الذي تولاه ، وبعصمته نجاه من كيدهن ، وظهرت آيات براءته ناصعة لجميع الناس من حول الملك والعزيز : زوج التي راودته عن نفسه ، قال ابن عادل : فإن قيل : أيهما أولى ؟ جعل هذا الكلام كلاماً ليوسف أم جعله كلاماً للمرأة؟ قيل : جعله كلاماً ليوسف مشكل ، لأن قوله : ﴿ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف : ٥١] ،كلام موصول بعضه ببعض إلى آخره ، فالقول بأن بعضه كلام المرأة ، والبعض كلام يوسف ، مع تخلل الفواصل الكثيرة بين القولين ، وبين المجلسين بعيد .

فإن قيل : جعله كلاماً للمرأة مشكل أيضاً ، لأن قوله : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ [يوسف : ٥٣] ، كلام لا يحسن صدوره إلا ممن احترز عن المعاصي ، ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر النفس ، ولا يليق ذلك بالمرأة التي استفرغت جهدها في المعصية (١) .

وأرى جعله من كلام امرأة العزيز ليتصل الكلام ببعضه ، والمرء حينما يتوب إلى

---

(١) ينظر : اللباب (١١ / ١٣٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله ويثوب إلى رشاده ، فإن مثل هذا الكلام ينطلق على لسانه بلا استئذان .

وهذا واقع ملموس من أهل المعاصي الذين تابوا إلى ربهم وأحسنوا المتاب ، وفي ذلك عبرة لأولي الألباب ، والله أعلم ونسبة العلم له أسلم .

﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف : ٥٣]، أي : إلا في وقت رحمة ربي وعصمته ، وعلى هذا تكون ﴿ مَا ﴾ ظرفية زمانية ، ويكون الاستثناء من عموم الأزمان ، أي : الأوقات التي فيها عموم السوء [١] .

وهذا مبني على أن النفس البشرية تدعو إلى ارتكاب المنكر في كل وقت وفي أي مكان ، كما يدل على ذلك الواقع المشهود ، أما إذا أراد الله بعبده خيراً أضاء له بنور الإيمان سبيله ، فكان في مكان بعيد عن السوء برحمة مولاه كما حدث لنبي الله ورسوله يوسف - عليه السلام - [٢] .

والفصل بين جملة ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ وبين ما قبلها للاستئناف البياني؛ لأن الأولى أثارت سؤالاً مؤداه : لماذا لا تبرئين نفسك ؟ قالت : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ [٣] ، أي ما كان من رحمة الله كما فعل لنبيه يوسف – عليه السلام – وفي الكلام إيجاز بحذف المفعول لصيغة المبالغة ﴿ لَأَمَّارَةُۢ ﴾ وتقديره " أمارة صاحبها " بالسوء ؛ لأن النفس لا تأمر أحداً سوى صاحبها ، لذا حذف لمعرفته الأمر وسر الحذف التخفف من ذكر ما هو معلوم ، والنقلة إلى ما يتعلق به الأمر وهو السوء ؛ لتطلع النفس إلى العلم به .

أما جملة ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣] فهي من باب الإطناب بالتذييل، الذي يقصد منه الثناء على الله بعظيم غفرانه وعفوه ، وواسع رحمته ؛ لذا جاءت الجملة مؤكدة بـــ " إن " واسمية الجملة ، وكذلك استخدام المبالغة بصيغة "فَعُول وفعيل" غفور رحيم ، واتباع الرحمة للمغفرة دليل على فضل الله الواسع ، فإنه غفار الذنوب لمن أذنب، رحيم بعباده الذين عبدوا ربهم حق عبادته ، ونصبوا أنفسهم لمعرفته ، فكان الله

---

(١) ينظر : روح المعاني للألوسي (٩ / ٤٨) ، والتحرير والتنوير (١٣ / ٥) .

(٢) ينظر : السابق ، والتفسير الكبير للفخر الرازي (١٨ / ١٢٥) .

(٣) ينظر : روح المعاني (٩ / ٥٠) ، المطول (٢٥٧) ، الأطول للعصام بن عربشاه (١٥/٢) ،من بلاغة القرآن(المعاني-البيان-البديع) للدكتور محمد علوان ،ونعمان علوان (١٣٨)، علم المعاني د . بسيوني فيود (٢ / ١٦٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بهم رحيماً [1] .

وهذه الصفات الإلهية بما لها من آثار وفيوضات على عباده المؤمنين ، تكون أول ما تكون للأنبياء والمرسلين ، والأصفياء والأولياء الصالحين ، لأن كلاً منهم اتجه إلى مولاه بإخلاص ، وعبد الله حق عبادته مع تطهير القلب لمولاه ، وشغل الأوقات على الدوام في صالح الأعمال والأقوال في جميع الأحوال آناء الليل وأطراف النهار ، فكان الله عليهم متفضلاً ، وزادهم إنعاماً وتوفيقاً .

ومن الصور البيانية في الآية الكريمة ما جاء في قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ حيث شبه النفس بالإنسان الذي يأمر فيطاع بجامع الأمر والتحريض في كل ، وبعد الحذف والتناسي والادعاء ، اُستعير الأمر للنفس على سبيل الاستعارة المكنية والقرينة (أمَّارة) .

ومما ورد فيه لفظ السوء في سياق التنفير من الإساءة والبراءة من المتصفين بها ما جاء في قوله - تعالى- : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٥٩ ﴾ [النحل : ٥٨ – ٥٩] .

المغزى العام للآيات : يخبر الله – تعالى – عن بعض قبائح المشركين وفضائحهم المخزية ، فهم الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد ، وقد بلغ من حمقهم وجهلهم أنهم إذا بشر أحدهم بولادة أنثى له تغير وجهه وعلته الكآبة ، وظل كئيباً حزيناً كاسف البال ، مسود الوجه من شدة الحزن ، يحاول الاختفاء عن أعين الناس حتى لا يروا كآبته من الألم الذي أصابه من بشارته بالأنثى التي ولدت له ، ويظل في حيرة من أمر نفسه ، لا يدري كيف يحدد موقفه من هذا المولود ، أيبقيه حيّاً مع ما

---

(١) ينظر : اللباب لابن عادل (١١ / ١٣١) ، الفخر الرازي في التفسير الكبير (١٨ / ١٢٤ ، ١٢٥) ، نظم الدرر للبقاعي (٤ / ٢٦٦) ، الكشاف للزمخشري (٢ / ٤٨٠) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩ / ١٣٨) ، وتفسيرالبيضاوي (٣٢٩) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يلحقه من المذلة والهوان ، والفقر والعار – في زعمه – أم يقبره ويدفنه في التراب وهو حي حتى يموت تحته ، ويستريح من عار بقائها عنده ، ومن التعرض لها ، والتعدي على عرضها وقت الحروب والأزمات ؟ [1] .

ومقام الآيات : بيان حالة من أحوال العرب السيئة ، وصورة من صور الحياة الجاهلية التي جاء الإسلام فمحاها ، وكرم المرأة وأعزها ، وأعطاها حقها وحظها ، وقد كانت في الجاهلية دفينة وهي صغيرة، مهانة وهي كبيرة ، لذا حكم عليهم المولى بسوء ما يفعلون، وقد نعى القرآن عليهم تلك النظرة الخاطئة ،منددا بها [2]، فقال – عز شأنه - : ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٩] .

وأول ما يلفت النظر في كلمات هذه الآيات : ﴿ وَإِذَا ﴾ فقد أوثرت على : (إن)؛ للإيماء أن مدخولها أمر محقق لا يعتوره شك بخلاف (إن) التي تستخدم فيما هو مثار للشك ، وقلة الحدوث . والنص القرآني هنا يخبر عن واقع لا ينكره أحد ، وهو في ذلك يرمي إلى تسفيه ذلك الصنيع الذي يرتكب عن جهل بحكمة الله في الخلق ، من ثم جاء الحكم عليه بقوله - جل شأنه - ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

ومن اللافت للنظر استخدام الفعل ﴿ ظَلَّ ﴾ ؛ فقد رأى المفسرون أنه ليس على بابه من الدلالة على الإقامة نهاراً على الصفة المسندة إلى اسمه [3] ، وأن المراد به (صار) . وإنما أوثر التعبير به دون صار ؛ للإيماء إلى أن صيرورة الوجه إلى السواد كانت نهاراً ؛ لأنه الوقت الذي يمكن الرؤية فيه ، ومن ثم يحتاج المبشر بالأنثى إلى أن (يتوارى) من القوم حتى لا يروه ، وهذا لا يتأتى بذكر الفعل (صار) على الإطلاق ؛ فقد يكون ذلك ليلاً فلا يحتاج إلى التخفي .

وفي إيثار (كظيم) على اسم الفاعل (كاظم) إلماح إلى أن الغيظ والغم يملأ نفسه مما

---

(١) ينظر : تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٧ / ٢٢٨٧) ، المحرر الوجيز لابن عطية (٣ / ٤٠١) ، معالم التنزيل للبغوي (٤ / ٢٥) ، مفاتيح الغيب للرازي (٢٠ / ٤٣) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠ / ٧٧) ، مدارك التنزيل للنسفي (٢ / ٢١٠) ، البحر المحيط لأبي حيان (٥/٤٨٧) ، الدر المصون للسمين الحلبي (٤ / ٣٣٨)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي (١٢ / ٨٥) ، فتح القدير للشوكاني (٣ / ٢٠١) ، تفسير القاسمي (١٠/١١٩) ، التحرير والتنوير لابن عاشور(١٤/١٨٣) .

(٢) ينظر: من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي (٢٨٨)

(٣) ينظر : الفتوحات الإلهية (٤ / ٢٣٦) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يشير إلى قوة الإنكار على المشركين . وهذا ما ألمحه في قول الجلال السيوطي : " .. (كظيم) ممتلئ غماً ، فكيف تنسب البنات إليه تعالى " ؟ [1] .

ولفظة ﴿ يَتَوَٰرَىٰ ﴾ مأخوذة من معنى "الوراء" ، ومن كان وراء لا يراه أحد ، فالكل أمامه ، ويئول المعنى في ﴿ يَتَوَٰرَىٰ ﴾ إلى " يستخفي" من قومه ، وماضيه " وارى " ولا يكون هذا الفعل إلا من شيء لا يستطيع الإنسان معه أن يكون ظاهراً بين الناس ، حتى يُقال : فلان يغطي وجهه من الناس تَوارياً ؛ لأنه يريد ألا يراه أحد بسبب من أسباب ذلك .

﴿ بُشِّرَ ﴾ أخذت من التبشير ، وهو السرور الذي يُرى أثره على البشرة في الوجه، ثم أطلق هنا على الإخبار بما يسوء ، وإنما أوثرت هذه الكلمة ؛ لأن الغرض التهكم بمن أخبر بذلك كما سيتبين ذلك في الإبانة عما فيها من استعارة .

وفي كلمة الهون إشارة إلى الحقارة المصاحبة للشعور بالذل ومن ثم أوثرت على كلمة (ذُلٍّ) . فمادة (هــ ، و ، ن) تحمل إلى الجمع بين الذل والحقارة ، وهذا ما يشير إليه ما ذكره ابن منظور في بيان معناها حيث قال : " الهون : الخزي ... والهُون – بالضم - : الهوان ، والهوان نقيض العزِّ ... وأهانه وهوَّنه .. استخفَّ به ، ... ورجل فيه مهانة : أي ذُلٌّ وضعف ، ... وفي الحديث : ليس بالجافي ولا المَهين ، يُروى بفتح الميم وضمها ، فالفتح من المَهانة -وقد تقدم - ، والضم من الإهانة : الاستخفاف بالشيء والاستحقار ، والاسم الهَوانُ ،وهذا موضعه ... والفرَّاء في قوله - تعالى -: ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ ؛ قال : الهُونُ في لغة قريش الهَوان" [2] .

أما كلمة (الذل) فإن مادتها تدور حول عدم الامتناع مما يراد بالشيء ، قال ابن منظور : " الذُّل ، والذِّل : ضد الصعوبة ، ذل يذلُّ ذُلاً .. فهو ذلول يكون في الإنسان والدابة ... والذُّل ، والذِّل : الرفق والرحمة .. وقوله - تعالى - :﴿ وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ أي : سويت عناقيدها ودُلِّيتْ ... وتذليل العذوق في الدنيا إذا انشقَّت عنها كَوَافيرها التي تُغطِّيها يعمد الآبد إليها فيمسحها وييسرها حتى يُذللها ... فيسهل قِطافها

---

(١) تفسير الجلالين - على هامش الفتوحات الإلهية (٤ / ٢٣٦) .

(٢) لسان العرب - مادة (هون) (١٥ / ١١٢ – ١١٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عند ينعها ... وطريق مذلل إذا كان موطوءاً سهلاً " [١] . فإيثار كلمة الهون للإيماء إلى الانكسار المصاحب للشعور بالحقارة والخسة ، لما يخشاه من العار الذي يلحقه إذا امتد بأنثاه العمر ، واغتصبها من لا يقدر على دفعه .

وعلى هذه الوتيرة من إيثار الكلمة على غيرها لما فيها من إيحاء بأمر كلمة (يدسه)، ففي الدَّس إيماء إلى المبالغة في الإخفاء بخلاف الدفن فإنه يدل على مجرد المواراة . وهذا ما ألمحه من بيان المعنى اللغوي لكلتا اللفظتين ، ففي لسان العرب : " الدس إدخال الشيء من تحته ، دَسَّه دَسَّاً فانْدَسَّ .. ودسَّه يَدُسُّه دَسّاً إذا أدخله في الشيء بقهر وقوة " وفيه أيضاً : " الدفن السَّتْر والمُواراة . دفنه يَدْفنه دَفْناً ، و ادَّفَنه فاندَفَنَ فهو مَدْفون ، والدَّفِن ... والدَّفْن ، والدِّفْن بئر أو حوض أو مَنْهَلٌ سَفَت الريح فيه التراب حتى ادَّفن "[٢] .

وأرى أن الفرق بين ما يفعله الوائد دس ابنته في التراب ، وما تفعله الريح بالحوض أو المنهل غاية في الوضوح ، فإن الوائد يبالغ في الدفن متخفياً حرصاً منه على أن لا يُرى، ولا يعلم عنه أنه ولد له أنثى ومن ثم فإنه يشتد في الحفر ، ويعمق الحفرة حتى لا يُنبعث منها صراخ الموءودة ، ولا رائحة جسدها حين يصير جيفة مُنْتِنَة ، ويعكس الإيحاء لهاتين الكلمتين (الهون) و (الدَّس) تلك الحيرة البادية من الموازنة بينهما أيهما أنسب له (أيمسكه على هون) فيعيش ذليلاً حقيراً ؟ (أم يدسه في التراب) فلا يعلم عنه أحد شيئاً؟

وليتأمل القارئ المتذوق دلالة الفعل في قوله - تعالى -: ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ الدال على التخفي حال معاناة هذه الحيرة .

ومن أسرار النظم في تركيب الآية الكريمة لما كان الخبر بالأنثى سوءاً على أبيها ، كان لابد أن يتميز غيظاً ، وأن يظهر ذلك على أسارير وجهه ، فإذا قيل : فماذا يفعل وهو بين الناس ؟ جاء الجواب : ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ ﴾ ولذا كان الفصل بين الجملتين لشبه كمال الاتصال ، وهو الاستئناف البياني ، أسلوب جميل يدفع الذهن إلى استخراج سؤال من الجملة الأولى بدليل جوابه بالجملة الثانية ، ولذا سمي " استئنافاً" أي: كلاماً

---

(١) السابق - مادة (ذ ، ل ، ل) (٦ / ٤٠ – ٤١) .

(٢) السابق - مادة (دسس) (٥/٢٥٥) و (دفن) (٥ / ٢٧٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جديداً مبيناً لما قد يثار من أسئلة حول الجملة الأولى .

واستعمال الفعل ﴿ بُشِّر ﴾ مبنياً للمجهول ، وحذف المسند إليه ، تنبيهاً على فظاعة الأمر عند المُبَشَّر ، فهو لا يريد أن يعرف من بشره ، ولو علمه تجاهله ، ولأجل هذه المعاني جاء الفعل مبنياً للمجهول محذوف المسند إليه ، والجار "الباء" يفيد الملابسة ، فكأن الكلام لابس قلبه ، وبشرته في آن واحد لشدة سوء ما سمع .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ ﴾ استفهام حقيقي ، يفيد أن ولي البنت المولودة يتردد بين الإبقاء عليها فيحيا حياة ذل وقهر ، وبين وأدها فيعيش حراً كريماً بين الناس حيث لم يعلم أحد عنه شيئاً ؟

وجملة الاستفهام بيان لحال محذوفة ، والتقدير : يتوارى ... ناظراً أو متفكراً : " أيمسكه على هون أم يدسه في التراب " (١) . وقد حذفت للمسارعة إلى وضع المخاطب في قلب المفكرّ فيه وهو أحد الأمرين . أما التفكير نفسه فيدل عليه السياق . وفي ذلك الإيجاز ما يملأ النفس ويأخذ بالقلب .

وجاء النبي – ﷺ – فوضع هذا الأمر بأجلى بيان فقال : " من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار " (٢) .

ويرتبط هذا القول الكريم من أول قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم ... إلى قوله ... يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ ﴾ بالآية السابقة عليه وهي قوله : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ... ﴾ الآية ، إذ هو في موقع الحال من ضمير الجماعة فيه (٣) ، ومن ثم جاءت جملة: ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ منفصلة عنها ؛ لأنها بمثابة جواب عن سؤال أثارته جملة ﴿ وَيَجْعَلُون ﴾ وما يدخل في حيزها ، كأنه قيل : بمَ يصف العقل السليم هذا الصنيع؟ ، فجاء قوله : ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي: هو صنيع بالغ السوء ، أي: أن بين الجملتين شبه كمال الاتصال .

وإذا نظر القارئ إلى بدء هذه الجملة المستأنفة استئنافاً بيانياً وجدها مبدوءة بأداة

---

(١) ينظر : تفسير الجلالين على هامش الفتوحات الإلهية (٤ / ٢٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح حديث رقم (١٤٧ / ٢٦٢٩) ، والترمذي (٣ / ٤٧٦) ، في باب ما جاء في النفقة على البنات حديث (١٩١٣) .

(٣) قال الشيخ الملقب بالجمل : " قوله : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم ... ﴾ الآية ، الجملة حال من الواو في (يجعلون) ، وكذلك جملة : (يتوارى) إلخ ، حال من الواو أو من قوله: (كظيم) " .
- الفتوحات الإلهية (٤ / ٢٣٥) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الاستفتاح (ألا) ؛ وذلك للتنبيه إلى الذم الذي بعدها، أي: أن صنيعهم في غاية الذم ، وفي هذا الأسلوب إيجاز يدركه الناظر إذ التقدير : ساء الحكم حكما حكمهم .

ومن يتأمل لفظ (ما) في هذا السياق يلحظ أنها يجوز أن تكون مصدرية،والتقدير: ألا ساء حكمهم ، وأن تكون موصولة والتقدير : ساء الذي يحكمونه، وعلى أي من التقديرين ففي الكلام إيجاز بالحذف ، فقد حذف التمييز المبين للفاعل ، والضمير الذي يكون المخصوص بالذم خبراً عنه ، والأصل : ساء حكماً هو حكمهم ، أو هو الحكم الذي يحكمونه ، وفي مثل هذا الإيجاز تقوية للأسلوب ، وحماية له من الترهل ليصل المعنى إلى سمع المخاطب في صورة تخاطب شعوره وترسخه في أعماقه ، وبغير إملال .

وفيه إلى جانب ذلك لون من الإطناب يتجلى في الإيضاح بعد الإبهام، ففي التعبير بذلك إيجاز من جانب ، وإطناب من جانب آخر ، وفي ذلك من الحسن : إبراز الكلام في معرض الاعتدال ، كما أن فيه إيهام الجمع بين المتنافيين [(١)] .

وفي التعبير عن الإخبار بالتبشير استعارة تبعية في قوله- تعالى- : ﴿ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ ، أي : بسبب سوء هذا الخبر الذي لا سرور فيه ، ولكن عبر عنه بالتبشير كما في قوله - تعالى -: ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ على طريق الاستعارة التهكمية : شبه ما يسوء الإنسان بما يسره ، ثم حذف المشبه ، وأقيم مكانه المبشر به، وأخذ منه ﴿ بُشِّرَ ﴾ أي : " أخبر به سوءاً " على سبيل الاستعارة التبعية المقصود منها التهكم والاستهزاء بالذي أصابه هذا الأمر .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ عَلَىٰ هُونٍ ﴾ في الحرف ﴿عَلَىٰ ﴾ استعارة تبعية، شبهت المذلة بأمر محسوس يستعلى عليه ، ثم حذف المشبه به، وأتى منه بما يدل على الاستعلاء فيه وهو الحرف ﴿ عَلَىٰ ﴾ ، وجعل للمشبه وهو ﴿ هُونٍ ﴾ بطريق الاستعارة في ﴿ عَلَىٰ ﴾ ؛ لإفادة قوة التمكن ، وتمام الحصول على المراد والمستفاد ، فهي تشعر بمغالبته لتبعات الإمساك وتعاليه على موجباته من ذل النفس وانكسارها.

وهنا تتضح جماليات اختصاص هذا الموضع بحرف الاستعلاء (على)، وترك ماهو أصل في الدلالة على الملازمة والمصاحبة وهو (مع) [(٢)].

---

(١) ينظر : الإيضاح للخطيب القزويني في موضع الإطناب : (الإيضاح بعد الإبهام) (١٨٧) ، وينظر : مجموعة شروح التلخيص (٣ / ٢١٣) .

(٢) للاستزادة الرجوع إلى: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم لمحمد الأمين الخضري(٧٥-٧٦)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ورد لفظ السوء في سياق التنفير منه في قوله - تعالى - : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل آية: ٦٠] .

ومعنى الآية : بيان أن هؤلاء الوائدين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر لهم النار ، ولله - سبحانه وتعالى - صفات الكمال المطلق ، فهو المتره عن الشريك والولد ، وهو الغني الحميد فمن اعتصم به وأغناه وتولاه ، وبرزقه رباه ، ومن شكر الإله زاده وأعطاه، ومن حاد عن سبيل الهدى وقع في الردى ، وخسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، وفي ذلك آية للمتوسمين .

ومن أسرار كلمات الآية الكريمة : وأول ما يَلْحظه القارئ الموصول المتصل بلام ، فقد وقع موقع الضمير أي : " لهم " ، وبذلك وقع الإظهار موقع الإضمار(١) لما فيه من الصلة التي تشير إلى سبب الجزاء الماثل في المسند إليه، لبيان مركز دائرة سقوطهم في هاوية وأد البنات .

ويلي ذلك كلمة ﴿ ٱلْمَثَلُ ﴾ ويراد بها : الصفة العجيبة التي صارت بين الناس مثلاً يضرب سائراً على ألسنتهم في مجالات حياتهم ، وهو بحسب ما تضاف إليه ، ففي قوله : ﴿ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ يراد بها : الصفات القبيحة التي يتردى فيها صاحبها ، لكنها في قوله - تعالى - : ﴿ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ يراد بها : من كان له صفات الكمال ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ، له الأسماء الحسنى .

وتختم الآية بكلمتي : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ومعنى الأولى : القوة التي لا تقهر ، ومعنى الثانية : وضع الشيء في موضعه المناسب ، وتختلفان بحسب الموصوف بهما ؛ فهما في جنب الله تؤديان الغاية التي لا مزيد عليها في الغلب ، والإحكام ، وفي جنب البشر تؤديان معنى يتفاوت بتفاوت الأفراد وهما بعد مستمدان من الله ؛ فهو المانح إياهما لمن شاء من البشر .

وهما من صفات الله التي لا تليق بأحد سواه ، ومن كان عزيزاً بين الناس ، فإن الله هو الذي أضفى عليه من صفة عزته ، وكذلك الحكيم الذي لا يفعل إلا بحكمة أي : لا

---

(١) ينظر : روح المعاني للألوسي (١٠/٢٠٧) ، ونظم الدرر للبقاعي (٤/٤٧٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يضع الأمر إلا في موضعه ، لا يتعداه إلى غيره [(١)] .

وإذا تأمل القارئ هذه الآية بدا له في نظمها تقديم المسند الجار والمجرور ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ ﴾ على المسند إليه ؛ لبعث النفس إلى التطلع إليه ، والاهتمام به للتنفير منه ، والتخلص من السبب المؤدي إليه .

وبدا له – أيضاً – قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ... ﴾ مفصولاً عما قبله استئنافاً بيانياً على طريق الجواب لسؤال مقدر أثارته الجملة السابقة ، وكأن سائلاً سأل: فما يقال في ذلك ؟ أي ما الحكم في ذلك الذي صدر منهم وكان ؟ فجاء الجواب ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ وكان هذا الجواب بتقديم الجار والمجرور لإفادة القصر ، أي : تخصيص .

وأثر في صلة الموصول التعبير بالمضارع الواقع في سياق النفس بالحرف ﴿ لا ﴾ ؛ لما فيه من الإيماء إلى انتفاء الإيمان حال الخطاب ، أما ما كان في الماضي فقد يُعفى عنه إذا دخل الإنسان في الإيمان . وجَعْلُ الإيمان بالآخرة إيماء إلى اتساعه وشموله للإيمان بما يكون فيها من بعث ، وحساب ، وثواب ، وعقاب ، وبذلك اللفظ الموجز أدرك المتلقي تلك الأمور ، وفي ذلك من التهديد ما فيه .

وأما قوله - تعالى - : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ففيه التقديم المفيد للاختصاص[(٢)] – أيضاً – فالمثل الأعلى من صفات الكمال لله وحده لا شريك له في ذلك ، فالوجود الذاتي ، والغنى المطلق ، والجود الواسع ، والتنزه عن صفات المخلوقين ، وعلوه عما

---

(١) ينظر : روح المعاني - السابق .

(٢) الاختصاص: من اختص فلان بالأمر وتخصص به: إذا انفرد.

الاختصاص عند علماء الأصول هو التخصيص، وقد اختلفت فيه عبارات أهل العلم، فمنهم من قال «هو إخراج صورة من حكم كان يقتضيها الخطاب به لولا التخصيص».

والاختصاص شبيه بالنسخ من حيث اشتراكهما في اللبس، ومن حيث أن كل واحد منهما يقتضي اختصاص الحكم ببعض ما تناوله اللفظ.

وقد فرق ابن قيم الجوزية بينهما من وجوه خمسة، ثم قال: «والتخصيص يسميه أرباب علم البيان الاختصاص عندهم، ولا يحسن إلا أن يكون اختصاص الشيء بمعنى ظاهر، مثل قوله- تعالى-: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٩] اختصاصها دون سائر الأوقات لهذين المعنيين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول الظالمون علوّاً كبيراً ، ونحو ذلك مما يليق بذاته المقدسة كل ذلك خاص به – سبحانه وتعالى – ولله الحمد .

وجاء التذييل في الختام بأحسن ما يكون العنوان ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فهو مؤكد لما قبله تأكيداً معنوياً ، واقتران الحكمة بالعزة يليق بجلاله ورحمته ، فالعزة صفته بحيث لا يقدر أحد على ما يقدر عليه ، فيؤاخذ هؤلاء بما قدموا من قبائح ومحظورات ، ولا نظير له في ذلك ، ولكن الله حكيم عند عزته وقدرته ، فلا يفعل شيئاً بهذه القدرة والعزة إلا في دائرة الحكمة التي تجعل كل شيء في مكانها ومقامها ، ومنها آيات الله في كونه ومعجزاته لأنبيائه ، وآياته في كتابه ، وتدبيره في خلقه جوداً وسلباً ، وغنى وافتقاراً ، وصحة وبلاء ، ونحو ذلك من ألوان التدابير في شأنه العظيم : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرحمن : ٢٩-٣٠] [١].

ولا تخفى المقابلة بين قوله : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ﴾ وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وبهذه المقابلة تتمثل المفارقة البالغة بين قوم في أحط الدرجات ؛ لجهلهم وسوء تقديرهم حيث يجعلون لله البنات ، ولهم الذكور جاهلين أن الله منزه عن الولد أياً كان نوعه ، وبين الله الذي فاقت عزته وحكمته كل عزة وحكمة ، ومن ثم فهو ليس كمثله شيء .

ومما ورد فيه لفظ الإساءة في سياق التنفير منها ما جاء في قوله - تعـالى -:
﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ [سورة النحل: ٩٤]

بدأت الآية الكريمة بنهي صريح عن اتخاذ الأيمان المحلوفة دخلا على العموم فيشمل جميع الصور من الحلف في المبايعة - وهي أيمان البيعة - أسلوبا للخديعة والتغرير

(١) ينظر : روح المعاني (١٠ / ٢٠٧) ، نظم الدرر (٤ / ٤٧٣) ، اللباب (٢ / ٩٢) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠ / ٧٩) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لتتوصلوا بها إلى قطع أموال المسلمين ، والحقوق المالية وغير ذلك ، ثم تلجؤوا إلى الغدر والنقض ،فتزل أقدامكم عن محجة الإسلام بعد ثبوتها ، وتتعرضوا للعذاب في الدنيا، من قتل ونهب وأسر وجلاء ، وغير ذلك مما يسوء بصدودكم عن الوفاء بالعهد ، أو بصدكم غيركم ؛ لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدوا لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها فيقتدي غيركم بكم في هذا النقض ، ولكم عذاب عظيم ، وهو عذاب الآخرة ، ويلاحظ أن النهي عن النقض في الآية السابقة في قوله- تعالى -: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل:٩١] ؛ لبيان الباعث على النقض ، وجاء النهي المستأنف الإنشائي في هذه الآية الكريمة - هنا - لبيان النتيجة وهي زلة القدم واستحقاق العذاب ، وهذه الآية فيمن بايع رسول الله - ﷺ -، حيث جزعوا مما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين وإيذائهم لهم فنقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ (١).

هذا _ والله أعلم _ المعنى العام للآية الكريمة أما ما فيها من بلاغة فسوف أحاول تجليته فيما يلي :

من صور المفردات القرآنية في هذه الآية الكريمة نجد أن لفظةَ﴿ دَخَلًا ﴾مفردة ونكرة منونة دلت على العموم والشمول، وفي قوله- تعالى-: ﴿ قَدَم ﴾ إفراد وتنكير وذلك للإيذان بأن زلل قدمٍ واحدة _ أي قدم عزت أو ذلت _ محظور عظيم . فكيف بأقدامٍ كثيرة وقد أُطلق المفرد وأُريد الجمع لغرض العموم ، وكذلك لفظة (عذاب) نُكرت ونونت لغرض التعظيم والتخويف .

وجميع هذه الألفاظ المفردة سليمة وخالية مما يُخِلُّ بفصاحتها فليست ثقيلة على اللسان ، وليست غريبة ، وجاءت جارية على القياس الصرفي ،وهذا حال سائر المفردات القرآنية .

كذلك لفظة (السوء) فـ (ال) هنا للعهد ،والمقصود بالسوء هنا (العذاب

---

(١) الكشاف (٥٨٣/١٤)، المحرر الوجيز (٤١٩/٣) ، البحر المحيط (٥١٥/٥-٥١٦)، روح المعاني (٤٦٠/٧)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الدنيوي) من قتل ونهب وأسرٍ وجلاء وغير ذلك مما يسوءهم بدليلِ ما بعده ﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، ثم جاءت جملة: ﴿ وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ ﴾ معطوفة على جملة ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ ، وعطفها عليها هو أشبه بعطف المفرد على المفرد لقصد التشريك في الحكم الإعرابي.

أما جملة ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فهي استئنافية للتحذير وهي مفصولة عما قبلها لكمال الانقطاع ، لأن الجملة الأولى إنشائية لفظاً ومعنى، والجملة الثانية خبرية لفظاً ومعنى.

أما من حيث نظم الآية وتركيبها فقد بدأت بجملة استئنافية اُستخدم فيها أسلوب التحذير في قوله- عز وجل-: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ﴾ ، وهو أسلوب إنشائي الغرض منه النهي الحقيقي ؛ لأن المسلمين ملزمون بذلك فحذرهم تعالى من اتخاذ الأيمان والمعاهدات ذريعة للفساد حتى لا يخرجوا عن الدين المستقيم الذي يتطلب الوفاء بالعهد مما يؤدي بهم إلى الزلل عن طريق الحق. وهذه الآية مرسلة خالية من المؤكدات.

وفي قوله- تعالى- : ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ تقديم وتأخير لمراعاة الفاصلة القرآنية، ثم إن فيها إطناباً بالتذييل ، فهذه الجملة المستأنفة تذييل تؤكد مضمون ما قبلها ﴿ وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

أما عن الصور البيانية في هذه الآية ففي قوله تعالى: ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ استعارة تمثيلية ، حيث شُبهت هيئة من كان مستقيماً، فخرج عن الاستقامة بهيئة القدم التي زلت بعد ثبوت، ثم اُستُعِير التركيب المشبهُ به للتركيب المشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية ، والقرينة حالية .

وفي قوله- تعالى: ﴿ وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ ﴾ إما استعارة تبعية في الفعل ﴿ وَتَذُوقُواْ ﴾، أو استعارة مكنية في المفعول به ﴿ ٱلسُّوٓءَ ﴾.

فإذا كانت استعارة تبعية في الفعل ﴿ تَذُوقُوا ﴾ ،فقد شُبهت الإصابة بالسوء بالذوق بجامع الإحساس بالألم في كل ،ثم تُنوسي التشبيه ، ثم اُدُّعِي أن الإصابة من أفراد الذوق . ثم اُستُعير الذوق للإصابة ، ثم اُشْتُق من الذوق بمعنى الإصابة (تذوقوا بمعنى تُصابوا) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ،والقرينة :المفعول به ﴿ ٱلسُّوٓءَ ﴾.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما الاحتمال الثاني وهو أن تكون استعارة مكنية في المفعول به ﴿ ٱلسُّوٓءَ ﴾ ،فقد شُبِه السوء بشيء مطعوم يذاق بجامع الإحساس في كل، ثم تُنوسِيَ التشبيه،ثم اُسْتُعير المطعوم المادي للسوء ، ثم حُذِف اللفظ المستعار وهو الشيء المطعوم ، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (الذوق) على سبيل الاستعارة المكنية ،والقرينة ﴿ تَذُوقُوا ﴾ .

وفي قوله- تعالى-: ﴿ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الباء للسببية حيث كان سبب إصابتهم بالعذاب الدنيوي وزلل أقدامهم بعد ثباتها هو صدهم عن دين الله أو الوفاء بالعهد. وقد شُبه دين الله وهو الإسلام الذي يتطلب الوفاء بالعهد، أو الوفاء نفسه بالسبيل بجامع التوصيل في كل ، ثم تُنوسِي التشبيه ، وادُّعِيَ أن الدين أو الوفاء من أفراد السبيل ، ثم استعير السبيل لأي منهما على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والقرينة إضافة لفظ السبيل إلى لفظ الجلالة لأنه تعالى ليس ثمة طريق محسوس يوصل إليه إلاَّ دينه.

والنهي عن النقض في هذه الآية لبيان النتيجة وهي: زلة القدم واستحقاق العذاب ، وتدخل هذه الآية في آيات التنفير والبراءة من الإساءة ، ووعيد المتصفين بها .

ومن الفنون البديعية في هذه الآية الكريمة طباق الإيجاب بين ﴿ فَتَزِلَّ ﴾ وَ﴿ ثُبُوتِهَا ﴾ ، ولا يخفى ما فيها من جمال في التعبير بالتضاد الذي زاد المعنى حسنا وجمالا.

ومما ورد فيه لفظ الإساءة في سياق التنفير منها، والبراءة من المتصفين بها ما جاء في قوله - تعالى - من سورة المؤمنون: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٣- ٩٦].

ذُكرت هذه الآيات عقب حوار أمر النبي - ﷺ - أن يجريه مع منكري البعث الذين يقولون:﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴾ ؟ [المؤمنون: ٨٢] ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهو حوار لا يتصور منهم بإزائه سوى الإقرار بمضامينه، حيث يكون الجواب على كل سؤال بما يدركه العقل الراجح ، وينطق به الواقع الثابت وهاهو ذا باختصار : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ؟ [المؤمنون: ٨٤] .

هذا هو السؤال: وجوابه (لله) ، ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾ ؟ [المؤمنون: ٨٦] هذا هو السؤال: وجوابه (الله) ، ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾؟ [المؤمنون: ٨٨] هذا هو السؤال: وجوابه (الله) .

وأردف الحق هذا الإلزام بأنه أرسل إليهم نبيه بالحق، ثم أكد أنهم كاذبون في نسبة الولد والشريك إليه ، وأقام الدليل على نفي الشريك بما يكون عليه الحال عند تعدد الآلهة من فساد، ثم نزه نفسه من هذا الذي زعموه .

وتتجلى المفارقة جدّ واضحة بين ما يقتضيه الإقرار بما تضمنه هذا الحوار ، وإنكار البعث ؛ فقد ألزمهم الحجة بالإيمان بالله الذي له ملك السموات والأرض، وله القدرة البالغة على البعث وما يترتب عليه من حساب ، وثواب وعقاب، ولكنهم جمدوا على الموروث فلم يؤمنوا كما حكاه القرآن عنهم :﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف : ٢٣] ، وذلك يؤذن بعقوبة في الدنيا ، وأخرى في الآخرة.

ولذا أرشد الله نبيه إلى ما يدعو به ربه إن أراه ما يوعدون بأن لا يكون فيهم عندئذ، مع تأكيده له ﷺ أنه - تعالى - قادر على أن يريه ذلك . ثم وجهه إلى الصبر على إساءات هؤلاء الظالمي أنفسهم ، ومقابلتهم بالحسنى، فإن مقابلة السيئة بمثلها لا يؤدي إلا إلى الأسوأ ، وليس ذلك منهج الإسلام .

هذا - والله أعلم - ما تنطوي عليه الآيات من معنى أما بلاغتها في تأديته فذلك ما أحاوله على النحو الآتي: -

بالنظر إلى المفردات تتجلى واضحة المعنى جارية على العرف العربي في بنيتها، تجري على اللسان في سهولة ويُسر، بيد أن المتأمل يلحظ إيثار بعض الكلمات على غيرها .

فكلمة ﴿ رَّبُّ ﴾ أوثرت على لفظ الجلالة (الله) بأن يقول المأمور - ﷺ -

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(اللهم)؛ لأن فيها إيحاء بالشعور بالامتنان عليه بالنعم الجليلة التي أعظمها اختياره رسولاً إلى خلقه.

وكلمة ﴿ إِن ﴾ أوثرت على كلمة (إذا) إيماء إلى التفويض المطلق حتى لا يقطع بحصول إراءته ما يوعدون ؛ لأن ذلك مرده إلى مشيئة الله - عز وجل - ، وذلك لون من الأدب في مخاطبة النبي ربَّه .

وكلمة ﴿ تَجْعَلْنِي ﴾ اختيرت دون ما يقرب من معناها في هذا السياق وهي كلمة (تذرني) أو غيرها مما يمكن التعبير به مثل : (تعذبني) أو (تهلكني) لما تتضمنه هذه من معنى الوضع ، والإلقاء ، والصيرورة [(١)] فكأنه قيل : (فلا تضعني أو تلقني ، أو تصيرني في القوم الظالمين عند إنزال ما تنزله بهم.

وكلمة ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عبر بها دون كلمة (المشركين) ؛ حيث إن الظلم هنا بمعنى الشرك ؛ لقوله - تعالى - في الآية قبلها ﴿ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٢] ؛ للإيماء إلى أنهم بشركهم ظلموا أنفسهم حيث أوردوها مورد الهلكة كما أنهم ظلموها بإساءتهم إلى رسول الله - ﷺ - حيث وصفوه بأوصاف كثيرة منها الكذب ، والجنون والسحر .

وفي الأمر بمقابلة الحسنة بالسيئة عبّر باللفظ ﴿ ٱدْفَعْ ﴾ ؛ لما تُشير إليه هذه المادة من القوة في المواجهة ، فان الحسنة تدفع السيئة ، وتبعدها عن التأثير في النفس ، وربما منعت نظائرها من الوجود أصلاً .

وبالنظر إلى النظم تتجلى للمتلقي الخصائص التالية :-

سوق جملة الشرط مؤكدة بمؤكدين أولهما: (ما) الزائدة ، وهي لتوكيد ما تفيده (إن) من الاحتمال المفوض حصوله إلى الله - جل وعلا- .

والتأكيد بالحروف الزائدة أمر متعارف بين أهل العلم. قال عبد القاهر في سياق حديثه عن نفي المجاز فيما وصف بالزيادة من الحروف: " فان قلت: أوليس يقال : إن

---

(١) جاء في لسان العرب : جعل الشيء يجعله جعلاً ، وأجتعله : وضعه...، وجَعَله : صَيَّره يجعله جعلاً: صَنَعه ، وصيّره، قال سيبويه : جعلت متاعك بعضه فوق بعض : ألقيته

ينظر : لسان العرب لابن منظور حرف الجيم مادة (جعل) (٣/١٥٨-١٥٩)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكلمة لا تعرى من فائدة (ما) ولا تصير لغواً على الإطلاق حتى قالوا : إن نحو (مـــا) في نحو ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] تفيد التوكيد ؟ فأنا أقـــول : إن كـــون (ما) تأكيداً نقل لها عن أصلها ومجاز فيها ، وكذلك أقول أن كون الباء المزيدة في (ليس زيد بخارج) لتأكيد النفي مجاز في الكلمة ؛ لأن أصلها أن تكون للإلصاق. فإن ذلك على بعده لا يقدح فيما أردت تصحيحه ؛ لأنه لا يتصور أن توصف الكلمة مـــن حيـــث جعلت زائدة بأنها مجاز ،ومتى ادعينا لها شيئاً من المعنى فإننا نجعلها من تلك الجهـــة غـــير مزيدة" [١].

فمثل هذه الحروف من الوجهة الإعرابية زائدة ، ومن الوجهـــة البلاغيـــة مفيـــدة للتأكيد ومن ثم فليست زائدة وإن لم تكن بإفادتها له موصوفة بالمجاز [٢] .

أما المؤكد الثاني فهو نون التوكيد الثقيلة. وإيقاع التأكيد على أداة الشرط وفعـــل الشرط إيمان منه - ﷺ - إلى مزيد التفويض لإرادته ومشيئته جل وعلا .

وقد وقع جواب الشرط من قبيل الإنشاء الماثل في أسلوب النهي ولـــذلك اقتـــرن بالفاء التي يؤتى بها لإصلاح اللفظ - كما يقول النحاة - ولكن النهي هنا خارج مخرج الدعاء لصدوره من عالي المكانة - ﷺ - إلى من لا يرقى إلى مكانته شيء من خلقه مهما علا قدره وعظم شأنه .

وفي التعبير بلفظ ﴿ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وضع للظاهر موضع المضمر ؛ فالأصـــل أن يُقال : إما تريني ما يوعدون فلا تجعلني فيهم . وإنما عدل عن ذلك إلى الإظهار للتسجيل عليهم بالظلم ؛ لأنه سبب الإيعاد وإراءهم إياه .

وجملة الشرط كلها واقعة موقع المفعول لفعل الأمر(قل) وهو مع كونه للوجـــوب خارج مخرج التوجيه لما يفعله في هذا الموقف الذي تجلى فيه إصرارهم على الشرك بعـــد إلزام الحجة وهو الدعاء المأمور به . وهنا يثور سؤال مؤداه : لِمَ أمره بهذا الـــدعاء إلى سبب ظاهر له ؟

---

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني - تصحيح السيد محمد رضا (٣٦٤)
(٢) ينظر بقية كلامه في هذه الحروف في المرجع السابق (٣٦٤-٣٦٥)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وللإجابة على هذا السؤال المتوقع قال الزمخشري : "عن الحسن : أخبره الله أن له في أمته نقمة ولم يخبره أفي حياته أم بعد موته فأمره أن يدعو بهذا الدعاء". ثم استطرد الزمخشري مفترضاً سؤالاً يوجه إليه فذكره وأجاب عنه حيث قال : " فإن قلت : كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم ؟ قلت : يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله وأن يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله إظهار للعبودية وتواضعاً لربه ، وإخباتاً له . واستغفاره - ﷺ - إذا قام من مجلسه سبعين مره ، أو مائة مرة لذلك " (١) .

أما الجملة المستأنفة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَـٰدِرُونَ ۝٩٥﴾ [المؤمنون: ٩٥] فقد جيء بها مكثفة التأكيد ؛ حيث أكدت بثلاثة مؤكدات : إنّ ، اللام ، واسمية الجملة، مع أنه - ﷺ - ليس بشاك في قدرته على ذلك جل شأنه، ولا منكر لها .

ولكنه نزل منزلة المنكر ؛ لما يعانيه من الإساءات التي يجسدها تكذيبهم له ، ووصفهم إياه بقبيح الصفات . وفي هذا التأكيد تسليه له وجبر لخاطره، وكأنه ليس هو المخاطب بذلك بل المخاطب به مكذبوه ، وربما كان هذا هو مراد الزمخشري بقوله : "كانوا ينكرون الموعد بالعذاب ويضحكون منه واستعجالهم له لذلك. فقيل لهم : إن الله قادر على انجاز ما وعد إن تأملتم" (٢) .

فالمقصود بهذا القول المكثّف تأكيده هم المنكرون للبعث ، وإن كانت صورة الخطاب لرسول الله - ﷺ - وكأن أصل الكلام : وإنا على أن نريكم ما نعدكم ، فعدل عنه إلى ما هو عليه إيماء إلى إهمالهم ، والإعراض عنهم ؛ لأنهم ليسوا أهلاً للخطاب .

وقدم الجار والمجرور على متعلقه ؛ لأنه المقصود الأعظم ، ومناط الاهتمام ، وقد ترتب على هذا التقديم ذلك النسق من الإيقاع الذي ينشئه توافق الفواصل في الحرف الأخير، وفي هذا الإيقاع الصوتي مخاطبة للشعور .

ومن الملحوظ العدول عن الإفراد في لفظ المسند إليه إلى الجمع في (إنا ، نريك ، وفي لفظ المسند (القادرون) ؛ إذ كان ظاهر المقام أن يقال : قل ربي إما تريني ... وإني على أن أريك ما أعدهم لقادر . وإنما عدل عن ذلك إلى ما عليه اللفظ قصداً إلى بيان

---

(١) الكشاف للزمخشري (٧١٤)

(٢) الكشاف (٧١٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العظمة المقتضية للقدرة على تنفيذ الوعيد للتخويف والتهديد .

والفعل في جملة ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ أمر جاء على أصله من طلب الفعل على وجه الوجوب ، ولكنه مع ذلك يحمل معنى التوجيه والإرشاد إلى ما يجمل به في هذا الموقف المثير للأسى، وقدم الجار والمجرور (بالتي هي أحسن) ؛ لأنه مناط التوجيه، فالسيئة أمر معروف، ولكن الذي تدفع به يحوطه شيء من الخفاء،فقد يقع في النفس أن الغرض دفعها بمثلها أو بأشد منها أما أن يكون الغرض دفعها بالتي هي أحسن فإنه يبعد وقوعه في النفس الآسية ولذلك كان التقديم للمبادرة إلى المراد حتى لا تُبْعِد النفس في تصورها .

واللافت للنظر مجيء المسند في جملة الصلة ﴿ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ على صيغة اسم التفضيل ؛ إذ كيف تتأتى المفاضلة بين السيئة والحسنة مع أنه لا اشتراك بينهما في الصفة ؟

ألم يك من الأنسب للمقام أن يُقال : ادفع بالحسنة السيئة ؟ .

وقد أجاب أهل العلم عن هذا التساؤل بما يزيل الغرابة ، ويجعل النفس تأنس به، وتسكن إليه. فقد قال الزمخشري : " هو أبلغ من أن يقال بالحسنة السيئة ؛ لما فيه من التفضيل ، كأنه قال : ادفع بالحسنى السيئة . والمعنى : الصفح عن إساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الإحسان ، حتى إذا اجتمع الصفح والإحسان وبذل الاستطاعة فيه كانت حسنة مضاعفة بإزاء سيئة. وهذه قضية قوله : ﴿ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ "(١) .

وزاد ابن المنير قول الزمخشري بياناً فقال : " قال أحمد : ما ذكره تقريراً للمفاضلة عبارة عن الاشتراك في أمر، والتميز بغيره ، ولا اشتراك بين الحسنة والسيئة ؛ فإنهما ضدان متقابلان . فكيف تتحقق المفاضلة ؟ قلت : المراد أن الحسنة من باب الحسنات أزيد من السيئة من باب السيئات، فتجيء المفاضلة مما هو أعم من كون هذه حسنة ، وهذه سيئة ، وذلك شأن كل مفاضلة بين ضدين كقولهم : العسل أحلى من الخل ، يعنون : أنه في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة ، وليس لأن بينهما اشتراكاً خاصاً. ومن هذا القبيل ما يحكى عن أشعب الماجن أنه قال : نشأت أنا

---

(١) الكشاف (٧١٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والأعمش في حجر فلان، فما زال يعلو وأسفل حتى استوينا . بمعنى : أهما استويا في بلوغ كل منهما الغاية ، أشعب بلغ الغاية على السفلة ، والأعمش بلغ الغاية على العلية" [١].

ولكن ابن المنير بعد أن فسر كلام الزمخشري رأى رأياً آخر في تلك المسألة حيث قال : " هذا تفسير كلامه . ونعود الآن إلى الآية فنقول : هي تحتمل وجهاً آخر من التفضيل أقرب متناولاً ، وهو أن تكون المفاضلة بين الحسنات التي تدفع بها السيئة، فإنها قد تدفع بالصفح والإغضاء، ويقنع في دفعها بذلك، وقد يزاد على الصفح الإكرام ، وقد تبلغ غايته ببذل الاستطاعة ، فهذه الأنواع من الدفع كلها حسنة ، ولكن أحسن هذه الحسنات في الدفع هي الأخيرة ؛ لاشتمالها على عدد من الحسنات،فأمر النبي - ﷺ - بأحسن الحسنات في دفع السيئة "[٢] .

على أن التعبير بالموصول فيه تشويق إلى الصلة ؛ لما فيه من الإبهام ، فعندما يُقال - مثلاً- (ادفع بالتي) فإن النفس تجد في لفظ (التي) وتتساءل : التي ماذا ؟ وتتطلع إلى ما يبينه ، ويزيل إبهامه فإذا قيل : هي أحسن. وجدت ما أجاب على تساؤلها، وشعرت برضى نفسي ، وراحة بال ، وذلك لعلمها بما تطلعت إليه .

وفي جملة ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ...﴾ إلخ عبّر بضمير العظمة ، لأن شمول العلم ، ونفوذه إلى ما يصفون قبل أن تهجس به خواطرهم ، وتنبس به شفاههم يقتضي أن يكون العالم عظيماً ؛ ويؤازر التعبير بضمير العظمة في هذا المضمار مجيء المسند على صيغة اسم التفضيل ، لأن علم غيره بما يصفون قاصر على ما نطقت به الألسنة ، أما وهو لمّا تهجس به الخواطر بعد. فمن خصائص من يعلم السر وأخفى ، والتعبير بالمضارع في صلة الموصول (يصفون) ، وقد وقع مضمونه ، وسمعه النبي - ﷺ - وتأذى به ، فلأجل استحضار الصورة كأنه حادث الآن لحظة الخطاب .

وفي الآية الأولى إيجاز بحذف أداة النداء- الهمزة ، أو أي - الموضوعة لنداء القريب وبحذف المضاف إليه- وهو ضمير المتكلم ، إذ الأصل : أربِّي ، أو أي ربي ، وفي هذا

---

(١) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال- أحمد بن محمد بن المنير- على هامش الكشاف(٧١٤) وينظر : روح المعاني للألوسي (٢٨١/١٣) .
(٢) السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الحذف إيماء إلى شدة القرب من المنعم ، وتجاهل للذات استصغاراً لها في جانبه تعـالى . وفي الآية الثانية تكرار للفظ الرب مع حذف الأداة والضمير - أيضاً - للغرض نفسه ، ولا يخفى أن جملة مقول القول﴿ رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ... رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي ﴾ جمعت بين الإيجاز بالحذف والإطناب بالتكرار ، وقد سبق بيان سر الإيجاز ، أما سر الإطناب فهو المبالغة في الابتهال والتضرع ، وفي الجمع بين الإيجاز والإطناب حسن رائع يتمثل في إبراز الكلام في معرض الاعتدال ، وإيهام الجمع بين المتنافيين (١) .

ومن الملحوظ أن جملة قوله :﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ﴾ لم توصل بجملة قوله : ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي....﴾ مع أنهما من قبيل التوسط بين الكمالين، لكونهما إنشائيتين لفظاً ومعنى ، وهذا خلاف ما قرره البلاغيون،وربما كان الفصل لغاية قصد إليها وهي أن يتميز كل من الأمرين تميزاً كاملاً ، حتى كأنه أمر به وحده،وليس مصحوباً بغيره من المأمورات ؛ لمزيد الاهتمام به ، فدفع السيئة بالحسنة يحتاج إلى قوة الإرادة واستجماع قوى النفس حتى لا تحدث المأمور بالأخذ بالثار فيقابل السيئة بمثلها وإن لم يزد عليها ، وربما كان التساوي في الأهمية هو السر في وصل الأمر بالتعوذ من همزات الشياطين والأمر بدفع السيئة بالحسنة. ولا جرم فالخوف من همزات الشيطان يجعل المتلقي يستجمع قوى نفسه فيزداد حرصاً على التعوذ منها .

أما جملة : ﴿ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ فقد فصلت عن سابقتها لكمال الانقطاع ،إذ هي خبرية لفظاً ومعنى ، والسابقة لها إنشائية لفظاً ومعنى .

وهذه الجملة كناية عن المجازة على صنيع المشركين من الإساءة إليه - ﷺ- وفيها تسرية عنه ، وعون له على الإقبال على الإحسان في مقابل الإساءة .

ولا يخفى ما بين الحسنة والسيئة من تقابل ، وهو من طباق الإيجاب ؛ فالتقابل بين الكلمتين لذاتهما ، ومثل هذا الطباق من قبيل تداعي المعاني .

---

(١) ينظر : الإيضاح للخطيب القزويني في الحديث عن ذلك في نعم وبئس في سياق حديثه عن الإطناب بالإيضاح بعد الإبهام (١٨٧)،وينظر : شروح التلخيص (٣ / ٢١٤) ط عيسى الحلبي – القاهرة ١٩٣٧م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما ورد فيه لفظ الإساءة في سياق التنفير منها ، والبراءة من المتصفين بها ما جاء في سورة النمل من قوله - تعالى-: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النمل: ٨٧ - ٩٠] .

تتحدث الآيات عما يكون عند قيام الساعة من النفخ في الصور، وما يتبعه من الموت لكل ما في الكون من الكائنات الحية إلا من شاء الله استثناءه منه كما يشير إلى ذلك قوله - تعالى - :﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨] ، وما يصحب ذلك من اقتلاع الجبال من أماكنها وتسييرها كما تسير الريح السحب،وينظر الرائي إليها فيخيل إليه أنها جامدة ثابتة ، وهي في الواقع تمر مراً حثيثاً إلى أن تسوى بالأرض فتبدو الأرض مستوية لا عوج فيها، ولا نتوء .

كما يبين ذلك قوله – تعالى - : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧] .

ثم ما يكون بعد ذلك من الجزاء ، حيث يكافأ المؤمنون بإحسانهم والكافرون بإساءتهم ، فيدخل المؤمنون الجنة خالدين فيها أبدا ، والكافرون النار خالدين فيها أبدا ، وذلك وفق عمل كل فريق دون أن يعاقب أحد بغير جريرة .

هذا هو المعنى العام الذي تتضمنه الآيات . فإذا تطلع القارئ إلى الخصائص البلاغية في التعبير عن ذلك ، فهذه هي كما لاحت لي :

بالنظر إلى المفردات تتجلى واضحة لمن له شيء من الإلمام باللغة فلا يحتاج قارئ الآيات إلى استشارة معجم لغوي عدا كلمة (الصور) (١) فقد يكون القارئ بحاجة إلى

---

(١) جاء في لسان العرب : الصور : القرن ... وبه فسّر المفسرون قوله - تعالى - : (فإذا نفخ في الصور) .... قال أبو الهيثم : واعترض قوم فأنكروا أن يكون الصور قرناً...وادعوا أن الصُّور جمع الصوُرة ، كما أن الصوف جمع الصوفه ، والثّوم جمع الثومة... وقال - رداً لذلك - : وهذا خطأ فاحش. واحتج لذلك بقول الفراء : كل جمع على

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مراجعة معجم بشأنها، وقد أوردته بالهامش . أما باقي الكلمات فمن الوضوح بمكان ، لكن إيثار بعضها على ما سواه فيحتاج إلى شيء من التأمل للوقوف على السر في ذلك .

وتلفت النظر في هذه الآيات كلمة (الصور) . لماذا استعملت دون ما تفسر به وهو كلمة (القرن) ؟ . والذي يبدو للمتأمل في المادة (ص،و،ر) أن صوت الصاد بمخرجه ، وامتداده بالحرف الصامت(الواو) يشير إلى التجويف الذي يجسم الصوت ؛ حيث تخرج الصاد من جانبي اللسان مع الثنايا العليا ، وذلك يترك تجويفاً في اللسان يخرج معه الهواء الحامل للصوت ، وحيث تخرج الواو بامتداد الشفتين واجتماعهما مع ترك فضاء أشبه بالاستدارة فإذا انضمت إلى ذلك الراء التي تجعل طرف اللسان يتحرك تحركاً متكرراً ثم التجسيم وهذا التجسيم للصوت يكسبه قوة شديدة يترتب عليه الفزع ، والصعق ؛ ولذلك عبر القرآن عن النفخ بالصيحة في قوله- تعالى - في سورة يس : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يس: ٤٩- ٥٠] ، وفي قوله في سورة ص :﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾[ص: ١٥] .

أما كلمة القرن فإن مادتها (ق،ر،ن) تشير إلى أنه مصمت لا تجويف فيه ؛ فالقاف مخرجها يكون بإغلاق آخر الحنك بحيث لا يسمح بمرور الصوت ، وصوت الراء يكون بتكرار حركة طرف اللسان ومخرج النون يكون بالتقاء طرف اللسان مع سقف الحنك من الأمام وذلك لا يسمح بخروج الهواء من الفم ، ومن ثم فإنه لا يمكن النفخ فيه ؛ لأنه لا يساعد الغرض المقصود من النفخ وهو الشدة المؤدية إلى الفزع والموت .

وكذلك كلمة (فزع) أوثرت على ما سواها مما جاء في سياقات أخرى ، وهي كلمة

لفظ الواحد الذّكر سبق جمعه واحدته فواحدته بزيادة هاء فيه ، وذلك مثل الصّوف ، والوبر ، والشّعر ...فكل واحد من هذه الأسماء اسم لجميع جنسه ، فإذا أفردت واحدته زيدت فيها هاء ... ولو أن الصوفة كانت سابقة الصُّوف لقالوا : صُوفة وصُوف وبُسرة وبُسر، كما قالوا : غُرْفة وغُرَف، وزُلْفة وزُلَف ، وأما الصُّور القرنُ ، فهو واحد ولا يجوز أن يقال : واحدته : صُورة ، وإنما تُجمع صُورة الإنسان صُوراً ؛ لأن واحدته سبقت جمعه . وفي حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله - ﷺ - كيف أنعمُ وصاحب القرن قد التقمهُ ...؟... قال الأزهري : قد احتج أبو الهيثم فأحسن الاحتجاج .

ينظر : لسان العرب :حرف الصاد _ مادة(صور) (٣٠٥/٨) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(خاف) ؛ لأن الغرض بيان شدة ما يشعر به الأحياء عقب النفخ مباشرة ، فالفزع أشد من الخوف . يبين ذلك قول الراغب : " الفزع : انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع...وقوله :﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء ١٠٣] ، فهو الفزع من دخول النار... ويقال: فزع إليه إذا استغاث به ، وفزع له أغاثه"(١) . فالفزع شعور بانقباض نفسي مصحوب بنفور يصحبه طلب الخلاص بالاستغاثة . أما الخوف فهو دون ذلك ؛ فهو كما قال الراغب : " الخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة ، كما أن الرجاء توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة"(٢) ، ومؤدى قوله هذا : أن الفزع يكون بعد حدوث أمر مكروه ، أما الخوف فهو قبل حدوث هذا المكروه .

كما أوثرت هذه الكلمة دون كلمة (صعق) ؛ لأن الصعق أمر يعقب الفزع ؛ فهو مخالف له في المعنى. يبين ذلك قول الراغب : " الصاعقة ، والصاقعة الهدّة الكبيرة، إلاّ أن الصّقْع يقال في الأجسام الأرضية ، والصَّعْق في الأجسام العلوية" ثم قال : "قال بعض أهل اللغة : الصاعقة على ثلاثة أوجه : الموت كقوله : ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].... والعذاب كقوله : ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت: ١٣]... والنار كقوله : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ [الرعد: ١٣] ، وما ذكره فهو أشياء حاصلة من الصاعقة ؛ فإن الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو،ثم يكون منه نار فقط ، أو عذاب ، أو موت"(٣).

وهكذا يتبين للمتأمل أن لفظة الفزع هنا هي التي جاءت في موقعها من الآية معبرة عما يعتري الأحياء من الانقباض النفسي الشديد المصحوب بالحركة الباحثة عما يستغاث به إثر هذا النفخ الذي يصل مداه إلى كل من في السموات ومن في الأرض ... ولكن لا مُغيث في هذا اليوم.

وهنا يصل النظر إلى كلمة ﴿ دَٰخِرِينَ ﴾ فيتجلى له إيثارها على كلمة (صاغرين)

---

(١) المفردات للأصفهاني كتاب (الفاء) مادة (فزع) (٣٨١)
(٢) المفردات كتاب (الخاء) مادة (خوف) (١٦٦)
(٣) المفردات كتاب (الصاد) مادة (صعق) (٢٨٤-٢٨٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهي التي جيء بها لبيان معناها [١] . والسر في هذا الإيثار - كما يلوح لي- أن الوصف بالدخر لا يراد به مجرد الصغار ، بل يتجاوز ذلك إلى بلوغ الصغار في نفوس الآتين أقصى مداه . يدل على ذلك ما جاء في القاموس من قولهم : "دَخَرَ الشخص- كمنع وفرح - دخراً ودخوراً : صغر وذل . ودَخْمَر القربة ملأها ، والشيء ستره وغطاه"[٢]. على أن ما ذكره ابن منظور يدل على أن هذا اللفظ يدل على الحقارة والتحير فهو يقول عن (الداخر) : " وهو الذي يفعل ما يؤمر به شاء أو أبى صاغراً قَميئاً"، ثم يقول : "والدَّخَرُ: التحير" [٣] . فهؤلاء الداخرون يجمعون الصغار البالغ ، والحقارة والحيرة وذلك لعمري ما يشعر به من يكون في موقف ينتظر فيه قضاء الله الذي لا محيد عنه إما بالسعادة الأبدية ، أو الشقاء الأبدي .

وينتهي المطاف في تأمل الكلمات إلى كلمة (كُبَّتْ) واختيارها دون كلمة الإلقاء التي تقرب منها في المعنى ، فيتبين المتأمل أن الكلمة القرآنية تومئ إلى شدة الإلقاء لا إلى مجرد الوصف به ، فلو قيل : (فألقيت وجوههم) لما كان لها من البيان في العقاب ما لصاحبتها ، ويكشف عن وجه تلك الشدة ما سطره الفيروز آبادي من دلالة تلك المادة في لغة العرب حيث قال : " كَبَّهُ : قلبه ، وصرعه ... والكبَّة... الدفعة في القتال والجري ، والحملة في الحرب والزحام ... ، والرمي في الهُوَّة " [٤] .

الأداء الصوتي للكلمتين يكشف عن الفرق بينهما ؛ ذلك أن الباء من حروف الشدة ، وتضعيفها يومئ إلى مضاعفة تلك الشدة ، ومن ثم دلت الكبة على الحركة الشديدة التي تتمثل في الدفعة الحاصلة في حال القتال ، وما جرى مجراه ، كما تتمثل في الرمي في الهُوَّة من مكان شاهق . إنها كلمة مخيفة تملأ القلب رعباً وخوفاً ، ومن شأنها الزجر عن السيئة المؤدية إليها .

وإذا نظر المتلقي إلى النظم متأملاً فيه تراءى له منه ما يأخذ بألباب من رزقوا حاسة ذوق الكلام البليغ .

---

(١) ينظر: الكشاف (٧٩٢) ، وتفسير الجلالين على هامش الفتوحات الإلهية(٥/٤٦٨).
(٢) القاموس المحيط : باب الراء فصل الدال.
(٣) لسان العرب باب (الدال) مادة (دخر) (٥/٢٢٧).
(٤) ينظر : تفسير الجلالين على هامش الفتوحات الإلهية : (٥ / ٤٧١) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأول ما يلفت النظر في ذلك حذف المسند إليه ، وبناء المسند للمفعول في جملة ﴿ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ ؛ إذ لم تُبين النافخ فيه من هو ؟ والسر في ذلك أن الغرض يتعلق ببيان سبب الفزع ، وهو النفخ ، فهو الذي يترتب عليه ، وينشأ بحدوثه أما النافخ فغير منظور إليه ، وليكن هذا أو ذاك ممن يكلفه الله بذلك وفي ذلك الإيجاز الرائع الذي يفي بالغرض دون تزيد ، وقد امتد الإيجاز إلى ترك وصف النفخة ؛ لأنه يتبين من التأمل في الجملة التالية وهي قوله - تعالى - : ﴿ فَفَزِعَ... ﴾ فهي النفخة الأولى ؛ لأن هذا الفزع هو المفضي إلى الموت المعبر عنه بالصعق في قوله - جل وعلا - : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر : ٦٨] . أما البعث من الموت فهو المترتب على النفخة الثانية ؛ وهي التي بيَّنها قوله - تعالى- : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر : ٦٨] ، ولا غرو فالقرآن بناء متكامل تتآزر وحداته على بيان مراميه .

" وخصت هذه السورة بقوله :﴿ فَفَزِعَ ﴾ موافقة لقوله : ﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ [النمل:٨٩]، وخصت الزمر بقوله : ﴿ فَصَعِقَ ﴾ موافقة لقوله : ﴿ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر:٣٠] ، لأن معناه : مات " [(١)] .

وبالتأمل في جملة قوله : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ يتبين الإيجاز بحذف المضاف إليه وهو الضمير العائد على الموصول (مَن ، ومَنْ) وبحذف المتعلق بالفعل (أتوا) والتقدير : وكلهم أتوا الموقف بعد النفخة الثانية داخرين . وقد دلت على هذه المحذوفات قرائن : التنوين في (كل) ، ومجيء الفعل المتعدي غير متبوع بما يتعلق به من المفعول والظرف ، وبهذا الإيجاز جاء التركيب وثيقاً متماسك البناء كأن اللفظ التالي يسارع إلى الأذن متجاوزاً ما يعوقه في طريقه ليلبي حاجة المتلقي ويشبع نهمه في تعريف الأحداث البارزة في هذا الموقف المهول .

وفي الجملة الأولى عبر عن الفزع بلفظ الماضي ، وكذلك الجملة الثانية عبر فيها عن الإتيان بلفظ الماضي مع أن كلا من الحدثين مرتبط بالمستقبل من الزمن كما يشير إلى ذلك التعبير عن النفخ بالمضارع في قوله - تعالى - : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ ،

---

(١) أسرار التكرار في القرآن الكريم المسمى(البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان) لمحمود بن حمزة الكرماني (١٩٣) ، تحقيق:عبد القادر أحمد عطا- دار الفضيلة ، القاهرة (دت)(دط) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وذلك للإشعار بتحقق الوقوع . وقد بين ذلك الزمخشري في حديثه عن حادث الفزع حيث قال: " فإن قلت : لمَ قيل ففزع دون فيفزع ؟ قلت : لنكتة وهي : الإشعار بتحقق الفزع وثبوته ، وأنه كائن لا محالة واقع على أهل السموات والأرض ؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به " [١] . ومثل هذه النكتة قائم في التعبير عن الإتيان بأتوه دون يأتونه .

ومجيء الاستثناء في الجملة الأولى ليدفع وهماً قد يهجس في نفس المتلقي أن الفزع المفضي إلى الموت عام شامل لا يفلت فيه أحد فكان هذا الاستثناء لدفع هذا الوهم ، وليكشف عن طلاقة القدرة التي تجعل هذا الأمر البالغ الشدة مع عمومه لكل من في السموات والأرض لا يشمل أفراداً بأعيانهم وهم من جملة من يوجد فيهما .

واللافت للنظر أن المستثنى لم يبين بل جاء بلفظ ينطبق على القليل والكثير ، فلفظ (من) يُراد به المفرد ، ويراد به الجمع ، ومن ثم كانت فيه آراء متعددة أوردها المفسرون ، وهي – كما لاح لي – لا تعدو أن تكون اجتهادات حيث لم يرد في أحدها نص موثق ، وقد اعتمدت في ذلك على ما ذكره القرطبي بعد أن أورد هذه الآراء من قوله : " والصحيح أنه لم يرد في تعيينهم خبر صحيح ، والكل محتمل " [٢] . وعلى ما نقله الشيخ الجمل عن البيضاوي حيث قال : " ولعل المراد ما يعم ذلك ؛ لعدم قرينة الخصوص " [٣] .

وانتقاء النص الموثق وعدم القرينة المخصصة لهذا أو ذاك مما أورده المفسرون [٤] يدل على أن إبهام المستثنى أمر أراده الله – عز وجل – ليكون الإيمان قائماً على التفويض التام فلا تنازع المؤمن نفسه لمعرفة ما استأثر الله بعلمه .

ولا يخفى ما في جملة الصلة المبينة للمستثنى من الإيجاز حيث حذف مفعول المشيئة ، وفي ذلك من الحسن ما لا يجده المتلقي لو قيل : (إلا من شاء الله أن لا يفزع) فمثل هذا القول غث بارد يمجه السمع ؛ إذ لا حاجة إلى ذكر ما دل عليه السياق ، فإن الاستثناء إخراج من حكم سابق ، وهو هنا حصول الفزع المترتب على النفخ ، وذلك يقتضي أن يكون المفعول المحذوف ما يدل على نفي الفزع عن المستثنى [٥] .

---

(١) الكشاف للزمخشري (٧٩٢) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧ / ١٦١) .
(٣) حاشية الجمل على تفسير الجلالين (٥ / ٤٦٨) .
(٤) قيل هم : جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت ، وقيل غير ذلك .
ينظر : الكشاف (٧٩٢) ، وتفسير الجلالين ، وحاشية الجمل (٥ / ٤٦٨) ، والقرطبي (٧ / ١٦١) .
(٥) قال بهاء الدين السبكي في سياق حديثه عن حذف مفعول المشيئة : " وأكثر ما يقع ذلك بعد (لو) لأن مفعول المشيئة مذكور في جوابها ، وكذلك غيرها من أدوات الشرط . وقد يكون مع غيرها استدلالاً بغير الجواب كقوله -

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي صدر الآية الثانية من هذه الآيات تطالع المتأمل جملة : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ وفيها إسناد الفعل إلى ضمير المخاطب . وهو ضمير يصلح لكل من يتأتى خطابه ؛ وهذا ما ذكره الخطيب في التلخيص وبينه شراحه ، ومنهم السعد في المختصر حيث قال : " وقد يترك الخطاب مع معين إلى غيره ... ليعم ... كل مخاطب ... نحو ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [السجدة : ١٢] لا يريد بقوله: ولو ترى مخاطباً معيناً قصداً إلى تفظيع حالهم [فقد] تناهت .. في الظهور لأهل المحشر إلى حيث يمتنع خطاؤها فلا يختص بها ... راء دون راء " (١) .

ويقف القارئ المتذوق لحلاوة الكلام عند قوله - تعالى - : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ﴾ ليتأمل بلاغة الإيجاز فيه ، فهو جزء من جملة حذف منها المسند ، وفي تقدير هذا المسند تتفاوت أفهام رادة المتذوقين : فقد رأى الزمخشري أنه الفعل الذي نصب به الظرف (يوم) في قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ أرى ذلك في قوله : " صنع الله : من المصادر المؤكدة كقوله : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ ﴾ و ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴾ إلا أن مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم ينفخ ، والمعنى : ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت أثاب الله المحسنين ، وعاقب المجرمين ، ثم قال : ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ﴾ يريد به : الإثابة والمعاقبة " (٢) . ومفهوم قوله هذا أن المصدر (صنع) معناه الإثابة والمعاقبة وكأن أصل الكلام : (أثاب الله المحسنين ، وعاقب المجرمين يوم ينفخ في الصور .. تمر مر السحاب) إثابة ومعاقبة ، ولكن الجلال المحلي رأى أن هذا المصدر منصوب بفعل اشتق منه هذا المصدر ، وبين ذلك بقوله : " صنع الله : مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله أضيف إلى فاعله بعد حذف عامله : أي صنع الله ذلك صنعاً " (٣) ، وعليه فإن أصل الكلام : ويوم ينفخ في الصور صنع الله الذي أتقن كل شيء وتسيير الجبال تسيير السحاب صنعاً ، ومؤدى هذا أن ناصب الظرف ليس هو الفعل (صنع) بل هو منصوب لعطفه على الظرف السابق في قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ ﴾ ، وهذا الأخير منصوب بفعل محذوف تقديره (اذكر) . نقل ذلك

تعالى - : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .
ينظر : عروس الأفراح - ضمن مجموعة شروح التلخيص (٢ / ١٣١) ط عيسى الحلبي ١٩٣٧ – القاهرة .

(١) مختصر السعد - مجموعة شروح التلخيص .
(٢) الكشاف (٧٩٢) .
(٣) تفسير الجلالين - هامش الفتوحات الإلهية (٥ / ٤٧٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجمل عن شيخه حيث قال : " قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ معطوف على ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ ﴾ داخل معه في حكمه ، وهو الأمر بذكره " (١) ، وقد صرّح الجلال المحلي بهذا الفعل قائلاً:"واذكر يوم نحشر من كل أمة فوجاً" (٢).

والذي يلوح لي أن ما ذكره الشيخ الجمل هو الأقرب إلى الصواب . وعليه فلينظر المتأمل الفرق بين قولنا : يوم ينفخ في الصور صنع الله الذي أتقن كل شيء ، وتسيير الجبال تسير السحب ، وهي تبدو لمن يراها جامدة صنعاً ، وبين ذلك اللفظ الذي ورد في النظم القرآني ليدرك مدى عظمة هذا النظم الذي يتحاشى ذلك الفصل الكبير بين الفعل والمصدر المؤكد له . وما يترتب عليه من ترهل الأسلوب .

والملحوظ أن الجمل التي في الآيتين خالية من التأكيد ما عدا جملة ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴾ ؛ فإنها سيقت مؤكدة بإن واسمية الجملة ، ومرد الخلو من التأكيد إلى طبيعة الخبر ؛ فإنه أمر غيبي لا علم للمخاطبين به ، فإنهم – وإن كان منهم من ينكر البعث – لا يعلمون كيف يكون . أما التأكيد فلتتريل المخاطبين مترلة الشاك المتردد ؛ فإن الجمل السابقة تجعلهم يتساءلون ما سيكون مصيرنا ، ومنا المسيء ومنا المحسن ؟ فجاء قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴾ مؤكداً ليزيل خالجة الشك من احتمال معاقبة المحسن ، وإثابة المسيء ، وهذه الجملة تحمل وعداً ، ووعيداً في طي إزالتها للتوجس من وقوع العقاب بالمسيء .

وفي الآية الثالثة : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ...مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ يلحظ القارئ والمتأمل أن بها جملتين شرطيتين ، كان الشرط فيهما فعلاً ماضياً (جاء) وهو بمعنى المضارع ؛ فالآيات الثلاث كلها حديث عن المستقبل ، وقد بدأت الأولى منها بصيغة المضارع (ويوم ينفخ) ، وما جاء بعد ذلك بصيغة الماضي فهو مستقبل معنى إلاّ الفعل (أتقن) وإنما كان ذلك للإيماء إلى أن الأحداث التي تتضمنها متحققة الوقوع كما سبق بيانه ونقل ما يؤكد ذلك عن الزمخشري.

وجاء لفظ الحسنة والسيئة معرفاً بأل ، ورأى أكثر المفسرين أن المراد بالحسنة كلمة الإيمان (لا إله إلا الله) ، وبالسيئة كلمة الكفر . وعلى ذلك فأل هنا للعهد ، وقد

---

(١) الفتوحات الإلهية : (٥ / ٤٦٧) .

(٢) تفسير الجلالين على هامش الفتوحات الإلهية (٥ / ٤٦٥) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ترتب على هذا أن لفظ (خير) معناه (ثواب) ليس أفعل تفضيل ، ومن ثم فإن حرف الجر (من) ليس للبيان بل هو للسببية .

والمعنى – على هذا – من جاء بلا إله إلا الله فله ثواب بسببها ، ورأى بعض أهل العلم أن لفظ (خير) أفعل تفضيل ، وعليه تكون (أل) في الحسنة والسيئة للجنس الذي يراد به كل حسنة وكل سيئة . ويكون معنى الجملة : (من جاء بالحسنة أياً كانت فله جزاء أفضل منها) . وقد أورد الزمخشري الرأيين مقدماً الثاني على الأول فقال: "﴿ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا ﴾ يريد الإِضْعَاف وأن العمل ينقضي والثواب يدوم ، وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد . وقيل : ﴿ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا ﴾ أي: له خير حاصل من جهتها وهو الجنة"[(١)] .

وهذا يعني أن لفظ (خير) يجوز أن يكون أفعل تفضيل فيكون المراد المضاعفة في الجزاء ، وتكون (أل) للجنس المفيد للاستغراق كما في قوله - تعالى - : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا ﴾ وبهذا المعنى أخذ الخازن في تفسيره حيث قال : " الحسنة كل طاعة عملها لله تعالى " [(٢)] . ويجوز أن لا يكون اسم تفضيل فيكون بمعنى الثواب على نحو ما سبق بيانه ، ومن ثم فإن (أل) تكون للعهد .

وهنا ينبغي الالتفات إلى ما في جملة الشرط ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ ﴾ من الإيجاز بحذف جواب الشرط ، والقرينة الدالة عليه العطف بالفاء [(٣)] ؛ والتقدير: ومن جاء بالسيئة جوزوا بأسوأ منها فكبت وجوههم ، وفي حذف الجواب معاجلة المتلقي بمعرفة الجزاء نفسه لا الحكم عليه بأنه أسوأ ، فإن الجزاء نفسه ينبئ بوصفه وفي ذلك من التنفير من التلبس بالسيئة ما فيه .

فإذا وصل المطاف بالقارئ إلى النظر في العبارة التي تضم الآيات الثلاث ألفى الترابط فيها قائماً على الربط اللفظي بالواو أو الفاء ، وعلى الرابط المعنوي حيث لا

---

(١) الكشاف (٧٩٢) .

(٢) الفتوحات الإلهية نقلاً عن الخازن (٥ / ٤٧٠) .

(٣) من المعروف أن الفاء لا تدخل على جواب الشرط إذا كان الجواب يصلح أن يكون شرطاً ، والماضي المتصرف يصلح أن يكون شرطاً مثل : (إن جاء زيد قام عمرو) ، ولا يخفى أن الفعل (كُبَّ) يصلح أن يكون شرطاً ومن ثم لو كان جواب لما دخلت عليه الفاء .

ـ ينظر : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٤ / ٣٧-٣٨) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

توجد أي منهما .

فجملة ﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ موصولة بجملة ﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوۡجًا ﴾ وقد سبقت الإشارة إلى ذلك ، وإنما وصلت بالواو ؛ لأن الغرض التشريك في الحكم الإعرابي ؛ وهو النصب بفعل محذوف تقديره : (اذكر) وهي بذلك في حكم وصل المفرد بالمفرد ، وجملة ﴿ فَفَزِعَ ﴾ وصلت بجملة ﴿ يُنفَخُ ﴾ وقامت الفاء بذلك الوصل ؛ لأن الغرض حصول الفزع عقب النفخ مباشرة ودون تراخ ، وجملة قوله : ﴿ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ ﴾ وصلت بجملة ﴿ فَفَزِعَ ﴾ وكان الوصل بالواو لأن الإتيان حاصل بعد الفزع ، ومترتب عليه وإن لم يكن عقبه إذ هو بعد النفخة الثانية التي يبعثون بعدها من قبورهم ، أما جملة ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ ... ﴾ فهي مرتبطة بجملة ينفخ ؛ لتعلقها بالظرف (يوم) ففي هذا اليوم يحصل النفخ وما يترتب عليه ، ورؤية الجبال حال حسبانها جامدة وحال كونها تمر مر السحاب فإذا نظر إلى جملة ﴿ صُنۡعَ ٱللَّهِ ﴾ تبين أنها مرتبطة بجملة ﴿ فَزِعَ ﴾ وما بعدها إلى قوله: ﴿ دَٰخِرِينَ ﴾ ارتباطاً معنوياً ؛ إذ هي مؤكدة لمضمونها كما سلف ومن ثم لم توصل بها وصلاً لفظياً عن طريق الواو . أعني أنها فصلت عما قبلها لكونها مؤكدة لها تأكيداً معنوياً . وكذلك الحال في جملة : ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴾ ، حيث فصلت عما قبلها لكونها استئنافاً بيانياً إذ هي جواب عن سؤال تقديره : ماذا يكون شأننا يوم ذاك ؟ ، وجاءت الجملتان في الآية الثالثة وكأنها تفصيل للإجمال في جملة : ﴿ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴾ ، ومن ثم فصلتا عنها ، ومع فصلهما وصلت الثانية منهما بالأولى لكونهما خبريتين لفظاً ومعنى فيهما توسط بين الكمالين ، وقد عقبت هذه الجملة الثانية بجملة هي مقول القول الواقع حالاً منها ، وهذه الحال محذوفة ، والتقدير : (فكبت وجوههم في النار مقولاً لهم هل تجزون إلا ما كنتم تعملون)، وقد حذفت الحال ؛ لأن الغرض ما يقال لا القول ؛ لأن فيما يقال التبكيت والتهكم .

والنظر إلى جملة الاستفهام على أنها مقول القول المحذوف هو الأقرب إلى الصواب ، وعليه فليس في الخطاب بقوله : (هل تجزون) التفات ، كما رأى ذلك بعض أهل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العلم[١]. على أن الزمخشري ذكر الوجهين فقال :" ﴿ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ ﴾ يجوز فيه الالتفات، وحكاية ما يقال لهم عن الكب بإضمار القول " [٢] ، وهذا الوجه الثاني هو الذي آثره الجلال المحلي حيث قدر المحذوف بالفعل (يقال) ، وعقب عليه الشيخ الجمل بقوله : " ولو قال : (مقولاً لهم ... إلخ) لكان أوضح ؛ لأن قوله: ﴿ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ ﴾ في محل نصب على الحال من الهاء في وجوههم أي: كبت وجوههم في حال كونهم مقولاً لهم "[٣].

وفي قوله : ﴿ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا ﴾ على تقدير أن (أل) للعهد ، وما يترتب عليه من اعتبار لفظ (خير) ليس اسم تفضيل استعارة تبعية في الحرف (من) حيث فسرت بأنها سببية أي : فله خير بسببها – كما قيل – بأن شبهت الحسنة بالعلة المؤثرة في حدوث الشيء ، وسرى التشبيه بجامع مطلق الترتب ، فسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات، واستعيرت من جزئي من جزئيات المشبه به لجزئي من جزئيات المشبه على سبيل الاستعارة التبعية ، وفي هذه الاستعارة تصوير الحسنة في صورة الأصل أو المصدر الذي يحصل للمحسنين منه أو بسببه الخير الكثير .

وفي التعبير بلفظ الوجوه في قوله : (فكبت وجوههم) مجاز مرسل علاقته الجزئية والأصل (فكبوا في النار) ، وأوثر هذا الجزء ؛ لأنه مكان الشرف في الإنسان فإذا كُبَّ هذا الجزء في النار كان الهوان الذي لا هوان بعده .

وفي قوله- تعالى-: ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ ﴾ تشبيه رائع بديع يُسمى بالتشبيه البليغ حُذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغا والأصل في الكلام : تمر مرورا سريعا ، كمر السحاب في مشيته وحركته السريعة ، وفي الآية إشارة رائعة إلى حركة الأرض ودورانها ، وهو سبق علمي فريد ، لم يعرفه البشر إلا في هذا العصر [٤].

هذا ، ولا تخفى المقابلة بين الحسنة وما يترتب عليها من الثواب ، والسيئة وما يترتب عليها من العقاب .

---

(١) ينظر : روح المعاني للألوسي (٧ / ٢٤٧) .
(٢) الكشاف للزمخشري (٧٩٢) .
(٣) الفتوحات الإلهية : (٥ / ٤٧١) وينظر الجلال المحلي بالهامش .
(٤) ينظر: الإبداع البياني للصابوني(٢٣٥-٢٣٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما جاء فيه لفظ الإساءة في سياق التنفير منها، والبراءة من المتصفين بها قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [غافر:٥٦- ٥٨]

بين الله – تعالى – في هذه الآيات جدال الكافرين ومعارضتهم للدعوة الإسلامية وكفرهم بها ، ولما كانت مجادلتهم في آيات الله مشتملة على إنكار البعث وهو أصل المجادلة ومدارها حجوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها ، فإن من قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر.

وقد دأب القرآن الكريم على أن يضرب الأمثال لإبراز الحقائق حتى تستقر في القلوب والوجدان ، يقول الله - عز وجل- مميزاً بين المؤمن والكافر ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴾ أي : وما يستوي المؤمن الذي يؤمن عن يقين وإدراك ، والجاهل الغافل الذي يرد آيات الله الدالة على قدرته وينكرها، فالذي يعمل هذا العمل هو أعمى لا يرى نور الإيمان وإن كانت له عين جارحة فهو قد عطلها عن البصر[1]﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج :٤٦].

ثم قال الله - تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ ﴾ [غافر:٥٨] ، فالمراد بالأول كما قال الإمام الرازي : التفاوت بين العالم والجاهل والمراد بالثاني : التفاوت بين الآتي بالأعمال الصالحة ، وبين الآتي بالأعمال الفاسدة الباطلة .

ثم قال : ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعني أنهم وإن كانوا يعلمون أن العلم خير من الجهل وأن العمل الصالح خير من العمل الفاسد إلا أنه قليلاً ما يتذكرون ، فبين في النوع

---

(١) ينظر : الكشاف للزمخشري (٩٦٠) : جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (١١ / ٧٢) ، المحرر الوجيز لابن عطية (٤ / ٥٦٥) ، فتح القدير للشوكاني (٥٦٩/٤) ، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي (٧٣/١٧) ، البحر المحيط لأبي حيّان (٤٥٠/٧) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢١١/١٥) ، التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢٤ / ١٧٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأول المعنى من الاعتقاد أنه علم أو جهل ، وفي النوع الثاني المعنى من العمل أنه عمل صالح أو فاسد ، فإن الحسد يعمي قلوبهم فيعتقدون في الجهل والتقليد أنه محض المعرفة وفي الحسد والحقد والكبر أنه محض الطاعة (١) .

ومن أسرار الكلمات في هذه الآيات الشريفة :

تبدو كلمات هذه الآيات واضحة المعنى لأول وهلة بحيث لا يحتاج المتلقي إلى مراجعة معجم لغوي ، وهي إلى ذلك سهلة تجري على اللسان في سهولة ويسر ، وجارية على المسموع من العرب الفصحاء غير أن هاهنا كلمات يحتاج القارئ إلى إعادة النظر في إيرادها هنا . وهذه هي :

استخدام الفعل (يجادلون) دون ما هو بمعناه وهو يعارضون أو يكذبون ، فمن المعروف أن أولئك القوم لم يكن منهم تسليم بأن هذا القرآن هو كلام الله ، بل قالوا مرة أنه شعر فاض به لسان محمد ، وأخرى أنه سحر ، وثالثة أنه : ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان:٥] ،وكذلك قالوا : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ ﴾ [النحل : ١٠٣] ،وكان الرد على هذا الزعم : ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴾ [النحل ١٠٣] ،ثم انتهى بهم المطاف إلى القول : ﴿ لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال:٣١] .

فكان إيثار لفظ المجادلة على ما هو بمعناه ؛ للإيماء إلى رغبة عارمة في الغلبة: " فالجدال المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة ... من جدلت الحبل أي: أحكمت فتله.. فكأن المتجادلين يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه ، وقيل الأصل في الجدال الصّراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الْجَدَالَة وهي الأرض الصلبة " (٢)

وإيثار اللفظ (سلطان) دون البرهان أو الحجة ؛ لما تشير إليه مادته من القوة والتمكن ، وهذا ما بينه الراغب الأصفهاني حيث قال : " سلط : السَّلَاطَةُ التمكن من القهر . قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ ﴾...، ومنه سمي السَّلْطانُ ، والسُّلْطانُ ، يقال في السَّلاطة نحو: ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا ﴾[الإسراء:٣٣]"(٣)

---

(١) ينظر : مفاتيح الغيب للرازي (٧٩/٢٧) .

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني كتاب الجيم مادة (جدل) (٩٧) .

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني -كتاب السين مادة (سلط) (٢٤٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وليس في مادة البرهان ، أو الحجة ما يشير إلى ذلك ، فقد تقوم الحجة على الخصم ولا يستسلم ، لافتقاد صاحبها القوة التي تمكنه من قهره والغلبة عليه.

ومجيء لفظ (الكبر) في هذا السياق لافت إلى هوان المجادلين أو المكذبين ؛ ذلك أن مادة هذا اللفظ (ك ب ر) تشير إلى الزيادة في الشيء حجماً أو عدداً ، والأصل فيه أن يستعمل في الأعيان ، ثم استعير للمعاني ، ومنه ما أعتبر فيه الزمان ... نحو قولـــه : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

ومنه ما أعتبر فيه المنزلة والرفعة حقيقة نحو قوله:﴿ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ أو إدعاء نحـــو : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ ﴾ [الأنبياء: ٥٨] ،فسماه كبيراً بحسب اعتقادهم لا لقدر ورفعة له على الحقيقة ... ، والكبر : الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره ، وعندما يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره دون أن يكون ذلك واقعاً يُسمى تكبراً ، أي: إدعاء الكبر ؛ لأنه يظهر من نفسه ما ليس له [(١)]، وما دام الإدعاء قائماً بغير استناد إلى الواقع فإن ذلك يشير إلى هوان المتكبر ، ومن ثم كان استخدام هذا اللفظ في هذا السياق إيماء إلى هوان المجادلين الذين يبغون الغلبة مع افتقاد أسبابها .

واستخدام لفظ (الأعمى) هنا يثير اهتمام من يمعن النظر ؛ فمجيء الوصف علـــى صيغة (أفعل) يشير إلى أن التغافل عن إدراك الحق بلغ أقصى مداه وإن لم يكن (أفعل) دالاً على التفضيل ، فصياغة الوصف على وزن أفعل مما دل على عيب أو حليـــة نحـــو: (أعرج ، وأعمش ، وأدعج ، وأغيد) لم تكن أمراً اعتباطياً ، بل كـــان فيهـــا مراعـــاة المناسبة بين اللفظ ومعناه ، فالعرج يمنع صاحبه بقوة من سلاسة المشي بل ويحجبه – تماماً – عن الجري ، والعمش يمنع إصابة من دقة الرؤية ، والدعج شدة سواد في شدة بياض ، والغيد شدة نعومة الجلد ، وعليه : فإن العمى يمنع صاحبه تماماً من الرؤية ، ولأن شـــدة انعدام الرؤية مقصود جيء بلفظ الأعمى ، وقوبل ذلك بلفظ (البصير) مؤثر فيه صيغة (فعيل) دون صيغة (فاعل) ، إذ لم يقل : (الباصر) ؛ لأن قوة إدراك الحـــق مقـــصود إليها .

ومن حيث النظم ففي جملة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾[غافر: ٥٦] ،

---

(١) ينظر : المفردات في غريب القرآن للأصفهاني _ كتاب الكاف _ مادة (كبر) (٤٢٣-٤٢٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تقييد المجادلة بقوله :﴿ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ مع استحالة إتيانه ؛للإيذان بأن المتكلم في أمر الدين لابد من استناده إلى سلطان مبين البتة ، وهذا عام لكل مجادل مبطلٍ وإن نزل في مشركي مكة ، وفائدة هذا القيد تشنيع مجادلتهم وزيادة تفظيعها بأنها عرية عن حجة لديهم فهم يجادلون بما ليس لهم به علم (١) .

وفي قوله - تعالى - ﴿ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ أي: ما في صدورهم إلا كبر و(إنْ) نافيه ، والاستثناء مفرغ ، وقد أثبت لهم الكبر بطريق القصر، وطريقته النفي والاستثناء ، وهو من قصر الموصوف على الصفة . " لنفي أن يكون داعيهم إلى المجادلة شيء آخر غير الكِبْر على وجه مؤكد ، فإن القصر تأكيد على تأكيد لما يتضمنه من إثبات الشيء بوجه مخصوص مؤكد ، ومن نفي ما عداه فتضمن جملتين " (٢) .

وتنكير "كِبْر" للتعظيم ، أي كبر شديد بتعدد أنواعه ، وتمكنه من نفوسهم ، وقد نُفي أن يبلغوا مرادهم في قوله - تعالى - : ﴿ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ﴾ بصوغه في قالب الجملة الاسمية؛ لإفادتها ثبات مدلولها ودوامه (٣) .

وفي قوله - تعالى- : ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ الفاء للتفريع ، وقد حذف متعلق "استعذ" لقصد تعميم الاستعاذة من كل ما يخاف منه ، وفيه رمز إلى أنه من همزات الشياطين(٤).

وجملة ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١] " تعليل للأمر بالدوام على الاستعاذة ، أي لأنه المطلع على أقوالهم وأعمالهم ، وأنت لا تحيط علماً بتصاريف مكرهم وكيدهم " (٥) .

وجاءت الجملة مؤكدة بـ (إنَّ) ، والحصر بضمير الفصل، وقد أفادت التعريض بالمتحدث عنهم، وهم الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان ، والمعنى : أنه القادر على إبطال ما يصنعونه لا أنت ، فكيف يتم لهم ما أضمروه لك ؟ (٦) .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٧]

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٤٢٤/٥) ، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٣/١١) .
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧٣/١١) .
(٣) ينظر: السابق .
(٤) ينظر: السابق (١٧٥/١١) تفسير أبي السعود (٤٢٥/٥) .
(٥) التحرير والتنوير (١٧٥/١١) .
(٦) ينظر: التحرير والتنوير (١٧٥/١١) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خروج الكلام بخلاف مقتضى الظاهر، فأظهر لفظ (الناس) مع أن مقتضى الظاهر هو الإضمار ، لتكون الجملة مستقلة بالدلالة فتصلح لأن تسير مسير الأمثال (١) .

وفي قوله - تعالى - :﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ [فاطر:٥٧] قدَّم ذكر الأعمى على ذكر البصير مع أن البصر أشرف من العمى ، والمشبه بالبصير أشرف من المشبه بالأعمى إذ المشبه بالبصير المؤمنون ، فقد ذكر تشبيه الكافرين مراعاة لكون الأهم في المقام بيان حال الذين يجادلون في الآيات إذ هم المقصود بالموعظة ، ولأنه يناسب ما قبله أيضاً (٢) .

وقدم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ على ﴿ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ ؛لمجاورتهم البصير ، ولشرفهم على أهل الإساءة الذين أغضبوا مولاهم ، ومثواهم النار وبئس القرار ، وكما قال ابن عاشور : "فإنما رتب فيه ذكر الفريقين على عكس ترتيبه في التشبيه بالأعمى والبصير اهتماماً بشرف المؤمنين" (٣).

والمعاني هي التي تنتظم أولاً ، ثم تكون عليها التراكيب بحسب الترتيب فيها ، فتركيب المباني على ترتيب المعاني كما صرّح بذلك الإمام عبد القاهر في موضعه (٤)، ولذا تجد في القرآن الكريم طرائق في هذا الترتيب، ولا يكون ذلك إلا لأسرار بلاغية يستدعيها المقام ، ولا يستغني عنها صاحب البيان ، والقرآن أعلى درجات البلاغة في هذا الميدان .

وقال - جل في علاه -: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ﴾ جملة خبرية غير مؤكدة بمؤكد لخلو ذهن المخاطبين ليدلل على إثبات البعث بعد الموت ، لأنه إذا لم يستو العالم والجاهل ، والكافر والمؤمن ، والظالم والمظلوم ، فلابد من يوم يجمع الله – تعالى - فيه عباده ليحكم بين الناس بعدله ، ويقيم الميزان بالقسط بين الناس ، ويجازي فيه كل امرئ بما قدم وأخر، هذا هو سر عدم المساواة بين ما ذكر ، لمن أراد أن يتذكر كما قال في الختام : ﴿ قَلِيلًا

---

(١) ينظر: السابق (١١/١٧٧) .

(٢) ينظر: السابق (١١/١٧٨) ، روح المعاني للألوسي (١٨/١١٦) .

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (١١/١٧٨) .

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز " التقديم " ت / محمود شاكر (١٠٦) ط الخانجي – الثالثة ، ودراسات بلاغية د/ بسيوني فيود (٤٩) وما بعدها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

ونفي الاستواء بينهما يقتضي تفضيل أحدهما على الآخر ، ونفي الاستواء بدون متعلق يقتضي العموم في متعلقاته ، لكنه هنا يخص بالمتعلقات التي يدل عليها سياق الكلام وهي آيات الله ودلائل صفاته ، ويُسمى هذا العموم العموم العرفي (١) .

وفي الآية "التفات" في قوله - تعالى - : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ بتاء الخطاب ، وكأن الكلام أولاً يجري على الغيبة ، وهذا اللون ينشط الذهن ويقوي في النفس داعية الفكر والفهم عن الله خصوصاً في مثل هذا المقام ، فالمقصود التوبيخ والإنكار البليغ ، فهذا الالتفات يؤكد المعنى بحيث يؤدي المقصود بأسمى آيات البيان .

ولماذا أُعيدت " لا " النافية في ﴿ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ ﴾ ؟

والجواب : للتذكير بالنفي بعد طول كلام ، فقد طالت الصلة ، فربما ضعف الاعتماد على النفي الأول فذكر " لا " ثانياً ؛ لإفادة تقوية النفي ، وربما ظن أن الكلام قد انتهى عند قوله : ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ ، ويبدأ الكلام ﴿ ٱلْمُسِيٓءُ ﴾ ، وبذلك يختل النظام ويضيع المعنى فذكر " لا " لدفع هذا الإيهام (٢) .

وقوله- تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ الآية " استئناف ابتدائي ، وهو كالتكرير لجملة ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَـٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [غافر:٣٥] تكرير تعداد ؛ للتوبيخ عند تنهية غرض الاستدلال كما يوقَّف الموبخ المرة بعد المرة " (٣).

ولو قلت : كيف اتصل قوله : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ ﴾ [غافر:٥٧] بما قبله ؟ أجاب على ذلك الزمخشري بقوله : " قلت: إن مجادلتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث، وهو أصل المجادلة ومدارها، فحجوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها بأنها خلق عظيم لا يقادر قدره، وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين، فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١١/١٧٧) .
(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي (١٨/١١٦) ، نظم الدرر (٧/٣٣٣) .
(٣) التحرير والتنوير (١١/١٧٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أقدر، وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله" [(١)] .

ووصل جملة ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ هو عطف الموصول بما عُطف عليه على الأعمى والبصير؛ لتغاير الوصفين في المقصود ، أو الدلالة بالصراحة والتمثيل[(٢)] ، والواو عطفت جملة على جملة بتقدير : وما يستوي الذين آمنوا .

والوصل في قوله : ﴿ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ ﴾ الواو عاطفة على ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ من عطف المفرد على المفرد .

ومن الإطناب ما ذكر سابقاً من تكرار النفي في قوله : ﴿ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ ﴾ ، وكان العطف مغنياً عنه، فإعادته هنا لإفادة تأكيد نفي المساواة، ولأن مقام التوبيخ يقتضي الإطناب .

كذلك في قوله – تعالى - : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓءُ ﴾ [غافر:٥٨] إطناب لزيادة بيان فضيلة أهل الإيمان بذكر فضيلتهم في أعمالهم بعد ذكر فضلهم في إدراك أدلة إمكان البعث ونحوه من أدلة الإيمان ، وفيه إيماء إلى اختلاف جزاء الفريقين، وهذا الإيماء إدماج للتنبيه على الثواب والعقاب [(٣)].

ومن الصور البيانية في هذه الآيات ما جاء في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ [فاطر:١٩] شبه الكافر بالأعمى بجامع عدم الاهتداء في كل ؛ لأن كل منهما لا يرى الطريق ، وبعد الحذف، والتناسي، والإدعاء ، اُستعير العمى للكافر على سبيل الاستعارة التصريحية [(٤)] الأصلية، والقرينة، حالية ، وكذلك شبه المؤمن بالبصير بجامع الاهتداء في كل ، وبعد الحذف والتناسي والادعاء ، اُستعير البصير

---

(١) الكشاف للزمخشري (٩٦٠) .

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٥/٤٢٥) .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١١/١٧٧- ١٧٨) .

(٤) الاستعارة التصريحية: وهي ما صُرِّحَ فيها بلفظ المشبه به (المستعار منه)، وما حذف فيها المشبه (المستعار له)، أو ما اُستعير فيها لفظ المشبه به للمشبه ، وهي على ضربين تخييلية ، وتحقيقية .

التحقيقية : هي أن يكون المتروك شيئا محسوسا كقولك : (رأيت أسداً يرمي).

التخييلية : هي أن يكون المتروك شيئا متوهما محضا كما إذا شبهت المنية بالسبع في اغتيال النفوس بالقهر والغلبة من غير تفرقة تشبيها بليغا كأنها هو، ثم تتوهم للمشبه مابه قوام المشبه به من لوازمه المناسبة كالأنياب ،ثم تشبه هذا المتوهم بمثله من المحقق ، ثم تطلق اسم المحقق على المتوهم ثم تضيفه إلى المشبه الأول لتكون قرينة مانعة كما تقول: (أنياب المنية الشبيهة بالسبع نشبت بفلان).

ينظر: معجم البلاغة العربية (٣٣٩) ، التبيان (٢٣٢-٢٣٣) ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للمؤمن على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية والقرينة حالية .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ ﴾ [غافر:٥٨] تشبيه ضمني، حيث شبه المسيء بالأعمى والذين آمنوا بالبصير، وإنما كان التشبيه ضمنياً ؛ لأنه لم يذكر التشبيه صريحاً على صورة من صوره المعروفة ، وهي أن تذكر أداة التشبيه، ويذكر المشبه والمشبه به فيقال : المسيء كالأعمى ، والمؤمن كالبصير، أو يكون المشبه به خبراً عن المشبه أو في حكم الخبر بأن يقال: المسيء أعمى ، والمؤمن بصير .

وأن يجيء التشبيه لا على صورته الأصلية من الإخبار بثبوت المشابهة بين الطرفين صراحة ، وإنما على صورة دعوى ودليلها ، فيلمح التشبيه من التركيب مع خلوه من الأداة لفظاً وتقديراً ، وقد تقدم الدليل على الدعوى نحو قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر:٥٨] ، فقد ذكر الإمام البيضاوي والشهاب الخفاجي أن عدم مساواة الأعمى والبصير مشبه به سِيْق توطئة ؛ لعدم مساواة المؤمن المحسن والكافر المسيء، وهما المشبه، وجاز العطف بين المشبه به والمشبه نظراً لتغاير الوصفين بين المشبه به والمشبه بقطع النظر عن اتحاد الذوات وعدم اتحادها، فتغاير الصفات كتغاير الذوات في صحة التعاطف بينها (١) .

ومن ألوان البديع في هذه الآية الكريمة الاحتباك : لأنه كما قال البقاعي : " ذكر عمل الصالحات أولاً دليلاً على ضدها ثانياً ، والمسيء ثانياً دليلاً على المحسنين أولاً ، وسره أنه ذكر الصلاح ترغيباً والإساءة ترهيباً " (٢) .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ طباق إيجاب ، وسره أن ذكر أحداهما يذكر بالآخر ، فإذا ذكر كان أثبت في النفس بعد التوطئة له بذكر ضده، وكما قالوا : "وبضدها تتميز الأشياء"، وكذلك الحال في الطباق بين: ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) ينظر : تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب عليه ، مج(٧) (٣٧٨، ٣٧٩) مطبعة بولاق ، وعلم البيان دراسة ميسرة لفنونه وصلتها بالرمز د . عبد الموجود متولي، وبيان التشبيه - دراسة تاريخية فنية للدكتور عبد الحميد العيسوي (٢٠٤، ٢٠٥) .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣٣٣/٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

وكذلك في قوله – تعـــالى -: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ ﴾ طباق خفي معنوي، ومعناه ذكر المعنى وما يتعلق بما يقابله ؛ فالمسيء ضده المحسن ، ولم يذكر بلفظه وإنما ذكر ما يتعلق بأهل الإحسان وهو الإيمان والعمل الصالح ، فهذا طباق خفي يدعو النفس إلى التأمل في ذكر هذا المتعلق ، لأن أهل الإحسان لم يعرفوا بإحسانهم إلا عن طريق الإيمان وصالح الأعمال، فذكروا بهذا الوصف المعروف فيهم .

وهناك جناس غير تام بين﴿ أَكۡبَرُ ﴾ و ﴿ أَكۡثَرَ ﴾ نوعه جناس مضارع(١) ؛ وذلك لاختلافهما بحرف واحد مع تقارب المخرج ، ولا يخفى سره الجمالي في تحريك الأذهان بين المعاني حيث الكلمات متشابهة ، وغير ذلك من اللمسات الفنية الجميلة في إبراز المعاني في حلل من المباني التي تحس في النفس، وتروق للذهن، وتريح الفؤاد، وبذلك يكون المعنى في النفس داخلاً مأنوسًا ليتمكن أي تمكن .

---

(١) الجناس المضارع : هو من أنواع الجناس غير التام ومعناه: أن يختلف اللفظان المتجانسان بحرف واحد مع تقارب المخرج كقول الرسول- ﷺ - : (الخيل معقود بنواصيها الخير) .
ينظر: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان (٤٨٣)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث

بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة في سياق الجزاء وعدا ووعيدا وعدلا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث

بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة في سياق الجزاء وعداً ووعيداً وعدلاً

يتناول هذا الفصل الحديث عن بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة في سياق الجزاء وعداً، ووعيداً، وعدلاً .. وسوف أحاول جاهدة جمع ما ورد في القرآن من آيات جاء فيها لفظ الإساءة في نطاق هذا السياق، وتحليلها تحليلاً بلاغياً، وتسليط الضوء على أسرارها البلاغية مستعينة بالله راجية منه التوفيق .

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الإساءة في سياق الجزاء وعيداً وعدلا في سورة البقرة قوله- تعالى-:

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة : ٨١]

نزلت هذه الآية الكريمة -كما قال المفسرون - عندما قدم رسول الله - ﷺ - المدينة ويهود تقول : إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما يعذب الناس بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوما واحدا في النار من أيام الآخرة، فإنما هي سبعة أيام ،ثم ينقطع العذاب، فأنزل الله في ذلك: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ...﴾ إلى قوله - تعالى - : ﴿ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ الآية .

وقال اليهود : " لن ندخل النار إلا تحلة القسم ، الأيام التي عبدنا فيها العجل أربعين ليلة ، فإذا انقضت انقطع عنا العذاب " فنزلت هذة الآية (١) .

بينت هذه الآية المباركة حالاً من أحوال الكافرين والمشركين ، وأرشدت إلى إبطال مدعاهم، وأثبتت ما نفوه على وجه يشملهم، ويشمل جميع من يقول قولهم، ويكفر كفرهم، وهذا بيان من الله - تعالى - في قاعدة العقاب عندما رد على قولهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ ، فقال : ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ .

---

(١) ينظر: لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (١٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنها قاعدة واحدة في العقوبة والمثوبة، يمثل طرفها الأول قوله - تعالى-: ﴿ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ ، فهو حبيس هذه الخطيئة المحيطة، في معزل عن كل وجهة إلا وجهة الخطيئة، ويمثل طرفها الثاني قوله - تعالى-: ﴿ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ ﴾، فأخلص ذاته كلها لله، في مقابل خلوص الآخر للخطيئة، ﴿ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ ﴾ .

والمراد بالسيئة هنا الشرك بالله كما قال جمهور المفسرين؛ لورود الآثار عن السلف بذلك، وفائدة الإتيان بقوله - تعالى-: ﴿ وَأَحَـٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ بعد ذلك، الإشعار بأن الخطيئة إذا أحاطت بصاحبها أخذت بمجامع قلبه فحرمته الإيمان، وأخذت بلسانه فمنعته النطق به.

وهذه الآية رَدٌّ على من زعم من اليهود أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة بقدر عبادة العجل، بعد الرد الوارد في الآية السابقة: ﴿ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا ﴾ أي: بذلك، ﴿ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ ، ثم يقول سبحانه: ﴿ بَلَىٰ ﴾ أي: ستدخلون النار خالدين فيها أبدًا بما كنتم تكسبون، وقد أحاطت بكم ألوان ذنوبكم التي اقترفتموها على الكفر بالله ورسله، ففي الآية وعيد لهم، ووعد لمن آمن وعمل صالحًا كما ورد في الآية التالية [(١)] .

﴿ بَلَىٰ ﴾: حرف جواب للإثبات بعد النفي المتقدم غالبًا، سواء دخله الاستفهام أم لا، وقد تقع جوابًا لاستفهام إثبات؛ كما في قوله ﷺ للذي سأله عن عطية أولاده: «أتحب أن تساوي بين أولادك في البر؟»[(٢)]، قال: بلى، وأرى أن الكلام فيه نفي في المعنى، داخل على الفعل بعد همزة الاستفهام على تقدير «ألا تحب أن تساوي...» الحديث، والعرب كانوا يفقهون الكلام من مقاماته، فالأصل دخول «بلى» في كلام

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (٤٣١/١)، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١٥٧/١)، المحرر الوجيز لابن عطية (١٧١/١)، معالم التنزيل للبغوي (٨٩/١)، مفاتيح الغيب للرازي (١٣٢/٣)، مدارك التنزيل للنسفي (٦٦/١)، البحر المحيط لأبي حيان (٤٤٥/١)، الدر المصون للسمين الحلبي (٢٧٣/١)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي(٢١٦/٢)، فتح القدير للشوكاني (١٢٤/١)، تفسير القاسمي (١٧٦/٢)، التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (٥٨٠/١٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٤٣/٣)، كتاب الهبات، باب: كراهة تفضيل بعض الأولاد (١٦٢٣)،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لإثبات ما كان قد نفي قبلها، ويفهم هذا من قوله - تعالى - : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وهذه الكلمة: «بلى» بخلاف «نَعَم، وجَيْرِ، وأَجَل»؛ فإنها حروف جواب[١] لتقرير ما قبلها، وقد جعل الإمام ابن عاشور هذه الكلمة: «بلى» للإبطال، حيث قال: «وقوله: ﴿ بَلَىٰ ﴾ ، إبطال لقولهم: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة»[٢].

وسيأتي لها في بيان أسرار التركيب كلام للعلماء بإذن الله.

﴿ مَن ﴾: بفتح الميم تكون موصولة، وتكون شرطية، والاحتمالان قائمان، وبعضهم استحسن الموصولة كالألوسي[٣]، ودخول «الفاء» في الخبر تشبيه له بجواب الشرط؛ لأن «من» تحتمل الشرطية، قال الألوسي -رحمه الله-: «ويحسِّن الموصولية مجيء الموصول في قسيمه»[٤]، أي: ما ورد في قوله - تعالى - بعدها: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٨٢] ، فهذا دليل الاستحسان من القرآن، وأكرِمْ به من دليل.

﴿ كَسَبَ ﴾: تكون حقيقة في الخير[٥]، وتستعمل في الشر بطريق التهكم؛ على حد قوله - تعالى-: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١] ، وأصلها من «كسب مالاً» أي: صار له مكسبة، ثم نقل اللفظ «كسب» إلى كل أمر معنوي ونحوه آل إلى الإنسان وصار نافعًا له.

﴿ سَيِّئَةً ﴾: مضى تفسيرها من قبل، وهي: كل ما يسيء إلى الإنسان عاجلًا أو آجلاً، ولكن السياق هنا يفيد أنها «الكفر»؛ لأنها سيئة استحق فاعلها الخلود في النار، والتي تكون كذلك هي سيئة الكفران؛ فإنها التي تخلِّد صاحبها في النيران[٦]، والعياذ بالله تعالى.

﴿ وَأَحَٰطَتْ ﴾: هذا الفعل مأخوذ من الأمر الحسي، كأن تقول: أحاط به العدو،

---

(١) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي (١/١٣١، ١٣٢)، اللباب، لابن عادل (١/٥٨٠).
(٢) التحرير والتنوير (١/٥٨٠).
(٣) ينظر: روح المعاني (١/٣٨٦).
(٤) السابق.
(٥) ينظر: مختار الصحاح (كسب) (٢٦١) ، أساس البلاغة (كسب) ، المفردات للراغب (٤٣٣) .
(٦) ينظر: روح المعاني (١٠/٣٨٥)، نظم الدرر، للبقاعي (١/١٣٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أي: طوقه من جميع جوانبه، فلا منفذ له، ثم نقل إلى الأمر المعنوي، فيقال: أحاط به علمًا: أتى على أقصى معرفته، وما فيه من معلوم، أي: من جميع وجوهه؛ كقولهم: قتله علمًا وبحثًا[1].

وعلى هذا يكون ﴿وَأَحَـٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾: لم تترك له جانب خيرٍ قط؛ ولذا كانت «الكفرانَ»، فالخطيئة بمعنى: السيئة المتقدمة، إلا أن تغيير اللفظ لبيان أن اللفظين في إطار واحد من المعنى المراد، وأضيفت الخطيئة إليه؛ لإفادة أن خطأه الذي صار حوله مطوقًا له إنما هو منه وإليه، وإثمه على نفسه، وذلك حكم الله فيه، ولا راد لقضائه.

﴿خَـٰلِدُونَ﴾: دائمون بلا انقطاع في السعير والأغلال؛ بسبب خطيئاتهم التي أحاطت بهم، فكل كفر - والعياذ بالله - يجعل صاحبه في دائرة المعاصي والسيئات لا يخرج منها إلا بالإيمان والإسلام لله رب العالمين، فإذا لم يكن كذلك فهو من أهل النار الخالدين فيها أبدًا، وبئس مثوى الكافرين.

ومن هنا يُلْحَظُ أن الإحاطة في هذا السياق تفيد الشمول، وعموم الظاهر والباطن، فإنها إذا طوقت العبد شمله السوء، واستولى عليه في قلبه، وبدنه، وقوله، وعمله آناء الليل وأطراف النهار، وهذا معنًى سيكون له أثره وأسراره في نظم الكلام.

وفي ختام الآية قصر لهؤلاء على الخلود في النار بطريق التعريف بضمير الفصل، وهو قصر إضافي لقلب اعتقادهم أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة[2]، وقد وبخهم الله تعالى بالاستفهام قبل هذه الآية ﴿أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠] .

وفي هذه الآية إشارة واضحة إلى كون الكفران خسرانًا في الأولى والآخرة، وفي هذا من التنفير منه ما فيه، ولا يكون هذا إلا لقوم يعقلون، ولكن ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] .

وقوله - تعالى - : ﴿كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ يفيد أن الكسب يكون -غالبًا- في جانب الخير، فإذا جاء متعلقًا بالسيئة فهذا من باب التهكم بهؤلاء الذين أصابوا السيئات وكأنها

(١) ينظر: أساس البلاغة، للزمخشري (حوط).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١/٥٨٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حسنات؛ لأهم استمرءوا البهتان والكذب وما فيه خسران حتى صار طبعًا لهم، كما أن أصحاب الحسنات الذين عاشوا بها صارت الصالحات جبِلّة فيهم، فصار الكسب صالحًا لكل فريق، وإن كان في الأصل في الخيرات.

وقيل: " إنهم بتحصيل السيئة استجلبوا نفعًا قليلاً فانيًا؛ فبهذا الاعتبار أوقع عليه الكسب" [(١)].

وعلى هذا المفهوم يكون تنكير «سيئة» للإعظام، وسميت بَعْدُ «خطيئةً»؛ لبيان أنها «خطأ» في كل مناحي الحياة، ولا اعتبار بالظاهر من أفعالهم وأحوالهم؛ فليس مع الكفر صلاح في أي قول أو عمل، وأضاف الخطيئة إليه؛ لبيان أنها منه، وسترد عليه يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟ ، وهذا يوم ينفع الصادقين فيه صدقهم، ولا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

"وسأل رجل الحسن عن الخطيئة، قال: سبحان الله! ألا أراك ذا لحية وما تدري ما الخطيئة؟ انظر في المصحف، فكل آية نهى فيها الله عنها، وأخبرك أنه من عمل بها أدخله النار فهي الخطيئة المحيطة"[(٢)].

وجاء قوله - تعالى -: ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ؛ لبيان جواب الشرط الأول: ﴿ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾ ، أي: كفرًا وشركًا، فهذا الجزاء جزاؤه، وفي الآية عند الختام للبلاغيين كلام في هذا المقام.

ففي وجود «الفاء» في الخبر «المسند» ربط قوي بين المبتدأ «المسند إليه» وخبره؛ للدلالة على أن المسند إليه «من كسب ...» بما أهل به نفسه استحق ما جاء في المسند «النار» مع الخلود، وهذا المعنى دلت عليه الإشارة «أولئك» بأقوى بيان، فهذه الإشارة لا تكون إلا لحاضر يشار إليه بالبنان بما هو عليه من سمات[(٣)]، ثم إن الصفات التي فيه استحق بها ما بعد اسم الإشارة، وهذا ما يبدو واضحًا -أيضًا- في قوله تعالى من سورة «البقرة» في جانب أهل الإيمان: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة:٥]،وهذا ما أشار إليه البلاغيون عند تعريف «المسند إليه»

---

(١) روح المعاني (١/٣٨٥).

(٢) الكشاف (١/١٠٦).

(٣) ينظر: روح المعاني، للألوسي (١/٣٨٦)، نظم الدرر، للبقاعي (١/١٣٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالموصولية، يقول السعد التفتازاني: «عُرف المسند إليه بأن أورده اسم إشارة تنبيهًا على أن المشار إليهم أحقاء بما يرد بعد «أولئك»، وهو كونهم على الهدى عـاجلاً والفـوز بالفلاح آجلًا؛ من أجل اتصافهم بالأوصاف المذكورة " [1]، أي: في الآيات السابقة على اسم الإشارة من أول قوله- تعالـى-: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ... ﴾ إلى قولـه - سبحانه-: ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة:٣، ٤].

ثم إن اسم الإشارة جاء للبعيد؛ للدلالة على أنهم بعيدون عن رحمة الله – تعـالى - بكفرهم وخطاياهم، وجاء اسم الإشارة «أولئك» جمعًا؛ للدلالة على أنهم تفردوا بالخطايا أولاً في دنياهم، ثم جمعهم المولى - سبحانه - بقدرته إلى نار جهنم في أخـراهم؛ ولـذا جاءت الضمائر الثلاثة المتقدمة بالإفراد في «كسب»، و«به»، و«خطيئته» ؛ لبيـان أن كفره كان له ومنه على انفراد، فأحاط به كفره وخطيئته، فلما جاء يوم القيامة جمـع الله -جلت حكمته- أهل الكفران بقدرته إلى جهنم هم فيها خالدون[2].

وفي قوله - تعالى-: ﴿ بَلَىٰ ﴾ إيجاز قصر أو حذف، كأنه قال: بل تمـسكم النـار وغيركم زمانًا مديدًا، وأنتم فيها خالدون، لا كما تزعمون بأنها لن تمـسكم إلا أيامًـا معدودة، وكون الإيجاز هنا للقصر أولى من إيجاز الحذف الذي قيل إنه على تقدير: بلى، لتمسنكم على خلاف ما زعمتم؛ لأن العلماء قالوا: ما لا حذف فيه أولى مما فيه حذف، وإيجاز القصر يفيد المعنى بالفحوى، فإن حرف "بلى" يدفع الكلام السابق، ويفيد ضـده بعدها، وكل ذلك بحرف واحد، وهو "بلى" [3].

ومن الصور البيانية في الآية الكريمة قوله-تعالى-:(كسب سيئة) شبه السيئة بالمال أو الرزق الذي يسعى الانسان في طلبه، ثم تنوسي التشبيه ، ثم اُستعير المال للـسيئة ، ثم حذف اللفظ المستعار ، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (الكسب) على سبيل الاستعارة المكنية .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ وَأَحَـٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ فيها كناية عجيبة عن عظـم

---

(١) المطول (٧٩)، وينظر: الأطول للعصام (١/٩٨)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٧/٨٠)، تفـسير النـسفي (١/٦٦)، حاشية الشهاب على البيضاوي (٧/١٤٨).

(٢) ينظر: فتح القدير (١/١٢٩)، نظم الدرر، للبقاعي (١/١٣١).

(٣) ينظر: روح المعاني (١/٣٨٥)، فتح القدير (١/١٢٩)، نظم الدرر، للبقاعي (١/١٣١)، اللباب، لابـن عـادل (٢/٢١٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخطيئة لأن الشيء لايحيط بالشيء من جميع جهاته إلا بعد أن يكون سابغا غير نـاقص ، والمراد إحاطة خطيئته بحسناته، وذلك أن تكون أعظم منها فيكون لها تأثير في إحاطتـها لأن الخطيئة عرض لا يكون محيطا بالجسم على الحقيقة [1] ، وفيها دليل علـى أن هـذه السيئة هي الشرك؛ لأن السيئة التي تحيط بالإنسان بحيث لا يُرى فيه خـير أبـدًا هـي الشرك، كما أن المقام هنا مع أهل الكتاب «اليهود»، وهؤلاء مشركون وكافرون بـالله ورسوله ؛ ولذلك هم في النار خالدون كما جاء في ختام الآية.

والفعل «أحاط»: للدلالة على الشمول والاستيلاء على الظاهر والباطن، بحيث لا يترك له منفذًا للإقبال على غير ذلك كإحاطة السوار بالمعصم قال تعالى: ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ ﴾ [يونس:٢٢] ، وقد شبهت الخطيئة بالسوار الذي يحيط بالمعصم من جميـع جوانبه بجامع الإحاطة والتطويق في كل،ثم تُنوسي التشبيه،ثم اُستعير السوار للخطيئة ، ثم حذف اللفظ المستعار، ورمز له بشيء من لوازمه وهو (أحاطت) على سبيل الاستعارة المكنية ، والقرينة (أحاطت) ؛ ولذا كانت هذه الحالة كفرًا والعياذ بالله ؛ لأن الكفران يجرئ صاحبه على عمل كل شيء حقًّا أو باطلاً، ولا يفيد مع الكفر عمل صالح .

كذلك في قوله- تعـالى- :﴿ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ اسـتعارة تـصريحية بديعة،حيث شبَّه الجرائم والذنوب التي ارتكبوها بجيش من الأعداء ، نزل على قوم مـن كل جانب،فأحاط بهم إحاطة السِّوار بالمعصم ، واستعار لفظ (أحاط)لغلبـة الـذنوب والسيئات على الحسنات ،فكأنها أحاطت بهم من جميع الجهـات بطريـق الاسـتعارة التصريحية [2].

---

(١) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي(١٦-١٧).

(٢) ينظر: الإبداع البياني في القرآن العظيم للشيخ محمد الصابوني (٣٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الآيات التي ورد فيها لفـظ الإساءة في سياق الجزاء وعداً وعـدلاً قولـه – تعالى-: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾ [البقرة :٢٧١].

بينت الآية الكريمة مشروعية الصدقة، وأبرزت فضلها ؛ فأداء الصدقة مـن بـاب إعانة الضعيف، وإغاثة الملهوف، وإقدار العاجز، وتقويته على أداء ما افترض الله عليـه من التوحيد والعبادات (١).

وهذه الآية تفصيل بعد إجمال سابق في قوله - تعالى - : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ﴾ [البقرة:٢٧٠].

وهي - أيضًا - جواب عن تساؤل يرد من هذه الآية مؤداه: هل إبداء الصدقات يُعد رياء كما ورد في الآيـــات السابقة كقوله- تعالى-: ﴿ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ ؟ فهذه الآية بيان للمؤمنين بما يجب عليهم أن يمتثلوه ابتغاء رضوان الله؛ لأن الله خبير بما يعملون .

﴿ تُبْدُواْ ﴾: فعْله: «بدا»، أي: ظهر، والمادة كلها تدور حول هذا المعنى، فإذا قيل: بدا الأمر، فالمعنى: اتضح، وبدا القوم: خرجوا إلى البادية فصاروا ظـاهرين، يفترشـون الحصباء ويلتحفون السماء، ويقال: بدا له في هذا الأمر بداء: نشأ له فيه رأي ظهر لـه؛ ولذا سميت «البادية» ؛ لظهورها على سطح الأرض بلا بناء ولا غطاء (٢).

﴿ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾: أصله: نِعْم ما هي، وأصل نِعْم: نَعِم فلان: صار في نعمة من مال وغيره، ثم تحولت إلى «نِعِم» بكسر الأول إتباعًا للثاني، ثم طرحـت الكسـرة الثانيـة فسكنت العين ، فتحول الفعل إلى «نِعْم» ؛ لإنشاء المدح في الحال بمعـنى الماضـي، ولم يتصرف؛ لأنه جعل جامدًا على هذا المعنى، ومثلها «بئس» لإنشاء الذم .

وهذان الفعلان «نعم و بئس» يفيدان المبالغة مدحًا وذمًّا، وهذا هو مراد المتكلم إذ

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (٣/٩٢)، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حـاتم (٢/٥٣٥)، المحـرر الوجيز لابن عطية (١/٣٦٥)، معالم التتريل للبغوي (١/٢٥٧)، مفاتيح الغيب للرازي (٧/٦٣)، مدارك التتريـل للنسفي (١/١٨١)، الدر المصون للسمين الحلـبي (١/٦٥٠)، اللبـاب في علـوم الكتـاب لابـن عـادل الحنبلي(٤/٤٢٣)، فتح القدير للشوكاني (١/٣٣٣) ، التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٣/٦٦).

(٢) ينظر : أساس البلاغة ، ومختار الصحاح ، والمعجم الوسيط (بدا) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول: نعْمَ الرجلُ محمدٌ، وبئست المرأة حمالة الحطب، فإن المراد الأعظم: المبالغة في المعنى منهما [(١)] .

وأما ما بعدها وهو «ما» فإنها بمعنى «شيء» بالتنكير، كما قاله أبو علي الفارسي[(٢)]، وتقدير الكلام «نعم شيئًا هي» أي: الصدقة المبداة التي أظهرها صاحبها ليقتدى بـه، لا رياء ولا سمعة.

وصار التركيب بعد الحذف والرصف مع الإيجاز «فنِعمَّا هِي»، وسيأتي كلام بلاغي على هذا التركيب.

وهذه الآية فُصلَت عما قبلها من باب الاستئناف البياني؛ إذ هي جواب عن سؤال مقدر أثارته الآية السابقة، وفحواه: هل إظهار الصدقات يُعد رياء وسمعة أو لا؟ فكـان الجواب الحكيم: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ... ﴾ الآية ، فكانت الآية تفـصيلاً بعد إجمال أثار هذا السؤال[(٣)].

ويلاحظ أن التفصيل والإجمال كان بالشرط ؛ ليكون درج الكلام علـى وتـيرة واحدة، وهذا من محاسن النظم، ويكفي أن المتكلم هو الله العليم بأسرار كتابه وأحـوال عباده.

قولــه - تعالــى-: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ شرط يترتب عليه جــزاء، وهو: ﴿ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ أي: الصدقات المبداة، وفي الشرط ذكر المفعول؛ لبيان حال صـاحبها وأمواله التي منها أخرج الصدقة؛ لأن الصدقة تدل على صدق إيمان صـاحبها، وهـي زكاة؛ لأن المال بها يزكو وينمو ويصح ويطهر، كما في قولــه - تعـالى-: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٢].

فهذه الأحرف الثلاثة (ص، د، ق) بهذا الترتيب للصحة والكمال؛ ولـذا قيـل: رجل صَدْق النظر واللقاء والمودة؛ لهذا المعنى، وسمي الصديق بهذا الاسم لصدقه في المودة والخلة[(٤)] كما قالوا:

---

(١) ينظر: مختار الصحاح (نعم) (٣٠٢ ، ٣٠٣) ، حاشية العلامة الخضري على شرح ابن عقيل المـصري (٢/٩٧، ٩٨).

(٢) ينظر: تفسير ابن عادل (٤/٤٢٣)، التفسير الكبير (٧/٦٣).

(٣) ينظر: تفسير الألوسي (٢/٣٦٦)، فتح القدير (١/٣٣٣)، نظم الدرر، للبقاعي (١/٤٣٧).

(٤) ينظر: مختار الصحاح (صدق) (١٧٥) ، تفسير ابن عادل (٤/٤٢٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إن الصديق الحق من كـان معـك ومـن يضـر نفسـه لينفعـك

ومن إذا ريب الزمـان صـدعك شـتت شمـل نفسـه ليجمعـك[1]

ولذا جاء المفعول (المتعلق) مذكورًا بهذا الاسم (الصدقات)؛ ليلاحظ فيه هذه المعاني؛ لأنه لا يذكر إلا إذا تعلق به غرض، هكذا قال المحققون من البلاغيين، وهنا المقام لإخراج شيء من المال للفقراء سواء كان فرضًا أم نفلاً؛ ولذا سماها ربنا - جل جلاله - «صدقات»؛ لأن المعنى المقصود من صدق الإيمان، وصحة الأموال، وزكاتها يندرج تحت (صدقات)؛ ولذا جاء المفعول (المتعلق) بهذا النص على هذه الأحرف[2].

و(أل) في (الصدقات) للعموم، وهو أولى من جعلها للفرض أو النفل؛ ولذا جعل بعضهم «أل» للجنس، ويحمل على العموم؛ ليشمل جميع الصدقات فرضًا ونفلاً، وهو المناسب لموقع الآية عقب ذكر أنواع النفقات في الآيات السابقة[3].

وجاءت الشرطية بالحرف «إن» في كلتا الجملتين؛ لأنها الأصل في الشرط، وليس هناك ما يقتضي العدول عنها؛ ولذا كان من البلاغة أن يكون الأصل أساسًا في التركيب، فإذا جاء من الأسرار والمعاني ما يقتضي العدول بالتركيب إلى شكل آخر كان العدول إليه هو البلاغة؛ ولذا جاء التقديم والتأخير، والفصل والوصل... إلخ؛ لإفادة هذه المعاني المناسبة للمقام، والتي اقتضت هذا التعديل في الكلام.

وجاء الجواب مدحًا للصدقة ﴿ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ ، وهو مدح للمتصدق بالطريق الأبلغ ؛ لأن الصدقة إذا مدحت، فإن الأصل في ذلك هو المتصدق؛ فهو الذي أخرجها من ماله الذي اكتسبه وقد بلغ النصاب، فأخرج حق الفقراء إليهم؛ طاعة لمولاه، وابتغاء رضوانه، فهو الممدوح على الأصالة ، ثم سرى هذا المدح إلى الصدقة المبداة لتكون عنوانًا على صدق صاحبها الممدوح.

ولماذا سميت (صدقة) دون (هدية للفقراء) ؟ يقال: لما سبق؛ إذ هي عنوان صدق الإيمان وعليه يكون الإحسان، أما الهدية فإنها أجَلّ، وهي على قدر المُهدي، وتكون للملأ من الناس، وأهل الاصطفاء، والمراتب العلية، وهنا كانت الصدقات لا تحل لرسول الله

(١) ينظر: جمهرة الأمثال (٥٨)، معجم الأدباء (٤/١٤٤).

(٢) ينظر: فتح القدير في عدة مواضع، منها (١/٣٣٣).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٣/٦٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ﷺ حيث هي طهرة وغسول يعافها أهل الاجتباء كالأنبياء، وآلِهم كذلك على تفصيل في أحكام هذا الباب، يطلب في محله لمن شاء [(١)] .

أما قوله - سبحانه -: ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ ، فهو بيان للوجه الآخر من إيتاء الصدقات وهو الإخفاء؛ ذلك أن المبدي تكون صدقته واجبة فعليه أن يظهرها؛ ليدفع عن نفسه الريب، والمخفي للصدقات فعل ذلك لأنها نفل؛ ولذا أخفاها ليبعد عن الفخر والرياء، وليكون أقرب إلى الإخلاص الذي هو روح العبادات، بدنية أو مالية أو هما معًا؛ ولذا كان جواب الشرط ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أي: الإخفاء، فالضمير عائد على المصدر من الفعل (أخفى) ومسنده (خير) على وزن (أفعل) تفضيل، ولكن معناه (الخير)، أي: الوصف به، وجاء بعده وصف لتمام المعنى ﴿ لَّكُمْ ﴾ ، أي: هو لكم، تكريمًا، وهنا سؤال عن مفهوم الصدقة: أهي للفرض أم النفل أم هما معًا؟ وجوابه: أن كلاً من الأمرين صدقة؛ لدلالتها على صدق صاحبها في الفرض والتطوع؛ لأن إيمانه يدفعه إلى أداء ما فرض عليه من ربه، وإلى زيادةٍ من جنس ما فرض عليه ربه وهو التطوع، كالصلاة؛ فإن فيها الفرض الموقوت، والنفل بلا قيود، وكل ذلك صلاة، وقد أكد هذا المعنى القرآنُ والسنة؛ قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣] ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ [التوبة:٦٠] ، فالأولى: عامة فهي لكليهما، والثانية: خاصة بالفرض ومصارفه، وكذلك جاء قوله- ﷺ -: «نفقة المرء على عياله صدقة»[(٢)].

فانظر إلى هذا اللفظ (صدقة) الذي حوى هذه المعاني، وتفرعت منه هذه المباني، ثم عطف عليه ما يفيد المعنى رفعة، فقال تعالى: ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾، وهذا الوصل على محذوف تقديره: فإنا نرفع درجاتكم ونكفر... إلخ... التي بيننا وبينكم[(٣)]، والمضارع للتجدد في المعنى، وفي (مِن) أقوال لعلماء اللغة، أشهرها: أنها للتبعيض، ليكون المعنى: ويكفر عنكم بعض سيئاتكم؛ لأن الصدقات لا تكون كفارة

(١) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي (١/٤٣٧).
(٢) أخرجه البخاري (٥/١٩٨)، والترمذي (١٩٦٥)، وابن أبي شيبة (٩/١٠٦).
(٣) ينظر: نظم الدرر، للبقاعي (١/٤٣٧)، اللباب، لابن عادل (٤/٤٢٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لجميع السيئات؛ ومن أجل هذا قدر أبو البقاء مفعولاً محذوفًا أي: «يكفر عنكم شيئًا من سيئاتكم»(١)، وهذا المحذوف يوافق المتعلق المذكور، وهنا سؤال: لماذا ذكر الفقراء مع الإخفاء دون الإبداء؟ ، وللعلماء في بيان سر الذكر والحذف كلام طيب خلاصته: أن الإظهار لا ينفك عن إيتاء الفقراء؛ لأن الفقير يظهر عند الإبداء، ويمتاز عن غيره بأن الناس تعرفه، وتدل عليه، أما في حال الإخفاء، فإن الأغنياء ربما يتعرضون للصدقة في السر؛ لذا ذكر الفقير عند الإخفاء ليكون في الكلام إشارة واضحة إلى فحص حال من يُعطى صدقة السر حتى لا تكون لغير الفقير؛ ولذا نص عليه؛ لأن الحريصين على الصدقات من غير الفقراء يستحيون أن يتعرضوا للصدقات الظاهرة، ولا يصدهم شيء عنها إذا كانت في السر والخفاء(٢).

وهذه العبارة ﴿ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ إيجاز بليغ ؛ لأن الفعل (نعم)؛ لإنشاء المدح مع المبالغة فيه ، والمسند إليه (ما)، أو ضمير مفسر بـ (ما)، فجاء المدح عامًّا، ثم خصص بهذا الضمير المبهم (هي) المحذوف منه (المسند إليه) أو (المسند) على تقديرين ، أو قدم مسنده وهو جملة (نِعمَّا) ، وكل هذا لإفادة المدح بأبلغ معنًى في أوجز لفظ ؛ لأن المعنى: مدح الصدقة المبداة ؛ ليصير مدحًا للمتصدق بما قدم عنوانًا على صدق إيمانه مع مولاه الذي بنعمته تولاه (٣).

قال البقاعي: « ﴿ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ فجمع لها الأمداح المبهمة؛ لأن (نعم) كلمة مبالغة تجمع المدح كله، و(ما) كلمة مبهمة تجمع الممدوح؛ فتطابقا في الإبهام»(٤).

ولذا يقال عند الناس إذا أرادوا المبالغة في مدح إنسان له أفعاله في الخيرات: «ونعم...»، وبقية الجملة محذوفة ؛ للعلم بها من مقام الكلام.

وجاء الختام في جانب صدقة السر؛ إذ يقول - سبحانه-: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ؛ لأن الله إذ علم فالسر في الصدقة أوفى وأولى، فهذا الختام دعوة إلى الإخفاء؛ ليكون أبعد عن الرياء، وأدفع للبلاء، وأنفع للفقير حيث لا يراه أحد فينكسر قلبه،

---

(١) ينظر: اللباب، لابن عادل (٤/٤٢٣).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/٦٦).
(٣) ينظر: اللباب، لابن عادل (٤/٤٢٣).
(٤) نظم الدرر، للبقاعي (١/٤٣٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويذهب به الحياء، فالسر غطاء ورضوان من رب الأرض والسماء [١]،وهي تـذييل في نهاية الآية الكريمة؛ للتعميم على صدقة السر والجهر[٢].

ومن اللطائف البديعية في هذه الآية الكريمة الطباق اللفظي بين قـوله - تعالى -: ﴿ تُبۡدُواْ ﴾ و﴿ تُخۡفُواْ ﴾ ، والمعنوي بين قوله - تعالى -: ﴿ وَتُؤۡتُوهَا ﴾ ، وهذا الضمير المرفوع للأغنياء، وبين قولـه - تعالى -: ﴿ ٱلۡفُقَرَآءَ ﴾.

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الإساءة في سياق الجزاء من سورة آل عمران ما جاء في قوله - تعالى - :

﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠ ﴾

[آل عمران: ٣٠] .

هذه الآية من باب الترغيب، والترهيب، ومن تمام الكلام الذي تقدم، فقد أرشدت إلى إثبات الحساب بين الخلائق، وقد اختلف في معنى محاسبته - تعالى - عباده على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن يعلمهم ما لهم وما عليهم.

الثاني: أن يوقف عباده بين يديه، ويؤتيهم كتب أعمالهم، وفيها سيئاتهم وحسناتهم فيقول: هذه سيئاتكم وقد تجاوزت عنها، وهذه حسناتكم وقد ضاعفتها لكم.

الثالث: أن يكلم الله عباده في شأن أعمالهم، وكيفية مالها من الثواب، وما عليها من العقاب.

والمعنى: راقبوا ربكم أيها المؤمنون، وتزودوا من العلم الصالح، واذكـروا ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ ﴾ ، في الدنيا ﴿ مِنۡ خَيۡرٖ ﴾ ، وإن كان مثقـال ذرة ﴿ مُّحۡضَرٗا ﴾ لديها مشاهدًا في الصحف، حتى لكأنه قد أحضر من الدنيا إلى الآخرة فيرى

---

(١) ينظر: اللباب، لابن عادل (٤/٤٤٣)، روح المعاني، للألوسي (٢/٣٦٧)، نظم الدرر (١/٤٣٧).

(٢) ينظر: روح المعاني (٢/٣٦٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رأي العين ﴿ وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ ﴾ تراه أيضًا ظاهرًا ثابتًا مسجلاً عليها، وتتمنى لو أن بينها وبين هذا العمل السيئ زمنًا طويلاً، ومسافة بعيدة ؛ وذلك لأن الإنسان يتمنى دائمًا أن يكون بعيدًا بعدًا شاسعًا عن الشيء المخيف المؤلم لا سيما في هذا اليوم العصيب وهو يوم القيامة[1].

وقد أتى – سبحانه – بقوله: ﴿ مُّحۡضَرٗا ﴾ في جانب الخير فقط مع أن عمل السوء أيضًا يكون محضرًا؛ للإشعار بأن عمل الخير هو المراد بالذات، وهو الذي يتمناه الإنسان ويرجو حضوره في هذا لما يترتب عليه من ثواب، وأما عمل الشر فتتمنى كل نفس اقترفته لو بعد عنها ولم تره بسبب ما يترتب عليه من عقاب.

والعمل - بداهة - لا يبقى ، ولا يمكن وجدانه يوم القيامة ، فلابد فيه من التأويل وهو من وجهين: الأول: أنه يوجد في صحائف الأعمال، وهذا ما يبينه قوله - تعالى-: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الجاثية:٢٩] ، وقوله : ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ ﴾ [المجادلة: ٦] ، والثاني: أن الذي يوجد جزاء الأعمال .

وقد جاءت الآية بعد وصف المولى -جلَّت قدرته- بكمال العلم والقدرة المسبوق بالتحذير من سطوته، فذكرت الآية يوم المصير؛ ليحذر المؤمن وغيره ما في هذا اليوم من الحساب والعتاب، وما وراء الحساب من ثواب أو عذاب، لكل امرئ بما كسب في دنياه، ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

﴿ تَجِدُ ﴾: مضارع وجد الشيء كذا: علمه إياه، كما تقول: وجدت الحلم نافعًا[2]، وبهذا يكون ناصبًا لمفعولين ، في حاجة إليهما كما رأيت ؛ ولذا كان في الآية: ﴿ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا ﴾ فالأول: ﴿ مَّا عَمِلَتۡ ﴾، والثاني: ﴿ مُّحۡضَرٗا ﴾ ، أي: كائنًا أمامها، كما قال - تعالى-: ﴿ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

---

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (٣/٢٣٠)، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢/٦٣١)، المحرر الوجيز لابن عطية (١/٤٢١)، معالم التنزيل للبغوي (١/٢٩٢)، مفاتيح الغيب للرازي (٨/١٤)، مدارك التنزيل للنسفي (١/٢٠٩)، الدر المصون للسمين الحلبي (٢/٦٢)، فتح القدير للشوكاني (١/٣٨١)، التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٣/٢٢٣) .

(٢) ينظر: المعجم الوسيط (وجد) (٢ / ١٠١٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويجوز في «تَجِد» أن تكون بمعنى «تصيب» ما عملته حالة كونه محضرًا ؛ ولـــذا لا يحتاج إلا إلى مفعول واحد وهو ﴿ مَّا عَمِلَتۡ ﴾ وهو على حد قولك: وجدت مطلـــوبي، أي: أدركته وأصبته[1]، وكلا المعنيين في اللغة القرآنية الواسعة المعاني الموجزة المباني.

﴿ مُّحۡضَرًا ﴾: اسم مفعول من أحضر الشيء فهو مُحضَر، وأما «حَضَر» ، فالفاعل منه «حاضِر»؛ ولذا كان ذكر اسم المفعول أوقع في المعنى لزيادة المبنى، كما يـــستدعي اسم المفعول من يحضره في الوقت المناسب؛ ولذا قال أهل الأسرار: إن فيـــه تهـــويلاً لا يكون في «حاضر»[2].

﴿ تَوَدُّ ﴾: مضارع (ودَّ)، أي: تمنَّى ورغب فيما يريد مع أنه مستبعد الحـــصول أو مستحيل كما هنا، والفعل يومئ إلى ندم شديد على ما فرط من الوقوع في السوء خاصة إذا نظر إلى متعلقه ﴿ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ ﴾ .

ولفظ ﴿ أَمَدَۢا ﴾ : يراد به مسافة طويلـــة ؛ بدليل وصفه بقولـــه – تعـــالى-: ﴿ بَعِيدٗا ﴾ ؛ ولذا قال بعضهم: مقدار العمر، أو ما يلمح من قوله - تعـــالى-: ﴿ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ ﴾ [الزخـــرف: ٣٨][3]، وفي اللغة: الأمد: الغاية، وهو ما أخذه المفسرون وبسطوه وزادوه[4].

هذا في الأمد، أما الأبد: فهو مدة من الزمان غير محدودة[5]، وبهذا يكون الأمد مع طول الزمان له حد يقف عنده، قال الإمام الشافعي - رحمه الله-:

ســـــهام الليــــل لا تخطـــي ولكـــن   لهـــا أمـــد، وللأمـــد انقـــضاء[6]

﴿ بِٱلۡعِبَادِ ﴾: بالتعريف الدال على الاستغراق بـــ (أل)، أو أن (أل) عوض عـــن المضاف إليه، فأصله «رءوف بعباده»، فجاءت (أل) بدل المضـــــاف إليه، فصـــارت ﴿

---

(١) ينظر: المعجم الوسيط (وجد)، روح المعاني ، للألوسي (٢/٤٨٧).
(٢) ينظر: روح المعاني، للألوسي (٢/٤٨٧)، اللباب، لابن عادل (٤/٢٤)، إرشاد العقـــل الـــسليم، لأبي الـــسعود (١/٣٥٤).
(٣) ينظر: روح المعاني، للألوسي (٢/٤٨٧)، الكشاف (١٦٨).
(٤) ينظر: ما سبق، ومختار الصحاح (٣٤) ، والمعجم الوسيط (أمد) (١ / ٢٥) .
(٥) ينظر: روح المعاني (٢/٤٨٧).
(٦) ينظر: ديوان الإمام الشافعي، (١١٤) ، بتصرف .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بِٱلۡعِبَادِ﴾ على معنى بعباده، ويكون بشارة لأهل التوحيد(١).

وهذه الآية الجليلة مستأنفة، وقد بدأها المولى - جلت حكمته - بالظرف ﴿يَوۡمَ﴾؛ لأنه إذا ذكر الزمان جاءت صور ما فيه تتوالى في الذهن، ولها من الآثار القوية على النفس والمشاعر والأحاسيس ما لها، كأنه قال: اذكر يوم كذا، فتأتي على الذهن أحداثه وأهواله، ولذلك من الأثر القوي الشيء الكبير، ومن أجل ذلك اختلف العلماء في أصل نظم الآية ، فقال بعضهم أصلها: تود كل نفس لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمدًا بعيدًا يوم تجد ما عملت من خير محضرًا، وهذا تقدير جيد، فجاء الفعل (تود) وهو المسند في اليوم الآخر، وقد وجدت ما صنعته من خير أمامها حاضرًا، ولا يظلم ربك أحدًا، فظرف الزمان (يوم) يتعلق بالفعل (تود)؛ وقدم لأنه الأهم حيث لا ود إلا فيه.

وقال بعضهم في أصل النظم: يحضر لكل نفس في يوم الإحضار ما عملت من خير وما عملت من سوء، فتود في ذلك اليوم لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمدًا بعيدًا، أي: زمانًا متأخرًا، وأنه لم يحضر ذلك اليوم، فالضمير في (بينه) للعمل السيئ ، فحوّل التركيب، وجعل الفعل (تود) ناصبًا لـ«اليوم»، وهو ظرف لكل ما فيه من أفعال.

وقال ثالث: أصل التركيب: يوم تجد كل نفس ما عملت من خير ومن شر محضرًا تود لو أن بينها وبين ذلك اليوم أمدًا بعيدًا، فالضمير في (بينه) عائد على اليوم، فالنفس تود لو أنه تأخر ولم يحضر، وقد جاء هذا المعنى في قوله -تعالى-: ﴿رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]، وهذا التقدير الثالث أظهر مما سبق(٢)، فتقديم اليوم يفيد الاهتمام بهذا الوقت؛ لأن أيام الدنيا مليئة بالغفلات والسيئات حتى إذا جاء يوم الممات انتبه العبد إلى ما فعل من المهلكات، فيتحسر على ضياع أيام الحياة، ويفرح بالحسنات، ويود لو زاد فأفاد.

وجعل بعض العلماء تعلق الظرف بمحذوف تقدير المسند فيه «اذكر يوم...»، ولكني أميل لما قاله الأثبات: ما لا تقدير فيه أولى مما فيه تقدير.

وفي قوله - تعالى - : ﴿مُّحۡضَرٗا﴾ مبالغة - كما تقدم - ، لكن لم يذكر مع السوء

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٣/٢٢٣).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/٢٢٣)، وتنظر هذه المعاني مفرقة في: نظم الدرر، للبقاعي (٢/٢٦)، الكشاف (١٦٨)، وقد رجح التقدير الثالث - اللباب، لابن عادل (٤/٢٤)، روح المعاني، للألوسي (٢/٤٨٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإن كان مقدرًا ؛ ليدل ذلك على أن الله يحب لعباده الخير، ويحضره لهم يوم القيامة، فيفرح بذلك المؤمن الفعال للخيرات.

ويلحظ أن ﴿ مِنْ ﴾ - هنا - بيانية ؛ لما في لفظ الموصول ﴿ مَّا ﴾ من الإبهام : فقوله ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ ، وقوله : ﴿ مِن سُوٓءٍ ﴾ تمييز وتوضيح لما عملت .

المتأمل فيما ذكره أهل النظر في نظم قوله - تعالى-: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ يلحظ أنه يمكن أن تكون جملة خبرية ، وأن تكون جملة إنشائية ، وسر هذا الإمكان كامن في عامل الظرف (يوم) .

فهذا العامل يحتمل أن يكون هو الفعل ﴿ تَوَدُّ ﴾ ، وعلى هذا الاحتمال يكون الأصل في تركيب هذا القول على هذا النسق : تود كل نفس يوم تجد ما عملت من خير وما عملت من سوء محضراً لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ولا يخفى أن المسند إليه على هذا النسق : هو ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ ، والمسند هو الفعل ﴿ تَوَدُّ ﴾ ، ولفظ ﴿ مَّا ﴾ في الموضعين : ﴿ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ و ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ من قبيل الاسم الموصول ، ومعمول للفعل ﴿ تَجِدُ ﴾ ، على أنه مفعول أول ، ومحضراً مفعول ثان . كما لا يخفى أن الظرف ،وما أضيف إليه ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ قدم على عامله ﴿ تَوَدُّ ﴾ ، وفي تقديم الظرف تشويق إلى ما سيحدث فيه من ودادة كل نفس أن يكون بينها وبينه أمدا بعيدا لهوله ورهبته ، ومع أن المشوق إليه ليس محببا إلى النفس فإن ما في هذه جعل السامع في حال ترقب وانتظار، وقد قوّى هذا الترقب استطالة المقدم بما أضيف إليه ، وما في المؤخر من مفاجآت دللت على فظاعة المقدم وهوله ، وهذا من الأغراض البلاغية التي يخرج إليها تقديم الظرف على الفعل [1]، والسر في هذا التقديم مبادأة المخاطبين ومعاجلتهم بما هو السبب في تمني المباعدة بينهم وبين ذلك اليوم ؛ لما فيه من رؤية المحسنين وما يستحب المزيد منه ، ورؤية المسيئين ما يتمنى الخلاص منه ، وفي الإسناد المذكور - أعني إسناد الودادة إلى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ - من التهويل ما فيه . يقول أبو السعود : " وفي إسناد الود إلى كل نفس

---

(١) ينظر: بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم لأبي القاسم عون(٧٣٨/٣-٧٣٩) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

سواء كان لها عمل سيء أو لا ، بل كانت متمحضة في الخير من الدلالة على كمال فظاعة ذلك اليوم ، وهول مطلعه ما لا يخفى"(١).

ولا يخفى أن تقديم الظرف على عامله استتبع أن يسند الفعل في جملة المضاف إليه ﴿ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ إلى الاسم المظهر في موضع المضمر ؛ حيث كان الأصل أن يقال : تودّ كل نفس يوم تجد ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء محضرا ، وحذف المفعول الثاني من المعطوف ؛ لدلالة ما قبله عليه . يقول أبو السعود : " وما عملت من سوء عطف على (ما عملت) ، والإحضار معتبر فيه أيضاً إلا أنه خُصَّ بالذكر في الخير ؛ للإشعار بكون الخير مراداً بالذات ، وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية" (٢) .

ويحتمل أن يكون العامل في الظرف فعلاً مضمراً تقديره : اذكروا يوم ... إلخ ، وعلى هذا الاحتمال لا يكون في تركيب هذا القول تقديم شيء على شيء ، ويكون الفعل (تود) وما أسند إليه جملة غير أنه يمكن أن تكون تلك الجملة جزءاً من جملة ﴿ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ بأن تكون حالاً من المسند إليه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ، وبذا يكون الأصل في تركيب هذا القول على هذا النسق : اذكروا يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء محضرا وادَّةً لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويمكن أن تكون جملة قائمة بنفسها ،وليست جزءاً من جملة بل تكون مستأنفة ، وعلى تقدير الاستئناف يكون القول الشريف :(يوم تجد كل نفس ... أمداً بعيداً) مكوناً جملتين: الأولى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ والثانية: ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ ، وعليه تكون الثانية مفصولة من الأولى لشبه كمال الاتصال ، لكونها بمثابة جواب عن سؤال اقتضته الجملة الأولى ، كأنه قيل عقب ذكر الأمر : (اذكروا يوم تجد ... إلخ) فما يكون إذ ذاك ؟ فقيل: ﴿ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ (٣) ، ولا يخفى أن الضمير على تقدير الاستئناف مراد به العمل السيئ بخلاف ما قبل ذلك ؛ فإن الضمير يكون عائداً على

---

(١) تفسير أبي السعود : (١ / ٣٥٥) .

(٢) السابق (١ / ٣٥٤) .

(٣) ينظر : تفسير أبي السعود (١ / ٣٥٥) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الظرف ﴿ يَوْمَ ﴾ .

وثمة احتمال آخر في تركيب القول الشريف ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ ، وهو أن يكون هذا القول مفرغاً في إطار جملتين : الأولى : يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، والثانية : وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا، وعليه : يكون الفعل (تجد) مقصوراً عمله على المفعولين : ﴿ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ و ﴿ مُّحْضَرًا ﴾ ولا يتجاوزهما إلى ﴿ مَّا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ ،وتكون الواو ليست عاطفة بل هي للاستئناف لكمال الانقطاع ؛ إذ الجملة الأولى إنشائية لفظاً ومعنى ، والثانية خبرية لفظاً ومعنى ، وهذا ما ألمح إليه الزمخشري بقوله : " ويجوز أن ينتصب ﴿ يَوْمَ تَجِدُ ﴾ بمضمر نحو: (اذكر) ، ويقع على ما عملت وحده ، ويرتفع (وما عملت) على الابتداء ، و (تودّ) خبره ، أي : والذي عملته من سوء تودّ هي لو تباعد ما بينها وبينه " (١) ، ويمكن القول: إن الواو عاطفة ، والوصل بين الخبر والإنشاء جاء على خلاف ما قرره البلاغيون وذلك يدعو إلى النظر فيما قرروه، وما جاء على خلافه غير قليل بل ملحوظ في أكثر من موطن من القرآن الكريم ؛ فمن ذلك قوله - تعالى - في آية الدين : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، وقوله - تعالى - : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات : ٥٤ - ٥٦] ، وقوله : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الطور : ٤٥ - ٤٧] ، فإن الخبر في هذه الآيات وأشباهها معطوف على الإنشاء - فيما بدا لي - وإن كان الشيخ المحلى في تحليله للقول الأول ذكر أن قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ حال مقدرة أو استئناف (٢)، وقد تعقبه العلماء بأن احتمال الحالية ممنوع ؛ لأن الفعل المضارع مثبت مقترن بالواو، ومن ثم فالاستئناف أظهر . نعم لقد ذهبوا إلى الاستئناف ولم يذهبوا إلى

---

(١) الكشاف للزمخشري (١٦٨) .

(٢) ينظر : تفسير الجلالين على هامش الفتوحات الإلهية : (١ / ٣٥٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العطف؛ لئلا يلزم عطف الإخبار على الإنشاء، وهذا ما بينه الشيخ سليمان العجيلي قائلاً: " قوله : (أومستأنف) هذا هو الظاهر، أي: فليست الواو في:(ويعلمكم الله) للعطف وإلا لزم عطف الإخبار على الإنشاء ، كما صرّح به ابن هشام"[1] ، وكذلك ذهب أبو السعود في تحليل القول الثاني إلى أن قوله - تعالى - : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات : ٥٦] "استئناف مؤكد للأمر مقرر لمضمون تعليله ؛ فإن كون خلقهم مُغَيّاً بعبادته تعالى مما يدعوه – عليه الصلاة والسلام – إلى تذكيرهم ويوجب عليهم التذكر والاتعاظ " [2] .

ولم أقف لواحد من المفسرين على رأي في القول الثالث ، ويبدو أن أيّاً من المفسرين لو تعرض له لما خرج عن القول بالاستئناف ، وذهابهم إلى الاستئناف إنما هو للفرار من عطف الخبر على الإنشاء كأن ذلك يؤدي إلى خلل في المعنى ، أو اضطراب في النظم ، والذي يلوح لي أن شيئاً من ذلك لا يكون .

ومن ثم فإن : " قول البلاغيين بوجوب الفصل بين الجملتين المختلفتين خبراً وإنشاء غير مسلم لهم " [3] . كما ذهب إلى ذلك الدكتور عبد الحميد مصطفى ، وقد اعتمد في ذلك على ما أورده السبكي من أن ابن عصفور قد اختاره في شرح الإيضاح ، وابن مالك في شرح التسهيل في باب المفعول معه ، وما نقله عن أبي حيان من أن سيبويه أجاز عطف المختلفين في الاستفهام والخبر مثل : هذا زيد ومَنْ عمرو ؟ [4] .

وقد مضى السبكي فوق ذلك فذكر أنهم - يعني العلماء - " قد تكلموا في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام : ١٢١]، ثم أردف قائلاً : " وحاصله أن أهل الفن - يعني البلاغيين - متفقون على منعه ، وظاهر كلام النحاة جوازه ، ولا خلاف بين الفريقين ؛ لأنه عند من جوزه يجوزه لغة ولا يجوزه

---

(١) الفتوحات الإلهية ، الشيخ سليمان العجيلي (١ / ٣٥٧) .

(٢) تفسير أبي السعود (٦ / ١٤١) .

(٣) من بحث عنوانه : الفصل والوصل بين القاعدة والتطبيق للدكتور / عبد الحميد مصطفى إبراهيم - مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية – العدد الثامن ص (٧٤) .

(٤) ينظر : عروس الأفراح ضمن مجموعة شروح التلخيص (٣ / ٢٦) ط عيسى الحلبي سنة ١٩٣٧ – مصر .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بلاغة " [١] .

والسؤال الذي يطرح نفسه كيف يجوز لغة ، ولا يجوز بلاغة ؟

هل يترتب على القول وصلاً بالواو أثر (ما) على المعنى أو الأسلوب ؟

لقد ذكر الشيخ العجيلي قول السمين في قوله - تعالى - : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ ثلاثة أوجه بينها بقوله : " وهذه الجملة فيها ثلاثة أوجه ، أحدها : أنها مستأنفة ، فالواو لا يجوز أن تكون نسقاً على ما قبلها ، لأن الأولى طلبية وهذه خبرية ، وتسمى هذه الواو وَاوَ الاستئناف ، والثاني : أنها منسوقة على ما قبلها ، ولا يبالي بتخالفهما وهو مذهب سيبويه ... ، وقد أوردت من ذلك شواهد صالحة من شعر وغيره ، والثالث : أنها حالية أي لا تأكلوه والحال أنه فسق " [٢] .. ولابد - هنا - من الالتفات إلى قوله : (وقد أوردت من ذلك شواهد صالحة من شعر وغيره) فإنه يُومئ بقوة إلى ترجيح الوجه الثاني – وهو العطف – على سابقه ، ولاحقه . أعني الاستئناف والحالية ، وذلك من شأنه أن يجعل قول السبكي : إن من جوزه يجوزه لغة ، ولا يجوزه بلاغة غير دقيق ؛ فوجود شواهد صالحة من الشعر وغير الشعر دليل ساطع على جواز عطف الخبر على الإنشاء والعكس ، ويؤكد هذا قول ابن يعقوب : " ولكن كون ذلك – يعني اختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً – مانعاً من العطف بالاتفاق إنما هو باعتبار مقتضى البلاغة ، وما يجب أن يراعى فيها ، وأما عند أهل اللغة ففيه الخلاف ، ومن منع فلا إشكال ، ومن جوز كأن يقال مثلاً : الله حسبي ونعم الوكيل بناءً على أن إحدى الجملتين خبر والأخرى إنشاء فتجويزه إذا لم تراع البلاغة . كذا قيل وفيه نظر ؛ لأن الجائز لغة ما لم يكن نادراً لا ينافي البلاغة " [٣] .

وعطف الخبر أو الإنشاء أو العكس ليس نادراً كما ذكر ذلك السمين .

هذا . وقد لاح لي أن ما قرره البلاغيون في الفصل والوصل من كمال الاتصال ، وكمال الانقطاع ، والتوسط بين الكمالين يحتاج إلى ضميمة أخرى هي ما يستهدف من

---

(١) السابق .

(٢) الفتوحات الإلهية - الشيخ سليمان العجيلي (٢ / ٤٢٩ – ٤٣٠) .

(٣) مواهب الفتاح لابن يعقوب – ضمن شروح التلخيص (٣ / ٢٦) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التمايز التام المؤدي إلى استقلالية اللاحق من القول عن السابق منه فيكون الفصْل هو الوسيلة إلى ذلك ، وإن كان مما يسمونه التوسط بين الكمالين أو شيء (ما) من التغاير فيكون الوصل هو الوسيلة إلى ذلك ، وإن كان مما يسمونه كمال الاتصال أو كمال الانقطاع ، ويؤيد ذلك ما سبق بيانه عطف الخبر على الإنشاء أو العكس ، وما لحظته من مجيء الوصل والفصل فيما أطلقوا عليه التوسط بين الكمالين : فمن الوصل قوله – تعالى – في سورة القيامة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القيامة : ٢٢ – ٢٤] ؛ فقد وصل بين الجملتين ، وهما خبريتان لفظاً ومعنى . بيّن ذلك ما نقله الشيخ سليمان العجيلي – عن السمين – من قوله: " قوله وجوه يومئذ ناضرة فيه وجهان : أحدهما أن يكون (وجوه) مبتدأ ، و (ناضرة) نعت له ، و(يومئذٍ) منصوب بناضرة ، و (ناضرة) خبره ، و(إلى ربها) متعلق بالخبر، والمعنى أن الوجوه الحسنة يوم القيامة ناظرة إلى الله تعالى ... ، والثاني : أن يكون (وجوه) مبتدأ أيضاً ، و (ناضرة) خبره ، و (يومئذ) منصوب بالخبر – كما تقدم – وسوغ الابتداء هنا بالنكرة كون الموضع موضع تفصيلٍ ، ويكون (ناظرة) نعتاً لوجوه ، أو خبراً ثانياً أو خبر المبتدأ محذوف ، و (إلى ربها) متعلق بـــ (ناظرة) كما تقدم " (١) .

وهذا القول يضيء للقارئ أن جملة ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ جملة خبرية مثل سابقتها ، وقد جاءت الواو واصلة بين الجملتين كما هي قاعدة البلاغيين .

وجـــاء على هذه الشاكلـــة أيضاً قولـــه – تعالى – في سورة (عبس) : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [عبس: ٣٨ – ٤٠] ، وهما -كما لا يخفى- خبريتان لفظاً ومعنى ذلك أن إعرابهما مثل سابقتيهما(٢)،فبين الجملتين ما سمي بالتوسط بين الكمالين ، وجاءت الواو واصلة بينهما .

أما الفصـــل فمنه قوله – تعالى – في سورة الغاشية : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الغاشية : ٢ - ٣] ، ثم ذكر بعد ذلك قوله - تعـــالى - : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الغاشية : ٨ -٩] .

---

(١) الفتوحات الإلهية : (٨ / ١٧٧) .

(٢) الفتوحات الإلهية : (٨ / ٢٤٨) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والسؤال - هنا - لم فصلت الثانية عن الأولى مع أن كلاً منهما خبرية لفظاً ومعنى ؟؟

لقد تباين القول في ذلك : فالقرطبي ذهب إلى أن الواو الواصلة بين الجملتين محذوفة ، وذلك إذ يقول : " قوله - تعالى - : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴾ [الغاشية :٨] " وفيها – يعني الجملة – واو مضمرة ، والمعنى : ووجوه يومئذ ؛ ليفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة " [١] ، وتعليله الإضمار بالفصل بينها وبين الوجوه المتقدمة - يعني الخاشعة - غير دقيق ؛ فإن الفصل بين الوجوه يكون أبلغ الوجوه بالفصل بين الجملتين ، لأنه يراد الحديث عن تلك الوجوه على استقلال ؛ حيث لا وجه للجمع بين الوجوه الناضرة . والوجوه الخاشعة العاملة الناصبة ، وهذا هو الذي ارتآه أبو السعود حيث ذكر إعراب الجملة الأولى – وجوه يومئذٍ خاشعة – فقال : فوجوه مبتدأ ، ولا بأس بتنكيرها ؛ لأنها في موقع التنويع وخاشعة خبره ، وقوله : ﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ خبران آخران لوجوه ، ثم قال بصدد الجملة الثانية : " والكلام في إعراب الجملة كالذي مرَّ في نظيرها ، وإنما لم تُعطف عليها إيذاناً بكمال تباين مضمونيهما " [٢] ، وهذا هو الرأي الذي يخاطب العقل ، ويؤيد هذا الرأي ما نَجدْه في سورة الحديد من التوسط بين الكمالين مع عدم الوصل في قوله - تعالى - : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، وقوله بعد ذلك مباشرة : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد : ٢١] ، فالجملتان إنشائيتان لفظاً ومعنى ، وفصلت الثانية عن الأولى ولم يتعرض المفسرون لسر ذلك ، ولنا أن نقول ما قاله أبو السعود : إن الفصل – أو عدم العطف – لكمال التباين بين مضمونيهما ، وعليه فإن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠ / ٢١٣) .

(٢) تفسير أبي السعود (٦ / ٤١٩ – ٤٢٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مرمى الكلام هو الأمر الفيصل في فصل تراكيبه أو وصلها ، وليس كمال الاتصال أو شبهه ، كما قرره البلاغيون [1] .

والأفعال الثلاثة : (تجد ، وتود ، ويحذركم) ، جاءت مضارعة ، والفعل المضارع يفيد التجدد والحدوث في المعاني على قدر المقام كما هو السياق .

وفي الفعل (تودُّ) معنى الهيبة من ذلك اليوم ، والإجلال لما فيه من الهول ؛ ولذا تمنت ألا ترى اليوم أو سيء العمل .

وكما يتضح في (مِن) في جانب (الخير) ، أجدها في جانب (السوء) ، وتقدير المعنى : أيّ سوء يكون محضراً ويود الفاعل أن يتباعد عنه إلى أقصى ما يكون البعد[2]. قال الحسن – رضي الله عنه – : " يسر أحدهم ألا يلقى عمله أبداً " [3] .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ المضارع ؛لإفادة تجدد التحذير على الدوام ، وهو والتصاق الفعل بمن وقع عليه (الكاف) يفيدان أن الفعل وقع عليهم سريعاً ، والأنبياء – صلوات الله عليهم – مبشرون ومنذرون كما جاء في قوله – تعالى – للنبي ﷺ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] ، وجاء المفعول الثاني المتعلق بقوله - جل جلاله - : ﴿ نَفۡسَهُۥ ﴾ وتفسر على تقدير يتوافق مع التحذير ، أي عقابه أو غضبه مثلاً .

وهذا التركيب ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ جاء مكرراً ، وهذا التكرار بلاغي يفيد التوكيد ، أو التغاير ، فالأول تحذير من موالاة الكافرين ، والثاني من أن يجدوا يوم القيامة ما عملوه من سوء حاضراً أمامهم ، وليس لهم من ولي ولا نصير [4] .

ولقد أُتبع هذا التركيب بحسن الخاتمة للآية وما فيها من معان فقـــال - تعالى - : ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ بجعل لفظ الجلالة مقدماً ؛ لما فيه من إيماء إلى الثقة بما يخبر به ؛ فهو السيد المالك الذي لا يعترضه شيء فيما يريد ، و ﴿ رَءُوفُۢ ﴾ أي : يرأف بعباده ،

---

(١) للاستزادة مراجعة بحث الدكتور عبد الحميد مصطفى – مجلة كلية اللغة العربية – العدد الثامن من ص : (٥ إلى ١١١) .

(٢) ينظر : الكشاف (١٦٨) ، روح المعاني للألوسي (٢/٤٩٠) ، اللباب لابن عادل (٤ / ٢٣ ، ٢٤) .

(٣) ينظر : اللباب لابن عادل (٤ / ٢٨) .

(٤) ينظر : اللباب (٤ / ٢٨) ، والتحرير والتنوير (٣ / ٢٢٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و " الباء" تفيد الاتصال بين الرأفة والعباد فضلاً من الله عليهم ورحمة .

وهذه الجملة أفادت بمجاورتها لما قبلها أمراً آخر ، وهو أن وعد رحمته غالب على وعيده ، فالتحذير مقرون بالرأفة ، وهي أرق من الرحمة ، ودليل على أن الرحمة لا تنسي الإنسان واجبه نحو ربه ، فالله يحذركم من ذلك ؛ حتى لا يقع العبد تحت طائلة الحساب، والله شديد العقاب، وهو سبحانه بعباده رحيم : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [الأنعام :١٦٥] .

وتكرير لفظ الجلالة العظيم ﴿ ٱللَّهُ ﴾ لتربية المهابة والإجلال في نفوس العباد (١) .

والخطاب للمؤمنين ، فكان التحذير يحمل البشرى لهم بكرامة الدنيا والآخرة، كما قال الحرالي : فكان هذا التحذير الخاتم ابتدائياً ، والتحذير السابق انتهائياً ، فكان هذا رأفة سابقة ، وكان الأول الذي ترتب على الفعل تحذيراً لاحقاً متصلاً بالمصير إلى الله ، وهذا الخاتم مبتدأ بالرأفة من الله (٢) .

ولذا قيل لأعرابي : إنك تموت وتبعث وترجع إلى الله ؟ فقال : أتهددونني بمن لم أر الخير إلا منه ؟! (٣) ، فإذا عرف العبد ربه بهذه الرأفة مع التفرد بالألوهية والعبودية أحب مولاه الذي تولاه ، وبنعمته رباه ، وبذلك تكون سعادة الأولى والأبد .

وتقديم الظرف في قوله - تعالى - : ﴿ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ يفيد الاهتمام بهذه البينية ، فكما كان موصولاً بها في الدنيا يكون وادّاً البعد عنها يوم الدين ؛ إذ عليها حساب، وعتاب، وعقاب ، وكان في دنياه غافلاً عن مولاه ، حتى لقيه في أخراه(٤) ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار:١٩] .

وفي قوله- تعالى- : ﴿ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ إيجاز بليغ حيث حذف المفعول الأول وتقديره : وما عملته من سوء .

وقوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ موصول بالذي قبله : ﴿ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ ﴾ ، وفيه إيجاز بالحذف من الثاني ؛ لدلالة الأول عليه ؛ لأن ما عمل من سوء يكون – أيضاً–

---

(١) ينظر : تفسير أبي السعود (١ / ٣٥٥) .

(٢) ينظر : نظم الدرر للبقاعي (٢ / ٢٧) .

(٣) ينظر : السابق : الصفحة نفسها .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣ / ٢٢٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

محضراً ، ولكن حذفه بدليل ذكره مع الخبر ، بل هو أولى بالإحضار ، وخص بالذكر في الخير؛ للإشعار بكون الخير مراداً بالذات، وكون إحضار الشر من مقتضيات الحكمة التشريعية ؛ فالحسنات يفرح بها العبد والرب ، والسيئات تغضب الرب ، وإن كانت في الدنيا يفرح بها العبد فهي بالإحضار أولى ، إلا أن الله طواها ؛ إشارة إلى أن الله لا يحب ذكرها ، وكان من الواجب على العبد – أيضاً – أن يكون على هذه الشرعة الإلهية ، إلا أنه كان على سنة أبية [1] ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه : ١٢١ – ١٢٢] .

وفي قوله - تعالى-: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ جُعِل كأن هذا العمل المعنوي مادة محسوسة تُحضر (على وجه التجسيم) وهو ما أسماه سيد قطب بتجسيم المعنويات على وجه التصيير والتحويل [2].

ومن ألوان البديع في الآية الكريمة الطباق بين قوله- تعالى-: ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ و ﴿ مِن سُوٓءٍ ﴾ [3] ، وهذا التقابل يفيد الشمول للمعنى وضده ، والضد يظهر حسنه الضدُّ ، فالخير يُفرح النفوس في الأولى والآخرة ، والشر نفعه في الظاهر في عاجل الدنيا ، وخسران في الآجل ، وربما لحقه في العاجل إذا جرَّ إلى الظلم وضياع الحقوق والواجبات، فالله يمهل ولا يهمل .

و الاحتباك في المعاني بقليل المباني ، والاستغناء عن المحذوف بالمذكور في كل جملة ، فقد ذكر إحضار الخير في الأولى دلالة على حضور الشر في الثانية ، وودَّ بعده السوء في الثانية للدلالة على ودّ لزوم الخير وقربه في الأولى ، وهذه الطريقة فيها من الإيجاز البليغ والصنع البديع ما يجعل الفكر يعمل ، والخيال يتحرك حتى يضع المحذوف في مكانه في المعنى بدليل المذكور في المبنى ، وهذا من طرائق الكلام البليغ ، والإعجاز القرآني البديع.

---

(١) ينظر : روح المعاني (٢ / ٤٨٧) ، واللباب لابن عادل (٤ / ٢٣) ، فتح القدير للشوكاني (١ / ٣٨١) .

(٢) ينظر: التصوير الفني في القرآن لسيد قطب (٧٩-٨٠).

(٣) هذا تسامح في التعبير ؛ حيث أن ذلك من قبيل ما يُلحَق بالطباق ، وهو أن يُجمع بين معنيين لا يتنافيان بذاتهما ، ولكن يتعلق أحدهما بما يُقابل الآخر بسببية أو لزوم أو نحوهما ، وهنا نجد لفظ السوء مسبباً عن الشر الذي هو ضد الخير .
ينظر : الإيضاح للخطيب القزويني بتعليق الشيخ عبد المتعال الصعيدي (١١/٤) ، وينظر هامش رقم ٣ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما ورد فيه لفظ الإساءة في سياق الجزاء وعداً قوله - تعالى - : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾

[النساء :٣١]

مغزى الآية الكريمة تقبيح القرآن الكريم شأن الكبيرة في ذاتها ، تنفيراً منها وتحذيراً من ارتكابها وتزهيداً للنفوس فيها .

فوصفها الله – عز وجل – في القرآن الكريم بأوصاف كثيرة كلها تفيد القبح من جهات شتى ومختلفة ، وكل صفة منها كفيلة بأن تجعل الإنسان - فما البال بالمؤمن- ينأى بنفسه عن تدنيسها بها حتى لا يكون ممن قال الله فيهم مؤكداً خيبتهم : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس :١٠] ، وليحظى بمعيـــــة من قال عنهم : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس :٩] ، وفي السنة المطهرة بيان لبعض الكبائر [١] غير أن مفهوم الكبيرة فيه أكثر من رأي ومنها : قول ابن مسعود : ما نهى الله عنه في هذه السورة فهو كبيرة ، وقول الضحاك : الكبيرة ما أوعد الله حدّاً في الدنيا ، وعذاباً في الآخرة [٢] ، وأيّاً ما كان مفهوم الكبيرة ، فقد وعد الله بتكفير الصغائر إذا اجتنبت الكبائر .

وهذه الآية اعتراض بين آيتين هما: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] ، ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [النساء : ٣٢] ، وقد تضمنت الأولى

---

(١) ينظر: البخاري - كتاب الأيمان والنذور (١١ / ٥٥٥) رقم (٦٦٧٥) ، (١٢/٢٦٤) رقم (٦٩٢٠) ، وكتاب الأدب: باب عقوق الوالدين رقم (٥٩٧٧) ، وصحيح مسلم كتاب الأيمان (١٤٣ ، ١٤٤) ، وغيرهما من كتب السنة الصحيحة مما يطول ذكره .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣ / ١١٠) ، واللباب لابن عادل (٦ / ٣٤٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منهما نهي المؤمنين عن أمرين هما : أكل أموال الناس بالباطل ، وقتل النفس بغير حق ، وتضمنت الثانية النهي عن تمني ما فضل الله به بعضهم على بعض ، وهذه النواهي مترابطة ، وقد بين هذا الترابط أبو السعود حيث ذكر قول القفال : " لما نهاهم الله عن أكل أموال الناس بالباطل وقتل الأنفس عقَّبه بالنهي عما يؤدي إليه من الطمع في أموالهم وتمنيها " (١) .

ولا يخفى أن النهي عن أكل الأموال بالباطل وقتل النفس عقب بتحذير ضمني من الإقدام عليهما بقوله : ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً ، وكان ذلك على الله يسيرا ، وإصلاء النار من شأنه أن يوقع في النفس رهبة خاصة وأنه – كما قرر الله – يسير عليه ، ومن شأن رهبة العذاب بالنار أن تدفع المؤمن إلى البعد عما يؤدي إليه، وهو هنا : أكل المال بالباطل ، وقتل النفس ، وقد جاء هذا الاعتراض تبشيراً بأن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر ليبعث في نفسه رغبة في البعد عن الكبائر ، وبذلك تقترن الرهبة والرغبة في النفس فتكونان حاجزاً كبيراً يحول بين المؤمن وبين مقارفة الكبائر .

وهذا الاعتراض من روائع النظم العالي – ولا أعلى من نظم القرآن الكريم – ولذا كان من عادة القرآن أن ينقل القارئ والسامع من أسلوب إلى أسلوب ، والاعتراض يكون بليغاً إذا أدى المعنى المراد كدفع الإيهام عن سابق الكلام وما يتصل بذلك ، ومع أن الآية جاءت معترضة بين ما قبلها وما بعدها – فقد فصلت عما قبلها لشبه كمال الاتصال ؛ لأنها جواب عن سؤال مقدر أثارته الجملة الأولى ، وتقدير السؤال : هذا الحكم فيما سبق ، فماذا لمن اجتنب هذه الكبائر ؟ (٢) فكان الجواب :﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾ ؛ ولذا ألاحظ أن سبك الآية جاء نظماً لجملة واحدة لا انفصام لها ، وعلى البليغ أن يلاحظ فيها النكات الآتية :

استعمال الشرط (إنْ) وهي الأصل في الربط بين المسندات (الشرط والجواب) ، فجملة الشرط فيها فعل الشرط – وهو مسند – يترتب عليه جواب مسند آخر مع

---

(١) تفسير أبي السعود (٢ / ١٣٠) .

(٢) ينظر : نظم الدرر للبقاعي (٢ / ٢٠٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الربط التام بينهما ؛ فيحقق الجواب مبناه على تحقق فعل الشرط ، وانتفاؤه بانتفائه ، وهذا ما يطبَّق على هذه الآية ، فالاجتناب لهذه الكبائر يترتب عليه تكفير السيئات ودخول الجنان ، ومن لم يجتنب السيئات ولم يتب من ذنبه فعليه إثم فعله ، ومثواه جهنم وبئس القرار .

ومن الملحوظ أن أداة الشرط في هذا الخطاب (إن) وهي لغير المتوقع ، أو المشكوك فيه ، مع أنه للمؤمنين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ ... ﴾ الآية ، وكان ظاهر السياق يقتضي أن تكون أداة الشرط (إذا) التي تستعمل فيما هو محقق أو متوقع ، ولا شك أن المؤمنين إذا نهوا عن شيء كان المتوقع انتهاؤهم عنه ؛ لما اتصفوا به من الإيمان ، ولكن أوثرت (إن) هنا تتريلاً للمتوقع متزلة المشكوك فيه أو غير المتوقع ؛ لإثارة الدوافع لديهم بمراجعة النفس فيقولوا : أيكون حالنا عدم توقع اجتناب ما نهى الله عنه ؟ فتقوى عزائمهم ، ويتمردوا على إغراء الشيطان وبواعث الهوى فينتهوا عما نهوا عنه .

وجاء الفعل المسند ﴿ تَجۡتَنِبُواْ ﴾ المفيد لترك الشيء جانباً مع كونه مضارعاً مفيداً للتجدد في الاجتناب ، وحدوث ذلك على مدى الليالي والأيام ليكون الجواب على هذا الشرط محققاً في واقع الحياة [(١)] .

وذكر المفعول ﴿ كَبَآئِرَ ﴾ لإفادة اتصال الفعل ﴿ تَجۡتَنِبُواْ ﴾ بخصوص هذا المفعول ﴿ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ ﴾ مع إضافته إلى (ما) وهي بمعنى الذي ، وفي هذه الإضافة إفادة أن المنهيات قسمان : كبائر وصغائر [(٢)] ، فإذا اجتنبت الكبائر – تعظيماً لله الذي حرمها وله كل شيء – غفر الله الصغائر واللمم فضلاً منه وكرماً .

وفي تعريف الكبائر بإضافتها إلى الموصول (ما) ؛ لما في الصلة من إفادة الكثرة ، ومن ثم اختلف العلماء في الكبائر حتى أوصلها بعضهم إلى سبعين ؛ ولذا كان إمام الحرمين أدق في تحديدها من غيره ؛ إذ يقول : " هي كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ، وبضعف ديانته "[(٣)] ، وهذا القول فيه الفصل ، وقد دقق العلماء في

---

(١) ينظر : روح المعاني للألوسي (٣٢/٤) ، نظم الدرر (٢ / ٢٠٠) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٥ / ٢٦) .

(٣) السابق .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا المعنى كثيراً ، وكل منهم خرج بثمرة فكره بياناً على لسانه ، ومن ذلك رواية سعيد بن جبير – رضي الله عنه – أن رجلاً سأل ابن عباس – رضي الله عنهما – عن الكبائر أسَبع هي ؟ قال : " هي إلى السبعمائة أقرب ، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار "(١) .

وسميت الصغائر سيئات ؛ لأنها تسيء إلى فاعلها ؛ ولذا سميت بما تؤدي إليه من آثار ، وجاءت في آية أخرى بهذا اللفظ ، قال - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود : ١١٤] .

وجاء المسند ﴿ تُنْهَوْنَ ﴾ بالبناء للمفعول ، وهذا ما يعرف عند البلاغيين بحذف المسند إليه للعلم به واختصار الكلام ، فالمعلوم كالثابت ؛ ولذا جاء الفعل بدونه ، وكان جواب الشرط أمرين : " نكفر ، وندخلكم " ؛ بنون التعظيم ؛ للدلالة على عظيم فضله على عباده الذين يجتنبون الكبائر ، فهم مكرمون بما يفعلون (٢) .

وحذف مفعول ﴿ وَنُدْخِلْكُم ﴾ إيجازاً بدليله من قوله : ﴿ مُّدْخَلًا ﴾ ، أي : جنة ؛ ولذا كان " المدخل " بضم الميم أو فتحها ، اسم مكان ، وهو الجنة ؛ بدليل وصفه بقوله : ﴿ كَرِيمًا ﴾ أو مصدر ميمياً بمعنى الدخول ، ويكون المعنى ندخلكم دخولاً كريماً، أي : نفيساً في نوعه وهو الجنة ، ولا أنفس من دخول الجنة ولا أكرم ؛ لأن الله أعد فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ كما ورد في الأحاديث الصحيحة ، يقول الله – تعالى – في الحديث القدسي الجليل الذي رواه أبو هريرة – رضي الله عنه – " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر " (٣) .

قال أبو هريرة – رضي الله عنه – فاقرءوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧] .

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٤ / ٢٩) ، والسيوطي في الدر المنثور (٢ / ٢٦٤) ، واللباب لابن عادل (٦ / ٣٤٣) .

(٢) ينظر : روح المعاني للألوسي (٤ / ٣٢) .

(٣) أخرجه البخاري (٦ / ٣٦٦) كتاب في بدء الخلق ، باب : ما جاء في صفة الجنة ، وأنها مخلوقة (٣٢٤٤) ، ومسلم (٤ / ٢١٧٤) ، كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢ / ٢٨٢٤) ، والترمذي (٥ / ٣٢٣) ، كتاب التفسير ، باب : من سورة السجدة (٣١٩٧) ، وابن ماجه (٢ / ١٤٤٧) ، كتاب الزهد ، باب : صفة الجنة (٤٣٢٨) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله - تعالى-: ﴿ مُّدۡخَلٗا ﴾ كناية عن الجنة ؛ بدليل وصفه بقوله: ﴿كَرِيمٗا﴾.
ومن الفنون البديعية التي زادت الآية جمالاً الجناس الاشتقاقي بين (ندخلكم – مدخلاً) حيث جمع بين اللفظين المتجانسين أصل واحد ، وسر جمال هذا الجناس في إبراز المعنى في حلل من المباني ساعدت على تحريك الأذهان بين المعاني حيث الكلمات المتشابهة.

ومما ورد فيه لفظ الإساءة في آيات القرآن الكريم في سياق الجزاء قوله - تعالى - :
﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴾ [النساء : ٨٥] .
في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوه :
أحدها : أنه تعالى لما أمر الرسول – ﷺ – بأن يحرض الأمة على الجهاد ، وهو طاعة حسنة ، بين في هذه الآية أن من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ، والغرض منه: أنه – صلى الله عليه وسلم – يستحق بالتحريض على الجهاد أجراً عظيماً.
وثانيها : أنه – ﷺ – كان يوصيهم بالقتال ، ويبالغ في تحريضهم عليه ، فكان بعض المنافقين يشفع إلى النبي – ﷺ – في أن يأذن لهم في التخلف عن الغزو ، فنهى الله عن مثل هذه الشفاعة ، وبين أن هذه الشفاعة إذا كانت وسيلة إلى معصية كانت محرمة .
وثالثها : أنه يجوز أن يكون بعض المؤمنين راغباً في الجهاد ، ولا يجد أهبة الجهاد ، فصار غيره من المؤمنين شفيعاً له إلى مؤمن آخر ؛ ليعينه على الجهاد ، وهو طاعة حسنة ، فبين الله – جل شأنه – في هذه الآية أن من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها .
وأياً كان الوجه فهذه الآية في مقام الترغيب والترهيب ، فقد رغَّب في الشفاعة الحسنة لمن يستحقها ورهَّب من الشفاعة السيئة ؛ لأن لكل منها نصيباً من شفاعة ، ثواباً أو عقاباً .
وهذا منهج رفيع لحياة إنسانية كريمة ، فلا شفاعة إلا لصاحب صلاح لتكون شفاعة طيبة ، وتعود على الشافع والمشفوع فيه بالخيرات ، أما الشفاعة السيئة التي

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تكون في اقتطاع حقوق العباد لمن لا يستحق ، أو وضع شيء في غير ما يليق به ، فإنها طريق إلى فساد تضيع به الحياة الإنسانية الرفيعة .

فالشفاعة الحسنة : هي أن يشفع الشفيع لإزالة ضرر أو رفع مظلمة عن مظلوم ، أو جر منفعة إلى مستحق ليس في جرها ضرر ولا ضرار ، وهذه الشفاعة مرغوب فيها مأمور بها ، قال الله - تعالى - : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة :٢] ، وللشفيع نصيب في أجرها وثوابها ؛ قال الله - تعالى - : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء : ٨٥] ، ويندرج فيها دعاء المسلم لأخيه المسلم عن ظهر الغيب .

أما الشفاعة السيئة : فهي أن يشفع في إسقاط حد بعد بلوغه السلطان أو هضم حق أو إعطائه لغير مستحقه ، وهذه الشفاعة منهي عنها ؛ لأنها تعاون على الإثم والعدوان ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة : ٢] ، وللشفيع في هذا نصيب من الإثم ؛ قال تعالى: ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ...﴾ الآية [النساء: ٨٥] (١).

والضابط العام في التمييز بين هذين الضربين : أن الشفاعة الحسنة هي ما كانت فيما استحسنه الشرع ، والشفاعة السيئة فيما كرهه الشرع أو حرمه .

هذا هو الهدف الذي ترمي إليه الآية ، أما بلاغتها فأحاول بيانها فيما يلي :

وصفت الشفاعة بالحسن ، والسوء ، وذلك ما يدل عليه أصلها في اللغة ؛ ذلك أنه يقال : استشفعه إلى فلان : سأله أن يشفع له ، وتشفَّع إليه في فلان فشفَّعه فيه تشفيعاً ، وعلى هذا تكون الشفاعة : وساطة بالقول في وصول شخص – ولو كان أعلى قدراً من الشفيع – إلى منفعة من منافع الدنيا أو الآخرة ، أو خلاصة من مضرة ما ، وبذلك يكون فيها معنى التقوية ؛ لأن الشفيع يضم نفسه إلى من يشفع له لقضاء مصلحة أو دفع مضرة ، والشَّفْع ضد الوتر (٢) .

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥ / ١٩٠) ، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٣ / ١٠١٨) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (٤ / ١٨٨) ، الكشاف للزمخشري (٢٥٠)، المحرر الوجيز لابن عطية (٢ / ٨٦) ، البحر المحيط لأبي حيان (٣ / ٣٢٢) ، معالم التنزيل للبغوي (١ / ٤٥٧) ، مفاتيح الغيب للرازي (١٠ / ١٦٤) ، الدر المصون للسمين الحلبي (٢ / ٤٠٤)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي (٦ / ٥٣٠) ، فتح القدير للشوكاني (١ / ٥٦٩) ، تفسير القاسمي(٥ /٣٣١)،التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٥ / ١٤٣) .

(٢) ينظر : مختار الصحاح (ش ف ع) (١٦٨) ، لسان العرب مادة (شفع) (٨ / ١٠١ – ١٠٢) ، المصباح

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبذلك تكون الشفاعة صالحة في الخير والشر ، وأهل الشر – كذلك – يتشافعون؛ ولذا جاءت الآية بالوجهين .

هذا ، وقد رأى بعض المفسرين أن لفظ (النصيب) ، و (الكفل) متقاربان في المعنى ، إلاَّ أن النصيب يكثر في الخير ، والكفل يكثر في الشر عكس النصيب ، وقد يستعمل في الخير كما جاء في قوله - تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨] .

و (الكفل) مأخوذ من : كِفْل البعير ، وهو ما يوضع على سنامه ليركب عليه ، وسمي بذلك؛ لأنه لم يعم ظهره كله بل نصيباً منه ، واستعير بعد ذلك لما يكون نصيباً في الشر ، وهذا هو الكثير فيه ، وبهذا يكون نصيباً مماثلاً لا زيادة فيه .

ورأى أن لفظ (النصيب) فيه زيادة ؛ ولذا كان في جانب الحسنة ؛ لأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة كما ورد في صحاح الأحاديث النبوية ، وهذا هو الظاهر (١) .

وجعل بعضهم المعنى فيهما على العكس ، وهو مذهب أهل اللغة ، كما يدل على ذلك ما قاله صاحب القاموس : " والكِفل بالكسر : الضِّعْفُ ، والنَّصِيبُ ،والحظ، والمثيل " (٢) ، ونحوه ما قاله غيره .

و " النصيب " أُخذ من " النُّصب " ، وهو العلم المرفوع ، ويدل على الوضع والغاية ؛ ولذا كان منه " النَّصب " ، أي : التعب ، وقد جاء هذا المعنى في قوله - تعالى - : ﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ﴾ [الشرح: ٧] ، أي يصل عملك إلى حد التعب في هذه الحياة ، قال - تعالى - :﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴾[الشرح: ٨] ؛ ليكون هذا النصب كرامة في الدنيا والآخرة ، وعلى هذا يكون النصيب : القدر والحظ مع الحسنات بحسب فضل الله على عباده ، والله ذو الفضل العظيم .

هذا قولهم : وفيه سهو ؛ لأن ما قاله صاحب القاموس فيه شيء من التساهل لا

المنير مادة (شفع) ، روح المعاني للألوسي (٤ / ١٥٧) .

(١) ينظر : البحر المحيط (٣ / ٣٢١) ، روح المعاني للألوسي (٤ / ١٥٧) ، التحرير والتنوير (٥ / ١٤٣)

(٢) القاموس المحيط لمجد الدين الفيروز آبادي ، وينظر : أساس البلاغة (كفل) ومختار الصحاح مادة (كفل) (٢٦٣) ، نظم الدرر للبقاعي (٢ / ٢٤٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يخفى ؛ فالذي ينظر في قوله يلحظ أنه يجعله من المشترك اللفظي ، لأنه - كما قال - يراد به الضعف ، ويراد به النَّصيب، وكذلك الحظ والمثيل ، وفي ضوء دلالته على هذه المعاني بغير فرق بين معنى وآخر لا يتحدد في الآية أن الكفل هو الحظ ، أو النصيب ، أو المثيل ، أما القول بدلالته على الضعف، فيمنع منه ما هو معروف في الإسلام من أن السيئة إنما تقابل بمثلها ، ولكنا إذا دققنا النظر تبين لنا أن الكفل والنصيب ليسا متقاربين في المعنى ، بدلالة المادة التي أُخذ منها كل منهما : فالكفل من مادة تدور حول الضمان ، وذلك ما أراه في قول الراغب : "الكفالة الضّمان تقول : تكفّلت بكذا وكفّلته فلانا ، وقُرئ ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ [آل عمران: ٣٧] .... والكفيل الحظ الذي فيه الكفاية، كأنه تكفل بأمره نحو قوله - تعالى - : ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾[ص: ٢٣] ... والكفل : الكفيل . قال: ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨] ، أي : كفيلين من نعمته في الدنيا والآخرة ، وهما المرغوب فيهما بقوله :﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً ﴿٢٠١﴾ ﴾ [البقرة : ٢٠١] ... ،وأما قوله : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً ﴾ إلى قوله : ﴿ يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ ؛ فإن الكفل هنا ليس بمعنى الأول ، بل هو مستعار من الكفل ، وهو الشيء الرَّديء، واشتقاقه من الكفل، وهو أنَّ الكفل لما كان مركباً ينبو براكبه صار متعارفاً في كل شدة كالسيساء ، وهو العظم الناتيء من ظهر الحمار، فيقال : لأحْملنَّك على الكفل وعلى السيساء ، ومعنى الآية : من ينضمُّ إلى غيره معيناً له في فعلَة حسنة يكون له منها نصيب ، ومن ينضمُّ إلى غيره مُعيناً له في فعلة سيئة يناله منها شدةٌ ، وقيل : الكفلُ الكفيلُ، ونبّه أن من تحرّى شرّاً فله من فعله كَفيلٌ يسأَله كما قيل : من ظلم فقد أقام كفيلاً بظلمه تنبيهاً أنه لا يمكنه التخلّص من عقوبته " [١].

فكأن الشر كفيل بجزاء يماثله ، وملخص ما سبق أن الكفل ليس مراداً بـه المعنى الحقيقي المستعمل في اللغة بل هو مجاز عن الشدة استعارة تصريحية ، أو يكـون الكفـل بمعنى الكفيل أي: الضامن الذي يضمن مقابلة الشر بمثله، فيكون استعارة مكنية ..

أما النصيب فهو مأخوذ من مادة تدور حول الشيء الظاهر المرتفـع : ذلـك أن "نصب الشيء وضعه وضعاً ناتئاً كنصب الرمح والبناء ، .. والنصيب الحجارة تنـصب

---

(١) المفردات للراغب - كتاب (الكاف) ، مادة (كفل) (٤٣٨) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على الشيء ، وجمعه نصائب، ونُصُب ، وكان للعرب حجارة تعبدها وتـذبح عليهـا. قال : ﴿ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] ... ، والنصيب الحظّ المنصوب أي: المعيّن، قال: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ [النساء : ٥٣] .... وشاةٌ أو عنزة نـصباء منتصب القرن ، وناقة نصباء منتصبة الصدر ... ونِصاب الشيء أصله ، ورجع فلان إلى منصبه أي: أصله ، وتنصَّب الغبار ارتفع ، و ونَصَبَ الـسِّتر رفعـه" (١) ، وعليـه فالنصيب يراد به الحظ المعين المرتفع القدر ، وبذلك يتبين أن النصيب والكفل ليـسا مترادفين ، كما أنهما ليسا متقاربين في المعنى ؛ فالنصيب في الشفاعة الحسنة يعني الجـزاء العظيم، وتتحدد عظمته بمقدار ما شفع فيه ؛ فالحسنة بعشر أمثالها أو أزيد ، وأما الكفل فهو الجزاء السيئ، أو هو الضامن الذي يسأل المسيء عن فعله فيجازى بمثله ، ويتحدد هذا الجزاء بمقدار الشر الذي شفع فيه صغيرا ًكان أو كبيراً، ولذلك اقترنت الـشفاعة الحسنة بالنصيب ، والشافعة السيئة بالكفل ، وفي ذلك من الدقة في اسـتعمال اللفـظ بجوار ما يلائمهُ ما فيه .

أما لفظ (المقيت) فله إشارات عدة تنبثق من مادته التي تدور حول معنى مركزي هو ما به حفظ الحياة من بذل القوت وغيره ، أو الاقتدار عليه، فالقوت ما يمسك الرمق من الرزق ، واقتات بالشيء واقتاته : جعله قوتاً ...وأنا أقوته : أعوله برزق قليـل ... واستقاته : سأله القوت ، وفلان يتقوت بكذا ، وفي الحديث : اللـهم اجعـل رزق آل محمد قوتاً : أي بقدر ما يمسك الرمق من المطعم ، وقُتُّ الرجل أقوته قوتاً إذا حَفِظْـت نفسه بما يقوته ، والقوت : اسم الشيء الذي يحفظ نفسه ، وأقات الشيء وأقات عليه : أطاقه ؛ أنشد ابن الأعرابي :

وبما أستفيدُ ، ثم أُقِيتُ الـــ ـــمالَ ، إني امرؤٌ مُقيتٌ مفيدُ

وقال أبو قيس بن رفاعة :

وذي ضِغْنٍ كففت النفس عنه وكنتُ على مساءته مُقيتـــا

والمادة تدور حول بذل القوت ، أو طلبه والحرص عليه حفظاً للحيـاة أو القـدرة على الشيء مطلقاً ، ولهذا اختلف اللغويون في تفسير مقيت في قول الشاعر : -

(١) المفردات للراغب - كتاب (النون) ، مادة (نصب) (٤٩٦) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رُبَّ شتمٍ سمعتـــــه وتصامـــمـــتُ ، وعِيٍّ تركته ، فكفيتُ
ليت شعري !و أشعرنَّ إذا مـــــا قرَّبوها منشـــُـــورةً، ودُعيتُ
أَلِيَ الفضل أم عليَّ ، إذا حُـــــوسِبْتُ إني على الحساب مُقيتُ

فرأى بعضهم أنها بمعنى الحفاظ ، ومنهم الجوهري في الصحاح ، ورأى بعض آخـــر أنها بمعنى المقتدر . حكى ابن بري عن أبي سعيد السيرافي قال : الصحيح رواية من روى : (ربَيِّ على الحساب مقيت) .

قال : لأن الخاضع لربه لا يصف نفسه بهذه الصفة . قال ابن بري : الـــذي حمـــل السيرافي على تصحيح هذه الرواية أنه بنى على أن مُقيتا بمعنى مقتدر ، ولو ذهب مذهب من يقول إنه الحافظ للشيء ، والشاهد له كما ذكر الجوهري لم ينكر الرواية الأولة [(١)].

ولدوران المادة حول هذا المعنى جرى المفسرون على تفسير كلمـــة (مقيتـــا) في الآية الشريفة بالمقتدر ، أو الشهيد ، أو الحفيظ ؛ لاحتمال اللفظ في هذا السياق لكـــل منها [(٢)] . أو على إرادتها جميعاً مضيفاً إليها الواصب القيم بالأمور ، والمحيط والحـــسيب والمجازي[(٣)] .

وجاءت (من) للدلالة على أن الشفيع من العقلاء ، ولولا اتخاذ عقلـــه وفكـــره مطية للشفاعة، فإنها لا تكاد تكون أو تصلح ؛ ولذا جاءت (من) شرطاً لمن يعقل [(٤)].

والشفاعة هنا وصفت بكونها حسنة مرة، وسيئة مرة أخرى ، وهذا دليل علـــى أن التوسط في فعل ، وتقوية من يشفع له في حالة قد يكون شفاعة في خير كما قد يكـــون شفاعة في شر ، وهذا ما نجده واقعاً في حياتنا العملية ، وربما كان أهل الـــسوء أعظـــم شفاعة من أهل الحسنات ، وخصوصاً في القضايا المهلكات ، ونعوذ بالله من شرور هذا الزمان .

ولما كانت الشفاعة حسنة كان له نصيب منها ، أي : مضاعف ، كما صدق علـــى هذا رسول الله - ﷺ - : " من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب لـــه ، وقـــال

---

(١) ينظر: لسان العرب : فصل (القاف) ، مادة (قوت) (١٢ / ٢١٤) .
(٢) ينظر : تفسير أبي السعود (٢ / ١٧٢ ـــ ١٧٣) .
(٣) ينظر : تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٣٢٢) ، روح المعاني للألوسي (٤ / ١٥٨) .
(٤) ينظر : نظم الدرر للبقاعي (٥ / ١٤٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الملك : ولك مثل ذلك "[١] .

وكون الشفاعة موصوفة بأنها ﴿ حَسَنَةً ﴾ ، وجاء ذلك بطريق التنكير ؛ ليفيد أن كل كلام يراد به وصول الغير إلى مراده، أو دفع ما يضره عنه كان من باب الشفاعة : كالدعاء للمسلمين ، والتوسط لقضاء الحاجات في حدود المشروع في مكانه المحدود ، بحيث لا يأخذ حق غيره ، ولا يسبق غيره ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بصالح الأعمال، ومنها التحريض على الجهاد في سبيل الله ؛ كما فعله رسول الله - ﷺ - ونزلت بذلك الآيات السابقات [٢].

واستعمال ﴿ نَصِيب ﴾ هكذا بالتنكير حتى تضاعف الحسنات إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله كما قال - ﷺ - : " من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً "[٣].

و (مِنْ) في قوله - تعالى - : ﴿ مِّنْهَا ﴾ : للسببية ، أي : نصيب وكفل بسببها ، أو ابتدائية.

والتقديم في الجار والمجرور ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ للمبادأة بعموم ما يدل عليه لفظ المقيت، ولو قيل مقيتاً على كل شيء لأوهم أن الحفظ أو الشهادة على بعض الأشياء دون بعضها ، ولا يفهم هذا العموم إلا بعد ذكر كل شيء ،بخلاف ما عليه النظم فإن العموم يستقر في النفس من أول الأمر أي: هو الحفيظ بالقوت مع الاستعلاء لكل شيء دون سواه ، فجميع ما سواه في فقر إليه ، وهو الغني الحميد ، وصدق الله العظيم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥] .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ تذييل لإفادة العموم ؛ إذا المعنى أنه مقيت على كل شيء في الحياة ؛ ولذا استعملت (كان) الدالة على ما كان في الأزل والحال والمآل ، فالله حفيظ على الدوام ، حسيب على كل ما كان وما هو كائن وما سيكون ، وهو الشهيد، والمعطي الوهاب لجميع عباده ومن في ملكه ؛ ولذا

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح في كتاب الذكر (٨٧) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٣ / ٣٥٣) .

(٢) ينظر : روح المعاني للألوسي (٤ / ١٥٧) .

(٣) أخرجه مسلم (٤ / ٢٠٦٠) ، كتاب العلم ، باب : من سن سنة حسنة (١٦ / ٢٦٧٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

استعمل الحرف ﴿ عَلَىٰ ﴾ للدلالة على الاستعلاء ، وهو من شأن الأقوياء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وقد قدمت المعاني المطروحة تحت هذا اللفظ (مقيت)، وكلها تتفرع من أصل واحد ، وتتواصل مع بعضها في نطاق القدرة ، والحفظ ، والعناية ، والرزق ..... إلى نحو ذلك .

قال القفال : " وأي هذين المعنيين - شاهد أو حفيظ - كان ، فالتأويل صحيح، وهو أنه -تعالى - قادر على إيصال النصيب والكفل من الجزاء إلى الشافع ، لما يوصله إلى المشفوع إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر " (١) .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنۡهَاۖ ﴾ فصلت هذه الآية عما قبلها ؛ لأنها من باب الاستئناف البياني المعروف عند البلاغيين بـــ "شبه كمال الاتصال " ، وهو مبني على سؤال مقدر من الجملة السابقة (٢)، وفحواه أنه - سبحانه - لما قال : ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ ﴾ ، أي لست مؤاخذاً بفعل غيرك كأنه قيل: فماذا يكون لو شفعت لغيري في عمله ؟ فكان الجواب : ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً... ﴾ الآية .

ومن الصور البيانية في هذه الآية الكريمة : استعمال قوله - تعالى -:﴿ كِفۡلٞ ﴾ فهو إما استعاره تصريحيه إذا كان المراد به المركب السيئ ، أو تبعية على أنه بمعنى: الكفيل ، أي : الضامن على نحو ماسبق .

وإيثاء المجاز على الحقيقة لما يُفيده من القوة في أداء المعنى ؛ فإذا كان المراد به الشدة أو المركب السيئ كان في ذلك مبالغة في التخويف من ارتكاب هذا الفعل الشنيع وهو الشفاعة السيئة ، وإذا كان بمعنى الكفيل أو الضامن كان في ذلك تصوير للأمر المعنوي في صورة حسية ، حيث يكون الجزاء السيئ في صورة من يقاضي الشفيع في السوء ليمسكه في حومة الألم ليذوق وبال ما قدم .

وكذلك اشتملت الآية الكريمة على بعض الألوان البديعية منها : استعمال الشفاعة

---

(١) اللباب لابن عادل (٦ / ٥٣٤) ، التفسير الكبير للرازي (١٠ / ١٦٦) ، البحر المحيط (٣ / ٣١٦) ، تفسير القرطبي (٥ / ١٩١) ، الدر المصون (٢ / ٤٠٤) ، تفسير الطبري (٤ / ١٨٨) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٥ / ١٤٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في السيئات في قوله - تعالى -: ﴿ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾ هو استعمال من باب المشاكلة [١]، بدليل وصفها بالسيئة [٢] ، وجعل بعضهم وصف الشفاعة بأنها "حسنة" من باب الوصف الكاشف فقط ؛ لأنها لا تستعمل إلا في الحسنات ،وهو كلام جيد ، إلاَّ أن الباب في الشفاعة قد فتح للمعونة في أية جهة خيراً كانت أو شرا ؛ ولذا أرى أن الشفاعة - على إطلاقها - أولى وأوثق بالواقع ، والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب .

كذلك بين (حسنة) و (سيئة) طباق إيجاب جمع بين الضدين ترغيبا ، وترهيباً ، وبياناً على إيصال النصيب ، والكفل من الجزاء إلى الشافع مثل ما يصل إلى المشفوع ، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

ومما ورد فيه لفظ الإساءة في سياق الجزاء عدلاً ما جاء في قوله - تعالى- : ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النساء: ١٢٣] .

روى المفسرون أن اليهود والنصارى قالوا : لا يدخل الجنة غيرنا ، وقالت قريش : إنا لا نبعث، فأنزل الله هذه الآية .

وقال آخرون: تفاخر النصارى واليهود وناس من المسلمين فقال هؤلاء: نحن أفضل منكم ، وقال هؤلاء : نحن أفضل ، فأنزل الله : ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ ﴾ الآية [٣] .

هذه الآية بيانٌ شافٍ للحكم القاضي على قول العرب وأهل الكتاب ، وكذلك

---

(١) المشاكلة: هي ذكر الشيء بلفظ غيره؛ لوقوعه في صحبته؛ كما في قوله- تعالى-: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ ؛ فإن جزاء السيئة ليس سيئة، ولكنه ذُكر بلفظ «السيئة» لوقوعه في صحبتها.
ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة (٢٩٥، ٢٩٦)، التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، (٣٤٧، ٣٤٨)، المعجم المفصل في علوم البلاغة (٦٤٩).

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٥ / ١٤٣) .

(٣) ينظر : لُباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (١٠٣) ، وأسباب النزول للواحدي (١٣٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المسلمين ، بأنه ليس الأمر بالتمني فحسب ، من غير عمل صالح مبني على إيمان قوي بالله - سبحانه - الذي حكم على عباده بحكم واحد لا تبديل فيه على مدى الأزمان ، وفي كل مكان ،لكل الأجناس والألوان ؛ لأن الله - تعالى - لا يبدل .

قوله : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٩] ، فالذي يعمل سوءاً يجازى عليه في الأولى والآخرة أو في إحداهما .

وليس له مِن نصير بعد الله - سبحانه - ولا ولي يتولاه [١] ، لأن المُلك لله الواحد القهار ، يفعل ما يشاء ويحكم كما يريد ، وهو الحكم العدل العليم بأحوال عباده، ولا يظلم ربك أحداً ، وهو على كل شيء قدير .

و " الباء " في قوله - سبحانه - : ﴿ بِأَمَانِيِّكُم ﴾ للملابسة وليست الزائدة في خبر " ليس " ؛ لأن هذه الأماني ملابسة لهم ، حاصلة منهم ، لا منفية حتى تكون زائدة ، ليكون المعنى : ليس الجزاء حاصلاً حصولاً على مقتضى أمانيكم ، بل على ما كان من إيمان وعمل .

و " الأماني " : جمع أمنية ، وأصلها " أمنوية " بوزن " أفعولة " كأعجوبة ، وقعت الواو والياء مجتمعين ، والسابق منهما ساكن مع أصالة في ذاته وسكونه ، فقلبت الواو ياء ، وأدغمت الياء في الياء ، وكُسِر ما قبل الياء للمناسبة فصارت " أمنية " [٢] ، وهذا القلب والإدغام له في المعنى المقصود أثر ؛ لأن المتمني يظن في الواقع ظنّاً على غير الواقع؛ ولهذا كان التمني : طلب الشيء المحبوب ولكنه مستحيل أو بعيد الحصول كما قال الشاعر [٣] :

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب [٤]

ولهذا قال ابن عاشور في تحديد الأمنية : " وهي اسم للتمني ، أي : تقدير غير الواقع واقعاً " [٥] ، وهو كلام جيد ؛ لأن الممنوع مرغوب ومحبوب ، فيتخيل أنه واقع

---

(١) ينظر : نظم الدرر للبقاعي (٢ / ٢٧٠) ، التحرير والتنوير (٥ / ٢٠٨) .

(٢) ينظر : حاشية الحضري على ابن عقيل (٢ / ٤٥٤ ، ٤٥٥) .

(٣) ينظر : أساس البلاغة ، مختار الصحاح ، المعجم الوسيط مادة (منى) .

(٤) البيت لأبي العتاهية في ديوانه (٢٢) .

(٥) التحرير والتنوير (٥/٢٠٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تمنياً.

﴿ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ ﴾ هم اليهود والنصارى ، ولكن القرآن – دائماً – يناديهم بهذه السمة ، لماذا ؟ لأن الله انزل إليهم كتاباً ، ورسولاً يقوم على بيان ما في الكتاب ؛ ولذا كان نداؤهم بقوله : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ فيه توبيخ لهم واستهزاء بهم حيث لم يقوموا على مقتضى ما في الكتاب الذي أنزل إليهم من ربهم فضلاً وكرماً ، وشاع هذا في كتاب الله – تعالى – للإشعار بهذا المعنى .

والضمير في " ليس " – وهو المسند إليه – يعود على الوعد ، ليئول المعنى إلى : ليس ما وعد الله – تعالى – من الثواب ينال بأمانيكم أيها المسلمون ولا بأماني أهل الكتاب وإنما ينال بالإيمان والعمل الصالح .

وعلى هذا يكون الخطاب للمسلمين ؛ لأنه لا يتمنى وعد الله إلا من آمن به ، وذكر أهل الكتاب معهم لمشاركتهم في الإيمان . وهنا يبدو سؤال مضمونه : وإذا كان الخطاب للمسلمين ، فلم ذكر أهل الكتاب ؟ والجواب على ذلك ما أورده أبو السعود بقوله " ولعل نظم أماني أهل الكتاب في سلك أماني المسلمين مع ظهور حالها للإيذان بعدم إجداء أماني المسلمين أصلاً " (١) .

وعن الحسن: " ليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ، ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل له " (٢) .

ويحتمل أن يكون الخطاب للمشركين ؛ لأنهم كانوا يقولون : إن كان الأمر كما يزعم هؤلاء لنكونن خيراً منهم وأحسن حالاً ، ﴿ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا ﴾ [مريم: ٧٧] ﴿ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ [فصلت: ٥٠] ، كما قال أهل الكتاب : نحن أبناء الله وأحباؤه ... إلى نحو هذه الأقوال (٣) .

وعلى هذا يكون المفهوم : ليس الوعد بأمانيكم أيها المشركون ولا بأماني أهل

---

(١) تفسير أبي السعود (٢ / ٢٠٠) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦ / ١٦٣) برقم (٣٠٣٥١) كتاب الإيمان والرؤيا ، وذكره الزمخشري في الكشاف (٢ / ١٥١) في تفسير الآية ، والبحر المحيط (٣ / ٣٧٢) ، و أبو السعود (٢ / ٢٠٠) .

(٣) ينظر : البحر المحيط (٣ / ٣٧٢) ، روح المعاني للألوسي (٤ / ٢٤٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكتاب يهوداً ونصارى ، ولكن الوعد بالإيمان، والعمل الصالح على مقتضى هذا الإيمان الذي يجعل الإنسان مع مولاه الذي آمن به ، ومع رسوله الذي بلَّغ وعمل وصار إماماً لكل مؤمن أسلم معه لله رب العالمين.

وهذا التوجيه في الخطاب للمشركين مؤيد بأن المسلمين لم يجر لهم ذكر في الأماني وجرى للمشركين ذكر فيها ، كما قالوا : لا بعث ولا عذاب (١) .

وجاء القرار الإلهي الحاسم من الملك القائم على كل نفس بما كسبت : ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾ [النساء: ١٢٣] .

والتنكير في ﴿ سُوٓءٗا ﴾ يفيد الشمول ، أي : ما وقع من سوء ، أيّ سوء ، وقد وقع في معنى الشمول البحث عن هذا السوء أهو الشرك أم الصغائر ؟ ولكن اللفظ عام ، وإذا عمَّ شمل كل سوء صغيرة أو كبيرة من مؤمن أو كافر أو منافق ، فالكل لله عبد ، ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] .

مجيء جواب الشرط ﴿ يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ في صورة المضارع يفيد صورة الجزاء المتجدد ، والذي يكون على حسب ما قدم الإنسان من خير أو شر مع اختلاف الأحوال والأزمان، فالله عليم بذات الصدور،﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٦١] .

وفي التعبير عن حتمية المجازاة على السوء بنفي وجود الولي والنصير ما يلفت النظر، فقد كان يمكن أن يقال – مثلاً – من يعمل سوءاً يجز به غير متخلص منه ، لكن أوثر التعبير بنفيهما ؛ للإيماء إلى السعي الدءوب للتخلص من العقاب بالبحث ، فإنه يبحث فلا يبصر من يخلصه ، فضلاً عن أن يتمكن منه ، يشير إلى ذلك الفعل (يجد) بمادته ، وصيغته ؛ ذلك أن مادته تفيد الرؤية بالبصر ، كما تفيد التمكن من الشيء . يقول الراغب : " الوجود أضرب : وجود بإحدى الحواس الخمس نحو : وجدت زيداً ، ووجود بقوة الشهوة نحو : وجدت الشبع ، ووجود بالعقل كمعرفة الله ومعرفة البنوة ، وما يُنسب إلى الله – تعالى – من الوجود فبمعنى العلم المجرد ؛ إذ كان الله منزَّهاً عن الوصف بالجوارح ..نحو:﴿ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٢] ... ، ويعبر عن التمكن من الشيء بالوجود نحو : ﴿ فَٱقۡتُلُواْ

---

(١) ينظر : الكشاف (٢ / ١٥١) ، روح المعاني (٤ / ٢٤٠) ، البحر المحيط (٣ / ٣٧٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] ، أي : حيث رأيتموهم " [١] ، وصيغته تفيد التجدد والحدوث ، وهذا يعني أنه يبحث فلا يرى ، ولا يتمكن من الحصول على ولي ولا نصير ، وفي هذا دلالة على شدة العناء النفسي حين يُوقن أن الجزاء واقع به لا محالة .

و " الولي " في اللغة : ضد العدو ؛ولذا كان من معانيه : الناصر، والمعين ، والجار، والحليف، وكل من يتولى أمر غيره فهو " وليه " [٢]، ومنه قوله – تعالى –: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] .

ولفظ (ولي) معناه القرب ؛ ولذا قالوا : بَعْد بَعْدَ وَلْـيٍ ، أي : بعـد قُـربٍ [٣] "والولاء ، والتوالي : أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما ، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ، ومن حيث النسبة .... ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد ... والولاية تولي الأمر " [٤] .

وفي التعبير عن المعين ، أو الصديق بلفظ الولي في سياق النفي؛ إيماء إلى نفي القرب، فكل من كان ينتظر عونه ينفر منه ، لانشغاله بنفسه ، كما يدل على ذلك قوله – تعالى-: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ [المعارج : ١١ – ١٤] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾[عبس: ٣٤ – ٣٧] .

وفي انصباب النفي على كل من الولي ، والنصير تدرج من العموم إلى الخصوص، حيث توجه النفي أولاً إلى العام، وهو الولي بمعنى: الحليف ، والجار ، والصديق ، والمعين ، وكل من يتولى أمر غيره، ثم توجه ثانياً إلى الخاص وهو الناصر بقوله : ﴿ نصيرا ﴾؛ ليقطع الأمل في النجاة من العذاب بانقطاع كل الوسائل إلى ذلك .

---

(١) المفردات في غريب القرآن : كتاب الواو - مادة (وجد) (٥٢٨) .
(٢) ينظر : مختار الصحاح مادة (ولي) (٣٣٠) .
(٣) ينظر : مختار الصحاح (٣٣٠) ، وأساس البلاغة – مادة (ولي) .
(٤) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني - كتاب الواو مادة (ولي) (٥٤٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذه الآية استئناف ابتدائي ؛ لبيان فضائل الأعمال ، وصحيح الأقوال ؛ لأن قوله – تعالى – قبل هذه الآية: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ مشعر بالنهاية ، وهو تذييل، فجاءت الآية : - هنا - بمعنى جديد ، على طريق الاستئناف الابتدائي ، وقد جاء ردّاً على مزاعم اليهود والنصارى ، وما كان من بعض المسلمين على طريق الإجابة لأقوالهم بما يناسب كلامهم – كما سبق بيانه في سبب الترول - ، فأنزل الله – تعالى – هذا البيان الذي ليس بعده بيان ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الآية ، فاتضح الأمر لذي عينين أن من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله واقتدى فهو من أهل السعادة في الجنة ، ومن عصى الله ورسوله وغوى فهو من أهل الشقاوة في نار جهنم خالداً فيها أبداً .

وفي الآية الشريفة لون من الإطناب يتمثل في الإيضاح بعد الإبهام ، ودائماً يعلمنا القرآن أن الأمر المهم لا بد من بيانه وتوضيحه ، فإن الإبهام يدفع النفس إلى التساؤل فتشرئب إلى البيان ، ويتفرغ الذهن إلى الخبر الكاشف عن هذا الإبهام ، فإذا ورد واضحاً بعد تأهب النفس له ، واستعدادها للقائه ، دخل في النفس من أوسع الأبواب وتمكن فيها أيما تمكن ، ففي قوله - تعالى -: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ﴾ إبهام يجعل المتلقي يتساءل : إذا كان ما وعد الله من الثواب لا ينال بالأماني (١)،فما الحال وماذا سيكون ؟ فجاء البيان بقوله - تعالى - : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ... ﴾ الآية ؛ فكانت هذه الجملة بهذا النظم الفريد بمثابة الإجابة الحاسمة على سؤال تردد في القلب عن هذا النفي المجمل ، وصارت النفس بهذا التردد محلاً لقبول الخبر الصادق المطمئن لهذه النفس الوجلة ، وهذا ما يعرف عند البلاغيين بالاستئناف البياني ؛ ولذا جاءت الجملة مفصولة؛ لأن فيها شبه كمال اتصال كما هو معلوم عند البلاغيين (٢) ، ويؤكد هذا في واقع الحياة ما روي أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – كيف الصلاح بعد هذه الآية ؟ فقال - ﷺ- : " غفر الله لك يا أبا بكر ، ألست تمرض ؟ أليس تصيبك

---

(١) ينظر : الكشاف للزمخشري (٢ / ١٥١) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٥ / ٢٠٨) ، علم المعاني ، د. فيود (٢ / ١٦٠ – ١٦١) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآلام ؟ فهو ما تجزون به " [1] .

وفي الحديث طرق تؤدي كلها إلى ميدان واحد وهو أن المصيبات في الدنيا للمؤمن جزاء له عن سيئات وقعت منه ، حتى يأتي يوم القيامة طاهراً لا خطيئة عليه ، فضلاً من الله ونعمة ، وفي هذه الجملة وردت " من " المفيدة للعموم، فكل من يعمل يجازى على ما عمل إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشر ، فللمؤمن الجنة ، وللكافر النار .

ووصل بهذه الجملة أخرى بـ " الواو " ليكون الجواب بهاتين الجملتين : ﴿ يُجْزَ بِهِۦ ﴾ ، و ﴿ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ ، فهذه الجملة زيادة توكيد للجملة السابقة ؛ لرد عقيدة من يتوهم أن أحداً يُغني عن عذاب الله تعالى [2] .

ومجيء التوكيد بالوصل ؛ يثير تساؤلاً حول ما قرره البلاغيون فيما انتهوا إليه من مسائل الفصل والوصل على نحو ما سبق تناوله من هذا البحث ، فإن التوكيد من قبيل كمال الاتصال ،وهو واضح هنا ، فإن انتفاء وجود الولي والنصير تأكيد للحاق الجزاء بمن عمل السوء ، وما أظن أن أحداً يماري في ذلك ، والذهاب إلى أن ذلك من قبيل التوسط بين الكمالين لمجرد أن الجملتين خبريتان لفظ أو معنى غير دقيق ؛ لأن بين المعنيين تلازماً ينفي استقلال كل منهما كما تفيده المغايرة بالعطف .

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الإساءة في سياق الجزاء وعداً ما جاء في سورة الأنعام في قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ ﴾ [الأنعام: ٥٤] .

عن ماهان الحنفي قال : جاء ناس إلى النبي - ﷺ - فقالوا : إنَّا أصبنا ذنوباً عظاماً فما رد عليهم شيئاً ، فلما ذهبوا وتولوا نزلت هـذه الآيـة : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه أحمد في المسند (١ / ١١) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٣ / ٣٧٣) ، والحاكم في المستدرك (٣ / ٧٤ ، ٧٥) ، وابن حبان (١٧٣٧) ، وأبو يعلى (١ / ٩٧) .

(٢) ينظر : روح المعاني (٤ / ٢٤٠) ، التحرير والتنوير (٥ / ٢٠٨) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ ،وقال عكرمة : نزلت في الذين نهى الله – عز وجل – نبيه ﷺ عن طردهم ، وكان النبي - ﷺ - إذا رآهم بدأهم بالسلام (١) .

حملت الآية الكريمة بشرى لأهل الإيمان بإعلان التوبة والرجوع إلى الله تعالى ، وهي في مقام التعليم والإرشاد من الله – سبحانه – لنبيه ﷺ بعد أن نهاه عن طردهم فيما سبق : ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢] .

وكان التعليم إكراماً من الله – تعالى – لرسوله ﷺ ملاطفة لهم ؛ ولذا كان الكلام على تقدير : وإذا جاءك الذين يحتقرون الضعفاء من عبادي فلا تحفل بهم ؛ لأن الذي لم يؤمن لا كرامة له ولا تكريم ، أما من آمن وعمل عملاً صالحاً فله كرامة وتكريم عند الله ورسوله والناس ، وهذا الكلام عام لكل إمام مع المؤمنين ، فأهل الله لهم خصوصية الإكرام وأهل الدنيا لهم المهانة بين الأنام ، وما الله بغافل عما تعملون (٢) .

ويلفت النظر في هذه الآية الألفاظ : سلام ، رب ، جهالة .

فلفظ ﴿ سَلَـٰمٌ ﴾ : مصدر أو اسم مصدر للفعل (سلم) ،أو جمع للمفرد (سلامة) ، وهو اسم شجر ، وهو – أيضاً – اسم من التسليم ، والسلام من أسمائه تعالى، والسلام : البراءة من العيوب(٣) .

وهذا اللفظ في الآية يصلح لأن يراد به معاني متعددة كلها يصلح لأن تكون واقعة في الغرض المراد به . كما بين ذلك أهل العلم ؛ وهي :

دعاء بالسلامة ، كقولك : سلمت سلاماً (٤) .

أو : سلام من الله عليكم ؛ ليكون من الله إليهم تكريماً وتشريفاً ؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم : " الحمد لله الذي جعل في أمتي من أبدؤهم بالسلام " (٥) ؛ لأن الرسول

---

(١) ينظر : لباب النقول في أسباب النزول (١٢٨) ، أسباب النزول للواحدي (١٥٦) .
(٢) ينظر : نظم الدرر للبقاعي (٣ / ٦١) ، تفسير أبي السعود (٢ / ٣٧٢) .
(٣) ينظر : مختار الصحاح للرازي - مادة (سلم) (١٥٥) .
(٤) ينظر : تفسير الرازي (١٣ / ٤) ، اللباب لابن عادل (٨ / ١٧٤) .
(٥) أخرجه الطبري في التفسير (١٣ / ١٢٥) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ٢١) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤ / ٢١٩) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- ﷺ - كان يبلغهم بهذا السلام من الله إذا دخلوا عليه ، مع أن الأصل أن يكون الداخل هو المسلم ، لكن جعل هذا تشريفاً لهم على غير العادة ؛ فضلاً من الله وكرماً .

وجاء ﴿ سَلَـٰمٌ ﴾ بالتنكير ، لكنه مخصص بكونه دعاء بالسلامة والكرامة [١] ؛ لذا صح جعله مبتدأ بهذا المسوغ ، وخبره " المسند " ما تعلق به الجار والمجرور .

وقد يكون المعنى قبول الأعذار ، وهو داخل في معنى السلام بمفهوم الأمان ، أي : أنت مؤمن ، وعذرك عما كان مقبول ، وهذا من حسنات الإسلام ، فقد أمَّن الله العباد بهذا السلام ، وفيه أحاديث شهيرة [٢] .

وفي دائرة معنى " السلام " يستفاد أنه تحية من رسول الله - ﷺ - جاءهم من الله – تعالى – تكريماً لهم ، وقبولاً لأعذارهم ، وستراً لعيوبهم ؛ ولذا قال ابن عباس _ رضي الله عنهما - : إن المعنى: اقبل عذرهم واعترافهم ، وبشرهم بالسلامة مما اعتذروا منه [٣] .

وهذا التعبير قد استعملته العرب فيما بينها ليكون القادم في أمان ، خصوصاً إذا لم يكن بين المتلاقين تعارف من قبل ، وقد دعا إليه ما كان يحدث كثيراً بينهم قبل الإسلام من حروب ؛ ولذا كان القدوم مع السلامة تأميناً لكلٍّ من القادم والقاطن ، وجاء الإسلام فجعلها تحية المحبة والألفة [٤] .

ولفظ " رب " مضافاً إلى ضمير المخاطبين أوثر على لفظ (إلهكم) بالإضافة أيضاً ؛ لأن لفظ الرب فيه معنى التربية بالنعم ، وهو ألصق بالسياق هنا ؛ لأنه - جل شأنه - أراد أن يبشرهم بأمر فيه نعمة من أعظم النعم وأجلها وهي الرحمة الماثلة في الغفران لمن عمل سيئة بجهالة ، تبعها توبة وصلاح ، ولو قيل (إلهكم) لم يكن فيه إيماء إلى تلك النعمة ؛ لأن لفظ الإله معناه المعبود بحق ، وهو لا يومئ إلى تلك النعمة .

ولفظ (جهالة) مصدر جهل جهالة ، أي : سَفِه وجفا ، وهو ضد الحِلْم ، وفي

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٤ / ١٤٢) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٧ / ٢٥٦) .

(٣) ينظر : روح المعاني (٥ / ٣٤٠) ، الكشاف (٢ / ١٢٥) ، تفسير أبي السعود (٢ / ٣٧٢) .

(٤) ينظر : البحر المحيط (٤ / ١٤٢) ، فتح القدير (٢ / ١٣٧) ، نظم الدرر للبقاعي (٣ /٦١) ، التحرير والتنوير (٧ / ٢٥٦) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التنزيل العزيز يقول - سبحانه - : ﴿ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧] ، وجاء - أيضاً - بمعنى عدم المعرفة في قوله -سبحانه -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦] .

وبهذا يكون ﴿ بِجَهَٰلَةٖ ﴾ متعلقاً بالفعل ﴿ عَمِلَ ﴾ ، فـــ (الباء) للسببية ، أو أن (الباء) للمصاحبة ، أي : عمل عملاً مصاحباً للجهالة ، وهي السفه وعدم العمـــل بمـــا عَلِمَ[١] ، وقد قال الحسن - رضي الله عنه - : " كل من عمل معصية فهو جاهل " [٢]، أي : لا يعلم ، أو أنه آثر المعصية على الطاعة [٣] ، والكلام في أسرار التراكيب يزيـــد هذا إيضاحاً .

هذا في المفردات أما في التركيب فيلحظ في قوله - تعالى- : ﴿ 2 3 4 5 6 ﴾ أنه قد اختيرت أداة الشرط (إذا) ، وهي موضوعة لما هو متوقع الحصول ، فكأن القرآن يشير إلى أن مجيء هؤلاء المؤمنين أمر متوقع حصوله ، ولذا ورد فعل الشرط (جاء) على صورة الماضي مع (إذا) التي يقع في خبرها المضارع كما في قوله - تعالى - :﴿ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [القلم: ١٥] .

فإيثار الماضي- هنا - ؛ للإيماء إلى تحقق الوقوع ، فكأنه يراد أن يقال : سيتحقق مجيئهم حتماً ، وعندئذ فقل سلام عليكم .

و أوثر مجيء المسند إليه على صورة الموصول ؛ لما تتضمنه الصلة من الصفة المشيرة إلى سبب البشرى ، فتبشرهم بما كتب ربهم على نفسه سببه الإيمان ، وعبر عن الإيمان في جملة الصلة بلفظ المضارع للدلالة على التجدد ، فإيمانهم يتجدد تجدداً استمراريا مع تجدد الزمن إلى أن يلقوا ربهم ، وكلما نظروا في آيات الله ازدادوا إيماناً على إيمان، وهذا هـــو معنى التجدد الاستمراري ؛ وقد يكون المراد بالتجدد سرعة الإنابـــة والرجـــوع إلى الله كلما رنت على قلوبهم غفلة أوقعتهم في معصية .

---

(١) ينظر : اللباب (٨ / ١٧٩) .
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٥ / ٢٠٧) .
(٣) ينظر : تفسير الطبري (٥ / ٢٠٧) ، تفسير القرطبي (٦ / ٢٨٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد أضيف متعلّق الفعل (يؤمنون) إلى ضمير العظمة (بآياتنا)؛ للإيماء إلى الشعور العميق بعظمة الله الذي يجعل الإيمان شديد الرسوخ والثبات في قلوبهم ؛ ولذا جاء جواب الشرط أمراً له – عليه الصلاة والسلام – بما يلزم قوله وهو : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ ﴾ ، فمقول القول المأمور به جملتان :

الأولى : سلام عليكم ، والمسند إليه فيها نكرة يشتم منها رائحة التعظيم ، أو التكريم ومن ثم كان ذلك مسوغاً للابتداء بها [1] ، والمسند شبه جملة، وحرف الجر فيها (على) لإفادة التمكين ، أعني إفادة تمكن السلام منهم كما تمكن المستعلي من المستعلى عليه [2] ، فالسلام ينسدل عليهم ليشملهم من جميع الجوانب كما ينسدل الثوب من أعلى الرأس شاملاً جميع الجسد ، وفي ذلك من الأمان ما لا يخفى ، والجملة بأسرها خبرية لفظاً إنشائية معنى ؛ لأنها دعاء لهم بالسلام والأمان ، وقُدِّم السلام ؛ لإفادة التأمين لهم قبل الحديث معهم ؛ يكون القدوم بخير إذا قرن بالسلام ؛ ولذا كانت تحية الإسلام بين جميع المسلمين : (السلام عليكم) ، أفراداً وجماعات رجالاً ونساء في جميع الأحوال.

الثانية : قوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ ﴾ ، وعرف فيها المسند إليه بالإضافة إلى ضمير المخاطبين ، وفي التعريف بها إشعار بالرضوان وبث الأنس والطمأنينة في نفوسهم، فهو ربهم المنعم عليهم بصنوف النعم ، وجاء التعبير عن المسند بلفظ (كتب) الذي يعني - في الأصل - التسجيل بالقلم مراداً به الإيجاد على سبيل الوعد ؛ إذا لا يوجب أحد عليه شيئا ، ولذلك قيد بالجار والمجرور (على نفسه) ، وكان هذا الوعد بهذه الصيغة وثيقة ضمان في يد المؤمن تمنحه الثقة فيما وعد به ، ومن أوفى بعهده من الله ؟!

وعرف المفعول (الرحمة) بأل التي للجنس ، وهي تفيد الشمول ، والاستغراق ؛ ليفيد هذا الشمول سعة رحمة الله التي لا تحدها حدود .

واستخدام ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بصيغة المبالغة ؛ لإفادة التوكيد على سعة فضله على

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٤ / ١٤٢) .

(٢) ينظر : روح المعاني (٥ / ٣٤٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التائبين ، وزاد التوكيد توكيداً بالحرف (أنه)، وهذا كله يؤدي إلى شمول رحمته لعباده ، ومغفرته لذنوب التائبين ؛لأنه أكرم الأكرمين (١) .

ثم يأتي بعد ذلك الخبر المهم بعد التأمين بالسلام ، فقال سبحانه : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ ، فهذه الجملة هي أول المقصود ؛ ولذا كانت مستأنفة استئنافا ابتدائياً ، وجملة السلام مقدمة الكلام ، وجملة "كتب " خبرية يقصد منها : التبشير لهم بنيل المطالب ، وسعة رحمة الله - تعالى – عليهم، وعلى كل عباده ، خصوصاً أهل الإيمان ، والفقراء منهم على الوجه الأخص ، و (مَنْ) موصولة أو شرطية تفيد العموم ، وتنكير ﴿ سُوءًا ﴾ للتعميم .

وتقييد المسند (عمل) بالحال (منكم) ؛ لإفادة أن هذا العمل الصادر منهم – وهم أهل إيمان – سيكون في محل الغفران ؛ ولذا كان القيد بالحال محل الفائدة كما يقول البلاغيون (٢) .

وتقييد الفعل مرة أخرى بالجار والمجرور (بجهالة) أي : فعل ذلك السوء متلبساً بجهالة ، وقد سبق أن الجهالة تؤدي إلى الضرر في العاقبة ، وهو عالم بذلك أو ظان ، فمن كان كذلك صار من أهل السفه لا من أهل الحكمة والتدبير ؛ ولذا قال الحسن - رضي الله عنه - : " كل من عمل معصية فهو جاهل " (٣) .

وأفادت (ثم) الترتيب والتراخي؛ لبيان سعة رحمته – أيضاً – حيث لا يغضب على عبده وقد طال زمن الآثام ، وعطف (وأصلح) على (تاب) ؛ لإفادة أنه أتى بالتوبة مع شروطها مداوماً على ذلك ، وسمي صلاحاً ؛ لأن الله قد غيَّر حاله من السوء إلى الإصلاح ، وجاء الجواب: ﴿ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بهذا الربط بـ (الفاء) .

وفي قوله : ﴿ فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ... ﴾ إيجاز بالحذف ، حُذِف الخبر ؛ لأن التقدير: (أمركم سلام) .

---

(١) ينظر : تفسير القرطبي (٦ / ٣٨٠) .
(٢) ينظر : المطول (١٥٢) ، الأطول (١ / ١٩١) .
(٣) ينظر : روح المعاني (٥ / ٣٤١) ، وأخرجه الطبري في تفسيره (٥ / ٢٠٧) ، الباب لابن عادل (٨ / ١٧٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا ، والمتأمل في سياق هذه الآية يجدها مرتبطة بما قبلها وهو قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴿٥٢﴾ ﴾ الآية [الأنعام : ٥٢] عن طريق الواو ؛ للتوسط بين الكمالين ؛ فالجملتان إنشائيتان لفظاً ومعنى ، إذ الأولى نهي والثانية أمر ، لأن جواب الشرط فيها أمر كما لا يخفى .

أما جملة ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ ، فقد فصلت عما قبلها ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ مع أنهما – معاً – مقول القول ، لأن الأولى خبرية لفظاً إنشائية معنى ، والثانية خبرية لفظاً ومعنى ، وكذا فصلت جملة ﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴾ عما قبلها ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ ، لأنها بدل بعض من كل، فغفران الذنوب بعض أنواع الرحمة ، ويمكن أن تكون استئنافاً ، لتضمن الأولى سؤالاً تقديره : وما هذه الرحمة ؟ ، فكانت الثانية جواب هذا السؤال المضمن ، فقيل: ﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

وكذلك يلحظ المتأمل وصلاً بطريق الحرف (ثم) بين جملتي ﴿ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴾ و ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ؛ فالجملتان واقعتان صلة للموصول (من) .

وفي اختيار الحرف (ثم) إيماء إلى تطاول زمن عمل السوء ، وتراخي زمن التوبة، وفي ذلك نوع من الرحمة ، لأن الله يفتح للعبد باب التوبة مهما كثرت معاصيه ، حتى لا ييأس من رحمة الله .

ولكن جملة ﴿ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ارتبطت بجملة ﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ ﴾ بالفاء ؛ إيماء إلى سرعة قبول التوبة ، والمبادرة من الله بالرحمة والمغفرة، ولا عجب في ذلك فقد وعد الله عباده بذلك حيث قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ .

وفي هذه الآية من التصوير البياني قوله - تعالى -: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ، فهو استعارة مكنية شبه فيها السلام بالثوب بجامع الإحاطة والشمول في كل ، ثم تنوسي التشبيه ،

---

(١) ينظر : المطول (١٥٢) ، الأطول (١ / ١٩١) ، روح المعاني (٥ / ٣٤١) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واستعير الثوب للسلام ، ثم حذف المستعار وهو الثوب ، ودل عليه بشيء من خصائصه وهو كونه عليهم على سبيل الاستعارة المكنية .

وكذلك قوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ ؛ فهو استعارة تبعية ، شبه فيها الإيجاب بالكتابة بجامع تحقق الحصول في كل ، ثم تُنوسي التشبيه ، واستعيرت الكتابة للإيجاب ، ثم اشتق من الكتابة بمعنى الإيجاب (كتب) بمعنى أوجب على سبيل الاستعارة التبعية ، وفي هاتين الصورتين إبراز الأمر المعنوي في صورة محسوسة ، تملأ النفس روعة ، ولينظر المتذوق إلى السلام في صورة الثوب الذي يحيط المرء من جميع جوانبه فيحميه مما شأنه أن يؤذي ، وإلى الإيجاب يظهر في صورة الصك يكتب لمن له استحقاق في أمر من الأمور . أليس ذلك أدعى إلى الإقبال على الله ، وإخلاص الوجه له ؟!

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الإساءة في سياق الجزاء وعيداً وعدلاً ما جاء في قوله - تعالى -: ﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٧] .

هذه الآية وما قبلها رد لإنكار مشركي العرب أن يُنزِّل الله كتاباً على بشر ، فأخبرهم أن هذا الكتاب أنزل إليكم وهو مبارك فاتبعوه ، واتقوا الله الذي أنزله لعلكم ترحمون ، وهذا التكريم بإنزال القرآن لئلا تقولوا إن اليهود والنصارى أُنزل عليهم كتابهم بلغتهم ونحن لا نعرف عنها شيئاً ، ولو نزل إلينا بلغتنا لكان لنا شأن ، فهذا هو القرآن بلسان عربي مبين ، فيه البيان والهداية والرحمة ، فمن كذب به بعد ذلك فلهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ، وفي هذا البيان تنبيه وإيقاظ .

وبالنظر في مفردات هذه الآية الشريفة يلحظ استعمال كلمتين دون ما يقاربهما

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في المعنى :

أولاهما : (بينة) فقد أوثرت على ما يقرب منها وهما كلمتا : ظاهرة ، وواضحة ، والسر في هذا الإيثار – فيما يلوح لي – أنها أبلغ منهما ، وأقوى في أداء المعنى فمادتها (ب ، ي ، ن) تدور حول القطع ، والفصل ، فقطع الشيء يعني تباعد أجزائه بعضها عن بعض بحيث لا تكون بينهما شابكة ، وكذلك الفصل بين الشيئين يؤدي إلى تمايز أحدهما من الآخر بحيث لا يكون بينهما أي اتصال ، وهذا ما يلمحه الناظر في استعمالات هذه الكلمة ؛ " فالبين ... والبعد ... والفصل بين الأرضين ، وارتفاع في غلظ ، وقدر مد البصر ، وجلس بين القوم : وسطهم ، ولقيهُ بعيدات بَيْنٍ إذا لقيه بعد حين ثم أمسك عنه ثم أتاه ، وبانوا بينونة : فارقوا ، والشيء بيناً ، وبُيُوناً : انقطع ... وبانت المرأة عن الرجل ... انفصلت عنه " [1] .

فهذه الاستعمالات كلها تشير إلى القطع والفصل بحيث لا يبدو أي اتصال بين المنقطعين أو المنفصلين ذلك أن البعيد عن الشيء منقطع عنه ، والفصل بين الأرضين تقطع الصلة بينهما ، والمرتفع في غلظ يقطع المنخفض من جميع جوانبه ، ومد البصر مقطوع ومفصول مما بعده ؛ إذ إنه لا يُرى، والجالس وسط القوم يمنع اتصال بعضهم ببعض ، والمفارقون منفصلون عمن فارقوهم متباعدون عنهم ، والمرأة البائنة منفصلة عمن كانت زوجته وصارت محرمة عليه ، فإذا قيل : بان الشيء فهو بين ، فإن المراد أنه انكشف انكشافاً تاماً لا مجال للجهل به ؛ لانقطاع الخفاء عنه ، وانفصاله فيه ، وقد ألمح الأصفهاني إلى هذا المعنى المحوري في إشارة عاجلة حين قال : " يقال : بان كذا أي: انفصل وظهر ما كان مستتراً منه، ولما اعتبر فيه معنى الانفصال والظهور استعمل كل واحد منفرداً فقيل للبئر البعيدة القَعْر بَيُونٌ لبعد ما بين الشفير والقَعْر ؛ لانفصال حبلها من يد صاحبها " [2] .

وهذا بخلاف الظهور ، فإن مادته (ظ ، هـ ، ر) تدور حول الإدراك والكثرة

---

(١) القاموس المحيط : باب النون - فصل الباء .

(٢) المفردات في غريب القرآن - كتاب الباء ، مادة (بين) (٧٧) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والقوة . لكنها لا تعني الانفصال والتمايز التام للأشياء بعضها ، فالظهر المال الكثير ، والخبر ، والظهير المعين، وغير ذلك من الاستعمالات التي لا تخرج عن هذا المعنى المحوري[1] ، وكذلك الوضوح، فإن مادته (و ، ض ، ح) تدور حول ما يدرك بالبصر فالوَضح بياض الصبح ، والقمر ، والبرص ، والغرة ، والتحجيل في قوائم الفرس ، والشيب ، والدرهم الصحيح ، ومحجة الطريق ، وصفار الكلأ ، ... واستوضح الشيء وضع يده عليه ، وغير ذلك من الاستعمالات التي لا تخرج عن المعنى المركزي [2] .

وعلى ذلك فإن إيثار لفظة (البينة) ؛ للإيماء إلى أن هذا الكتاب دليل واضح لا لبس فيه ، على أنه من عند الله ، وفيه الحجة القاطعة على صدق من أوحى به إليه ، وفيه الدليل الواضح على ألوهية الموحي به .

وثانيتهما : كلمة (صدف) وقبل أن أبحث عما يلامسها في المعنى ، أحاول أن أوضح المراد بها أهو (أعرض) أو (صرف) .

وبالرجوع إلى أهل العلم من المفسرين أجد الزمخشري يُلمح إلى أنها بمعنى (صرف)؛ إذ يقول : " ... (وصدف عنها) الناس فضل وأضل " [3] .

وأدرك أبو السعود ما ألمح إليه ، فقال مصرحاً بما ألمح إليه : " ... (وصدف عنها) أي : صرف الناس عنها فجمع بين الضلال والإضلال " [4] .

أما السيوطي فرأى أنها بمعنى (أعرض) ، وعلق عليه الشيخ الجمل قائلاً : " (قوله اعرض عنها) بين بهذا أن صدف لازم ، وقد يستعمل متعدياً ، ولذا قال أبو السعود : "وصدف أي صرف الناس عنها " [5] ، ثم نقل عن القاموس المحيط، ومختار الصحاح ما يزيد كون الفعل لازماً ومتعدياً ، فيكون متعدياً بمعنى صرف ، ولازماً بمعنى أعرض .

وإيثار هذه الكلمة على ما يلامس معناها لون من الإعجاز إذ يكون مؤدياً معنى

---

(١) ينظر : القاموس المحيط باب الراء - فصل الظاء .

(٢) ينظر : القاموس المحيط باب الحاء - فصل الواو .

(٣) الكشاف للزمخشري (٢ / ١٩٣) .

(٤) تفسير أبي السعود (٢ / ٤٥٣) .

(٥) الفتوحات الإلهية (٢ / ٤٧١ – ٤٧٢) ، وينظر : تفسير الجلالين على هامش الصفحة نفسها .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هاتين الكلمتين مع ما تشير إليه مادتها من الشدة في الإعراض ، والغلو فيه ، وهذا ما صرّح به الأصفهاني حيث قال : " صدف : أعرض إعراضاً شديداً يجري مجرى الصدَف أي الميل في أرجل البعير ، أو في الصلابة كصدَف الجبل أي جانبه " [١] .

وفي قوله هذا إيماء إلى أن تلك المادة (ص ، د ، ف) تدور حول معنى مركزي هو الانحراف القبيح في الشيء أو الصلابة البالغة الشدة ، ولا يؤدي هذا المعنى التعبير بالإعراض ، أو الصرف فمجرد الإعراض ، أو الصرف لا يستأهل الوصف بالظلم البالغ المدى كما يفهم من الاستفهام الذي وقعت هذه الكلمة في سياقه .

فإذا انتهى النظر إلى التركيب ألفى المتأمل في البيان القرآني كلمة (أو) العاطفة على ما سبق من قوله : ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا ... ﴾ ليكون المعطوف حاملاً للمفترض الثاني من الحذر المحتمل - لو لم يجئهم الكتاب المبين -؛ ذلك أنه لا يخرج عن أمرين :

الأول : أنهم لم يكونوا على علم بما أنزل من التوراة والإنجيل على غيرهم .

والثاني : أنه لو أنزل عليهم الكتاب لكانوا أكمل أو أتم هداية منهم .

وفي التعبير بلفظ القول منصباً على ما بعده ﴿ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ إيماء إلى الزعم الذي لا حقيقة له ، ويؤكد هذا الإيماء ما يشير إلى الإلزام بما كان يمكن ادعاؤه من كمال الاهتداء، وهو قوله : ﴿ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ ﴾ ذلك أن المعنى إن كنتم صادقين فيما زعمتم فآمنوا فقد جاءكم الكتاب المبين .

وفي الجملة الشرطية – مقول القول – يلحظ المبالغة في الإدعاء ، ماثلة في اللام الواقعة في جواب الشرط ، وفي التعبير بالجملة الإسمية المسلط عليها الفعل (كان) وفي الإخبار بأفعل التفضيل (أهدى) ، فقد كان يمكن أن يقال : لو أنزل علينا الكتاب اهتدينا ، لكن سيق القول مساق التأكيد إمعاناً في الإدعاء المأمول فيه أن يقع موقع التصديق .

---

(١) المفردات في غريب القرآن : كتاب الصاد - مادة (صدف) (٢٨٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن ثم جيء بجملة الإلزام الواقعة موقع التحدي في صورة بالغة الروعة والإعجاز؛ حيث جيء بالفاء مشيرة إلى شرط محذوف ، إيجازاً غايته المعاجلة في الرد المقصود به توهين ما زعموا ، فقيل: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ ﴾ ،فما بعد الفاء جواب الشرط ، والأصل : إن كنتم صادقين فقد جاءكم ، وقد ألمح الزمخشري إلى هذا الحسن وإن لم يبين سره فقال : " فحذف الشرط وهو من أحاسن الحذوف " (١) .

كما جاء هذا الجواب مؤكداً بقد . وفي ذلك من توهين زعمهم ما فيه ، فكأنه قيل: فقد جاءكم بينة من ربكم .. فأين ما زعمتم من الاهتداء فضلاً عن كماله ؟؟

وتنكير المسند إليه (بينة) ، وما عطف عليه (رحمة)، للتعظيم، وقيد المسند (جاءكم) بالجار والمجرور (من ربكم) مع إيراد المجرور بلفظ الربوبية الموحية بالتربية ، وما تستلزمه من اللطف والإصلاح للمربَّ ، وذلك كله قصداً لإيقاظ الشعور في دخيلة المخاطبين بلزوم التصديق بما جاءهم، وضرورة الإيمان بهذا الرب الذي حباهم بهذه البينة وبالهدى والرحمة .

وقد جاءت الجملة التالية (فمن أظلم ...) ؟ مصدرة بفاء التفريع، ومفرغة في قالب الاستفهام الإنكاري الذي يراد به التهويل ، والتوبيخ ، وهي خبر سِيق في صورة الاستفهام كأنه يريد جواباً من أهل النصفة مؤداه لا أحد أظلم ، وفي ذلك إيماء إلى وصفهم بالظلم في أشد صوره ؛ لأنه إذا قيل في الجواب الْمُومَأ إليه (لا أحد أظلم فمن كذب بآيات الله) كان المعنى اللازم : أنتم أظلم الظالمين .

وعطفت جملة ﴿ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ على جملة ﴿ كَذَّبَ بِءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ مع أنها تتضمنها ؛ فإن المكذب بالأمر يصدف عنه ، ولا يقبل عليه ؛ لتكون بمثابة الدليل عليها ، فإن الصدف دليل واضح على التكذيب .

وفي التعبير بالموصول (مَنْ) مرتبطاً بفعل التكذيب، والصدف إظهار في مقام الإضمار ، وفي ذلك نكتتان بلاغيتان :

الأولى : ارتباط أشد الظلم وأوْغَله بالتكذيب والصدف .

---

(١) الكشاف للزمخشري (٢ / ١٩٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والثانية : الالتفات من ضمير الخطاب في (جاءكم ... وربكم) إلى الغيبة ، وسر هذا الالتفات الإيحاء بهوانهم ، وقلة شأنهم ، لأنهم ليسوا أهلاً للخطاب بسبب التكذيب والصدف ، وفي إيثار لفظ الجلالة المضاف إلى آيات في قولـــه: ﴿ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾ تفظيع لجرم التكذيب لما في لفظ الجلالة من الإشارة إلى علو القدر ، ولا جرم فهو السيد المالك لهذا الكون المصرف لأمره .

وإضافة ﴿ سُوٓءَ ﴾ إلى ﴿ ٱلْعَذَابِ ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ؛ لبيان قـــوة الصفة ، أي: شدة العذاب .

وأوثر المصدر المؤول على المصدر الصريح في قولـــه: ﴿ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴾، حيث لم يقل : (بصدفهم) ؛ لما في الأول من التعبير بالفعل المعبر عن الحدث مـــصحوبا بالزمن ، وتضمنه الدلالة على تجدد الحدث تجددا استمراريا كلما تجدد الزمن .

وإظهار الموصول في مقام الإضمار ؛ لتحقيق مناط الجزاء من بعد ، وبيان ســـبب ماستحقوه من العذاب المهين [(١)] .

ومن الصور البيانية ماجاء في قوله – تعالى – : ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ ﴾ تشخيص القرآن الكريم بالإنسان بجامع المجيء والقدوم والحركة في كل ، ثم تنوسي التـــشبيه ، ثم استعير الإنسان للقرآن ، ثم حذف اللفظ المستعار وهو الإنسان ، ورمز له بشيء مـــن لوازمه وهو (المجيء) على سبيل الإستعارة المكنية ، والقرينة (جاءكم) .

وفي نهاية المطاف ، أرى - والله أعلم - أن هذه الآية كاشفة لهم عما في أنفسهم ، فاضحة لسرائرهم ، ومبطلة لاعتلالهم ، ومبينة لهم أن الحق أبلج ، وهذا هو القـــرآن ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟! وما ربك بغافـــل عما تعملون .

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٢/٤٥٣) ،التحرير والتنوير (٨/١٧٨) ، نظم الدرر (٣ /١٦٦)، روح المعاني (٦/٧٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الإساءة في سياق الجزاء وعداً وعــدلاً قوله - تعالى - : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

في هذا القول الكريم قرَّر الله – سبحانه – على نفسه الرحمة في حساب عباده ، فجعل لمن جاء بالحسنة - وهو مؤمن- عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ؛ لا يظلم ربك أحداً ولا يبخسه حقه .

وثمة سؤال مهم وهو : هل المراد في العدد التحديد ؟ ، وقد تعددت رؤى المفسرين في الجواب على هذا السؤال ؛ فقد قال بعضهم : التقدير بالعشرة ليس المراد منه : التحديد ، بل المراد منه : الإضعاف مطلقاً ؛ كقول القائل : " إذا أسديت إلي معروفاً لأكافئنك بعشرة أمثاله " ، وفي الوعيد : " لئن كلمتني كلمة واحدة ، لأكلمنك عشراً " ولا يريد التحديد ، فكذلك هنا ، ويدل على أنه ليس المراد التحديد ، قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : ٢٦١] [١] ،وقال ابن عمر – رضي الله عنه – : ما مؤداه أن حقيقة العدد هنا مرادة مقصودة ؛ ذلك أن (الآية في غير الصدقات) [٢] ، وأيّاً كان الأمر فالحسنة مضاعفة الجزاء ، والسيئة لا يجازى مقترفها إلا بما يساويها ، فسبحان الكريم الجواد .

وليس في مفردات هذه الآية ما يلفت النظر لاستجلاء سر التعبير به، وإيثاره على ما يقرب من معناه سوى الفعل ﴿ جَآءَ ﴾ ؛ فقد عبر به دون ما يقرب منه في المعنى ، وهو " أتى " أو كسب ، أو اجترح ، أو اقترف ؛ لأن المقام هنا مقام المجازاة على ما كان من فعل حسن يستتبع الثواب ، أو فعل شيء يستتبع الجزاء ، أما الإتيان والكسب ،

---

(١) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (٥ / ٤١٥) ، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٥/ ١٤٣١) ، المحرر الوجيز لابن عطية (٢ / ٣٦٨) ، معالم التنزيل للبغوي(١٤٦/٢) ، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩٨/٧) ، البحر المحيط لأبي حيان (٢٦١/٤) ، الدر المصون للسمين الحلبي (٢٢٦/٣) ، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي (٥٣٠/٨) ، فتح القدير للشوكاني (٢٠٨/٢) ، تفسير القاسمي (٨٠٣/٦) ، التحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٤/٨) ، مدارك التنزيل للنسفي(٥٢٠/١) .

(٢) ينظر : اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي (٨ / ٥٣٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والاجتراح ، والاقتراف ، فقد عبر بكل منها في الموضع الذي ورد فيه ؛ لأنه في مقام الإغراء والتحذير ، وبيان أن العدل في الجزاء يقتضي مقابلة كل بما يناسبه من ثواب أو عقاب .

"فالإتيان مجيء بسهولة ، ومنه قيل للسيل المار على وجهه أَتِيٌّ ... ويقال في الخير وفي الشر ... نحو قوله ... ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ [التوبة : ٥٤]، وقوله : ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ ﴾ [النساء : ١٥] " (١) .

ففي الآية الأولى نفى عن المنافقين إتيان الصلاة إلا في حال كسل ؛ لأنها شاقة عليهم، وليس لهم من الإيمان ما يدفعهم إلى القيام بها في شوق تنشط به أجسامهم، وتقوى عزائمهم ، وفي الثانية عبر عن ارتكاب الفاحشة بالإتيان ؛ لأن قوة الشهوة تدفعهن إليها دفعاً فيخففن إليها ، فمقام التعبير بالإتيان هنا هو الوصف لحال الفاعل عند ممارسة الفعل.

أما الكسب فيستعمل فيما يتوجه إليه القصد ، ويتحراه الفرد من بني آدم لما يتوقعه فيه من النفع ، قال الراغب : " الكسب ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع ، وتحصيل حظ ككسب المال ، وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أنه يجلب منفعة ، ثم استجلب به مضرة . والكسب يقال فيما أخذه الإنسان لنفسه ولغيره ، ... والاكتساب لا يقال إلا فيما استفدته لنفسك " (٢) .

ولعله لهذا الفرق غلب استعمال الكسب في الخير ، والاكتساب في الشر، وإن كان لفظ الكسب يستعمل فيهما معاً ، فمما استعمل فيه الكسب في الخير قوله - تعالى - : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ﴾[البقرة:٢٠١ - ٢٠٢] ، ومما استعمل فيه الكسب في الشر قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٠] ، ومما استعمل فيه الكسب للخير ، والاكتساب للشر قوله- تعالى - : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة :٢٨٦] ، وذلك لملاحظة

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب - كتاب الألف (أتى) (١٨) .

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب : كتاب الكاف - مادة (كسب) (٤٣٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفرق الذي سبقت الإشارة إليه ، وهذا ما بينه الإمام الزمخشري بقوله : " فإن قلت : لم خص الخير بالكسب ، والشر بالاكتساب ؟ قلت : في الاكتساب اعتمال ؛ فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهي منجذبة إليه ، وأمارة به كانت في تحصيله أعْمَلَ وأَجَدَّ فجعلت لذلك مكتسبة فيه ، ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال " (١) .

ولا يخفى أن إيثار لفظ الكسب والاكتساب هنا ؛ لأنه في مقام بيان الأساس الذي يترتب عليه الثواب والعقاب ، وأن الجزاء من جنس العمل ترغيباً وترهيباً، وهذا ما أفصح عنه أبو السعود حيث قال : " ... قوله: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ ﴾ للترغيب في المحافظة على مواجب التكليف ، والتحذير من الإخلال بها ببيان أن تكليف كل نفس ... تتضمن مراعاته منفعة زائدة ، وأنها تعود إليها لا إلى غيرها ، ويستتبع الإخلال به مضرة تحيق بها لا بغيرها ، فإن اختصاص الفعل بفاعله من أقوى الدواعي إلى تحصيله ، واقتصار مضرته عليه من أشد الزواجر عن مباشرته " (٢) .

أما الاجتراح ، والاقتراف فإنهما يستعملان في التعبير عن الوقوع في الإثم ، وفيهما إيماء إلى شدة الرغبة في مباشرته ، مما يدل على شدة المخالفة ، وقبح المعصية ؛ ذلك أن : " الجُرح : أثر داء في الجلد . يقال جَرَحَه جُرْحاً فهو جريحٌ ومجروح ، ... وسمي القَدْحُ في الشاهد جُرْحاً تشبيهاً به ، وتُسمَّى الصائدة من الكلاب والفهود ، والطيور جارحة ، إما لأنها تجرح ، وإما لأنها تكسب .قال عز وجل : ﴿ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ [المائدة :٤] ... والاجتراح اكتساب الإثم ، وأصله من الجِرَاحَة " (٣) .

كما أن : " القرف والاقتراف : قَشْرُ اللحاء عن الشجر والجلدة عن الجرح ، واستعير الاقتراف للاكتساب حسناً كان أو سوءاً قال : ﴿ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ﴾[الأنعام :١١٣] .... ﴿ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا ﴾ [التوبة : ٢٤] ، والاقتراف في الإساءة أكثر استعمالاً " (٤) .

---

(١) الكشاف للزمخشري (١٥٩) .
(٢) تفسير أبي السعود (١ / ٣٢٧ – ٣٢٨) .
(٣) المفردات للراغب - كتاب الجيم (جرح) (٩٧) .
(٤) المفردات للراغب - كتاب القاف (قرف) (٤٠٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكونهما بهذه المثابة عبر بالاقتراف في سياق الحديث عن أعداء الأنبياء ، وكيف يزخرفون القول لتـــــزيين السوء ليقع فيه من يغـــــتر بباطلهم ، وهذا ما نراه في قولـــه - تعـــــالى -: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الأنعام : ١١٢ – ١١٣] ، فزخرف القول هذا إنما تصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ويرضونه ، فيقترفون من الآثام ما شاءت لهم شهواتهم . قال أبو السعود : " إنما خص بالذكر عدم إيمانهم بالآخرة دون ما عداها من الأمور التي يجب الإيمان بها وهم بها كافرون، إشعاراً بما هو المدار في صفو أفئدتهم إلى ما يلقى إليهم ، فإن لذات الآخرة محفوفةٌ في هذه النشأة بالمكاره ، وآلامها مزينة بالشهوات، فالذين لا يؤمنون بها وبأحوال ما فيها لا يدرون أن وراء تلك المكاره لذّات، دون هذه الشهوات آلاماً، وإنما ينظرون إلى ما بدا لهم في الدنيا بادئ الرأي، فهم مضطرون إلى حب الشهوات " (١) .

أما لفظ الاجتراح فقد استعمل في سياق بيان المفارقة بين حال المؤمنين وحال الكافرين ليظهر جلياً انتفاء المساواة بينهما ، وذلك ما نراه في قوله - تعالى -: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] . قال أبو السعود تعقيباً على قوله - تعالى - : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ : " استئناف مسوق لبيان تباين حالي المسيئين والمحسنين إثر تباين حالي الظالمين والمتقين " (٢) .

لذلك كان التعبير بلفظ (جاء) في هذا السياق الكريم أبلغ ؛ لأن المقام مقام المجازاة على فعل وقع ممن أحسن أو أساء ، فكان كلا من المحسن والمسيء جاء مصطحباً معه ما عمل ، ليتلقى جزاءه فضلاً أو عدلاً .

فهذه الآية الكريمة جاءت بطريق الاستئناف الابتدائي ، على عادة القرآن في

---

(١) تفسير أبي السعود (٢ / ٤٣٢ – ٤٣٣) .

(٢) تفسير أبي السعود (٦ / ٦٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الانتقال من غرض إلى آخر ؛ لأنه – سبحانه – عندما قال : ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] كان هذا إجمالاً،ثم فصل هذا فيما جاء بعد : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، وهذا حال المنذرين بما كانوا يصنعون ، ثم بشر أهل الإيمان بالفلاح فقال - جلت حكمته - : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ... ﴾ (١) .

و (من) شرطية أو موصولة ، تفيد العموم لكل مؤمن ؛ وتقديم الجار والمجرور لتعجيل المسرة لمن جاء بالحسنة ، وتعجيل المساءة لمن جاء بالسيئة ، وقدم الخير تفاؤلاً وتبشيراً ، والعدد ﴿ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ يراد به الكثرة والمبالغة في العطاء من الله سبحانه ، وقد دلت الأحاديث على ذلك ؛ فقد روى أبو هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله - ﷺ - : " إذا أحسن أحدكم إسلامه ، فكل حسنة يعملها تكتب بعشر أمثالها إلى سبعمائة ، وكل سيئة يعملها تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل " (٢).

وتقديم المسند إليه (هم) على المسند الفعلي يفيد القصر ، وكون الفعل مضارعاً يفيد القصر ، وكون الفعل مضارعاً يفيد تجدد نفي الظلم تجدداً استمرارياً ، والمعنى : لا يكون ذلك أبدا (٣) .

والملحظ البلاغي هنا : أنه في جانب السيئة أتى بالقصر ﴿ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾؛ إظهاراً للكرم الإلهي مع العدالة الرحيمة ، مع الإخبار عما سيكون في واقع الأمر ، بل إن ذلك لمن لم يتب ، وإذا تاب العبد تاب الله عليه ، وهذا من فضل الله – سبحانه – على عباده المؤمنين ، وهو قصر تعيين طريقته النفي والاستثناء .

وقد وصل بين الجملة الأولى والثانية بالواو ؛ للتوسط بين الكمالين، فقال سبحانه : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وبالنظر في قوله - تعالى - : ﴿ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ ، نلاحظ أن العدد مذكر والمعدود كذلك ، وربما قيل : هذا مخالف للقاعدة النحوية ، ولكن السر البلاغي الكامن وراء

---

(١) ينظر : تفسير أبي السعود (٢ / ٤٦٨) ، فتح القدير (٢/ ٢٠٨) ، التحرير والتنوير (١٩٤/٨) .

(٢) أخرجه مسلم (١ / ١١٨) ، الحديث (٢٠٥ / ١٢٩) ، وأخرجه أحمد (٢ / ٣١٧) ، من حديث أبي هريرة .

(٣) ينظر : دلائل الإعجاز (١٧٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ذلك : أن العدد رُوعي فيه جانب المعنى ؛ لأن الأمثال هي الحسنات ؛ ولذا ذكر العدد مراعاة لهذا الجانب ، أو على تقدير مضاف محذوف ، أي : فله عشر حسنات أمثالها ، ثم حذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، فكان الحكم على الأصل ، وهذا خلاصة ما قيل [١] .

ثم جاء التذييل الحكيم بقوله - سبحانه - : ﴿ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ ، وهذا من بيان الحال الواقع ، أي : لا ينتقص من ثواب طاعتهم ، ولا يزاد على عقاب سيئاتهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم .

والتعبير عن العمل الصالح أو السيئ من المؤمن بقوله - سبحانه - : ﴿ جَآءَ ﴾ من باب الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل ، أو أن الكلام كله تمثيل [٢] .

ويصح أن يكون المجيء على حقيقته ، أي : مجيء المؤمن إلى يوم الحساب ومعه كتابه بيمينه ؛ وبهذا يكون الكلام على حقيقته ، واعتبار المجاز فيه مبالغة .

ومن الفنون البديعية في الآية الكريمة : المقابلة بين قوله - تعالى - : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا ﴾ ، وبين قوله - تعالى - : ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا ﴾ ، والتي توحي بمدى سعة رحمة الله في حسابه لعباده .

---

(١) ينظر : الكشاف (٣٥٤) ، نظم الدرر للبقاعي (١٧٠/٣) ، التحرير والتنوير (١٩٤/٨) .

(٢) وعلى تقدير أنها استعارة تبعية يقال : شبه الكسب بالمجيء بجامع الحصول في كل ، ثم تنوسي التشبيه ، وادعى أن الكسب من أفراد المجيء ، ثم استعير المجيء للكسب ، ثم اشتق منه جاء بمعنى كسب على طريق الاستعارة التبعية .

وعلى تقدير التمثيل يقال : شبهت الهيئة الحاصلة من مقارنة العبد لعمله ، بالهيئة الحاصلة من مجيء الإنسان حاملاً قناعة، ثم تنوسي التشبيه ، وادعى أن الهيئة المشبهة من أفراد الهيئة المشبه بها ، ثم استعيرت الهيئة المشبه بها للهيئة المشبهة على سبيل الاستعارة التمثيلية .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الباب الثاني

بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى

ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في سياق التكليف.

الفصل الثاني : بلاغته في التعبير عن الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة.

الفصل الثالث : بلاغتـــــــــه في التعبير عن الأذى في سياق التنفير منه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الأول

بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في سياق التكليف

في هذا الفصل يمثل التكليف الإطار العام الذي يتراءى لفظ الأذى في كنفه، ومن ثم فإن النهج الذي سأترسمه هو عرض الآيات التي ورد التكليف فيها درءاً لـلأذى محاولة رصد ما يتاح لي الوقوف عليه أو استشفافه من ملامح بلاغية .

وأول ما أبدأ به من ذلك قوله - تعالى ﷻ: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وللوقوف على ما تتضمنه الآية من درء للأذى ناسب التعرف على سبب النزول ، وهو ما روي من أن الرسول - ﷺ - خرج هو وصحابته - رضوان الله علـيهم – في ذي القعدة من العام السادس من الهجرة قاصدين بيت الله الحرام بمكة المشرَّفة معتمرين، فحاول المشركون صَدَّهُم عن البيت الحرام، ولم يشأ رسول الله - ﷺ - أن يقاتلـهم؛ فبدل طريقه الذي يفضي به إلى الحرم مارًّا بالتنعيم بطريق آخر إلى يساره ، ولكن ما إن وصل الرسول- ﷺ- إلى ثنية المرار حتى بركت ناقته القصواء ، فقال رسول الله- ﷺ : «حبسها حابس الفيل، والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها».

ثم عدل الرسول والمسلمون عن طريقهم حتى نزلوا بأقصى الحديبية ، ودارت بين الفريقين كثير من المحادثات التي انتهت بعقد «صلح الحديبية» الذي كان من شروطه: أن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يرجع الرسول - ﷺ - من عامه هذا فلا يدخل مكة، على أن يكون له دخولها العام المقبل. وبذلك حيل بين الرسول - ﷺ - وصحبه وبين دخول مكة للعمرة التي كانوا قد أحرموا بها، وكان لا بد لهم من تشريع يوضح لهم كيف يتصرفون في مثل هذا الموقف[(١)] .

وجاء في لباب النقول أنه: " جاء رجل إلى النبي - ﷺ - متضمخ بالزعفران ، عليه جُبَّةٌ فقال:كيف تأمرني يا رسول الله في عمرتي ؟ فأنزل الله: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ، فقال : أين السائل عن العمرة ؟ قال : هأنذا ، فقال له : ألقِ عنك ثيابك ، ثم اغتسل ، واستنشق ما استطعت ، ثم ما كنت صانعاً في حجِّك فاصنعه في عمرتك " [(٢)].

وإضافة إلى هذا الموقف العام المتمثل في الإحصار [(٣)] عن البيت الحرام، تعرض بعض المسلمين للمرض والأذى، فكان المسلمون أيضًا بحاجة إلى تشريع يبين لهم السبيل إلى معالجة هذا الأذى حال الإحرام ، وهو ما تكفلت به هذه الآية الكريمة - أيضًا - في قوله - تعالى -: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ ﴾ [البقرة:١٩٦] .

فقد روي عن ابن عباس[(٤)] – رضي الله عنه – أنه قال: نزلت هذه الآية الكريمة في كعب بن عجرة [(٥)]، قال كعب: مر بي رسول الله ﷺ زمن الحديبية ونحن محرمون ، وقد

---

(١) ينظر : اللباب لابن عادل الحنبلي (١٩٦/٣) ، التحرير والتنوير (٢١٦/٢ – ٢٢٥) .

(٢) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (٣٨ ، ٣٩) ، وينظر : الرحيق المختوم للمباركفوري (٣٠٨ – ٣١٣) .

(٣) الإحصار في اللغة المنع والحبس .
وفي الشرع المنع من بعض أعمال معينة في الحج أو العمرة على تفصيل في المذاهب ، يمكن الرجوع له في : تبيين الحقائق (٧٧/٢) ، بدائع الصنائع للكاساني (١٧٥/٢) المهذب لأبي إسحاق الشيرازي (٣٣٢) ، نهاية المحتاج (٣٥١/٣) ، كشاف القناع (٦٣١/١ ، ٦٣٢) .

(٤) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمي ، ابن عم النبى ﷺ وصاحبه، وحبر الأمة وفقيهها، وترجمان القرآن، روى ألفًا وستمائة حديث، اتفق البخارى ومسلم منهم على خمسة وسبعين ، مات سنة ثمان وستين هـ .
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٦٩/٢)، تهذيب التهذيب (٢٧٦/٥)، تقريب التهذيب (٤٢٥/١).

(٥) كعب بن عجرة بن أمية بن عُدي بن عبيد بن الحارث، القضاعي، البلوي، حليف القواقل، أبو محمد المدني، روى سبعة وأربعين حديثا ، مات سنة إحدى وخمسين .
ينظر: الخلاصة (٣٦٥/٢)، وتهذيب الكمال (١٧٩/٢٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حصر المشركون ، وكان شعر رأسي كثير القمل والصئبان، وهو يتناثر، وأنا أطيح به، فرآني، فقال – عليه السلام -: «أتؤذيك هوام رأسك؟». قلت: نعم يا رسول الله، قال: «احلق رأسك»؛ فأنزل الله - تعالى - هذه الآية الكريمة[1].

وفي رواية عن كعب بن عجرة – رضي الله عنه - أيضًا قال: «حُملت إلى النبي والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «ما كنت أرى الجَهْد قد بلغ بك هذا! أَما تجد شاة؟»، قلت: لا، قال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك»، فنزلت هذه الآية فيَّ خاصة، وهي لكم عامة[2].

والمغزى الذي تدور حوله هذه الآية - إجمالاً - هو بيان أحكام الحج والعمرة لمن أحصروا ولم يتمكنوا من إتمام شعائرهما، وكذلك أحكام من أصيب بمرض أو أذى في إحرامه، وأحكام من تمتع بالعمرة إلى الحج[3].

ولا يخفى ما لهاتين الشعيرتين من منزلة سامية في قلوب المؤمنين، تجعلهم يُهْرَعون إليهما من كل حدب وصوب، ممتثلين لأمر الله تعالى، ومتجردين من متاع الدنيا وشواغلها، مقبلين بقلوبهم وأرواحهم على الله تعالى ، والله – تعالى - يباهي بهم ملائكته، وهو يعلم ما يتعرضون له من مشاق ومتاعب في سبيل الوفود إليه لأداء تلك الشعائر، ويعلم أنه قد يحول بينهم وبين ذلك بعض الحوائل: من عدو يصدهم عن البيت الحرام، أو مرض أو نازلة تحول دون إتمام الشعائر؛ فيقابل الله - تعالى - إحسانهم بالإحسان، وهو الأهل لذلك سبحانه ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] ،ومن جزاء إحسانهم أن أحسن الله - تعالى- إليهم بأن بيَّن لهم الطريق الذي يسلكونه؛ ليخلصهم من الحرج إذا هم أُحصروا عن أداء شعائرهم.

فالمسلمون مأمورون بمقتضى هذه الآية الكريمة بإتمام الحج والعمرة، خالصَيْن لله

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧١/٥) كتاب المغازي باب غزوة الحديبية (٤١٩١)، ومسلم (٢٠/٤، ٢١)، والترمذي (١٦١/٢)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٣/٤) كتاب المحصر، باب الإطعام في الفدية نصف الصاع (١٨١٦) ومسلم (٨٦١/٢) كتاب الحج باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى (١٢٠١/٨٥) .
وينظر : لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (٣٨ ، ٣٩) ، وينظر : أسباب النزول للواحدي (٤١ ، ٤٢ ، ٤٣) .

(٣) ينظر: نظرات في كتاب الله، زينب الغزالي (١١٧/١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى، متنزِّهين عن الرياء، ما لم يمنعهم عن إتمامهما مانع يحول دون ذلك من عدو أو مرض، فإن كان مانعٌ مَنَعَهم من إتمام الشعائر بعد أن أحرموا بالحج أو العمرة، وأرادوا أن يتحللوا من إحرامهم، فعليهم أن ينحروا ما استيسر لهم من الهدي، ولا يجوز لهم أن يحلقوا رءوسهم أو غير ذلك مما ينافي الإحرام قبل أن يبلغ الهدي مَحِلَّه، أي: مكانه الذي يجب أن يذبح فيه، وهو الحرم.

أما من أصيب بمرض يُحْوِجه إلى حلق رأسه، أو كان برأسه أذى من قمل أو جراحة، ونحو ذلك، فإنه يجوز له أن يحلق شعره، وعليه الفدية[1]: صيام ثلاثة أيام، أو أن يتصدق على ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع[2] من قمح، أو ينحر شاة[3].

وإذا لم يكن إحصار وكان المسلمون في أمن وسعة، فمن تمتع منهم بالعمرة إلى الحج، فعليه ما استيسر من الهدي، وهو نحر شاة، أو سبع بقرة أو جمل، يذبحه يوم النحر [4].

فإذا لم يكن المتمتع واجدًا للهدي، فعليه أن يصوم عشرة أيام، منها ثلاثة في الحج قبل يوم عرفة، والسبعة الباقية يصومها إذا رجع إلى داره، ويُستثنى من ذلك أهل مكة؛ فإنهم يستطيعون أداء العمرة في جميع أيام السنة؛ ومن ثم فهم يفردون الحج ولا يضمون إليه العمرة[5].

ويختم الله - تعالى - هذه الأحكام بالأمر بتقواه تعالى، والتحذير من عقابه؛ فإنه -

---

(١) قال الجوهري: فداه، وفاداه: إذا أعطي فداءه، فأنقذه، وفداه بنفسه، وفداه، إذا قال له: جُعلت فداك، والفدية، والفداء والفدا، كله بمعنًى إذا كسر أوله، يمد ويقصر، وإذا فتح أوله، قصر، وحكى صاحبُ المطلع عن يعقوب: فداءك ممدودا مهموزا، مثلث الفاء.

ينظر: الصحاح (٦/٤٥٦)، المطلع على أبواب المقنع، (١٧٧).

(٢) الصاع - كما في القاموس - أو الصواع بالضم والكسر أو الصوع ويضم: الذي يكال به.

وفي الاصطلاح: يعتبر الصاع من أشهر المكاييل العربية والتي ذكرها الفقهاء فهو من مضاعفات المد فهو مكيال يسع أربعة أمداد، وهو خمسة أرطال وثلث، وقيل: ثمانية أرطال.

ينظر: القاموس المحيط (صوع)، النهاية في غريب الحديث (٣/٥)، المقادير الشرعية (١٦٥، ١٦٦).

(٣) ينظر: الإنصاف (٣/٥٠٧)، المغني لابن قدامة (٣/٢٥٩)، المجموع (٧/٣٢٤)، مغني المحتاج (١/٥٣٠)، المحلى لابن حزم (٧/٢١٢)، شرح معاني الآثار (٢/٢٥٠).

(٤) ينظر: المجموع (٨/٢١٩)، البحر الرائق (٣/٥٨)، تبيين الحقائق (٢/٧٨) .

(٥) ينظر: الكشاف (١/٢٣٨-٢٤٢)، اللباب (٣/٣٥٧-٣٨٨)، تفسير القرآن الكريم، د/ عبد الله شحاتة (١/٢٩٥-٢٩٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عز وجل - شديد العقاب لمن خالف ما بيَّنه من أحكام، أو ارتكب ما نهى عنه، أو قصر فيما أمر به[1].

أول ما يثير ذهن المتأمل لبلاغة القرآن الكريم في تلك الآية الكريمة هو ما بدأ به الحقُّ سبحانه - الآيةَ من الأمر بالإتمام ﴿ وَأَتِمُّواْ ﴾ عادلاً بذلك عن الأمر بالإقامة ﴿ وَأَقِيمُواْ ﴾ ، على نحو ما جرى به الذكر الحكيم في الأمر بالصلاة وغيرها من الفرائض؛ كما في قوله - تعالى -: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الروم : ٣١].

وكما ورد الأمر بإقامة الشهادة، فقال - تعالى - : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ [الطلاق: ٢]، والأمر بإقامة الدين، في قوله - تعالى - : ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، والأمر بإقامة الميزان، في قوله - تعالى - : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الرحمن: ٩] .

وقد ورد في القرآن الكريم الأمر بالإتمام ثلاث مرات: إحداها هذه الآية ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ، والثانية: قوله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، والثالثة: قوله - تعالى - : ﴿ فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ [التوبة: ٤] .

وبالتأمل العام لهذه الآيات التي ورد فيها الأمر بالإتمام، وتلك التي ورد فيها الأمر بالإقامة يظهر أن ما جاء فيه الأمر بالإقامة أمور تتكرر كثيرًا، بخلاف الأمور التي ورد فيها الأمر بالإتمام، حيث تَحْدُث عادة مرات معدودة في العمر، وقد راعى النَّظْم القرآني هذا الفارق؛ فورد الأمر فيما يتكرر كثيرًا أمرًا مخفَّفًا ﴿أَقِيمُواْ ﴾ ، وورد الأمر فيما يتكرر بصور أقل مشدَّدا ﴿ أَتِمُّواْ ﴾ .

ووجه التخفيف والتشديد في الأمرين: أن الإقامة لا تستلزم الإتمام، والإتمام يستلزم الإقامة، بمعنى: أنه حيث ورد الأمر بالإقامة، فإن هذا لا يعني وجوب إتمام هذا العمل إذا نواه الإنسان، كالصلاة إذا نوى المرء الدخول فيها لم يجب إتمامها بهذه النية، وإنما يجوز له الخروج منها، بخلاف الحج والصوم؛ فإن ورود الأمر بالإتمام فيهما يقتضي وجوب

---

(١) ينظر: نظرات في كتاب الله (١/١١٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إتمامهما بمجرد صدور نية الدخول فيهما من المرء، فلا يجوز له بعد ذلك الخروج منـهما قبل تمامهما[1].

فالإقامة في الصلاة تكون بتعديل الأركان وأدائها كاملة ، أما في الحج فلا تـؤدى الأركان ناقصة .

والإتمام يكون في الحج ؛ لأن فيه توقيت زمني لا يتصور فيه الإخلال إلا إذا ارتكب الشخص معصية .

فالأركان في الحج لا تؤدى إلا كاملة بخلاف الركن في الصلاة فإنه قد يؤدى كاملاً، وقد لا يؤدى كاملاً . بأن يركع مثلاً ولا يُعطى الركوع حقه ، أو يـسجد ولا يُعطـى السجود حقه .

فأركان الصلاة قد تؤدى غير كاملة ؛ لذلك أُمروا بالإقامة .

ومن ذلك حديث الرسول - ﷺ - للمصلي في المسجد بعد أن فرغ من صلاته ، فقال له : (ارجع فصلِ فإنك لم تصلِ) فرجع فصلى كما صلى ، ثم كررها عليه ثلاثاً ، فقال في الثالثة : والذي بعثك بالحق يا رسول الله ما أحسن غيره فعلمـني ، فقـال - ﷺ-: إذا قمت إلى الصلاة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركـع حـتى تطمئن راكعاً ، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم اجلس حتى تطمئن جالساً ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، وافعل ذلك في صلاتك كلها[2] .

أما أركان الحج من طواف وسعي والوقوف بعرفة لا تؤدى إلا كاملـة ، فـالجمع الحاشد بطبيعته يجعل الإنسان يؤدي الركن كاملاً بخشوع ، فالتوقيت الزمني باحتـشاد ذلك العدد الهائل من حجاج بيت الله الحرام في وقت واحد وزمن واحد لا يُتصور فيـه الإخلال بأركان الحج أو عدم الخشوع فيها إلا إذا ارتكب معصية .أما الصلاة فيخشى فيها من عدم الخشوع .

والألف واللام في قوله - تعالى - : ﴿ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ ﴾ إنما هما لتعريـف العهـد ؛ وذلك لأن الحج والعمرة عبادتان قد اشتهر أمرهما لدى المخاطبين؛ حيـث يقـصدون بالحج: زيارة الكعبة في موسم معين في وقت واحد بأركان معلومة، ويقصدون بـالعمرة:

---

(١) ينظر: أنوار التتريل (١/١٠٦).

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

زيارة الكعبة في غير موسم معين، لكل فرد بخصوصه[1].

واللام في قوله - تعالى - : ﴿لِلَّهِ﴾ أفادت التخصيص، وفائدته: أن العرب كانت تقصد بحجها الاجتماع، والتظاهر، وحضور الأسواق، وقضاء الحوائج، دون أن يكون لله - تعالى - في حجهم حظ يقصد، ولا قربة تعتقد، بل لوَّثوا شعائر الحج بضلالاتهم وخرافاتهم حين تقربوا فيه إلى أصنامهم، فوضعوا (هبل)[2] على الكعبة، و(إسافًا) و(نائلة)[3] على الصفا والمروة؛ فكانوا بذلك مشركين بطوافهم وسعيهم، مرائين بحجهم، قاصدين نفع أنفسهم منفعة دنيوية رخيصة زائلة، فنبه الله - تعالى - المؤمنين إلى ذلك بهذا التخصيص ﴿لِلَّهِ﴾ ، موجهًا إياهم إلى أنه يجب أن يكون قصدهم من حجهم هو أداء فرض الله - تعالى - ، وأداء حقه، منزهين عبادتهم عما يشينها من الفعال الذميمة، والأفعال السيئة، والنوايا القبيحة[4].

وثمة لمحة أخرى في التقييد باللام في قوله - تعالى - : ﴿لِلَّهِ﴾ ، تتمثل في التلويح إلى المؤمنين بأن الحج والعمرة وإن كان يحصل منهما للمشركين في ذلك الوقت منفعة؛ بحكم أنهم سَدَنَةُ البيت، وأن تلك المنفعة التي تحصل للمشركين من شأنها ألا تروق للمؤمنين؛ إذ هم لا يعجبهم حصول النفع لهؤلاء المشركين الذين منعوهم وصدوهم - فإن هذا كله ينبغي ألا يكون مصدر سأم للمسلمين، أو تنفيرٍ عن الحج والعمرة ؛ لأنهما ليسا من أجل المشركين، وإنما يحج المسلم ويعتمر من أجل الله تعالى، وطلبًا لمرضاته، والشيء الصالح المرغوب فيه إذا حَفَّ به ما يكرهه المرء، لا ينبغي أن يكون ذلك سببًا في الانصراف عنه[5].

وجاء الشرط في قوله - تعالى - : ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ بلفظ (إِنْ) التي تفيد الشك؛

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير مج (١) (٢/٢١٧).

(٢) كانت لقريش أصنام في جوف الكعبة، وكان أعظمها عندهم (هبل)، وهو من العقيق الأحمر على صورة الإنسان، مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكان يقال له: هبل خزيمة.

ينظر: الأصنام لابن الكلبي (٤٣)، الملل والنحل (٢/٢٣٧)، نشوة الطرب (١/٧٨)، البداية والنهاية (٢/١٩١)، المحبر (٣١٨).

(٣) هذان الصنمان كانا لقريش لما مسخا حجرين وضعا عند الكعبة ليتعظ الناس بهما.

ينظر: الأصنام (٤٤) ، المحبر (٣١٨)، شفاء الغرام (٢٤٥) ، أخبار مكة (١/١١٩).

(٤) ينظر: اللباب (٣/٣٥٨)، التحرير والتنوير مج (١) (٢/٢٢٠)، تفسير القرآن الكريم (١/٢٩٧).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير مج (١) (٢/٢١٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لأن مضمون هذا الشرط سوء وكربة على المسلمين؛ ولذلك ألقى الله - عز وجل - الكلام إليهم إلقاء الخبر المشكوك في حدوثه ووقوعه؛ وذلك للتخفيف، والإشعار بما سيكون من صد المشركين لهم ومنعهم من العمرة(١).

وعدل الحق - سبحانه وتعالى - في قوله: ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ عن صيغة (تَفعَّل): (تَيسَّر) إلى صيغة (اسْتَفعَل): (اسْتَيْسَر)؛ ليدل على الزيادة في اليسر؛ ومن ثم قيل: إن المراد بما استيسر من الهدي: هو الشاة؛ لأن الهدي من الإبل والبقر والغنم، والشاة أيسرها(٢). وهذا على قول من قال: (استيسر) بمعنى تيسر.

وأما على قول من قال: (استيسر) بمعنى: يَسَر، فإن السين والتاء قد أكسبتا الصيغة تأكيدًا؛ كقولك: (استصعب) بمعنى: صعب؛ إذا أردت تأكيد الصعوبة، وعلى هذا يكون في (استيسر) تأكيد لليسر؛ بحيث يطلب اليسر من جميع الوجوه، أي: ما أمكن من الهدي بإمكان تحصيله، وإمكان توجيهه(٣).

وتنكير ﴿ مَّرِيضًا ﴾ و﴿ أَذًى ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ ﴾ يفيد التعليل والتعميم(٤)؛ فيشمل جميع الأمراض والأذى الذي ينافي مقتضيات الإحرام؛وفي ذلك تأكيد على يسر الإسلام ، ودفع المشقة عن الناس في أوامره وتعاليمه.

و﴿ مِّن ﴾ في قوله - تعالى- : ﴿ مِّن رَّأْسِهِۦ ﴾ تشير إلى أن المرض أو الأذى إنما يرد من جهة الرأس، وهي أفضل من (في) التي تفيد الظرفية، فتحصر الأذى في الرأس فقط، في حين أن (مِنْ) تعطي دلالة أن الأذى قد يبتدئ من الرأس، ثم ينتقل وينتشر إلى غيرها من الأعضاء؛ كما أن في استخدام (مِنْ) إثارة للذهن والانتباه، وتأكيدًا على التفاعل بين المتلقي المتدبر للقرآن الكريم وبين النص القرآني ، حيث وردت (مِنْ) تارة بيانية كما في قوله - تعالى -: ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾، وقوله - تعالى -: ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ ﴾ ، وتارة ثانية ابتدائية كما في قوله - تعالى - : ﴿ مِّن رَّأْسِهِۦ ﴾ ، وتارة ثالثة تبعيضية، كما في قوله - تعالى -: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾ .

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير مج (١) (٢/٢٢٢).
(٢) ينظر: المغني لابن قدامة (٣/٢٩٤)، الأم (٢/٢٢٢)، البحر الرائق (٣/٥٨)، بدائع الصنائع (٢/٢٢٤).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير مج (١) (٢/٢٢٤).
(٤) ينظر: المسلك المتقسط (٢٧٣)، المبسوط (٤/١١٤)، المنتقى للباجي (٢/٢٧٢)، حاشية الدسوقي (٢/٩٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كما أن اشتمال (مِنْ) على حرف الميم يزيد من جمال الجرس الموسيقي لتكرار صوت الميم في كلمات هذه الآية الكريمة، حيث تكرر إحدى وثلاثين مرة في كلماتها.

وجاء الشرط في قوله - تعالى -: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ بلفظ (إذا) التي تفيد التأكيد؛ لأن مضمون الشرط هنا أمر محمود مرغوب فيه، فناسب ذلك استعمال (إذا) بما فيها من التأكيد واليقين؛ ليكون ذلك بمثابة البشرى للمؤمنين.

والتعبير بـ (إلى) في قوله - تعالى -: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ﴾ أبلغ من التعبير بالواو فيما لو قيل: (فمن تمتع بالعمرة والحج)؛ وذلك لأن (إلى) يفهم منها وجود زمن يتخلل ما بين العمرة والحج يكون فيه المرء ليس محرمًا، وهو إشارة إلى الإحلال الذي بين العمرة والحج في التمتع(١) والقران(٢) .

وقد جاء جُلُّ جمل الآية الكريمة مرسَلاً دون تأكيد بشيء من صيغ التوكيد؛ نحو: إنَّ، ولام التوكيد، ونونه... إلخ، فيما عدا قوله - تعالى -: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، حيث جاءت الجملة مؤكدة بـ(أنَّ)؛ للمبالغة في الزجر عن مخالفة ما أمر الله به، أو ارتكاب ما نُهي عنه فيما تقدم من الآية.

والمتأمل في عدم اشتمال باقي الجمل في الآية على صيغ التأكيد المعروفة، يجده يرجع إلى أن الآية مسوقة لبيان جملة من الأحكام التي فيها تخفيف وتيسير على المكلفين؛ الأمر الذي يجعلهم يميلون إلى تطبيقها والعمل بما فيها من ذات أنفسهم؛ رغبة منهم في حصول التخفيف ودفع ما يشق عليهم؛ ومن ثم لم تكن هذه الأحكام بحاجة إلى تأكيد.

غير أنه قد ورد في الآية الكريمة نوع آخر من التوكيد بالوصف في قوله - تعالى -: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾، وهو نوع من الإطناب يأتي بيانه - بمشيئة الله تعالى - في الحديث

---

(١) التمتع في اللغة: الانتفاع، والمتاع هو كل شيء ينتفع به، وما يتبلغ به من الزاد.
والمتعة اسم من التمتع، ومنه متعة الحج، ومتعة الطلاق، وسمي متمتعاً ؛ لتمتعه بعد تمام عمرته بالنساء والطيب وغيرهما مما لا يجوز للمحرم ، ولترفقه وترفهه بسقوط أحد السفرين ، هذا هو معنى التمتع الذي يقابل القران والإفراد .
ينظر: لسان العرب ، حرف الميم مادة (متع) ص(١٣/١٤) ، والمصباح المنير مادة (متع)، المغني (٤٦٨/٣)، كشاف القناع (٤١١/٢).

(٢) القران : اسم مصدر من قرن بمعنى جمع، وهو أن يهل بالعمرة والحج جميعا، فيأتي بهما في نسك واحد.
ينظر : لسان العرب حرف القاف مادة (قرن) ص (٨٨/١٢) ، حاشية الدسوقي (٢٨/٢) ، المجموع (١٤٠/٧) ، مختصر المزني (٦٤/٨) ، كشاف القناع (٤١١/٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عما في الآية الكريمة من الإطناب.

وجاء جل جمل الآية - أيضًا - جملاً فعلية؛ ليتناسب مع مضمونها المعبر عن وقوع أفعال معينة، وما يترتب على وقوعها من حدوث أفعال أخرى، الأمر الذي يجعل صيغة الفعل هي المسيطرة على سياق الآية الكريمة.

والجمل القليلة التي جاءت اسمية، كان الإخبار فيها بالاسم الذي يدل على الثبوت، وهو ما يتناسب مع مقام ذكر الأحكام والتشريع.

كما جاءت بعض الجمل غير مشتمل على أحد ركني الإسناد، كما في قوله - تعالى- : ﴿ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ ، حيث حذف المسند، الذي يمكن تقديره بفعلٍ، أي: فأهدوا ما استيسر من الهدي؛ كما يمكن تقديره بجارٍّ ومجرور، أي: فعليه ما استيسر من الهدي.

ووجه حذف المسند هنا يرجع إلى وضوحه وظهوره من الكلام؛ ومن ثم كان الانشغال ببيان المسند إليه الذي يتشوف المريض أو من به أذى إليه ليحل من إحرامه - أولى من الانشغال بذكر المسند المعروف من مقتضى السياق، وكذلك الأمر في حذف المسند - أيضًا - من قوله تعالى : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ ﴾ ؛ إذ التقدير: فعليه فدية من صيام.

وجاء ترتيب المعطوفات في قوله - تعالى - : ﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ مبتدئًا بالأيسر - وهو الصيام - ومنتهيًا بالأشق - وهو النسك - وقد كان مقتضى الظاهر البداية بالأشق، غير أنه عدل عن ذلك إلى البداية بالأيسر؛ تطييبًا لقلوب الفقراء العاجزين عن النسك بإظهار العناية والاهتمام بشأن الصوم بتقديمه على الباقِيَيْن؛ إذ التقديم لا يخلو عن التعظيم.

وقوله - تعالى -: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ ﴾ الآية ، معطوف على قوله - تعالى- : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وفي هذا إشعار بفضل النفقة في سبيل إتمام الحج والعمرة؛ فهي نفقة في سبيل الله من شأنها أن تحمي المرء من التهلكة، وتجعله في صفوف المحسنين الذين ينعمون بحب الله تعالى .

وقيل: إن قوله - تعالى -: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ ﴾ الآية، معطوف على ما تقدم من قوله- تعالى -: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وفي هذا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول الطاهر بن عاشور: "﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ هذا عود إلى الكلام على العمرة، فهو عطف على قوله: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ إلخ، وما بينهما استطراد أو اعتراض، على أن عطف الأحكام بعضها على بعض للمناسبة طريقةٌ قرآنية، فلك أن تجعل هذه الجملة عطفًا على التي قبلها عطفَ قصة على قصة[1] " .

وقد تنوع العطف في الآية الكريمة، فورد تارة بالفاء في قوله - تعالى -: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾، وقد أفادت هذه الفاء التفريع الذِّكْري، فإنه ذكر أولاً الأمر بإتمام الحج والعمرة، ولما فرغ من ذلك شرع في ذكر ما يتفرع على ذلك من حكم ما يمنع من الإتمام.

وكذلك الفاء في قوله - تعالى -: ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ ﴾ ، فإنها للتفريع الذكري أيضًا عطفًا على ﴿ أُحْصِرْتُمْ ﴾ ، حيث فرغ من بيان أحكام الإحصار، فشرع بعدها في ذكر أحكام التمتع بالعمرة إلى الحج في زمن الأمن، وفي تقديم الحديث عن أحكام الحصر والمشقة على أحكام الأمن ما يشير إلى رغبة الإسلام الأصيلة في دفع العنت والمشقة عن أتباعه، وهو ما أجمله الفقهاء في قاعدتهم: درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح [2].

وجاء العطف بالواو بين المفردات وبين الجمل: ومما جاء بين المفردات قوله - تعالى-: ﴿ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ ﴾ ، وفي الجمع بينهما معجزة من معجزات القرآن الكريم؛ وذلك أنه قد عُلِم مما تقدم أن هذه الآية الكريمة قد نزلت في الحديبية سنة ست من الهجرة، وحينئذ لم يكن الحج قد فرض على المسلمين بعدُ؛ فكان المقصود من الكلام هو العمرة؛ وإنما ذكر الحج على وجه الإدماج؛ تبشيرًا للمؤمنين بأنهم سيتمكنون من الحج فيما بعد[3].

وجاء العطف بالواو - أيضًا - بين المفردات في قوله - تعالى -: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ .

وقد أثار العطف بالواو هنا جدلاً بين العلماء ينبغي الوقوف عنده لبيانه إجمالاً:

---

(١) التحرير والتنوير، مج (١) (٢/٢١٦).

(٢) ينظر: الأشباه والنظائر للسيوطي (١/٨٧)، الاعتصام للشاطبي (٢/٣٣٨)، الفوائد في اختصار المقاصد للسلمي (٥٤)، الموافقات للشاطبي (٢/١٥١).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير مج (١) (٢/٢١٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث أجاز الزمخشري(١) أن تأتي الواو للإباحة؛ فقال: «الواو قد تجيء للإباحة في نحو قولك: جالس الحسنَ وابنَ سيرين ؛ ألا ترى أنه لو جالسهما جميعًا أو واحدًا منهما كان ممتثلاً ؟!»(٢).

ولذا لم يجعل الزمخشري دلالة الواو في قوله - تعالى -: ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ صريحة في الجمع، بل جعلها محتملة للإباحة؛ ومن ثم جاء قوله - تعالى -: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾؛ لنفي توهم الإباحة.

وبهذا جرى الزمخشري وراء الخلافات النحوية حول معاني الواو التي أوصلها الهروي(٣) إلى اثني عشر معنى(٤)، والتي رأى بعضهم - كالمالقي - أنها لا تخلو عن معنى الجمع والتشريك(٥).

ويرى البعض الآخر أن دلالتها على الجمع قد تختلف على نحو ما سبق عن الزمخشري ومن وافقه في مجيء الواو للدلالة على التخيير والإباحة؛ كما في قوله - تعالى -: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء: ٣]، أي: مثنى، أو ثلاث، أو رباع؛ فتكون الواو بمعنى (أو)، وقد صرح بذلك ابن هشام(٦).

والحق أن ما ذهب إليه الزمخشري ومن حذا حذوه في بيان معنى الواو في قوله - تعالى -: ﴿ وَسَبْعَةٍ ﴾ هل هي صريحة في الجمع أو لا؟ لا يعدو أن يكون محاولة لبيان

---

(١) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد، أبو القاسم، الخوارزمى، الزمخشرى من كبار المعتزلة. مفسر، محدث، متكلم، نحوى، مشارك فى عدة علوم. من تصانيفه: الكشاف فى تفسير القرآن، والفائق فى غريب الحديث، وربيع الأبرار ونصوص الأخبار.

ينظر: شذرات الذهب (١١٨/٤)، معجم المؤلفين (١٨٦/١٢).

(٢) الكشاف للزمخشري (٣٤٥/١) .

(٣) علي بن محمد، أبو الحسن الهروي، كان عالمًا بالنحو إمامًا في الأدب، جيد القياس، من تصانيفه: الأزهية في الحروف.

ينظر: بغية الوعاة (٢٠٥/٢)، معجم الأدباء (٢٤٨/١٤).

(٤) ينظر: الأزهية في علم الحروف للهروي، تحقيق: عبد المعين الملوحي (٢٤٢).

(٥) ينظر: رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي، تحقيق: أحمد الخراط (٤١٠) .

(٦) ينظر: مغني اللبيب، ابن هشام الأنصاري (٣٣/٢)

وهو: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام، ولد سنة ٧٠٨هـ، من أئمة العربية، من تصانيفه: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، وعمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب، وغير ذلك، توفي سنة(٧٦١).

ينظر: الدرر الكامنة (٣٠٨/٢)، مفتاح السعادة (١٥٩/١)، النجوم الزاهرة (٣٣٦/١٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعنى النحوي للواو، وقد شغلتهم هذه المحاولة عن السعي وراء اكتشاف بلاغة العطف بها؛ فلم يكن الزمخشري في تجويزه احتمالَ أن تكون الواو للإباحة هنا معتمدًا على حسِّه البلاغي بقدر ما كان معتمدًا على أقوال النحاة، حيث لا يكاد يخرج ما ذكره في هذه الآية عما قال الزجاج[1] فيها، حيث يقول: «والذي في هذا - والله أعلم - أنه لما قيل: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾، جاز أن يتوهم المتوهم أن الغرض ثلاثة أيام في الحج، أو سبعة في الرجوع، فأعلم الله - عز وجل - أن العشرة مفترضة كلها، فالمعنى: المفروض عليكم صوم عشرة كاملة على ما ذكر من تفرقها في الحج والرجوع»[2].

ولم يكن الزجاج والزمخشري إذ أرادا أن يكشفا عن بلاغة العطف في الآية بحاجة إلى كل هذا التكلف، بل كان يكفيهما القول «بأن الجملة جاءت مؤكدة على إكمال صوم هذه الأيام، ومحذرة من التقصير أو التراخي في إتمام هذا العدد»[3].

وهذا ما يدل عليه قول ابن جرير الطبري[4] بعد أن عرض الأقوال في معنى هذه الواو: «وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب قولُ من قال: معنى ذلك: تلك عشرة كاملة عليكم، فرضنا إكمالها؛ وذلك أنه – جل ثناؤه – قال: فمن لم يجد الهدي، فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع، ثم قال: تلك عشرة أيام عليكم إكمال صومها؛ لتمتعكم بالعمرة إلى الحج، فأخرج ذلك مخرج الخبر، ومعناه الأمر بها»[5].

---

(١) إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج: عالم بالنحو واللغة. ولد في بغداد. كان في فُتُوَّته يخرط الزجاج، ومال إلى النحو فعلمه المبرد ، وطلب عبيد الله بن سليمان (وزير المعتضد العباسي) مؤدبًا لابنه القاسم ، فدله المبرد على الزجاج، فأدب له ابنه إلى أن ولي الوزارة مكان أبيه، فجعله القاسم من كتابه، وأصاب في أيامه ثروة كبيرة ، وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب وغيره. من كتبه: معاني القرآن، والاشتقاق، والأمالي، والمثلث. ولد ٢٤١هـ وتوفي في بغداد سنة ٣١١هـ.

ينظر: الأعلام (١/٤٠)، معجم الأدباء (١/٤٧)، إنباه الرواة (١/١٥٩)، تاريخ بغداد (٦/٨٩).

(٢) معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق الزجاج ، تحقيق: د/ عبد الجليل شلبي (١/٢٥٨) .

(٣) الإعجاز في نسق القرآن ، دراسة للفصل والوصل بين المفردات، د/ محمد أمين الخضري ، (١٨٣ – ١٨٥) .

(٤) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، أبو جعفر الطبري، الآملي البغدادي، الإمام العلم، صاحب التصانيف العظيمة والتفسير المشهور، مولده سنة أربع وعشرين ومائتين، أخذ الفقه عن الزعفراني، والربيع المرادي. توفي في شوال سنة عشر وثلاثمائة.

تنظر ترجمته في: طبقات ابن قاضي شهبة (١/١٠٠)، طبقات السبكي (٣/١٢٠).

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن ، لابن جرير الطبري (٤/١٠٩) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وورد العطف بالـــــواو في هــذه الآية ثلاث مرات: إحداها: قوله - تعالى -: ﴿ وَأَتِمُّواْ ﴾ ، وثانيها: قولـــه – تعــالى -: ﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ ﴾،وثالثها: قوله - تعالى-: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ ﴾، وإنما عطفت هذه الجمل بالواو؛ للتوسط بين حالتي كمــال الانقطــاع، وكمال الاتصال.

وبيان ذلك في الموضع الأول: أن قولــه - تعــالى -: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ ﴾ معطوف على قوله - تعالى -: ﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [البقـرة: ١٩٥]؛ وكلتا الجملتين إنشائيتان، وقد وجد بينهما جهة جامعة تتمثل في أن كلًّا منهما يعبر عــن أمر إلهي موجه إلى العباد، والجملتان مع ذلك متغايرتان حيث تَوَجَّهَ الطلب في إحــداهما إلى الإحسان، وفي الأخرى إلى إتمام الحج والعمرة؛ فتحقق بذلك شرط الوصل بــالواو وهو وجود قدر من الاتصال، وقدر من المغايرة بين الجملتين المتعاطفتين، وهو ما أطلــق عليه البلاغيون: الوصل للتوسط بين حالتي كمال الانقطاع وكمال الاتصال[1].

وفي الموضع الثاني: عطف قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ ﴾ على قوله – تعــالى -: ﴿ فَأَتِمُّوٓاْ ﴾، وقد اتفقت الجملتان – أيضًا – في الإنشائية، واختلفتا في مضمون الأمــر والنهي؛ فتحقق بذلك شرط التوسط بين حالتي كمال الانقطاع وكمال الاتصال.

وكذلك الأمر في الموضع الثالث، حيث عطف قوله - تعالى -: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ ﴾ على قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ﴾ وكل منهما جملة إنشائية مغايرة للأخرى في المعنى.

وشرط الوصل بالواو بين الجمل الذي تحقق في المواضع السالفة، قد تخلف بين جملة: ﴿ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ ﴾ وجملة: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ ﴾؛ وذلك لكمال الاتصال بين الجملتين؛ حيث جاءت الجملة الثانية - أي: في الآيــة الكريمــة - مؤكِّدة للجملة الأولى؛ على حــد قولــه - تعــالى -: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ ﴾ [لقمان: ٧].

ومن ذلك قول الشاعر: [الطويل]

ونحــن أنــاسٌ لا تَوَسُّــطَ بيننـــا ... لنا الصَّدرُ دون العالمينَ أو القــبرُ[2]

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ، (١٥٤) ، والتبيان في علم المعاني والبديع والبيان، (١٣٠-١٣٢) ، ومحاضرات في المعاني والبديع، د/ زكريا سعيد على (٣٠-٣١) .

(٢) البيت لأبي فراس الحمداني كما في ديوانه برقم (٥٢) من قصيدة: أراك عصيَّ الدمع، وهو في الوافي بالوفيات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقول الآخر: [الطويل]

وما الدهرُ إلا مِنْ رُواةِ قصائدي إذا قلتُ شعرًا أصبحَ الدَّهْرُ مُنْشِدًا[1]

وفي الآية الكريمة ألوان من الإيجاز والإطناب، اللَّذين يمنحان الجمل والعبارات فصاحة وبلاغة منقطعة النظير:

أما الإيجاز، فقد ورد في الآية إيجاز بالحذف في مواضع:

أحدها: قوله - تعالى -: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾، حيث حذف المفعول به، فلم يبين عن أي شيء حصل الأمن؛ وذلك لدلالة ما سبق عليه، وهو قوله - تعالى -: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾؛ فعلم أن الأمن المراد هو الأمن من الإحصار[2]؛ وبهذا يصل المعنى المراد إلى القارئ بطريق التلميح المُحْوِج إلى التدبر والتأمل وإعمال الفكر للتفاعل مع النص القرآني، دون طريق التصريح الذي يَسِمُ القارئ بالسلبية.

ومن الإيجاز بالحذف - أيضًا - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾؛ لأن الرجل لا يتحلل ببلوغ الهدي محله حتى ينحر، فتقدير الآية الكريمة: حتى يبلغ الهدي محله، فينحر، فإذا نحر فاحلقوا.

ومما يجوز أن يكون من الإيجاز بالحذف – أيضًا – قوله - تعالى -: ﴿أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾؛ فإنه يجوز أن يكون (أذى) معطوفًا على إضمار (كان)؛ لدلالة (كان) الأُولى في قوله - تعالى -: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ [البقرة: ١٨٤] عليها ؛ وحينئذ يحتمل أن يكون اسم (كان) المحذوفة هو ضمير (مَنْ) المتقدمة؛ فيكون (به) خبرًا مقدمًا، و(أذى) مبتدأ مؤخرًا،والجملة من المبتدأ والخبر في محل نصب خبر كان المحذوفة[3].

ويحتمل أن يكون اسم (كان) المحذوفة هو (أذى)، ويكون (به) خبرها وقد قدِّم على اسمها[4].

ومن الإيجاز بالحذف - كذلك - قوله تعالى: ﴿فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ﴾، والتقدير:

(١١/٢٠٣)، المدهش (١/٢٢٩)، يتيمة الدهر (١/٧١)، الحماسة المغربية (١/٧٢٣).

(١) البيت للمتنبي في ديوانه (٢/١٢٦)، خزانة الأدب للحموي (١/٢٠٠)، يتيمة الدهر (١/١٣٩)، الحماسة المغربية (١/٤٤٦)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (٨/٥٧٢)، قرى الضيف لابن أبي الدنيا (١/١٣٩).

(٢) ينظر: اللباب (٣/٣٦٧).

(٣) ينظر: اللباب (٣/٣٧١) ، الإبداع البياني في القرآن العظيم للصابوني (٣٩).

(٤) ينظر: اللباب (٣/٣٧٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فحلَق، فعليه فدية؛ وذلك لأن الفدية لا تجب بحصول الأذى، وإنما تجب بالحلق الذي يراد به التخلص من هذا الأذى؛ فكان لا بد من تقدير محذوف قبل ﴿ فَفِدْيَةٌ ﴾.

وأما ما في الآية من إطناب، فبيانه: أن قوله - تعالى -: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ قد روعي فيه التأكيد بأكثر من جهة، والتأكيد نوع من أنواع الإطناب.

وأول صور هذا التوكيد: تكرار الموصوف في قوله - تعالى-: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ ؛ حيث كرر الموصوف تأكيدًا، كما تقول: زيد رجل عاقل[1].

وثاني هذه الصور: التأكيد بالوصف نفسه؛ لأن الصفة عنصر من عناصر قوة الكلام وتثبيته؛ وقد جاءت الصفة ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ مؤكدة لقوله: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ ﴾ ، وإنما أفادت الصفة التأكيد هنا؛ لأن الموصوف يفيد ما تفيده تلك الصفة؛ فصار على حد قوله - تعالى -: ﴿ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [النحل: ٥١].

والمؤكد في قوله - تعالى -: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ هو مراعاة العدد في ذلك الصوم؛ أكده لبيان أن رعايته من المهمات التي لا يجوز إهمالها؛ إذ التأكيد مما يصار إليه إذا كان الحكم المؤكد مما يهتم بشأنه والحفاظ عليه[2].

وفي الآية أيضًا توكيد بالتكرير في: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾؛ لأنه قد يستغنى بقوله: ﴿ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ عن قوله: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ ولكن أعاده تأكيدًا[3]، على حد قوله - تعالى -: ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم ﴾ [آل عمران: ١٦٧] ؛ حيث أكد القول بإضافته إلى الأفواه [4]، وكقولك: نظرت إليك بعيني، وكتبت بيدي، وهذا على عادة العرب في أنها تؤكد الشيء وقد فُرِغ منه، فتعيده بلفظ غيره تفهيما وتوكيدًا [5] .

وعن المبرد[6] أن التأكيد بقوله: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ إنما جيء به لدفع توهم أن

---

(١) ينظر: البحث البلاغي في الربع الأول من تفسير ابن عطية، (٤٥٨).

(٢) ينظر: روح البيان (١/٣١٢)، علم المعاني في ضوء تفسير روح البيان، عبد الحافظ محمد عبد الحافظ، (١٤٣).

(٣) ينظر: المباحث البلاغية في معاني القرآن للفراء، (٢١٧).

(٤) ينظر: روح المعاني (٤/١١٩)، حاشية الشهاب (٣/٨٠).

(٥) ينظر: معاني القرآن للأخفش (١/٣٥٦)، مجاز القرآن (١/٧٠).

(٦) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد: إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يكون قد بقي شيء مما يجب صومه[1].

وقد تقدم عن الزمخشري وغيره أن قوله: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ إنما جيء به لنفي توهم إرادة الإباحة بالعطف بالواو دون الجمع في قوله - تعالى -: ﴿ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ .

ومع تضعيف بعضهم مجيء الواو للإباحة، فإن معنى الإباحة يستفاد في الآية من جهة أخرى، وهي أنه - عز وجل - قد جمع عددين في حالتين مختلفتين، وجعل أقل العددين لأشق الحالتين، وأكثرهما لأخفهما، وهو ما يؤدي إلى توهم أن الله - تعالى - قد أوجب صوم ثلاثة أيام فقط، وأن السبعة رخصة[2] لمن أراد التخيير؛ ومن ثم جاء بما يدفع هذا الوهم، وهو قوله: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ ؛ فأكد أن المفروض هو صيام جميع الأيام العشرة، وإنما فرقها -عز وجل- رخصة ورحمة منه؛ فيحصل بذلك فوق فائدة التأكيد فائدة أخرى هي التنبيه على الرحمة الإلهية[3].

ومن مواضع الإطناب في الآية الكريمة - أيضًا - قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ ؛ إذ لو اقتصر على أن يقال: (واتقوا الله إن الله شديد العقاب)؛ لعلم المطلوب والمراد من الكلام؛ غير أنه افتتح الأمر بالعلم؛ ليفيد بذلك تحقيق الخبر، ونفي أيّ شك فيه.

وقد خُتمت الآية الكريمة بالوصاية بالتقوى بعد بيان الأحكام التي لا تخلو من المشقة؛ وذلك للتحذير من التهاون بشيء منها[4]، وتنبيهًا لمن دفعته نفسه إلى التهاون؛ دفعًا لمشقة تلك الأعمال - أن هناك مشقة أكبر تنتظره لا يقوى على تحملها إن هو رَكَنَ

الأدب والأخبار، ولد بالبصرة سنة ٢١٠، وتوفي ببغداد سنة ٢٨٦.
من كتبه: الكامل، المذكر والمؤنث، المقتضب، وغير ذلك.
ينظر: وفيات الأعيان (٤٩٥/١)، تاريخ بغداد (٣٨٠/٣)، لسان الميزان (٤٣٠/٥).

(١) ينظر: التحرير والتنوير، مج (١) (٢٢٨/٢).

(٢) الرُّخصة – لغة - : التيسير والسهولة.
وشرعًا: الحكم الشرعي المتغير إلى سهولة لعذر مع قيام الدليل المحرم.
ينظر: تعريفات الجرجاني (١١٥)، لسان العرب (ر خ ص) (١٢٨/٦) ، الكليات (٣٧٩/٢)، (٢٧٢/٣)، تعريفات ابن الكمال (٨٣)، المصباح المنير (ر خ ص) (٢٦٥)، معجم لغة الفقهاء (٢٢١).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، مج (١) (٢٢٩/٢).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، مج (١) (٢٣٠/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلى التهاون، هي مشقة عقاب الله الشديد؛ فَلْيَقِ المرء نفسه من تلك المشقة التي لا يقوى عليها ولا يحتملها بأداء تلك الأحكام التي يقوى على تحمل مشاقها.

من جماليات التصوير في هذه الآية الكريمة قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ ﴾ كنَّى عن التحلُّل بحلق الرأس ، والخطاب للمحصرين أي : لاتتحللوا من إحرامكم حتى تذبحوا الهَدْي ،في المكان الذي تحصرون فيه ، وهذه من الكنايات البديعة حيث أطلق الحلق، وأراد التحلل من الإحرام [(١)].

وفي قوله-تعالى- : ﴿ أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ ﴾؛ فهو كناية لطيفة عما قد يصيب رأس الإنسان من أوساخ أو حشرات، كالقمل والصِّئبان وغير ذلك مما يتأذى به الإنسان، وقد كنى الحق - سبحانه وتعالى - عن ذلك بالأذى؛ لكراهية التصريح بتلك الأمور وقبحها، وهذا من لطائف القرآن الكريم؛ حيث يترك التصريح بما هو مرذول من الألفاظ[(٢)].

ومن الكناية - أيضًا - قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ ﴾؛ حيث كنى بذلك عن الوجود في الحرم؛ لأن الرجل يسكن غالبًا حيث يسكن أهله، فعبر بسكن الأهل عن سكن نفسه.

وفي الآية من الألفاظ ما يجوز حمله على الحقيقة والمجاز، وإن كان المفسرون يرون أن الحمل على الحقيقة أولى، فإنه لا مانع من مراعاة المعنى المجازي أيضًا؛ فإنه يزيد التعبير روعة وجمالًا.

ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿ أُحۡصِرۡتُمۡ ﴾؛ فهو بمعنى: حُبِستم ومُنِعتم، فـإذا كـان الإحصار بالعدو، كان اللفظ مستعملاً في حقيقته؛ لأن إحصار الحاج أو المعتمر بالعدو الذي يمنعه ويحبسه حقيقةٌ وواقع ملموس، أما حال المرض، فإن المرض لا يحبس الإنسان ويمنعه حقيقةً؛ فحينئذ يكون استعمال الإحصار على إرادة المرضى من قبيل المجاز.

ومما يجوز حمله على الحقيقة والمجاز - أيضًا - قوله تعالى :﴿كَامِلَةٞ ﴾ في: ﴿ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ﴾ ، فهو من جهة الحقيقة يفيد التحريض على الإتيان بصيام

---

(١) ينظر:الإبداع البياني للصابوني (٣٩)

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، مج (١) (٢/٢٢٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأيام كلها، لا يُنْقَص منها شيء، ومن جهة المجاز، فهو يشير إلى أن الصوم طريقُ كمالٍ لصاحبه؛ فيكون الكمال بذلك مستعملاً في حقيقته ومجازه[1].

إن تأمل محاسن ألفاظ القرآن ونظمه مَعين لا ينضب؛ فاللفظ الواحد تجده يشتمل على صنوف من الجمال وألوان من الروعة، يمكن النظر إليه من أكثر من جهة، ومن ذلك - مثلاً - كلمة ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ في قوله - تعالى -: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ ؛ ففيها أيضًا من روائع الكلام - علاوة على ما مضى من محاسنها - مظهرٌ من مظاهر البديع، وهو التتميم، ومعناه أن تأتي في الكلام كلمةٌ إذا طرحت من الكلام نقص معناه في ذاته ، أو في صفاته [2].

وهو ما ينطبق تمامًا على كلمة ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ في الآية الكريمة؛ فإن طرحها ينقص حسن الكلام ومعناه، وأما وجودها فيرفع اللبس عن الكلام، ويقربه إلى الأفهام، ويزيل عنه الوهم، ويقرره في النفس، ويوفي المعنى حقه من الجودة، ويعطيه نصيبه من الصحة.

والغرض من التتميم في الآية الكريمة المبالغةُ في التأكيد والاحتياط؛ وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن الكريم، كقوله - تعالى -: ﴿ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، وقوله - تعالى -: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ ﴾ [النحل: ٩٧].

وهو كثير أيضًا في أشعار العرب، ومنه قول امرئ القيس[3]: [الطويل]

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رَطْبًا ويابسًا   لدَى وكرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالِي[4]

---

(١) ينظر: السابق، مج (١) (٢/٢٢٩).

(٢) يمكن الرجوع له في كل من : الكشاف للزمخشري (١ / ٣٤٥)، وبديع القرآن، لابن أبي الأصبع المصري ، تحقيق : حفني محمد شرف (٤٥) وما بعدها (بتصرف)، ينظر : البديع في البديع في نقد الشعر ،لأسامة بن منقذ تحقيق : عبد آ . علي مهنا، (٨٧) ، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ، للإمام يحيى بن حمزة العلوي اليمني ، تحقيق : عبد الحميد هنداوي (٣ / ٥٧ – ٢٠١) ، والعمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد (٢ / ٥٠) ، وتحرير التحبير، لابن أبي الأصبع ، تحقيق : حفني محمد شرف (١٢٧) ، وغيرهم .

(٣) تم التعريف به سابقا (١٢) .

(٤) البيت في ديوانه (٣٨)، شرح التصريح (١/٣٨٢)، شرح شواهد المغني (١/٣٤٢) الصاحبي في فقه اللغة (٢٤٤)، المنصف (٢/١١٧)، تاج العروس (بال) ، أوضح المسالك (٢/٣٢٩)، مغني اللبيب (١/٢١٨)، (٢/٣٩٢، ٤٣٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث تم المعنى بقوله: «الحشف البالي».

ومنه - أيضًا - قول كُثَيِّر عَزَّة[1]: [الطويل]

تَشَنَّأ للأعداء حتى إذا أتوا ... إلى أمره طَوْعًا وكَرْهًا تَحَبَّبا[2]

حيث تمم المعنى بقوله: «طوعًا وكرهًا»[3].

ومما ورد فيه لفظ الأذى في سياق التكليف قوله - تعالى - : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]

وسبب نزول هذا القول الكريم أن اليهود كانوا يجاورون المؤمنين بالمدينة ، وكان من شريعتهم أن المرأة إذا حاضت تصير نجسة ، وكانت تنجس ما تمسه ، حتى فراشها ، بل وكان ينجس من يمس شيئاً سبق أن مسته ، ومن ثم كانوا يعتزلونها ، ولم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت ، ويتشددون في الاعتزال .

وجرى بعض العرب على طريقتهم تلك فاعتزلوا نساءهم إذا حضن وتشددوا في هذا الاعتزال ، كما جرى عليها بعض النصارى ، وإن كان أكثرهم – وفق شريعتهم – يتهاونون بأمر الحيض فلما سئل رسول الله - ﷺ - عن هذا الأمر كان نزول هذه الآية جواب ما سئل عنه [4] .

---

(١) تم التعريف به سابقا (٨)

(٢) ينظر: ديوان كثير عزة برقم (٣) من قصيدة أولها: دعينا ابنة الكعبي، بغية الوعاة (٩/٤٢٠٨).

(٣) ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة : البديع والبيان والمعاني، للدكتورة إنعام فوال عكاوي ، ومراجعة : أحمد شمس الدين ، (٢٨٤ – ٢٨٥) ، الفوائد المشوق، (٩٠) .

(٤) ينظر : صحيح مسلم (١/٢٤٦) : كتاب الحيض ، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها ، الحديث (١٦ / ٣٠٢) ، وسنن أبي داود (١ / ١٧٧) كتاب الطهارة ، باب في مؤاكلة الحائض ومجامعتها ، الحديث (٢٥٨) ، وسنن الترمذي (٥ / ٢١٤) ، كتاب تفسير القرآن ، باب تفسير سورة البقرة ، الحديث (٢٩٧٧) .

وينظر : الكشاف (١/٤٣٢ ، ٤٣٣) ، تفسير القرطبي (٣ / ٨١) ، وأسباب النزول للواحدي (٥٣) ، ولباب النقول

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبالنظر في الآية يتبين أن الإسلام يقدم الأنموذج الأمثل في التعامل مع المرأة وقت الحيض ، فلا يمنع من معايشتها إلا في الاتصال الجنسي ، أما ما عداه، فإنه مباح لا حظر فيه.

وتتجلى فصاحة اللفظ القرآني ودقته اللغوية في التعبير عن الحيض في هذه الآية الكريمة بـ (المحيض)، دون العدول إلى لفظ (الحيض) نفسه، أو غيره مما يؤدي معناه من كلمات الناس وتعبيراتهم.

ووجه الفصاحة والدقة اللغوية في ذلك: أن هناك بَوْنًا شاسعًا بين دلالة لفظَي (الحيض) و(المحيض)؛ إذ تقتصر دلالة الحيض على ذلك الدم الذي يترل في الوقت المعتاد بعد البلوغ، ولا يخفى ما في هذه الدلالة من إيحاءات منفرة تستدعي صورة ذلك الدم، وما فيه من خصائص خبيثة تتأذى منها النفوس، وتجعل ذهن الإنسان محصورًا في ذلك.

وأما دلالة لفظ المحيض، فهي تتسع لتشمل الحيض نفسه، ومكانه، وزمانه؛ يقول ابن عادل الحنبلي[1]: «المحيض: من الحيض، ويراد به المصدر، والزمان، والمكان، تقول: حاضت المرأة تحيض حيضا ومحيضا ومحاضا »[2] .

ومع أن المفسرين قد أجازوا حمل المحيض في الآية الكريمة على المصدر واسم المكان[3]، وأيدوا حمله على المصدر – أي: الحيض نفسه – بقوله - تعالى -: ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ ، أي : قل الحيض أذى ، وأيدوا حمله على اسم المكان بقوله - تعالى - : ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾ - أي: في موضع الحيض – مع ذلك فإن حمل ﴿ ٱلْمَحِيضِ ﴾ على الزمان هو الأليق ببلاغة الآية الكريمة؛ حيث يتفق ذلك مع بلاغة القرآن الكريم في ستر القبيح، ولا ريب أن في حمل المحيض على الحيض إظهارًا للقبيح؛ على نحو ما سبق بيانه، ولا يَقِلُّ عنه قبحًا حمْلُه على موضع الحيض الذي يستدعي إلى الذهن صورة هذا الموضع، وكل هذه الإيحاءات تزول وتُستر إذا حُمل (المحيض) على الزمن، أي: زمن الحيض.

في أسباب الترول للسيوطي (٤٦) .

(١) عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، أبو حفص، سراج الدين: صاحب التفسير الكبير المسمى «اللباب في علوم الكتاب». ينظر: هدية العارفين (١/٧٩٤).

(٢) اللباب (٤/٦٣).

(٣) ينظر: السابق (٤/٦٥)، التحرير والتنوير، مج (١) (٢/٣٦٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ ملمح آخر من ملامح فصاحة اللفظ القرآني وبلاغته؛ إذ وردت كلمة ﴿ أَذًى ﴾ نكرة؛ فلم تتعين جهة الأذى؛ فشمل ذلك الأذى البدني والنفسي، وشمل الأذى للرجل والمرأة والنسل: «فأما أذى الرجل فأوله القذارة، وأيضا: فإن هذا الدم السائل من عضو التناسل للمرأة، يشتمل على بييضات دقيقة يكون منها تخلق الأجنة بعد انتهاء الحيض، وبعد أن تختلط تلك البييضات بماء الرجل، فإذا انغمس في الدم عضو التناسل في الرجل يتسرب إليه شيء من ذلك الدم بما فيه، فربما احتبس منه جزء في قناة الذكر، فاستحال إلى عفونة، تُحدث أمراضًا معضلة، فتحدث بثورًا وقروحًا؛ لأنه دم قد فسد»(١).

وأما الأذى الذي يلحق بالمرأة، فإنه ينتج عن إزعاج الموضع في وقت ليس مهيئًا فيه للمعاشرة الجنسية، وإنما هو مهيأ فيه للتناسل، وهذا الإزعاج يؤدي إلى ضعفه ومرضه.

وأما الأذى الذي يلحق بالنسل، فإن بويضة المرأة في زمن الحيض تكون في طور الخلق غير صالحة للتخلّق النافع وتكوين الجنين، وإنما تصلح لذلك بعد انقضاء الحيض والجفاف، فإذا ما تعجل الرجل بالوطء قبل ذلك، وصادف إخصاب البويضة في زمن الحيض، تخصبت وهي غير صالحة للتخلق النافع؛ فيولد الجنين مصابًا بالأمراض(٢).

وهكذا كان في تنكير كلمة ﴿ أَذًى ﴾ ما يدعو المرء إلى إطلاق العنان لعقله وخياله؛ لكي يتفكر في نوع هذا الأذى وكيفية حدوثه.

ويزداد الإحساس بفصاحة هذه الكلمة ، كلما ازداد علم المرء بالأضرار التي يمكن أن تنشأ عن الوطء في الحيض؛ فليس ثمة في جميع كلمات اللغة العربية وألفاظها كلمةٌ أبلغ من لفظ (أذى) ليحل في هذا الموضع من الكلام، ولو أنه قد فرض استبداله بلفظ آخر، لما أمكن لهذا اللفظ بحال من الأحوال أن يؤدي ما يؤديه لفظ (الأذى) من دلالات وإيحاءات.

وليس هذا فحسب، بل إنه لو فرض استبدال لفظ (أذى) بصيغة أخرى من لفظه، نحو: (يؤذي)، أو (مؤذ)؛ لما أمكن لهذه اللفظة – أيضًا- أن تؤدي الدلالة المطلوبة والمعنى الذي كانت تؤديه كلمة (أذى).

---

(١) التحرير والتنوير مج (١) (٢/٣٦٥، ٣٦٦).
(٢) ينظر: السابق (٢/٣٦٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإذا كان لتنكير لفظ ﴿ أَذًى ﴾ كل تلك الروعة والجمال، فإن بلاغة التعريف في قوله - تعالى -: ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ ﴾ لا تقل عنها روعة ولا جمالاً؛ حيث أفاد تعريف الجنس هنا عموم جميع النساء، وهو ما يؤكد رحمة الله - تعالى - بخلقه ؛ إذ يرشد الجميع إلى اعتزال جنس النساء في زمن الحيض؛ فيشمل النهيُ المتزوجين وغيرهم؛ لعموم رحمة الله بالجميع.

وتتضح بلاغة تعريف الجنس هنا حين نتأمل قوله - تعالى - في الآية التالية: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة :٢٢٣] ، حيث وجه الخطاب إلى المتزوجين فقط بإضافة النساء إلى المخاطبين بالوطء، ولم يقل: (النساء حرث لكم)؛ لأنه ليس كل النساء حرث لكل الرجال حتى يجوز لكل واحد منهم أن يطأ من شاء، أما في النهي عن الوطء في الحيض، فقال: ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ ﴾؛ ليحذر الزناة من وطء النساء الحائضات كما يحذر المتزوجين من وطء نسائهم، ولو أراد تحذير الأزواج فقط، لقال: (فاعتزلوا نساءكم).

افتتحت الآية الكريمة بقوله - تعالى -: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾ عطفًا على قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ [البقرة: ٢٢١]؛ وذلك للمناسبة التي بين الآيتين، المتمثلة في أن تحريم الشارع الحكيم للارتباط بالمشركات بتلك الرابطة السامية - رابطة النكاح - مُؤْذِنٌ بأن يتنزه المؤمن كلية عن أحوال المشركين، وما هم فيه من الرذائل التي منها قربان نسائهم الحُيَّض، أو الإفراط في إبعادهن وتجنبهن؛ فكان مسلك المشركين في ذلك دائرًا بين الإفراط والتفريط الشديدين، فوجه الله عباده المؤمنين إلى الطريق الوسط ، والمنهج القويم في التعامل مع الحائض، مفتتحًا توجيهاته بالإشارة إلى تساؤل المؤمنين عن ذلك، ومعقبًا على تساؤلهم بالجواب المطلوب، والحل المقترح، وقد ابتدأ جوابه بالعلة التي من أجلها كان هذا الجواب: ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾، حيث لم يشأ الحق - سبحانه - أن يقرر أمر التعامل مع الحائض دون بيان لعلته وأسبابه، وإنما بين لهم أول الأمر أن الحيض أذى؛ ليكون ما سيأتي بعد ذلك من النهي عن قربان الحائض حكمًا معللاً؛ فتتلقاه النفوس على بصيرة، وتتهيأ به الأمة للتشريع في أمثاله[١].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير مج (١) (٢/٣٦٤، ٣٦٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد سيقت الأحكام في الآية الكريمة إلى المؤمنين بأسلوب الأمر تارة، وبأسلوب النهي تارة أخرى؛ مبالغة في المنع من قربان المرأة الحائض، وتأكيدًا على خطورة هذا الأمر، والداعي إلى تلك المبالغة أن الزوجين يجتمعان غالبًا؛ مما يجعل احتمال الاتصال الجنسي بينهم أمرًا تتوافر دواعيه في كل الأوقات؛ فكان لا بد من مقابلة هذه الدواعي بالمبالغة في المنع؛ ولذلك وجه الله - عز وجل - الأمر إلى المؤمنين: ﴿ فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ ﴾، ثم عَقَبَ ذلك الأمرَ النهيُّ المفيد للمعنى نفسه: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ ﴾، وقد كان مقتضى الظاهر أن تكون جملة النهي مفصولة عن جملة الأمر؛ لأنها جملة مؤكدة لها متفقة معها في المعنى؛ فكان بين الجملتين كمال اتصال، وهو من المواضع التي قررها البلاغيون لوجوب الفصل؛ لفقدان شرط التغاير المجوز للعطف(١).

ولكن خولف مقتضى الظاهر، ووصل النظم القرآني بين الجملتين بالواو؛ مبالغة في الاهتمام بهذا الحكم، وكأن النهي عن قربان النساء في الحيض أمر مقصود لذاته، ليس مجرد توكيد لما سبقه من أحكام؛ ومن ثم نحا به منحى الحكم المستقل عن سابقه؛ فعطفه عليه(٢).

وللمبالغة في المنع - أيضا - جاء النهي عن القربان، ولم يجيء النهي عن الفعل، أو الوقوع فيه، وإن كان هذا هو المقصود فعلاً من النهي، لكن لما كان أمر الوطء متعلقًا بأقوى الشهوات الإنسانية، التي تميل إليها النفوس ميلاً عظيمًا، ناسب ذلك أن يكون النهي متوجهًا إلى القربان؛ ليكون فيه محاربة للدوافع التي تدعو إلى الفعل المحرم قبل محاربة الفعل نفسه؛ زيادة في الاحتياط والاحتراز؛ وهذا ما جرت عليه بلاغة القرآن الكريم، وتلك عادته في النهي عن الأمور المتعلقة بالشهوات التي تميل إليها النفوس؛ بخلاف المنهيات الأخرى التي لم يُؤْلَف ميل النفوس إليها؛ فإن النهي عن النوع الأول كثيرًا ما يتعلق بالقربان من الشيء دون فعله أو الوقوع فيه؛ كقوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله – تعالى -: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله - تعالى:

---

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة،(١٤٨-١٥٣)، التبيان في علم المعاني والبديع والبيان ، (١٣٦-١٣٨)، محاضرات في المعاني والبديع، (٢٢، ٢٧، ٢٨).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، مج (١) (٢/٣٦٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩]، وقوله - تعالى -: ﴿ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء: ٤٣]، وقوله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقوله - تعالى -: ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة: ٢٨].

وأما المحرمات التي لا تقتضيها الشهوة ولا تألفها النفوس، فالنهي عنها يرد في القرآن الكريم متعلقًا غالبًا بالنهي عن الفعل نفسه لا قربانه؛ نحو قوله – تعالى -: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فهذه جريمة القتل، وهي بمقتضى الظاهر أشد بشاعة وأكبر جرمًا من إتيان المرأة الحائض، أو الزنى، أو أكل مال اليتيم، وغير ذلك مما ورد النهي عن الاقتراب منه، غير أنها ليست أمرًا يندفع إليه الإنسان بدافع من شهوته، أو تميل إليه نفسه، رغبة وحبًّا فيه، بل على العكس من ذلك فإن من يقدم على جريمة القتل يقدم عليها وهو كاره لها، أو على الأقل في حكم الكاره؛ ولهذا فهي ليست بحاجة إلى المبالغة والتشديد على اجتنابها، مثل الوطء أو الزنى ونحو ذلك مما تعشقه النفوس، وتلهث وراء إشباع شهوتها منه؛ وهو ما يدعو إلى التحذير من أن يأخذ الميل إلى هذا الفعل مكانه في النفس، فتصل بذلك إلى اقتراف المحرم.

وكان من آثار هذا التفريق بين الأفعال التي يتعلق النهي عنها بالقربان، والأفعال التي يتعلق النهي عنها بالفعل نفسه - أن الاقتراب من الفعل الممنوع بالتفكير فيه ومحاولة فعله، لا يلزم منه أن يصل الإنسان إلى ارتكاب هذا الفعل إذا كان مما لا تألفه النفوس؛ لكراهته ومنافاته للطبيعة البشرية، وليس كذلك الاقتراب مما تشتهيه النفوس وتميل إليه الطباع بالتفكير فيه ونحوه؛ فإن ذلك يؤدي غالبًا إلى ارتكاب المحذور، ولا يمكن للمرء النجاة من ارتكابه بعد التفكير فيه، والدنوِّ منه إلا برادع خاص، لا يتفق لكثير من الناس، ولا في كثير من الأحوال.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكذا كانت المغايرة بين أسلوب النهي عن المحظورات في النظم القرآني الكريم نابعة من حكمة أو نظرة تشبه أن تكون فطرية في النفوس(١).

ومن جماليات التنويع بين الأمر والنهي في الآية الكريمة أنه عز وجل قد عبر بالاعتزال أمرًا بقوله: ﴿ فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ ﴾، ثم قفى ذلك بالنهي عن القربان: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ ﴾، ثم قفى ذلك بالإتيان أمرًا ثانيًا بقوله: ﴿ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ ﴾، ومع كل تعبير من هذه التعابير «فائدة جديدة، وحكم جديد، وهذا من إبداع الإيجاز في الإطناب»(٢).

وإذ جرى ذكر الإيجاز ومازال الحديث بصدد هذه الآية الكريمة، يلوح أمام المتأمل صورة رائعة من صور الإيجاز المتمثل في قوله -تعالى-: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ ﴾ ؛ إذ قد سبق أن المحيض يراد به المصدر، واسم الزمان، واسم المكان، وهنا يكمن سر جمال الإيجاز، حيث يعبر النظم القرآني بالسؤال وهو كلمة واحدة عن تساؤلات عديدة؛ فتغني جملة بسيطة صغيرة الحجم عن العديد من الأسئلة، وتؤدي كلمة واحدة ما تؤديه كلمات شتى في إيجاز حقيقي بديع.

فإن قوله - تعالى -: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِ ﴾ يحوي في باطنه ثلاثة أسئلة أخرى متفرعة عن لفظ (الحيض):

أحدها: يسألونك عن دم الحيض وأحكامه.

ثانيها: يسألونك عن موضع الحيض وأحكامه.

ثالثها: يسألونك عن زمن الحيض، وما يراعى فيه.

وقد وردت الإجابة عن هذه التساؤلات الثلاثة في الآية نفسها؛ فكانت الإجابة عن التساؤل الأول المتعلق بدم الحيض: أنه أذى، وقد سبق ما في التعبير بهذا اللفظ من القيمة الجمالية البديعة التي تطلق الذهن للتفكير في سائر أنواع الأذى التي من الممكن أن تنتج عن هذا الإثم، والتي لا يزال يؤكدها العلم الحديث، ويكشف المزيد من أسرارها(٣).

---

(١) ينظر: الفاصلة القرآنية، د/ عبد الفتاح لاشين (١٠٦-١٠٨).

(٢) التحرير والتنوير، مج (١) (٣٦٩/٢).

(٣) من أضرار الوطء في الحيض التي لا يزال يكشف عنها الطب والعلم الحديث: أن دم الحيض الذي ينتقل إلى الرجل يسبب له التهاب مجرى البول؛ وذلك لأن الحيض موصل جيد للجراثيم، والجهاز التناسلي من أشد الأماكن حساسية في جسم الإنسان ؛ فيكون من السهل إصابته وتدميره بتلك الجراثيم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأما الإجابة عن السؤال الثاني المتعلق بمكان الحيض وأحكامه؛ فهي أنه مكان لا بد من اعتزاله ﴿ فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ ﴾ .

وأما الإجابة عن السؤال الثالث المتعلق بزمن الحيض، فقد قررت أنه ينتهي بالطهر ﴿ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ ﴾، وفي الوقت نفسه أوحى التعبير بقصر وقته.

وهكذا استطاعت كلمة واحدة أن تؤدي تلك المعاني جميعها؛ لأنها من كلام خالق البشر، وكما قالوا: فإن في الإشارة ما يغني عن العبارة.

وتُختَم الآية الكريمة بقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ ؛ للارتفاق بالمخاطبين، وبيان أن منعهم من قربان النساء في الحيض إنما كان لمصلحة أنفسهم، وهنا يتعانق جمال البدء مع جمال الختام في الآية الكريمة؛ حيث ابتدأت الآية بنظرة عضوية وظيفية تبين ما في المحيض من أذى، ثم اختتمت بنظرة نفسية ، تستبطن النفس الإنسانية؛ لأن الله - تعالى - يعلم أن هناك من عباده من لا يلتزم بما ورد من النهي عن قربان النساء في المحيض، بل إن بعضهم سيزِلّ ويخطئ؛ فيقع في هذا المحظور، وهذا المخطئ وإن كان قد انحدرت نفسه من ذرا السمو والرفعة إلى الحضيض حيث اقترف ما نهى الله عنه برغم ما فيه من أذى – فإنه مع ذلك لا ينبغي إيئاس هذا المخطئ من رحمة الله تعالى؛ بل يعلمه - جل ثناؤه - أن باب التوبة مفتوح أمامه؛ ليبادر إلى إنقاذ نفسه من هذا الأذى الذي حل به في الدنيا، ولينجو من عقاب الله في الآخرة.

وتتأكد رحمة الله وكبير فضله على المذنبين والعصاة، وفتح باب التوبة لهم دائما بتقديم قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ على ﴿ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾؛ وذلك أن التوبة ترتبط غالبًا بالذنب؛ فكان في تقديم التوابين على المتطهرين تقديما للمذنبين التائبين على المتطهرين الذين لم يصدر منهم الذنب.

كما يصاب الرجل من جراء الوطء في الحيض بالتهاب قاعدة الكليتين، والتهاب الحالبين التهابًا شديدًا يؤدي إلى انسدادهما الذي يؤدي بدوره إلى احتباس البول، وهو ما يؤدي بدوره – أيضا – إلى التسمم ويسبب الوفاة.

كما يصاب ذلك الرجل أيضًا بتورم البربخ والبروستاتا، وفوق ذلك كله قد تكون الحائض حاملة لجرثومة مرض الزهري، ولكنها غير مصابة؛ فتنتقل تلك الجرثومة إلى الرجل عن طريق دم الحيض؛ فيصاب بأخطر الأمراض التناسلية.

يرجع إلى : دور الطبيب المسلم في الدعوة الإسلامية ، د. علي محمد حسن فرح ص (١١٥) ، كلية أصول الدين - القاهرة - قسم الدعوة (١٤١٨هـ ١٩٩٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن قيل: كيف ساغ تقديم ذكر المذنب على من لم يذنب؟

فالجواب: أنه «قدمه لئلاَّ يقنط التائب من الرحمة، ولا يعجب المتطهر بنفسه»[1]؛ وكان هذا على حد تقديم الظالم على المقتصد، وتقديم المقتصد على السابق بالخيرات في قوله - تعالى -: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقد جاء الإطناب في تكرار الفعل (يحب) مرتين دون الاكتفاء به مرة واحدة ، لتأكيد ذلك الحب، وتأكيد رحمته - سبحانه – بعباده، وأن لكل من التوابين والمتطهرين مكانة ومترلة مختلفة يختصون بها دون غيرهم عنده جلَّ في علاه .

ولكون الحديث عن الحيض وأحكامه يستدعي ذكر العَوْرات والنجاسات والقبيح من الألفاظ، كان التعبير بطريق الكناية أنسب التعبيرات في الحديث عنه؛ ولذا كنى عن الحيض المستقذر الذي تنفر منه النفس والطبع بـ (الأذى)، فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ . كما كنى عن اجتناب الجماع بقوله: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾؛ ثم كنى عن ذلك مرة أخرى بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾، مؤكدًا بذلك الكناية الأولى[2] ، ثم كنى عن الجماع: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ ؛ فكنى عن الجماع بالإتيان[3] ؛ ترفعاً عن ذكر ما لا يحسن ذكره من الألفاظ التي يقبح التفوه بها في المجالس العامة، كما كنى عنه بالمباشرة في قوله - تعالى -: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾[البقرة: ١٨٧]، وبالملامسة في قوله - تعالى -: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، وبالغشيان في قوله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وبالدخول في قوله – تعالى -: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، وبالرفث في قوله - تعالى -: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وبالمسيس في قوله - تعالى -: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ [مريم: ٢٠]، وبالاستمتاع في قوله - تعالى -: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤].

---

(١) اللباب (٤/٧٧).

(٢) ينظر: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم (٢٣٤) .

(٣) ينظر: النظام القرآني، مقدمة في المنهج اللفظي، عالم سبيط النيلي (٩١) ، الإبداع البياني للصابوني (٣٩-٤٠)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكذا جرى أسلوب القرآن الكريم بالكناية عن الجماع بعبارة تخفي القبيح وتستره، وتظهره بمعرض حسن مقبول، لا يخدش حياء، ولا ينفر منه طبع، بل تستعذبه الألسن، وتطرب له الآذان.

كما وردت في الآية كناية عن الفرج أو القُبُل في قوله - تعالى -: ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾؛ فكنى أيضا عن هذا الموضع المستقبحِ ذكرُه بلفظ مستحسن لا يدل على معنى القبح؛ مراعاة لمعنى الأدب، ولا أدب كأَدب التتريل، ولا أسلوب كأسلوبه الذي لا يمكن أن يصيبه جفاف مهما طالت به العهود والأزمان، بل إنه كلما مر عليه زمن ازداد نضارة ورونقًا؛ لأنه بلفظه ونظمه وأسلوبه وبلاغته المعجزة قد تخطى في تعبيره حدود النفس البشرية وكوامنها الخفية ، وكل هذا من الآداب الإسلامية التي ينبغي أن يستعملها الناس في مخاطباقم دون اللفظ الصريح.

ويرى بعض العلماء أن حرف الجر (من) ، والظرف (حيث) في قوله – تعالى - : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يجوز فيهما وجهان:

الأول : أن تكون (من) مراد بها الابتداء المجازي ، و(حيث) مراد بها التعليل ، وذلك على تقدير أن المراد بأمرِ الله : الأمر الذي تضمنه الغاية بـ (حتى) في قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ ؛ لأن غاية النهي تنتهي إلى الإباحة ، فالأمر هو الإذن ، فـ (من) مراد بها الابتداء المجازي ، و(حيث) مستعملة في التعليل مجازاً أيضاً ، ومعنى الآية على هذا التقدير ؛ لأن الله أمركم بأن تأتوهن عند انتهاء غاية النهي بالتطهير .

الثاني : أن تكون (من) مراد بها الابتداء الحقيقي ، و (حيث) مراد بها المكان الحقيقي، وعليه فالمعنى : فأتوهن من المكان الذي كان به أذى الحيض [(١)] ، وأرى - والله أعلم - أن الرأي الثاني هو الرأي الأرجح والأقرب للصواب .

ومن الفنون البديعية في هذه الآية الكريمة طباق السلب بين (لا تقربوهن) وبين (فأتوهن) ، وطباق الإيجاب بين (فاعتزلوا النساء) ،وبين (فأتوهن) والضد يظهر حسنه الضدُّ ، وبين (التوابين) و(المتطهرين) مراعاة النظير[(٢)] ؛للتناسب والملائمة بينهما.

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ، مج (١) (٢ / ٣٧٠) بتصرف .

(٢) المراعاة من فعل رعى رعيًا، وراعي النجوم: راقبها، والأمر: نظر إلى ماذا يصير، ذكره القزويني في كتابيه «الإيضاح» و «التلخيص» وعرفه بقوله: «وهو جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد» وقال: «ويسمى التناسب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما جاء فيه الأذى في سياق التكليف قولـه - تعـالى - : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان[1] وعبد الرحمن بن عوف[2] - رضي الله عنهما- وذلك لما حث رسول الله- ﷺ -الناس على الإنفاق لتجهيز جيش العسرة في

والتوفيق» ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾ [الرحمن: ٥-٧]، وسماه أسامه بن منقذ في كتابه «البديع في نقد الشعر» باب «الاتفاق والاطراد»، وعرفه فقال: «اعلم أن الاتفاق والاطراد هو أن يتفق للشاعر شيء لا يتفق عاجلاً كثيرًا»، ومثل بقول أبي تمام: [الطويل]

لسلمى سلامان وعمرة عامٍ ... وهند بني هندٍ وسعدي بني سعد

بينما ابن حجة الحموي في «خزانة الأدب» قال: «هذا النوع أعني مراعاة النظير، يسمي التناسب والائتلاف، والتوفيق، والمؤاخاة، وهو في الاصطلاح: أن يجمع الناظم أو الناثر أمرًا وما يناسبه مع إلغاء ذكر التضاد لتخرج المطابقة سواء كانت المناسبة لفظًا لمعنى أم لفظًا للفظٍ أم معنى لمعنى، إذ القصد جمع الشيء إلى ما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من إحدى الوجوه».

ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة (٦٤٦، ٦٤٧)، معجم البلاغة العربية(٢٦١)،الإيضاح (٣٢٣،٣٢٤)، دراسات منهجية في علم البديع (٦٩)، شرح عقود الجمان (٢/٨٧)، التبيان في علم المعاني والبديع (٣٤٩)، بديع القرآن (٧٧، ٧٨).

(١) عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي، أبو عمرو، أسلم قديمًا، وهاجر الهجرتين، وتزوج ابنتي رسول الله- ﷺ - واحدة بعد أخرى، ولد بعد الفيل بست سنين، وهو أول من هاجر إلى أرض الحبشة، و لم يشهد بدرًا لتخلفه على تمريض زوجته رقية بنت رسول الله- ﷺ - ورضي عنها. بويع له بالخلافة بعد دفن عمر بثلاثة أيام، وذلك غرة المحرم سنة (٢٤)، وقتل في وسط أيام التشريق سنة (٣٥)، وقيل: يوم التروية، ومناقبه وفضائله كثيرة شهيرة رضى الله عنه.

تنظر ترجمته في: تهذيب الكمال (١٩/٤٤٥)، تقريب التهذيب (٢/١٢)، الكاشف (٢/٢٥٣).

(٢) هو : عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة الزهرى، أبو محمد المدنى، شهد بدرًا والمشاهد، وهو أحد العشرة، وهاجر الهجرتين. روى عنه بنوه إبراهيم وحميد وأبو سلمة ومصعب وغيرهم. قال الزهرى: تصدق على عهد النبى ﷺ بأربعة آلاف ، ثم بأربعين، ثم حمل على خمسمائة فرس، ثم على خمسمائة راحلة، وأوصى لنساء النبى ﷺ بحديقة قومت بأربعمائة ألف . مات سنة اثنتين وثلاثين ، وقيل : سنة ثلاث ، ودفن بالبقيع ، وهو ابن خمس وسبعين سنة.

ينظر: الخلاصة للخزرجى (٢/١٤٧)، تهذيب التهذيب (٦/٢٤٤)، تقريب التهذيب لابن حجر العسقلانى (١/٤٩٤)، تاريخ البخارى الكبير (٥/٢٣٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غزوة تبوك[1] ؛ فجاء عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إلى النبي ﷺ بألف دينار، وصبها في حجره؛ ليجهز بها الجيش، قال عبد الرحمن بن سمرة[2]: «فرأيت النبي - ﷺ - يُدْخِل فيها يده الكريمة، ويقلبها ويقول: ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم»[3]، وقال: «يا ربِ عثمان رضيت عنه، فارضَ عنه»[4] .

وأما عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - فقد كان عنده ثمانية آلاف درهم، فجاء بأربعة آلاف منها إلى رسول الله - ﷺ -، متصدقا بها، وقال لرسول الله - ﷺ -: «كانت عندي ثمانية آلاف، فأمسكت منها لنفسي وعيالي أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها ربي»، فقال رسول الله - ﷺ-: «بارك الله لك فيما أمسكت، وفيما أعطيت»[5] فنزلت هذه الآية [6].

ونزول هذه الآية الكريمة في شأن صدقة هذين الصحابِيَّيْن الكريمين لا يمنع من شمولها لكل من نهج نهجهما، وبذل ماله في سبيل الله[7].

---

(١) ويقال: إنها غزوة العسرة والفاضحة، وتبوك: بفتح الفوقية وضم الموحدة، وهي أقصى أثر رسول الله ﷺ وهي في طرف الشام من جهة القبلة، وبينها وبين المدينة المشرفة اثنتا عشرة مرحلة، وبينها وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة. والمشهور ترك صرفها للعلمية والتأنيث.

ينظر: المغازي للواقدي (٣/٩٨٩)، السيرة لابن هشام (٢/٣١٦)، البداية والنهاية (٥/٢)، شرح المواهب للزرقاني (٣/٦٢).

(٢) عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس العبشمي أسلم بعد الفتح وافتتح سجستان وكابل، وروى أربعة عشر حديثا ، مات سنة خمسين.

ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/١٣٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٦/٧٠) كتاب المناقب، باب: في مناقب عثمان بن عفان (٣٧٠١) وأحمد (٥/٦٣) والحاكم (٣/١٠٢) والبيهقي في الدلائل (٥/٢١٥) من حديث عبد الرحمن بن سمرة به.

وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره (٣/٣٠٦).

(٥) روي عن أبي سلمة وأبي هريرة أن هذا الحديث سبب في نزول قوله - تعالى -: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ...﴾ [التوبة: ٧٩].

ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٣٥) وقال: روى البزار من طريقين إحداهما متصلة عن أبي هريرة والأخرى عن أبي سلمة مرسلة قال ولم نسمع أحدا أسنده من حديث عمر بن أبي سلمة إلا طالوت بن عباد، وفيه عمر بن أبي سلمة وثقه العجلي وأبو خيثمة وابن حبان، وضعفه شعبة وغيره وبقية رجاله ثقات.

(٦) ينظر أسباب النزول للواحدي (٦٢) .

(٧) ينظر: تفسير القرآن الكريم (٢/٤٦٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومضمون هذه الآية أن المال كان - ولا يزال - مُنيَة النفوس ومناط رجائها؛ الأمر الذي يجعل التنازل عنه أو عن بعضه يحتاج إلى ذخيرة خُلُقية كبيرة يندر أن تتاح لغير الصفوة ممن حباهم الله - تعالى - بخلق الإيثار والنبل والكرم، غير أن أمر الصدقات وبذل الأموال أمر عام لا ينبغي أن يتوقف على الصفوة، بل لا بد أن يعم وينتشر بين سائر أفراد الأمة ، ولكي يتحقق ذلك؛ كان لا بد من حث زاجر للأنفس الشحيحة التي تعد المال حرزها الحريز، وروحها الغالية، يشجعها على الإنفاق والبذل في سبيل الله تعالى، وهو ما تحقق من خلال الآيات التي بينت الأجر العظيم للإنفاق في سبيل الله، ومضاعفة الأجر والثواب عليه؛ كما في الآية السابقة لهذه الآية ، وهي قوله - تعالى -: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

فكان ذلك الثواب الجزيل الذي تعبر عنه هذه الآية الكريمة بألفاظها العذبة، بمثابة الأجراس التي تصلصل لتقرع القلوب؛ فتحيد بها عن الشح إلى الإنفاق[١]، ثم جاء قوله - تعالى -: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ... ﴾ إلخ تأكيدا لذلك الثواب وتحذيرا من إبطاله بالمن والأذى المتمثلين في التطاول على المتصدق عليه أو الرياء بالنفقة، ونحو ذلك، حيث تدل الآية على أن ذلك المن من محبطات الأعمال، فهو عمل سيئ، يفسد العمل الصالح، ويحبط أجره وثوابه[٢].

فالآية الكريمة تمتدح الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، ثم لا يتبعون هذه الصدقات مَنًّا على ما أعطوه، ولا مكروها مع من أحسنوا إليه؛ فهم ينفقون أموالهم وهم يعتقدون أنها وديعة عندهم، وأمانة في أعناقهم، فلا يرون لأنفسهم في إنفاقها على الفقراء وفي سبيل الله منة، ولا تفضلا يدعوهم إلى إتباعها بكلمات المن والأذى؛ لأنهم يعلمون أنهم ليس لهم من مالهم إلا ما أكلوا فأفنوا، أو ما لبسوا فأبلوا، أو ما تصدقوا فأبقوا.

---

(١) ينظر: البيان القرآني، د/ محمد رجب البيومي (٧٥-٧٦) .

(٢) ينظر: من جوامع الكلم في القرآن الكريم، عبد العظيم بن بدوي الخلفي (٣١٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذن فالباقي لهم هو صدقاتهم التي ينميها لهم رب العزة سبحانه، ويدخرها لهم عنده إلى يوم الفزع الأكبر؛ فلا يفزعون، ولا يخافون حين يفزع الناس ويخافون، ولا يحزنون حين يحزن الناس(١).

فعلى المتصدق والباذل ماله في سبيل الله أن يحترز من ضياع أجره بما قد يحدث منه من المن والأذى والتعيير، وإنما كان المن والأذى مذموما؛ لأن الفقير الآخذ للصدقة منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة غيره، معترف باليد العليا للمعطي، فإذا أضاف المعطي إلى ذلك إظهارَ ذلك الإنعام، زاد ذلك في انكسار قلبه؛ فيكون في حكم المضرة بعد المنفعة، وينفر أهل الحاجة عن الرغبة في صدقته(٢).

جاءت هذه الآية الكريمة بمثابة القيد للآية السابقة عليها؛ حيث بينت أن تضعيف الثواب الموعود في قوله - تعالى -: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ...﴾ الآية [البقرة: ٢٦١] مقيدٌ بعدم المن والأذى(٣).

وجملة ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مفسرة لما قبلها، وقد أخرجت الجملة قبلها مخرج الشيء الثابت المفروغ منه، وهو تشبيه نفقتهم بجملة الحبة المذكورة ، ومن قبيل تشبيه الجملة بالجملة ، ومن ثم جاءت هذه الجملة المفسرة لها كذلك، فأخرج الخبر فيها مخرج الثابت المستقر غير المحتاج إلى تعليق استحقاقه بوقوع غيره قبله، ولذا لم يكن المبتدأ «الذين» في هذه الآية متضمنا معنى الشرط(٤).

وهذا بخلاف قوله – تعالى - فيما بعد: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤] ؛ حيث تضمن الاسم الموصول «الذين» معنى الشرط، ومن ثم دخلت الفاء في جوابه، وهو قوله: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾.

ويشير الزمخشري إلى الفرق بين هذين الموضعين، فيقول: «فإن قلتَ: أي فرق بين قوله: ﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾ ،وقوله فيما بعد: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ﴾؟ قلت: الموصول لم يُضَمَّن

---

(١) ينظر: نظرات في كتاب الله (١/١٦٥).
(٢) ينظر: اللباب (٤/٣٨٤)، تفسير الثعالبي (١/٥١٦).
(٣) ينظر: من جوامع الكلم في القرآن الكريم (٣١٢).
(٤) ينظر: اللباب (٤/٣٨٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هاهنا معنى الشرط، وضمنه ثَمَّةَ، والفرق بينهما من جهة المعنى: أن الفاء فيها دلالة على أن الإنفاق به استحق الأجر، وطرحها عارٍ عن تلك الدلالة»[١].

والتنكير في قوله - تعالى -: ﴿ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ للتقليل، أي: أنه لا يسوغ للمتصدق أن يتبع صدقته بأي شيء من المن والأذى مهما كان قليلا.

وكذلك تنكير «خوف» في قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ هو للتقليل – أيضا – أي: أن من يخلص صدقته لله تعالى غير مُتْبِع لها بالمن والأذى، سوف ينعم بالأمن التام الذي لا تشوبه شائبةُ خوفٍ يوم القيامة.

وفي قوله : ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لطائف :

(١) أن ﴿ فِي ﴾ في أصل الوضع اللغوي تفيد : الوعاء والظرفية [٢]، يقول الرماني : " في: وهي من الحروف العوامل ، وعملها الجر ، ومعناها : الوعاء ، تقول من ذلك : المال في الكيس ، واللص في السجن ، أي : اشتمل الكيس على المال ، والسجن على اللص ، وقد يتسع فيها فيجري مجرى المثل ، وذلك نحو قولك : فلا ينظر في العلم ؛ كأن العلم قد اشتمل عليه " [٣] .

وبناء على ما تقدم يكون المعنى في التعبير الكريم أنه ينبغي أن يكون سبيل الله تعالى مشتملاً على ما تنفقون يَضُمّه ويظرفه ، بحيث يتمحض المُنْفَق لله - عز وجل - ، لا يخالطه شيء من غير جنسه من رياء أو سمعة أو منّة ، أو تعلق نفس ، أو أذى ؛ فإن ذلك وما شاكله يكدّر الظرف ، وقد يغير الوعاء بالكلية ، فلا يكون سبيل الله – تعالى - ، وإنما هو سبيل غيره ، فيكون حرياً بالرّد والبطلان [٤]، كما قال - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ... ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

وبذلك يعلم أن شرط الإخلاص قد حققه حرف الجر [في] ونهض به ، وهذا من دقة الاصطفاء القرآني في مجال حروف المعاني ، فقد أفاد هذا الحرف شرطاً مهماً لقبول

---

(١) الكشاف (١/٤٩٥، ٤٩٦).

(٢) ينظر : حروف المعاني للزجاجي : (١٢) ، ورصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي (٤٥٠ – ٤٥٤).

(٣) معاني الحروف (٩٦) .

(٤) ينظر : النظم القرآني في آيات الجهاد للدكتور ناصر الخنين (٤٢ – ٤٣) بتصرف .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النفقات وسائر الأعمال ، وهو أن تكون خالصة لله عز وجل ، وذلك بمقتضى المدلول الظرفي للحرف (في) [(١)].

(٢) السبيل في الأصل هو الطريق الممتد طولاً ، وسمي الطريق سبيلاً ؛ لامتداده[(٢)]، ولكونه يفضي بسالكه إلى الغاية ، ويوقفه على النهاية ، وذلك بحسب ما يضاف إليه فسبيل مكة - مثلاً - يفضي إلى مكة ، وسبيل الله تعالى يُفْضي إلى مرضاة الله وجناته ، وينقذ سالكه من النيران وسائر صنوف الهوان [(٣)].

(٣) إضافة السبيل إلى الله أكسبت المضاف تعريفاً، وتخصيصاً، وتحديداً، وتقييداً، يقول الفخر : " واعلم أن الإنفاق هو صرف المال إلى وجوه المصالح ؛ فلذلك لا يُقال في المضيع : إنه منفق ، فإذا قيد الإنفاق بذكر سبيل الله فالمراد به طريق الدين ؛ لأن السبيل هو الطريق ، وسبيل الله هو دينه ؛ فكل ما أمر الله به في دينه من الإنفاق فهو داخل في الآية"[(٤)].

والحكمة من اصطفاء هذا التعبير ﴿ سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بعد الأمر بالإنفاق ؛ أن هذا كالتنبيه على العلّة في وجوب هذا الإنفاق ، وذلك لأن المال مال الله فيجب إنفاقه في سبيل الله ، ولأن المؤمن إذا سمع ذكر الله اهتز ونشط فيسهل عليه إنفاق المال [(٥)] .

وعطف الله - عز وجل - جملة ﴿ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ على جملة ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ بـ«ثم» التي تدل على المُهْلَة، مع أن الظاهر أن يعطف بالواو؛ «لإظهار التفاوت بين الإنفاق، وترك المن والأذى، وأن تركهما خير من نفس الإنفاق؛ كما جعل الاستقامة على الإيمان خيرًا من الدخول فيه بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠] » [(٦)].

---

(١) ينظر: السابق .

(٢) ينظر : معجم مقاييس اللغة ، مادة (سبل) .

(٣) ينظر: النظم القرآني (٤٣)

(٤) التفسير الكبير : (٢ / ٢٩٤) .

(٥) ينظر السابق (٢ / ٢٩٤) .

(٦) الكشاف (٤٩٥/١)، وينظر : اللباب (٣٨٢/٤)، التحرير والتنوير مج (٢) (٤٢/٣)، تفسير القرآن الكريم (٤٦٥/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إذن فـ«ثم» هنا «للترتيب الرتبي لا للمهلة الزمنية، ترفيعا لرتبة ترك المن والأذى على رتبة الصدقة؛ لأن العطاء قد يصدر عن كرم النفس، وحب المَحْمَدة، فللنفوس حظ فيه مع حظ المعطي؛ بخلاف ترك المن والأذى؛ فلا حظَّ فيه لنفس المعطي ؛ فإن الأكثر يميلون إلى التبجح والتطاول على المعطى »[1] .

وفي قوله - تعالى -: ﴿ مَآ أَنفَقُواْ ﴾ إيجاز بالحذف؛ حيث حذف المفعول به؛ لدلالة ما تقدم من الكلام عليه[2].

وفي عطف الأذى على المن إطناب من باب ذكر العام بعد الخاص[3] ؛ وذلك لإفادة الشمول لأن الأذى يشمل المن ، وقد عطف الجملتين ﴿ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ بالواو، وذلك للتوسط بين حالتي كمال الانقطاع وكمال الاتصال ، فكل منهما جملة خبرية مغايرة للأخرى في المعنى ، وليس هناك ما يستوجب الفصل بينهما.

وفي عطف نفي الحزن ﴿ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ بعد نفي الخوف ﴿ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ؛ إطناب يفيد التذييل لتوكيد المعنى ، وللتعقيب عليه بما يزيد المعنى انشراحاً والمقصد اتضاحاً .

أما عن الصور البيانية ففي (ثم) مهلة مجازية ؛ إذ شبه حصول الشيء المهم - في عزة حصوله - بحصول الشيء المتأخر زمنه [4] مجاز مبني على التشبيه فهو استعارة في الحرف.

ومن الألوان البديعية في هذه الآية الكريمة : ما بين (المن) و (الأذى) من مراعاة النظير ، وكذا بين (الخوف) و (الحزن) من تناسب وائتلاف .

---

(١) التحرير والتنوير، مج (٢) (٣/٤٢).

(٢) ينظر: اللباب (٤/٣٨٢).

(٣) ذكر العام بعد الخاص هو من ضروب الإطناب، والغرض من ذلك هو: إفادة العموم والشمول مع العناية بشأن الخاص ،كما في قوله- تعالى- : ﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾[نوح:٢٨]، فلفظ (لي ولوالدي) خاص لدخول معناه في عموم المؤمنين والمؤمنات ، وقوله: (المؤمنين والمؤمنات) لفظان عامان يدخل في عمومهما من ذكر قبل ذلك ، أي: (لي ولوالدي)، وكأن الخاص ذكر مرتين: مرة وحده، ومرة مندرجا تحت العام ،وفي هذا عناية واهتمام بذكر الخاص .
ينظر: معجم البلاغة العربية (٤٢٨)،من بلاغة القرآن (١٤٤)،علم المعاني-البيان-البديع(١٨٤).

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣ / ٤٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما جاء فيه لفظ الأذى في سياق التكليف قوله - تعالى - : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

تنبه هذه الآية الكريمة أولئك الناس الذين هم كرماء الظاهر في نظر بعض الخَلْق، وهم في الحقيقة بُخَلاء الباطن عند رب الخلق، ينبههم الله - تعالى - إلى أن ترك إيذاء المحتاجين، وحفظ كرامتهم، وماء وجوههم، ووجودهم الإنساني بالقول اللّيِّن والدعاء الطيب، ونحو ذلك - خير لهم جميعًا من ذلك العطاء الذي يَتْبَعُه الأذى(١).

يقول الثعالبي(٢): «قوله - تعالى -: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ ﴾ هذا إخبار جزم من الله تعالى: أن القول المعروف - وهو الدعاء، والتأنيث، والترجية بما عند الله خير من صدقة هي في ظاهرها صدقة، وفي باطنها لا شيء؛ لأن ذلك القول المعروف فيه أجره، وهذه لا أجر فيها»(٣).

فالآية بذلك دَرْسٌ في الأدب الاجتماعي، من شأنه أن يوثق أواصر المحبة، ووشائج التقارب بين أفراد المجتمع، ويجمعهم على البر والتقوى؛ لأن الغني الذي لا يُحسن أدب الإنفاق، وتؤدي نفقته إلى إيذاء الآخرين وهدم الروابط بين أفراد المجتمع - ليس لله حاجة في ماله، بيد أن الله دائمًا وأبدًا لا يسد الرحمة في وجوه عباده؛ ومن ثم فهو حريص على إرشادهم؛ فإذا لم يسعد الحال، فليسعد النطق ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ ﴾ (٤).

قوله - تعالى -: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ... ﴾ الآية ، ورد تخلصًا من الغرض السابق من الآيتين السابقتين، المتمثل في الحث على الإنفاق في سبيل الله، للانتقال إلى الحث على ضرب آخر من الإنفاق، وهو الإنفاق على المحاويج من الناس، وهو الصدقات.

---

(١) ينظر: نظرات في كتاب الله (١/١٦٥).

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري، أبو زيد، ولد سنة ٧٨٦هـ، مفسر، من أعيان الجزائر. من تصانيفه: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، وغير ذلك. توفي سنة ٨٧٥هـ.
ينظر: الأعلام للزركلي (٣/٣٣١).

(٣) تفسير الثعالبي (١/٥١٨)، وينظر الكشاف (١/٤٩٦)، اللباب (٤/٣٨٥، ٣٨٦)، تفسير القرآن الكريم (٢/٤٦٦، ٤٦٧).

(٤) ينظر: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم (٣٤٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يقول الطاهر بن عاشور: «ولم يتقدم ذكرٌ للصدقة، إلا أنها تخطر بالبال عند ذكر الإنفاق في سبيل الله، فلما وصف الإنفاق في سبيل الله بصفة الإخلاص لله فيه بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ... ﴾ الآية، انتقل بمناسبة ذلك إلى طرد ذلك الوصف في الإنفاق على المحتاجين؛ فإن المن والأذى في الصدقة أكثر حصولاً؛ لكون الصدقة متعلقة بأشخاص معينين، بخلاف الإنفاق في سبيل الله؛ فإن أكثر من تناهم النفقة لا يعلمهم المنفق»(١).

وتنكير ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ في الآية الكريمة يفيد التقليل؛ فيدل على أن أي قول معروف مهما كان صغيرًا خيرٌ من صدقة متبوعة بالأذى؛ لما تقدم من أن هذا القول المعروف وإن كان صغيرًا فإن له أجره وثوابه، وأما الصدقة المتبوعة بالأذى؛ فقد حبط أجرها وثوابها.

وتنكير ﴿ صَدَقَةٍ ﴾ للدلالة على العموم؛ فالقول المعروف أفضل من جميع الصدقات المتبوعة بالمن والأذى، سواء جَلَّت هذه الصدقة أم قلَّتْ.

وفي الآية تعريض بأن الأذى يبطل ثواب الصدقة، وإيقاظ للحس الإنساني؛ حيث تنبهه إلى أن الأَوْلى به أن يضع نفسه موضع هذا المحتاج للصدقة؛ فينظر ماذا كان يجب أن يُعْطَى: أيعطى صدقة تنال من كرامته؛ لما يتبعها من أذى ومنّ، أم يعطى قولاً معروفًا؟ والإجابة إن صدرت من نفس كريمة وفطرة سليمة ، لا بد أنها ستفضل القول المعروف(٢).

وقوله - تعالى -: ﴿ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ «تذييل للتذكير بصفتين من صفات الله تعالى؛ ليتخلق بهما المؤمنون ، وهما: الغنى الراجع إليه الترفع عن مقابلة العطية بما يبرد غليل شح نفس المعطي، والحلم الراجع إليه العفو والصفح عن رعونة بعض العفاة»(٣).

والتذييل - كما يعرفه البلاغيون - هو: «تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها؛ للتأكيد»(٤).

---

(١) التحرير والتنوير مج (٢) (٣/٤٣، ٤٤).
(٢) ينظر: نظرات في كتاب الله (١/١٦٥).
(٣) التحرير والتنوير مج (٢) (٣/٤٧).
(٤) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن (١٢١)، الطراز (٣/١١١)، البرهان في علوم القرآن (٣/٦٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

و : " يُذَيَّل النظم بعد تمامه وحسن السكوت عليه بجملة تحقق ما قبلها من الكلام وتزيده توكيدًا، وتجري مجرى المثل بزيادة تحقيق ، وهو نوع من أنواع الإطناب "[١].

وللتذييل في الكلام موقع جليل، ومكان شريف خطير؛ لأن المعنى يزداد به انشراحًا والقصد اتضاحًا[٢].

ويتضح ذلك في الآية مناط التحليل حين نتصور تذكُّر ذلك المتصدق المنان لغنى ربه وحلمه؛ وكأن الله - تعالى - يُقَرِّعه على ما اقترفه من سوء الصنيع؛ فيذكره أنه - تعالى- غني عن صدقته هذه التي تؤذي أكثر مما تنفع، ومع غناه عنه فهو حليم - أيضًا- يعفو ويصفح، ويجزي بالحسنة أضعافًا مضاعفة، ولا يجزي بالسيئة إلا مثلها، ويعفو عن كثير[٣].

وبهذا يفيد التذييل هنا وعدًا، ووعيدًا من جهة[٤]، وإطماعًا في حِلْم الله، وعفوه من جهة أخرى؛ ليتذكر هذا المنان المؤذي عقوبة المن والأذى من خلال هذا الوعيد؛ فيبادر إلى التوبة، والإقلاع عما هو عليه من المن والإيذاء؛ لينال مغفرة الله تعالى، ويسعد بحلمه[٥].

وفي الآية من أصباغ البديع ما يعرف بتشابه الأطراف وهو لون التناسب[٦] ؛ فإن لفظة (غني) تناسب الصدقة ، ولفظة (حليم) تناسب (الأذى) ، وفيها كذلك اللف والنشر المرتب [٧].

---

(١) المعجم المفصل في علوم البلاغة (٣٠٠).

(٢) ينظر: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (٣٨٧) .

(٣) ينظر: نظرات في كتاب الله (١/١٦٥).

(٤) ينظر : تفسير أبي السعود (١ / ٣٠٨) .

(٥) ينظر: روح المعاني (٣/١٤) .

(٦) ينظر: الإيضاح للقزويني (٣٢٤-٣٢٥)

(٧) اللف والنشر من لَفَّ الثوب إذا جمعه، ونشر الثياب إذا فرَّقها، ذكر القزويني اللف والنشر في كتابه «التلخيص» وعرفه فقال: «وهو ذكر متعدد على التفصيل، أو الإجمال، ثم ما لكل واحد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرده إليه، **فالأول** ضربان:

إما على ترتيب اللف، نحو قوله- تعالى-: ﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ [القصص: ٧٣].

وإما على غير ترتيبه ،كقول ابن حيوس الإشبيلي:

كيف أسلو وأنت حقف وغصن   وغزال لحظًا وقدًّا وردفًا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومما جاء فيه لفظ الأذى في سياق التكليف قوله - تعالى - : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وفي هذا القول الكريم ينهى الله المؤمنين عن المن والأذى ، مبيناً أن ذلك يبطل الصدقات ، ولا جرم ، فهو – عز وجل - عليم بأمراض النفوس البشرية، وخبير بما يصلحها ويُقوّم اعوجاجها، وهو يعلم ما قد يكون عليه بعض الناس من الحرص على المباهاة التي تدفعهم إلى المن والاستعلاء على الآخرين المحتاجين إليهم، وكأن هؤلاء الناس لا يقنعون بثواب الآخرة – الذي يعلمونه عظيمًا – على صدقاهم حتى يريدوا أن يجمعوا إلى ذلك الثواب في الدنيا، المتمثل من وجهة نظرهم في المراءاة، ونزعة الاستعلاء المَقيت(١).

وتأصُّلُ هذه الطباع في نفوس بعض البشر يحتاج إلى الإلحاح والمبالغة في الزجر والنهي، وتنوع الأساليب المفيدة لذلك؛ ولهذا يُنوِّع رب العزة - سبحانه - في أساليب زجره عن المن والأذى، فذكر أولاً: أن ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ

والثاني: نحو قوله – تعالى -: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١]، فلف لعدم الالتباس للعلم بتضليل كل فريق صاحبه، وهو ذكر متعدد على التفصيل والإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من آحاد المتعدد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرد ما لكل من آحاد المتعدد إلى ما هو له»، وكذلك ذكره العباسي دون أن يعرفه في كتابه «معاهد التنصيص على شواهد التلخيص»، وكذلك النابلسي في «نفحات الأزهار»، وأشار يحيى بن حمزة العلوي إلى اللف والنشر، وعرفه فقال: «هو عبارة عن ذكر الشيئين على جهة الاجتماع مطلقين عن التقييد ثم يوفى بما يليق بكل واحد منهما اتكالاً على أن السامع لوضوح الحال يرد إلى كل واحد منهما ما يليق به، وهو في الحقيقة جمع ثم تفريق». ومثل له بقول الله - تعالى - المذكور في الآية السابقة، وعرفه ابن حجة الحموي في كتابه «خزانة الأدب»: «هو أن تذكر شيئين فصاعدًا إما تفصيلاً فتنص على كل واحد منهما، وإما إجمالاً ، فتأتي بلفظ واحد يشتمل على متعدد، وتفوض إلى العقل رد كل واحد إلى ما يليق به» .

ينظر : الإيضاح للخطيب القزويني (٣٣٢ – ٣٣٣)، الطراز للعلوي (٢/١١٢-١١٣)، خزانة الأدب للحموي (٢/٥٨) ، التبيان للطيبي (٣٩٩) وغيرهم .

(١) ينظر: البيان القرآني (٧٦) بتصرف .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٦٢] .

ثم عقب ذلك بقوله : ﴿ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗى... ﴾ [البقرة : ٢٦٣] .

ثم عقب ذلك - أيضًا - بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ... ﴾ [البقرة : ٢٦٣] .

فخاطب المؤمنين بطريق الالتفات البديع [١] الذي يقبل فيه رب العزة والجلال على عباده ، بالخطاب على وجه التكريم ، بعد أن كان الحديث بطريق الغيبة ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ ؛ ليبالغ في النهي عن الإنفاق في سبيل الشهرة ، طالبًا منهم ألا يبطلوا صدقاتهم، ويحبطوا أجرها، ويمحقوا ثمارها؛ بسبب ما يُقْدِمون عليه من المن والأذى، ومراءاة للناس وسمعة ليروا نفقتهم ويُثنوا عليهم ، ولا يريدون بإنفاقهم رضاء الله ، ولا ثواب الآخرة ؛ فيكون مثلهم في ذلك مثل المنافق الذي يهدف من وراء إنفاق ماله مراءاة الناس دون أن يبتغي بذلك وجه الله تعالى، ولا ثواب الآخرة؛ لأنه كافر بالله، غير مؤمن بالحساب.

وهذا المنافق مثله في انكشاف أمره، وعدم انتفاعه بما ينفقه رياء وحبًّا للظهور، كمثل حجر أملس لا ينبت شيئًا، ولكنْ عليه قليل من التراب، الموهم للناظر أنه قد يصلح لإنبات الزرع، فإذا ما نزل المطر الشديد على هذا الحجر، زال التراب الذي عليه، فتظهر حقيقته، وينكشف حاله للناظر: أنه مجرد حجر أملس لا يصلح لإنبات أي شيء عليه[٢]، ولذا قال ابن عباس قوله: ﴿ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ ﴾ على الله بسبب صدقتكم، وبالأذى لذلك السائل[٣].

ولا نسلم أن المشبه بوقوع التراب على الصفوان حصول الأجر للكافر؛ بل المشبه بذلك صدور هذا العمل الذي لولا كونه مقرونًا بالنية الفاسدة، لكان موجبًا لحصول الأجر والثواب؛ لأن التراب إذا وقع على الصفوان، لم يكن ملتصقًا به، ولا غائصًا فيه

---

(١) ينظر: الإبداع البياني في القرآن العظيم للصابوني (٤٨).

(٢) ينظر: تفسير الثعالبي (١/٥١٩)، اللباب (٤/٣٨٧-٣٨٩)، الكشاف (١/٤٩٦)، التحرير والتنوير مج (٢) (٣/٤٧-٥٠)، تفسير القرآن الكريم (٢/٤٦٧).

(٣) ينظر: تفسير الرازي (٧/٤٧)، تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٢/٢٣١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البتة، بل يكون ذلك الاتصال كالانفصال، فهو في مرأى العين متصل، وفي الحقيقة منفصل، فكذا الإنفاق المقرون بالمن والأذى، يرى في الظاهر أنه عمل من أعمال البر، وفي الحقيقة ليس كذلك، فظهر أن استدلالهم بهذه ضعيف [(١)].

وفي الآية الكريمة التحذير من الرياء، فقد قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: يا رسول الله: وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء، يقول الله لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم اذهبوا إلى الذي كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»[(٢)].

وتبدأ الآية الكريمة بجملة إنشائية طلبية بالنداء الموجه إلى المؤمنين، وقد خصهم تعالى بالنداء دون غيرهم؛ لأنهم هم الأهل لأن يسمعوا كلام الله وينفذوا أوامره؛ كما أن القصد من النداء هو النهي عن إحباط أجر صدقاتهم، وهذا إنما يخاطب به المؤمنون دون غيرهم؛ لعدم احتمال الإبطال في صدقات غيرهم؛ لأن الإحباط فرع لاستحقاق الأجر، وغير المؤمنين غير مستحقين للأجر حتى يحتمل فيه الإبطال.

وقد خُتمت الآية الكريمة بقوله - تعالى -: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ وهو تذييل جميل مسوق لتحذير المؤمنين من أن تتسرب إلى أعمالهم بعض أحوال الكافرين والتي منها المن على من ينفقون عليه وإيذاؤه[(٣)].

وقد صور الله - تعالى - في هذه الآية الكريمة حال من يبطل صدقاته بالمن والأذى تصويرًا تشبيهيًّا رائعًا[(٤)].

---

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازي (٧ / ٤٧).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٢٨)، والطبراني في «الكبير» كما في المجمع (١٠/٢٢٥)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٦٨٣١).

وقال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير مج (٢) (٣/٥٠).

(٤) في كيفية هذا التشبيه وجهان:

الأول: أن العمل الظاهر كالتراب، والمان، والمؤذي، والمنافق كالصفوان يوم القيامة كالوابل، هذا على قول أهل السنة والجماعة، وأما على قول المعتزلة فالمن والأذى كالوابل.

الوجه الثاني: قال القفال رحمه الله: إن أعمال العباد يجازون بها يوم القيامة، فمن عمل بالإخلاص، فكأنه طرح بذرًا في الأرض، فهو ينمو، ويتضاعف له، حتى يحصده في وقته، ويجده وقت حاجته، والصفوان محل بذر المنافق، ومعلوم أنه لا ينمو فيه شيء، ولا يكون فيه قبول للبذر، والمعنى أن عمل المان، والمؤذي، والمنافق كالبذر المطروح في تراب قليل على صفوان، فإذا أصابه مطر بقي مستودع بذره خاليًا، لا شيء فيه؛ ألا ترى أنه تعالى: ضرب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث تضمنت الآية ثلاثة تشبيهات متداخلة؛ فشبهت بعض المتصدقين من المؤمنين، الذين يتصدقون طالبين ثواب الله تعالى، لكنهم يُعْقِبون صدقاهم بالمن والأذى، هؤلاء تشبههم الآية بالكافرين الذين ينفقون أموالهم بقصد الرياء، لا قصد الثواب في الآخرة.

والجامع بينهما: أن كلاًّ منهما لن ينتفع بما بذله من المال انتفاعًا حقيقيًّا[1]، ثم إن هذا الكافر المنفق ماله رياءً الذي كان مُشَبَّهًا به في الصورة الأولى يصير مشبهًا هنا؛ حيث تشبه حاله في إنفاقه ماله رياء وسمعة بحال حجر أملس قد غطته قشرة رقيقة من التراب، يظنه الناظر صالحًا للزرع والإنبات، لكن وابل المطر لم يلبث أن يزيل هذه القشرة، فيبدو الحجر على حقيقته، ليس موضعًا للخصب، ولا محلاً للإنبات، ووجه الشبه: أن حالة الشيء تبدو للرائي حسنة، ولكن نهايته سيئة. [2].

ومن طرفي هذين التشبيهين ينتج التشبيه الثالث؛ لأن ما شُبِّه به حال المنفق ماله رياء لا بد أن ينسحب - أيضًا - على ذلك المتصدق المتبع لصدقته بالمن والأذى.

وبهذا يظهر مَثَل من يتصدق ثم يُتْبِع صدقته بالمن والأذى كمثل فلاح جاهل بطبيعة أرض أتى عليها، وهي أرض صلبة ظنها طيبة صالحة للزراعة، فبذر فيها وسقاها، فلما أصابها وابل الماء ذهب ما كان يغطي تلك الأرض الصلبة من التراب، وظهرت على حقيقتها صخرة صماء؛ وهكذا لا يجد هذا الفلاح ما كان يؤمله من الزرع في تلك الأرض، وكذلك من يتصدق وينتظر الأجر والثواب من الله تعالى، لكنه يتبع صدقته بالمن والأذى، فإنه يظل ينتظر الأجر والثواب حتى يأتي الوقت الذي يكون فيه أحوج ما يكون إلى ذلك الأجر، فلا يجده؛ لأن صدقته قد صارت هباء منثورًا بسبب ما أعقبها به من المن والأذى[3].

ويزيد من بهاء وروعة تلك الصورة التي رسمتها الآية الكريمة لحال المنفق المانِّ المؤذي

مثل المخلص بجنة فوق ربوة؟ والجنة ما يكون فيها أشجار ونخيل، فمن أخلص لله، كان كمن غرس بستانًا في ربوة من الأرض، فهو يجني ثمر غراسه في أوقات حاجته، وهي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها متضاعفة زائدة.

ينظر: تفسير الفخر الرازي (٧/٤٨)، اللباب (٤/٣٩٥)،التصوير الفني في القرآن لسيد قطب (٣٩-٤٠)و(٧٨-٧٩).

(١) ينظر: التحرير والتنوير مج (٢) (٣/٤٨).

(٢) ينظر: البيان في ضوء أساليب القرآن د/ عبد الفتاح لاشين (٥٧) .

(٣) ينظر: من جوامع الكلم في القرآن الكريم (٣١٣)، من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم (٣٥٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مقابلَتُها بالصورة التي رسمتها الآيات السابقة واللاحقة لها للمنفق الذي يبتغي بنفقته وجه الله - تعالى - بلا أذىً أو مَنّ؛ حيث جاء تصويره قبل هذه الآيـــة بقوله - تعالى -: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وجاء تصويره في الآية التالية لهذه الآية بقوله - تعالى -: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وبإمعان النظر في هذه الآية يظهر أنها الوجه المقابل للصورة المرسومة في الآية الـــتي هي مناط التحليل .

فالصدقات التي تبذل هي هنا كالجنة فوق ربوة، وفي الآية مناط التحليل كحفنة من التراب على حجر أملس، والوابل مشترك بين الصورتين، غير أنه في هذه الآيـــة وابـــل يكشف عن وجه حجر صلد كالح غير صالح للزراعة، ولا قابل للإنبات.

أما في الآية الأخرى فهو وابل يخصب ويمرع إذ يصيب الجنة؛ فيختلط بتربتها، فينتج عن ذلك الثمر مضاعفًا، وإن غاب هذا الوابل، فإن ما في هذه الأرض من قوة الاستعداد للإنبات، وما فيها من الخصب يجعلها مهيئة – أيضًا - للإنبات بقليل مـــن المطـــر يحييهـــا ويهزها[١].

وقد وصف صاحب النفقـــة في كلتا الآيتين بوصفين متقابليـــن، فقوله - تعالى -: ﴿ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ مقابـــل لقولـــه: ﴿ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾، وقولـــه: ﴿ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ مقابل لقوله: ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾[٢].

وبهذا تسهم المقابلة في ضرب الأمثال في تقرير المعاني وتثبيتها؛ «بانتقالها مـــن عـــالم المعقول إلى عالم المحسوس المشاهد بالبصر، وذلك من بديع أســـاليب فـــصاحة القـــرآن الكريم»[٣].

وقد قيدت الآية الكريمة المنفق ماله رياء بأنه ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ مع

---

(١) ينظر: البيان في ضوء أساليب القرآن (٥٦، ٥٧).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٢/٣٠١).

(٣) مباحث البديع في البحر المحيط، سيد أحمد حسين (٩٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن الغرض من التشبيه يتم بوصفه بالرياء؛ لأنه لا ثواب للإنفاق رياءً وإن كان المنفق مؤمنًا ؛ تغليظًا في الزجر لهذا المنفق الذي يؤذي ويَمُنّ ، وإيماءً إلى أن تلك الحال من المن والأذى بالصدقات لا تليق بمن يؤمن بالله تعالى، ويعتقد بالمعاد، والاحتياج إلى الزاد(١).

والتشبيه في الآية التي هي مجال التحليل يجوز أن يكون مفروقًا؛ فيكون المنافق مشبهًا بالحجر في عدم الانتفاع، ونفقة المنافق مشبهة بالتراب؛ لرجاء النفع من كل منهما بالأجر والإنبات، ورياء المنافق مشبه بالوابل؛ لأن كلاًّ منهما قد ضر من حيث توقع منه النفع؛ كما يجوز أيضًا أن يكون مركبًا(٢).

ومما جاء فيه الأذى في سياق التكليف ما ورد في سورة النساء في قوله - تعالى - : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٦].

وفي هذا القول الكريم قدم القرآن علاجا ناجعا لكثير من الآفات الاجتماعية التي كانت منتشرة بين الناس في الجاهلية، ومنها العلاقات الجنسية الشاذة: كالزنى(٣)، واللواط(٤)، والسحاق(٥)؛ فقد جاءت النصوص القرآنية مُحَرِّمة لكل علاقة شاذة، ولم

---

(١) ينظر: البحث البلاغي في تفسير ابن كمال باشا، لطفي السيد صالح قنديل (٤٢٥).

(٢) ينظر: روح المعاني (٣/٣٥)، عناية القاضي وكفاية الراضي (حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٢/٣٤٢)، التفسير القيم لابن قيم الجوزية (١٦٠) .

(٣) الزنى لغة: إتيان المرأة من غير عقد شرعي.
وقال الراغب: هو وطء المرأة من غير عقد شرعي.
وقال ابن سيده: زَنى أي: ضاق، وزنى عليه أي: ضيق عليه، قال الشاعر:
لاهُمَّ إن الحارث بن جبله ... زنَّى على أبيه ثم قتله

ينظر: لسان العرب (٣/١٨٧٦)، المفردات في غريب القرآن (٢١٥) ، التوقيف على مهمات التعاريف (٣٨٩) .

(٤) اللواط هو: إتيان الرجل الرجل، وهو ما يعرف بعمل قوم لوط - عليه السلام - قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنَ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ۝ ﴾ .
ينظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٣٠).

(٥) السحاق لغة هو: إتيان المرأة المرأة وهو مباشرة دون إيلاج، وهو مأخوذ من السحق من دقه أشد الدق، وقيل: السحق الدق الرقيق، وقيل: هو الدق بعد الدق.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يبح الاتصال الجنسي إلا بطرقه المشروعة: من النكاح وملك اليمين؛ ليحافظ بذلك على الأنساب، ويحميها من الاختلاط والضياع، ويصون الأعراض؛ فيخلق مجتمعًا متماسكًا قويًّا، أساسه الفضيلة ومجاراة الفطرة السليمة.

وكان من هذه الآيات التي عالجت تلك العلاقات الجنسية الشاذة، ووضعت لها بعض العقوبات - هذه الآيةُ مناط التحليل: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴾.

حيث قررت عقاب من يأتي شيئا من تلك العلاقات الشاذة بالإيذاء، الذي فسره العلماء بأنه الكلام الغليظ، والشتم والتعيير[1].

قال الزمخشري: « ﴿ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ : فوَبِّخُوهما، وذُمُّوهما، وقولوا لهما: أَمَا استحييتما؟! أما خفْتُما اللهَ؟!»[2].

وقال عطاء وقتادة قوله: ﴿ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ يعني: فعيِّروهما باللسان: أَمَا خفت الله؟! أما استحييت من الله حين زنيت؟! [3] .

وقد جعلت الآية الكريمة هذا الإيذاء بالشتم والتعيير ونحوه محدودًا بغاية هي التوبة والإصلاح فإن تاب مَن كان قد أقدم على شيء من تلك المنكرات، وأصلح ولم يعد إلى شيء منها، وانصلح حاله ، فإنه ينقطع عنه التوبيخ والمذمة؛ لأن التوبة تمنع استحقاق الذم والعقاب[4].

وأبدى الزمخشري احتمالا أن يكون الخطاب في الآية الكريمة موجهًا إلى الشهود الذين يعثرون على مرتكب شيء من هذه الفواحش، وعلى هذا يكون المراد بالإيذاء

ينظر: لسان العرب (٣/١٩٥٥) وما بعدها.

(١) ينظر: روح المعاني (٤/٢٣٤)، تفسير ابن كمال باشا (٦٢١)، اللباب (٦/٢٤٤- ٢٤٧)، الكشاف (١/٤٨٨)، التحرير والتنوير، مج (٢) (٤/٢٧١- ٢٧٧)، نظرات في كتاب الله (١/٢٨٩).

(٢) الكشاف (١/٤٨٨).

(٣) ذكره البغوي في معالم التتريل (١/٤٠٦)، وابن عادل في اللباب (٦/٢٤٧) عنه وعن قتادة .
وأخرجه ابن جرير (٨٨٢٠) من طريق بشر بن معاذ قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة به ، التقريب (ت:٧٠٩)

(٤) ينظر: الكشاف (١/٤٨٨)، اللباب (٦/٢٤٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المذكور في الآية: الذم، والتعنيف، والتهديد بالرفع إلى الإمام والحدّ؛ فإن تابا قبل الرفع إلى الإمام، فإنه ينبغي الإعراض عن هذا التائب، وعدم التعرض له(١).

وعلى هذا الاحتمال الذي أبداه الزمخشري؛ لا يكون هناك تعارضٌ بين ما جاء في هذه الآية الكريمة، وما جاء في حد الزنى في قوله - تعالى -: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النور: ٢]؛ فإن العلماء قد قرروا أن حد الجلد الثابت بهذه الآية الكريمة، وحد الرجم الثابت بالسنة النبوية، إنما يلزم إذا بلغ السلطان، أما قَبْل ذلك فإنه يجوز لمن اطلع على شيء من ذلك أن يستر على هذا المذنب، فلا يرفعه إلى السلطان، وإنما يكتفي بمنعه من المعصية وأمره بالتوبة، وهذا الستر مندوب إليه، إلا في حال من يتكرر منه إتيان الفواحش، أو يجاهر بها، ونحو هؤلاء ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا؛ فإنه لا يجوز الستر عليهم .

أما على التفسير الأول الذي ذكره جمهور المفسرين، من أن المراد بالإيذاء هو العقوبة بالشتم، والتعيير فإنه يتعين حينئذ أن تكون تلك العقوبة هي العقوبة التي كانت مقررة في ابتداء تحريم الزنى، تدريجًا في التحريم؛ على ما عُهد في الشرع من تحريم كثير من المحرمات: كالخمر، وغيرها، ثم نسخت تلك العقوبة بعقوبة الجلد للبكر التي نصت عليها آية سورة «النور»، والرجم للمحصن؛ كما ثبت ذلك بالسنة النبوية(٢)؛ وهذا النسخ أمر قد اتفق عليه العلماء(٣).

وجملة الأمر: أن الآية تُنَفِّر من العلاقات الجنسية الشاذة بجميع صورها، وتقرر أنها تستحق العقوبة، وفي الوقت نفسه تدعو إلى الستر على من يزلُّ من المسلمين في شيء من ذلك؛ إذا كانت ترجى توبته وصلاح حاله، وفي النهاية تقرر أن التائب ينبغي ألا يسب، ولا يعير بما وقع فيه من الزلل، وتؤكد تلك المعاني جميعها بقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) ينظر: الكشاف (٤٨٨/١).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٩٢/٥) .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، مج (٢)(٢٧٣/٤)، التفسير الكبير للرازي (١٩٠/٩)، نظرات في كتاب الله (٢٨٩/١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، فهو يقبل توبة عباده، وهو رحيم بهم، يعود على عباده بفضله ومغفرته إذا رجعوا إليه وتابوا من ذنوبهم(١).

هذا هو مضمون الآية كما وضحه أهل العلم ، أما خصائصها البلاغية فأحاول تجليتها في الآتي :

عبَّرت الآية الكريمة عن مرتكبي فاحشة الزنى، ونحوها: من اللواط والسحاق، بالاسم الموصول: «اللذان»؛ للإيحاء بالتقريع والتوبيخ؛ كما أن في ذلك أيضا صيانة للسان عن النطق بهذه الفواحش، وإشعارًا باستهجان التصريح بمثل هذه الألفاظ(٢).

وجاءت صلة هذا الموصول فعلاً مضارعًا: «يأتيانها»؛ ليدل على ما يمكن وقوعه من تلك الفاحشة في المستقبل ، ليعرف المسلمون المسلك الذي ينبغي سلوكه عند وقوعها.

والضمير في جملة الصلة «يأتيانها» يعود إلى الفاحشة (٣) المذكورة في الآية السابقة لهذه الآية ، وهي قوله - تعالى -: ﴿وَٱلَّـٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡ ...﴾ [النساء: ١٥]، وقد عدل النَّظم القرآني في قوله - تعالى -: ﴿يَأۡتِيَـٰنِهَا﴾ عن التصريح بالفاحشة إلى التعبير عنها بضميرها؛ للدلالة على قبحها، والتنفير منها.

والتعبير بالفعل الماضي في جملة الشرط: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا﴾ ، للدلالة على تحقق وثبوت فعل التوبة والإصلاح منهما، فلا ينبغي رفع الإيذاء المتقدم ذكره في الآية الكريمة لتوقع حدوث التوبة والإصلاح، أو رجاء حصولهما، وإنما لا بد من تحقق ذلك، وثبوته فعلاً؛ بظهور أمارات الصلاح ودلائل التوبة عليهما.

و«كان» في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ قد تجردت عن دلالتها على الزمن الماضي؛ إذ يستحيل أن يكون اتصاف المخبر عنه «الله» تعالى بالخبر: «توابًا رحيمًا» في الزمن الماضي فقط، وإنما «كان» هنا دالةٌ على الاستمرار والدوام، وهي كذلك في كل ما جاء على شاكلة هذا التركيب، كقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦]، و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، و﴿

---

(١) ينظر: اللباب (٦/٢٤٧).
(٢) ينظر: روح المعاني (٤/٢٣٤).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير، مج (٢) (٤/٢٧٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا﴾ [النساء: ٨٥]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

فـ«كان» في كل هذه الآيات، وما جرى مجراها قد أفادت الماضي المستمر؛ فيكون المعنى: أنه كان وما زال[1]؛ فقد كان الله – تعالى- ومازال توابا، ورحيما، وعزيزا، وحكيما... إلخ.

وقد أوثر التعبير بفعل الكينونة مع إمكان الاستغناء عنه بأن يقال : إن الله تواب رحيم ؛ ليتعمق وصفه تعالى بالتوبة والرحمة في نفوس المخاطبين ، ولهذه الغاية نفسها أكد هذا الفعل بأداة التوكيد (إن) مع أن المخاطبين لم يكن لهم سابق علم به ، ولم يكن في أنفسهم شك فيه ، أو استغراب له ، ولو لم يكن الغرض تثبيت هذا الخبر ، وتعميقه مقصوداً لاستغنى عن الفعل ، وعن (إن) الداخلة عليه فقيل : والله تواب رحيم .

وقوله - تعالى -: ﴿تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ جاء الوصفان على صيغة المبالغة؛ لتأكيد رحمة الله - عز وجل - بعباده حتى العاصين منهم؛ فإنه لا يبادر بعقابهم والنيل منهم؛ جزاء وفاقًا لهم على ما ارتكبوه من كبائر أو معاصٍ؛ وإنما يمهلهم ليتوبوا ويرجعوا إليه؛ فيقبل- عز وجل - توبتهم؛ ويصيرون بذلك أهلا لرحمته سبحانه.

وجاءت الجمل في قوله - تعالى -: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ ، و﴿فَإِن تَابَا﴾، و﴿فَأَعۡرِضُواْ﴾ ؛ معطوفة على ما قبلها بالفاء؛ لتوحي - بما في الفاء من الدلالة على الترتيب، والتعقيب، والسرعة، والسببية[2] - بترتيب كل جملة من هذه الجمل على ما قبلها، وكون الثانية منهما نتيجة للأُولى، وأن حكم الجملة الثانية لا ينبغي أن يتأخر عن الجملة الأولى.

فالإيذاء في قوله - تعالى -: ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ سببه وقوع الفاحشة من الزاني؛ فكان الإيذاء نتيجة لإتيان الفاحشة، ولا بد أن يكون الإيذاء عقيب وقوع الجرم مباشرة، بلا تهاون أو تفريط مع العصاة والمجرمين؛ لأن في التهاون معهم تشجيعًا لهم على ارتكاب المعاصي والفواحش، وإشاعةً للفاحشة بين الناس.

---

(١) ينظر: الجملة الاسمية، د. عبد المقصود محمد عبد المقصود ، (١٠٣).

(٢) ينظر في معاني الفاء: مغني اللبيب، لجمال الدين بن هشام الأنصاري (١/١٣٩ – ١٤٥) ، مصابيح المغاني في حروف المعاني (٣٠٣)، معاني القرآن للفراء (١/٢٢)، الجنى الداني (٢٢١)، الأزهية (١٤٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك التوبة في قوله - تعالى -: ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا ﴾ ينبغي أن تكون عقب وقوع الذنب مباشرة؛ فالمؤمن يسارع ويبادر إلى التوبة، ولا يتمهل؛ لعل أجله ينتهي وهو مُصِرّ على المعصية؛ فيكون الخسران والخذلان، بل المؤمن الحق هو الذي إذا ما زل زَلَّة ما تذكر سريعًا وعيدَ الله وعقابَه؛ فيسارع إلى الاستغفار، والتوبة إلى الله تعالى.

والإعراض في قوله - تعالى -: ﴿ فَأَعْرِضُواْ ﴾ مترتب على وقوع التوبة والإصلاح ممن ارتكب الفاحشة، ولا بد - أيضا - أن يكون الإعراض عن الذم والتوبيخ عقيب التوبة مباشرة؛ إعانة للتائب على توبته، وعدم تذكيره بمعصيته، وأخذا بيده للفكاك من حبائل الشيطان.

على أنه يخالجني خاطر في إيثار أداة الشرط (إن) على غيرها مثل (إذا) التي هي أولى- بحسب الظاهر - بالمقام ؛ لأن الإعراض إنما يكون بعد تحقق التوبة كما يلمح إلى ذلك التعبير بالماضي ، أقول : يخالجني خاطر بأن إيثار (إن) فيه إلماح إلى أن التريث في الحكم بالتوبة أمر واجب ، ولا ينبغي التسرع في الحكم به بمجرد الإخبار بالتوبة ، فمن النادر أن يقلع مرتكب هذه الفاحشة عنها نظراً لما يواكب ارتكابها من الاحتياط في التستر ، ولذلك ينبغي أن تكون ثمة قرائن مصاحبة للإخبار حتى يكون الحكم صحيحاً .

وقدّم قوله: ﴿ تَوَّابًا ﴾ على قوله: ﴿ رَّحِيمًا ﴾ ؛ ليدل على أن رحمة الله تعالى، لا يستحقها العاصون إلا إذا تابوا وقبلت توبتهم من الله تعالى؛ فالرحمة متوقفة على قبول التوبة، أما من أصر على المعصية ولم يتب، فإن الله شديد العقاب، ولا يستحق هذا العاصي الدخول في رحمته - تعالى - ما دام مُصراًّ على معصيته، وكذلك من تاب مراءاةً، أو فقدت توبتُه شيئا من شرائط قبولها، فهو أيضا لا يستحق رحمته تعالى ما لم يصحح نيته، ويصلح حاله، بحيث تكون توبته مقبولة عند الله تعالى.

وترتبط هذه الآية الكريمة ارتباطًا وثيقًا بالآية السابقة عليها ؛ حيث قال تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِى ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١٥ - ١٦].

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا الارتباط الوثيق بين الآيتين، جعل المفسرين يتوقفون كثيرًا حول المقصود بالاسم الموصول «اللذان» في قوله - تعالى -: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ ﴾ ، فقيل: إن المراد بـ«اللذان» صنفان من الرجال: أحدهما: الرجال المحصنون، وثانيهما: الرجال غير المحصنين.

وإلى هذا ذهب ابن عباس - رضي الله عنهما - في رواية مجاهد(١)، وعليه لا يكون هناك تداخل ولا تكرار بين هذه الآية وما قبلها ؛ لأنه يصير قوله – تعالى -: ﴿ وَٱلَّـٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَـٰحِشَةَ ... ﴾ في النساء، وقوله - تعالى -: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَـٰنِهَا مِنكُمۡ ... ﴾ في الرجال، وفي هذا يقول ابن عادل الحنبلي: «اختلفوا في وجه هذا التكرير – أي: تكرير عقوبة من أتى الفاحشة في الآيتين – فقال مجاهد: الآية الأولى في النساء، وهذه في الرجال، وخص الحبس في البيت بالمرأة، وخص الإيذاء بالرجال؛ لأن المرأة إنما تقع في الزنى عند الخروج والبروز، وإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأما الرجل فلا يمكن حبسه في البيت؛ لأنه يحتاج إلى الخروج، لإصلاح معاشه، ومهماته، وقوت عياله»(٢).

وعلى هذا ؛ تكون الحكمة من ذكر صنفي الرجال – المحصنين وغير المحصنين – بقوله - تعالى -: ﴿ وَٱلَّذَانِ ﴾ هي التحرز من التماس العذر لغير المحصن إذا أقدم على الزنى، والتأكيد على أنهما سواء في استحقاق الإيذاء والشتم والتعيير(٣).

وحمل قوم من المفسرين قوله - تعالى -: ﴿ وَٱلَّذَانِ ﴾ على الرجال والنساء جميعا، وقالوا: جاء بصيغة المذكر «اللذان» الذي هو مثنى «الذي» الموصول الدالِّ على المفرد المذكر؛ تغليبًا للتذكير على التأنيث(٤).

وعلى هذا الوجه؛ يكون للنساء عقوبتان على الزنى بمقتضى هاتين الآيتين:

---

(١) ينظر: اللباب (٦/٢٤٦)، تفسير الرازي (٩/١٩٠)، تفسير البغوي (١/٤٠٦)، التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/٢٧١، ٢٧٢).
(٢) اللباب (٦/٢٤٦).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير، مج (٢) (٤/٢٧٢).
(٤) ينظر: تفسير ابن كمال باشا (٦٢١)، الكشاف (١/٤٨٨)، تفسير الرازي (٩/١٩٠، ١٩١)، تفسير البغوي (١/٤٠٦، ٤٠٧)، المحرر الوجيز (٢/٢٢)، البحر المحيط (٣/٢٠٧)، الدر المصون (٢/٣٣٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

العقوبة الأولى: عقوبة خاصة بهن، وهي التي اشتملت عليها الآية الأولى: ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ ... ﴾ إلخ [النساء: ١٥]: أن يحبسن في البيوت.

والعقوبة الثانية: عقوبة مشتركة بينهن وبين الرجال، وهي الإيذاء بالشتم والسب والتعيير، الذي نصت عليه الآية الثانية: ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾.

وعلى هذا الوجه - أيضا - تكون العقوبة المذكورة في الآيتين عامة في المحصنين وغير المحصنين، سواء أكانوا رجالا أم نساء.

وتتجلى روعة البلاغة القرآنية في التعبير عن هذا العموم تارة بلفظ «اللاتي» في الآية الأولى، وتارة بلفظ «اللذان» في الآية الثانية، وفي هذا يقول الطاهر بن عاشور: «﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ ﴾ يعم النساء خاصة، فشمل كل امرأة، في سائر الأحوال، بكرًا أم ثيبًا، وقوله: ﴿ وَٱلَّذَانِ ﴾ تثنية، أريد بها نوعان من الرجال، وهما المحصن والبكر؛ فيقتضي أن حكم الحبس في البيوت يختص بالزواني كلهن، وحكم الأذى يختص بالزناة كلهم، فاستفيد التعميم في الحالتين، إلا أن استفادته في الأولى من صيغة العموم، وفي الثانية من انحصار النوعين، وقد كان يغني أن يقال: «واللاتي يأتين»، و«الذين يأتون» إلا أنه سلك هذا الأسلوب؛ ليحصل العموم بطريقتين، مع التنصيص على شمول النوعين.

وجعل لفظ «اللاتي» للعموم؛ ليستفاد العموم من صيغة الجمع فقط، وجعل لفظ «اللذان» للنوعين؛ لأن مفرده - وهو «الذي» - صالح للدلالة على النوع؛ إذ النوع يعبر عنه بالمذكر، مثل الشخص ونحو ذلك، وحصل مع ذلك كلّه تفنُّنٌ بديع في العبارة؛ فكانت - بمجموع ذلك - هذه الآية غاية في الإعجاز»(١).

وجاء لفظ الأذى في سياق التكليف في قوله - تعالى -: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ

(١) التحرير والتنوير، مج (٢) (٤/٢٧٢، ٢٧٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٠٢].

وفي سبب نزوله يقول أهل العلم إنه : لقي المسلمون سنة ستٍّ - أو سبع - من الهجرة جموع غطفان(١): من محارب(٢)، وأنمار، وثعلبة(٣)، وكان المسلمون حريصين كل الحرص على الصلاة ، فلما رأى المشركون حرصهم عليها، وَدُّوا أن يستغلوا فرصة انشغال المسلمين بالصلاة، فيميلوا عليهم ويأخذوهم على غرة، لكن الله تعالى أنبأ نبيه بما يضمره هؤلاء المشركون، وشرع له صلاة الخوف(٤) بنزول هذه الآية(٥).

---

(١) غطفان بن سعد: بطن عظيم متسع، كثير الشعوب والأفخاذ، من قيس بن عيلان، من العدنانية، وهم: بنو غطفان بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، كانت منازلهم بنجد مما يلي وادي القرى وجبل طيئ، ثم افترقوا في الفتوحات الإسلامية ، وقد حاربهم الرسول ﷺ في غزوة الخندق ، وكانوا ألوفا، ثم ارتدوا بعد انتقاله ﷺ عن الإسلام؛ فحاربهم أبو بكر الصديق، فبعث إليهم خالد بن الوليد، فقتلهم شر قتلة.

ينظر: تاريخ الطبري (٩٢،٢٢٧/٣)، (٨٦/٤)، (١٤٦/٦)، (١٣١/٩)، (١٥/١١)، صفة جزيرة العرب للهمداني ص (١٢٩)، تاريخ ابن خلدون (٣٠٥/٢) .

(٢) محارب بن فهر: بطن من فهر بن مالك، من العدنانية، وهم: بنو محارب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وبعث النبي ﷺ إليهم يوم فتح مكة عبد الله بن نهيك.

ينظر: معجم ما استعجم للبكري (٦٤٩/٢)، تاريخ أبي الفداء (١١٣/١)، نهاية الأرب للنويري (٣٥٣/٢)، تاريخ ابن خلدون (٣٢٤/٢).

(٣) ثعلبة بن سعد: بطن من غطفان، من العدنانية وهم: بنو ثعلبة بن سعد بن قيس، غزاهم رسول الله ﷺ سنة أربع للهجرة.

ينظر: سيرة ابن هشام على هامش الروض (١٨١/٢)، شرح المواهب للزرقاني (٦/٢، ١٧٨)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (٢٦٩/٦)، معجم القبائل (١٤٤- ١٤٥).

(٤) وليس المراد من إضافة الصلاة إلى الخوف أن الخوف يقتضي صلاة مستقلة كقولنا: صلاة العيد، ولا أنه يؤثر في قدر الصلاة ووقتها كالسفر؛ فشروط الصلاة، وأركانها، وسننها، وعدد ركعاتها في الخوف كما في الأمن، وإنما المراد أن الخوف يؤثر في كيفية إقامة الفرائض إذا صُلِّيت جماعة، وأن الصلاة في حالة الخوف تحتمل أمورًا لم تكن تحتملها في الأمن.

وصلاة الخوف هي: الصلاة المكتوبة يحضر وقتها والمسلمون في مقاتلة العدو أو في حراستهم.

ينظر: روضة الطالبين (٤٩/٢)، المجموع (٤٠٤/٤)، حاشية البجيرمي على الخطيب (٢٢٢/٢)، المغني لابن قدامة (٤٠٢/٢) .

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، مج (٢) (١٨٤/٥)، اللباب (٦٠٨/٦) ، تفسير البغوي (١ / ٤٧٥) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقيل نزلت ﴿ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ ﴾ في عبد الرحمن بن عوف حينما كان جريحاً [١]، وهناك روايات أخرى يُرجع لها في كتب أسباب النزول [٢].

وهذا القول الكريم يؤكد على أهمية المحافظة على الصلاة حتى في أحلك الأوقات أو أشدها خطورة، وليس هناك من الأعذار ما يسقط الصلاة؛ وفي الوقت نفسه تؤكد أيضا على أهمية الأخذ بالأسباب، ووقاية النفس من المهالك.

فقد أرشد الله - عز وجل - نبيه - ﷺ - إلى أنه إذا كان في حال الحرب والخوف وأراد الصلاة، فإنه يقسم أصحابه طائفتين، ويصلي بكل طائفة منهم شطْر الصلاة؛ لتكون إحدى الطائفتين معه في الصلاة، والأخرى قائمة تحرسهم؛ ليتحقق لهم بذلك المحافظة على الصلاة، والاحتياط لأنفسهم والحفاظ على حياتهم بالتصدي للعدو الذي قد يجد في وقت الصلاة فرصة للنيل من المسلمين[٣].

وللعلماء آراء متعددة في بيان صفة صلاة الخوف وكيفيتها[٤] ليس هذا مجال الخوض فيها، ولكن الذي يرمي البحث إلى تأكيده هنا، هو أن جميع الكيفيات التي ذكرها الفقهاء لصفة صلاة الخوف يراعى فيها الاحتياط والحذر من الأعداء؛ ليتوافر الأمران اللذان حرص عليهما الشرع، وهما المحافظة على الصلاة، والتأهب لملاقاة العدو والدفاع عن النفس.

ويضرب الله - عز وجل - بتشريع صلاة الخوف وكيفيتها التي جاءت بها هذه الآية الكريمة المثلَ الأعلى في اتخاذ كافة الأسباب في جميع الأعمال؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - كفيل بأن يحمي ظهور المصلين أثناء الجهاد أو الحرب، ولكن الحق سبحانه يعطينا مثالا واضحا على أن لنا أسبابا، وله مشيئة، ولا تقارن أفعاله بأفعال العباد.

---

(١) ينظر : لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (١٠٠-١٠١) .

(٢) أسباب النزول للواحدي (١٢٨ – ١٢٩) ، تفسير الطبري (٥/٢٧٥) ، تفسير أبي السعود (٢ / ٢٢٧) .

(٣) ينظر: روح المعاني (٥/١٣٦)، تفسير ابن كمال باشا (٧٠٤، ٧٠٥)، البحر المحيط (٣/٣٤٠)، اللباب (٦/٦٠٨-٦١٣)،التحرير والتنوير، مج (٢) (٥/١٨٥- ١٨٨)، الكشاف (١/٥٥٩، ٥٦٠)، نظرات في كتاب الله (١/٣٢٧، ٣٢٨).

(٤) ينظر كيفية صلاة الخوف في: بداية المجتهد لابن رشد (٢/٣٨٣)، بدائع الصنائع للكاساني (١/٢٤٣، ٢٤٤)، الحاوي للماوردي (٢/٤٦٠، ٤٦١)، روضة الطالبين للنووي (٢/٤٩)، المجموع شرح المهذب (٤/٤٠٤)، كشاف القناع (٢/١٥)، الكشاف للزمخشري (١/٥٦٠)، التحرير والتنوير، مج (٢) (٥/١٨٦)، اللباب (٦/٦١٠) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي إيجاب الحذر من العدو الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة دلالةٌ أخرى على وجوب الحذر من جميع المضار المظنونة(١).

هذا هو ما تصمنه هذا النص الكريم من التشريع أما خصائصه البلاغية فها هي ذي:

«إذا» في قوله - تعالى -: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ ﴾ متضمنة معنى الشرط، كما هو غالب استعمالها(٢)؛ ولذلك دخلت الفاء على الفعل الذي هو جواب الشرط في قوله - تعالى -: ﴿ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾ .

وقد فهم البعض أن قوله - تعالى -: ﴿ فِيهِمْ ﴾ يراد به قصر صلاة الخوف على وجود الرسول ﷺ؛ فلا تكون مشروعة لجماعة ليس فيهم الرسول؛ وعللوا ذلك بأنه في وجود الرسول ﷺ يحرص الجميع على الائتمام به؛ فلذا يُقسَّمُ المصلون في حال الخوف طائفتين ليحصل لكل منهما شرف الائتمام به، أما إذا لم يكن الرسول معهم، فإنه يمكن أن تأتم كل طائفة بإمام غير الذي تأتم به الأخرى(٣).

لكن الصحيح الذي عليه جمهور المسلمين أن صلاة الخوف مشروعة لجميع المسلمين، في عهد رسول الله ﷺ ومن بعده، في وجوده وعدم وجوده ﷺ(٤).

وأما التقييد بقوله - تعالى -: ﴿ فِيهِمْ ﴾ ، فليس المراد به الاحتراز عن كون غير الرسول ﷺ فيهم، ولكن القصد منه التنويه بكون النبي ﷺ فيهم(٥)، وإظهار فضله - عليه السلام - على أُمته.

وقال - تعالى - : ﴿ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ ؛ فأَمَرَ أوَّلًا باتخاذ الأسلحة فقط، وزاد ثانيًا الأمر باتخاذ الحذر مع الأسلحة. والسر في ذلك أن العدو قلّما يتنبه في أول الصلاة لكون المسلمين في الصلاة،

---

(١) ينظر: نظرات في كتاب الله (١/٣٢٧).
(٢) ينظر في استعمالات «إذا»: مغني اللبيب وحاشية الشيخ محمد الأمير (١/٧٩- ٩٥)، مصابيح المغاني (٨٤)، الجنى الداني (٣٦٧).
(٣) ينظر: الكشاف (١/٥٥٩)، اللباب (٦/٦٠٨)، التحرير والتنوير، مج(٢) (٥/١٨٥).
(٤) ينظر: المراجع السابقة.
(٥) ينظر: التحرير والتنوير، مج(٢) (٥/١٨٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بل يظنهم قائمين لأجل الحرب لا لأجل الصلاة، وأما إذا ركعوا وسجدوا فإن هذا يَلفت أنظاره لكونهم في الصلاة؛ فيكون احتمال محاولتهم انتهاز الفرصة للهجوم على المسلمين في الركعة الثانية أكبرَ منه في الركعة الأولى؛ ولذا اكتفى النظم القرآني في الحديث عما يختص بالركعة الأولى بالأمر بأخذ الأسلحة فقط، وخص الموضع الذي تحدث فيه عن الركعة الثانية بزيادة تحذير(١).

وجاءت «ميلة» في قوله - تعالى -: ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ بصيغة اسم المرة «فَعْلَة»؛ ليوحي بمدى قوة وشدة هجوم العدو إذا رأى المسلمين في غفلة عن أسلحتهم؛ «وذلك أن الفعل الشديد القوي، يأتي بالغرض منه سريعا ودون معاودة علاج؛ فلا يتكرر الفعل لتحصيل الغرض»(٢).

وأكد دلالة «ميلة» على المرة بقوله: ﴿ وَاحِدَةً ﴾؛ ليؤكد الإيحاء بشدة وضراوة الهجوم؛ حتى لا يتوهم البعض أن «ميلة» قد وردت لمجرد تأكيد قوله: ﴿ فَيَمِيلُونَ ﴾، ويرسخ لدى الجميع أنها ميلة واحدة قوية شديدة ضارية تؤدي الغرض المطلوب منها، دون حاجة إلى تكرارها.

وقد ورد هذا القول الكريم في سياق ذكر الهجرة في الأرض، وما تقتضيه من السفر، والمستضعفين، وبعض الرخص التي ييسر الله بها على عباده، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٩٧- ١٠٠].

وناسب ذكرَ الهجرة والسفر والاستضعاف، أن يذكر الله - عز وجل - رخصةً للمصلين في صلاتهم في السفر؛ تخفيفًا عنهم، فشرع لهم تعالى قَصْرَ الصلاة، بقوله -

---

(١) ينظر: اللباب (٦/٦٠٩، ٦١٠)، المحرر الوجيز (٢/١٠٧).
(٢) التحرير والتنوير، مج(٢) (٥/١٨٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

تعالى -: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٠١](١).

ولما جرى ذكر الصلاة وذكر الأعداء، ناسب ذلك أن يبين الله - عز وجل - لعباده الكيفية التي يمكن لهم أن يؤدوا بها صلاتهم في حال لقاء العدو، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ... ﴾ [النساء: ١٠٢].

وفي قوله - تعالى -: ﴿ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾ إيجاز بديع؛ حيث علم منه أن ثمة طائفة أخرى؛ فالضمير في قوله: ﴿ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ للطائفة باعتبار أفرادها، وكذلك ضمير قوله: ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا۟ ﴾ للطائفة التي مع النبي ﷺ؛ لأن المعيةَ معيةُ الصلاة، وقد قال: ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا۟ ﴾، وضمير قوله: ﴿ فَلْيَكُونُوا۟ ﴾ للطائفة الأخرى المفهومة من المقابلة؛ لظهور أن الجواب - وهو ﴿ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ ﴾ - متعين لفعل الطائفة المواجهة للعدو (٢).

ويقول ابن كمال باشا: «﴿ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾ يصلون، وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدو، وأما جعلهم طائفتين فمفهوم اقتضاء ﴿ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ ﴾ أي: المصلون ﴿ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ ، ولا يجوز أن يكون الضمير للطائفة الأخرى؛ لأنه حينئذ تتفرق الضمائر؛ فيتنافر عليك النظم الذي هو أساس إعجاز القرآن، والقانون الذي وقع عليه التحدي، ومراعاته أهم ما يجب على المفسر»(٣).

وفي قوله - تعالى -: ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ تعليل للأمر بأخذ الحذر والسلاح ، وقد ورد على سبيل الاستئناف بياناً لعلة هذا الأمر ، ومن ثم فُصلت هذه الجملة عما قبلها لكونها جواباً عن سؤال اقتضته، كأنه قيل : لماذا جاء الأمر بذلك؟، فكانت هذه الجملة جواباً عن السؤال .

كما أن قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾، تذييل أيضاً والغرض من هذا التذييل تشجيع المؤمنين، وتثبيتهم في مواجهة عدوهم والربط على قلوبهم.

---

(١) ينظر: الفتوحات الإلهية (١/٤١٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، مج(٢) (٥/١٨٥، ١٨٦)، الفتوحات الإلهية (١/٤٢٠).

(٣) تفسير ابن كمال باشا (٧٠٤، ٧٠٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

واللافت للنظر تكرار الأمر بالحذر ؛ فقد جاء أولاً في سياق الحديث عما يلزم فعله وقت الصلاة حيث قيل : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآبِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآبِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآبِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ ،وفي سياق الترخيص بوضع السلاح إن كان هم أذى من مطر أو مرض حيث قيل : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾ ولهذا التكرار فيما يلوح لي سر يتمثل في أمرين :

الأول : أن الأمر ليس لمجرد التوجيه إلى الأفضل بل هو للوجوب ؛ وأن الغفلة في مواجهة الأعداء تُورث هزيمة قد يكون فيها الدمار الشامل .

والثاني : الأخذ بالأسباب ، فإن الله - وإن كان قد وعد بالنصر - لا يقلل من أهمية الأسباب المعتادة ، فعلى المجاهدين أن يأخذوا بالأسباب قبل كل شيء ثم يأتيهم النصر الموعود .

ولذلك جاء في أعقاب الأمر الأول قوله - تعالى -: ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ ، وقد بيّن أبو السعود مفاد هذا الأمر بقوله : "والأمر للوجوب ؛ لقوله - تعالى -: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ﴾ حيث رُخِّص لهم في وضعها إذا ثَقُل عليهم استصحابُها بسبب مطر أو مرض ، وأُمروا مع ذلك بالتيقظ والاحتياط فقيل : ﴿ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾"(١).

وجاء في أعقاب الأمر الثاني قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾، وقد ألمح الزمخشري إلى سر هذا التعقيب قائلاً : " فإن قلت : الأمر بالحذر من العدو يوهم توقع غلبته واعتزازه ، فنفى عنهم ذلك الإيهام بإخبارهم : أن الله يهين عدوهم ويخذله ، وينصرهم عليه ؛ لتقوى قلوبهم ، وليعلموا أن الأمر بالحذر ليس لذلك وإنما هو تعبد من الله ، كما قال : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) " (٢) .

---

(١) تفسير أبي السعود (٢ / ١٩١)
(٢) الكشاف : (٢٥٨) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومراد الزمخشري بالتعبد الأخذ بالأسباب كما يكشف عن ذلك النهي عن الإلقاء بالأيدي إلى التهلكة ؛ لأن توقي الهلاك من الأخذ بالأسباب ، وقد بين ذلك أبو السعود فقال: " أعد لهم عذاباً مهينا بأن يخذلهم وينصركم عليهم فاهتموا بأموركم ولا تهملوا في مباشرة الأسباب ليحل بهم عذابه بأيديكم "[1] ؛ ولهذا السبب جاءت الجملة مفصولة عما قبلها ؛ فهي استئناف تعليلي للأمر بالحذر [2] .

وفي قوله - تعالى -: ﴿ فَإِذَا سَجَدُواْ ﴾ مجاز مرسل علاقته الجزئية؛ لأن المراد بالسجود هنا إتمام الركعة؛ إذ معنى قوله - تعالى -: ﴿ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ ﴾ ، أي: إذا صلت الطائفة الأولى التي معك ركعة تامة، فليرجعوا ليقفوا بإزاء العدو[3].

وفي قوله - تعالى -: ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ استعارة مكنية [4] . فقد رأى الألوسي في هذا التعبير جمعاً بين الحقيقة والمجاز حيث قال : " ﴿ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ ﴾ أي: احترازهم، وشبَّهه بما يُتَحَصَّن به من الآلات؛ ولذا أثبت له الأخذ تخييلًا، وإلا فهو أمر معنوي لا يتصف بالأخذ، ولا يضر عطف قوله - سبحانه- : ﴿ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ عليه؛ للجمع بين الحقيقة والمجاز"[5].

والذي يلوح لي أن ثمة جمعٌ بين الحقيقة والمجاز ؛ لأن لفظ الحذر هو المشبه ، أما المستعار - وهو المشبه به - فقد حُذف ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الأخذ ، وإثبات الأخذ للمشبه - وهو الحذر - قرينة تلك الاستعارة المكنية ، ونص عبارته صريح في أن الاحتراز هو المشبه بما يتحصن به من الآلات ، وهو المذكور في النص القرآني ، أما ما يتحصن به فغير مذكور ، وإنما دل عليه بما هو من خصائصه وهو الأخذ، وإثبات الأخذ للحذر هو القرينة ، وهو ما يُسميه البلاغيون استعارة تخييلية ، وإنما يكون

---

(١) تفسير أبي السعود : (٢ / ١٩٢) .
(٢) ينظر السابق (٢ / ١٩١) .
(٣) تفسير ابن كمال باشا، (٧٠٣).
(٤) شبه الحذر بالسلاح والآلات الحربية التي يُتَحَصَّن بها بجامع الأهمية في دفع الخطر في كل، ثم تُنُوسي التشبيه ، ثم أُدُّعي أن الأخذ من جنس السلاح ،ثم أُستعير السلاح للحذر ،ثم حُذف اللفظ المستعار وهو السلاح ورمز له بشيء من لوازمه ، وهو الأخذ ، على سبيل الاستعارة المكنية .
(٥) روح المعاني (٥/٣٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الجمع بين الحقيقة والمجاز،ولو كان التجوز في لفظ واحد أُريد منه الحقيقة والمجاز - معاً - مثل قوله - تعالى - : vM w x y z { | } ~ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ L [النساء :٤٣] ، فلفظ الصلاة مراد به معناها الحقيقي الذي يتمثل في الأقوال والأفعال ، ومراد به مع ذلك المعنى المجازي وهو المسجد بقرينة قوله: Mوَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ L ، وما هنا ليس كذلك فليس لفظ الحذر مراد به الاحتراز ، وآلات التحصين ، ولكنه واقع عليهما والأول مجاز والثاني حقيقة ، وليس ذلك جمعاً بين الحقيقة والمجاز كما هو أصل المسألة على أنها مجال أخذ ورد بين كثير من البلاغيين (١).

على أن أبا السعود جعل لفظ الصلاة حقيقة في قوله : Mوَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ L ورد قول الشافعي في ذلك (٢) .

أما قول ابن عادل الحنبلي: « ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ : المعنى: أنه تعالى جعل الحذر- الذي هو التحذر والتيقظ - آلة يستعملها الغازي ؛ فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ، وجُعِلا مأخوذين، وهذا مجاز، كقوله: ﴿ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ [الحشر: ٩] »(٣) فغير واضح ؛ لأن المشار إليه في قوله : (وهذا مجاز) هو الأخذ ، وهنا محل التساؤل : ما المعنى الحقيقي للفظ الأخذ ، وما المعنى المراد به هنا ، وما القرينة الدالة عليه ؟

والذي يظهر لي أن ابن عادل لم يكن دقيقاً عندما أطلق هذا اللفظ ، وسبب ذلك أنه لم يفهم عبارة الزمخشري التي تقول : " فإن قلت : كيف جمع بين الأسلحة وبين الحذر في الأخذ ؟ قلت : جعل الحذر وهو التحرّز والتيقظ – آله يستعملها الغازي ؛ فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ ، وجعلا مأخوذين ، ونحوه قوله - تعالى - : ﴿ وَ ٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ جعل الإيمان مستقراً لهم ومتبوأ لتمكنهم فيه ؛ فلذلك جمع بينه وبين الدار في التبوء " (٤) .

وعبارة الزمخشري واضحة في أن مجيء الحذر مقترناً بالأخذ لازم للمستعار المحذوف وهو الآلة ؛ فالأخذ من لوازمه ، وبذلك يجمع بينه وبين الأسلحة فيه ، فهي أيضاً تؤخذ ،

---

(١) ينظر : الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، لعز الدين عبد السلام (٢٠ ، ١١٢) وما بعدها ، ويرجع إلى إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز للدكتور محمد توفيق.

(٢) ينظر : تفسير أبي السعود (٢ / ١٣٩) .

(٣) اللباب (٦/٦٠٩).

(٤) الكشاف للزمخشري (٢٥٨) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك الشأن في الإيمان ؛ فقد جعل مكاناً على سبيل الاستعارة ثم حـذف ، وقرينة ذلك التبوء، ومن ثَم جمع بينه وبين الدار فيه ، وعليه فليس في لفظ الأخذ مجاز كما توهم عبارة ابن عادل ، كما أنه ليس هناك جمع بين الحقيقة والمجاز كما رأى الألوسي .

ويمكن أن يُحمل قوله - تعالى - هنا : ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ على المشاكلة؛ للخروج بذلك من الاضطرار إلى القول بالجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظة واحدة في موضع واحد .

بقي أن أقول : أن عطف الأسلحة - وهو حقيقة - على الحذر - وهو مع لازمه - مجاز هو من باب الترشيح(١) للاستعارة حتى إنه ليخيل لمن يقرأ الآية يظن أن الحذر نوع خاص من السلاح ذُكر قبل صاحبه لميزة يتميز بها ، فيكون من قبيل عطف العام على الخاص ، وهذا ما ألمح إليه ابن المنير الأسكندري في قوله : " وحسن هذا المجاز ، وبلغ به ذروة الفصاحة عطف الحقيقة عليه " (٢) .

وعلى هذا؛ يكون إطلاق «الأخذ» على «الحذر» على حد إطلاق «البناء» على «الجار» في قول أبي تمام:

مَن مبلغٌ أفناءَ يَعْرُبَ كلَّها ... أني بَنَيْتُ الجارَ قبلَ المنزلِ(٣)

وإطلاق «الطبيخ» على «الجبة» في قول الأنطاكي:

---

(١) الترشيح من الرشح: ندى العرق على الجسد، والترشيح التربية والتهيئة للشيء.
الترشيح عرفه ابن أبي الإصبع فقال: «هو أن يؤتى بكلمة لا تصلح لضرب من المحاسن حتى يؤتى بلفظة تؤهلها لذلك»، ومثاله قول الله - عز وجل-: ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف: ٤٢] ، فلفظة «ربك» رشحت لفظة «ربه» وتلك الآية ظهرت تورية إذ يُحتمل أن يراد بها الإله تعالى، وأن يراد بها الملك.وكثير من أبواب البديع يدخله الترشيح .قال ابن أبي الإصبع المصري: «والترشيح يكون للتورية وللاستعارة وللمطابقة وغيرها». وقد فرق المصري بين الترشيح والاستعارة والتورية بثلاث مسائل:
الأولى: أن من التورية ما لا يحتاج إلى ترشيح، وهي التورية المحضة.
الثانية: أن الترشيح لا يخص التورية دون بقية الأبواب، بل يعم الاستعارة والطباق وغيرهما.
الثالثة: أن لفظة الترشيح في كلام الموري غير لفظة التورية.
ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة (٣٠٥)، بديع القرآن لابن أبي الإصبع(١٠٣-١٠٤)،تحرير التحبير(٢٧١-٢٧٤).
(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال – الإمام ناصر الدين أحمد بن المنير الاسكندري – هامش الكشاف (٢٥٨) .
(٣) البيت من الكامل، لأبي تمام في ديوانه بشرح الصولي (٢/٢٦٩)، دراسة وتحقيق: د. خلف رشيد نعمان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قالوا اقتَرِحْ شيئًا نُجِدْ لــك طَبْخَــهُ   قلتُ اطْبُخوا لي جُبَّــةً وقميــصا[1]

فإن الجار لا يُبْنَى، والجبة والقميص لا يُطبَخان، وإنما حَسُن إطلاق البناء على الجار؛ لأنه قد ذُكر في صحبة بناء الدار، وكذلك حسن إطلاق الطبيخ على الجبة والقمــيص؛ لأنهما قد ذكرا بصحبة الطبخ[2]، وهذا كله على سبيل المشاكلة، وهــي كمــا عرفهــا القزويني: «ذكر الشيء بلفظ غيره؛ لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرًا»[3].

وفي الانتقال من ضــمير الغيبــة (هــم) في قولــه : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ ﴾ وقولـــــه: ﴿ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم ﴾ ، وواو الجماعــة في قولــه : ﴿ وَلْيَأْخُذُوا ﴾ ، ﴿ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا ﴾ ، ﴿ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا ﴾ ، ﴿ وَلْيَأْخُذُوا ﴾ ، إلى ضـــمير الخطاب في قوله:﴿ تَغْفُلُونَ ﴾ التفات ، وسره التنبيه إلى ما يجب من شــدة الحــذر واليقظة فإن في الغفلة مهلكة لا تحمد عاقبتها ، وقد بين هذا الالتفات أبو الــسعود دون الإشارة إلى سره فقال : " والخطاب للفريقين بطريق الالتفات " [4] .

---

(١) البيت من الكامل، وقائله أبو الرقعمق، يروى أنه قال: كان لي إخوان أربعة، وكنت أنادمهم أيام الأستاذ كافور الإخشيدي، فجاءني رسولهم في يوم بارد، وليست لي كسوة تحصنني من البرد، فقال: إخوانك يقرءون عليك السلام ويقولون لك: قد اصطبحنا اليوم وذبحنا شاة سمينة فاشْتَهِ علينا ما نطبخ لك منها، قال: فكتبت إليهم:

إخــوانُنا قصدوا الصبوح بســحرة   فأتى رسولهمُ إليَّ خصوصــا

قــالوا اقترح شيئًا نُجِد لك طبــخة   قلت اطبخوا لي جبة وقميصــا

قال: فذهب الرسول بالرقعة، فما شعرت حتى عاد ومعه أربع خلع وأربع صرر في كل صرة عشرة دنانير، فلبست إحدى الخلع وسرت إليهم.

والشاهد فيه: المشاكلة، وهي: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا، وهي هنا قوله: «اطبخوا» فإنه أراد: «خيطوا» فذكر خياطة الجبة والقميص بلفظ «الطبخ»؛ لوقوعها في صحبة طبخ الطعام.

ينظر البيت في: الإيضاح في علوم البلاغة، ص (٢٩٥)، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (٢/٢٥٢)، المرشد على عقود الجمان (٢/٩١).

(٢) ينظر: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان (٣٤٧، ٣٤٨)، الإيضاح في علوم البلاغة (٢٩٥، ٢٩٦)، محاضرات في المعاني والبديع، (١٢٨ – ١٣٢).

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، (٢٩٥)، المعجم المفصل في علوم البلاغة، (٦٤٩)، التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، (٣٤٧)، محاضرات في المعاني والبديع، (١٣١).

(٤) تفسير أبي السعود (٢ / ١٩١) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني

بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة

يتناول هذا الفصل الحديث عن بلاغة القرآن في التعبير عن الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة .

ومن المعلوم أن المصابرة تعني تكلف الصبر واحتمال المشقة في مواجهة المعتدين على الحق كأن المجاهد يبادل عدوه الصبر حتى يحرز النصر.

وقد عني القرآن الكريم بتلك المصابرة ؛ لأنها تؤدي إلى الحفاظ على لواء الإسلام في مواجهة العواصف ، وهأنذا أعرض الآيات التي ورد فيها لفظ الأذى في هذا السياق محاولة - قدر طاقتي - تجلية بلاغة القرآن في التعبير عن تلك الدعوة والله المستعان .

وأول ما يطالع القارئ مما ورد فيه لفظ الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة قوله- تعالى-: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١١١].

وقد روي في سبب نزول هذه الآية أن اليهود كانوا على علم بأن هناك نبيًّا سيبعث في آخر الزمان، وكانوا يتوعدون أهل يثرب من الأوس والخزرج[(١)] بأنهم سيتبعون هذا النبي دونهم، ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم[(٢)].

فلما بعث النبي ﷺ خابت ظنون اليهود، حيث سبقهم الأوس والخزرج إلى الإيمان به ﷺ ، وهذا الذي جرى لم يَرُقْ ليهود يثرب، فأضمروا في نفوسهم الخبيثة الحقدَ والحرب على الإسلام والمسلمين في المدينة، ولكن كان من بينهم من استنارت

(١) دخل الرسول ﷺ المدينة مهاجرا إليها بعد خمس سنوات من حرب بُعَاث حيث انتشر الإسلام وأسلم أغلب الأوس والخزرج، وبدأت التسمية القبلية تتلاشى وتحل محلها تسمية جامعة موحدة لهما باسم «الأنصار»؛ لأنهم ناصروا الرسول ﷺ في دعوته وآزروه في غربته، وقد كان لذلك شأن كبير في الحوادث التي تلت مقام النبي ﷺ بالمدينة، حيث بارزه اليهود بالعداء سرا وعلانية، وانضم إليهم من لم يؤمن من الأوس والخزرج، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول، حتى اضطر إلى إعلان الإسلام رياء؛ ليتمكن من الكيد والدس، فتكونت من هذه الأخلاق منابت النفاق ومراقد الفتنة والتآمر.
ينظر: النفاق والمنافقون (١٧/١٨).

(٢) ينظر: السيرة النبوية، لابن هشام (١/٤٢٩، ٥٤١)، زاد المعاد، لابن القيم (٢/٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عقولهم؛ فاستجابوا لدعوة الحق ، وكان على رأسهم عبد الله بن سلام[1]، وأسد بن عبيد[2]، وثعلبة بن سعية[3]، رضوان الله عليهم أجمعين.

وقد كان إسلام عبد الله بن سلام وأصحابه مصدر إيلام وإزعاج كبير ليهود المدينة؛ ومن ثَمَّ عمد رءوس اليهود إلى هؤلاء الذين أسلموا منهم بالإيذاء؛ فنزلت هذه الآية الكريمة؛ لتخفف عنهم ذلك الإيذاء[4] .

وفي هذا القول الكريم يرغِّب الله المؤمنين في ترك الالتفات إلى أقوال وأفعال الكفار من اليهود وغيرهم؛ لأنه لا قدرة لهؤلاء الكفار على إلحاق الضرر بهم إلا بما لا عبرة به من القول القليل، كالطعن في الدين والتهديد، ونحو ذلك[5].

كما يبشرهم بالنصر على أهل الكتاب، ولا سيما اليهود منهم؛ لأنهم كانوا منتشرين في المدينة وما حولها ، وكانوا أهل مكر ودهاء، ولديهم القوة والمال، والعدة والعدد، في الوقت الذي كان فيه المسلمون في قلة من المال والعدة والعدد، فطمأن الله المؤمنين بأنهم لن يلحق بهم ضرر؛ لأن كل ما يمكن أن يناله أهل الكتاب منهم إنما هو أذى يسير، وضرر قليل، لا يكاد يؤبه له [6].

وإذا ما وقع قتال فإن النصر سيكون للمؤمنين، ولن يكون لأهل الكتاب بعد انهزامهم شوكة ، وفي ذلك تثبيت للمؤمنين، وتسلية لهم عما قد يشعرون به من خوف إثر تهديد أو وعيد [7].

---

(١) هو عبد الله بن سَلام بن الحارث اليوسفي، أبو يوسف، حليف القواقل الخزرجي، أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة، وشهد فتح بيت المقدس مع عمر، وروى خمسة وعشرين حديثًا، اتفقوا على أنه مات سنة ثلاث وأربعين بالمدينة.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٢/٦٤)، التقريب (١/٤٢٢).

(٢) هو أسيد بن عبيد القرظي، من مسلمة أهل الكتاب، وذكره ابن حبان في الصحابة.
ينظر: أسد الغابة (١/٢٠٣)، الإصابة (١/٥٢)، تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير لابن الجوزي، ١٨٩٢م، ليدن (١/١١٥).

(٣) هو ثعلبة بن سعية، وقيل: ابن يامين، أسلم في الليلة التي نزلت فيها قريظة على حكم سعد، قال البخاري: توفي ثعلبة بن سعية في حياة النبي ﷺ.
ينظر: أسد الغابة (١/٤٦٨)، الإصابة (ت: ٩٤٠).

(٤) ينظر: أسباب النزول للواحدي (٨٦) ، تفسير القرطبي (٤/١١٢) ، اللباب (٥/٤٧٠) .

(٥) ينظر: الكشاف (١/٤٠٠، ٤٠١)، اللباب (٥/٤٧٠، ٤٧١).

(٦) ينظر: التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/٥٤)بتصرف .

(٧) ينظر: الكشاف (١/٤٠٠، ٤٠١)، اللباب (٥/٤٧٠، ٤٧١)بتصرف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد يثور ههنا تساؤل يتعلق بحال المسلمين وأهل الكتاب اليوم، إذ كيف تخبر الآية بأن النصر الدائم يكون للمسلمين على أهل الكتاب مهما يحدث بينهم من حروب ﴿ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ، وواقع المسلمين الآن وما هم فيه من تفرق وضعف يدل على خلاف ذلك ؟!

ويجاب عن هذا التساؤل بأن ما في الآية الكريمة من الإخبار بالنصر الدائم للمسلمين على أهل الكتاب، إنما هو في المسلمين الذين تمسكوا بالإسلام حقيقة؛ فاعتصموا بحبل الله ولم يتفرقوا ،وإذا استمسك المسلمون بالحق والوحدة، والدعوة إلى الله على هُدًى وبصيرة، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، مؤمنين بالكتاب كله فإن النصر سيكون حليفهم ما داموا على ذلك [(١)].

تلك لمحة عن المحتوى ، أما الخصائص البلاغية فها هي ذي:

وأول تلك الخصائص ما يلحظه القارئ من تنكير لفظة «أذى» في قوله- تعالى-: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗى ﴾ ؛ فأفاد تنكيرها التهوين والتحقير[(٢)] ؛ وسر هذا أن الآية مسوقة لتثبيت المؤمنين و التخفيف عنهم مما يتهددهم به أعداؤهم؛ أي: أن أعظم ما يمكن أن يأتي به هؤلاء وأشد ما يقدرون عليه، ليس سوى ضرر يسير لا يبالى به، من كلمة سوء ونحوها: إما بالطعن في محمد وعيسى – عليهما السلام – وإما بإظهار كلمة الكفر ، وإما بتخويف ضعفة المسلمين [(٣)].

وأكدت الآية الكريمة عجز هؤلاء الكفار عن إيقاع الأذى الشديد بالمسلمين بقوله- تعالى-: ﴿ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ، فجاء الشرط بـ«إن» المفيدة للشك والتقليل؛ لتشير إلى أن مقدرة هؤلاء الكفار على القتال أمر مشكوك فيه، وهو قليل لا يكاد يحدث، وإن حدث فلن تكون له ثمرة؛ لأنهم سوف يولون الأدبار منهزمين؛ كما أخبر الله - تعالى- بقوله: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر:٤٥] [(٤)].

---

(١) ينظر: نظرات في كتاب الله (١/٢٤١-٢٤٢)، من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، د. السيد تقي الدين (١٣٨/٤)بتصرف .

(٢) ينظر في بلاغة التعريف والتنكير: دراسات في علم المعاني، د. حسن طبل (٥٧- ٦٢).

(٣) ينظر: اللباب (٥/٤٧٠).

(٤) ينظر: اللباب (٥/٤٧١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء قوله - تعالى -: ﴿ لَا يُنصَرُونَ ﴾ معطوفا بـ«ثم» المفيدة للتراخي؛ لتدل هنا على التراخي في الرتبة، ومعناه: «كون رتبة معطوفها أعظم من رتبة المعطوف عليه في الغرض المسوق له الكلام، وهو غير التراخي المجازي؛ لأن التراخي المجازي: أن يشبه ما ليس بمتأخر عن المعطوف بالمتأخر عنه»(١)، وفي ذلك يقول الزمخشري: «فإن قلت: فما معنى التراخي في «ثم»؟ قلت: التراخي في المَرْتبة؛ لأن الإخبار بتسليط الخذلان عليهم أعظم من الإخبار بتوليتهم الأدبار»(٢).

ومن الملحوظ أنه قد افتتحت الآية الكريمة بجملة منفية بـ«لن»، فقال تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ ، والنفي بـ«لن» هنا يدل على تأكيد النفي وتأبيده ؛ على حد قوله - تعالى -: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقوله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة:٥٥]، وقوله - تعالى -: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠]، وقوله - تعالى -: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٥]، وقوله - تعالى -: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١]، وقوله - تعالى -: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة:١٢٠]، وقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٠]، وقوله - تعالى -: ﴿ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا ﴾ [الحج: ٧٣].

فهذه الآيات وغيرها كثير تدل على كثرة وقوع «لن» لتأكيد النفي في النص القرآني، وإضافةً لإفادتها تأكيد النفي، فإنها تفيد أيضا تأبيد النفي، غير أنه قد اعترض على إفادتها التأبيد، بمجيء «حتى» معها في قوله - تعالى -: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠] ، وقوله - تعالى -: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥](٣).

---

(١) التحرير والتنوير، مج(٢) (٥٥/٤).
(٢) الكشاف (٤٠١/١)، وينظر روح المعاني (٢٩/٤)، من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم (١٤٣/٤).
(٣) ينظر : تفسير أبي السعود (١٢٠/٦)، روح المعاني (٢٠١/١٧)، الإتقان (١٧٤/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ووجه الاعتراض أن «حتى» تدل على الغاية، ووجود الغاية في الكلام ينافي تأبيد النفي.

وأجيب عن ذلك بأن الغايتين الواردتين في الآيتين الكريمتين اللتين احتج بهما المعترض هما غايتان مستحيلتان؛ «ومن ثم لا تمثلان غايتين حقيقيتين؛ إذ لا يمكن أن تقع رؤية الله جهرة، ولا أن يتبع النبي ﷺ ملتهم»[1].

وإذا ثبت دلالة «لن» على تأكيد النفي وتأبيده فإنها تكون في هذه الآية - وهي قوله - تعالى-: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗى﴾ دالة على تأكيد نفي وقوع الضرر الشديد على المؤمنين من جهة أهل الكتاب على جهة التأبيد في كل زمان.

وإن أثير حول هذه الدلالة اعتراض بحال المسلمين وأهل الكتاب اليوم؛ فجوابه - كما سبق -: أن الخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين الذين استكملوا صفات الإسلام والإيمان.

وقد استشعر ابن عادل الحنبلي دلالة «لن» في هذه الآية الكريمة على تأكيد النفي وتأبيده، وما قد يثور حول هذا من تساؤل أو اعتراض، فقال: «وهذه الآية اشتملت على الإخبار عن غيوب كثيرة:

منها: أن المؤمنين آمنون من ضررهم، أي: أهل الكتاب.

ومنها: أنهم لو قاتلوا المؤمنين لانهزموا.

ومنها: أنه لا يحصل لهم شوكة بعد الانهزام.

وكل هذه الأخبار وقعت كما أخبر الله عنها، فإن اليهود لم يقاتلوا إلا انهزموا، وما أقدموا على محاربة وطلب رئاسة إلا خذلوا، وكل ذلك إخبار عن الغيب، فيكون معجزًا.

فإن قيل: هَبْ أن اليهود كذلك، لكن النصارى ليسوا كذلك، وهذا يقدح في صحة هذه الآيات.

فالجواب: أنها مخصوصة باليهود؛ لما روي من سبب النزول»[2].

---

(١) البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان، (٢/١٥٩).

(٢) اللباب (٥/٤٧١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وابن عادل يورد الاعتراض والجواب بحسب مقتضيات عصره، و قد أوردته بحسب مقتضيات عصرنا، الذي ارتفع فيه شأن اليهود والنصارى جميعا، وتخلى فيه المسلمون عن موقعهم الريادي، ولا أرى سبيلا إلى تحقيق عزهم وكونهم الأمة الموعودة بالنصر في هذه الآية الكريمة، إلا إذا استكملوا فضائل هذه الأمة، والتي بَّينها الحق - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

و«لن» و«إلا» في قوله- تعالى-: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ أسلوب قصر يؤكد تهوين هذا الضرر الذي يمكن لأهل الكتاب إيقاعه على المؤمنين، فهو مجرد أذى يسير لا يمثل عناء ولا يسبب مشقة، ولكن لما كان حال المسلمين في ذلك الوقت يوهم خلاف ذلك، حيث كانوا من الضعف في العدة والعتاد، والقلة في العدد والمال، بحال يرى الناظر إليه أن إيقاع الضرر العظيم بهم أمر هين، وأن عدوهم بما لديه من قوة وكثرة في العدد والعتاد والمال قادر على إيقاع أقصى أنواع الضرر بهم - لما كانوا كذلك عومل المخاطب معاملة المنكر للخبر؛ فهو يتوقع ضررا عظيما، والآية تخبره بأذى يسير؛ فأصبحت الحال كحال الإنكار؛ فلهذا جاء القصر بالنفي والإثبات، ولم يجئ بـ«إنما»[(١)]؛ لأن «إنما» تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته أو لِمَا ينزل هذه المنزلة، وأما الخبر بالنفي والإثبات، فيكون لأمرٍ ينكره المخاطب ويشك فيه؛ ويوضح ذلك عبد القاهر الجرجاني في «دلائل الإعجاز»، فيقول: «فإذا قلت: (ما هو إلا مصيب)، أو (ما هو إلا مخطئ)، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلت، وإذا رأيت شخصا من بعيد، فقلت: (ما هو إلا زيد)، لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر، ويجدُّ في الإنكار أن يكون زيدا.

وإذا كان الأمر ظاهرا، لم تقله كذلك، فلا تقول للرجل ترققه على أخيه، وتنبهه للذي يجب عليه من صلة الرحم، ومن حسن التحابّ: (ما هو إلا أخوك)، وكذلك لا يصلح في (إنما أنت والد): ما أنت إلا والد»[(٢)].

---

(١) ينظر في أسلوب القصر وطرقه: الإيضاح في علوم البلاغة، (١٢١- ١٣٠)، والتبيان في علم المعاني والبديع والبيان، (١٢١- ١٢٩)، ودراسات في علم المعاني، (١٣٨- ١٤٦).

(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (٢٣٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهكذا الآية الكريمة التي هي مناط التحليل لما كان وقوع أذى يسير من جانب القوة الأكثر عددا، والأقوى عتادا، على المسلمين وهم الجانب الأضعف في هذا كله - أمرا مستبعدا، ينكره الواقفون عند المقاييس البشرية وحساباتها، جاء القصر بـ«لن» و«إلا»، ليدفع أي إنكار، ويزيل كل شك، ويؤكد أن قدرة الله تعالى تقف إلى جانب المؤمنين الصادقين تدفع عنهم وتحول دون وصول الأضرار الجسيمة إليهم .

ويرتبط هذا القول الكريم بسابقه ارتباطاً وثيقاً . ذلك أن قوله - تعالى-: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗى ﴾ استئناف ناشئ عن قوله - تعالى- في الآية السابقة لهذه الآية: ﴿ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، حيث فصَّل الله تعالى أحوال أهل الكتاب في الآية السابقة، فقال تعالى: ﴿ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠] كعبد الله بن سلام ، وغيره ممن أسلم من اليهود، والنجاشي(١) وأصحابه الذين أسلموا من النصارى، ثم قال تعالى: ﴿ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ ، أي: الخارجون عن طاعة الله تعالى، المخالفون لنهجه وتعاليم دينه(٢).

والإخبار عن أكثر أهل الكتاب بأنهم فاسقون غيرُ مؤمنين، يؤذِن بأن هؤلاء سوف تقع منهم المعاداة للإسلام والمسلمين، وهذا من شأنه أن يوقع في قلوب بعض المسلمين ونفوسهم الخوف من بأس هؤلاء الكافرين وقوتهم(٣)؛ فناسب ذلك الاستئناف بقوله -تعالى-: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗى ﴾ ؛ ليدفع ما وقع في قلوب المسلمين من خوف بأس الكفار من أهل الكتاب وقوتهم، ويبشرهم بأن هذا إن وقع فسوف يكون أذى يسيرا لا يستحق إضمار خشيته والخوف منه ، وكان ذلك بمثابة جواب عن سؤال اقتضته الآية السابقة وفحواه : إذا كان أكثرهم فاسقين فهل نستطيع درء خطرهم على كثرتهم ، وقلتنا ؟

---

(١) أصحمة النجاشي ملك الحبشة، أسلم في عهد النبي - ﷺ - وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا إلى أرضه، وتوفي ببلاده قبل فتح مكة، وصلى عليه النبي - ﷺ - بالمدينة وكبر عليه أربعا؛ وأصحمة اسمه، والنجاشي لقب له ولملوك الحبشة.

ينظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٨٧)، العبر (١/١٠، ٢٠ ٤).

(٢) ينظر: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، (٤/١٤٣).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/٥٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويشير الزمخشري إلى وجه آخر من الارتباط بين قوله- تعالى-: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ والآية السابقة له، فيقول: «فإن قلت: ما موقع الجملتين، أعني: ﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ... ﴾، ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ... ﴾ ؟

قلت: هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب؛ كما يقول القائل: وعلى ذكر فلان، فإن من شأنه كَيْت وكَيْت؛ ولذلك جاءا من غير عاطف»(١).

وثَمَّةَ وجه ثالث من وجوه الارتباط بين قوله - تعالى-: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ ، والآية السابقة عليه، يشير إليه ابن عادل الحنبلي بقوله: «لما رغَّب المسلمين في ترك الالتفات إلى أقوال الكفار وأفعالهم بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، رغبهم - أيضا - من وجه آخر، وهو أنه لا قدرة لهم على إضرار المسلمين إلا بالقليل من القول، الذي لا عبرة به، ولو أنهم قاتلوا المسلمين، لانهزم الكفار؛ فلذلك لا يلتفت إلى أقوالهم وأفعالهم» (٢) ، وأرى – والله أعلم – أن كلام الزمخشري أوجه وأبلغ.

وسواء أكانت الجملتان جاءتا في النص القرآني على سبيل الاستطراد – كما قال الزمخشري – أو كانت الثانية مزيداً من الترغيب كما رآه ابن عادل ، فإن قوله: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ استئناف هو بمثابة الجواب عن سؤال اقتضاه ما قبله ؛ وفحوى السؤال في الأول : إذا كان أكثرهم فاسقين فهل نستطيع درء خطرهم ، وفحواه في الثاني : إذا كنا خير أمة فهل نحن بنجوة من خطر أهل الكتاب ؟ فجاء الجواب ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾ .

ووصل قوله- تعالى-: ﴿ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ ﴾، بقوله: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ﴾، عطفا بالواو؛ للتوسط بين كمال الانقطاع وكمال الاتصال بين الجملتين؛ وذلك لأمرين:

أولهما: أن بين هاتين الجملتين اتصالا يتمثل في كونهما خبريتين، وفي وجود الجهة الجامعة أو العلاقة التي تبرر عطف الثانية منهما على الأولى، وهي تتمثل في بيان نوع الضرر والأذى الذي يمكن أن يوقعه أهل الكتاب أو يحاولوا إيقاعه بالمؤمنين.

---

(١) الكشاف (٤٠١/١).
(٢) اللباب (٤٧٠/٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانيهما: أن بينهما مع هذا الاتصال اختلافا من حيث المعنى المدلول عليه بكل منهما.

ثم جاءت الجملة الأخيرة في الآية الكريمة: ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ مستأنفة، ولم يجزم الفعل «ينصرون» عطفا على جواب الشرط؛ لأن في جزمه تغييرا للمعنى المراد من الآية الكريمة، حيث أخبر الله سبحانه بعدم انتصار هؤلاء الكفار مطلقا، دون تقييد بإرادتهم القتال الدال عليه فعل الشرط: «وإن يقاتلوكم»؛ فعلى هذا تكون فائدة الاستئناف في قوله- تعالى-: ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾: أنهم غير منصورين دائما، قاتلوا أو لم يقاتلوا [(١)].

وفي هذا يقول الزمخشري: «فإن قلت: هلا جزم المعطوف في قوله: ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ؟

قلت: عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون.

فإن قلت: فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟

قلت: لو جزم، لكان نفي النصر مقيدا بمقاتلتهم، كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعدا مطلقا؛ كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها، وأُبشِّركم بها بعد التولية: أنهم مخذولون، منتفٍ عنهم النصر والقوة، لا ينهضون بعدها بنجاح، ولا يستقيم لهم أمر»[(٢)].

وإذا تقرر أن قوله- تعالى-: ﴿ لَا يُنصَرُونَ ﴾ ليس معطوفا على جواب الشرط، فإنه يكون معطوفا على جملة الشرط والجزاء جميعًا؛ فيكون المعنى: أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا، ثم أخبركم وأبشركم أن النصر والقوة منتف عنهم رأسا، فلن يستقيم لهم أمر البتة [(٣)].

---

(١) ينظر: الكشاف (٤٠١/١)، من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم (١٤٣/٤)، اللباب (٤٧١/٥)، التحرير والتنوير، مج(٢) (٥٤/٤).

(٢) الكشاف (٤٠١/١).

(٣) ينظر: اللباب (٤٧١/٥)، الكشاف (٤٠١/١)، من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم (١٤٣/٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ففي العدول عن العطف على جواب الشرط، وإيثار العطف على الجملة الشرطية بجزأيها إشارة إلى ما يكون من حال أهل الكتاب دائماً إن فكروا أو باشروا القتال مع المؤمنين [١].

وجاء لفظ الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة في قوله - تعالى-: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

[آل عمران: ١٨٦]

ذكر المفسرون[٢] في سبب نزول هذه الآية أن رسول الله -ﷺ- بعث أبا بكر الصديق -رضي الله عنه - إلى رجل من اليهود يدعى: فنْحاص؛ ليقترض منه بعض المال، فقال فنحاص مستهزئًا: قد احتاج ربكم إلى أن نمده! فتَميَّز[٣] أبو بكر - رضي الله عنه- غيظًا لما سمع من مقالته واستخفافه؛ فَهَمَّ أن يضربه بالسيف، لكنه تذكر أن رسول الله - ﷺ- قد قال له حين أرسله: «لا تغلبن على شيء حتى ترجع إليّ»؛ فكفّ عن الضرب؛ فنزلت هذه الآية [٤].

ومحتوى هذه الآية الكريمة تسلية لرسول الله- ﷺ - ومن معه من المؤمنين عما سيتعرضون له من الإيذاء، وسيلقونه من المكاره بفعل الكافرين، سواء أكانت تلك المكاره مما يتعلق بالأنفس: كالقتل، والأسر، والجراح، وما يرد على الأنفس من أنواع

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/٥٤).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/٢٠٠)، وينظر: تفسير البغوي (١/٣٨١).
(٣) تميز من الغيظ: تقطع.
ينظر: القاموس المحيط (م ي ز).
(٤) ينظر: اللباب (٦/١٠١). وهو قول عكرمة: أخرجه ابن جرير (٨٣١٦)، وابن المنذر كما في الدر المنثور (٢/١٨٦)، وذكره البغوي في معالم التنزيل (١/٣٨١) من قول عكرمة ومقاتل والكلبي وابن جريج، وأورده ابن عادل في اللباب (٦/١٠١) و لم ينسبه إلى أحد.
وهناك روايات أخرى في سبب النزول يرجع إليها في: أسباب النزول(١٠٠) ، تفسير القرطبي (٣/١٥٤٥)، لباب النقول في أسباب النزول (٧٤)،تفسير الرازي (٩/١٠٤)..وغيرهم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المخاوف والمصائب، أم كانت في الأموال، وما يتعلق بها: من الابتلاء بالمصائب، وبالإنفاق في سبيل الله، وسائر تكاليف الشرع. وكذلك ما يسمعونه، من أهل الكتاب من المطاعن في الدين الحنيف، وصد من أراد الإيمان، وتخطئة من آمن، ونحو ذلك من وجوه الإيذاء[1].

والمراد من ذلك أن يوطن المسلمون أنفسهم على الصبر؛ فإن العالم بنزول البلاء عليه لا يَعْظُم وقعه في قلبه، بخلاف غير العالم؛ فإنه يعظم عنده، ويشق عليه[2].

وقد أمرهم الله تعالى بالصبر على ما سيلاقونه من إيذاء الكفار ولو كان هذا الأذى كثيرًا، خارجًا عن الحد الذي تحتمله النفوس غالبا؛ حتى يحصل لهم النصر[3]، ولأن الصبر على المُخالف، وتحمل ما قد يصدر عنه من الأذى، أقربُ إلى استمالة قلبه، وجذبه إلى الدخول في الدين؛ كقوله - تعالى -: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤]، وقوله - تعالى -: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية: ١٤] [4].

وكما أمر الله تعالى المؤمنين بالصبر؛ أمرهم – أيضا – بالتقوى، والدوام على أمور الإيمان، والإقبال على بَثِّه وتأييده؛ لأن الصبر والتقوى مما يجب العزم عليه من الأمور، أو هما عزمة من عزمات الله تعالى لا بد للمؤمنين أن يتمسكوا بهما؛ ولهذا يشد الله تعالى على أيدي المؤمنين، ويشحذ هممهم، ويقوي عزائمهم بقوله: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[5].

ذاك ما حواه النص القرآني من المضمون كما بين ذلك أهل العلم أما بلاغته فهي ما أحاول الإبانة عنه قدر ما يوفقني الله إليه .

---

(١) ينظر: الكشاف (٤٤٩/١، ٤٥٠)، اللباب (١٠٠/٦، ١٠١)، التحرير والتنوير، مج(٢) (١٨٩/٤، ١٩٠)، روح المعاني (١٤٧/٤)، تفسير أبي السعود (١٢٣/٢)، تفسير القرطبي (١٥٤٥/٣)، في ظلال القرآن (٥٣٩/١)، نظرات في كتاب الله (٢٧٣/١، ٢٧٤).

(٢) ينظر: اللباب (١٠٠/٦)، تفسير الرازي (١٠٤/٩)، حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي (٦٩٣/١).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، مج(٢) (١٩٠/٤).

(٤) ينظر: اللباب (١٠١/٦).

(٥) ينظر: الكشاف (٤٥٠/١)، التحرير والتنوير، مج(٢) (١٩٠/٤)، نظرات في كتاب الله (٢٧٤/١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وأول ما يطالع القارئ من ذلك التعبير عن أعداء المسلمين بالموصول في قوله - تعالى -: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ، وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى ﴾ [آل عمران: ١٨٦]؛ لأن الاسم الموصول وصلته قد صارا أخصر طريق وأقربه للتعريف بهاتين الطائفتين وغيرهما من الطوائف التي اشتهرت بمضمون الصلة؛ بحيث أصبحت الصلة كالعَلَم عليهم، إذا أطلقت انصرفت إليهم دون غيرهم، نحو: الذين آمنوا، والذين كفروا... إلخ.

ففي ذلك التعبير عن اليهود والنصارى بـ«الذين أوتوا الكتاب» إشعار بمدى شقاقهم وتماديهم في العناد والجهالة؛ إذ كيف يليق بهم الطعن في محمد - ﷺ - ورسالته، مع أن كتابهم ناطق بذلك، وهو المعنى الذي أكدته الآية التالية لهذه الآية الكريمة؛ حيث نَعَتْ على هؤلاء اليهود والنصارى مخالفتهم للميثاق الذي أخذه الله تعالى أن يبينوا نَعْتَ محمد - ﷺ - وصفته، وألا يكتموا ذلك، ولكنهم أهملوا هذا الميثاق[1]، وهي قوله - تعالى -: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

كما أن في التعبير عن اليهود والنصارى بأنهم «الذين أوتوا الكتاب» إشعارًا أيضا بمزاعمهم الباطلة، وأكاذيبهم التي كانوا يحاولون إقناع الجُهال من المشركين والكفار بها، من أنهم في طعنهم في محمد - ﷺ -مستندون في ذلك إلى كتابهم؛ ليستميلوا هؤلاء الجهال إلى جانبهم، ويقنعوهم بضلالاتهم.

وإلى جانب ذلك كله ، فإن في التعبير عن اليهود والنصارى وكفار العرب بالاسم الموصول وصلته إيحاءً بذمِّهم وتحقيرهم؛ لما يصدر عنهم من أقوال تؤذي رسول الله ﷺ ومَن آمن به.

ووردت كلمة «أذى» في هذه الآية الكريمة – أيضا – نكرةً؛ كما جاءت نكرة – أيضا – في قوله تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ ﴾ [آل عمران: ١١١]؛ لكنها في قوله تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗى ﴾ كان الغرض من تنكيرها – كما سبق – هو التهوين والتقليل والتحقير؛ أما هنا فإن الغرض من تنكيرها التهويل والتعظيم؛ ولذا

(١) ينظر: الكشاف (٤٥٠/١)، التحرير والتنوير، مج(٢) (١٩١/٤، ١٩٢)، نظرات في كتاب الله (٢٧٤/١، ٢٧٥)، من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم (٢٤٢/٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وصف الأذى بالكثرة، فقال- تعالى-: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، أي: عليكم أيها المؤمنون أن تتوقعوا من هؤلاء اليهود والنصارى ومن شايعهم من مشركي العرب إيذاءً كثيرًا قد يكون خارجًا عن الحد الذي تحتمله النفوس غالبا، فعليكم أن توطنوا أنفسكم على تحمل هذا الأذى، وتستعدوا لملاقاته والتغلب عليه.

وهذا من جمال المفردة القرآنية، وأسرارها البلاغية التي لا تنضب ولا يجف لها نبع، فالكلمة هي هي، لكنها في هذا الموضع تعطيك معانيَ ودلالات بعيدةً كل البعد عن المعاني والدلالات التي منحتها إياك في الموضع الآخر، على نحو ما جاء – مثلا – في قوله- تعالى-: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقوله - تعالى-: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ [البقرة: ٩٦]، فإن كلمة «حياة» هي هي في الآيتين، ولكن تنكيرها في الآية الأولى لتعظيم الحياة وتفخيم شأنها،« وبيان أن الحياة التي يحققها القصاص حياة عظيمة رفيعة القدر، لا يحدها تعريف أو وصف؛ لسلامتها من القلق والاضطراب، واتسامها بسمات الأمن والحب والإخاء»(١).

وأما تنكيرها في الآية الثانية فهو لتهوين تلك الحياة، وتحقير شأنها، وبيان أن تلك الحياة التي يحرص عليها بنو إسرائيل هي مجرد حياة خالية من كل قيمة، ومن كل معنى؛ فهم متمسكون بالحياة، حريصون على أن يعيشوا مهما تكن قيمة الحياة التي يعيشونها، وأيا كان لونها، فالحياة في ذاتها هي مبلغ حرصهم حتى لو كانت هينة ذليلة، لا قيمة لها(٢).

ومما يلفت النظر : اتصال اسم الإشارة بحرف خطاب للمفرد وهو الكاف في (ذلك) مع أن المخاطب جميع المؤمنين ،فكان الظاهر أن يقال : (إن ذلكم) كما يلفته إيثار اسم الإشارة للبعيد ، مع أن الصبر والتقوى متاحان لمن أرادهما ، وليس ثمة ما يحول دون الاتصاف بهما فما السر في ذلك ؟

---

(١) دراسات في علم المعاني، (٦١) ،وينظر: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للجمل (١/١٢١-٢١٥) .

(٢) ينظر: السابق، الصفحة نفسها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للجواب على هذا أسوق ما قاله أهل العلم فقد قال أبو السعود : « ذلك إشارة أن الصبر والتقوى وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجتهما ، أو بعد مترلتهما ، وتوحيد حرف الخطاب إما باعتبار كل واحد من المخاطبين ، وإما لأن المراد من الخطاب مجرد التنبيه من غير ملاحظة خصوصية أحوال المخلصين من عزم الأمور من معزوماتها التي يتنافس فيها المتنافسون »(١).

وقد اشتملت الآية الكريمة على ثلاث جمل مؤكَّدة:

الأولى: قوله- تعالى-: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾.

والثانية: قوله- تعالى-: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ﴾.

والثالثة: قوله - تعالى-: ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾.

وجاء التوكيد في الجملتين الأوليين باللام ونون التوكيد الثقيلة أو الشديدة.

والغرضُ من التوكيد في هاتين الجملتين، الدلالةُ على أن الابتلاءَ في الأموال والأنفس، وسماعَ الأذى الكثير من اليهود والنصارى ومشركي العرب – من الأمور المحققة التي يريد الحق - سبحانه وتعالى - من المؤمنين المخاطبين بهذه الآية الكريمة أن يوطنوا أنفسهم لتلقيها وقبولها؛ فيكون التوكيد مفيدا المبالغةَ في الحث على ما أريد من المؤمنين من التهيؤ والاستعداد لهذا الإيذاء، وفي هذا يقول الألوسي: "«لَتُبْلَوُنَّ»، أي: لَتُعَامَلُنَّ معاملة المختبَر؛ ليظهر ما عندكم من الثبات على الحق والأعمال الحسنة، وفائدة التوكيد: إما تحقيق معنى الابتلاء؛ تهوينًا للخطب، وإما تحقيق وقوع المبتلى به، مبالغة في الحث على ما أريد منهم من التهيؤ والاستعداد "(٢).

وأما الجملة الثالثة: ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾، فقد جاءت مؤكَّدة بـ«إن»، واسمية الجملة؛ للدلالة على أهمية الالتزام بالصبر والتقوى، أي: لا بد لكم أيها المؤمنون أن تصبروا وتتقوا؛ لأن ذلك عزمة من عزمات الله تعالى.

ولا يخفى أن التوكيد لهذا الغرض من قبيل التتريل ، أعني تتريل غير المنكر لمترلة المنكر ؛ حيث نزل المؤمنون مع جهلهم بالخبر مترلة المنكر له ، ليتلقوه بالقبول من أول

---

(١) تفسير أبي السعود (١٢٣/٢ ، ١٢٤) .

(٢) روح المعاني (١٤٧/٤). وينظر: التحرير والتنوير، مج(٢) (١٨٩/٤)بتصرف.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأمر ، فلا يستغربوا حصوله ؛ فقد يظن أن يكون الدخول في الإيمان مانعاً من كل أذى بأن يصرف الله عن المؤمنين أعداءهم فلا ينالوا منهم أذى قل ذلك أو كثر .

واللافت للنظر استخدام أداة الشرط (إن) الدالة بأصل وضعها على الشك في حدوث الشرط ، مع أن الخطاب للمؤمنين ، وكان الظاهر أن يقال : (وإذا صبرتم واتقيتم) باستخدام إذا وإبراز المستقبل في صورة الماضي، فإن المؤمنين جديرون بالمبادرة إلى ما يجمل بهم !

لكن إيثار (إنّ) فيه إثارة لوجدان المؤمنين ، حتى يربأوا بأنفسهم أن يكون صبرهم وتقواهم مما يدخل في حيز الشك أو ندرة الحصول ، فيكون صبرهم أقوى ، وتقواهم أبلغ ، ولتتعلّق نفوسهم بأن يكون هذا وذاك من عزم الأمور .

وقدمت الآيةُ عند ذكر البلاء الأموالَ على الأنفس؛ حيث قال -تعالى-: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾؛ للترقي من الأدنى إلى الأشرف، أو للدلالة على أن الرزايا والإيذاء في الأموال أكثر من الرزايا والإيذاء في الأنفس[1].

ولا يغيب عن فطن أن الآية قد بدأت بخطاب مستأنف ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾؛ وذلك «لإيقاظ المؤمنين إلى ما يعترض أهلَ الحق وأنصار الرسل من البلوى، وتنبيهًا لهم على أنهم إن كانوا ممن توهنهم الهزيمة، فليسوا أحرياء بنصر الحق»[2].

وفي هذا الخطاب المستأنف مناسبةٌ للآية السابقة عليه، وهي قوله - تعالى-: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ؛ وذلك لأنه إذا كان هذا هو حال الدنيا وحال الإنسان فيها، فهي متاع لا بد أن يفارقه الإنسان إلى حياة أبدية، هو فيها إما سعيد مخلّد في الجنة يتنعم بكل ألوان النعيم، وإما تعيس مخلّد في النار يشقى بكل ألوان العذاب، فالعاقل هو الذي يعلم أن ما قد يصيبه من بلاء في المال أو النفس في هذه الحياة الدنيا، لا يساوي مثقال ذرة مما قد يصيبه من الشقاء والعذاب في الآخرة إن هو ضعف عن تحمل هذا البلاء، وزل إلى الكفر واتباع

---

(١) ينظر: روح المعاني (٤/١٤٧).

(٢) التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/١٨٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أعداء الإسلام ، وأن الصبر على هذا البلاء -الذي قد يصيبه في المال والنفس، والتمسك بتقوى الله تعالى - ثمنٌ جدُّ يسير لما أعده الله له في الآخرة من جزاء عظيم على صبره وتقواه.

وههنا أمر قد يخفى على القارئ لأول وهلة ، وهو أن هذه الجملة خبر أريد به الأمر ، وقد ألمح إليه المرزوقي في سياق بيانه لمفهوم (عزم الأمور) حيث قال : « إنه توطين النفس عند الفكر ، ولذا لم يطلق على الله تعالى ، والمراد أن يوطنوا أنفسهم على الصبر ؛ فإن العالم بنزول البلاء لا يعظم وقعه في قلبه بخلاف غير العالم ، فإنه يعظم عنده، ويشق عليه» [١].

وسوق الخبر مراداً به الأمور فيه من البلاغة تعظيم المخاطب أو تكريمه من أن يوجه إليه صريح الأمر ، فالله يكرم المؤمنين بمثل هذه الصورة المعبرة عن الرفعة والسمو، وإن كانوا عبيده .

وجملة ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ جواب قسم محذوف، أي: والله لتبلون[٢]؛ فيكون في الآية إيجاز بالحذف.

وكذلك من الإيجاز بالحذف في هذه الآية الكريمة، حذف جواب الشرط ، ودل عليه ما هو علته أو سببه ، وهو قوله- تعالى- : ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ . والأصل : وإن تصبروا وتتقوا فهو خير لكم ، أو ما هو بمعناه ، يقول الشيخ الجمل : « والجملة تعليل جواب الشرط واقع موقعه كأن قيل : وإن تصبروا وتتقوا فهو خير لكم، أو فقد أحسنتم » [٣].

في الآية الكريمة صورة من صور المجاز المرسل في قوله - تعالى-: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾؛ فهو مجاز مرسل علاقته الملازمة؛ لأن الابتلاء هو الاختبار[٤]، «ويراد به هنا لازمُه، وهو المصيبة؛ لأن في المصائب اختبارا لمقدار الثبات»[٥].

---

(١) الفتوحات الإلهية : (١/٥٢٦).

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٢/١٢٣)، روح المعاني (٤/١٤٧)، اللباب (٦/١٠٠)، من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم (٤/٢٤٥).

(٣) الفتوحات الإلهية : (١/٥٢٧).

(٤) ينظر: اللباب (٦/١٠٠)، التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/١٩٠).

(٥) التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/١٩٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله-تعالى- : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ "استعارة لأن الأمور لاعزم لها وإنما العزم للموطّن نفسه على فعلها والمراد فإن ذلك من قوة الأمور لأن العازم على فعل الأمر قوي عليه "[(١)].

ومما ورد فيه لفظ الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة قوله- تعالى-: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾

[آل عمران: ١٩٥]

وسبب نزول هذه الآية ما روته كتب السنة عن أسماء بنت يزيد الأنصارية[(٢)] أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ وهو بين أصحابه، فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك: إن الله بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فآمنا بك وبإلهك، وإنا - معشرَ النساء - مقصورات محصورات، قواعدُ في بيوتكم، وحاملات أولادكم، وأنتم - معاشرَ الرجال - فُضِّلتم علينا بالجمعة والجماعات، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، وإن أحدكم إذا خرج حاجًّا أو معتمرا أو مجاهدا، حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، أفنشارككم في الأجر والثواب ؟

فسأل رسول الله- ﷺ -أصحابه: «هل سمعتم مسألةَ امرأة قطُّ أحسن من مسألتها في أمر دينها؟»، قالوا: ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا!! فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي(٣١)

(٢) أسماء بنت يزيد الأنصارية، من بني عبد الأشهل، رسول النساء إلى النبي ﷺ، وشهدت اليرموك، روى عنها ابن أختها محمود بن عمرو الأنصاري، ومولاها مهاجر بن أبي مسلم.
ينظر: أسد الغابة (١٧/٧)، طبقات ابن سعد (٣١٩/٨)، تهذيب التهذيب (٣٩٩/١٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

«افهمي أيتها المرأة، وأَعْلِمي مَنْ خَلْفَك من النساء، أن حسن تَبَعُّل المرأة لزوجها، وطلبها مرضاته، واتباعها موافقته - يعدل ذلك كلَّه»[1].

كما روت عن أمِّ المؤمنين أم سلمة[2] – رضي الله عنها – أنها قالت لرسول الله -ﷺ -: يا رسول الله، إني أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء؛ فنزل قوله -تعالى-: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾[3] [آل عمران: ١٩٥]، لِيُطَمْئِن نساء المؤمنين على نصيبهن في الأجر والثواب كالرجال[4].

وواضح أن في هذه الآية الكريمة طمأنة للمؤمنين - رجالهم ونسائهم - على حسن الجزاء على أعمالهم الصالحة؛ تفضلا من الله تعالى عليهم، وتبشيرًا لهم بأن الله - عز وجل - يجيب دعاء من لجأ وتضرع إليه؛ على نحو ما استجاب لهؤلاء الذين تحدثت عنهم الآيات السابقة لهذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩١- ١٩٤].

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٨٧٤٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢/٣٣٨)، (٧/٤٤٠).

(٢) هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، القرشية المخزومية، أم سلمة وأم المؤمنين، قال الواقدي: توفيت سنة تسع وخمسين. قال الذهبي: هي آخر أمهات المؤمنين وفاة.
ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال للخزرجي (٣/٣٩٤)، تهذيب التهذيب لابن حجر (١٢/٤٩٢)، التقريب لابن حجر (٢/٦٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/١١٨) كتاب التفسير، باب: ومن سورة النساء (٣٠٢٣) ، وأبو يعلى (٦٩٥٨)، وابن جرير (٨٣٦٧، ٨٣٦٨، ٨٣٦٩)، والطبراني في الكبير (٢٣/٢٩٤) رقم (٦٥١)، والحاكم (٢/٣٠٠)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٤٦٦٩). وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي. وانظر: صحيح الترمذي للألباني (٢٤٢٠).

(٤) ينظر: أسباب النزول للواحدي ص (١٠٣)،لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (٧٦)، تفسير البيضاوي (١/٢٠٠)، تفسير القرطبي، ص (١٥٦٠)، الدر المنثور (٢/١١٢)، اللباب (٦/١٢٦)، الكشاف (١/٤٥٦)، من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم (٤/٢٥١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالله - عز وجل - يمتَنُّ على من هذه حالهم، وتلك صفتهم؛ فيتكرم عليهم بإجابة دعائهم، وإثابتهم على أعمالهم الصالحة؛ لأنه سبحانه لا يضيع عمل عامل من خلقه، ذكرا كان أم أنثى، فالرجال والنساء سواء أمام الله – تعالى - ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾؛ فالذكور والإناث يجمعهم أصل واحد، وكلٌّ منهما من الآخر، لا سبيل إلى التفريق بينهما في الأجر والثواب.

وفي ذلك منتهى الإنصاف، والتكريم للرجال، والنساء على حد سواء؛ فالله - تعالى - قد جعلهما حقيقة إنسانية واحدة، وأناط بهما أمانة التدبير في الخلق، وكلفهما بالتلقي عن رسول الله ﷺ، ومشاركته حمل الأمانة، وتأدية الرسالة، ووعدهما حسن الجزاء والثواب، دون نظر إلى جنس العامل منهم[١] .

هذا هو المحتوى كما بينه أهل العلم أما الخصائص البلاغية فأوردها وفق ما يفتح الله به عليّ في الآتي :

افتتحت الآية الكريمة بفعل مزيد بالألف، والسين، والتاء؛ لتأكيد معنى الفعل[٢]؛ فإن قوله - تعالى -: ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ بمعنى أجاب عند جمهور أئمة اللغة، وعلى هذا تكون السين والتاء للتأكيد[٣]، أي تأكيد كرم الله – تعالى - ومَنّه على هؤلاء المؤمنين الذين طلبوا غفران الذنوب وتكفير السيئات، وأن يتوفاهم مع الأبرار، وأن يحقق لهم وعده، ولا يخزيَهم يوم القيامة؛ فلم يخذلهم الله تعالى، بل أجاب دعاءهم، ووعدهم الثواب المحقق على أعمالهم.

وفاعل الاستجابة هو الله - عز وجل - ، غير أن النظم الحكيم عَبَّر بلفظ «الرب»، بدلا من لفظ الجلالة «الله» تعالى، فقال: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾، وفي هذا التعبير بـ«الرب» دون اسم الجلالة ؛ إشعار برحمة الله - عز وجل – ، ورعايته لعباده؛ لما في وصف الربوبية من الدلالة على العناية بالمربوب، ومحبة الخير له[٤].

---

(١) ينظر: نظرات في كتاب الله (١/٢٧٨).

(٢) ينظر في المعاني التي تأتي لها زيادة الألف والسين والتاء: في تصريف الأفعال، ص (٨١).

(٣) ينظر: اللباب (٦/١٢٣)، التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/٢٠٢).

(٤) ينظر: السابق، الصفحة نفسها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي إضافة «رَبّ» إلى الضمير «هم» تكريم وتشريف لهؤلاء المؤمنين الذين تضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء؛ فقبل الله دعاءهم واستجاب لهم.

ثم عبرت الآية الكريمة عن المهاجرين بالاسم الموصول وصلته «الذين هاجروا»؛ للإشعار بمدح هؤلاء المهاجرين، وتعظيم شأنهم، وهو من تمام الإيفاء بالمعنى المراد، الذي لم يكن ليتحقق لو عبر عن الموصول وصلته باللفظ الصريح، بأن يقال – مثلا -: المهاجرون لهم كذا[1].

وجيء بفعل الصلة «هاجَر» على وزن «فاعَل»؛ للدلالة على المفاعلة والمشاركة، وفي ذلك تقوية وتأكيد لمعنى الهَجْر، وفيه من شدة الإيحاء وقوة المعنى ما لا يوجد في الفعل «هَجَر»؛ لأن في المفاعلة دلالة على وقوع الهجر من الطرفين، فالمهاجر قد هجر قومه ووطنه، وهم – أيضا – قد هجروه، حيث أساءوا إليه، ولم يحرصوا على بقائه بينهم، وهذا هو أصل المهاجرة أن تكون لمنافرة وقطيعة ونحو ذلك[2].

وفي إضافة لفظ «الديار» إلى الضمير «هم» في قوله - تعالى-: ﴿ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾ إشعار بمدى ارتباط هؤلاء المهاجرين بتلك الديار، وشدة حبهم وتعلقهم بها؛ الأمر الذي يعكس صعوبة مفارقتهم لها، وأن الحامل لهم على تلك المفارقة شيء أعظم من الديار وأغلى من الأوطان، هو الإيمان بالله تعالى، والفرار بالدين من مواطن الفتنة والابتلاء التي قد تضر بدين المرء، أو تحمله على التقصير فيه.

وقد وعد الله - عز وجل - هؤلاء المهاجرين ثوابًا عظيمًا: ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾؛ فجاء بـ«الثواب» نكرة؛ تعظيمًا وتفخيمًا لهذا الثواب، وزاد في تعظيمه وتفخيمه بوصفه بأنه ﴿ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ فإن السلطان العظيم الشأن إذا أخبر أحد عبيده بأنه سيَكْسُوه خِلْعَة من عنده – مثلا – فإن في ذلك دلالة على كون تلك الخِلْعَة في غاية الشرف، وإذا كان هذا هو حال سلاطين وملوك الدنيا، فما بالنا بالثواب الذي يكون من عند ملك الملوك

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٢/١٣٤)، روح المعاني (٤/١٦٩).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (١/٥٥٧)، التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/٢٠٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الله عز وجل؟! وقد أكد سبحانه عظمة هذا الثواب، وغاية شرفه بقولـــه - تعالى-: ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾(١).

لما كانت الآية الكريمة مسوقة لتبشير المؤمنين بإجابة دعائهم، وطمأنتهم على عظيم ثوابهم على أعمالهم الصالحة – عملت على زيادة البشرى وتقوية الطمأنينة بالعديد مـن الجمل المؤكَّدة؛ فإن سعادة الإنسان واطمئنانه إلى الأخبار المؤكَّدة تفوق سعادته بالأخبار غير المؤكَّدة أضعافا مضاعفة.

فأكَّدت الآية حصول العاملين على جزاء أعمالهم وعدم إضـاعتها بـــ«أنّ» في قوله- تعالى-: ﴿ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ ﴾، وأكدت تكفـير السيئات ودخول الجنات بالقسم المدلول عليه باللام الواقعة في جوابه ، وبنون التوكيـد الثقيلة ، فقال- تعـــــالى-: ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾.

ومجيء الخبر مؤكداً هذا التأكيد المكثف مع خلو ذهن المخاطبين منه ؛ إذ لم يـسبق لهم علم به يشير إلى تعظيم هذه البشرى ، تكريماً لهؤلاء النفر من المؤمنين

وإذا كانت السعادة بتأكيد البشرى بإجابة الدعاء، وتكفير الـسيئات، ودخـول الجنات، يشترك فيها جميع العاملين من المؤمنين رجالهم ونسائهم، وكان يـراود بعـضَ النساء تساؤلٌ عن أجرهن، وهل هن والرجال سواء في ذلك أو لا - عملـت الآيـة الكريمة على شفاء نفوس النساء من تلك الهواجس؛ فأكدت المساواة التامة بين الرجـال والنساء في الحصول على ثواب الأعمال بالجملـــــــة الاعتراضـية ﴿ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ ﴾(٢)، وفي هذا يقول الزمخشري: «﴿ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ ﴾، أي: يجمع ذكـورَكُم وإناثَكم أصلٌ واحد، فكل واحد منكم من الآخر – أي: من أصله – أو كأنه منه؛ لفرط اتصالكم واتحادكم. وقيل: المراد: وُصْلَة الإسلام، وهذه جملة معترضة بُيِّنت بها شـركة النساء مع الرجال فيما وعد الله به عباده العاملين»(٣).

---

(١) ينظر: روح البيان (٢/١٥١، ١٥٢)، اللباب (٦/١٢٩)، حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي (١/٦٩٨).
(٢) ينظر: تفسير البيضاوي (١/٢٠٠)، الدر المنثور (٢/١١٢)، اللباب (٦/١٢٦).
(٣) الكشاف (١/٤٥٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فالاعتراض نوع من الإطناب ، والسر فيه المسارعة إلى بث المسرة في نفوس المؤمنين والمؤمنات ؛ ببيان سبب المساواة في الجزاء وإلى جانب ذلك نوع آخر من الإطناب هو التفصيل بعد الإجمال ، فقوله: (لا أضيع عمل عامل) إجمال ، وقوله: (فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا في سبيلي) تفصيل وهذا ما بينه الشيخ الجمل نقلاً عن السمين حيث قال : « وعبر الزمخشري عن هذا - يعني جملة (بعضكم من بعض) - بأنها جملة معترضة ... ويعني بالاعتراض أنها جيء بها بين قوله (عمل عامل) ، وبين ما فصل به عمل العاملين من قوله- تعالى-: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ... ﴾ إلخ ، ولذلك قال الزمخشري : فالذين هاجروا تفصيل لعمل العامل منهم في قوله – تعالى-: ﴿ لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم ﴾على سبيل التعظيم والتفخيم والمدح »[(١)]

ويقول الطاهر بن عاشور: «قوله: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ تفريع عن قوله: ﴿ لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم ﴾، وهو من ذكْر الخاص بعد العام[(٢)] ؛ للاهتمام بذلك الخاص، واشتمل على بيان ما تفضلوا فيه من العمل، وهو الهجرة التي فاز بها المهاجرون»[(٣)].

وفي التفصيل بعد الإجمال إجابة إلى ما تشوقت إليه النفس من معرفة الأمر مفصلا بعد ما عرفته مجملاً[(٤)].

---

(١) الفتوحات الإلهية (١/٥٣٢)، الكشاف (١/٤٥٦) ، تفسير أبي السعود ، (٢/١٣٤) ، روح المعاني (٤/١٦٩) .

(٢) ذكر الخاص بعد العام من ضروب الإطناب،والغرض البلاغي من هذا النوع من الإطناب هو التنبيه على فضل الخاص وزيادة التنويه بشأنه ،حتى كأنه ليس من جنس العام ،لما امتاز به عن سائر أفراده من الأوصاف، تتريلا للتغاير في الوصف مترلة التغاير في الذات ، ومن أمثلته قوله-تعالى- ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]،فقد خص الله (الصلاة الوسطى) أي صلاة العصر بالذكر مع أنها داخلة في عموم الصلوات تنبيها على فضلها الخاص حتى أنها لفضلها جنس آخر مغاير لما قبلها .فالغرض البلاغي من هذا الإطناب هو التنويه بشأن الخاص .

ومنه قوله- تعالى- في وصف ليلة القدر: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾[القدر:٤]، فقد خص الله– سبحانه وتعالى- الروح وهو (جبريل) بالذِّكْر مع أنه داخل في عموم الملائكة تكريما له وتعظيما لشأنه ،كأنه من جنس آخر،وفائدة الزيادة هنا التنويه بشأن الخاص

ينظر: معجم البلاغة العربية (٤٢٨)،الإتقان في علوم القرآن(٣/٢٤٠-٢٤١)،من بلاغة القرآن(١٤٣-١٤٤)،علم المعاني-البيان-البديع(١٨٣).

(٣) التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/٢٠٤).

(٤) ينظر: الإيضاح للخطيب القزويني (١٨٦) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاءت جملة الصلة في قوله- تعالى-: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ جملة فعلية، فعلها ماضٍ؛ للدلالة على تحقق وقوع تلك الهجرة منهم.

وفي قوله -تعالى-: ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، خروج على خلاف مقتضى الظاهر حيث جرى سياق الآية قبل ذلك على التعبير بالمضمر بدلا من التصريح بلفظ الجلالة، فقال تعالى: «وأوذوا في سبيلي... لأكفرن... لأدخلنهم...»، ثم عدل عن قوله: «ثوابا من عندي» إلى قوله - تعالى-: ﴿ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، فوضع المظهر «لفظ الجلالة» موضع المضمر، وفي ذلك تفخيم لشأن هذا الثواب، وتعظيم لقدره. وازداد إعظامه في قلب كل مؤمن بمجاورته للفظ الجلالة، الذي يَرِنّ صداه في أُذن المسلم وهو يقرأ تلك الآية الكريمة عقب ذكر الثواب؛ فيزداد هذا الثواب في قلبه تفخيمًا وجلالا؛ لنسبته إلى الله تعالى، وفي هذا يقول ابن كمال باشا: «﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ على الطاعات قادر عليه، بالَغَ في جزائهم بالتأكيد القسمي، وإيراد المصدر المؤكد، وتقييده بالعِنْدِيَّة بعد الإطلاق، والالتفات في ﴿ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، وإظهار اسمه في الجملة بعده، وجعل الجملة الظرفية خبرا - غايةً في البلاغة»(١).

وقدم لفظ الجلالة «الله» على الظرف في قوله- تعالى-: ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ ؛ لتأكيد عظمة هذا الثواب وتفخيمه؛ لأن عظمته وفخامته في كونه من عند الله، فيكون ذكر الله تعالى وارتباط الثواب به هو الأهم لدى المخاطب والمستمع؛ ولذلك قدم لفظ الجلالة، ولو تأخر فقيل: «وعند الله حسن الثواب» لضاع بَهاء الجملة ورونقها(٢).

وقد عُطِفت الآية الكريمة على الآيات التي قبلها بالفاء؛ لتدل على «سرعة الإجابة بحصول المطلوب، ودلت على أن مناجاة العبد ربَّه بقلبه ضربٌ من ضروب الدعاء، قابل للإجابة»(٣).

---

(١) تفسير ابن كمال باشا، (٥٩٧).

(٢) ينظر: البيان في روائع القرآن (٢/١٣٤- ١٣٦).

(٣) التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/٢٠٢)، فتح القدير للشوكاني (١/٦٢١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكانت إجابة دعائهم أنه - عز وجل - لا يضيع أجرهم وثوابهم: ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾ ، وهنا تستثير الآية الكريمة ذهن القارئ والمستمع؛ لأن ما مضى من دعاء المؤمنين قد اشتمل على أمرين:

أحدهما: طلب غفران الذنوب: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وثانيهما: طلب الأجر والثواب على الأعمال: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

وقد جاء قوله- تعالى-: ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ إجابة لهم على طلب الأجر والثواب، فأين جواب طلبهم غفران الذنوب وتكفير السيئات ؟

والجواب: «أنه لا يلزم من إسقاط العذاب حصول الثواب، لكن يلزم من حصول الثواب إسقاط العذاب؛ فصار قوله: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾ إجابة لدعائهم في المطلوبَيْن»[1].

وبعد أن بشرت الآية المؤمنين بإجابة دعائهم وحصول الثواب على أعمالهم، شرعت في تفصيل بعض تلك الأعمال، وسلكت في تفصيلها مسلكا بديعا؛ فبدأت أولا بالخاص وهو الهجرة: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ ، والهجرة أشق شيء على النفس، ثم أتبعت الهجرة بما هو أعم منها؛ وهو الخروج من الديار: ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾؛ فإن الخروج من الديار لا يستلزم الهجرة إلى المدينة، ثم أتبع الخروج من الديار بما هو أعم منه– أيضا – وهو الإيذاء: ﴿وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى﴾؛ لأن الإيذاء أعم من أن يكون إخراجا من الديار، ثم ارتقت بعد ذلك كله إلى رتبة عظمى في الأعمال هي رتبة الجهاد في سبيل الله: ﴿وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ .

ثم جاء الخبر عن هذا كله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ...﴾ إلخ ؛ وفيه إيجاز بالحذف؛ لأن قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾ جواب قسم محذوف، تقديره: والله لأكفرن[2].

---

(١) اللباب (٦/١٢٧).

(٢) ينظر: روح المعاني (٤/١٦٩)، اللباب (٦/١٢٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي عطف قوله: ﴿ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ ﴾ على قوله: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ تحقيق لمعنى المفاعلة الذي دل عليه الفعل «هاجر» بصيغته، أي: هاجروا مهاجرة ألجأهم إليها قومهم، سواء أكان الإخراج بصريح القول، أم بالإلجاء من جهة سوء المعاملة(١).

والذي يروع القارئ لهذه الآية الكريمة بدءاً من قوله- تعالى-: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ... ﴾ [آل عمران:١٩٠] إلى قوله- تعالى-: ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] أنها شكلت صورة كلية، مادتها الكلمات المستعملة في معانيها الحقيقية تجعل القارئ يرى بعينيه السماء والأرض والليل والنهار، وحركة الذاكرين لله تعالى قياما وقعودا وعلى جنوبهم، حين سمعوا صوت المنادي للإيمان ، ويشاهد منظر المهاجرين المخرجين من ديارهم، ويطلق عنان الخيال فيرى الجنة وقصورها، وأنهارها وما لها من روعة وجمال فيعيش معه لحظات، ثم يعود إلى عالم الواقع فيتذكر قوله - تعالى-: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ ﴾ [السجدة :١٧] (٢).

فقد رسمت الآية الكريمة مع الآيات الأربع السابقة لها -هذا كله- في تصوير فنّي رائع جعلنا ننظر إلى الكلمات وكأنها كائنات ملموسة، نراها ونشعر بحركتها، ونشاركها وتشاركنا الأحاسيس والمشاعر.

وهذا من نماذج الإطالة المقصودة في القرآن الكريم وهو موقف الموازنة بين صورتين متقابلتين :أحدهما في الدنيا ، والأخرى في يوم القيامة ، حيث قصد القرآن إلى التأثير بالقدوة في الوجدان والضمير، فمن ذا الذي لا تحدثه نفسه - في أثناء هذا المشهد الطويل الثابت الفائض بالخشوع والتأثير العميق ، وأثناء هذا الرد العظيم المفصّل لتضحيات المؤمنين ، وللجزاء الذي ينتظرهم يوم الدين - أن يسلك مع (أولي الألباب) هؤلاء،يدعو دعاءهم ، ويخشع خشوعهم ، ويستجيب له ربه معهم ، فيناله مثل ما يناله؟(٣) .

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/٢٠٤).

(٢) ينظر: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، (٢٥٣)بتصرف.

(٣) ينظر:التصوير الفني في القرآن لسيد قطب (١٤١-١٤٢)بتصرف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله - تعالى-: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾ بيان لمـدى عنايـة الله بالعاملين ؛ إذ جعلت العمل المثاب عليه بمثابة الشيء الثمين الذي لا يضيع على صاحبه ، وفي هذا يقول الألوسي: «قد عبر عن ترك الإثابة بالإضاعة، مع أنه ليس بإضاعة حقيقة؛ إذ الأعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم مِن تَخَلُّفه عنها إضاعتها؛ ولكن عـبر بـذلك تأكيدًا لأمر الإثابة، حتى كأنها واجبة عليه تعالى»[(١)].

وفي نفي الإضاعة عن العمل قرينة دالة على تصويره بصورة الشيء الثمين الـذي يُعنى بحفظه من الإضاعة على سبيل الاستعارة المكنية [(٢)].

وفي قوله- تعالى-: ﴿جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ كناية عن شـدة جمـال وروعة تلك الجنان، وهو ما يجعل القلوب تخفق إليها، ويشتد حرص النفوس على طلبها، والعمل من أجل الفوز بها، والتمتع بنعيمها الدائم الذي لا يفنى؛ بفضل الله تعالى عليهم.

اشتملت الآية الكريمة على بعض فنون البديع، منها: الطباق بين الذكر والأنثى في قوله - تعالى-: ﴿لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ ، وقد جيء بهما بيانا لقوله- تعالى-: ﴿عَـٰمِلٍ﴾ ، ويبين الطاهر بن عاشور وجه الحاجة إلى هـذا البيـان، فيقول: «وقوله: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيان لـ﴿عَـٰمِلٍ﴾ ، ووجه الحاجة إلى هذا البيان هنا: أن الأعمال التي أتوا بها أكبرها الإيمان، ثم الهجرة، ثم الجهاد، ولما كان الجهاد أكثر تكررًا، خيف أن يُتَوَهَّم أن النساء لا حَظَّ لهن في ذلك، فهن في الإيمان والهجرة يساوين الرجال، وهن لهن حظهن في ثواب الجهاد؛ لأنهن يقمن على المرضى، ويداوين الكَلْمَى، ويسقين الجيش، وذلك عمل عظيم به استبقاء نفوس المسلمين، فهو لا يَقْصُر عن القتال الذي به إتلاف نفوس غير المؤمنين»[(٣)].

وهناك - أيضا- من فنون البديع في الآية: المقابَلَة في ﴿وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾، ووجـه الجمع بينهما الإشارة إلى أن للقسمين ثوابًا[(٤)]: فالذي يقاتِل وتكتب له السلامة له أجره

(١) روح المعاني (٤/١٦٨).
(٢) شبه العمل بالشيء المادي الثمين ، بجامع الحرص على بقائه وصونه من الضياع في كل ، ثم تنوسي التشبيه وادعى أن العمل الصالح من أفراد الشيء الثمين ، ثم استعير الشيء الثمين للعمل الصالح ، ثم حذف المستعار وهو الشيء الثمين ، ورمز إليه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية .
(٣) التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/٢٠٣)، وينظر:الفتوحات الإلهية (١/٣٤٨)، حاشية شيخ زاده (١/٦٩٧) على تفسير البيضاوي.
(٤) ينظر: التحرير والتنوير، مج(٢) (٤/٢٠٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وثوابه العظيم على جهاده وثباته في القتال، والذي قاتل فقتل له ثوابه العظيم لاستشهاده مجاهدا في سبيل الله . وبين الجملتين - أيضا - جناس اشتقاقي - فأصلهما واحد - زاد المعنى جمالا وعمل على إيقاظ العقل وتنشيط الذهن .

وجاء لفظ الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة في قوله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤]

لقد أرسل الله تعالى محمدًا - ﷺ - بالهدى ودين الحق؛ ليُخرِج الناس من ظلام الجهل إلى نور الإيمان ؛ لكنَّ قلوبًا قد قست، وبصائرَ قد عميت، أبَتْ إلا التخبط في متاهات الضلال والكفر؛ فراحوا يكذبون المصطفى - ﷺ - ويضعون كل ما أمكنهم من العوائق في سبيل منعه من نشر دعوته بين الناس ، مع علمهم بصدقه في دعوته.

فقد روي أن أبا جهل - لعنه الله - كان يقول لرسول الله ﷺ: «ما نكذبك وإنك عندنا لمصدق، وإنما نكذب ما جئتنا به»(١)، فنزل قوله - تعالى - (٢): ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام: ٣٣، ٣٤] ، وهناك رواية أخرى يرجع إليها من أراد في مصادرها (٣).

وأياً ما كان السبب ففي هذه الآية الكريمة؛ تسلية لرسول الله - ﷺ - عما تعرض له من تكذيب قومه وعنادهم؛ فأخبره الله تعالى بأن هذا هو العهد بالكفار دائمًا مع جميع الرسل الذين سبقوه صلوات الله عليهم أجمعين؛ فقد كذبهم أقوامهم، ورفضوا اتباع ما

---

(١) ينظر: أسباب النزول للواحدي، (١٦١)، أنوار التنزيل (٣٠٧/١)، الكشاف (١٨/٢)، تفسير أبي السعود (١٩٨/٢)، تفسير ابن كمال باشا، (٧٩١).

(٢) أخرجه الترمذي (١٥٠/٥) أبواب التفسير، باب: ومن سورة الأنعام (٣٠٦٤)، والحاكم (٣١٥/٢)، وصححه من حديث علي بن أبي طالب.

وأخرجه الطبري (١٣١٩٨) عن ناجية مرسلاً، وذكره السيوطي في الدر المنثور (١٧/٣) .

(٣) ينظر : الكشاف (١٨/٣، ١٩) ، تفسير أبي السعود (١٩٧/٢) وغيرهما .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جاءوا به من الهدى والحق، ولكن هؤلاء الأنبياء قد صبروا على هذا التكذيب والإيذاء من أقوامهم حتى جاءهم النصر والظفر من عند الله تعالى، وهكذا أنت يا محمد، عليك بالصبر على تكذيب قومك وإيذائهم لك، حتى يأتيك نصر الله تعالى ، وقد أعلمناك ببعض أنبائهم ، فاصبر كما صبروا وستكون العاقبة النصر المؤزر [١].

هذا ما يتراءى من المضمون لمن أعمل النظر ، ووقف على ما ذكره أهل العلم ، وقد آن لي عرض ما استبان لي من الخصائص البلاغية وها هي ذي :

وأول ما يتراءى من خصائص تنكير لفظ (رسل) وفي سر هذا التنكير قال أبو السعود: «وتنوين (رسلٌ) للتفخيم والتكثير»[٢]، ومعنى قوله هذا أن الرسل الذين كذِّبُوا كثيرون ولهم عظيم المترلة عند الله وتكذيب قومهم لا ينال من تلك المترلة.

وجاء قوله- تعالى-: ﴿ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ وصفًا كاشفا لـ ﴿ رُسُلٌ ﴾؛ «جيء به لتقرير معنى التأسي بأن ذلك سنة الرسل»[٣].

و«حتى» في قوله- تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾ ؛ جاء غاية للصبر، أي: كان غاية صبرهم نصر الله إياهم، «وفيه إيذان بأن نصره تعالى إياهم أمر مقرر لا مَرَدَّ له، وأنه متوجه إليهم لا بد من إتيانه البتة»[٤].

يقول الطاهر بن عاشور: «﴿ حَتَّىٰٓ ﴾ ابتدائية، أفادت غاية ما قبلها، وهو التكذيب والأذى والصبر عليهما؛ فإن النصر كان بإهلاك المكذبين المؤذين[٥]؛ فكان غاية التكذيب والأذى، وكان غاية للصبر الخاص، وهو الصبر على التكذيب والأذى، وبقي صبر الرسل على أشياء مما أمر بالصبر عليه»[٦].

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز (٢/٢٨٧)، البحر المحيط (٤/١١٨)، الدر المصون (٣/٤٩)، الكشاف (٢/١٩)، التحرير والتنوير (٧/٢٠٠، ٢٠١)، اللباب (٨/١١٤- ١١٦)، تفسير أبي السعود (٢/١٩٨، ١٩٩)، نظرات في كتاب الله (١/٤٢١، ٤٢٢).

(٢) تفسير أبي السعود (٢/١٩٩).

(٣) التحرير والتنوير (٧/٢٠١).

(٤) تفسير أبي السعود (٢/١٩٨).

(٥) يجدر بنا في هذا المقام أن ندعو الله - عز وجل - أن يحقق سنته في إهلاك المكذبين والمؤذين لرسله صلوات الله عليهم؛ فيهلك هؤلاء الضالين الذين تجرءوا في هذه الأيام على النيل من سيد ولد آدم محمد- ﷺ - بما نشروه من الصور الكاريكاتيرية وغيرها في النرويج، والدنمارك، وفرنسا، ومن شايعهم من دول الغرب والعلمانية؛ فنرجو الله أن يبيد هؤلاء الضالين، وأن يعز المسلمين، وأن يوفقهم إلى إعلاء راية الحق، والانتصار لنبيه- ﷺ - وغيره من الأنبياء، صلوات الله عليهم أجمعين .

(٦) التحرير والتنوير (٧/٢٠٢)، وينظر: اللباب (٨/١١٥)، البحر المحيط (٤/١١٨، ١١٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويلي ذلك ما افتتحت به الآية الشريفة من الجملة مؤكَّدة بـ «قد» ولام القسم وهي قوله- تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ ؛ وذلك لتأكيد الخبر؛ تنزيلًا للرسول- ﷺ -منزلة من ذهل طويلًا عن تكذيب الكفار لمن سبقه من الرسل؛ ولهذا حزن من تكذيب قومه له؛ كما هو حال من بعد علمه بالأمر(١)، فناسب ذلك كله أن يساق إليه خبر تكذيب من تقدموه من رسل الله مؤكدًا؛ ليزول بتأكيده كل ذهول أو استبعاد.

وجاء الفعل «كُذِّبَتْ» مبنيًّا للمفعول دون الفاعل، وكذلك الفعلان «كُذِّبُوا»، و«أُوذُوا» في قول -تعالى-: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ؛ تعظيمًا وتفخيمًا للرسل صلوات الله عليهم أجمعين، وبيانًا لرفعة قدرهم وعلو شأنهم(٢)، وأن مثل هذا الفعل المتمثل في الاتهام بالكذب، والإيذاء لم يكن لينبغي أن يصدر من غيرهم في حقهم مع ما لهم من عظيم الفضل على أقوامهم، والمنزلة العليا عند الله تعالى.

فلم يُسْنَد شيء من هذه الأفعال المذكورة إلى الفاعل؛ تحقيراً لهؤلاء المكذبين المؤذين؛ فالرسل إنما جاءوا لهداية الخلق، والأخذ بأيديهم إلى سبيل الهدى والنجاة، فإذا رفض بعض الخلق ذلك، فقد أعربوا عن فساد عقولهم؛ ولا يستحقون ذكرًا أو تصريحًا؛ ومن ثم يوحي إسناد الفعل إلى المفعول «رسل» دون الفاعل المتمثل في هؤلاء المكذبين والمؤذين بحقارة هؤلاء ودناءتهم.

في الآية الكريمة خروج على خلاف مقتضى الظاهر يتبين في التفات من الغائب إلى المتكلم في قوله- تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ؛ وذلك لأن قبله ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]، فلو جرى السياق على حد قوله: ﴿ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾؛ لقيل: «حتى أتاهم نصره»(٣)، لكنه - عز وجل - عدل عن الغيبة إلى التكلم؛ استحضارًا لعظمة المتكلم، وهو الله تعالى؛ ليوحي إلى النفوس بمدى عظمة هذا النصر وقيمته؛ فهو نصر قاطع حاسم، يشمل الدنيا والآخرة، يعطي المنتصر السعادة في الدنيا،

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٧/٢٠١).
(٢) ينظر: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، (١١١).
(٣) ينظر: اللباب (٨/١١٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالنيل ممن آذوه والانتقام منهم، بعد أن نفدت حيله لإصلاحهم؛ فتشفى بذلك نفسه في الدنيا، إضافة إلى ما ينتظره من الثواب الجزيل في الآخرة .

وفي ذلك إشعار بمراعاة الأحوال النفسية للبشر، وأن الإنسان وإن كان على يقين أن الله لن يضيع أجره على تحمل الأذى في سبيله، وأنه سيجد ذلك موفورًا له في الآخرة أضعافًا مضاعفة فإنه في الوقت نفسه يحتاج إلى أن يسعد في دنياه أيضًا باللحظة التي ينتصر فيها على عدوه.

والتعبير بمجيء النصر تَفُوق بلاغته التعبير بحصول العذاب أو الهلاك أو الهزيمة للأعداء؛ وذلك لأن التعبير بمجيء النصر مشعر بأن ما يرجوه الرسل هو تحقيق الخير للبشرية؛ فهم لا يرجون دحر أعدائهم، ولا طلب إبادهم وهلاكهم، ولكن يرجون صلاحهم؛ ولذلك قد يكون نصرهم بغير هزيمة أعدائهم، بل قد يكون النصر للفريقين معًا؛ حين تزول الغشاوة عن أعين الأعداء، وتصفو قلوبهم، ويذعنون بالحق، ويتحولون من أعداء للرسل إلى أتباع لهم، وحينئذ يكون هذا نصرًا عظيما لهؤلاء الرسل والأنبياء، تقر به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم؛ وهو في الوقت ذاته نصر لمن اتبعوا الرسل على شيطانهم ونفوسهم؛ إذ نجوا بذلك من عقاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، واستحقوا الدخول في ثوابه - عز وجل - بفضله ورحمته.

وجاءت جملة: ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ معترضة، بين كلامين متصلين معنى : الأول قوله : ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ ، والثاني قوله : ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ ، وسر هذا الاعتراض المبادرة إلى تأكيد النصر في قوله : ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾ ليدرك النبي - ﷺ - أن ما وعد به من النصر آت لا محالة. وسبق قوله : ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ مؤكداً بلام القسم وقد لتحقيق ما منح هؤلاء الرسل من النصر، وتأكيد ما في ضمن ذلك من الوعد لمحمد - ﷺ - بالنصر والظفر على قومه؛ كما انتصر من قبله من الرسل وظفروا.

كما قد يكون التأكيد هنا - أيضا - «لتقرير جميع ما ذكر من تكذيب الأمم، وما ترتب عليه من الأمور»(١).

---

(١) تفسير أبي السعود (٢/١٩٨، ١٩٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله- تعالى-: ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ وضع المُظْهَر ﴿ ٱللَّهِ ﴾ موضع المُضْمَر؛ لأن قبله ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾، ولو جاء السياق على ذلك، لقيل: «ولا مبدل لكلماتنا»، لكنه عبر بلفظ الجلالة - الله عز وجل - بإضافة الكلمات إليه سبحانه، بدلًا من ضميره؛ للإشعار بعلة الحكم الذي سيقت له الآية، وهو عدم تبديل كلمات الله تعالى؛ لأن في التصريح بلفظ الجلالة تصريحًا بألوهيته سبحانه، ومن موجبات ألوهيته «ألا يغالبه أحد في فعل من الأفعال، ولا يقع منه تعالى خُلْف في قول من الأقوال»[1].

حملت الآية الكريمة ضروباً من التسلية لرسول الله- ﷺ -منها : إخباره بعلم الله بما يحزنه من تكذيب قومه ، وإعلامه أن هذا التكذيب ليس تكذيباً له هو بل هو تكذيب بآيات الله ، حيث قال- تعالى-: ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] ، ثم الإخبار بأنه ليس وحيدا في هذا الشأن فقد سبق لرسل كثيرين أن كذّبهم أقوامهم حيث قال-تعالى-: ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ ...﴾الآية ، وفي هذا كله تسرية عن نفسه وإذهاب لحزنه، ووجه التسلية وإزالة الحزن بذلك، أن عموم البلية، ربما يهوّن أمرها بعض تهوين، كما أن فيه إرشادًا له- ﷺ -بالتأسي والاقتداء بالرسل السابقين في الصبر على ما نالهم من قومهم من صنوف الإيذاء والإساءة. ويزيد من عوامل التسلية والتصبير الوعد المتضمَّن من خلال قوله – تعالى-: ﴿ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾، حيث وُعِدَ ﷺ بهذه الآية عدة ضمنية بمثل ما منح هؤلاء الرسل من النصر[2].

وفي قوله- تعالى- : ﴿ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾ إشارة إلى رجاحة عقول العرب على عقول الأمم السابقة إذا نُظر إلى قوله- تعالى - في الآية السابقة : ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾ .

---

(١) تفسير أبي السعود (٢/١٩٩).

(٢) ينظر: اللباب (٨/١١٤، ١١٥)، الكشاف (٢/١٩)، تفسير أبي السعود (٢/١٩٨)، التحرير والتنوير (٧/٢٠٠)، نظرات في كتاب الله (١/٤٢١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فتكذيب الأمم السابقة مرده إلى عقول لم تستطع التمييز بين الحق والباطل ؛ وما نطقت به ألسنتهم هو رجع اعتقاد راسخ بأن ما جاء به الرسل لا صلة له بالحق من قريب أو بعيد ، أمّا تكذيب العرب فلم يكن كذلك ؛ فقد عرفوا الحق، وعلموا أن ما جاء به محمد - ﷺ -لا يقوله بشر، ولكنهم كذّبوا عناداً واستكباراً. وحرصاً على بقاء الزعامة لهم، وترفعاً عن أن يكونوا في درجة واحدة مع ضعفاء المؤمنين أو فقرائهم كما يصرح بذلك قوله- تعالى-: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ [الكهف : ٢٨] (١).

وفي العطف بالفاء لقوله- تعالى-: ﴿ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ ﴾ على ما قبله ، إيحاء بأن الصبر لا بد أن يقارِن الإيذاء لا يتراخى عنه؛ فالصبر - كما جاء في الحـديث(٢) - عند الصدمة الأولى، فإذا نال الإنسانَ أمرٌ يكرهه، فلا بد من التزامه الصبر منذ الوهلة الأولى، أما أن يجزع ويفزع فليس هذا من شأن المؤمن الصادق، ناهيك عن رسـل الله تعالى، أكمل البشر وأقواهم على تحمل الشدائد.

وقوله- تعالى-: ﴿ وَأُوذُواْ ﴾ عطف على ﴿ كُذِّبُواْ ﴾ في قوله - تعالى-: ﴿ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ ﴾ ، وذلك لغرض التشريك في الموقع الإعرابي ، فجملـة ﴿ كُذِّبُواْ ﴾ في موقع الجر ؛ إذ هي مع الحرف المصدري (ما) في موقع الجر بـ(على) وقصد تشريك الثانية وهي ﴿ وَأُوذُواْ ﴾ في هذا الموقع ، وهذا العطف بمثابة عطف المفرد على المفرد (٣).

وقد بيّن ذلك أبو السعود حيث قال « فانْسَبَكَ منهما مصدران من المبني للمفعول، أي: فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم، فتأسَّ بهم، واصطبر على ما نالك مـن قومـك، والمراد بإيذائهم: إما عين تكذيبهم، وإما ما يقارنه من فنون الإيذاء لم يصرح بـه؛ ثقـة باستلزام التكذيب إياه غالبا»(٤)، وأيًّا ما كان، ففيه تأكيد لتسليته- ﷺ - وتصبيره على ما يناله من الأذى والتكذيب.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٠١/٧) ، وتفسير روح المعاني للألوسي ، مج(٣) (١٢٩/٤) .
(٢) أخرجه البخاري (١٧٧/٣)، كتاب الجنائز، باب: زيارة القبور (١٢٨٣)، (١٢٥٢-١٣٠٢، ٧١٥٤)، ومسلم (٦٣٧/٢، ٦٣٨)، كتاب الجنائز، باب: في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٦٢٦/١٥).
(٣) ينظر : الإيضاح (باب الفصل والوصل) (١٤٥) وما بعدها .
(٤) تفسير أبي السعود (١٩٨/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

غير أن إيثار التعبير بالمصدر المؤول على المصدر الصريح لما في الأول من الدلالة على الحدث وزمن وقوعه (فالتكذيب) ، و (الإيذاء) وقعا في الماضي ، بخلاف المصدر الصريح ولو قيل فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم لم تكن لهما تلك الدلالة ، وفي الإشارة على الزمن إيماء إلى التشابه بين الحاضر والماضي حتى كأنه امتداد له ، كما يدل على ذلك هذا الاستفهام في قوله- تعالى- : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات : ٥٢، ٥٣].

وفي هذه الجملة إطناب يتمثل في عطف «أُوذُوا» على ﴿ كُذِّبُواْ ﴾ من عطف الأعم على الأخص؛ لأن الأذى يشتمل على كل ما يسيء للإنسان أيًّا كان نوع هذه الإساءة، سواء أكانت تكذيبا أم غيره[1]؛ وفي هذا توطين لنفس الرسول- ﷺ - على الصبر على جميع أنواع الأذى؛ بإعلامه أن الأذى الذي لحق الرسل من قبله، والذي سيلحقه مثله، لن يكون مقصورًا على التكذيب فقط، بل سيتعداه إلى غيره من أنواع الأذى المختلفة؛ فلتتوقع ذلك، ولتوطِّن نفسك على الصبر عليه، والتعامل معه على الوجه الذي ينبغي.

وفي الآية الكريمة صورتان تندرجان تحت ما أطلق عليه البلاغيون الاستعارة المكنية ، فتتجلى الصورة الأولى في قوله- تعالى-: ﴿ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾ ؛ لأن النصر لا يأتي حقيقة؛ ولكن وصف بالإتيان مجازًا؛ للدلالة على وقوع النصر بعد انتظاره؛ ومن ثم شبه وقوعه بالإتيان من مكان بعيد، كما يجيء المنادَى المنتظَر[2]، وفي هذا إيحاء بالتشوف والشوق إلى النصر وترقب وقوعه.

وأما الصورة الثانية، فقوله- تعالى-: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾؛ لأن النبأ لا يجيء بنفسه حقيقة، ولكن وصف بالمجيء مجازًا؛ للدلالة على بلوغ هذه الأنباء، وإعلام النبي- ﷺ - بها[3]، وفي هذا إيحاء بمدى صدق هذه الأنباء ؛ فهي حق ويقين؛ لأن في نسبة المجيء إليها دليلًا على مصداقيتها، وعدم الاحتياج معها إلى النظر في حال من جاء بها وأمْرِه؛ للتأكد والتثبت من صحتها، على نحو ما جاء في قوله - تعالى-:

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٧/٢٠١).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٧/٢٠٢).
(٣) ينظر: السابق (٧/٢٠٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦].

كما أن في نسبة المجيء إلى النبأ نفسه هنا تمييزًا للأنباء التي ترد عن طريق الوحي، وغيرها من الأنباء التي تأتي عن طريق البشر؛ فالنبأ الذي يرد به الوحي من عند الله نبأ صادق لا محالة، لا يشك فيه إلا كافر ملحد لا يؤمن برب العزة سبحانه، وأما الأنباء التي ترد عن طريق آخر غير الوحي، فلا بد من نسبتها إلى من جاء بها؛ لأننا لا ينبغي أن نثق فيها إلا بعد وثوقنا فيمن جاء بها، وكونه ثقة ثبتًا.

وفي قوله- تعالى-: ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ «كناية عن نفي التبديل، أي: لا تبديل ؛ لأن التبديل لا يكون إلا من مبدِّل، ومعناه: أن غير الله – عز وجل – عاجز عن أن يبدِّل مراد الله، وأن الله أراد ألَّا يبدّل كلماته »[1].

والسر في إيثارها على نفي التبديل تصريحاً ؛ أنها تحمل المعنى مصحوباً بالدليل عليه ، فإن نفي المبدّل دليل على نفي التبديل ، وفي ذلك إيماء إلى هيمنة الله ، وطلاقة سلطانه فلا يملك أحد تغيير ما أراده .

وجاء الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة في قوله- تعالى-: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وهذا القول الكريم يحكي طرفًا من قصة - موسى عليه السلام - مع بني إسرائيل؛ ليكون ذلك عظة وعبرة لهذه الأمة؛ فتستفيد من أخطاء الأمم السابقة؛ فلا تقع فيها، وتَعتبر بما في قصصهم من عبر وعظات.

والمشهد الذي تناولته الآية الكريمة من قصة موسى - عليه السلام - مع قومه، مشهدٌ يخيم عليه القلق والتوتر والخوف، والرغبة في الوقوف على حقيقة أمرهم ونهاية

---

(١) السابق (٧/٢٠٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

صراعهم مع فرعون – لعنه الله – حين طال إيذاؤه لبني إسرائيل، فهو منذ جاءته النبوءة بأنه سيولد فيهم من ستكون نهاية ملكه على يديه، أخذ يُقَتِّل أبناءهم، ويؤذيهم، ثم هو بعد بعثة موسى - عليه السلام - يستمر في إيذاء قومه بشتى أنواع التعذيب والأذى؛ مما دفع قوم موسى إلى الشكوى مما حل بهم من الإيذاء على مدى سنين طويلة ؛ فهم قد أوذوا قبل مجيء موسى - عليه السلام - بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم ، وتسخيرهم في الأعمال الشاقة، وغير ذلك من أنواع الإيذاء ، ثم هاهم أولاء يُؤْذَوْن بعد بعثته - عليه السلام - أيضًا.

فقالوا لموسى - عليه السلام - : ﴿ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ ، فأجابهم موسى - عليه السلام-: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ، و في إجابته لهم بذلك تسلية لهم ؛ لما رأى من شدة جزعهم ، فصرح لهم بأنه عسى أن يُهلك الله هذا اللعين فرعون، الذي فعل بكم ما فعل، ويتوعدُكم بإعادته، ويجعلَكم الله خلفاء في أرض مصر(١).

وقد صدق وعد موسى حين أهلك الله فرعون، واستخلف بني إسرائيل في مصر في زمن داود وسليمان – عليهما الصلاة والسلام – وفتحوا بيت المقدس مع يوشع بن نون(٢).

وفي سوق هذه اللقطة من القصة وغيرها تبشير بالنصر كما حدث لموسى وغيره من الأنبياء .

وتحديد الاستخلاف بزمن داود لم يره أبو السعود صحيحاً حيث قال : " روي أن مصر إنّما فتحت في زمن داود عليه السلام ، ولا يساعده قوله - تعالى - :﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾ [الأعراف : ١٣٧]. فإن المتبادر استخلاف أنفس المستضعفين لا استخلاف أولادهم " (٣) .

---

(١) ينظر: روح المعاني (٩/٣٠)، البحر المحيط (٤/٣٦٨)، تفسير القرطبي (٧/١٦٨)، تفسير الرازي (١٤/٢١٣)، الكشاف (٢/٤٣، ١٤٤)، التحرير والتنوير (٩/٦١، ٦٢)، اللباب (٩/٢٧٢، ٢٧٣)، تفسير أبي السعود (٢/٣٩١، ٣٩٢)، نظرات في كتاب الله (١/٤٩٨).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٧/١٦٨)، تفسير أبي السعود (٢/٣٩٢)، اللباب (٩/٢٧٣).

(٣) تفسير أبي السعود (٢/٣٩٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا هو المحتوى كما بينه أهل العلم ، أما بلاغة النص فأحاول الكشف عنها حسبما يوفقني الله إليه :

عندما اشتكى قوم موسى له ما هم فيه من الأذى، جاءت إجابته لهم: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ ... ﴾ فأسند إهلاك عدوهم إلى ربهم معبرًا بلفظ «الرب»، دون لفظ الجلالة «الله» عز وجل؛ تذكيرًا لهم برحمة الله بهم؛ فهو ربهم، والرب يعمل على ما فيه صالح مربوبه ومنفعته؛ فكذلك الله - عز وجل - ربكم سوف يعمل لما فيه صالحكم، فيهلك من سامكم العذاب، ويورثكم ملكه وأرضه.

وفي إضافة «الرب» و«العدو» إليهم، وإيقاع الاستخلاف لهم، وإسناد الفعل «تعملون» إلى واو الجماعة، كل ذلك بصيغة الخطاب – ما يوحي باختلاف موقف موسى - عليه السلام - عن موقف قومه؛ فلم يجزع - عليه السلام - كما جزعوا، ولم يستبطئ النصر كما استبطئوا، ولا ظهر منه شيء من ألوان الضيق أو التبرم كما ظهر منهم؛ لذلك وجه الكلام إليهم بصيغة الخطاب؛ ليشعرهم بعدم موافقته إياهم على ما هم فيه من القلق والخوف والجزع والفزع، وأن الأَوْلى بهم أن يصبروا حتى يتحقق لهم وعد الله بالخلاص من أذى فرعون وأتباعه والنصر عليهم والاستخلاف في مصر، والذي ألمح إليه لهم من قبل فيما حكاه الله عنه في قوله- تعالى-: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فموسى – عليه السلام – لم يشأ أن يُدْخِل نفسه في الحديث إلى قومه بأن يقول: «عسى ربنا أن يهلك عدونا ويستخلفنا في الأرض فينظر كيف نعمل»؛ لأنه – وإن كان يشترك معهم في ذلك كله وهو مربوب لله تعالى مثلهم، ويرجو الاستخلاف في الأرض كما يرجونه، والله تعالى مطلع على عمله كما يطلع على أعمالهم - إنه مع ذلك آثر أن يعلن لقومه انفصاله عنهم وعدم الدخول في زمرتهم؛ ليقلعوا عما هم فيه من الجزع والفزع، ويلتجئوا إلى ما هو فيه من الصبر واليقين بوعد الله تعالى بالاستخلاف؛ لأن الأرض أرض الله تعالى سيورثها من يشاء من عباده، والخاتمة المحمودة لا بد أن تكون للمتقين.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهناك الترادف [١] بين «تأتينا» و«جئتنا»؛ لأنهما بمعنى واحد عند كثير من أهل العلم ، ولم يعتبروا بما ذكره بعض أهل اللغة[٢] والتفسير[٣] من التفريق بينهما بأن الإتيان يستعمل في المعاني والأزمان، والمجيء في الجواهر والأعيان، أو بأن الإتيان هو المجيء بسهولة؛ فيكون أخص من المجيء[٤]، وفيها خلاف بين أهل العلم.

وإذا ثبت هذا: فإنه إنما يكون قد ذكر المجيء بعد الإتيان لا لاختلاف المعنى، ولكن للتفنن في العبارة، وكراهية إعادة اللفظ ؛ لأن الطباع مجبولة على معاداة المُعادات؛ ولذلك جيء بـ«أن» المصدرية أولًا، وبـ«ما» أختها ثانيا للغرض نفسه، وهو التفنن والبعد عن التكرار اللفظي[٥]، ونظير الترادف هنا ما جاء في قوله - تعالى -: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣].

---

(١) الترادف في اللغة: تتابع شيء خلفَ شيء، والرِّدْف: ما تبع الشيء، وكلُّ شيء يتبع شيئًا فهو رِدْفُه، والجمع: الردافى، ويقال: جاء القوم رِدافى، أي: بعضهم يتبع بعضًا، وترادف الشيء: تبع بعضه بعضًا، والترادف: التتابع؛ قال تعالى: ﴿ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾، أي: متتابعين.

والمترادف: كل قافية اجتمع في آخرها ساكنان، وردف الرجل وأردفه: ركب خلفه.

قال الجوهري: الرِّدف: المرتدف، وهو الذي يركَب خلف الراكب، والرِّدفان: الليل والنهار، وردِفَه - بالكسر – أي: تَبِعَه؛ كأن نزل بهم أمر مردف بهم آخر أعظم منه، قال تعالى: ﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ .

قال الراغب: الرِّدف: التابع، وردف المرأة: عجيزتُها، والرادف: المتأخر، والمردف: المتقدم، والمعنى السابق أكده صاحب «القاموس المحيط»، وقال: إن مادة الترادف تدور حول التتابع، ثم عرف المترادف من القوافي بأنه: ما اجتمع فيه ساكنان، وأن تكون أسماء لشيء واحد.

الترادف في الاصطلاح: هو دلالة عدة كلمات مختلفة ومنفردة على المسمى الواحد أو المعنى الواحد دلالةً واحدة، نحو: الشمول والعقار والخندريس والراحة والمدامة والصهباء، فكل هذه الأسماء تدل على الخمر وحدها.

يقول شيخ الإسلام عن وقوع الترادف: ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض الناس اختلافًا: أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة؛ فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن: فإما نادر وإما معدوم، وقلَّ أن يُعَبّر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن.

وأخذ ابن تيمية يضرب أمثلة يوضح فيها قوله، ففي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ قال: فإذا قال القائل: إن المور هو الحركة كان تقريبًا؛ إذ المور حركة خفية سريعة.

ينظر: لسان العرب (١٥٢٥/٣، ١٥٢٦)، الصحاح (٦٧/٤)، المفردات للراغب (١٩٣)، القاموس المحيط (١٤٣/٣)، التعريفات للجرجاني (٢١٠)، المزهر للسيوطي (٤٠٢/١) ، فتاوى ابن تيمية (٣٤١/١٣، ٣٤٢).

(٢) ينظر: لسان العرب لابن منظور، تاج العروس للزبيدي، مادتا(أتى)و(جاء) ،الفروق اللغوية للعسكري (٢٥٥) .

(٣) ينظر: روح المعاني(٣٠/٩)، التحرير والتنوير(٦١/٩).

(٤) ينظر: روح المعاني (٣٠/٩).

(٥) ينظر: روح المعاني (٣٠/٩)، التحرير والتنوير (٦١/٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ألمح أبو السعود إلى الفرق بينهما عندما قال : (من قبل أن تأتينا) بالرسالة ، (ومن بعد ما جئتنا) رسولا ، وفي ذلك إيماء إلى الفرق [١].

وأنا أوافق أهل اللغة في التفريق بينهما، وعدم وجود ترادف ، بل تقارب في المعنى مع وجود فروق دقيقة بينهما ، وكذلك الحال في القرآن عموما ؛ فكل لفظة في القرآن العظيم لها معنى خاص بها في موضعها يختلف عما سواها مما شابهها لفظا أو معنى ؛ فلا نقول بينهما ترادف وإنما هو تقارب في المعنى ، فالترادف في ألفاظ القرآن نادر أو معدوم ، وهذا من أسباب إعجاز القرآن الكريم .

عبر بنو إسرائيل عما لحقهم من الأذى من فرعون وجنوده بالفعل المبني للمفعول «أُوذِينا»، وفي ذلك إشعار بمدى خوفهم من فرعون وأتباعه - لعنهم الله - مما جعلهم يخافون التصريح بذكرهم.

وفيه إلى جانب ذلك إيحاء بشدة كراهيتهم لهؤلاء الذين آذوهم؛ بحيث كرهوا التلفظ بأسمائهم كراهيتهم لرؤية أعيانهم.

وفيه من جهة ثالثة إيماء إلى أن الذي يشغلهم ويفزعهم حقيقةً هو ذلك الأذى الذي يقع عليهم، والذي يطلبون الخلاص منه، وليس يشغلهم كونه واقعًا من فرعون أو غيره؛ فهم يرغبون في الراحة والخلاص من كل أذى بغض النظر عن فاعله.

ومن جهة رابعة فإنهم يتحدثون إلى موسى - عليه السلام- وهو منهم ومعهم، يعلم من يؤذيهم ومن يعذبهم؛ فلا حاجة بهم إلى تعريفه بالمؤذي.

وفي قوله - تعالى-: ﴿ مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا ﴾ جعل الفعل المعبِّر عن بعثة موسى عليه السلام - بالرسالة «حين علق به «قبل» - بصيغة المضارع المقترن بـ«أن» الدالة على الاستقبال والمصدرية؛ مناسبة للفظ «قبل»؛ لأن ما يضاف إلى «قبل» مستقبل بالنسبة لمدلولها، وجعل حين علق به «بعد» بصيغة الماضي المقترن بحرف «ما» المصدرية؛ لأن «ما» المصدرية لا تفيد الاستقبال؛ ليناسب لفظ «بعد»؛ لأن مضاف كلمة «بعد» ماضٍ بالنسبة لمدلولها[٢].

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود ، (٣٩١/٢ -٣٩٢) .

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٦٢/٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاءت إجابة موسى – عليه السلام – لقومه بفعل الرجاء «عسى»، وهو - كما يقول سيبويه[1]-: طمع وإشفاق[2].

وقال الزجاج: ما يطمع الله فيه فهو واجب[3].

قال ابن عادل الحنبلي: «ولقائل أن يقول: هذا ضعيف؛ لأن لفظ «عسى» ههنا ليس كلام الله، بل هو حكاية عن كلام موسى. ويجاب بأن هذا الكلام إذا صدر عن الرسول الذي ظهرت نبوته بالمعجزات أفاد قوة اليقين، فقوَّى موسى – عليه الصلاة والسلام – قلوبهم بهذا القول، وحقق عندهم الوعد؛ ليصبروا ويتركوا الجزع المذموم»[4].

وهنا يثور تساؤل: إذا كان موسى يريد أن يؤكد الوعد لقومه بالنصر والاستخلاف، فلماذا جاء بالفعل «عسى» الدال على الطمع والرجاء، ولم يأت بفعل من الأفعال الدالة على الجزم ؟

وقد أجاب بعضهم عن ذلك فقالوا: لعل الإتيان بفعل الطمع؛ لعدم الجزم منه – عليه السلام – بأنهم هم المستخلَفون بأعيانهم أو أولادهم؛ فقد روي أن مصر إنما فتحت في زمن داود عليه السلام[5].

ولكن هذا الجواب لا يتفق مع ما يتبادر إلى الذهن من قوله- تعالى-: ﴿ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾ [الأعراف: ١٣٧] ؛

---

(١) تم التعريف به سابقا ص (١١) .

(٢) عسى تكون حرفا كـ«لعل»؛ فتنصب الاسم وترفع الخبر، وهي لغة قليلة.

قال الشاعر:

ولي نفس تنازعني إذا ما ... أقول لها لعلي أو عساني

وهي تدل في معناها على الترجي في المحبوب والإشفاق من المكروه، وقد اجتمعا في قوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ ﴾ [البقرة: ٢١٦]، و«عسى» من الله واجبة الوقوع في القرآن إلا قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم: ٥].

الكتاب لسيبويه (٢/٣٧٤، ٣٧٥)، البرهان للزركشي (٧/٢٨٨، ٢٨٩) .

(٣) ينظر: معاني القرآن (٢/٣٦٧).

(٤) اللباب (٩/٢٧٣).

(٥) ينظر: تفسير أبي السعود (٢/٣٩٢)، تفسير القرطبي (٧/١٦٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإن المتبادر إلى الذهن من هذه الآية الكريمة هو استخلاف المستضعفين أنفسهم، وليس استخلاف أولادهم وذرياتهم[١].

والحق أن التعبير بفعل الرجاء والطمع «عسى» هنا دون أفعال الجزم، إنما كان لنكتة بلاغية؛ جريًا على سنن الكبرياء لله عز وجل؛ فلم يكن لموسى - عليه السلام - أن يتعدى على كبرياء الله سبحانه؛ فيورد القول على لسان نفسه قاطعًا وجازمًا، بل تأدب مع خالقه، وأورد الخبر مورد الدعاء والرجاء، وفي هذا يقول الطاهر بن عاشور: «جاء بفعل الرجاء دون الجزم؛ تأدبًا مع الله تعالى، وإقصاء للاتكال على أعمالهم؛ ليزدادوا من التقوى والتعرض إلى رضا الله تعالى ونصره»[٢]. وما ذكره مأخوذ من قول أبي السعود : " ومجيء فعل الطمع للجري على سنن الكبرياء " [٣] فمعنى هذا القول أن موسى- عليه السلام- راعى كبرياء الله فلم يقطع بما يتوقع من نصر .

وقد جاء الوعد بخلافة الأرض مؤكَّدًا من خلال صيغة الفعل «استخلف»؛ فإن الألف والسين والتاء فيه للتأكيد؛ على نحو ما سبقت الإشارة إلى ذلك في الحديث عن الفعل «استجاب» في قوله- تعالى-: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقوله- تعالى-: ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ في مطلع هذه الآية، هو حكاية لجواب قوم موسى - عليه السلام – على ما سبق من قوله لهم في الآية التي سبقت هذه الآية: ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فأجابه قومه: ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا ... ﴾ الآية؛ ولذلك فصلت جملة القول في هذه الآية على طريقة المحاورة [٤].

وقد حمل البعض الخبر هنا على الاستبطاء، أي: أن قوم موسى قد استبطئوا ما وعدهم به من النصر والتمكين والنجاة من فرعون، والظفر بأرضه؛ فقالوا له ما قالوا: ﴿ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا ... ﴾ الآية.

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٣٩٢/٢).
(٢) التحرير والتنوير (٦٢/٩).
(٣) تفسير أبي السعود : (٣٩٢/٢) .
(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٦١/٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولكن الأَوْلى من ذلك أن يحمل هذا الخبر على إفادة التحسر والتألم، أو على إفادة الاستكشاف والاستفسار:

أما وجه التحسر والتحزن: فإنهم لا يقصدون بإخبارهم موسى - عليه السلام - بذلك إعلامه به؛ لأنه يعلمه مثلهم تماما؛ وإنما أرادوا أن يعربوا عن حزنهم وتحسرهم وتألمهم؛ لفرط ما هم فيه من البلاء، وفظاعة ما اعتراهم من الخوف والفزع[١].

وهم إنما يتألمون ويتحسرون لما هم فيه من البلاء، وما يقع عليهم من الأذى، وليس تبرمًا بموسى عليه السلام، أو تمعضًا منه[٢]؛ لأنهم لو قصدوا بذلك كراهية موسى - عليه السلام - والامتعاض والنفرة منه، لكفروا بذلك، ولما استحقوا أن يعدهم موسى – عليه السلام – بالظفر والاستخلاف في الأرض، وفي هذا يقول ابن عادل الحنبلي: «فإن قيل: هذا القول – يعني قولهم: ﴿ أُوذِينَا ... ﴾ إلخ – يدل على كراهتهم مجيء موسى عليه الصلاة والسلام، وذلك يوجب الكفر؟

فالجواب: أن موسى - عليه الصلاة والسلام - لما جاء وعدهم بزوال تلك المضار؛ فظنوا أنها تزول على الفور، فلما رأوا أنها ما زالت، رجعوا إليه في معرفة كيفية ذلك الوعد، فبيَّن لهم موسى – عليه السلام – أن الوعد بإزالتها لا يوجب الفور، بل لا بد أن يستنجز ذلك الوعد في الوقت المقدر له»[٣].

وهذا وجه حمل الخبر في الآية على الاستكشاف والاستفسار؛ فهم أرادوا أن يقفوا على حقيقة الأمر، ويستفسروا منه عن كيفية تحقيق زوال المضرة عنهم[٤].

وقد حمل الطاهر بن عاشور هذا الخبر على وجه آخر؛ حيث ذكر أنه مستعمل في الشكاية، واستثارَتِهم موسى – عليه السلام – ليدعو ربه أن يفرج كربهم، ورَدَّ قول من توهم من المفسرين أن هذا الخبر امتعاض منهم مما لحقهم بسبب موسى وبواسطته، مستندًا في توهمه إلى أن قتل الذكور منهم كان قبل مجيء موسى بسبب توقع ولادة

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٣٩٢/٢) ، التحرير والتنوير (٦١/٩) .
(٢) ينظر: البحر المحيط (٣٦٨/٤)، التحرير والتنوير (٦١/٩)، اللباب (٢٧٢/٩).
(٣) ينظر: اللباب (٢٧٢/٩، ٢٧٣).
(٤) ينظر: تفسير الرازي (٢١٣/١٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

موسى، وكان الوعيد بمثله بعد مجيئه بسبب دعوته – رد ذلك بأنه ليس بمتّجه؛ لأنه لو كان هو المراد، لما كان للتعبير بقوله: ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ﴾ موقع[١].

وإجابة موسى لقومه هنا بقوله: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ تصريحٌ لهم بما سبق أن لوَّح به في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأعراف: ١٢٨][٢]؛ فصرح لهم بما رمز إليه من البشارة بإهلاك فرعون، واستخلافهم بعده في أرض مصر[٣]، وكشف لهم عن ذلك بكل وضوح؛ تأكيدًا لتسليتهم وتصبيرهم على ما هم فيه من الأذى والبلاء؛ فقوله: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾ ناظر إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقوله: ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ناظر إلى قوله: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨][٤].

وقد جمعت الآية إلى الخبرِ الإنشاءَ في قوله- تعالى-: ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ ؛ تأكيدًا لتسليتهم – أيضا – وتحقيقًا لأمر ظفرهم واستخلافهم وإهلاك عدوهم[٥]، وحثًّا لهم وتحريضًا على التمسك بطاعة الله تعالى[٦]، والاستكثار من ذلك؛ ليستحقوا وصف المتقين الذين تكون لهم العاقبة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ؛ كما أن فيه تذكيرًا لهم بأنه عليم بما يعملونه[٧].

وفي قوله- تعالى-: ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ إيماء إلى أن الله تعالى لا يجازي الناس على ما يعلمه منهم، وإنما يجازيهم على ما يقع منهم؛ ولذلك عبرت الآية بالفعل «ينظر»، أي: يرى أعمالكم بوقوعها منكم[٨]؛ «فالنظر مستعمل في العلم بالمرئيات. والمقصود بـ ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾: عملهم مع الناس في سياسة ما استخلفوا فيه، وهو كله من

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٣٩٢/٢) ، التحرير والتنوير (٦١/٩) .
(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٣٩٢/٢).
(٣) ينظر: الكشاف (١٤٤/٢).
(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٦٢/٩).
(٥) ينظر: تفسير أبي السعود (٣٩٢/٢).
(٦) ينظر: اللباب (٢٧٣/٩).
(٧) ينظر: التحرير والتنوير (٦٢/٩).
(٨) ينظر: اللباب (٢٧٣/٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأمور التي تشاهد؛ إذ لا دخل للنيات والضمائر في السياسة وتدبير الممالك إلا بمقدار ما تدفع النيات الصالحة من الأعمال المناسبة لها؛ فإذا صدرت الأعمال صالحة كما يرضى الله وما أوصى به، حصل المقصود، ولا يضرها ما تُكنُّه نفس العامل»[١].

والفاء في قوله- تعالى-: ﴿فَيَنظُرَ﴾ ؛للتعقيب، وقد تُستشكل دلالتها على ذلك بأنه يلزم من كونها للتعقيب أن تكون رؤية الله لتلك الأعمال متأخرة عن حصولها، وذلك يوجب حدوث صفة في ذات الله.

لكن يجاب عن هذا بأن «المعنى: تعلق رؤية الله تعالى بذلك الشيء، والتعلق نسبة حادثة، والنسب والإضافات لا وجود لها في الأعيان؛ فلم يلزم حدوث الصفة الحقيقية في ذات الله تعالى»[٢].

و«كيف» في قوله- تعالى-: ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ كما يجوز حملها على الاستفهام - للحث والحض على نحو ما سبق - «يجوز كونها مجردة عن معنى الاستفهام، دالة على مجرد الكيفية»[٣]؛ فتكون مفعولًا به لـ«ينظر».

ومن جماليات العبارة في الآية الكريمة: الإطناب في قوله: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾؛ وذلك لأن القصد من هذا الخبر هو الإعلام بوقوع الأذى والتضرر منه، وكان يكفي في ذلك قولهم: «أوذينا»، لكنهم زادوا إليه ما بعده إطنابًا؛ لأن من «شأن الحزين الشاكي إطالة الكلام؛ رجاء أن يطفئ بذلك بعض الآلام»[٤].

ومن ألوان البديع التي اشتملت عليها الآية: الطباق ، في قوله- تعالى-: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ ؛ فالطباق بين «قبل» و«بعد» فيه تأكيد لطول معاناتهم، وكثرة ما وقع بهم من الأذى؛ «وكأنهم أرادوا التعريض بنفاد صبرهم، وأن الأذى الذي مسهم بعد بعثة موسى – عليه السلام – لم يكن بداية الأذى، بل جاء بعد طول مدة من الأذى؛ فلذلك جمعوا في كلامهم ما لحقهم قبل بعثة موسى»[٥].

---

(١) التحرير والتنوير (٩/٦٢).
(٢) اللباب (٩/٢٧٣).
(٣) التحرير والتنوير (٩/٦٢).
(٤) روح المعاني (٩/٣٠).
(٥) التحرير والتنوير (٩/٦١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء لفظ الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة في قوله- تعالى - : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢].

هذه الآية جزء من حوار بين الرسل ومعانديهم ، فحينما جاءهم الرسل يدعوهم إلى الإيمان بالله وقدّموا لهم البراهين على الرسالة لم يذعنوا ، بدعوى أنّهم بشر مثلهم غايتهم أن يصدوهم عن دين آبائهم وطالبوهم بحجة ظاهرة غير التي جاءوهم بها، فأجابهم الرسل بأهم – حقا – ليسوا إلا بشراً ولكن الرسالة منّة من الله يمنحها من يشاء من عباده ، وليس لنا أن نأتي بحجة إلاّ أن يأذن الله بذلك ، فلنتوكل على الله ، ولنصبر على معاداتكم ، نحن ومن آمن وأي مانع يمنعنا من التوكل عليه – جل وعلا – وقد هدانا إلى الطريق إليه، وأرشدنا إلى ما نعرفه به من السبل ، ولنصبرنَّ على إيذائكم لنا، وعليه فليتوكل المؤمنون ما بقي لهم على ظهر الأرض حياة (١) .

هذا ما تضمنه النص من المعنى - كما بدا - لي في أقوال أهل العلم أما بلاغته فهذه ملامحها :

المتأمل لألفاظ هذه الآية الكريمة يجد أن جميع الأسماء التي اشتملت عليها معارف؛ وليس ثَمَّةَ نكرةٌ واحدة، وهو ما يوحي إلى القارئ بظهور القضية المتنازَع فيها وتحديد كل طرف من أطراف النزاع لموقفه؛ فكل شيء معين ومحدد؛ فقد حدد الكفار موقفهم والتزموا العناد والإيذاء لرسل الله صلوات الله عليهم أجمعين، وحدد الرسل موقفهم والتزموا التوكل على الله تعالى في رد عناد الكفار وإيذائهم، مع بذل وسعهم في الأخذ بالأسباب التي تدحض عناد الكافرين، والتمسك بالصبر عُدَّةً يواجهون بها الأذى.

هذا ما توحي به المعارف في الآية الكريمة إجمالًا، أما على جهة التفصيل:

---

(١) ينظر: الكشاف (٥٤٤/٢)، اللباب (٣٥٢/١١- ٣٥٤)، تفسير أبي السعود (٢٤٨/٣)،البحر المحيط (٣٩٩/٥-٤٠١)،الدر المصون (٢٥٤/٤-٢٥٦)،تفسير الرازي (٧٥/١٩-٧٧)،المحرر الوجيز(٣٢٩/٣)،نظرات في كتاب الله (٧٠٠/١-٧٠١)،التحرير والتنوير(٢٠٠/١٣-٢٠٤)(بتصرف)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فإننا نجد أن «السبل» قد أضيفت إلى ضمير الرسل «نا» في قوله- تعالى-: ﴿ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾؛ « للاختصار؛ لأن أمور دينهم صارت معروفة لدى الجميع، فجمعها قولهم: ﴿ سُبُلَنَا ﴾ »[١].

ثم جاء الحديث عن الأذى باسم الموصول «ما» في قوله- تعالى-: ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا ﴾، فعبر باسم الموصول بدلًا عن المعرَّف بالألف واللام «الأذى»، فلم يقل: «لنصبرن على الأذى»؛ لما في مضمون الصلة من الإيحاء بتجدد هذا الأذى واستمراره، وفيه إيماء إلى تعدد أنواع الأذى وكثرتها.

هذا هو أحد وجهي الرأي في (ما) والوجه الآخر أنها مصدرية . وهذا ما قرره الشيخ الجمل نقلاً عن الكوفي حيث قال تعليقاً على قول الجلال المحلي (على أذاكم) : قوله : " (على أذاكم) ، إشارة إلى أن (ما) مصدرية وهو الأرجح ؛ لعدم الحاجة إلى رابط ادعى حذفه على غير قياس " [٢]. وعليه يكون إيثار المصدر المؤوّل على المصدر الصريح ، أن المؤول يدل على الحدث والزمن الذي وقع فيه ، بخلاف الصريح فإنّه يدل على وقوع الحدث من غير إشارة إلى زمنه ، والفعل الواقع بعد (ما) ماض ، وهو يدل على تحقق الحدث وهو الإيذاء في الماضي ، وكأن الرسل تحاشوا الإشارة إلى تجدد الإيذاء طمعاً في أن يؤمنوا فينقطع ، أو لعدم علمهم بأنّهم سيصرّون على الكفر ، وتلك من روائع بلاغة القرآن العظيم .

وجاء ﴿ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ مَعرِفة بالألف واللام في قوله- تعالى-: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾؛ للإشعار بأن هؤلاء المتوكلين هم فئة بعينها، محددة معروفة، وهم المؤمنون؛ على ما سبق في الآية التي قبل ذلك ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١].

يقول أبو السعود:" ﴿ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾، أي: فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل، والمراد بـ «المتوكلين»: المؤمنون؛ والتعبير عنهم بذلك لسبق ذكر اتصافهم به، ويجوز أن يراد: وعليه فليتوكل من توكل دون غيره "[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/٢٠٤).
(٢) الفتوحات الإلهية (٤/١٣٩).
(٣) تفسير أبي السعود (٣/٢٤٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ومن اللافت للنظر أن الجمل الفعلية استحوذت على نظم الآية الكريمة؛ إذ اشتملت على خمس جمل فعلية تنوع فيها المسند بين الفعل المضارع والفعل الماضي؛ فجاء ثلاث جمل كان الفعل فيها فعلا مضارعًا، وهي: ﴿ نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾، ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا ﴾، ﴿ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾، وجملتان كان الفعل فيهما فعلًا ماضيا، وهما: ﴿ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾، ﴿ ءَاذَيۡتُمُونَا ﴾.

وسر التعبير بالمضارع في الحديث عن التوكل والصبر، هو الدلالة على تجدد واستمرار هاتين الصفتين في رسل الله تعالى ومن يقتدي بهم من المؤمنين؛ فهم مستمرون في توكلهم على الله تعالى، والصبر ورباطة الجأش، بلا فزع أو هلع أو جزع في مواجهة أذى الكفار والمخالفين ما داموا على إيذائهم .

وقد دلت - أيضا - صيغة الاستقبال المستفادة من المضارع المؤكّد بنون التوكيد في قوله- تعالى-: ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ ﴾ على أذى مستقبَل، ودلت صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا ﴾ على أذى قد مضى؛ فكان المعنى الحاصل من مجموع الصيغتين: أننا نصبر على أذى متوقع كما صبرنا على أذى مضى[1].

وأكد الفعل «لنصبرنّ» باللام والنون؛ لما أن في أذية الكفار ما يوجب القلق والاضطراب القادح في التوكل؛ ولذلك قالوا: على سبيل التوكيد القسمي ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا ﴾ ؛ إظهارًا لكمال العزيمة[2].

وصيغة الماضي في قوله- تعالى-: ﴿ وَقَدۡ هَدَىٰنَا ﴾ تدل على تحقق وثبوت هذه الهداية، وزاد تأكيد تحققها وثبوتها بـ«قد»؛ إظهارًا لفضل الله تعالى، وتمام نعمته على المؤمنين.

وتقدم الجار والمجرور ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ على متعلَّقه ﴿ فَلۡيَتَوَكَّلِ ﴾؛ للدلالة على التخصيص[3] والحصر؛ فهم «لا يرجون نصرًا من غير الله تعالى؛ لضعفهم وقلة ناصرهم، وفيه إيماء إلى أنهم واثقون بنصر الله تعالى»[4].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٣/٢٠٤).
(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٣/٢٤٨).
(٣) ينظر: السابق.
(٤) التحرير والتنوير (١٣/٢٠٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله- تعالى -: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ جيء بلفظ الجلالة " الله " خروجاً على خلاف مقتضى الظاهر ، فهو من قبيل وضع المُظهَّر موضع المُـضمر ؛ لأن قبله ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فكان في تقديم ذكر الله – عز وجل – ما يسوِّغ الإضمار بأن يُقال : (وما لنا ألاّ نتوكل عليه) ؛ لكنه عدل عـن المـضمر إلى المظهر ؛ تلذذاً بالتلفّظ باسم الله تعالى شأنه [(١)] .

وقد افتتحت الآية باستفهام إنكاري[(٢)]﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ؛ مناسبة لما قبله من قوله- تعالى-: ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١]، أي: أن ما تطلبونه منّا أيها المعانـدون مـن الإتيان بسلطان مبين ليس إلينا ولا في استطاعتنا، وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة الله. ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقد قصدوا

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٣/٢٤٨).

(٢) الاستفهام من الفهم، وفهمت الشيء: عقلته، واستفهمه سأله أن يفهمه، قال الصاحبي: «الاستفهام طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، وهو الاستخبار الذي قالوا فيه: إنه طلب خبر ما ليس عندك، وهو بمعنى الاستفهام»، ومنهم من فرق بينهما وقال: «إن الاستخبار ما سبق أولًا و لم يفهم حق الفهم، فإذا سألت عنه ثانيًا كان استفهامًا».

وأكثر علماء البلاغة على استعمال مصطلح «الاستفهام» فهو من أساليب الإنشاء أو الطلب التي دعا لها أوائل النحويين، إذ عقد له سيبويه بابا سماه «الاستفهام» وتكلم فيه عن أدواته، كما تحدث عنه الفراء والمبرد.

وكذلك عرفه السكاكي بقوله: «والاستفهام لطلب حصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن إما أن يكون حكمًا بشيء على شيء أو لا يكون، والأول هو التصديق ويمتنع انفكاكه من تصور الطرفين، والثاني هو التصور ولا يمتنع انفكاكه من التصديق».

استفهام الإنكار: يدل اسمه على معنى النفي في الكلام وما بعده منفي لكونه مصحوبًا بالإ، كقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ،ومنه عطف المنفي عليه كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [الروم: ٢٩] أي لا يهدى أبدًا، وبمعنى آخر قوله تعالى: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ ﴾ [الزخرف: ١٩] المقصود: ما شهدوا ذلك.

وقيل: إن هذا الاستفهام كثيرًا ما يصحبه التكذيب، وهو ما كان في الزمن الماضي بمعنى «لم يكن» أو كان في المستقبل بمعنى «لا يكون» ومثال ذلك في القرآن الكريم قوله- تعالى-: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ [الإسراء: ٤٠] على معنى أنه - سبحانه - لم يفعل ذلك، وقوله – تعالى - أيضًا: ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود: ٢٨] أي أنه سوف لا يكون أبدًا في المستقبل.

ومن أمثلة استفهام الإنكار نظمًا قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ... ومسنونة زرق كأنياب أغوال

على معنى: لن يفعل ذلك في المستقبل أبدًا.
ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة (١٢٢، ١٢٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

به أنفسهم قصدًا أوليًّا، وأمروها به، وكأنهم قالوا: من حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم [١].

وكانت القرينة الدالة على أن هذا هو المراد، وأنهم قصدوا أنفسهم قصدًا أوليًّا بقولهم: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ هو ما جاء بعده من الاستفهام: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ ، أي: وما لنا ألا نتوكل على الله وقد عرفنا أنه لا ينالنا شيء إلا بقضائه وقدره ﴿ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ بيَّن لنا الرشد، وبصَّرنا طريق النجاة [٢].

وقد جيء بالاستفهام هنا في «صورة الإنكار»؛ بناء على ما هو معروف من استمحاق الكفار إياهم في توكلهم على الله؛ فجاءوا بإنكار نفي التوكل على الله [٣].

والفاء في قوله - تعالى -: ﴿ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ رابطة لهذه الجملة بما أفاده تقديم الجار والمجرور ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ من معنى الشرط الذي يدل عليه المقام؛ على حدِّه في قوله - تعالى -: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١]؛ فيكون التقدير: إن عجبتم من قلة اكتراث المؤمنين بتكذيبكم أيها الكافرون، وإن خشيتم هؤلاء المكذبين أيها المؤمنون - فليتوكل المؤمنون على الله؛ لأنه الذي يتوكل عليه المتوكلون، ولأن المؤمنين هم المتوكلون، وإذا توكل المؤمنون على الله فلن يضيرهم عدوهم، وهو كقوله - تعالى -: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [٤] [المائدة: ٢٣].

وقد تحقق الترابط اللفظي بين هذه الآية الكريمة وما قبلها كما تحقق الترابط المعنوي؛ حيث ختمت هذه الآية بقوله - تعالى -: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾، وختمت الآية السابقة بقوله - تعالى -: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [إبراهيم : ١١].

---

(١) ينظر: الكشاف (٢/٥٤٤)، اللباب (١١/٣٥٣)، المحرر الوجيز (٣/٣٢٨، ٣٢٩)، البحر المحيط (٥/٣٩٩، ٤٠٠)، الدر المصون (٤/٢٥٤، ٢٥٥)، تفسير أبي السعود (٣/٢٤٨)، تفسير الرازي (١٩/٧٥، ٧٦)، نظرات في كتاب الله (١/٧٠٠)، التحرير والتنوير (١٣/٢٠٢، ٢٠٣).

(٢) ينظر: اللباب (١١/٣٥٣).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٣/٢٠٤).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١٣/٢٠٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وسر بلاغة هذا التكرار ما فيه من الدعوة إلى إنشاء التوكل أولًا بقوله- تعالى-: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ ، ثم الأمر بالمداومة على التوكل بقوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ؛ فيكون المراد: فليثبت المؤمنون على ما أحدثوه من التوكل[1].

يقول الزمخشري: «فإن قلت: كيف كرر الأمر بالتوكل؟

قلت: الأول لاستحداث التوكل، وقوله: ﴿ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ معناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم»[2].

وفي تكرار التوكل على الله في كلام الرسل ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ ،و﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾،و﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾- إيحاءٌ إلى تأكيد عزمهم على هذا التوكل ومداومتهم عليه، واستلذاذهم بذكر الله تعالى؛ ومن ثم فهم لا يملون تكراره[3].

وفي قولهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ استدلال على صدق رأيهم في تفويض أمرهم إلى الله تعالى بقولهم: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ ؛ وكأنهم لما رأوا بَوَارِقَ عنايته بهم؛ إذ هداهم إلى طرائق النجاة والخير، علموا من ذلك أن في توكلهم عليه ومداومتهم على ذلك نجاتَهم وخيرَهم أيضًا؛ لأن مبادئ الأمور تدل على غاياتها[4].

وقد ذُيِّلت الآية الكريمة بقوله- تعالى-: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ، وهو يحتمل أن يكون من بقية كلام الرسل؛ فيكون تذييلًا وتأكيدًا لجملة ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١] ؛ لما فيها من العموم الزائد في قوله: ﴿ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ على عموم ﴿ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾، وإنما كانت تأكيدًا؛ لأن المؤمنين من جملة المتوكلين.

---

(١) ينظر: اللباب (٣٥٤/١١)، تفسير أبي السعود (٢٤٨/٣).
(٢) الكشاف (٥٤٤/٢).
(٣) ينظر: تفسير أبي السعود (٢٤٨/٣).
(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٢٠٣/١٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ من كلام الله تعالى؛ فيكون تذييلا للقصة كلها ؛ وتنويهًا بشأن المتوكلين على الله، أي: لا ينبغي التوكل إلا عليه[1].

وجاء لفظ الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة في قوله- تعالى-: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٠]

وقد تعدد الروايات في سبب نزول هذه الآية[2]وأوجز ذلك وأقربه إلى الحق ما ذكره الزمخشري – وجرى عليه أبو السعود من أنّهم:« ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا مسهم أذى من الكفار – وهو المراد بفتنة الناس – كان ذلك صارفًا لهم عن الإيمان»[3].

وأيا من كان سبب نزولها فإنها ترمي إلى دفع المسلمين إلى الصبر على ما ينالهم من أذى بسبب دينهم ، فليس الإيمان قولاً يجري به اللسان بل هو ما استقر في القلب وتعمق الوجدان ، أما الذين يضعفون أمام الأذى ، فيرجعون عما جرت به ألسنتهم فيمالئون المشركين ، ويتخذون ما أعلنوه وسيلة لخداع المسلمين ليحصلوا على منافع دنيوية . فهؤلاء ليسوا من الإيمان في شيء ، ولا يحسبن هؤلاء أنهم بذلك أحرزوا الحسنى؛ فإن الله مطلع على ما طوته الأفئدة ، وسيجازي من آمن صادقاً بإيمانه ومن خادع بإظهار الإسلام جزاءً يوائم ما كان منه من خداع.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٠٤/١٣).
(٢) ينظر: تفسير القرطبي (٣٣٠/١٣) ، والبحر المحيط (١٤٣/٧) ، واللباب (٣٢٢/١٥) .
(٣) الكشاف (٤٤٤/٣)، وينظر تفسير أبي السعود (٢٥٢/٤) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا هو ما يدركه القارئ الفطن من مضمون هذه الآية إذا كان من دراية اللغة ، والنظر فيما قاله أهل العلم ما يعينه على ذلك . أما الخصائص البلاغية فهذا أوان الحديث عنها :

ورد ذكر الله - عز وجل - في الآية الكريمة أربع مرات بلفظ الجلالة «الله» عز وجل، وورد مرة واحدة بلفظ «الرب» مضافًا إلى كاف الخطاب «ربكم»، والسر في العدول عن لفظ الجلالة إلى ذكر الرب في هذا الموضع من الآية، أن «الرب» اسمٌ مدلوله الخاص هو القيام بشأن من هو في حاجة إلى العناية والاهتمام ،ومن لوازمه الرحمة والشفقة ، أما لفظ الجلالة «الله» فمدلوله الخاص به الذات العليا ومن صفاتها الملك والتدبير والسلطان ومن لوازمه الهيبة والجلال، ونصر الله لعباده المؤمنين من قبيل شفقته ورحمته بهم؛ ولذلك ذكر معه الاسم الذي يتناسب مدلوله مع ذلك وهو «الرب»، فقال تعالى: ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ ﴾[1] .

أما المواضع التي ورد التعبير فيها بلفظ الجلالة، فتَأَمُّلُها يؤكد مناسبتها لما في اسم «الله» تعالى من دلائل الهيبة والعظمة:

فقولهم: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ لا بد أن يكون نابعًا من شعورهم بهيبته وعظمته سبحانه، الذي دفعهم إلى الإيمان به والتوجه إليه سبحانه دون سواه.

وقوله- تعالى-: ﴿ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ ﴾ يُشعر بأن تعظيم الخلق لربهم وهيبتهم له ينبغي أن يدفعهم إلى تحمل الأذى في سبيله سبحانه، وهو ما عجزت عنه تلك الطائفة التي أخبرت الآية بنفاقها؛ لما في إيمانها من الوهن، وعدم استشعارها حقيقةً لهيبة الله وعظمته.

وفي بناء هذا الفعل للمجهول إيماء إلى العموم ، فأي شخص يحدث منه الأذى يصرف هؤلاء عن دينهم ، وقد يكون ذلك للعلم به ، وهم المشركون ، فليس في ذكره فائدة ما .

وأما قوله: ﴿ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ فإن مناسبة العذاب للهيبة والعظمة ظاهرة بلا خفاء؛ لأن غير المتصف بذلك غير قادر على إيقاع العذاب بأحد.

---

(١) ينظر: اللباب (١٥/٣٢١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، لما كان المقصود به إعلام الخلق بالاطلاع على ما في صدورهم والعلم التام به، ناسب ذلك إيراد اسم الجلالة بما فيه من دلالات الهيبة والعظمة، التي يجب أن يستشعرها كل قلب تجاه الله تعالى؛ ليخلص في عمله، ويتجنب الرياء والنفاق.

وجاء التعبير عن هؤلاء الذين أظهروا إيمانهم ثم لم يثبتوا أمام أذى المشركين باسم الموصول، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وذلك لما في جملة الصلة: ﴿يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ من الإيماء إلى أن إيمان هؤلاء الناس لم يرسخ في قلوبهم بعد، وأنه لا يزال مجرد قول يحتاج إلى تأكيده بالعمل؛ ليصبح حقيقة وواقعًا مؤكدًا[١] .

ومن روعة بلاغة القرآن أن يورد الحديث عن هؤلاء الذين سلكوا هذا المسلك السيئ بقوله: (ومن الناس) دون تحديد أسمائهم ، ذلك أنه لا يتعلق بذكر أسمائهم غرض ، ومن ثَمَّ كان الإبهام مراداً به تمهيد الطريق إلى مراجعة النفس ، والعودة إلى رحاب الإيمان الصادق ، وقد يكون في ذكرها فضح لهم فيدفعهم ذلك إلى الإصرار على ما هم عليه .

وتنكير «النصر» في قوله- تعالى-: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ﴾ للدلالة على العموم ؛ فأي نصر أحرزه المسلمون ، وكان فيه من الغنائم ما يسيل له لعاب طلاب الدنيا ينتهزه هؤلاء فرصة مطالبين بنصيبهم منها ، معللين ذلك بقولهم : إنا كنا معكم .

والمفاضلة في قوله- تعالى-: ﴿بِأَعْلَمَ﴾ للدلالة على أن بعض المسلمين ممن أوتوا فراسة وصدق نظر لديهم علم ببعض ما في صدور هؤلاء المنافقين. ويجوز أن يكون اسم التفضيل مسلوب المفاضلة؛ فيكون المعنى: أليس الله عالمًا علمًا تفصيليًّا لا تخفى عليه خافية[٢].

ومن اللافت للنظر أن الفعل يسيطر على سياق الآية الكريمة من خلال الجمل الفعلية المتعددة التي اشتملت عليها، نحو: ﴿يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، ﴿أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾، ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، ﴿جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ، وقد أَضْفَتْ هذه الجمل على النص القرآني طابعًا حركيًّا تفاعليًّا يعكس التحولات والتغيرات

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢١/٢١٦)
(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢١/٢١٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

في المواقف والأحوال والأقوال؛ فهناك زمرة تتحول من الكفر إلى الإيمان، ثم لا تلبث أن تتحول من الإيمان إلى الكفر، وهناك زمرة تعمل على إيقاع الأذى بالمؤمنين، وهناك زمرة المؤمنين الذين يأتيهم النصر من عند الله تعالى، فيتعرضون لمحاولة من الخداع والتزييف؛ ليشاركهم غيرهم فيما آتاهم الله بدون وجه حق؛ وبهذا يظل القارئ للنص القرآني منجذبًا إلى متابعة كل هذه التفاعلات والتغيرات؛ فيزداد تفاعله مع النص القرآني الذي يتغلغل في ثنايا نفسه بتلك الحركة التي تنبعث من ثنايا الأفعال التي تزخر بها الآية الكريمة.

وبين هذه الجمل الفعلية الكثيرة في الآية الكريمة تأتي الجملة الاسمية لتحقق دورها في بلاغة النظم القرآني، حيث نجد قوله- تعالى-: ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ يعكس مدى تبجح هؤلاء المنافقين، حيث يؤكدون كذبهم وافتراءهم، ويعبرون عنه بالجملة الاسمية - بما في التعبير بها من الدلالة والثبوت - تماديًا منهم في الكذب، وإمعانًا في خداع المؤمنين وإقناعهم بأنهم ثابتون على الإيمان لم يتحولوا عنه البتة.

وجاءت جملة الشرط في قوله- تعالى-: ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ ﴾ مؤكدة باللام الموطئة للقسم ؛ « لتحقيق حصول الجواب عند حصول الشرط، وهو يقتضي تحقيق وقوع الأمرين، ففيه وعد بأن الله تعالى ناصر المسلمين، وأن المنافقين قائلون ذلك حينئذ»[1].

ويربط هذه الآية بما قبلها رباط وثيق ، حيث تأتي متممة لما سبقها في استيعاب حال أنواع البشر من الإيمان بالله تعالى؛ إذ ينقسم الناس ثلاثةَ أنواع:

النوع الأول: مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده.

والنوع الثاني: كافر مجاهر بكفره وعناده.

والنوع الثالث: مذبذب بين الفريقين، فيظهر الإيمان بلسانه، ويضمر الكفر بقلبه.

وقد بيَّن الله أحوال النوع الأول بقوله- تعالى- : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٧]، وبين أحوال النوع الثاني بقوله- تعالى- : ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/٢١٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤]، وبقي أن يبين أحوال النوع الثالث، فبينه بقوله- تعالى-: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ (١).

وتكشف الآية الكريمة عن العلة التي ساقت هؤلاء المنافقين إلى ما اقترفوه من إبطان الكفر، وهي عدم ثباتهم أمام ما واجهوه من إيذاء؛ فكأنهم حسبوا أن طريق الإيمان طريق سهل مُعَبَّد؛ فسلكوه، فلما رأوا ما فيه من صعوبات وفتن يبتلي بها الله عباده، عدلوا عنه، وهو ما أشار إليه الحق - تبارك وتعالى – في صدر هذه السورة بقوله: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]؛ وبذلك تتعانق الآيتان؛ فيكون قوله- تعالى- : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا ﴾ الآية، بمثابة المثال والنموذج لهؤلاء الذين حسبوا أن يتركوا أن يقولوا: آمنا، وهم لا يفتنون.

وعلى الرغم من افتتان هؤلاء المنافقين وعدم ثباتهم أمام الإيذاء، فهم حريصون على مشاركة المؤمنين الصادقين فيما جاءهم من نصر الله تعالى ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ ﴾، وهنا تبرز حماقة هؤلاء المنافقين، حيث يطلبون لأنفسهم ما لا يستحقونه، وقد كان بإمكانهم أن يكونوا – أيضًا – من أهل هذا النصر لو أنهم ثبتوا على إيمانهم، وهو ما أكدته الآيات السابقة بقوله- تعالى-: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦]، فمجاهدة المرء وتحمله لما قد يتعرض له من إيذاء أمرٌ سيعود نفعه إليه نفسه؛ لأن الله غني عنه وعن غيره من العالمين، وهو الأمر الذي غفل عنه هؤلاء المنافقون؛ لحماقتهم وقلة رأيهم وضعف عزيمتهم(٢).

وقد توجه سبحانه وتعالى بالخطاب إلى النبي- ﷺ - في هذه الآية الكريمة؛ لقصد إسماع هؤلاء المنافقين لهذا الخطاب؛ «فإنهم يحضرون مجالس النبي والمؤمنين، ويستمعون ما يترل من القرآن، وما يتلى منه بعد نزوله، فيشعرون أن الله مطَّلع على ضمائرهم»(٣).

وقد جرى الأسلوب القرآني على نهج واحد في حديثه عن هذا الفريق من الناس ؛ ذلك أنّه لّما أبْهم أسمائهم بقوله: (ومن الناس من يقول آمنا بالله) سلك المسلك نفسه

---

(١) ينظر: اللباب (١٥/٣٢٠).
(٢) ينظر في الهيكل البنيوي لسورة العنكبوت: البيان في روائع القرآن (٢/٤٣٥-٤٣٨).
(٣) التحرير والتنوير (٢١/٢١٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقال: (أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) فأورد تكذيبهم لما ادَّعَوْهُ من مشايعة المؤمنين ومعيتهم لهم بقولهم: (إنا كنا معكم) فطوى العلم بما في صدورهم في العلم بما في صدور العالمين . ولا يخفى أن الاستفهام إنكاري ؛ إذ المعنى : كيف يدَّعون ذلك ؟ أليس الله بأعلم بما في صدورهم وصدور غيرهم من البشر ؟

ويجوز أن يكون استفهامًا تقريريًّا، «وجَّه الله به الخطاب إلى النبي - ﷺ - في صورة التقرير بما أنعم الله به عليه من إنبائه بأحوال الملتبسين. وهذا الأسلوب شائع في الاستفهام التقريري، وكثيرًا ما يلتبس بالإنكاري، ولا يفرق بينهما إلا المقام»[١].

وقد عبرت الآية الكريمة عن حماقة هؤلاء المنافقين وقلة عقولهم بطريق التشبيه الموحي بذلك، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ ؛ حيث جعل هؤلاء الناسُ ما يتعرضون له من إيذاء الكفار شبيهًا بعذاب الله تعالى. ومقتضى أصل التشبيه أنهم قد جعلوا طرفي التشبيه كأنهما سواء، فاستوى عندهم فتنة الناس مع عذاب الله تعالى، ورأوا أنهم في موقع اختيار بين نوعين من العذاب متساويَيْن، فاختاروا السلامة من العاجل، وأهملوا العذاب الآجل.

وهذا ما أسماه الشيخ الصابوني بالتشبيه" (المرسل المجمل)حُذِف منه وجه الشبه ، فصار مجملا ، أي جعل فتنة الدنيا كعذاب الله في الشدة والإيلام ، مع أن عذاب الله لا يماثله شيء ، وفي الآية بيان شرف المؤمن الصابر وخسة الكافر المنافق ، المؤمن أوذي في سبيل الله ليترك الدين فلم يتركه ، وأوذي المنافق الكافر ، فترك الإيمان وترك الله نفسه ، فما أعظم الفارق بينهما!!" [٢].

وفي هذا التشبيه إيماء إلى جهلهم وعدم قدرتهم على إدراك الفرق بين الإيذاء من البشر ، وبين عذاب الله في الآخرة ؛ إذ لو كان لهم عقول تعي، لأدركوا أن عذاب الله تعالى أعظم من أذى الناس، بل لا يقارن هذا بذاك البتة؛ هذا إذا كانوا قد آمنوا – أصلا – بالبعث والجزاء .

---

(١) السابق نفسه.

(٢) الإبداع البياني للصابوني (٢٤٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أما إن كانوا من المنكرين لذلك، فإن مقتضى التشبيه أنهم جعلوا أذى الناس هم كعذاب الله عند المؤمنين الذين يؤمنون بالجزاء، وعذاب الله عند هؤلاء المؤمنين يدفعهم إلى نبذ ما يترتب عليه هذا العذاب؛ ولهذا سلك هؤلاء المنافقون المسلك نفسه؛ فنبذوا الإيمان الذي ترتب عليه إيذاء المشركين لهم؛ تخلصًا من هذا الأذى؛ كما يتخلص المؤمنون من عذاب الله بنبذ الذنوب والمعاصي.

وفي هذا ما يدل على ما انغمس فيه هؤلاء المنافقون من الجهل المركب، حين جهلوا حقيقة الإيمان والبعث، وبنوا على جهلهم جهلًا آخر بتشبيههم للأثر الناتج عن عذاب الله تعالى فيما يتعلق بجانب المؤمنين، بالأثر الذي يمكن أن ينتج عن أذى الكفار في جانبهم(١).

وفي قوله : (أو ليس الله بأعلم ...) تعريض بكذب هؤلاء المنافقين ؛ ذلك أن الإخبار بعلم الله بما في صدورهم تعريض بكذبهم ، وذلك نسق رائع من بلاغة القرآن ؛ ففي التعريض نأي عن اللفظ القبيح ، وإعراض عن الذّم الصّريح ، عسى أن يدرك المخطئ خطأه ، فيعود إلى الجادة .

وجاء لفظ الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة في قوله- تعالى-: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٨]

جاء قول الله- تعالى-: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ تأكيدا لما ورد في أول السورة حيث أمر الله تعالى نبيه - ﷺ - قائلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ١].

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢١/٢١٦) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي هذه الآية عود على بدء . ؛ ذلك أن المفسرين لم يذكروا سبب نزول هذه الآية في موضعها من السورة [٤٨] ، بل ذكروا سبب نزول الآية الأولى وهي قوله – تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾. يقول الزمخشري : " روي أن النبي - ﷺ - لما هاجر إلى المدينة – وكان يحب إسلام اليهود : بني قريظة ، والنضير[١] وبني قينقاع [٢]، وقد بايعه ناس منهم على النفاق – فكان يلين لهم جانبه ، ويكرم صغيرهم وكبيرهم ، وإذا أتى منهم قبيح تجاوز عنه ، وكان يسمع منهم فنزلت ، وروي أن أبا سفيان بن حرب [٣]، وعكرمة بن أبي جهل [٤]، وأبا الأعور السلمي [٥] قدموا عليه في الموادعة التي كانت بينه وبينهم ، وقام معهم عبد الله بن أبي [٦] ، ومعتب بن قشير [٧] والجد بن قيس [١] فقالوا

---

(١) النَّضير: قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة، كانوا هم وقريظة نزولا بظاهر المدينة في حدائق وآطام لهم، فغزاهم النبيَ- ﷺ - في منازلهم بوادي بطحان وموضع يقال له: البويرة، فأحرق نخلهم واستصفى أموالهم لنفسه؛ لأنه لم يوجف عليهم بخيل ولا ركاب، وكان يزرع أراضيهم فيأخذ من قوت أهله ويجعل ما فضل في الكراع والسلاح، وأقطع منها أبا بكر وعبد الرحمن بن عوف وقسمها بين المهاجرين، ولم يعط أحدا من الأنصار منها شيئا إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة؛ لفقرهما.

ينظر: مراصد الاطلاع (٣/١٣٧٥، ١٣٧٦).

(٢) قَيْنُقَاع شعب من اليهود كانوا يسكنون بالمدينة، يضاف إليهم سوق بها.

ينظر: مراصد الاطلاع (٣/١١٤٠).

(٣) صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، أبو سفيان القرشي الأموي، ولد قبل الفيل بعشر سنين، وأسلم ليلة الفتح، وشهد حنينًا والطائف مع رسول الله ﷺ، وتوفي سنة إحدى وثلاثين وعمره ثمان وثمانون سنة، وقيل: توفي سنة اثنتين وثلاثين، وقيل: سنة أربع وثلاثين، وقيل: كان عمره ثلاثًا وتسعين سنة.

ينظر: أسد الغابة (٣/٩).

(٤) عكرمة بن أبي جهل: عمرو بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي، كان كأبيه من أشدِّ الناس على رسول الله ﷺ، ثم أسلم عكرمة عام الفتح، وخرج إلى المدينة ثم إلى قتال أهل الردة، قتل يوم اليرموك في خلافة عمر.

ينظر: الإصابة (٤/٤٤٣)، طبقات ابن سعد (٥/٣٢٩)، تهذيب الأسماء واللغات (١/٣٣٨- ٣٤٠)، تهذيب التهذيب (٧/٢٥٧).

(٥) عمرو بن سفيان بن عبد شمس بن سعد بن قائف بن مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن سليم، أبو الأعور، السلمي، مشهور بكنيته، شهد حنينًا وهو مشرك مع مالك بن عوف، ثم أسلم، وغزا قبرص سنة ست وعشرين .

ينظر: أسد الغابة (ت: ٤٩٤٦)، الاستيعاب (ت: ١٩٤٢)، الإصابة (٤/٥٢٩).

(٦) عبد الله بن أبيّ بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي، أبو الحُباب، المشهور بابن سلول، من خزاعة: رأس المنافقين في الإسلام.

ينظر: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس (٢/١٤٠)، إمتاع الأسماع بما للنبي ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، للمقريزي (١/٩٩).

(٧) معتب بن قشير - وقيل : معتب بن بشير – ابن مليل بن زيد بن العطّاف بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للنبي - ﷺ -ارفض ذكر آلهتنا ، وقل إنها تشفع وتنفع، وندعك وربّك . فشق ذلك على رسول الله- ﷺ - وعلى المؤمنين ، وهموا بقتلهم فنزلت " [٢]، وذكر إلى جانب ذلك رواية أخرى [٣].

وسواء أكانت هذه الرواية أو تلك فإن الآية توجه النبي إلى دوام ترك طاعة الكافرين والمنافقين وأن يدع أذاهم؛ فلا يؤذيهم بضرر أو قتل، ويأخذ بظاهرهم، وحسابُهم على الله في باطنهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ ﴾ ، وهو يحتمل أيضا أن يراد به: دع ما يؤذونك هم به، ولا تُجازِهم عليه حتى تؤمر[٤].

ثم تدعوه إلى أن يتوكل على الله تعالى في كل ما يأتي وما يذر من الشئون، التي من جملتها أذى الكفار والمنافقين؛ فإن الله - عز وجل - سيكفيه أمرهم، وكفى به سبحانه وتعالى وكيلا ومفوضا إليه[٥].

وما في الآية الكريمة من النهي والأمر لرسول الله- ﷺ - متوجه أيضا لجميع المسلمين؛ فالمسلمون منهيُّون عن طاعة الكافرين والمنافقين، ومأمورون بالتوكل على الله سبحانه؛ لأن من وكل إلى الله تعالى أحواله لم يحتجْ فيها إلى سواه، ومن فوض أموره إلى الله كفاه[٦].

هذا هو ما يحمله النص من معنى – كما قرره أهل العلم – أما خصائصه البلاغية فها هي ذي :

بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس ، الأنصاري الأوسي ، شهد العقبة ، وبدراً ، وأحداً .
ينظر : أسد الغابة (٥ / ٢١٦) ، الإصابة ت (٨١٣٧) ، الاستيعاب ت (٢٤٨٥) .

(١) جد بن قيس بن صخر بن خنساء بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة =الأنصاري السلمي، وكان ممن يظن فيه النفاق، وقيل: إنه تاب، وحسنت توبته، وتوفي في خلافة عثمان رضي الله عنه.
ينظر: أسد الغابة (٥٢١/١)، الإصابة ت (١١١٣)، الاستيعاب ت (٣٥٥).

(٢) الكشاف : (٥١٩/٣)

(٣) ينظر السابق .

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (٢٠١/١٤، ٢٠٢)، فتح القدير (٢٨٨/٤، ٢٨٩)، تفسير ابن عطية (٨٢/١٢)، الدر المصون (٣٩٤/٤)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢٣١/٤)، الكشاف (٥٤٧/٣)، تفسير أبي السعود (٣٢٦/٤)، اللباب (٥٦٣/١٥) ، تفسير القرآن الكريم (٤٣٢٢/١١) التحرير والتنوير (٥٨/٢٢، ٥٩).

(٥) ينظر: المراجع السابقة.

(٦) ينظر: دراسات في التفسير، (١٢٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يشير العلامة شرف الدين حسين بن محمد الطيبي إلى أن استخدام الفعل «دَعْ» بصيغة الأمر كما في قوله- تعالى-: ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ هو أحسن الاستخدامات لهذا الفعل؛ حيث ينبه إلى أن من الألفاظ ما لو غُيِّر لانقلب قبحه حُسْنا، ويمثل لذلك بلفظة «وَدَعَ» وكيف أنها جاءت بشعة في قول أبي العتاهية[1]:

أَثْـرَوْا فلـم يُـدخِلوا قبـورَهُمُ   شيئًا مـن الثـروةِ الـتي جَمَعُـوا
وكـان مـا قَـدَّموا لأنفسِهم   أعظمَ نفعًا مـن الـذي وَدَعُـوا[2]

حيث استعملها ماضيا.

ثم انقلبت حسنة في قول أبي الطيب المتنبي[3]:

تَـشُقُّكم بقناهـا كـلُّ سَـلْهَبَةٍ   والضربُ يأخذُ منكم فوقَ ما يَدَعُ[4]

حيث جاءت مضارعا.

ثم قال معقبا على ذلك: «وأحسن منه استعمال التزيل: ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ على صيغة الأمر»[5].

والسر في جمال الاستعمال القرآني لاستخدام هذا الفعل بصيغة الأمر؛ أن هذه الصيغة هي الصيغة التي يتوافر فيها شروط فصاحة هذه اللفظة، حيث ذكر البلاغيون

---

(١) إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العنزي بالولاء، أبو إسحاق الشهير بأبي العتاهية، ولد سنة ١٣٠هـ، شاعر مكثر، سريع الخاطر، في شعره إبداع، كان ينظم المائة والمائة والخمسين بيتًا في اليوم، توفي في بغداد سنة ٢١١هـ.
ينظر: معاهد التنصيص (٢/٢٨٥)، لسان الميزان (١/٤٢٦)، تاريخ بغداد (٦/٢٥٠).

(٢) البيتان في شرح ديوان أبي العتاهية، (١٦٠).
وينظر: المثل السائر لابن الأثير، (١/٢٨٣)، والتبيان في علم المعاني والبديع والبيان (٤٧٨).

(٣) أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أبو الطيب المتنبي: الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي، له الأمثال السائرة ، والحكم البالغة، والمعاني المبتكرة، وفي علماء الأدب من يعده أشعر الإسلاميين، ولد بالكوفة في محلة تسمى «كندة» سنة ٣٠٣هـ، وتوفي سنة ٣٥٤هـ.
ينظر: وفيات الأعيان (١/٣٦)، معاهد التنصيص (١/٢٧)، لسان الميزان (١/١٥٩).

(٤) ينظر: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، للشيخ اليازجي (٢/٣٢٢)، التبيان في علم المعاني، والبديع، والبيان، (٤٧٨).

(٥) التبيان في علم المعاني، والبديع، والبيان: (٤٧٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن: «علامة كون الكلمة فصيحة أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لها كثيرا أو أكثر من استعمالهم ما بمعناها»(١).

فإذا طبقنا ذلك على الفعل «دَعْ» ، وجدنا أن النحاة يقولون: إن العرب قد أماتوا ماضيه ومصدره(٢)، واستغنوا عنهما بما يؤدي معناهما، نحو: ترك، ومصدره الترك؛ فدل هذا على عدم فصاحة «وَدَعَ» في الكلام البليغ.

فإذا جئنا إلى صيغة المضارع «يَدَعُ» ، وما يؤدي معناها «يترك»، نجد أن الأولى هي التي حظيت بشرف الاستعمال في القرآن الكريم؛ مما يوحي بكمال فصاحتها في مقابل «يدع» التي لم تستخدم في القرآن البتة(٣) ،في حين استخدمت صيغة المضارع «يترك» و«نترك» و«تترك» في القرآن الكريم ست مرات في قوله- تعالى- : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٦] ، وقوله- تعالى-: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ ﴾ [هود: ٨٧]، وقوله- تعالى- : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ ﴾ [التوبة: ١٦]، وقوله- تعالى- : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤٦]،وقوله- تعالى-: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢].

وإذا كان الاستعمال القرآني يشهد لفصاحة «يترك» بالقياس إلى «يدع»، فإنه يشهد باستواء «دع» و«اترك» في الفصاحة، حيث نجد كلا منهما قد وردت في القرآن مرة واحدة(٤)، فجاء «اترك» في قوله- تعالى-: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان: ٢٤] ، وجاء «دع» في هذه الآية التي بين يدي ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ .

وقد اشتملت الآية الكريمة على ثلاث جمل طلبية جاءت في مقابل الجملة الخبرية التي اشتمل عليها قوله تعالى فيما سبق هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، (٢٨، ٢٩).

(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير (٥/١٦٦).

(٣) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (٧٤٧).

(٤) ينظر: السابق (١٥٤، ٧٤٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] ، حيث نعتت هاتان الآيتان رسول الله - ﷺ - بخمسة نعوت:

أحدها: أنه شاهد.

ثانيها: أنه مبشر(١).

ثالثها: أنه نذير.

رابعها: أنه داعٍ إلى الله تعالى بإذنه.

خامسها: أنه سراج منير.

ثم جاء قوله- تعالى- : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٧، ٤٨].

فقابل كلاً من هذه النعوت الخمسة بخطاب مناسب له ؛ فذكر الزمخشري «أن قوله: ﴿ شَٰهِدًا ﴾ قد قوبل بقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ لأنه ﷺ يكون شاهدًا على أمته، وأمته يكونون شهداء على غيرهم من الأمم، مصداقا لقوله- تعالى- : ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، وقوله: ﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] "(٢) ؛ فالرسول- ﷺ - شاهد لله

(١) والناظر في القرآن الكريم يجد أن الله تعالى أقام الحجة على عباده، وقطع عليهم الأعذار بإرسال الرسل لأداء وظيفتين:

الأولى: البشارة بالخير لمن استجاب لأمره سبحانه، واتبع الرسول.

الثانية: النذارة لمن أعرض، واتبع هواه بالحرمان من الخير والعذاب.

فالآيات القرآنية تقرر أن المقصود من بعثة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أن يبشروا الخلق على اشتغالهم بعبودية الله، وأن ينذروهم على الإعراض عن العبودية، فهذا هو المقصود الأصلي من البعثة إذا حصل هذا المقصود فقد كمل الغرض، وتم المطلوب، وهذا المقصود حاصل بإنزال الكتاب المشتمل على بيان هذا المطلوب.

وقد كثرت ألفاظ النذارة في القرآن الكريم، حيث بلغت ما يقرب من السبعين مرة، في حين أن ألفاظ البشارة لم تبلغ نصف هذا العدد حيث بلغت اثنتين وثلاثين مرة فقط؛ وذلك مناسب لطبيعة الدعوة وحال المدعوين، فالنفس دائما وأبدًا يهمها أن تفر من الشر، وأن تتجنب الأضرار التي ستلحق بها عاجلا أو آجلا.

ينظر: فتح الباري (٤/٤٠٢)، (١٣/٤١١)، مفاتيح الغيب (٥/٥٢٩)، شرح مسلم للنووي (١٠/١٣٢).

(٢) الكشاف (٣/٥٤٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بالوحدانية والألوهية، ويشهد على أمته فيما عملوا، وهو شاهد عليهم بالتبليغ وشاهد على سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم(١).

وذكر أبو السعود أن وصفه ﷺ بأنه «شاهد» يعني: الأمر بالمراقبة، وأنه لم يرد له مقابل فيما بعده من الجمل الطلبية؛ ثقة بظهور دلالة «المبشر» عليه، وهو الأمر بالتبشير في قوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ كأنه قيل: فراقب أحوال الناس، وبشر المؤمنين منهم ﴿ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ ، أي: على مؤمني سائر الأمم في الرتبة والشرف، أو زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والإحسان (٢).

وأولى مما ذكره الزمخشري، وأبو السعود ما ذكره الطاهر بن عاشور من أن قوله: ﴿ شَٰهِدًا ﴾ قد قوبل بقوله: ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ ؛ لأنه يقتضي أن يترك رسول الله ﷺ أذى هؤلاء الكافرين والمنافقين؛ ويكلهم إلى عقاب آجل، وذلك من معنى كونه ﴿ شَٰهِدًا ﴾ ؛ لأنه يشهد عليهم بذلك ؛ كقوله- تعالى- : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾(٣).

وجاء قوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ - أيضا - مقابلًا لقوله: ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾، وناظرًا إليه(٤).

ويجوز – أيضا – أن يكون قوله: ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ مقابَلًا بالإعراض عن الكافرين والمنافقين؛ «لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين، وهو مناسب للبشارة»(٥).

ويجوز – أيضا – أن يكون قوله: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ مقابلاً لقوله: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فيكون لَمّا أمره أن يتوجه إلَى المؤمنين بالبشارة ناسب ذلك أن يبين له موقفه من الفريق الآخر المعادي للمؤمنين، وهم الكفار والمنافقون؛ فحذره من موافقتهم فيما يسألونه، وعُلِم من مقابلة أمر التبشير للمؤمنين بالنهي عن طاعة

---

(١) ينظر: فتح القدير (٤/٢١٩)، تفسير القرطبي (١٤/٢٠٠)، الكشاف (٣/٥٤٦)، تفسير أبي السعود (٤/٣٢٥)، تفسير القرآن الكريم (١١/٤٣٢١، ٤٣٢٢)، التحرير والتنوير (٢٢/٥٢)، دراسات في التفسير (١٤٦) .

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٤/٣٢٥، ٣٢٦).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٥٨، ٥٩).

(٤) ينظر: السابق (٢٢/٥٩).

(٥) الكشاف (٣/٥٤٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكافرين والمنافقين أن هؤلاء الكافرين والمنافقين هم متعلّق الإنذار من قوله: ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ ﴿ وَنَذِيرًا ﴾؛ لأن وصف ﴿ بَشِيرًا ﴾ قد أخذ متعلَّقه وهم المؤمنون؛ فصار قوله: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ ناظرًا إلى قوله: ﴿ نَذِيرًا ﴾[1].

وعلى هذا يكون النذير مقابَلًا بالنهي عن مداراة الكفار والمنافقين والمسامحة في إنذارهم[2].

ويجوز أن يكون قوله ﴿ نَذِيرًا ﴾ مقابَلًا بقوله: ﴿ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾؛ لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر - مع أنه لا بد من أن يكون للأذى عقاب عاجل أو آجل - فإن ذلك يدل على كونهم منذرين بهذا العذاب في المستقبل[3].

وجاء قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ناظرًا إلى قوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾؛ لأن المراد من أمره بالتوكل على الله تعالى: أن يعتمد عليه سبحانه في تبليغ الرسالة التي كلف بتبليغها، ويفوض التدبير إلى الله تعالى في كفايته شرَّ عدوه[4]، وفي هذا يقول أبو السعود: «قوبل الداعي إلى الله بإذنه بالأمر بالتوكل عليه؛ من حيث إنه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به»[5].

ويقول الزمخشري: «قوبل الداعي إلى الله بتيسيره بقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾؛ لأن من توكل على الله يَسَّر عليه كل عسير»[6].

وأما قوله- تعالى-: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾؛ فهو في مقابلة وصفه ﷺ بالسراج المنير؛ «لأن من أيده الله تعالى بالقوة القدسية، ورشحه للنبوة، وجعله برهانًا نيرًا، يهدي الخلق من ظلمات الغي إلى نور الرشاد – حقيق بأن يكتفي به عن كل ما سواه»[7]، وفي

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٥٨).
(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٤/٣٢٦).
(٣) ينظر: الكشاف (٣/٥٤٧).
(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٥٨، ٥٩).
(٥) تفسير أبي السعود (٤/٣٢٦).
(٦) الكشاف (٣/٥٤٧، ٥٤٨).
(٧) تفسير أبي السعود (٤/٣٢٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا يقول الزمخشري: «قوبل السراج المنير بالاكتفاء به وكيلًا؛ لأن من أناره الله برهانا على جميع خلقه، كان جديرا بأن يكتفي به عن جميع خلقه»[١].

وبهذه الوجوه من الترابط بين قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ...﴾ الآية ، وما قبله من الآيات، يتضح بعض جوانب الإعجاز في النص القرآني الكريم، وإحكام بنائه.

ومن خلال ما سبق يتضح أن قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ...﴾ الآية - بما اشتمل عليه من جمل طلبية - قد جاء في سبيل تحقيق ما سبقه من أوصاف النبي - ﷺ - ؛ حيث دلت الآيات التي تقدمت هذه الآية على أنه ﷺ قد أرسل شاهدًا على الناس، يشهد عليهم بما عملوا، ويشهد لله تعالى بالوحدانية، وأنه مبشر لمن آمن بالجنة، ومنذرٌ من كفر ونافق النارَ، وهو ﷺ داعٍ إلى طريق الحق طريق الله تعالى ودينه وتقواه، لا يطلب بذلك سلطانًا، ولا ملكًا، ولا مالًا، ولا غير ذلك من أغراض الدنيا، وهو بدعوته تلك وما يحمله للناس من النور والهداية إلى الطريق المستقيم يكون بمثابة السراج المنير الذي يضيء طريق البشر إلى الله سبحانه، فيفتح الله به أعينًا عميًا وآذانا صمًّا وقلوبًا غلفًا.

فكان لا بد في سبيل تحقيق ذلك كله، ألا يطيع ﷺ الكفار والمنافقين، وأن يعرض عنهم وعما يبذلونه من جهود ومحاولات من أجل إعاقة الدعوة، وإيقاع الأذى برسول الله ﷺ، وليكن اعتماد النبي ﷺ في ذلك - وفي أمره كله - على الله تعالى؛ فهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير والوكيل[٢].

وفي قوله - تعالى - : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ خروج على مقتضى الظاهر؛ حيثُ وضع المظهر موضع المضمر ؛ لأن قبله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ ؛ فكان يجوز استعمال المضمر بعده، فيقول: «وكفى به وكيلا»، لكنه عدل عن المضمر إلى المظهر؛ لتعليل حكم التوكل على الله تعالى، «وتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي»[٣]؛ وذلك لأن قوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ قد ورد تذييلا لقوله - تعالى - : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى

---

(١) الكشاف (٣/٥٤٨).
(٢) ينظر: دراسات في التفسير، (١٢٥).
(٣) تفسير أبي السعود (٤/٣٢٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ﱡﭐ ﭐﱠ ﴿ٱللَّهِ﴾ ؛ ليزيده تحقيقًا وتأكيدًا، وليجري مجرى المثل بزيادة تحقيق الكلام السابق عليه بعد تمامه وحسن السكوت عليه؛ على ما هو معروف من الأغراض البلاغية للتذييل(١).

وقد نبه الطاهر بن عاشور على أن التذييل في هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ قد جاء في مقابلة قوله- تعالى- : ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، فقال: وأما قوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، فلم يذكر له مقابل في هذه المطالب(٢)، إلا أنه لما كان كالتذييل للصفات(٣) ناسب أن يقابله ما هو تذييل للمطالب، وهو قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(٤).

وذكر المفسرون في قوله- تعالى-: ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ أن الأذى يحتمل أن يكون مضافًا إلى مفعوله؛ فيكون المراد: اترك أذاك لهم، أي: عقابك إياهم على ما صدر عنهم في حقك، فلا تجازهم عليه؛ وعلى هذا تكون الآية منسوخة بآية السيف(٥).

ويحتمل أن يكون الأذى مضافًا إلى فاعله؛ فيكون المراد: اترك ما آذوك به، فلا تؤاخذهم حتى تؤمر، أي: دعه إلى الله؛ فإنه يعذبهم بأيديكم وبالنار(٦).

وعلى الاحتمال الأول يكون «دع» مستعملًا في حقيقته؛ لأن المطلوب حينئذ أن يدع أذاه إياهم، ولا مجاز في ذلك. وأما على الاحتمال الثاني فإنه يكون مستعملاً مجازًا في عدم الاكتراث وعدم الاهتمام بما يقولونه مما يؤذي، أي: لا تكترث بما يصدر منهم من أذى إليك؛ فإنك أجلُّ من الاهتمام بذلك. وهذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، وأكثر المفسرين اقتصروا على هذا الاحتمال الأخير(٧).

---

(١) ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة، (٣٠٠).

(٢) يعني: المطالب التي اشتملت عليها هذه الآية الكريمة، والآية التي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ ...﴾ إلخ.

(٣) يعني: الصفات الخمس التي أوردها الآيات للرسول ﷺ، والتي سبق الحديث عنها فيما مضى.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٥٩)، بتصرف يسير.

(٥) ينظر: اللباب (١٥/٥٦٣)، الدر المصون (٤/٣٩٤)، معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/٢٣١)، تفسير القرطبي (١٤/٢٠٢)، فتح القدير (٤/٢٨٨)، تفسير ابن عطية (١٢/٨٢)، الكشاف (٣/٥٤٧)، التحرير والتنوير (٢٢/٥٨)، دراسات في التفسير (١٢٧).

(٦) ينظر: المراجع السابقة، تفسير أبي السعود (٤/٣٢٦).

(٧) ينظر :التحرير والتنوير(٢٢/٥٨) بتصرف يسير.

_ وهم ابن عاشور حين جعل ذلك من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، فوجود احتمالين يكون اللفظ في أحدهما حقيقة وفي الآخر مجازاً ليس من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه –كما قرره-؛لأنه إذا كان حقيقة لم يكن مجازاً، وإذا كان مجازاً انتفت إرادة معناه الحقيقي ، حيث أن المجاز هو اللفظ المستعمل في غير معناه الحقيقي لقرينة مانعة من

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قولــه- تعالى- : ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ كنايــة وتعريض.

أما وجه الكناية، فإن المراد من قوله – عـــــز وجــل–: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ النهيُ عن مداراة الكافرين والمنافقين في أمر الدعوة، لكنه لم ينــهَ عــن ذلك صراحة، بل نهى عن طاعتهم؛ مبالغةً في الزجر والتنفير عن المداراة المنهي عنــها في الحقيقة بنظمها في سلك طاعة الكافرين والمنافقين وتصويرها بصورهما(١).

وأما وجه التعريض، فإنه مما لا شك فيه أن رســول الله ﷺ لا يطيــع الكــافرين والمنافقين، فهو ﷺ معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه، ويشيرون به عليه، ولكــن الله - عز وجل - قد توجه بالنهي إليه ﷺ تعريضًا لغيره من أمته؛ فلا يجوز لأحد منـــهم أن يطيع الكافرين والمنافقين فيما يريدون(٢).

إرادته ، أما اللفظ المستعمل في حقيقته ومجازه فإنه يكون مراداً به كلتيهما معاً ، كما سبق بيان ذلك .

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٤/٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) ينظر: دراسات في التفسير، (١٢٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث

بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في سياق التنفير منه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث

بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في سياق التنفير منه

يتناول هذا الفصل من الباب الثاني الحديث عن بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في سياق التنفير منه ، وذكر بعض أضراره ونتائجه وما يؤدي إليه من غضب الله تعالى أو ضرر بالمسلمين وجزاء من تسبب فيه وثواب من ابتعد عنه ، وسوف أحـــاول جاهدة أستعرض ما ورد في القرآن الكريم من آيات ورد فيها لفظ الأذى في نطاق هـــذا السياق وتحليلها وإبراز أسرارها البلاغية مستمدة العون من الله – تعالى – راجية منـــه السداد .

ومما ورد فيه لفظ الأذى في سياق التنفير منه قوله- تعـــالى-: M وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ ´ µ ¶ ¸ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ L [التوبة: ٦١].

لقد امتاز رسول الله- ﷺ - من كمال الخُلق بما لا يحيط بوصفه البيان، ومن كمـــال خُلُقه ما كان يتمتع به - صلوات الله عليه - من الحِلم، والعفو عند المقدرة، والصبر علـــى المكاره؛ فلم يكن ﷺ يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرا .

وقد اغتر بذلك جُهَّال المنافقين(١)؛ فلم يفهموا حلمه وعفوه ﷺ وظنوا أنهم قادرون على خداعه والتمويه عليه ، فراحوا يؤذون رسول الله- ﷺ - بالادعـــاءات الحقـــيرة، ويقولون فيه ما لا ينبغي، وقد خاف فريق منهم أن يصل ذلك إلى رســـول الله- ﷺ -،

---

(١) النفاق بالمعنى العام يدل على إظهار الإنسان خلاف ما يبطن في كل شيء، في العقيدة والـــسلوك والتـــصرفات والأحوال في جميع مجالات الحياة، وهو بذلك يتضمن الدخول في الإسلام ظاهرا وذلـــك بـــالنطق بالـــشهادتين والتظاهر بالإسلام، في حين أنه لا يؤمن به في باطنه، كما يتضمن كل تصرف من عمل وقول وسلوك ومعاملـــة في الحياة من شأنه أن يكون الظاهر فيه مخالفا للباطن في جميع أحوال الإنسان، من المعاملات والمحاورات والمشاعر والعواطف والانفعالات... إلخ.

ينظر:رسالة النفاق والمنافقون (١/١١، ٢١-٢٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقالوا: لا تفعلوا؛ فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون؛ فيقع بنا، فقال الجلاس بن سويد[(١)]: «نقول ما شئنا، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإنما محمد أُذُن سامعة!»؛ فنزلت هذه الآية.

وقيل : نزلت هذه الآية في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث [(٢)]،وكان نبتل هذا ينمّ حديث رسول الله- ﷺ - إلى المنافقين، «فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أذن؛ فمن حدثه شيئا صدقه، فنقول ما شئنا، ثم نأتيه فنحلف له، فيصدقنا؛ فنزلت الآية»[(٣)] وهناك روايات غير هذه [(٤)].

وأياً كان السبب فهذه الآية تفضح المنافقين بما صدر عنهم من القول الشنيع في رسول الله ﷺ، وتنتصر للرسول ﷺ، وتعلي شأنه، وتردُّ ما قيل فيه من كذب وافتراء.

فقد أَطْلعت الآية رسول الله- ﷺ - على ما يدعيه عليه هؤلاء المنافقون الضالون من أنه - صلوات الله عليه - أُذُن يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد، فلا ذكاء له ﷺ، ولا بُعْدَ غَوْر، بل هو سليم القلب، سريع الاغترار بكل ما يسمع[(٥)].

ويرد الله - عز وجل - تلك الادعاءات والتُّرَّهات، فيثبت أن رسول الله ﷺ سمَّاع وأذن في الخير والحق، وفيما ينبغي سماعه وقبوله، لا في غير ذلك[(٦)]؛ فهو ﷺ خير من يستمع القول، فيقدره ويزنه وينزله منزلته، فالحق عنده مقبول، والباطل مرفوض، فالله وليه، وهو سبحانه يتولى الصالحين الذين يصدقون رسول الله ﷺ، ويعادون من يكذبه، ويعلمون بيقين أن رسول الله ﷺ أذنُ خيرٍ يصدق المؤمنين، ويثق في مشورهم، ويَحْذَر

---

(١) الجلاس بن سويد بن الصامت بن خالد بن عطية بن خوط بن خبيب بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي، ثم من بني عمرو بن عوف، له صحبة، وله ذكر في المغازي، وكان الجلاس منافقًا، فتاب، وحسنت توبته.
ينظر: أسد الغابة (٥٤٨/١)، الإصابة (ت: ١١٧٩)، الاستيعاب (ت: ٣٥٤).

(٢) نبتل بن الحارث بن قيس بن زيد بن ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف ، الأنصاري الأوسي، وقد ذكره ابن الكلبي ثم البلاذري في المنافقين ، ينظر : الإصابة (٦ / ٣٢٩) .

(٣) ينظر: أسباب النزول للواحدي، (١٧٧_ ١٧٨) ، تفسير القرطبي (١٩٢/٨) .

(٤) ينظر : لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (١٥٥) ، تفسير الطبري (٦ / ٤٠٥) ، تفسير البغوي (٢ / ٣٠٦) ، تفسير أبي السعود (٢ / ٥٦٨) ، الكشاف (٢ / ٢٨٤) ، اللباب (١٠ / ١٢٨) ، الدر المنثور (٣ / ٤٥٣) ، التحرير والتنوير (١٠ / ٢٤١) .

(٥) ينظر: اللباب (١٢٩/١٠)، الكشاف (٢٨٤/٢)، نظرات في كتاب الله (٥٧١/١).

(٦) ينظر: تفسير أبي السعود (٥٦٨/٢)، الكشاف (٢٨٤/٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكفار والمنافقين[1].

وإذا كان هذا هو محتوى الآية الشريفة وفق ما ذكره أهل العلم ، فإن خصائصها البلاغية تتجلى في الآتي :

ورد في الآية الكريمة التعبير باسم الموصول ثلاث مرات: في قوله- تعالى- : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾.

أما في الموضع الأول فيراد به جماعة المنافقين الذين آذوا رسول الله ﷺ: كالجلاس ابن سويد، وغيره ، وعبر عنهم باسم الموصول؛ لبيان قبيح فعلهم، وذمهم بمضمون الصلة، وفيه صيانة للّسان عن التلفظ بأسماء هؤلاء الضالين الذين اجترءوا على هذا الإثم العظيم بإيذاء رسول الله ﷺ ؛ فكان في العدول عن التصريح بأسمائهم إلى التعبير عنهم بالموصول تهجينٌ لهم، وتقبيح لشأنهم، وإيماء إلى ما أعده الله لهم من العذاب الأليم المشار إليه في آخر الآية بقوله- تعالى- : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

وأما في الموضع الثاني، فيراد به من أظهر الإيمان من المنافقين؛ بدليل قوله – تعالى- : ﴿ مِنكُمْ ﴾، وعبر عنهم بالموصول وصلته؛ ثناء عليهم ومدحًا لهم بوصف الإيمان، وفيه إيماء إلى مدى رحمة الرسول ﷺ بهم وشفقته عليهم، حيث يعاملهم بظاهر أقوالهم، ولا يهتك سترهم أو يفضح أسرارهم.

وأما في الموضع الثالث فيراد به المنافقون الذين تكرر منهم الإيذاء لرسول الله ﷺ، وعبر عنهم – أيضا – بالموصول وصلته؛ لذمهم وتحقيرهم بمضمون الصلة، وإيماءً إلى ما أعد لهم من العذاب الأليم الذي توعدهم به الله تعالى بقوله: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ؛ كما أن في الموصول أيضا إيماءً إلى أن علة العذاب هي الإيذاء، فالعلة مركبة[2].

وجاء التعبير عن النبي ﷺ في قوله - تعالى- : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، «بعنوان الرسالة، مضافا إلى الاسم الجليل؛ لغاية التعظيم، والتنبيه على أن أذيته راجعة إلى جنابه – عز وجل – موجبة لكمال السخط والغضب»[3]؛ فيكون في

---

(١) ينظر: نظرات في كتاب الله (١/٥٧١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٤٤)، تفسير أبي السعود (٢/٥٦٩).

(٣) تفسير أبي السعود (٢/٥٦٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا إيماء إلى العلة التي من أجلها استَحق من يؤذي النبيَّ- ﷺ - العذابَ الأليم؛ فهو من قبيل تعليق الحكم بالمشتق، المؤذن بالعِلّية(١)؛ أي إن علة عقابهم بهذا العذاب الأليم هي اعتداؤهم بالإيذاء على رسولٍ قد جاء من قبل الله تعالى بما له من عظمة وعلو، والتعدي على رسوله العظيم وإيذاؤه يستوجب العذاب الأليم لا محالة.

وقد عبرت الآية الكريمة عن وقوع الإيذاء عليه ﷺ من المنافقين بالجملة الفعلية التي فعلها مضارع، في قوله - تعالى-: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ ﴾، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ لأن ما في الفعل المضارع من الدلالة على التجدد والاستمرار، يدل على أن إيذاء هؤلاء المنافقين لرسول الله ﷺ ما زال مستمرا يتجدد حينا بعد حين، وهو ما يستوجب أخذ الحذر منهم، ويومئ إلى أن استمرارهم في إيذائه ﷺ هو ما يوجب لهم العذاب الأليم الذي توعدهم الله به، أما إن تابوا وأصلحوا وأقلعوا عن إيذائهم له ﷺ، فإن هذا ينجيهم من الوقوع تحت طائلة هذا العذاب، وفي هذا يقول أبو السعود: « ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ بما نقل عنهم من قولهم: هو أذن، ونحوه، وفي صيغة الاستقبال المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه إشعارٌ بقبول توبتهم؛ كما أفصح عنه قوله- تعالى- : ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ٧٤]»(٢).

وأسندت الآية الإيمان إلى من أظهر إيمانه من المنافقين بصيغة الفعل في قوله- تعالى-: ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ ، في حين نسبت الإيمان إلى غيرهم بصيغة اسم الفاعل في قوله- تعالى-: ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ لأن في التعبير بالفعل عن إيمان هؤلاء المنافقين ما يدل على أنه إيمان حادث ما له من قرار، وأما التعبير باسم الفاعل عن إيمان غير المنافقين ففيه دلالة على رسوخ إيمانهم واستمراره(٣).

وعدّى الفعل «يؤمن» باللام في قوله: ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ للتفريق بين الإيمان المشهور، وهو إيمان الأمان من الخلود في النار، الذي هو مقتضى الكفر بالله؛ فإنه يعدى بالباء؛ حملا للنقيض على النقيض؛ فيقال: «آمن بالله» – وبين الإيمان بمعنى

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٤٤).
(٢) تفسير أبي السعود (٢/٥٦٩).
(٣) ينظر: السابق، الصفحة نفسها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

التصديق والتسليم والقبول؛ فإنه يعدى باللام، مثل: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا ﴾ [يوسف: ١٧]، أي: بمصدق [(١)].

وفي هذا يقول الزمخشري: «فإن قلت: لم عُدِّي فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى، وإلى المؤمنين باللام ؟

قلت: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به، فعدِّي بالباء ، وقصد السماع من المؤمنين، وأن يسلّم لهم ما يقولونه ويصدقه؛ لكونهم صادقين عنده ؛ فعدِّي باللام؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧] ما أنباه عن الباء، ونحوه ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ ﴾ [يونس: ٨٢]، ﴿ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١]، ﴿ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡ ﴾ [طه: ٧١] »[(٢)].

وإيمانه ﷺ للمؤمنين يعني: تصديقهم فيما يخبرونه؛ لأن إيمانهم وازع لهم عن أن يخبروا رسول الله ﷺ بالكذب ؛ فيكون الرسول ﷺ محقًّا في تصديقهم ؛ لأنهم صادقون لا يكذبون، والرسول ﷺ كما أنه لا يؤاخذ أحدا بخبر الكاذب ، فهو يعامل الناس بشهادة المؤمنين، فقوله تعالى: ﴿ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ ثناء عليه ﷺ ، ولا ينبغي أن يكون قدحا فيه ،كما حاول المنافقون أن يجعلوه كذلك[(٣)].

وتشترك الآية الكريمة مع ما سبقها وما لحقها من الآيات في بيان أخلاق المنافقين؛ حيث أظهر الله – عز وجل – وجوه كفر هؤلاء المنافقين التي كانوا يسروها؛ لتكون حجة للرسول ﷺ، وليترجروا ؛ فقال تعالى: ﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة: ٥٨]، ﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾ [التوبة: ٦١]، ﴿ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦] إلى غير ذلك مما كان يخفيه هؤلاء المنافقون ويضمرونه، وأظهره الله لنبيه ﷺ آية على نبوته، ودليلا على

---

(١) ينظر: الكشاف (٢/٢٨٥)، روح البيان (٣/٤٥٦)، التحرير والتنوير (١٠/٢٤٣)، تفسير أبي السعود (٢/٥٦٨).

(٢) الكشاف (٢/٢٨٥).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٤٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

رسالته(١).

وقد وضع المُظْهَـر موضع المُضْمَر في قوله - تعـالى-: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾ ؛ حيث عبر عن النبي ﷺ بالاسم الظاهر «النبي» في مقام الإضمار؛ لأن قبله ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾ [التوبة: ٥٨]، فلو جرى على هذا السياق؛ لقيل: ومنهم الذين يؤذونك، لكنه عدل عن الإضمار إلى الإظهار؛ ليؤذن بشناعة قولهم، ويزيد من التنزيه للنبي ﷺ بالثناء عليه بوصف النبوة؛ بحيث لا تُحكَى مقالتهم فيه إلا بعد تقديم ما يشير إلى تنزيهه والتعريض بجرمهم فيما قالوه(٢).

وعطف قوله - تعالى-: ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ على قولـه: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ ﴾ من قبيل عطف الخاص على العام(٣) ؛ لأن قول هؤلاء المنـافقين: ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ مجرد نوع من أنواع إيذائهم للنبي ﷺ ، وفيه تخصيص لبشاعة هذه المقالة منهم وشناعتها؛ حيث خصها الله تعالى بالتنبيه عليها نصًّا ، في حين عبر عن غيرها من وجوه الإيذاء إجمالا.

وللتأكيد على شناعة هذا الافتراء على رسول الله ﷺ تَعَدَّدَ الرد عليـه في الآيـة الكريمة؛ فبدأ أولًا بقلب الدعوى الصادرة عنهم إلى ضدها(٤) ؛ فقال - تعـالى-: ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ ، وهي جملة «مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا على طريقة المقاولة والمحاورة؛ لإبطـال قـولهم بقلب مقصدهم؛ إغاظة لهم وكمدًا لمقاصدهم ، وهو من الأسلوب الحكيم ، الذي يَحْمِل فيه المخاطَب كلامَ المتكلم على غير ما يريده؛ تنبيها له على أنه الأَوْلى بأن يراد، ومنه ما جرى بين الحجاج(٥) والقبعثرى؛ إذ قال له الحجاج متوعدًا إياه: لأحملنك على الأدهم – أراد: لألزمنك القيد لا تفارقه - فقال القبعثرى: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب، فصرف مراده إلى أنه أراد بالحمل معني الركوب، وإلى إرادة الفرس الذي هو

---

(١) ينظر: اللباب (١٠/١٢٩).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٤١).
(٣) ينظر: السابق ، الصفحة نفسها.
(٤) ينظر: البيان في روائع القرآن، (٢٨٤).
(٥) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد، قائد داهية، خطيب مفوه، ولد سنة أربعين، ونشأ في الطـائف، وانتقل إلى الشام، وأول من بنى مدينة بعد الصحابة في الإسلام، وأول من اتخذ المحامل، توفي سنة خمس وتسعين.
ينظر: وفيات الأعيان (١/١٢٣)، تهذيب التهذيب (٢/٢١٠)، الكامل لابن الأثير (٤/٢٢٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أدهم اللون من كلمة الأدهم»(١).

وفي هذا القلب للدعوى دلالة على غَيْرة الله – عز وجل – على نبيه ﷺ ؛ حيث لم يكتفِ بمجرد زجر هؤلاء المنافقين المؤذين، بل أبطل زعمهم من أصله، بصرف مقالتهم إلى معنى لائق برسول الله ﷺ ؛ حتى لا يبقى بعد ذلك أثر لدعواهم وما حكوه من القول والافتراء، وهو من لطائف القرآن(٢).

ثم كان الرد على هؤلاء المنافقين - ثانيا - بعد قلب دعواهم ، هو الوعيد، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ؛ إنذارًا لهم بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا(٣).

وعبرت الآية الكريمة عن افتراء المنافقين على رسول الله ﷺ بصيغة التشبيه البليغ ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ ؛ حيث شبهوه ﷺ بالأذن الجارحة التي هي آلة السماع، ووجه الشبه الذي زعموه وخيلته لهم عقولهم المريضة: أن كلًّا منهما يتلقى المسموعات لا يرد منها شيئًا؛ فيكون في هذا إيحاء بتصديقه ﷺ لكل ما يسمع بلا تمييز بين المقبول وغيره(٤).

يقول الزمخشري: «الأذن: الرجل الذي يصدق كل ما يسمع، ويقبل قول كل أحد، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع؛ كأن جملته أذن سامعة، ونظيره قولهم للربيئة(٥): عين»(٦).

وقد أبطلت الآية دعواهم بنوع من المجاز المرسل(٧) أيضا بعلاقة الإطلاق والتقييد،

---

(١) التحرير والتنوير (١٠/٢٤٢).
(٢) ينظر: السابق، الصفحة نفسها.
(٣) ينظر: البيان في روائع القرآن، (٢٨٤).
(٤) ينظر: الكشاف (٢/٢٨٤) ، اللباب (١٠/١٢٩) ، التحرير والتنوير (١٠/٢٤٢) .
(٥) الربيئة: هو من يتقدم الجيش ونحوه؛ ليستطلع لهم الأمر.
ينظر: لسان العرب (٣/١٥٤٥).
(٦) الكشاف (٢/٢٨٤).
(٧) المجاز المرسل يختلط عند كثير من الدارسين بالاستعارة، وقد بين الإمام عبد القاهر الفرق بين هذين الضربين من المجاز، فرأى أن ما كانت علاقته المشابهة كان من الاستعارة، وما كانت علاقته غير المشابهة يطلق عليه المجاز، دون أن يطلق عليه المجاز المرسل، فهذا الإطلاق من مصطلحات المتأخرين.
وقد أشار المغربي إلى سر تسميته بالمجاز المرسل؛ وأنه سمي بذلك لإرساله، أي: إطلاقه عن التقييد بعلاقة المشابهة، فصح جريانه في عدة من العلاقات.
يقول عبد القاهر في تحرير الفرق بين الضربين: «إن المجاز أعم من الاستعارة، وإن الصحيح من القضية في ذلك أن كل استعارة مجاز، وليس كل مجاز استعارة؛ وذلك أنا نرى كلام العارفين بهذا الشأن – أعني: علم

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

حيث أخبرت أنه ﷺ ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ ؛ فأُبطل بذلك أن يكون ﴿أُذُنُ﴾ بالمعنى الذي زعموه من الذمّ له صلى الله عليه وعلى آله وسلم فحاشى له من عيب العائب وطعن الثالب ، وقال عنها الشريف الرضي بأنها استعارة لأن النبي -عليه السلام- ليس بأذن على الحقيقة [1] ، ويبين ذلك الطاهر بن عاشور فيقول: «فإن الوصف بالأذن لا يختص بمن يَقبل الكلام المفضي إلى شر، بل هو أعم ؛ فلذلك صح تخصيصه هنا - يعني: في قوله تعالى: ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ - بما فيه خير، وهذا إعمال في غير المراد منه، وهو ضرب من المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد في أحد الجانبين؛ فلا يشكل عليك بأن وصف ﴿أُذُنُ﴾ إذا كان مقصودًا به الذم، كيف يضاف إلى الخير؛ لأن محل الذم في هذا الوصف هو قبول كل ما يسمع مما يترتب عليه شر أو خير بدون تمييز»[2].

ويندرج قوله - تعالى-: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تحت ما أسماه البلاغيون القول بالموجب [3]، وهو : حمل لفظ وقد

الخطابة ونقد الشعر-، يجري على أن الاستعارة نقل الاسم عن أصله إلى غيره؛ للتشبيه على المبالغة».

وكأنه يشير بذلك إلى أن المجاز المرسل دون الاستعارة في البلاغة إجمالا؛ لأنك تبني كلامك على إبراز علاقة ما بين اللفظ الذي وقع فيه المجاز وبين حقيقته، وقد حاول المتأخرون تحديد هذه العلاقات، وهي في جملتها لا يمكن الاقتناع بها؛ فالخطيب القزويني يذكر علاقات ثمانية للمجاز المرسل، وابن الأثير ينقل عن أبي حامد الغزالي أنها أربع عشرة علاقة، ويرى ابن الأثير بعد هذا النقل أن أكثرها يدخل بعضها في بعض، ويذكر السيوطي والزركشي غير هذا، وهي عند السبكي تزيد على ثلاثين علاقة.

ينظر: شروح التلخيص (٣١/٤) وما بعدها، أسرار البلاغة (٣١٩) وما بعدها، الإتقان للسيوطي (٣٦/٢)، وما بعدها، المثل السائر (٥٧/١، ٦٣)، الإشارة إلى الإيجاز لعز الدين عبد السلام (٢٨)، الطراز للعلوي (٦٨/١)، الصناعتين (١٥)، الإيضاح مع البغية (٩٠/٣) وما بعدها ، البرهان في علوم القرآن للزركشي (٢٩٩/٢) .

(١) يُرجع إلى: تلخيص البيان في مجازات القرآن للاستزادة (٧٢) ومابعدها .

(٢) التحرير والتنوير (٢٤٢/١٠، ٢٤٣).

(٣) القول بالموجب هو : حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه ، ويسمى (الرجوع) على حد قول الشاعر:

وإخوان حسبتهمُ دروعًا ... فكانوها ولكنْ للأعادي

وخلتهمُ سهامًا صائباتٍ ... فكانوها ولكن في فؤادي

وقالوا قد صفت منا قلوبٌ ... لقد صدقوا ولكن من ودادي

الأبيات من بحر الوافر لابن الرومي،وهي في ديوانه (٨٠٩/٢)، الإيضاح في علوم البلاغة، (٣١٨)، التبيان في علم المعاني والبديع والبيان (٣٩٢).

ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة (٣١٧)،و الإتقان للسيوطي(١٣٧/٢)، بديع القرآن لابن أبي الإصبع(٣١٤)، معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٣٥٠/١)، تحرير التحبير لابن أبي الإصبع(٥٩٩)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أطلق الطيبي[١] على هذا رجوعًا، فقال: «الرجوع، وهو أن يُذْكَر شيء، ثم يُرْجَع عنه، كقولهم: (ما معه من العقل شيء، بلى مقدار ما يوجب الحجة عليه...)، ومنه قوله -تعالى-: ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كأنه قيل: نَعَمْ هو أذن، ولكن نِعْمَ الأذن، أي: هو أذن كما قلتم إلا أنه أذن خير، لا أذن سوء؛ فَسُلِّم لهم قولهم فيه، إلا أنه فُسِر بما هو مدح له، وإن كانوا قصدوا به المذمة، ولا شيء أبلغ في الرد من هذا الأسلوب؛ لأن فيه إطماعًا في الموافقة، وكرًّا إلى إجابتهم بالإبطال، وهو كالقول بالموجب في الأصول»[٢] ، وهو من ألوان الجدل القرآني [٣].

ومما جاء فيه لفظ الأذى في سياق التنفير منه ، قوله- تعالى-: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقد تعددت الروايات في سبب نزول هذه الآية، ومما جاء في ذلك:

---

(١) تم التعريف به سابقا (   ) .

(٢) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان للطيبي (٣٩٢-٣٩٣) وينظر: التحرير والتنوير (٢٤١/١٠).

(٣) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (٣٤٩/١-٣٥٠) ، من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي (٢٨١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ما روي عن رسول الله ﷺ أنه لما تزوج زينب بنت جحش[1] أولم عليها بتمر وسويق[2] وشاة، وأمر أنسًا أن يدعو بالناس ؛ فترادفوا أفواجًا ، يأكل فوج فيخرج ثم يدخل فوج، إلى أن قال: يا رسول الله، دعوت حتى ما أجد أحدًا أدعوه، فقال: ارفعوا طعامكم، وتفرق الناس وبقي ثلاثة نفر يتحدثون فأطالوا، فقام رسول الله ﷺ ليخرجوا، فانطلق إلى حجرة عائشة – رضي الله عنها – فقال: «السلام عليكم أهل البيت»، فقالوا: عليك السلام يا رسول الله، كيف وجدت أهلك؟ وطاف بالحجرات فسلم عليهن ودعون له، ورجع فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون، وكان رسول الله ﷺ شديد الحياء، فتولى، فلما رأوه متوليًا خرجوا، فرجع ﷺ، ونزل قوله - تعالى -: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ... ﴾ الآية[3]

وفي رواية أخرى أن رجلا من سادة قريش قال: لو توفي رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة ،فأنزل الله - تعالى- قوله: ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ ﴾[4].

هذا بعض ما روي من أسباب النزول ، أما مضمون هذا القول الكريم فيتمثل في جملة من الآداب التي يجب على المؤمنين الالتزام بها عند دخولهم بيوت رسول الله ﷺ، وعند تناولهم طعامه، ومدة انتظارهم عنده قبل الطعام وبعده، وهي جميعها آداب ليست

---

(١) زينب بنت جحش الأَسَدية أم المؤمنين: لها أحدَ عشرَ حديثًا، اتفق البخاري ومسلم على حديثين. روى عنها ابن أخيها محمد بن عبد الله، وزينب بنت أبي سَلَمَة. قالت عائشة: ما رأيت امرأة قط خيرًا في الدين والتُّقى، وأصدق حديثا، وأوصل للرحم - منها. وكانت أول نسائه- ﷺ - موتًا، وهي أول من وُضِع على النعش في الإسلام. ماتت سنة عشرين.

ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣/٣٨٢)، أسد الغابة (٧/١٢٥)، الإصابة (٧/٦٦٧).

(٢) السويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير.

ينظر: المعجم الوسيط (١/٤٦٥)، لسان العرب (٣/٢١٥٦).

(٣) أخرجه البخاري (٩/٤٨٣، ٤٨٤) كتاب التفسير (٤٧٩٣)، ومسلم (٢/١٠٤٨) كتاب النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش (٨٩/١٤٢٨)، الترمذي (٥/٢٧٠، ٢٧١) أبواب التفسير، باب: ومن سورة الأحزاب (٣٢١٨، ٣٢١٩)، وأحمد (٣/١٠٥، ١٦٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٧١) من طرق عن أنس بن مالك .

(٤) أسباب النزول للواحدي ،(٢٥٦ – ٢٥٧).

وهناك روايات أخرى في سبب النزول يرجع إليها في لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (٢٤٢-٢٤٣)، زاد المسير (٦ / ٤١٣) ، واللباب (١٥ / ٥٧٩) ، والكشاف (٣ / ٥٥٤) ، وتفسير القرطبي (١٤ / ٢٢٤)، ومعالم التنزيل للبغوي (٥ / ٢٧٢) ، تفسير القرآن الكريم (١١ / ٤٣٣٣) ، دراسات في التفسير (١٣٧) وما بعدها ،تفسير أبي السعود(٤/٣٣٠)،تفسير ابن عطية(١٢/١٠٣)،التحرير والتنوير لابن عاشور(٢٢/٨٣)،وغيرها من كتب التفسير.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

خاصة ببيوت النبي ﷺ وحسب، وإنما هي آداب إسلامية عامة تسري في دخول جميع بيوت المسلمين وتناول طعامهم، على ما سيأتي.

كما يتمثل في الآداب التي ينبغي الالتزام بها في الحديث مع أمهات المؤمنين، وأكدت على تحريم إيذاء النبي ﷺ، ونكاح أزواجه من بعده .

وإذ انتهى الحديث عن المضمون بإيجاز ، فأول ما يطالع القارئ ما استهلت الآية الكريمة من خطاب المؤمنين بالتعبير عنهم باسم الموصول «الذين» في قوله- تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ؛ وذلك لما في مضمون الصلة من التذكير بالصفة التي تميزهم عن غيرهم، والتي هي مناط تشريفهم وتكريمهم، وهي كونهم مؤمنين مصدقين بالله تعالى ورسوله وما جاء به، ومن كانت هذه صفته فهو أهل لأن يستجيب لأوامر الله وتعاليمه التي سترد في الآية الكريمة: من عدم دخول بيوت النبي بدون إذن، وعدم إيذائه، أو تزوج أزواجه من بعده... إلخ.

وجاء «الطعام» المذكور في النهي عن دخول بيوت النبي ﷺ ﴿ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ نكرة؛ للدلالة على العموم والشمول؛ فإجابة الدعوة مشروعة في كل طعام، قل أو كثر، علت قيمته أم لا، وإذا أجاب المدعو الدعوة فعليه الالتزام بآدابها مطلقًا مهما كان نوع الطعام.

وكذلك يفيد تنكير كلمة «حديث» في قوله - تعالى-: ﴿ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ العموم والشمول ؛ للدلالة على امتناع المكث عند الداعي بعد انتهاء تناول الطعام مطلقًا مهما كان نوع الحديث الذي يخوض المدعُوُّون فيه، ما دام ذلك يثقل على الداعي.

ويجوز أن يكون التنكير للتقليل، أي: أنه لا يجوز المكث من أجل الحديث مهما قل هذا الحديث؛ لأنه إذا كان ينتج عن سماع هذا الحديث أذى فهو ممنوع ،وإن كان قليلاً .

وورد الخطاب في الآية باسم الإشارة الذي للبعيد ثلاث مرات ﴿ ذَٰلِكُمۡ ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ ﴾، وقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ودلالة البعد في اسم الإشارة هنا تؤذن ببُعْد منزلة الأمور المشار إليها في المواضع الثلاثة، وهو في الموضعين الأول والثالث بُعْد منزلة في الشر والفساد؛ للتأكيد على مدى بشاعة وإنكار هذه الأمور التي يترتب عليها إيذاء النبي ﷺ: من الإثقال عليه في بيته الذي يحول بينه وبين التفرغ لشئون النبوة: من تلقي الوحي، أو العبادة، أو تدبير أمر الأُمة، أو التأخر عن الجلوس في مجلسه لنفع المسلمين، ولشئون ذاته، وبنيه وأهله[1].

وكذلك بُعْد منزلة التزوج بأزواجه من بعده في الشر والفساد[2] ؛ لما في ذلك من إلحاق الأذى به ﷺ ؛ إذ افتراش حليلة المرء مما يسيء إليه ، كما أن في التزوج منهن تزويجًا للمرء بأمه، وهو شنيع في العقل والطبع.

وأما دلالة البُعْد في الموضع الثاني - وهو قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ - فهي الإيذان ببعد منزلة الحجاب في السمو والرفعة؛ إذ هو طهارة للقلب - ما بعدها طهارة - من وساوس الشيطان وتحريك الشهوات ؛ لأن العين هي نافذة القلب التي تطلعه على الشهوات وتحرك فيه الرغبات، فإذا رأت العين تحركت هذه الشهوات والرغبات في القلب، وإلا فلا؛ لذلك كان في الحجاب نقاء القلوب وطهارتها.

واسم التفضيل ﴿أَطْهَرُ﴾ -هنا- ليس مرادًا به التفضيل، بل المراد به الدلالة على الزيادة مطلقًا؛ فيكون المعنى: إن الحجاب أقوى طهارة لقلوب الفريقين - وهم الصحابة وأمهات المؤمنين في الآية الكريمة - لأن قلوب الفريقين طاهرة بالتقوى، وتعظيم حرمات الله، وحرمة النبي ﷺ.

ولكن لما كانت التقوى لا تصل بهم إلى درجة العصمة، أراد الله أن يزيدهم منها بما يُكسب المؤمنين مراتب من الحفظ الإلهي من الخواطر الشيطانية؛ بقطع أضعف أسبابها، وبما يقرب أمهات المؤمنين من مرتبة العصمة الثابتة لزوجهن ﷺ؛ فإن الطيبات للطيبين[3]؛ قال- تعالى-: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦] ؛ فناسب ذلك أن تقطع الخواطر الشيطانية عن قلوب أزواجه ﷺ قطعًا باتًّا بقطع دابرها ولو بالفرض.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٨٦).
(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٤/٣٣٠ ، ٣٣١).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٩١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وفي قوله - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ أسلوب قصر، يخصص دخول بيوت النبي ﷺ بالإذن إلى الطعام، والذي أفاد هذا التخصيص هو النهي(١) والاستثناء بـ «لا»، و «إلا» وهو إحدى طرق القصر المشهورة(٢).

وهذا التخصيص إنما هو في شأن أولئك النفر الذين كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ؛ فيدخلون، ويقعدون منتظرين لإدراكه، ومعناه: لا تدخلوا يأيها المتحينون للطعام، إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه – أي: إدراكه ونضجه - وإلا فلو لم يكن لهؤلاء خصوصًا، لما جاز لأحد أن يدخل بيوت النبي ﷺ إلا أن يؤذن له إذنًا خاصًّا، وهو الإذن إلى الطعام فحسب(٣)، وقد كانت الإضافة في قوله-تعالى-: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ إضافة تشريف؛ لأنها لما نسبت للنبي تشرفت(٤).

وقد ضُمِّن الفعل «يُؤْذَن» في الآية الكريمة معنى الدعاء؛ يدل لذلك تعديته بـ «إلى»؛ وذلك للإشعار بأنه لا يجوز لهم أن يدخلوا إلى الطعام بدون دعوة وإن تحقق لهم الإذن في الدخول، فكأنه قيل: إلا أن تُدْعوا إلى طعام، فيؤذن لكم، وهو ما يدل على تحريم التطفل، وهو الذي تسميه العرب الصيفن(٥)؛ وذلك لأن الطفيلي قد يؤذن له إذا استأذن وهو غير مدعوّ؛ فلا يكون مسموحًا له بتناول الطعام؛ لأن الكلام قد تضمن شرطين هما: الدعوة والإذن، وقد فُقد أحدهما في حقه(٦).

وقد حمل بعضهم قوله: ﴿ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ على التقديم والتأخير؛ وجعل تقدير الكلام: «ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم»؛ وعلى هذا لا يكون في الآية منع من الدخول بغير إذن في غير وقت الطعام.

---

(١) والنهي في هذا السياق يقوم بدور النفي ؛ إذا المعنى قصر الدخول على حال الإذن ، فالاستثناء من عموم الأحوال، أي : لا تدخلوا في حال من الأحوال إلا حال الإذن .

(٢) ينظر: دراسات في علم المعاني، (١٣٨).

(٣) ينظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة (١٤٠/٢)، الكشاف (٥٥٤/٣)، تفسير القرطبي (٢٢٦/١٤)، اللباب (٥٨١/١٥)، البحر المحيط (٢٤٦/٧)، تفسير أبي السعود (٣٣٠/٤)، تفسير القرآن الكريم (٤٣٣٢/١١).

(٤) ينظر:صفوة التفاسير للصابوني (٥٤٠/٢)

(٥) ينظر: دراسات في التفسير، (١٣٨) .

(٦) ينظر: تفسير أبي السعود (٣٢٩/٤، ٣٣٠)، التحرير والتنوير (٨٢/٢٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد رُدَّ ذلك بأن التقديم والتأخير خلاف الأصل، وأن ما ذكره من التقدير لا يليق بتفسير الآية، والأَوْلَى أن الكلام على ترتيبه بلا تقديم أو تأخير، والمعنى: لا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام؛ فيكون الإذن مشروطًا بكونه إلى طعام، فإن لم يؤذن إلى طعام، فلا يجوز الدخول، فلو أذن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا الأكل طعام، لا يجوز[(١)].

وهذا - أيضًا- وجه من التفسير لا يليق بمعنى الآية، والأَوْلَى أن يقال: إن التخصيص بقوله: ﴿ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ ليس مرادًا به نفي ما عداه؛ لأنه إذا جاز دخول بيت المرء بإذنه لتناول الطعام، جاز دخوله بإذنه لغير تناول الطعام أيضًا؛ لأن غير الطعام قد يوجد مع الطعام؛ كأن يتكلم معه في حوائجه أو يعلمه مما عنده من العلوم مع تناوله للطعام، فإن رضي ربُّ البيت الداعي بالكل، فرِضَاه بالبعض أقرب إلى العقل؛ فيصير ذلك من باب: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣][(٢)].

وفي هذا يقول الطاهر بن عاشور: «ليس ذكر الدعوة إلى طعام تقييدًا لإباحة دخول بيوت النبي ﷺ، لا يدخلها إلا المدعو إلى طعام، ولكنه مثال للدعوة، وتخصيص بالذكر؛ كما جرى في القضية التي هي سبب النزول؛ فيلحق به كلُّ دعوة تكون من النبي ﷺ، وكلُّ إذن منه بالدخول إلى بيته لغير قصد أن يطعم معه؛ كما كان يقع ذلك كثيرًا»[(٣)].

وجيء بالفعل «يُؤْذَن»، على صيغة المبني للمفعول؛ للدلالة على أنه لا يشترط أن يصدر الإذن من الفاعل صراحة، بل يكفي في الإذن العلم بالرضا بالدخول؛ فحينئذ يجوز للإنسان أن يدخل وإن لم يتلَقَّ الإذن تصريحًا من رب البيت، فلو جاء رجل وعلم أنه لا مانع من دخول البيت، أو علم خلُوَّ الدار من الأهل، وأن شيئًا بداخلها يلزم الدخول من أجله: كإطفاء حريق ونحوه - جاز الدخول بدون إذن صريح، وفي معنى ذلك: المواضع المباحة التي يتخذها الناس للعبادة، أو للاشتغال بشغل ما؛ فيأتيهم الناس، ويطيلون المكث عندهم[(٤)].

---

(١) ينظر: اللباب (١٥/٥٨١، ٥٨٢)، تفسير الرازي (٢٥/٢٢٤).
(٢) ينظر: اللباب (١٥/٥٨٢).
(٣) التحرير والتنوير (٢٢/٨٢).
(٤) ينظر: اللباب (١٥/٥٨٢)، تفسير الرازي (٢٥/٢٢٤، ٢٢٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وكذلك يمكن أن يقال في مجيء الفعل «دُعِيتم» على صيغة المبني للمفعول أيـضًا؛ فيكون المراد حصول العلم بالدعوة والرضا بها وإن لم يكن ذلك بالتصريح مـن رب البيت.

وقوله- تعالى-: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ ﴾ جاء مؤكَّدًا بـ «إن»؛ تتريلًا لهذا الحكم مترلة حكم المشكوك فيه المحتاج إلى تأكيد؛ فأكده لإزالة الشك؛ وذلك لأن هؤلاء النفر الذين آذوا رسول الله ﷺ بطول المكث عنده، لم يكن عندهم أن مكثهم مؤذٍ لرسول الله ﷺ، ولا شعروا بأنه - عليه السلام - يكره ذلك، بل غفلوا عما في طـول مكثهم من الإيذاء له ﷺ، وكراهيته ذلك، وعدم تصريحه بكراهيته له؛ استحياء منـه ﷺ وتفضلاً. فلما كان هذا هو حال هؤلاء النفر، خوطبوا بهذا الخطاب المؤكد؛ تشديدًا في التحذير، وليستفيقوا من غفلتهم وسهوهم عما يؤذيه ﷺ وزيدت «كان» بين اسم «إنّ» وخبرها؛ لإفادة تحقيق هذا الخبر(١) ؛ فيزيد المعنى قوة وتأكيدًا(٢).

وجاء الفعل «يُؤْذِي» بصيغة المضارع، دون اسم الفاعل «مؤذيًا»؛ ليفيد أنـه أذى متكرر، والتكرير كناية عن الشدة(٣)؛ كما أن في التعبير بصيغة المـضارع استحـضارًا لصورة هذا الإيذاء، وهو ما يؤصل بشاعته في النفوس.

وكذلك صِيغ الفعلُ «يستحيي» بصيغة المضارع أيضًا؛ لأنه مفرع على «يـؤذي»؛ فجاء على صيغته؛ ليدل على ما دل عليه من التكرير والشدة(٤)؛ فيدل على شدة حيائه ﷺ، وأن ذلك عادته، فهو حييٌّ دائمًا يتكرر منه الحياء ما دام الأمر يتعلق بشخصه هو، وليس فيه تعدٍّ على حدود الله تعالى وشرعه؛ فقد كان ﷺ أشد الناس حياء وإغـضاء، لا

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٨٦).

(٢) هذا من خصائص «كان» دون سائر أخواتها: أن تزاد لتمنح المعنى الموجود في الكلام قوة وتأكيدًا، ولا يكون من شأنها إحداث معنى جديد، واشترط النحاة لزيادتها أن تكون بلفظ الماضي، وأن تقع بين شيئين متلازمين؛ كالمبتدأ والخبر، والفعل وفاعله أو نائبه، والعاطف والمعطوف عليه، و(ما) التعجبية وفعل التعجب، وهي إذا كانت زائدة لا تحتاج إلى منصوب.

ينظر: الجملة الاسمية، د. عبد المقصود محمد عبد المقصود،(١٤٠- ١٤٢)، دار الثقافة العربية، القاهرة، سنة ١٩٩٣ ، محاضرات في علم النحو، د. أبو السعود حسنين الشاذلي،(١٩٤-١٩٦) دار الثقافة العربية، القاهرة، سنة ١٩٩٣- ١٩٩٤م .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٨٦).

(٤) ينظر: السابق (٢٢/٨٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يخاطب أحدًا بما يكره[1]؛ لما يمتاز به ﷺ من الحياء وكرم النفس ؛ فهو كما وصفه أبو سعيد الخدري[2] – رضي الله عنه– : «كان أشد حياء من العذراء في خِدْرِها»[3].

وجاء قوله- تعالى-: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ على بناء الجملة الأسمية، مع أنه معطوف على جملة فعلية: ﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ ؛ وذلك للدلالة على أن كون الله - تعالى - لا يستحيي من الحق صفة ثابتة دائمة فيه تعالى؛ «لأن الحق من صفاته، فانتفاء ما يمنع تبليغه هو – أيضًا – من صفاته ؛ لأن كل صفة يجب اتصاف الله بها، فإن ضدها يستحيل عليه تعالى»[4].

وكما زيدت «كان» في قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾؛ زيدت أيضًا في قوله- تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك لتأكيد انتفاء الإذن، وهذه الصيغة من صيغ شدة التحريم؛ لما فيها من التأكيد بإقحام «كان»، والحظر المؤكد– أيضًا – ينفي الاستحقاق الذي دلت عليه اللام[5]في ﴿لَكُمْ﴾[6].

ومجيء (من) في الآية الكريمة: داخلة على الظرف في قوله- تعالى-: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾؛ مفيدة للابتداء لبيان موقع النهي ، فهو يبتدئ من

---

(١) ينظر: الرحيق المختوم (٤٤٥).

(٢) سعد بن مالك بن سنان – بنونين – ابن عبد بن ثعلبة بن عبيد بن خدرة – بضم المعجمة – الخدري، أبوسعيد، بايع تحت الشجرة، وشهد ما بعد أحد، وكان من علماء الصحابة، قال الواقدي: توفى سنة أربع وسبعين .
ينظر: الخلاصة (٣٧١/١)، تهذيب التهذيب (٤٧٩/٣)، التقريب (٢٨٩/١)، الكاشف (٣٥٣/١)، تاريخ البخاري الكبير (٤٤/٤).

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٩/١٠)، كتاب الأدب: باب من لم يواجه الناس بالعتاب (٦١٠٢)، ومسلم (١٨٠٩/٤)، كتاب الفضائل: باب كثرة حيائه ﷺ (٢٣٢٠/٦٧).

(٤) التحرير والتنوير (٨٨/٢٢).
هذا ما رآه ابن عاشور ، ولكن ذلك غير صحيح ؛ لأن الخبر فعل مضارع ، وهو يدل على نفي الاستحياء المتجدد تجدداً استمرارياً ، وقد قدم المسند إليه على المسند الفعلي لتأكيد نفي الاستحياء على الوجه المذكور .

(٥) تنظر معاني اللام ومجيئها للاستحقاق في: مغني اللبيب، (١٧٥/١) وما بعدها، وتكون اللام للاستحقاق إذا جاءت بين معنى وذات؛ كما في الآية الكريمة، وكما في قولنا: الحمد لله، والعزة لله، والملك له، ونحو ذلك.
ينظر: مغني اللبيب (١٧٥/١)، دراسات في بعض القضايا النحوية (الحال، والتمييز، والمجرورات) د. السيد أحمد علي، دار الثقافة العربية، القاهرة، سنة ١٤١٥هـ ــ ١٩٩٥م، (١٠٢).

(٦) ينظر: التحرير والتنوير (٩٢/٢٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعده- ﷺ - ؛ لأن التزوج بإحدى زوجاته يبتدئ بوقت انتهاء العلاقة الزوجية سواء بالطلاق أو بالوفاه ، وقد أكد هذا النهي بالظرف ﴿أَبَدًا﴾ ؛ للدلالة على أن هذا الحكم لا يتطرق إليه النسخ بحال من الأحوال، ثم زاد - سبحانه - الكلام تأكيدًا وتحذيرًا بقوله- تعالى-: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾، وهو تأكيد لمضمون قوله- تعالى-: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [(١)] .

وقُيِّد الخبر «عظيمًا» بأنه من عند الله في قوله- تعالى-: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ ؛ للتهويل والتخويف، وتأكيد عظيم شناعته[(٢)].

ومن الملحوظ أن الله – جل وعلا – ذكر في الآية السابقة لهذه الآية بعض آداب النبي ﷺ مع أزواجه، فقال- تعالى-: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢] ؛ فناسب ذكر هذه الآداب لبيان الآداب التي ينبغي أن يلتزم بها المؤمنون تجاه زوجات النبي ﷺ في مخاطبتهن من وراء حجاب[(٣)]، وعدم التزوج بهن بعده ﷺ، وكذلك آداب دخول بيت النبي ﷺ، وهو مما يتعلق بالأدب معه ومع أزواجه عليه السلام، فقال- تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ ...﴾ إلى آخر الآية.

فنهى الله عز وجل عن دخول بيت النبي إلا بالإذن إلى الطعام ونحوه ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ ثم استدرك على ذلك قائلًا: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ ، وهو «استدراك من النهي عن الدخول بغير إذن، وفيه دلالة بينة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه»[(٤)]، وهو ما يدل على التنفير من التطفل وتحريمه .

وقد عطفت جملة ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ على جملة ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ بالفاء ؛ لما في دلالتها على التعقيب بلا مهلة من الإيحاء بضرورة المبادرة في الانتشار ،

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٩٤).
(٢) ينظر: السابق، الصفحة نفسها.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٨١)، تفسير أبي السعود (٤/٣٢٩).
(٤) تفسير أبي السعود (٤/٣٣٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعدم الإمهال والتراخي فيه بما يثقل على أهل البيت ، فلا ينبغي للمدعو أن يطيل المكث في بيت الداعي إذا فرغ من طعامه بل ينبغي له المبادرة بالانصراف ؛ ليعطي لأهل البيت الفرصة في تدبير شئوهم، ولا يثقل عليهم بالحديث والجلوس.

يقول الألوسي: « ﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ ، أي: فإذا أكلتم الطعام فتفرقوا ولا تبقوا، والفاء للتعقيب بلا مهلة؛ للدلالة على أنه ينبغي أن يكون دخولهم بعد الإذن والدعوة على وجه يعقبه الشروع في الأكل بلا فصل»(١).

وهاتان الجملتان واقعتان في حيز الاستدراك ، وجيء به معترضاً بين المتعاطفين الواقعين حالاً من ضمير الفاعل في قوله - تعالى -: ﴿ لَا تَدْخُلُواْ ﴾ وهما : ﴿ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ ، ﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ (٢) ، وسر هذا الاعتراض المبادرة بدفع ما قد يتوهم من عموم النهي عن دخول بيت النبي إلا عند الدعوة إلى طعام ، وهذا ما يلمح إليه أبو السعود بقوله بياناً لقوله - تعالى - : ﴿ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ ... ﴾ : " استدراك من النهي عن الدخول بغير إذن ،وفيه دلالة بينة على أن المراد بالإذن إلى الطعام الدعوة إليه " (٣).

وقد بين ابن عاشور هذا الاعتراض ولم يشر إلى سره البلاغي حيث قال : "،﴿ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ عطف على قوله - تعالى - : ﴿ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ ، وما بينهما من الاستدراك اعتراض بين المتعاطفين وزيادة حرف النفي قبل مستأنسين لتأكيد النفي ، كما هو الغالب في العطف على المنفي " (٤).

وقوله- تعالى-: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ جملة استئنافية ؛ لتعليل النهي وما في حيزه من المكث والاستئناس بالحديث للتحذير من إطالة المكث؛ لما فيه من الأذى لرسول الله ﷺ، وفيه دفع لاغترار هؤلاء القوم بسكوته ﷺ؛ حيث حسبوا فيه دلالة على عدم كراهته ذلك، ولم يقع في اعتقادهم أن مكثهم يؤذيه

---

(١) روح المعاني (٢٢/٧١).

(٢) ينظر : الكشاف : (٣ / ٢٤٤) ، وتفسير أبي السعود : (٧ / ١١٢)، يقول أبو السعود : " غير ناظرين .. " ، أي غير منتظرين وقته أو إدراكه ، وهو حال من فاعل لا تدخلوا على أن الاستثناء واقع على الوقت والحال عند من يجوزه ... (ولا مستأنسين لحديث) .. عطف على ناظرين ... " .

(٣) تفسير أبي السعود (٧ / ١١٢) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٢ / ٨٣) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ﷺ؛ لأنهم لو علموا ذلك لما أقدموا عليه البتة ؛ فقد كان ﷺ أعز خلق الله في نفوس أصحابه؛ وهو ما يقتضي تحرزهم أشد الاحتراز من إيذائه، ولكنهم فعلوا ما فعلوه اغترارًا بسكوته ﷺ؛ فرفع الله تعالى هذا الاغترار بهذا الخبر المؤكَّد؛ وبيَّن عَلَّته بقوله -تعالى-: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ﴾ ، وعطف على ذلك قوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ ليبين أنه إن كان الرسول- ﷺ - لا ينكر عليكم طول المكث عنده بلا داعٍ أو ضرورة؛ حياءً وتكرمًا منه، وترجيحًا للعفو عن حقه على مؤاخذتكم به – فإن الله لا يستحي من الحق ؛ لأن أسباب الحياء الموجودة بين الخلق منتفية عن الله تعالى(١).

وفي قوله- تعالى-: ﴿ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ إشارة إلى أن عدم إطالة المكث حق وأدب ينبغي أن يلتزم به المسلم (٢).

والجملة أي: قوله - تعالى - : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ تذييل للكلام السابق عليها؛ لأنها تحقق معناه، وتزيده توكيدًا بعد تمامه وحسن السكوت عليه، كما أنها تجري مجرى المثل؛ وإنما جعلها كذلك ما اشتمل عليه لفظ «الحق» من العموم؛« فالحق ضد الباطل، فمنه: حق الله، وحق الإسلام، وحق الأمة جمعاء، في مصالحها، وإقامة آدابها، وحق كل فرد من أفراد الأمة فيما هو من منافعه، ودفع الضر عنه، ويشتمل على حق النبي ﷺ في بيته، وأوقاته»(٣).

وقوله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ جاء عطفا على قوله- تعالى- : ﴿ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ ﴾ ؛ زيادة في النهي عن دخول بيوته ﷺ، «وتحديدًا لمقدار الضرورة التي تدعو إلى دخولها، أو الوقوف بأبوابها»(٤).

والضمير في قوله - تعالى - : ﴿ سَأَلْتُمُوهُنَّ ﴾ يعود إلى نساء النبي ﷺ؛ ولم يُذْكَرْن لأن الحال ناطقة بذكرهن ؛ فهن مدلول عليهن بذكر بيوته ﷺ ؛ فإنهن يَكُنّ فيها؛

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٨٥، ٨٦، ٨٨).
(٢) ينظر: اللباب (١٥/٥٨٣).
(٣) التحرير والتنوير (٢٢/٨٨).
(٤) ينظر: السابق (٢٢/٩٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لأنهن ربات البيوت، وكُنَّ ملازمات لها؛ إذ كان الرجل قديمًا لا يبني بيتًا إلا إذا أراد التزوج؛ ولهذا سَمَّوْا الزفاف بناءً؛ ومن أجل هذا كانت المرأة والبيت متلازمين؛ فكان في ذكر بيوته ﷺ دلالة على ذكر أزواجه بطريق الالتزام[1].

ولما كانت الآية الكريمة مشتملة على بيان بعض الأمور التي تؤذي رسول الله ﷺ، ناسب ذلك أن تختم الآية الكريمة بنهي عامٍّ عن مطلق إيذائه ﷺ، وبيان مدى شناعة إيذائه وبشاعته والتنفير منه ؛ فقال - تعالى-: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾.

و في الآية الكريمة كناية تتجلى في قوله - تعالى - : ﴿ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾ ، أي: غير منتظرين نضجه وإدراكه؛ والمراد: النهي عن التبكير بالذهاب إلى بيت الداعي وانتظار الأكل هناك؛ فكنى بالانتظار عن مبادرة الحضور؛ لأنه يلزم من المبادرة أن ينتظر المرء حتى ينضج الطعام [2] .

وسر جمال هذه الكناية: ما فيها من تشويه السبق بالحضور والمبادرة به؛ بجعله نهمًا وجشعًا وحرصًا على الأكل بانتظاره، وإن كانوا يحضرون - في الحقيقة - لغير ذلك من الاستئناس للحديث وغيره، وليس لمجرد انتظار الطعام؛ فالنهي في الآية ليس متوجهًا إلى صريح الانتظار، ولكن إلى ملزومه ، وهو المبادرة بالحضور قبل الوقت المناسب[3].

كما تتجلى في قوله- تعالى-: ﴿ فَٱنتَشِرُواْ ﴾ ، فهي كناية عن الخروج إذ هو رديف الانتشار ؛ ذلك أن المراد بمدلول جملة الشرط الخروج فور الانتهاء من الطعام ، وإيثار أسلوب الكناية لما فيه من الرقة، واللطف ، وذلك من الأدب العالي في مخاطبة الآخرين ، ولينظر القارئ الفرق بين أن يقال فإذا طعمتم فاخرجوا ، وأن يقال إذا طعمتم فانتشروا.

---

(١) ينظر: الكشاف (٣ / ٥٥٥) ، تفسير أبي السعود (٤ / ٣٣٠) ، التحرير والتنوير (٢٢/٩٠) بتصرف .
(٢) ينظر: اللباب (٥٨١/١٥)، الكشاف (٥٥٤/٣)، معالم التنزيل للبغوي (٢٧٢/٥، ٢٧٣)، تفسير القرآن الكريم (٤٣٣٢/١١).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٨٣/٢٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

هذا وقد جعل ابن عاشور الكناية من قبيل المجاز ، وهذا ما يصرح به إذ يقـــول: " الانتشار افتعال من النشر - ومعناه إبداء ما كان مطوياً – وعلى هذا يكون إطلاقـه على الخروج من قبيل المجاز"(١)

وكون الكناية من قبيل المجاز أو الحقيقة مثار أخذ ورد من البلاغيين فمنهــم مــن جعلها من قبيل المجاز ، ومنهم من جعلها من قبيل الحقيقة ، وانتهى الأمر إلى ابن الأثــير فجعلها واسطة بين الحقيقة والمجاز (٢) .

وكذلك قوله - تعالى- : ﴿ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ﴾ هو من قبيل المجاز أو التوسع؛ لأن الاستحياء يكون من الأفعال لا من الأشخاص؛ فإن قولك: «استحييت من فــلان» مجاز أو توسع، وأما قولك: «استحييت من فعل كذا لأجل فلان» فهو حقيقة(٣)؛ ولذلك قال الزمخشري:" إن قوله - تعالى-: ﴿ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ﴾ من تقدير المضاف، أي: من إخراجكم، بدليل قوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ ، يعني: أن إخراجكم حق، ما ينبغي أن يستحيا منه" (٤).

وقوله- تعالى-: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ من باب المشاكلة ؛ حيث عبر تعالــى عن أمره بالخروج والانتشار عقيب الأكل وعدم المكث عند الرسول ﷺ بـــــ «الاستحياء»؛ مناسبة لما ذكر قبله من استحياء رسول الله ﷺ(٥).

ومن الفنون البديعية - أيضا- طباق الإيجاب بين ﴿ فَٱدْخُلُواْ...فَٱنتَشِرُواْ ﴾، وطباق السلب بين ﴿ فَيَسْتَحْيِۦ....لَا يَسْتَحْيِۦ ﴾ ،وهذا التلوين في العبارات جعل المعنى جليًّا،ممــا أظهر حسنه الضد، ؛ فالشيء لا يعرف إلا بضده كما قالوا: «وبضدها تتميز الأشياء» .

ومما ورد فيه لفظ الأذى في سياق التنفير منه قوله - تعالى -:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢ / ٨٣) .

(٢) ينظر : المثل السائر لابن الأثير (٢ / ١٨١) ، وللاستزادة يُرجع إلى عروس الأفراح للسبكي ، ومواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ، ضمن مجموعة شروح التلخيص ، وينظر : نظرات في البيان للدكتور / محمد عبد الرحمن الكردي وغيرها .

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/٨٧).

(٤) الكشاف (٣/٥٥٥).

(٥) ينظر: تفسير أبي السعود (٤/٣٣٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الأحزاب: ٥٧- ٥٩].

وجاء في سبب نزول هذا القول الكريم أن رسول الله -ﷺ- لما فتح خيبر ، وصالح ابن أبي الحقيق على ترك خيبر وما فيها على ألا يكتموا شيئاً مما فيها من أموال ، نقض كنانة بن أبي الحقيق وأخوه كنز بن النضير ، فقتلهما رسول الله - ﷺ - ووقعت صفية بنت حيي(١) زوجة كنانة في السبي ضمن السبايا الأخريات ، وحين طلب دحية بن خليفة الكلبي(٢) من النبي - ﷺ - جارية قال له (اذهب فخذ جارية) فذهب فأخذها، فلما أخبر - ﷺ - أنها سيدة قريظة وبني النضير راجع نفسه الرأي في أمرها ، وطلب من دحية أن يأخذ غيرها ففعل ، ثم عرض عليها الإسلام فأسلمت فتزوجها ، وكان زواجه بها مثار دعية رخيصة روج لها المنافقون (٣) .

ومضمون هذا القول تحذير أولئك الذين آذوا الله ورسوله، وإبعاد لهم باللعن والطرد من رحمة الله في الدنيا والآخرة، وبالعذاب المهين الذي أعد لهم؛ جزاءً وفاقًا على أعمالهم.

والمراد بإيذائهم لله - تعالى - : ما يتفوهون به في حقه سبحانه من ألفاظ الكفر وكلام الشرك، مما لا يليق بجلاله وعظمته من اتخاذ الأنداد، أو أن يكون له ولد، أو زوجة ونحو ذلك ؛ كما يدل على ذلك قوله ﷺ فيما رواه أبو هريرة عنه: "قال الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك: فأما تكذيبه إياي

---

(١) صفية بنت حيي بن أخطب بن سعنة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب، أم المؤمنين، من نسل هارون بن عمران عليه السلام، سباها رسول الله ﷺ عام خيبر، ثم أعتقها ثم تزوجها، ماتت في خلافة معاوية سنة خمسين.
تنظر ترجمتها في: تهذيب الكمال (٣٥/٢١٠)، تقريب التهذيب (٢/٦٠٣)، الثقات (٣/١٩٧).

(٢) دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي، صحابيّ، بعثه رسول الله ﷺ برسالته إلى قيصر يدعوه للإسلام، وشهد اليرموك، وعاش إلى خلافة معاوية، وتوفي نحو سنة ٤٥هـ.
تنظر ترجمته في: الإصابة (١/٤٧٣)، طبقات ابن سعد (٤/١٨٤).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/١٠٥)، تفسير القرآن الكريم (١١/٤٣٤٠)، دراسات في التفسير، (١٤٥) ، تفسير الخازن والبغوي (٥/٢٧٦)، الكشاف (٣/٥٥٩)، تفسير أبي السعود (٤/٣٣٢، ٣٣٣)، اللباب (١٥/٥٨٨).
وهناك روايات أخرى في سبب النزول يرجع في معرفتها إلى : لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي (٢٤٤)، أسباب النزول للواحدي (٢٥٩) ، تفسير الرازي ، تفسير الألوسي وغيرهم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً! أنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفوا أحد "(١).

وأما إيذاؤهم لرسول الله فالمراد به في ضوء أسباب النزول - ما أثاره المنافقون من أقاويل عندما تزوج صفية (٢) ، وإن كان اللفظ عاماً ينطبق على كل ما يؤدي إلى إيذائه - ﷺ - .

فمن يتعد بشيء مما سبق في حق الله تعالى، أو حق رسوله - ﷺ - فهو ملعون، مطرود من رحمة الله تعالى، مبعد عن رحمته بعدًا لا رجاء للقرب معه؛ فيخيب سعيه ويخسر دنياه وآخرته، فهو في الدنيا محتقر من المؤمنين، محروم من لطف الله وعنايته، وفي الآخرة محتقر بالإهانة في الحشر، وبدخول النار(٣).

كما يتضمن التحذير من إيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير وجه حق ، ويتوعدهم بجزاء ما احتملوا من البهتان والإثم .

وقد حمل النص الذي حوى هذا المضمون خصائص بلاغية أحاول الكشف عنها في الآتي :

وأول ما يطالع القارئ ما يجده في قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ حيث عبر عن القوم الذين آذوا الله عز وجل بأقوال الكفر، وآذوا رسوله - ﷺ - بالطعن فيه بالاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ لإثبات ما في حيز الصلة لهؤلاء القوم؛ لما فيه من الذم والتحقير، والإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو قوله: ﴿ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا

---

(١) أخرجه البخاري (٩/٧٦٥) كتاب التفسير باب: سورة «قل هو الله أحد» (٤٩٧٤) والنسائي (٤/١١١) كتاب الجنائز باب أرواح المؤمنين وغيرهم وأحمد (٢/٣٩٣) ،

وهناك روايات أخرى بهذا المعنى يرجع إليها في البخاري كتاب التفسير باب : وما يهلكنا إلا الدهر ، ومسلم كتاب الألفاظ من الآداب وغيرها ، وأحمد ،

وينظر: تفسير الخازن والبغوي (٥/٢٧٥ ، ٢٧٦) ، تفسير القرطبي (١٤/٢٣٨) ، تفسير الرازي (٢٥ / ٢٢٨) البحر المحيط (٧ / ٢٤٩) ، الدر المصون (٤ / ٤٠٢) ، التحرير والتنوير (٢٢/١٠٣، ١٠٤)، تفسير القرآن الكريم (١١/٣٤٠)، دراسات في التفسير، ص (١٤٥) ، الكشاف (٣ / ٥٥٩) ، اللباب (١٥ / ٥٨٧) ، تفسير أبي السعود (٤/٣٣٢) ، زاد المسير (٦ / ٤٢٢) .

(٢) ينظر : زاد المسير(٦/٤٢٠) ، واللباب (١٥ / ٥٨٨) ، الكشاف (٣ / ٥٥٩) ،تفسير أبي السعود (٤ / ٣٣٢).

(٣) ينظر: اللباب (١٥/٥٨٨)، التحرير والتنوير (٢٢/١٠٤) ، تفسير الرازي (٢٥/٢٢٨، ٢٢٩)، الدر المصون (٤/٤٠٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿وَٱلْأَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ ؛ فهذا الخبر يتضمن الحكم عليهم باللعن في الدنيا والآخرة والعذاب الأليم في الآخرة ، وسببه وعلته ما اشتهروا به من إيذاء الله ورسوله(١).

وعلى هذا يكون في التعبير بالموصول هنا ما يفيد اشتهارهم بمضمون الصلة، وما يفيد الإيماء بعلة الحكم، مع الذم والتحقير .

ويمكن حمل الاسم الموصول هنا وفي الموضع السابق على العموم، لأنه من الألفاظ الدالة عليه؛ فيكون التعبير به لإفادة أن حكم الخبر من اللعن في الدنيا والآخرة والعذاب الأليم، في الموضع الأول، واحتمال البهتان والإثم المبين في الموضع الثاني، ليس مختصًّا بهؤلاء الذين آذوا الله ورسوله والمؤمنين من قبل؛ على ما أفادته أسباب النزول، وإنما تسري هذه الأحكام على كل من يصدر من الإيذاء في حق الله تعالى ورسوله والمؤمنين في كل زمان ومكان، وما أكثرهم اليوم، وهم حقيقون بهذا الوعيد العظيم؛ جزاء وفاقاً لهم على تجرؤهم على الله ورسوله ومن آمنوا بهما.

وجاء البهتان نكرة في قوله- تعالى-: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا﴾ ؛ للدلالة على التهويل ؛ لأن البهتان نوع من القول ، فنكره تهويلا لما صدر منهم في حق الله تعالى ورسوله والمؤمنين؛ جهلًا وعنادًا وإيذاء، ثم اتبعت هذه النكرة بنكرة أخرى هي الإثم في قوله - تعالى -: ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ لتعظيم ذلك الإثم، وبيان هوله وشناعته وبشاعته؛ ولذا وصف بأنه مبين، أي: عظيم قوي ' وظاهر بين، وهو كذلك، فأي إثم أشد من إيذاء الله وإيذاء الرسول وإيذاء المؤمنين (٢).

هذا ، وقد جعل صاحب التحرير والتنوير تنكير البهتان من قبيل التحقير ، ولا أراه كذلك ، فالبهتان – وهو قول الزور – لا يكون تافهاً حقيراً ، بل هو شديد الهول ؛ لما فيه من رمي الأبرياء بالنقائص أو التهم وفي ذلك ما فيه .

وفي التعبير بـ«البهتان» تنبيه على غيره من أنواع الأذى؛ فإذا كان الإيذاء بالقول يستوجب هذا العقاب، فإن الإيذاء بغيره من فنون الإيذاء الأولى منه بهذا العقاب، وبما هو أشد، وفي هذا يقول ابن عادل الحنبلي: «فإن قيل: البهتان هو الزور، وهو لا يكون

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/١٠٤).
(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٤/٣٣٢)،والتحرير والتنوير (٢٢/١٠٥)بتصرف .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إلا في القول، والإيذاء قد يكون بغير القول؛ فمن آذى مؤمنًا بالضرب، أو أخذ ماله، لا يكون قد احتمل بهتانًا ؟

فالجواب: أن المراد: والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بالقول؛ لأن الله تعالى أراد إظهار شرف المؤمنين؛ لأنه لما ذكر أن من آذى الله ورسوله، لعن وإيذاء الله أن ينكر وجوده، أو يشرك به من لا يبصر، ولا يسمع، وذلك قول، فذكر إيذاء المؤمنين بالقول؛ وعلى هذا يكون قد خص إيذاء القول بالذكر؛ لأنه أعم؛ لأن الإنسان لا يقدر أن يؤذي الله بما يؤلمه من ضرب أو أخذ مال، ويؤذيه بالقول، وكذا الغائب لا يمكن إيذاؤه بالفعل، ويمكن إيذاؤه بالقول، بأن يقول فيه ما يصل إليه، فيتأذى»[١].

ويجوز أن يجاب عن هذا التساؤل بوجه آخر، هو أن يكون البهتان مختصًّا بالإيذاء بالقول، ثم جاء قوله- تعالى - : ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾؛ ليستدرك غير القول من فنون الإيذاء وأنواعه[٢].

وفي التعبير عن المؤمنين والمؤمنات في قوله- تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ بصيغة اسم الفاعل ما يدل على ثبوت صفة الإيمان ورسوخها وتأصلها في قلوبهم، وهو ما يوحي بثباتهم وصبرهم في مواجهة ما يتعرضون له من الأذى،كما يومىء إلى فظاعة فعل هؤلاء المؤذين؛ لأنهم يتعرضون بالإيذاء لمن لا يستحقه، بل هو أهل للتكريم.

ولا يخفى افتتاح هذا القول الكريم بجملة مؤكدة بـ ﴿ إِنَّ ﴾ هي قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ لتأكيد استحقاق هؤلاء المؤذين لله ورسوله لهذا اللعن والعذاب الأليم الذي أعد لهم ، وإنما جاءت على هذه الصورة مع أن المخاطبين بالخبر لا علم سابقاً لهم به ، فلم يشكوا فيه مما يستدعي تأكيده؛ ليقع الخبر من نفوسهم موقع التسليم لأول وهلة ؛ فإيذاء الله ورسوله يستحق أشد العذاب ، وفي التأكيد ما ينبئ عن ذلك .

ثم جاءت جملة الصلة ﴿ يُؤْذُونَ ﴾ بصيغة الفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار؛ للإيماء إلى تكرار استحقاق اللعن في الدنيا والآخرة ،والعذاب في الآخرة

---

(١) اللباب (١٥/٥٨٩).

(٢) ينظر: السابق، الصفحة نفسها، وتفسير الرازي (٢٥/٢٣٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

كلما تكرر الإيذاء سواء أكان ذلك في عصر النبي - ﷺ- أو بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وجاء جزاء هؤلاء المؤذين بصيغة الفعل الماضي ﴿ لَعَنَهُمُ ﴾ و﴿ وَأَعَدَّ ﴾ للدلالة على تحقق وثبوت هذا العقاب؛ وفي هذا تهديد ووعيد، وتقبيح لأفعالهم المؤذية التي استحقوا عليها هذا الجزاء.

وجاء فعل الإيذاء مطلقًا في قوله- تعالى-: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ، في حين جاء مقيدًا في قوله - تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ ؛ ليدل إطلاقه في حق الله ورسوله على أن إيذاءهما محرم مطلقا على الدوام؛ وليس ثمة سبب أو أمر يسوغ ذلك الإيذاء في حقهما، فحيث توجه المرء إلى أحد منهما بالإيذاء فهو إيذاء بغير حق لا محالة؛ وهذا بخلاف ما قد يقع من الإيذاء في حق المؤمنين والمؤمنات، فإن منه ما يقع بغير وجه حق، وهو الإيذاء المذموم الذي يستوجب العقاب الذي تقتضيه الآية، ومنه ما يقع حقًّا وعدلاً(١)؛ كالقصاص(٢) والحدود(٣)، ونحو ذلك ، وفي هذا يقول الزمخشري: «أطلق إيذاء الله ورسوله، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق أبدًا، وأما أذى المؤمنين والمؤمنات، فمنه ومنه»(٤)، أي: منه ما هو حق، ومنه ما هو غير حق.

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٣٣٢/٤)، الكشاف (٥٥٩/٣).

(٢) القصاص لغة: تتبع الأثر، يقال: قصصت الأثر تتبعته. ومن معانيه: القود، يقال: أقص السلطان فلانا إقصاصا: قتله قودا، قال الفيومي: وقصصت الأثر تتبعته وقاصصته مقاصة وقصاصا من باب قاتل إذا كان لك عليه دين مثل ما له عليك فجعلت الدين في مقابلة الدين مأخوذ من اقتصاص الأثر ثم غلب استعمال القصاص في قتل القاتل وجرح الجارح.

واصطلاحًا: القصاص أن يفعل بالفاعل الجاني مثل ما فعل.

ينظر لسان العرب (ق ص ص)، المصباح المنير (٥٠٥)، إعلام الموقعين (٢٤٦/١).

(٣) الحد في اللغة: المنع، والحاجز بين الشيئين.

واصطلاحا: عقوبة مقدرة وجبت حقا لله تعالى.

وعرف أيضًا اصطلاحًا: عقوبة مقدرة وجبت حقا لله تعالى كما في الزنا، أو لآدمي كما في القذف.

وسميت الحدود حدودا، لأن الله تعالى حدها وقدرها، فلا يجوز لأحد أن يتجاوزها. قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق: ١].

ينظر لسان العرب (ح د د)، بدائع الصنائع (٣٣/٧)، تبيين الحقائق (١٦٣/٣)، مغني المحتاج (٤٦٠/٥).

(٤) الكشاف (٥٥٩/٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء جـــزاء هؤلاء المؤذيـــن للمؤمنين والمؤمنات جملة فعلية مصدرة بـــ«قـــد»: ﴿ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾؛ وذلك لإفادة تحقيق وتوكيد[1] تحملـــهم لهـــذا البهتان والإثم، المقتضي لإيقاع العقوبة عليهم؛ ودخلت الفاء على هذه الجملـــة؛ لـــشبه الموصول بالشرط[2]؛ وفيه إيماء إلى علة العقوبة.

وقوله - تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ... ﴾ الآية، ابتدأ فيه أولًا بذكر أزواجه ﷺ؛ لأنهن أكمل النساء؛ فذكرهن أولًا، ثم ذكر بعض أفـــراد العام؛ للاهتمام به[3].

كان فيما تقدم هذه الآيات إرشـــاد مـــن الله تعالى للمؤمنين إلى تكريم رسول الله ﷺ، ومراعاة حرمته وحرمة بيته ونسائه، والتحذير من بعض التصرفات التي تصدر عفوًا عن بعض المؤمنين وفيها إيذاء له ﷺ، وقد سبق بيانه في الحديث عن قوله- تعـــــالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ... ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٣] ، ثم بعد ذلك بين الله منزلة رسوله، وأعلى شأنه، فأعلم المؤمنين أن الله وملائكته يصلـــون على الـــنبي وأمـــرهم أن يصلوا عليه تكريمًا وتعظيمًا؛ فقـــال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] .

ولما كان الرسول ﷺ بهذه المنزلـــة العظمى من ربه تعالى، وكان إيذاؤه ﷺ منهيًّا عنه ولو من غير قصد – ناسب ذلك أن يبين تعالى جزاء من يتعمـــد إيذاء النبي ﷺ[4]، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [الأحزاب: ٥٧] ؛ فالكلام هنا إذن مستأنف استئنافًا بيانيًّا؛ لأن مـــا ســـبق مـــن الحديث عن منزلة الرسول والتعرض له بالإيذاء يثير في النفوس تساؤلًا عن حال هـــؤلاء

---

(١) وهذا أحد المعاني التي تأتي لها «قد»، وقد تأتي أيضا للتكثير، أو تقريب الماضي من الحال، أو النفي، وغير ذلك من المعاني.
ينظر: اللبيب (١/١٤٦- ١٥١)، الأزهية (٢١٣)، مصابيح المغاني في حروف المعاني (٣٢٠)، الجنى الداني (٢٧١).

(٢) ينظر: الدر المصون (٤/٤٠٢)، اللباب (١٥/٥٨٨).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/١٠٦).

(٤) ينظر: دراسات في التفسير، (١٤٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الأقوام الذين علم من حالهم وشأنهم قلة التحرز من إيذائه ﷺ، ما هو جزاؤهم، وما مآلهم، فجاءت هذه الآية الكريمة بذكر ذلك شفاءً للأنفس مما قد يعتريها من تساؤلات.

وجاء ذكره ﷺ مقترنًا بذكر الله تعالى؛ لتعظيمه والإيذان بجلالة مقداره عنده تعالى، وأن إيذاءه ﷺ إيذاء له سبحانه(١)، وفي هذا يقول الطيبي مبينًا بعض وجوه البلاغة في هذه الآية الكريمة: "لما كان صلوات الله عليه من الله في قوة الاختصاص بمكان كان إيذاؤه إيذاءه "(٢).

ثم أردف الحديث عن إيذائه ﷺ بالحديث عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات، فقال - تعالى - : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨] إلحاقا لحرمة المؤمنين والمؤمنات بحرمته ﷺ؛ وتنويهًا بشأنهم، وإنما ذكر حكم إيذائهم مستقلًّا عن حكم إيذائه ﷺ؛ للإشارة إلى نزول رتبتهم عن رتبة الرسول ﷺ، وهذا من الاستطراد المعترض بين أحكام حرمة النبي ﷺ، وآداب أزواجه وبناته المؤمنات.

وعطف ﴿ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ على ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ للتصريح بمساواة الحكم، وإن كان ذلك معلومًا من الشريعة؛ لوزع المؤذين عن أذى المؤمنات؛ لأنهن جانب ضعيف، بخلاف الرجال، فقد يزعهم عنهم اتقاء غضبهم وثأرهم لأنفسهم(٣).

وبعد أن نهى الله سبحانه وتعالى عن إيذاء الله ورسوله والمؤمنين والمؤمنات انتقل إلى بيان بعض الأمور التي تمثل أسبابًا مجلبة للإيذاء، وهي كشف مفاتن الجسد، أو بعضها(٤)، ووضع العلاج الملائم لها وهو الحجاب، فقال - تعالى -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٩]؛ وبين الحكمة من هذا الأمر، والفائدة التي تعود على النساء من ارتداء الحجاب، فقال - تعالى -: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٤/٣٣٢)، اللباب (١٥/٥٨٨).
(٢) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، (١٣٢).
(٣) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/١٠٥).
(٤) ينظر: دراسات في التفسير، (١٤٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وإنما أمر سبحانه باتقاء أسباب الأذى المتمثلة في كشف مفاتن الجسد، ونحوها بعد نهيه عن أذى المؤمنات؛ لأن من شأن المطالب السعي في تذليل وسائلها، كما قال- تعالى-: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾، وقال أبو العتاهية:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس[١]

وهذا يرجع إلى قاعدة التعاون على إقامة المصالح وإماتة المفاسد[٢].

والتذييل بقوله- تعالى-: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩]؛ إيماء إلى صفح الله – تعالى - عمن وقع منهم إيذاء للمؤمنات الحرائر؛ ظنًّا منهم أنهن إماء – على نحو ما سبق في بيان أسباب النزول – فقد امتن الله عليهم ، بغفرانه، رحمته ، وصفحه عما بدر منهم قبل أن يبين لهم الآداب الإسلامية التي يجب على النساء الالتزام بها عند الخروج من منازلهن لقضاء حوائجهن[٣].

ورعاية للسبق الزمني قدم الأزواج في قوله- تعالى- : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ ، فإن الأزواج أسبق بالزمان لأن البنات أفضل منهن لكونهن بضعة منه - ﷺ - ،وهذا من الأغراض البلاغية التي يخرج إليها تقديم وتأخير المعطوفات، وهو المعروف بالسبق في الزمن والإيجاد[٤]، والسر في البدء بالحجاب الشرعي بنساء الرسول- ﷺ -وبناته، هو أن الدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعي بها في نفسه وأهله[٥] ، وحتى يكُنَّ قدوة لنساء المؤمنين في ذلك.

وقد عدى فعل الأذى في قوله- تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ إلى الله – تعالى- على معنى المجاز المرسل[٦]، وذلك لأن حقيقة إلحاق الأذى به سبحانه

---

(١) ينظر: البيت في ديوانه (١٩٤)، وبلا نسبة في تاج العروس (٥٧/١٧)، والأمثال والحكم (١٥٣).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير (١٠٦/٢٢).
(٣) ينظر: السابق (١٠٧/٢٢).
(٤) ينظر: بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم (٩٥٥/٣)
(٥) ينظر: صفوة التفاسير للصابوني (٥٤١/٢)
(٦) المجاز – كما يعرفه عبد القاهر الجرجاني – هو «كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها؛ لملاحظة بين الثاني والأول»، أي: بين المعنى الثاني الذي استخدمت فيه، والمعنى الأول الذي وضعت له.
وقيل: «المجاز هو ما أريد به غير الموضوع له في أصل اللغة، وهو مأخوذ من: جاز في هذا الموضع إلى هذا الموضع إذا تخطاه».
وقسم البلاغيون المجاز إلى قسمين:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وتعالى أمر محال، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، ولكن عبر به – أي: بالأذة – عن فعل ما يكرهه الله تعالى مجازًا؛ لأن في فعل أو قول ما يكرهه الله تعالى اجتلاب لغضبه، فكان ذلك كإيقاع الأذى بالناس في أنه سبب لاجتلاب الغضب(١).

وأما تعدية الإيذاء إليه ﷺ؛ فهو حقيقة، فيكون الفعل ﴿يُؤْذُونَ﴾ مستعملاً في معنييه الحقيقي والمجازي(٢).

وذهب الزمخشري إلى أنه مستعمل في معناه المجازي معهما جميعًا؛ لئلاً تعطي العبارة الواحدة معنى مجازيًّا وحقيقيًّا في آن واحد، فقال: «عبر بإيذائهما عن فعل ما يكرهانه ولا يرضيانه من الكفر والمعاصي، وإنكار النبوة، ومخالفة الشريعة، وما كانوا يصيبون به رسول الله ﷺ من أنواع المكروه؛ على سبيل المجاز، وإنما جعلته مجازاً فيهما جميعًا، وحقيقة الإيذاء صحيحة في رسول الله ﷺ ؛ لئلّا أجعل العبارة الواحدة معطية معنى المجاز والحقيقة»(٣).

وفي قوله هذا رد لما يراه بعض أهل العلم من جواز استعمال اللفظ في الحقيقة والمجاز معاً ، كما ذكر ذلك الألوسي في قوله - تعالى - ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ .

أحدهما: مجاز لغوي، وقد عرفه الطيبي بأنه: «اللفظ المستعمل في غير ما وضع له بالتحقيق في اصطلاح التخاطب، مع قرينة عدم إرادته».

ويدخل في هذا القسم، المجاز المرسل، وقد عرفه القزويني بأنه «ما كانت فيه العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه؛ كاليد إذا استعملت في النعمة؛ لأن من شأنها أن تصدر عن الجارحة، ومنها تصل إلى المقصود بها».

والقسم الثاني: المجاز العقلي، وقد عرفه الطيبي بأنه «الكلام المحكوم فيه بخلاف ما عند المتكلم بالتأول؛ كقول الموحِّد: «أنبت الربيع البقل»؛ لما أنه رأى دوران الإنبات مع الربيع وجودًا أو عدمًا دوران الفعل، مع اختيار القادر، حَكَم أنه من الربيع مبالغة.

وقيل: المجاز العقلي: هو إسناد الفعل، أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة، مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي.

ينظر: أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، (٣٥١)، التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، (٢١٧، ٢١٨، ٢٥٤، ٢٥٥)، والإيضاح في علوم البلاغة، (٢٢٩ – ٢٣٩)، المعجم المفصل في علوم البلاغة، (٦٣٧-٦٣٩) .

(١) ينظر: الكشاف (٣/٥٥٩)، تفسير أبي السعود (٤/٣٣٢)، التحرير والتنوير (٢٢/١٠٤).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/١٠٤).

(٣) الكشاف (٣/٥٥٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد ذكر الطيبي في بيانه لأنواع المجاز المتضمن للفائدة، ما يجمع بين المختلفين حقيقة ومجازًا، ومثَّل له بهذه الآية الكريمة، فقال: «قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ عبر بإيذائهما عن فعل ما يكرهانه، وما لا يرضيانه، ويسمى بعموم المجاز»(١).

وقد جعل مثل هذا اللون نوعاً خاصاً أسماه (عموم المجاز) ، ولعله بهذا الوصف يلتمس مخرجاً من القول : إن اللفظ قد يراد به الحقيقة والمجاز ، ولو قال إنه من باب التغليب حيث غلب المجاز على الحقيقة ، والتغليب في العربية باب واسع، لكان أقرب إلى الصواب .

ويجوز أن يحمل قوله – تعالى - : ﴿ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ ﴾ على حذف مضاف(٢)، فيكون من قبيل الإيجاز بالحذف، أي: يؤذون أولياء الله(٣)؛ على حد قوله- تعالى-: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: اسأل أهل القرية؛ ويكون السر في جمال الحذف هنا المبالغة في الزجر عن إيذاء أولياء الله(٤)؛ ويدل على ذلك ما جاء في الحديث القدسي: «من عادى لي وليًّا، فقد آذنته بالحرب»، وقال - أيضا -: «من أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة»(٥).

ومن ألوان المجاز في الآية الكريمة أيضا الاستعارة المكنية في قوله تعالى : ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ حيث شبه «البهتان» و«الإثم» بالحمل الثقيل(٦) على صاحبه بجامع الإحساس بالألم الشديد في كل ، ثم تتوسى التشبيه ، ثم استعير الحمل الثقيل للبهتان والإثم ، ثم حذف اللفظ المستعار وهو الحمل الثقيل (المشبه به) ، ورمز له بشيء من لوازمه دال عليه، وهو قوله: ﴿ ٱحْتَمَلُوا۟ ﴾ على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله - تعالى - : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ كني بالإدناء – وهو التقريب – عن اللبس والوضع، أي: يضعن عليهن جلابيبهن(٧).

---

(١) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، (٢٢٥).
(٢) ينظر: الدر المصون (٤٠٢/٤)، البحر المحيط (٢٤٩/٧)، اللباب (٥٨٨/١٥).
(٣) ينظر: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، (١٥٠، ١٥١).
(٤) ينظر: اللباب (٥٨٨/١٥).
(٥) أخرجه البخاري (٣٤٠/١١) كتاب الرقاق، باب: التواضع برقم (٦٥٠٢).
(٦) ينظر: التحرير والتنوير (١٠٦/٢٢).
(٧) ينظر: السابق (١٠٧/٢٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ يدخل تحت ما أطلق عليه البلاغيون اسم «التشبيب» من ألوان البديع [(١)]، فقد قدمت الآية الكريمة قبل أن تبين عقاب الكفار والمنافقين على إيذائهم لرسول الله ﷺ بما يمهد لذلك؛ إيذانًا بمكانة وأهمية ما يمهد له[(٢)].

ومن ألوان البديع في الآيات الكريمة – أيضا – الطباق بين الدنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ وذلك لتأكيد دوام الخزي لهؤلاء المؤذين لله ورسوله، فهو لاحق بهم في الدنيا مستمر معهم فيها ومصاحب لهم في الآخرة؛ فهم ينتقلون من خزي إلى خزي أبدًا.

والطباق بين: المؤمنين والمؤمنات في قوله - تعالى - : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ ﴾ ؛ للدلالة على أنهما سواء حفاظًا على منزلة المؤمنات، وعدم الاستهانة بهن لضعفهن[(٣)].

وورد الإيذاء في سياق التنفير منه في قوله - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقد روي أن هذه الآية نزلت في شأن زيد بن حارثة[(٤)]، وزينب بنت جحش وما سمع في ذلك من قاله بعض الناس[(١)].

---

(١) التشبيب : «وهو أن يُقَدَّم قبل الشروع في الكلام ما يُمَهِّد المرام»، وهو على وجوه : ١- التغزل قبل التمدح ٢- التثبيت على الخطاب الهائل تلطفا ٣- التنبيه على القاء السمع للخطاب الخطير ٤ - الإيذان على مكانة ما يُمَهَّد له كما في قوله – تعالى- :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ ومنه قول المستفيد بين يدي المفيد : رضي الله عنك .

ينظر: التبيان في علم المعاني والبديع والبيان (٣٧٠).

(٢) ينظر: التبيان (٣٧١).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير (١٠٥/٢٢).

(٤) زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي اليماني: حِبُّ رسول الله ﷺ ومولاه، كان ممن بادر فأسلم من أول يوم، وشهد بدرًا، وقتل بمؤتة أميرًا سنة ثمان، قالت عائشة: لو كان حيًّا لاستخلفه رسول الله ﷺ.

ينظر: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (٣٥٠/١)، تهذيب التهذيب (٤٠١/٣)، الكاشف (٣٣٧/١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وذلك أن رسول الله ﷺ كان قد تبنى زيد بن حارثة قبل النبوة، وكان يقال له زيد بن محمد، وقد زوجه الرسول ﷺ من زينب بنت جحش، لكن العلاقة ساءت بينهما لما كانت تتمتع به زينب من الحسب والنسب والجمال، وشعور زيد – رضي الله عنه – بالحرج والنقص أمامها، وانتهى بهما الأمر إلى الطلاق(٢).

ثم تزوجها رسول الله ﷺ بعد أن أبطل الله أحكام التبني(٣)، وقطع نسبة زيد - رضي الله عنه- إلى رسول الله ﷺ بقوله: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقوله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] ؛ ولما تزوجها ﷺ طعن بعض المنافقين في هذا الزواج، وقالوا تزوج مطلقة ابنه، غافلين أو متجاهلين لما وقع من أمر نسخ (٤) حكم التبني بقوله- تعالى-: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (٥) ، ومتجاهلين للحكمة من زواجه ﷺ بزينب – رضي الله عنها – والتي نص الله عليها بقوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فلما تكلم من تكلم في شأن زيد وزينب وطعنوا في زواجه ﷺ منها، نزل قوله- تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ﴾ الآية؛ لتحذر المؤمنين من التمادي في ذلك.

---

(١) ينظر: الكشاف (٣/٥٦٣)، وتفسير أبي السعود (٤/٣٣٥).

(٢) ينظر: في زواج زيد بن حارثة بزينب وطلاقها – رضي الله عنهما -: تفسير القرطبي (١٤/١٨٦)، فتح القدير (٤/٢٨٣)، تفسير ابن عطية (١٢/٦٧)، تفسير الطبري (٢٢/١١)، دراسات في التفسير، (١١٢- ١١٥).

(٣) أبطل ذلك كله وهدمه من الأساس، أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا ﷺ أن يتزوج امرأة من تبناه بعد طلاقه إياها فتزوج رسول الله ﷺ زينب حتى لا يبقى للتبني أي أثر بعد ذلك ، ينظر : تفسير الطبري : (٢٢ / ٩ – ١٤) ، وفتح الباري : (٨ / ٥٢٣) ،والدر المنثور(٥/٢٠٠)، وصحيح مسلم : (٢ / ١٠٤٨) وغيرها .

(٤) النسخ يطلق في اللغة كما في الصحاح، والقاموس، واللسان بمعنى: الإزالة، وقد يطلق النسخ بمعنى نقل الشيء وتحويله من حالة إلى أخرى، مع بقائه في نفسه.

وفي اصطلاح العلماء:

عَرَّفَهُ إمام الحرمين الجويني بأنه: اللفظ الدال على انتفاء شرط دوام الحكم الأول.

وعرفه حجة الإسلام الغزالي بـ«الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدِّم، على وجه لولاه، لكان ثابتًا به مع تراخيه عنه».

ينظر: لسان العرب (٦/٤٤٠٧)، تاج العروس (٢/٢٨٢)، تهذيب اللغة (٧/١٨١)، المستصفى (١/١٠٧).

(٥) ينظر: فتح القدير (٤/٢٦٢)، تفسير القرطبي (١٤/١١٩)، دراسات في التفسير (٨٤، ٨٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولا يخفى أن الآية تحذر المؤمنين من إيذاء نبيهم ﷺ، وتربيهم على توقيره واحترامه وتوجههم إلى ألا ينسبوا شيئًا لا يلق به إليه ﷺ؛ على نحو ما كان يصدر من بعضهم إما نفاقًا، أو سهوًا أو غفلة، أو جهلًا، مثل قول المنافقين: إن محمدًا تزوج مطلقة ابنه، وشغبهم عليه في ذلك؛ بغية إنقاصه ﷺ(١).

ومثل ما وقع من ذلك الأعرابي، الذي حضر قسمة الرسول ﷺ للغنائم، فقال: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، اعدل، فتمعر وجه النبي ﷺ، وقال: «ويحك، فمن يعدل إذا لم أعدل أنا»(٢).

ومثل ما وقع من ذلك الرجل الذي تنازع مع الزبير بن العوام(٣) في ماء شراج الحرة(٤)، فلما حكم بينهما الرسول ﷺ اتهمه الرجل بمحاباة الزبير؛ لأنه كان ابن عمته ﷺ، فقال الرجل: «أن كان ابن عمتك يا رسول الله»(٥).

فمثل هذه الأمور التي كانت تحدث عن غفلة من أصحابها كانت تسبب أذى كثيرًا له ﷺ، فنبه الله عز وجل المؤمنين إلى ذلك، وحذرهم مما يؤذى رسولهم ﷺ بتتريههم عن أن يكونوا مثل هؤلاء الذين آذوا موسى، فأظهر الله براءته مما آذوه به(٦).

حيث برأ الله موسى عليه السلام من كثير من التهم والادعاءات التي افترى بها عليه بنو إسرائيل وآذوه بها ، ومن ذلك تبرئته مما كاد به قارون لموسى ، حيث حمل المومسة على اتهامه بمقارفتها ، وغير ذلك مما ذكر في مصادر عدة (٧) .

---

(١) ينظر: تفسير القرآن الكريم (١١/٤٣٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦/٣٨٣) كتاب الخمس، باب: ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم (٣١٥٠)، مسلم (٢/٧٣٩) كتاب الزكاة، باب: إعطاء من يخاف على إيمانه (١٤٠/١٠٦٢)، أحمد (١/٣٨٠ ، ٤٣٥).

(٣) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب الأسدي: حواري رسول الله ﷺ، وابن عمته صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة السابقين، وأحد البدريين، وأول من سل سيفا في سبيل الله، هاجر الهجرتين، وشهد المشاهد كلها، له ثمانية وثلاثون حديثا، توفي سنة ست وثلاثين هـ بعد منصرفه من وقعة الجمل، وقبره بوادي السباع من ناحية البصرة.

تنظر ترجمته في: خلاصة تذهيب تهذيب الكمال (١/ ٣٣٤)، تاريخ البخاري الكبير (٣/٤٠٩)، الكاشف (١/٣٢٠).

(٤) شراج الحرة بالكسر، وآخره جيم: مسيل الماء من الحرة إلى السهل؛ وهي بالمدينة التي خوصم فيها الزبير إلى النبي ﷺ.

ينظر: مراصد الاطلاع (٢/٧٨٧).

(٥) أخرجه البخاري (٩/١٢٩) كتاب التفسير، باب: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (٤٥٨٥)، مسلم (١٨٢٩) كتاب الفضائل، باب: وجوب إتباعه ﷺ (١٢٩/٢٣٥٧) .

(٦) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/١١٩).

(٧) ينظر: الكشاف (٤ / ٥٦٣) ، وتفسير أبي السعود (٤ / ٣٣٥) ، وتفسير القرآن الكريم (١١ / ٤٣٥٠) ، دراسات في التفسير (١٥١ – ١٥٢) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد برأ الله تعالى موسى عليه السلام من هذا كله، ولا جرم في ذلك فإنه – عليه السلام - ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أي: ذا وجاهه، ومنزلته عنده؛ فلذلك كان يميط عنه التهم، ويدفع الأذى، ويحافظ عليه؛ لئلا يلحقه وصم، ولا يوصف بنقيصة؛ كما يفعل الملك بمن له عنده قربة ووجاهة[١].

وحاصل ما ذكر أن الآية الكريمة توجب احترام رسول الله ﷺ وتوقيره، وتوجب اجتناب ما يؤذيه، والابتعاد عن التشبه بقوم موسى عليه السلام الذين آذوه، وقد برأه الله مما نسبوه إليه من التهم[٢].

وإذ تبين المضمون للقارئ ، فقد آن الأوان للحديث عن الخصائص البلاغية وهي :

ورد استعمال الاسم الموصول في الآية الكريمة مرتين:

الأولى: قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، فناداهم به في صدرها ؛ لما في مضمون الصلة من الإشعار بما ينبغي أن يكون عليه هؤلاء الناس من الاحترام والتوقير لرسول الله ﷺ، فهم قد آمنوا بالله تعالى ربًا، وآمنوا بمحمد ﷺ رسولًا من عند الله عز وجل، ومقتضى هذا الإيمان أن ينفروا عن كل ما يؤذي رسول الله ﷺ؛ فيكونوا أبعد الناس عنه؛ إذ كيف يؤذونه وقد آمنوا به وبرسالته ؟

والثانية: قوله: ﴿ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ ﴾ فعبر عمن وجهوا التهم المختلفة إلى موسى عليه السلام من بني إسرائيل بالاسم الموصول؛ لما في مضمون الصلة من الإشعار بذمهم وتحقيرهم، واشتهارهم بهذا الإيذاء.

وجاء ﴿ وَجِيهًا ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ نكرة؛ تعظيمًا له عليه السلام، وتنزيهًا عن هذا الذي لا يليق به من الاتهامات وأنواع الأذى.

والوجيه «مشتق من الاسم الجامد، وهو الوجه، الذي للإنسان، فمعنى كونه وجيهًا عند الله أنه مرعي عنه، مقبول له، مستجاب الدعوة»[٣].

وقد انتظمت الآية الكريمة خمس جمل فعلية، هي: ﴿ ءَامَنُواْ ﴾، ﴿ لَا تَكُونُواْ ﴾ ، ﴿ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ ﴾، ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ ﴾، ﴿ قَالُواْ ﴾ ، وقد جاء أربعة من هذه الجمل فعلها ماضٍ

---

(١) ينظر: الكشاف (٣/٥٦٣) ، تفسير أبي السعود (٤ / ٣٣٥) ، التحرير والتنوير (٢٢ / ١٢٠) .
(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/١٢٠)، تفسير القرآن الكريم (١١/٤٣٥١).
(٣) التحرير والتنوير (٢٢/١٢١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

للدلالة على تحقق وثبوت تلك الأحكام، فقد تحقق الإيمان وثبت فيمن آمن بمحمد ﷺ، كما تحقق فعل الإيذاء من بني إسرائيل لموسى عليه السلام، وثبت ما قالوه من القول الآثم في جنابه ﷺ، وقد دحض الله عز وجل افتراءاتهم بإظهار براءته عليه السلام، وهي براءة ثابتة محققة لا جدال فيها.

وفي مقابل هذا الأفعال الثابتة المحققة؛ جاء التعبير بالمضارع في قوله - تعالى-: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ للتحذير من الوقوع في الحال أو الاستقبال في شيء من الأمور التي تحقق وقوعها في الماضي؛ لأنه قد ثبت وتحقق أيضًا بطلانها وزيفها، وما فيها من الدلالة على ضلال أصحابها، وجهلهم وعنادهم؛ فلا يليق بمن يأتي بعدهم أن يكون مثلهم، أو ينحو منحاهم في ضلالاتهم وجهلهم.

ومن خلال علاقة هذه الآية الكريمة بما قبلها وما بعدها من الآيات تتجلى خصيصة من خصائص الأسلوب القرآني العظيم، هي الموازنة بين المختلفين؛ كالجمع بين الثواب والعقاب، والترغيب والترهيب، والمؤمنين والكافرين، والجنة والنار، والحق والباطل... وهكذا(١)؛ فقد بينت الآيات التي تقدمت هذه الآية الكريمة مصير الكافرين، وبينت ما أعده الله لهم من العذاب الأليم، فقال- تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٤- ٦٧].

وبعد أن ذكرت الآيات هذا المصير المخزي للكافرين، وما أبدوه من الندامة حين لا تنفع الندامة على كفرهم، ومخالفتهم لله ورسله، وطاعتهم لساداتهم وكبرائهم الذين أضلوهم الطريق الصحيح – أخذت في مقابل ذلك توجه المؤمنين إلى طريق الفوز العظيم، والسعادة الأبدية؛ فذكرت في مقدمة تلك السبيل الموصلة إلى الفوز الاعتبار بحال من مضوا من العصاة الذين عصوا الله وآذوا رسله؛ فكانت عاقبتهم ما ذكر من الخزي والندامة، ونجى الله تعالى أنبياءه ورسله، ونصرهم على من آذوهم، وبرأهم مما نسبوه إليهم من الأكاذيب والافتراءات؛ فرسم النظم القرآن بذلك الطريق الصحيح

---

(١) ينظر: دراسات في التفسير، (١٥٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

والنهج القويم الذي يجب أن يتبعه من يرجو الفوز؛ فإن عليه أن يتبع الرسول، ويحذر كل الحذر من إيذائه حتى لا يفضحه الله تعالى؛ كما فعل الله - تعالى - مع من آذوا موسى من اليهود، فنجاه الله تعالى من أذاهم، ونصره عليهم ؛ كما قال - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٩] .

فمهد الله بذلك للمؤمنين الطريق إلى الفوز، ووضعهم على أوله وجادته، ثم أخذ يوجههم إلى ما يأخذ بأيديهم خطوة خطوة في هذا الطريق الصحيح؛ حتى يصل بهم إلى غايتهم المرجوة[1]، ممثلة في الفوز بالنعيم الدائم في الآخرة، وهو ما عبرت عنه الآيات التي تلت الآية التي خصت بالحديث ، حيث قال - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١] .

ومن لطائف البلاغة في الآية الكريمة ما اشتملت عليه من التشبيه في قوله- تعالى-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ ﴾ ؛ وذلك لأن مدارك العقلاء في التنبيه إلى معاني الأشياء وملازماتها متفاوتة المقادير؛ ومن ثم لزم إيقاظ هذا العقول، وتحذيرها من الوقوع فيما وقع فيه السابقون من غفلة أو عناد ترتب عليهما إيذاء رسلهم صلوات الله عليهم أجمعين[2] ؛ كما حدث من قوم موسى معه عليه السلام؛ فيحذر الله تعالى أمة محمد ﷺ من أن تقع بينهم وبين هؤلاء الذين آذوا موسى مشابهة في إيقاع الإيذاء بالنبي؛ فتتشابه مصائرهم تبعًا لتشابه أعمالهم؛ فتكون عاقبتهم الخزي والندامة.

وتتمثل فائدة هذا التشبيه وثمرته في «تشويه الحالة المشبهة، لأن المؤمنين قد تقرر في نفوسهم قبح ما أوذي به موسى عليه السلام بما سبق من القرآن، كقوله: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ الآية[3]، ويُسمى هذا التشبيه بالتشبيه المرسل المجمل[1].

(١) ينظر: دراسات في التفسير، (١٥٠، ١٥١).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٢/١١٩).
(٣) السابق، الصفحة نفسها.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء لفظ الأذى في سياق التنفير منه حيث قال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الصف:٥].

وهذا القول كما يبدو من النظرة العجلى يعرض لموقف قوم موسى - عليه السلام - منه وما لحق به منهم من الأذى ، وما نالهم من العقاب بسببه ؛ ليكون في ذلك عبرة وعظة لأمة محمد ﷺ؛ فيجتنبوا ما يؤذي رسولهم؛ لينجوا بأنفسهم من عذاب الله وغضبه.

فموسى يستنكر ما يقع من قومه في حقه من الإيذاء مع أنهم موقنون بأنه رسول من الله تعالى إليهم ، جاء لهدايتهم وبما فيه خيرهم ، ومن هذا حاله، فحقه أن يُجل ويُحترم ويوقر، لان أن يؤذي ويهان . ولكن قوم موسى رغبوا عن الحق الذي جاء به موسى - عليه السلام – فكان جزاؤهم أن صرف الله قلوبهم عن قبول الحق، والميل إلى الصواب ؛ لأنهم آثروا الغي والضلال؛ وذلك لأن الله - تعالى-: ﴿ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي: أنه لا يلطف بهم؛ لأنهم ليسوا من أهل اللطف(٢).

ووجوه الإيذاء التي أوذي بها موسى كثيرة مثل: انتقاصه وعيبه في نفسه، وجحود آياته، وعصيانه فيما تعود إليهم منافعة، وعبادتهم البقر، وطلبهم رؤية الله جهرة، والتكذيب الذي هو تضييع حق الله وحقه عليه السلام(٣).

ولكن هذه الوجوه من الإيذاء ليس لها تعلق بالمقام هنا – كما يقول أبو السعود في تفسيره(٤) – وإنما المراد بالإيذاء الصادر منهم هنا هو عصياهم له حين ندبهم إلى قتال الجبابرة في أريحا(٥) بقوله: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا

---

(١) ينظر: صفوة التفاسير للصابوني(٢/٥٤١)

(٢) ينظر: الكشاف (٤/٥٢٤)، روح البيان (٩/٤٩٦)، تفسير أبي السعود (٥/٣٢٢)، التحرير والتنوير (٢٨/١٧٧-١٧٩).

(٣) ينظر: الكشاف (٢٨/١٧٧-١٧٩)، تفسير أبي السعود (٥/٣٢٣).

(٤) ينظر: تفسير أبي السعود (٥/٣٢٣).

(٥) أريحا: بالفتح ثم الكسر، وياء ساكنة، والحاء مهملة، والقصر، وقد رواه بعضهم بالخاء المعجمة، لغة عبرانية، مدينة الجبارين في الغور، وهي من أعمال فلسطين المحتلة.
ينظر: مراصد الإطلاع (١/٦٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

﴿تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ فلم يستجيبوا لمطلبه، ولم يمتثلوا لأمره، وإنما عصوه، ورفضوا أمره قائلين: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ...﴾ إلى أن قالوا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[١].

تلك لمحة سريعة عن المضمون والمحتوى الذي ضمه هذا القول الكريم ، أما بلاغته فهي ما سأحاول تبيانها في الآتي :

عبرت الآية الكريمة عن بني إسرائيل بلفظ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ مضافًا إلى هاء الغائب، العائدة إلى موسى عليه السلام، فقال - تعالى -: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ ، ولم يقل: «وإذ قال موسى لبني إسرائيل»؛ لأن في إضافة «القوم» إلى ضميره عليه السلام إشعارًا بحرصه ﷺ على صالحهم، ورغبته في إيصال الخير إليهم؛ لارتباطه بهم، وكونه منهم، وهم منه، تجمعهم أواصر القربى، وعلاقات الدم، والنسب، وفي ذلك إيماء إلى أنه ما كان ينبغي لهم أن يؤذوه وهو منهم بهذا المحل؛ فإن النفوس قد تتوقع إيذاء الأباعد، وتتحمله منهم، أما إيذاء الأقارب، فهو أشد وقعًا في النفوس، وابعد إيلامًا للمشاعر، ثم إنهم قد عرفوه وخبروه، وعلموا أنه يسعى لصالحهم، ونفعهم، ومن هذا حاله شأنه أن يكرم لا أن يؤذي.

وفي إضافة (رسول) إلى (الله) في قوله - تعالى - : ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ ؛ تذكير لهؤلاء المؤذين بشرف انتسابه عليه السلام إلى رب العزة تعالى، فالرسول يستمد شرفه ومكانته من شرف مرسله؛ فإذا كان موسى مرسلًا من عند ملك الملوك، وخالق الأمراء والسلاطين، ورازقهم ومدبر أمرهم ومفنيهم ، فإن من حقه أن يكون شريفًا مطاعًا، لا يحق لأحد أن يتوجه إليه بما يؤذيه أو يكرهه. ولا يخفى هنا ما في لفظ الجلالة من دلالة الهيبة والعظمة من تفخيم شأن رسوله في قلوب قومه؛ ليكون هذا زاجرًا لهم عن إيذائه، فضلاً عن عصيانه؛ فإن «من عرف الله وعظمته، عظم رسوله؛ علمًا بأن تعظيمه في تعظيم رسوله، ولأن من آذاه كان وعيد الله لاحقًا به»[٢].

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (١٧٧/٢٨)، تفسير أبي السعود (٣٢٢/٥).
(٢) الكشاف: (٥٢٤/٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وجاء لفظ ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ في قولـه – تعـالى - : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ معرفًا بلام العهد، أو الجنس؛ نظرًا إلى ما طلبه موسى - عليه السلام- من ربه سبحانه وتعالى حين عصاه قومه؛ فلم يستجيبوا لأمره بقتال الجبابرة بـ(أريحا)؛ حيث طلب - عليه السلام - من رب العـزة أن يفـرق بينه وبين القوم الظالمين؛ فيما حكاه الله – تعالى – بقولـه : ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٤، ٢٥]، فأجابه ربه- تعالى- بقولـه: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

فكون ﴿ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ في قوله- تعالى- في الآية التي هي مناط التحليل ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ ناظرًا إلى الفاسقين في هاتين الآيتين الكريمتين «هـو الـذي تقتضيه جزالة النظم الكريم، ويرتضيه الذوق السليم»[١]؛ كما يقول أبو السعود، ويقول الطاهر بن عاشور: «قد يكون وصفهم في هذه الآيـة بقولـه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ ناظرًا إلى وصفهم بذلك مرتين في أية سورة العقود – يعني: المائـدة – في قولـه: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ وقولـه: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[٢] " .

وفي تعجب موسى - عليه السلام - من حال قومه معه وإيذائهم له بقولـه: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ إيماء إلى أنه لو كان إيذاؤهم له عن جهل برسالته لكان قد يسوغ قبوله، أما وقد علموا برسالته، فإن إيذاءهم له مراراً إيذاء بعد آخر أمر في غاية الغرابة والنكارة ؛ ولذلك وجه موسى - عليه السلام - كلامـه إليهم مؤكدًا بأكثر من مؤكد[٣]؛ فأكده أولًا بـ(قد)؛ لتحقيق العلم[٤]؛ كما يدل لذلك

---

(١) تفسير أبي السعود (٣٢٣/٥).
(٢) التحرير والتنوير (١٧٧/٢٨).
(٣) ينظر: روح البيان (٤٩٦/٩)، الكشاف (٥٢٤/٤)، تفسير أبي السعود (٣٢٢/٥)، التحرير والتنوير (١٧٩/٢٨).
(٤) ينظر: تفسير أبي السعود (٣٢٢/٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قول ابن الحاجب[1]: «إنهم نقلوا (قد) إذا أدخلت على المضارع من التقليل إلى التحقيق»[2].

وبعد تأكيد حصول علمهم بـ(قد) أكده ثانية بـ(أن) المفتوحة؛ فحصل تأكيدان للرسالة، والمعنى: فكيف لا يجري أمركم على وفق هذا العلم ؛ فإن مقتضى علمكم برسالتي إيجاب تعظيمي وتوقيري، لا أن تؤذوني، وتستهينوا بي [3].

وجاءت الجملة المفيدة لعلمهم برسالته- عليه السلام -جملة فعلية فعلها مضارع؛ للدلالة على استمرار هذا العلم، وتجدده بتجدد آياته ودلائل نبوته ورسالته – عليه السلام – من المعجزات[4] والوحي وغير ذلك؛ والعلم المستمر المتجدد أجدى بدوام الامتثال لمقتضاه، ومن مقتضياته هنا تعظيم موسى عليه السلام لا إيذائه[5].

وهذه النكتة في المعنى لم يكن لتتأتى من التعبير بالفعل الماضي بأن يقول مثلًا (وقد علمتم أني رسول الله إليكم)؛ لأن الجملة حينئذ لم تكن لتدل على أكثر من حصول علمهم برسالته فيما مضى، ولعله قد طرأ عليه ما يبطله فكان في صيغة المضارع دفع لهذا التوهم، وإظهار لمدى غرابة فعلهم؛ ويكون المعنى على هذا: كيف يتسنى لكم إيذائي والحال أنكم تعلمون علمًا قطعيًّا مستمرًّا- بمشاهدة ما ظهر بيدي من المعجزات القاهرة التي معظمها إهلاك عدوكم -أني رسول الله إليكم؛ لأرشدكم إلى خير الدنيا والآخرة، ومن قضية علمكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمي، وتسارعوا إلى طاعتي[6].

---

(١) عثمان بن عمر أبي بكر بن يونس المعروف بابن الحاجب، أبو عمرو جمال الدين، كردى الأصل، ولد في إسنا سنة ٥٧٠هـ، ونشأ في القاهرة، ودرس بدمشق، وتخرج به بعض المالكية. من تصانيفه: مختصر الفقه، ومنتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل. توفي سنة ٦٤٦هـ.
ينظر: معجم المؤلفين (٦/٢٥٦).

(٢)الكافية في النحو، لابن الحاجب، شرح الإستراباذي (٢/٢٢٣)، وينظر في معاني (قد) مغني اللبيب (١٤٦-١٥١).

(٣) ينظر: الكشاف (٤/٥٢٤) ، والتحرير والتنوير (٢٨ / ١٧٩) .

(٤) المعجزة: أمر خارق للعادة يدعو إلى الخير والسعادة، مقرون بدعوى النبوة، قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله.
ينظر: لسان العرب، المصباح المنير (عجز)، تعريفات الجرجاني، (٢٣٤)، تعريفات ابن الكمال (٤٦٧).

(٥) ينظر: تفسير أبي السعود (٥/٣٢٢)، والتحرير والتنوير (٢٨/١٧٩).

(٦) ينظر: التحرير والتنوير (٢٨/١٧٩) ، تفسير أبي السعود (٥/٣٢٢، ٣٢٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ولما ذكر الله عز وجل القتال بقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، قرر ذلك بكلام مستأنف يدل على شناعة ترك القتال(١)، بالإشارة إلى إيذاء قوم موسى له بعصيان أمره بالخروج لقتال الجبابرة بـ(أريحا)، فقال - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ ...﴾ الآية ،وعلى هذا تكون الآية استئنافًا تقريريًّا.

وقد تكون استئنافًا ابتدائيًّا؛ فتكون انتقالًا إلى الحديث عن غرض جديد بعدما تم الكلام في الغرض السابق. والمناسبة بين الغرض السابق واللاحق قد تتمثل في كون : " هذه الآية تحذيرًا من مخالفة أمر الرسول - ﷺ - وعبرة بما عرض لهم من الهزيمة يوم أحد(٢)، لما خالفوا أمره من عدم ثبات الرماة في مكانهم، وقد تشابهت القصتان – أي: قصة المسلمين في أحد، وقصة بني إسرائيل في قتال (إريحا) - في أن القوم فروا يوم أحد؛ كما فر قوم موسى يوم (أريحا) وفي أن الرماة الذين أمرهم رسول الله - ﷺ - ألا يبرحوا مكانهم، وأن ينضحوا عن الجيش بالنبال؛ خشية أن يأتيه العدو من خلفه – لم يفعلوا ما أمرهم به، وعصوا أمر أميرهم عبد الله بن جبير(٣)، وفارقوا موقعهم؛ طلبًا للغنيمة، فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين.

وفي ذلك تعريض بأن يزيغ الله قلوب المخالفين لرسول الله - ﷺ - كما أزاغ الله قلوب قوم موسى .

وفي قوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ﴾ إيجاز بالحذف؛ لأن ﴿ إِذْ ﴾ هنا مفعول لفعل محذوف، خوطب به النبي ﷺ، أي: أذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين عن القتال ما وقع من أمر إيذاء بني إسرائيل لموسى بعصيان أمره بالقتال، وما ترتب على ذلك من

---

(١) ينظر: تفسير أبي السعود (٣٢٢/٥).

(٢) أحد: بضم الهمزة والحاء وبالدال المهملتين، قال ياقوت في معجمه وغيره: هو جبل أحمر ليس بذي شناخيب، بينه وبين المدينة أقل من فرسخ، وهو في شماليها، وكانت هذه الوقعة في شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور ، وشذ من قال سنة أربع.
ينظر: معجم البلدان (١٣٥/١)، سبل الهدى والرشاد (٣٥٦/٤).

(٣) عبد الله بن جبير بن النعمان بن أمية بن امرئ القيس، وهو البُرَك بن ثعلبة بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس الأنصاري الأوسي، ثم من بني ثعلبة بن عمرو، شهد العقبة وبدرا، وقتل يوم أحد.
ينظر: أسد الغابة (١٩٤/٣)، الثقات (٢٣٧/٣)، تهذيب التهذيب (١٤٣/٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن الله تعالى قد أزاغ قلوبهم، وصرفها عن قبول الحق والميل إليه؛ لأنهم قد صرفوا اختيارهم نحو الغي والضلال(١).

وتنوع بناء الآية بين الخبر والإنشاء، وقد مضى ما في الأخبار الواردة في الآية الكريمة نحو قوله: ﴿قَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ من الدلالة على التعجب من حال هؤلاء المؤذين وإنكار أذاهم، الذي ساقهم إلى الزيغ، فاستأهلوا بذلك عقاب الله تعالى بأن أزاغ قلوبهم.

وأما الإنشاء، فمنه النداء في قوله: ﴿يَاقَوْمِ﴾، وهو نداء للتلطف واستمالة قلوبهم نحوه، لكي يتخلوا عن موقف الإيذاء، ويستجيبوا لدعاء الحق تعالى؛ فيكون في هذا تمهيد للإنكار عليهم بقوله: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾، فهو استفهام إنكاري ينكر أن يكون لإيذائه سبب، وهو ما يؤكد زيغ هؤلاء المؤذين(٢).

وفي هذه الآية الكريمة خروج على خلاف مقتضى الظاهر بوضع المظهر موضع المضمر في قوله - تعالى - : ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ لأن قبله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، فكان تقدم التصريح بلفظ الجلالة مسوغًا للإضمار فيما بعده؛ فكان يجوز أن يقال: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وهو لا يهدي القوم الفاسقين» غير أنه عدل عن الإضمار إلى الإظهار؛ للإشعار بهيبة الله وعظمته في مقام العقاب؛ فإنه أشد في الزجر والردع.

كما أن في التصريح بالقوم الفاسقين أيضًا وضعًا للمظهر موضع المضمر؛ لأن سياق الآية قد جرى بعد ذكر القوم أول مرة على الإضمار؛ كما في ﴿تُؤْذُونَنِي﴾، و﴿تَعْلَمُونَ﴾، و﴿إِلَيْكُمْ﴾، و﴿زَاغُوا﴾، و﴿قُلُوبَهُمْ﴾ – فإن الضمائر المتصلة في ذلك، وهي واوا الجماعة، وكاف الخطاب، وهاء الغائب، تعود إلى هؤلاء القوم؛ فلو جرى على هذا المنوال، لقال: (والله لا يهديهم) لكنه عدل عن الإضمار إلى الإظهار؛ فصرح بذكر لفظ ﴿الْقَوْمَ﴾، ونعته بـ﴿الْفَاسِقِينَ﴾؛ لذمهم بالفسق، وتعليل عدم الهداية به(٣).

---

(١) ينظر: الكشاف (٤/٥٢٤)، تفسير أبي السعود (٥/٣٢٢، ٣٢٣)، التحرير والتنوير (٢٨/١٧٨).
(٢) ينظر: التحرير والتنوير (٢٨/١٧٨).
(٣) ينظر: تفسير أبي السعود (٥/٣٢٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقوله - تعالى - : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَـٰسِقِينَ ﴾ يدخل في باب التـــذييل، وهو «مقرر لمضمون ما قبله من الإزاغة، ومؤذن بعلته، أي: لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة، ومنهاج الحق، المصرين على الغواية»[1].

ويقول الشريف الرضي في قوله-تعالى- : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ ﴾ " فيها استعارة لأنه سبحانه لما زاغوا عن الحق حكم عليهم بالزيغ عنه ، وحكمه بـــذلك أن يأمر أوليائه بذمهم ،ولعنهم ،والبراءة منهم عقوبة لهم على ذميم فعلهم ، وقد يجوز أن يكون معنى ذلك أنهم لما زاغوا عن الحق خذلهم وأبعدهم وخلاهم واختيارهم ،وأضـــاف سبحانه الفعل إلى نفسه على طريق الاتساع لما كان وقوع الزيغ منهم مقابلا لأمره لهـــم باتباع الحق وسلوك الطريق النهج " [2].

ومن الألوان البديعية في الآية الكريمة الجناس الاشتقاقي بـــين ﴿ زَاغُوٓاْ.... أَزَاغَ ﴾ وسره الجمالي يكمن في أنه يميل بالسامع إلى الإصغاء فإن مناسبة الألفاظ تحـــدث مـــيلا وإصغاء فتشوق النفس إليها .

****

---

(١) السابق الصفحة نفسها، وينظر: التحرير والتنوير (١٧٩/٢٨).

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي(٢٨٩-٢٩٠)

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاتمة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الخاتمة

بعد حمد الله وتوفيقه ومنته ..وبعد هذه المعايشة الطيبة المباركة مع كتاب الله – عز وجل – عشت فيها ستة أعوام في موضوع بحثي :

بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة والأذى

أصل إلى نهاية المطاف ، وخاتمة البحث لأسجل أبرز ما أسفر عنه هذا البحث من نتائج وتوصيات ، وقبل ذلك أُذَكِّر بأن هذا البحث جاء في مقدمة ، وتمهيد ، وبابين ، في كل باب ثلاثة فصول ، وخاتمة ، وفهارس .

أما المقدمةُ: فقد تحدثت فيها عن أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، وخطة البحث، ومنهجه .

وأما التمهيدُ: فقد تحدثت فيه عن مفهوم الإساءة والأذى اقتراباً وافتراقاً ، والجانب الدلالي لكل منهما ، وأوجه الشبه ،والاختلاف بينهما ، والمعاني العدة التي ورد بها كل من :لفظ الإساءة ، ولفظ الأذى في القرآن الكريم .

أما الباب الأول : بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة ، سمته إلى ثلاثة فصول :

- § الفصل الأول: تحدثت فيه عن بلاغة القرآن الكريم في سياق التعبير عن الإساءة في بيان أفعال المسيئين ،وأقوالهم .
- § الفصل الثاني: تحدثت فيه عن بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة في سياق التنفير منها، والبراءة من المتصفين بها .
- § الفصل الثالث: تحدثت فيه عن بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة في سياق الجزاء وعداً ،ووعيدا ،وعدلا .

أما الباب الثاني :بلاغة القرآن الكريم في التعبيرعن الأذى فقسمته إلى ثلاثة فصول :

- § الفصل الأول : تحدثت فيه عن بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في سياق التكليف .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ الفصل الثاني : تحدثت فيه عن بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة .

§ الفصل الثالث : تحدثت فيه عن بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في سياق التنفير منه.

الخـــاتمة : وفيها ملخص البحث ، وأهم نتائجه ، وتوصياته .

الفهارس : وفيها ذكرت فهرس المصادر والمراجع ، وفهرس الموضوعات .

هذا هو ملخص البحث أما عن أهم النتائج التي أسفر عنها فهي :

١_ بالنظر في المعاجم العربية لمفهوم الإساءة والأذى وُجِد أنهما يقتربان في المفهوم من بعض الوجوه ، ويفترقان في بعضهما الآخر فبينهما أوجه للشبه ، وأوجه للاختلاف.

٢_ باستقراء مفهوم الإساءة، والأذى في القرآن الكريم وُجِد أنهما يقتربان في المفهوم من بعض الوجوه ، ويفترقان في بعضها الآخر ، فبينهما أوجه للشبه ، وأوجه للاختلاف .

٣_ أستطيع القول بأن مفهوم الإساءة، والأذى في القرآن الكريم إنما هو نابعٌ من مفهومهما في لغة العرب، وصدق الله العظيم القائــــــــل : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٥] .

٤_ قد تآزرت الفنون البلاغية من معان ،وبيان ،وبديع في تصوير معاني الإساءة والأذى الواردة في القرآن الكريم .

٥_ أثبتت هذه الدراسة أنه لم يكن من الممكن الوفاء بدراسة بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة والأذى من غير دراسة نظم الآيات التي وردت فيها لفظتا الإساءة والأذى على طريقة إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني بمعنى النظر في المفردات والتراكيب ، وعلاقة المفردات بالتراكيب ، والنظر في الأدوات التي تربط بين المفردات والتراكيب ، وكما فعل عبد القاهر نفسه في دراسته لبعض آيات القرآن الكريم مثل قوله - تعالى -: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود:٤٤] ،وكما فعل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

جار الله محمود بن عمر الزمخشري في كتابه الموسوم بالكشاف، فإنه كان تطبيقا لنظرية النظم على كلام الله عز وجل .

٦_ التعريف بالمصطلحات البلاغية الواردة في البحث من أمهات كتب البلاغة ووضع هذا التعريف في الهامش حتى تتحقق الفائدة .

٧_ ورد لفظ الإساءة في سياق القصة القرآنية الحقيقية فأدى دورا عظيما في تصوير بشاعة الحدث كما في قصة قابيل وهابيل ، وقصة يوسف على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام .

٨ _ تنوعت لفظة الإساءة في سياق التعبير عن أفعال المسيئين ،وأقوالهم مابين التعبير بالفعل المضارع، والماضي مبنيا للمعلوم، أو مبنيا لما لم يسمَّ فاعله ، والتعبير بالاسم جمعا، وإفرادا ،ومصدرا ، كما تنوع هذا الاسم _أيضا_ من الناحية الإعرابية مابين الفاعل ، ونائبه ،والمفعول به ، والمجرور ، والمضاف، والمضاف إليه مما كان له الأثر الكبير في أداء المعنى القرآني .

٩_ جاءت لفظة الإساءة في سياق التنفير منها ، والبراءة من المتصفين بها بصيغة الاسم المفرد الذي كان موقعه الإعرابي مفعولا به ، ومعطوفا ، ومجرورا ، كما كان التنوع في التعريف ، والتنكير، فقد جاء معرفة ونكرة مما ظهر أثره في أداء المعنى القرآني .

١٠_ تنوعت لفظة الإساءة في سياق الجزاء وعدا، ووعيدا، وعدلا ،جمعا وإفرادا ، كما تنوعت من الناحية الإعرابية بين المفعول به ،والمجرور ،والمضاف ،والصفة ،وكان التنوع أيضا في التعريف، والتنكير ،فقد جاء معرفة ونكرة ،وفي التذكير والتأنيث كذلك فقد جاءت مذكرة تارة ،ومؤنثة تارة أخرى مما كان له الأثر الكبير في أداء المعنى القرآني .

١١_ ورد لفظ الأذى في سياق التكليف في سبع آيات في القرآن الكريم من سورتي البقرة ، والنساء ، وقد تنوع التعبير باللفظ مابين الاسم والفعل ، كما تنوع من الناحية الإعرابية بين المعطوف ،والمرفوع ،والمجرور ، والمنصوب ، وتنوع من حيث التعريف والتنكير _أيضا_ مما ساعد على إبراز المعنى القرآني .

١٢_ وردت لفظة الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة في ثماني آيات في القرآن الكريم في كل من سورة آل عمران ،والأنعام، والأعراف ،وإبراهيم ،والعنكبوت ،والأحزاب ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد تنوعت اللفظة مابين التعبير بالاسم والفعل ، والتعبير بالفعل الماضي مبنيا للمعلوم ، أو مبنيا لما لم يُسمَّ فاعله ، والوقوع جملة معطوفة ،أو في محل نصب ، أو جملة ليس لها محل من الإعراب، وقد جاء اللفظ نكرة، وتنوع من الناحية الإعرابية مابين المفعول به ، والمضاف ، مما كان له الأثر في أداء المعنى القرآني .

١٣_ تنوع لفظ الأذى في سياق التنفير منه في سبعة مواضع في القرآن الكريم في كل من سورة التوبة ،والأحزاب ،والصف ، وقد جاء بصيغة الفعل الماضي ،والمضارع دون الاسم مبنيا للمعلوم ، أو مبنيا لما لم يُسمَّ فاعله ، وقد تنوع من حيث موقعه الإعرابي، حيث جاء مصدرا ،وجملة في محل رفع، وجملة في محل نصب، وجملة ليس لها محل من الإعراب مما أظهر المعنى في أجمل تعبير، وأحسن صورة .

وأما عن التوصية :

فقد أوصى البحث بدراسة بلاغة الحديث النبوي الشريف في سياق التعبير عن الإساءة والأذى .

كانت هذه هي أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها في هذا البحث ، وأسأل الله أن أكون بهذا قد ساهمت في خدمة كتاب الله - عز وجل - ولو بالشيء اليسير ، فهذا جهد المقل عسى الله أن يتقبله مني ، فما كان فيه من زلل أو تقصير فمن نفسي والشيطان ، وما كان فيه من صواب واستحسان ،فهو بفضل الله ومنه وتوفيقه .

والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ...

****

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الفهارس

١- فهرس المصادر والمراجع

٢- فهرس الموضوعات

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(١) فهرس المصادر والمراجع

§ القرآن الكريم

§ الإبداع البياني في القرآن العظيم للشيخ محمد الصابوني ،المكتبة العصرية ، صيدا،بيروت،(ط١)١٤٢٦هـ ـ٢٠٠٦م.

§ إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ،لمرتضى الزبيدي أبو الفيض محمد بن محمد الحسيني ،تصنيف محمد الزبيدي ،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان(ط١)١٩٨٩م.

§ الإتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدين السيوطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

§ الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء، تحقيق: محمد حامد الفقي، البابي الحلبي، القاهرة.

§ أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، لمحمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي، تحقيق: د. عبد الملك بن عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، (ط٢) ١٤١٤هـ.

§ الاختصار والتكميل لشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ،لبهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمن ابن عقيل،مكتبة دار التراث ،القاهرة(ط٢٠)،١٤٠٠هـ ـ١٩٨٠م-وطبعة أخرى اختصار وتكميل: مؤمن صبري غنام، مكتبة الرشد، الرياض(ط١)٢٠٠٤م .

§ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، المعروف بمعجم الأدباء،للشيخ الإمام شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ، طبعة دار المأمون_ وطبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٧٩م.

§ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للعلامة أبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني، دار الفكر، بيروت، تصوير ١٩٧٤م.

§ الأُزهية في علم الحروف، للهروي، تحقيق: عبد المعين الملوحي، دمشق، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.

§ أساس البلاغة، للزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م.

§ أسباب النزول،لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، طبعة ونشر دار إحياء التراث الإسلامي، وطبعة أخرى للشركة الجزائرية اللبنانية(ط١)١٤٢٧هـ ـ٢٠٠٦م.

§ الاستيعاب لابن عبد البر، تحقيق: علي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١)١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

§ أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض وآخرين، دار

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكتب العلمية، بيروت، (ط١)١٤١٥ هـ ـ١٩٩٥م.

§ أسرار البلاغة في علم البيان، للإمام عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة،وطبعة أخرى علق عليها السيد محمد رشيد رضا،دار المعرفة،بيروت،لبنان(دت)(دط).

§ أسرار التكرار في القرآن المسمى(البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)،لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني،تحقيق:عبد القادر أحمد عطا ،دار الفضيلة ، القاهرة(دت)(دط).

§ الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، لعز الدين بن عبد السلام، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨م_وطبعة أخرى قدّم لها:رمزي سعد الدين دمشقية،دار البشائر الإسلامية(ط١)١٤٠٨هـ ـ١٩٨٧م.

§ الأشباه والنظائر في النحو، للإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الله سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، (ط١) ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٥م.

§ إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في ضوء البيان القرآني ،للدكتور محمود توفيق سعد ،مطبعة الأمانة، القاهرة،(ط١)١٩٩٢م .

§ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١)، ١٤١٥ هـ ـ١٩٩٥م.

§ الأصنام، لأبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق: الأستاذ أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، (ط٣)، ١٩٩٥م.

§ الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، للعصام بن عربشاه، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

§ الاعتصام، للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٥هـ.

§ الإعجاز في نسق القرآن، دراسة للفصل والوصل بين المفردات، د. محمد أمين الخضري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.

§ إعراب القرآن لأبي جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، (ط٣)، ١٩٨٨م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ الأعلام، لخير الله الزركلي ، دار العلم للملايين، بيروت،(ط٧)، ١٩٨٦م.
§ إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، دار الجيل، بيروت ١٩٧٣م.
§ أعلام النساء، لعمر رضا كحالة، دمشق، ١٣٥٩ هـ-١٩٤٠م.
§ الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٢م.
§ الأكسير في علم التفسير،للفقيه الطوفي سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الصرصري،حققه:د/عبد القادر حسين ،مكتبة الآداب ،المطبعة النموذجية١٩٧٧م.
§ الأم، لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
§ أمالي ابن الحاجب،لجمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر،دراسة وتحقيق: فخر صالح سليمان قدارة ، دار عمار،عمان، الأردن،١٩٨٩م.
§ أمالي القالي ،لأبي علي اسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون ،ويليه ذيل الأمالي والنوادر للمؤلف، وكتاب التنبيه لأبي عبيد البكري ،مصور عن الطبعة الثانيه ،دار الكتب المصرية، القاهرة١٩٢٦م _دار الأفاق الجديدة،بيروت،لبنان١٩٨٠م .
§ إمتاع الأسماع بما للنبي _ ﷺ _ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع ،لتقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي ،تحقيق وتعليق :محمد عبد الحميد النميسي ،دارالكتب العلمية،بيروت،لبنان (ط١)١٩٩٩م .
§ الأمثال والحكم، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، صححه وعلق عليه: فيروز حريرجي، المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية، دمشق، (ط١)، ١٩٨٧م.
§ إنباه الرواة على أنباه النحاة، لعلي بن يوسف القفطي، دار الكتب المصرية، ١٣٧٤هـ.
§ الإنصاف إلى معرفة الراجح من الخلاف للعلامة علاء الدين أبي الحسن علي بن سليمان المرداوي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، (ط٢).
§ الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ،لناصر الدين أحمد بن المنير،على هامش الكشاف.
§ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، لابن هشام: جمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة المصرية، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م.
§ الإيضاح في علوم البلاغة، لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، تقديم وتبويب وشرح الدكتور العلي بو ملحم، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، (ط٢)، ١٩٩١م-

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وطبعة أخرى صححها الشيخ بهيج غزاوي ،دار إحياء العلوم ، بيروت،لبنان(ط٢)١٤١٢هـ١٩٩٣م.

§ البحث البلاغي في الربع الأول من تفسير ابن عطية، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر.

§ البحث البلاغي في تفسير ابن كمال باشا، لطفي السيد صالح قنديل، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر.

§ البحر الرائق شرح كنز الدقائق، لابن نجيم، دار الكتاب الإسلامي، بيروت. وطبعة أخرى، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

§ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني طبعة بالأوفست من طبع دار الكتب العلمية ببيروت، (ط٢)، ١٤٠٦هـ١٩٨٦م.

§ بداية المجتهد ونهاية المقتصد ،لابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد الأندلسي ،دار المؤيد، الرياض، ١٩٩٧م .

§ البداية والنهاية لابن كثير، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة. وطبعة أخرى، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

§ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ،لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ،مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٤٨ .

§ البديع في البديع في نقد الشعر،لأسامة بن منقذ،تحقيق:عبد آ.علي مهنا،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان(ط١)١٤٠٧هـ١٩٨٧م.

§ بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري،تحقيق:حفني محمد شرف ،مكتبة نهضة مصر بالفجالة(ط١)١٣٧٧هـ١٩٥٧م.

§ البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، تحقيق: يوسف المرعشلي وآخرين،دار المعرفة، بيروت(ط١)، ١٤١٠ هـ١٩٩٠م-وطبعة أخرى تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم ،المكتبة العصرية،صيدا،بيروت(ط٢)١٣٩١هـ١٩٧٢م.

§ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، (ط٢) ١٤٠٦ هـ١٩٨٦م-وطبعة أخرى المكتبة العلمية،بيروت،لبنان(دت)(دط).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي، ط. صبيح ١٣٩٢هـ.

§ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، (ط٢) ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

§ بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم ،دكتور علي أبو القاسم عون ،دار المدار الإسلامي(ط١)٢٠٠٦م.

§ بيان التشبيه،دراسة تاريخية فنية ،للدكتور عبد الحميد العيسوي ،(ط١)مطبعة القاهرة الجديدة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

§ البيان في روائع القرآن،دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني ،للدكتور تمام حسان ،ط عالم الكتب، القاهرة(ط١) ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

§ البيان في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

§ البيان القرآني، د. محمد رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، (ط١)، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٢م.

§ البيان والتبيين لعمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

§ تاج العروس من جواهر القاموس «شرح القاموس»، للإمام اللغوي محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، حكومة الكويت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

§ تاريخ ابن خلدون المسمى« كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر »،للعلامة ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني ،بيروت ١٩٩٩م.

§ تاريخ أبي الفداء وهو المختصر في أخبار البشر للملك المؤيد إسماعيل أبي الفداء، طبع بمصر، ١٣٥٢ هـ.

§ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، طبعة مصورة، دار الكتاب العربي، بيروت.

§ تاريخ الجبرتي المعروف « بعجائب الآثار في التراجم والأخبار »،لعبد الرحمن بن حسن الجبرتي ، تحقيق:إبراهيم شمس الدين،مطبعة الأنوار المحمدية ١٩٨٦م.

§ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، لحسين بن محمد بن الحسن الديار بكري ، مطبعة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عثمان عبد الرازق،١٣٠٢.

§ تاريخ دمشق، لابن عساكر، المكتبة الظاهرية، دمشق.

§ تاريخ الشعراء الحضرميين، لعبد الله بن محمد السقاف، طبع بمصر، ١٣٥٣هـ.

§ التاريخ الكبير،لأبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان١٩٨٦م .

§ تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام ،لبرهان الدين أبو الوفا إبراهيم بن علي بن فرحون ، تعليق : جمال مرعشلي ،دار عالم الكتب، الرياض(ط١) ٢٠٠٣م .

§ التبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري، تحقيق: علي البجاوي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

§ التبيان في علم المعاني والبديع والبيان، لشرف الدين الطيبي، تحقيق: د. هادي عطية مطر الهلالي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، (ط١) ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

§ تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق ،للعلامة فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي، وبهامشه حاشية الشيخ الشلبي، (ط٢) دار المعرفة، بيروت، (دت).

§ تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع المصري،تحقيق:حفني محمد شرف،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ،١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

§ التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس،(ط١)، ١٩٨٥م-وطبعة أخرى١٩٩٧م.

§ تذكرة الحفاظ، للذهبي، تصوير بيروت، ١٩٩٠م.

§ التشبيه والكناية بين التنظير البلاغي والتوظيف الفني،للدكتور عبد الفتاح عثمان،مكتبة الشباب،١٩٩٣م .

§ التصاريف،تفسير القرآن مما اشتبهت اسماؤه وتصرفت معانيه ،ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة ، تحقيق: هند شلبي ،الشركة التونسية للتوزيع ،تونس١٩٨٠م.

§ تصريف الأفعال، د. عبد الرحمن محمد شاهين، القاهرة.

§ التصوير الفني في القرآن ،لسيد قطب،دار الشروق، القاهرة،(ط١٧)١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

§ التعريفات للعلامة الشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١)، ١٣٥٧هـ- ١٩٣٨م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ التعريفات، لابن الكمال، بيروت، لبنان.
§ تفسير ابن كمال باشا، محمد إبراهيم عبد الحليم، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة، ١٤١٩هـ١٩٩٨م.
§ تفسير أبي السعود المسمى بـ«إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، لمحمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبي السعود، نشر مطبعة عبد الرحمن محمد، القاهرة-وطبعة أخرى وضع حواشيها عبد اللطيف عبد الرحمن ،دار الكتب العلمية ، بيروت،لبنان(ط١)١٤١٩هـ١٩٩٩م.
§ تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت (ط١) ١٤٢٢هـ٢٠٠١م .
§ تفسير البغوي المعروف بـ «معالم التنزيل» لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي دار المعرفة، بيروت، (ط١)، ١٤٠٦هـ١٩٨٦م.
§ تفسير البيضاوي المسمى بـ« أنوار التنزيل وأسرار التأويل »،تأليف:ناصر الدين عبدالله بن عمرالبيضاوي،دار الكتب العلمية ودار الفكر،بيروت،لبنان(ط١)١٤٠٨هـ١٩٨٨م-وطبعة أخرى لمصطفى الحلبي ١٣٢٢هـ- ومطبعة بولاق.
§ تفسير الثعالبي المسمى بـ«الجواهر الحسان في تفسير القرآن»، لعبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
§ تفسير الجلالين على هامش الفتوحات الإلهية ، دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان(ط١)١٤١٦هـ١٩٩٦م .
§ تفسير الخازن المسمى بـ«لُباب التأويل في معاني التنزيل» للعلامة علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، ط دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١)، ١٤١٥هـ١٩٩٥م.
§ تفسير الطبري المسمى «جامع البيان في تأويل القرآن» للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان (ط١)، ١٤١٢هـ١٩٩٢م_وطبعة أخرى دار المعارف(ط٢)،وطبعة(ط٣)١٤٢٠هـ١٩٩٩م .
§ تفسير القاسمي المسمى بـ «محاسن التأويل » ، لمحمد جمال الدين القاسمي، دار الفكر، بيروت، (ط٢)، ١٣٩٨هـ١٩٧٨م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الـرازي، دار الفكـر، بيروت، ١٤٢٤هـ ـ٢٠٠٣م.

§ تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرين، طبعة مكتبـة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، وطبعة أخرى طبعة الحلبي، (ط١)، ١٤٢١هـ ـ٢٠٠٠م.

§ تفسير القرآن الكريم، د. عبد الله شحاتة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيـع، القـاهرة، ٢٠٠٠م.

§ التفسير القيم لابن قيم الجوزية، جمع: محمد أويس الندوي، تحقيق: محمد حامـد الفقـي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

§ التفسير الكبير المسمى بـ« مفاتيح الغيب »،للإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر المعـروف بخطيـب الـري،دار الكتـب العلميـة، بـيروت،لبنـان، (ط١)، ١٤١١هـ ـ١٩٩٠م-وطبعـة أخـرى تحقيـق:دار إحيـاء التـراث العربي،بيروت،لبنان(ط٤)١٤٢٢هـ ـ٢٠٠١م .

§ تفسير المراغي، للشيخ أحمد مصطفى المراغي، طبعة الحلبي، القاهرة.

§ تقريب التهذيب، لابن حجر، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار المعرفة، بـيروت (ط٢)، ١٣٩٥هـ ـ١٩٧٥م.

§ تلخيص البيان في مجازات القرآن ،للشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى ،عالم الكتب،مكتبة النهضة العربية، بيروت(ط١)١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م .

§ التلخيص في علوم البلاغة، وهو تلخيص كتاب «مفتاح العلوم»، للخطيب القـزويني، عبـد الكريم بن محمد، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

§ تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير ،لابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ، ليدن ١٨٩٢-وطبعة أخرى تحقيق: علي حسن، مكتبة الآداب ١٩٧٥م .

§ التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح لابن بري أبو محمد عبد الله بن عبد الجبـار المقديـسي المصري ، تحقيق وتقديم: مصطفى حجازي ،الهيئة المصرية العامة للكتاب(ط١) ١٩٨٠م .

§ تنزيه القرآن عن المطاعن ،للقاضي عبد الجبار،دار النهضة الحديثة ،بيروت ،لبنان(دت).

§ تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، تصوير، دار الكتب العلمية، بيروت.

§ تهذيب التهذيب لابن حجر، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، (ط١)، ١٣٢٥ هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ تهذيب الكمال في أسماء الرجال، لأبي الحجاج يوسف المزي، تحقيق: د. بشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (ط٤)، ١٤١٣هـ ـ١٩٩٢م .

§ تهذيب اللغة، للأزهري أبي منصور، تحقيق: محمد علي النجار، مطابع سجل العرب، (ط١)، ١٩٧٦م.

§ التوقيف على مهمات التعاريف، لمحمد عبد الرءوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، بيروت، (ط١)، ١٤١٠هـ ـ١٩٩٠م.

§ الثقات، محمد بن حبان التميمي البستي، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، الهند، (ط١)، ١٤٠١هـ ـ١٩٨١م.

§ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي ،تحقيق:محمد خلف الله ،ومحمد زغلول سلام ،دار المعارف(ط٤)،القاهرة،١٣٧٦هـ ـ١٩٥٦م .

§ الجامع الكبير «سنن الترمذي» لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط٢) ١٩٩٨م، وطبعة أخرى بتحقيق: أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، (ط٢)، ١٣٩٨هـ ـ١٩٧٨م.

§ الجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١) ١٤٠٨هـ ـ١٩٨٨م_وطبعة أخرى تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، المكتبة العصرية ،صيدا،لبنان،١٤٢٧هـ ـ٢٠٠٦م ،(دط) .

§ الجملة الاسمية، د. عبد المقصود محمد عبد المقصود، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٣م.

§ جمهرة الأمثال ،لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري،تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعبد المجيد قطامش ،(ط٢)،دار الجيل،بيروت، ١٩٨٨م .

§ جمهرة الأنساب، المسمى: «جمهرة أنساب العرب»، لابن حزم، مصر، ١٩٤٨م.

§ الجنى الداني في حروف المعاني، للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، د. محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١) ١٤١٣هـ ـ١٩٩٢م.

§ حاشية الجمل على شرح المنهج ،للشيخ سليمان الجمل،على شرح المنهج للشيخ زكريا الأنصاري ،المكتبة التجارية الكبرى،القاهرة_وطبعة أخرى،دار الفكر(ط١)بيروت(دت).

§ حاشية الخضري، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٥٩هـ.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، لمحمد عرفة الدسوقي، تحقيق: محمد عليش، دار الفكر، بيروت.
§ حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي، المكتبة الإسلامية محمد ازدمير، ديار بكر، تركيا.
§ حاشية الشيخ شهاب الدين أحمد الشلبي على تبيين الحقائق بهامشه، دار المعرفة، بيروت، (ط٢)(دت).
§ الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي،وهو شرح مختصر المزني ،صنفه: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ،تحقيق: علي محمد معوض،وعادل أحمد عبد الموجود ،دار الكتب العلمية، بيروت(ط١)١٤١٤هـ ١٩٩٤م .
§ حروف المعاني ،صنفه: أبوالقاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي ، تحقيق: علي توفيق الحمد،مؤسسة الرسالة، بيروت(ط٢) ١٩٨٦م .
§ الحماسة المغربية ،مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب ،لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي ،تحقيق:محمد رضوان ،دار الفكر المعاصر، بيروت(ط١)١٩٩١م .
§ خزانة الأدب وغاية الأرب،لأبي بكر بن علي بن عبد الله المعروف بابن حجة الحموي ، تحقيق:كوكب دياب،دار صادر ،بيروت،لبنان(ط١)١٤٢١هـ ٢٠٠١م .
§ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، للبغدادي: عبد القادر بن عمر، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، (ط٤)، ١٩٧٧م.
§ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال، للخزرجي، تحقيق: محمود فايد، مكتبة القاهرة، مصر.
§ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط١)، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤م.
§ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١)، ١٤١١هـ ١٩٩٠م، وطبعة أخرى طبعة طهران.
§ دراسات بلاغية د. بسيوني فيود، ط، مؤسس المختار، دار المعالم الثقافية، الأحساء، القاهرة
§ دراسات في بعض القضايا النحوية «الحال، والتمييز، والمجرورات» د. السيد أحمد علي، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
§ دراسات في التفسير، د. محمد نبيل غنايم، دار الهداية للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، (ط٣)، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ دراسات في علم المعاني، د. حسن طبل، مكتبة الزهراء، القاهرة.
§ دُرَّة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز ،لأبي عبد الله محمد المعروف بالخطيب الإسكافي ،برواية ابن أبي الفرج الأردستاني (ط١)،دار الكتب العلمية ، بيروت،لبنان،١٤١٦هـ١٩٩٥م .
§ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، (ط١) ١٣٤٩ هـ.
§ دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق وتعليق: أ. محمود محمد شاكر، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠م،و(ط٣)الخانجي_وطبعة أخرى تعليق :د/محمد ألتنجي ،دار الكتاب العربي ،بيروت ، لبنان(ط١)١٤١٥هـ١٩٩٥م .
§ دلائل النبوة، للبيهقي، أحمد بن حسين البيهقي، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط١)، ١٤٠٥هـ١٩٨٥م.
§ دور الطبيب المسلم في الدعوة الإسلامية ،للدكتور علي محمد حسن فرح ،كلية أصول الدين،القاهرة،قسم الدعوة ١٤١٨هـ١٩٩٧م .
§ ديوان الإمام الشافعي، جمع وترتيب وشرح: محمد عبد الرحيم، (ط١)، دار الفكر، لبنان ١٤١٧هـ١٩٩٧م.
§ ديوان أبي تمام، بشرح الصولي، دراسة وتحقيق: د. خلف رشيد نعمان.
§ ديوان أبي العتاهية، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، ١٤٥٠هـ- ١٩٨٠م.
§ ديوان أبي فراس الحمداني ،الحارث بن أبي العلا سعيد بن حمدان ، شرح : يوسف شكري فرحات ،دار الجيل، بيروت (ط١) ١٩٩٣م .
§ ديوان ابن الرومي، تحقيق: د. حسين نصار، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٧٧م.
§ ديوان امرؤ القيس ، تحقيق :محمد أبو الفضل إبراهيم ،دار المعارف بمصر(ط١)١٩٥٨م_وطبعة أخرى دار بيروت للطباعة والنشر١٤٠٦هـ١٩٨٦م .
§ ديوان بشار بن برد ،أبو معاذ بشار بن برد العقيلي ،شرح وتحقيق : محمد الطاهر بن عاشور صنعة عاشور،مصر__وطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، تعليق : محمد رفعت فتح الله ، محمد شوقي أمين ، القاهرة ،١٩٥٠م .
§ ديوان جرير،مُلحق ديوانه ،جرير بن عطية بن حذيفة ،تحقيق: نعمان محمد أمين طه ،دار

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المعارف بمصر، ١٩٧١م_وطبعة دار صادر، بيروت(دت) .

§ ديوان الخنساء ،تماضر بنت عمرو بن الحارث ،شرح : أبو العباس أحمد بن يحيى بن سيار الشيباني النحوي ،تحقيق: أنور أبو سويلم ،دار عمار،عمان، الأردن (ط١)١٩٨٨م .

§ ديوان الشنفرى ،عمرو بن مالك الأزدي، تقديم : طلال حرب،دار صادر،بيروت(ط١) ١٩٩٦م وطبعة الميمني .

§ ديوان كثير عزة، شرحه: عدنان زكي درويش، دار صادر، بيروت، (ط١)، ١٩٩٤م.

§ ديوان المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى «التبيان في شرح الديوان» بعناية مصطفى السقا وآخرين، القاهرة ١٩٥٦م.

§ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لعلي بن بسام، مصر، ١٣٦٤هـ.

§ الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

§ الرد على النحاة ،لابن مضاء القرطبي، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد القرطبي ، تحقيق: شوقي ضيف ،دار المعارف ،مصر(دت)_ وطبعة أخرى تحقيق : محمد إبراهيم البنا ،دار الاعتصام ، القاهرة (ط١)١٩٧٩م .

§ رصف المباني في شرح حروف المعاني، لأحمد بن عبد النور المالقي، تحقيق: أحمد الخراط، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

§ روح البيان في تفسير القرآن، للحقي، البابي الحلبي، القاهرة.

§ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة شهاب الدين محمود الألوسي ، دار الفكر،بيروت،لبنان- وطبعة أخرى،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان(ط١)١٤٢٢هـ١٠٠٢م.

§ روضة الطالبين لأبي زكريا يحي بن شرف النووي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٣٩٥م.

§ زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، طبعة المكتب الإسلامي.

§ زاد المعاد في هدي خير العباد محمد، للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، المكتبة المصرية القاهرة.

§ سبل الهدى والرشاد، للصالحي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، (ط٢)، ١٤١٤هـ١٩٩٣م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١)، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
§ سنن الدارقطني للإمام علي بن عمر الدارقطني وبذيله التعليق المغني على الدارقطني، ط عالم الكتب، بيروت، (ط٤)، ١٤٠٦ هـ١٩٨٦م.
§ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، دار الجنان، بيروت، (ط١)، ١٤٠٩ هـ١٩٨٨م.
§ سنن ابن ماجه، للحافظ أبي عبد الله محمد بن زيد القزويني، تحقيق: بشار عواد، دار الجيل، بيروت، (ط١)، ١٤١٨ هـ١٩٩٨م، وطبعة أخرى بتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بدار إحياء الكتب العربية، (ط٢)، ١٩٩٠م.
§ سنن النسائي للحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، وعليها شرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار المعرفة، بيروت، (ط٣)، ١٤١٤ هـ١٩٩٤م.
§ سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: شعيب الأرناءوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، (ط٣)، ١٤٠٦هـ١٩٨٦م.
§ السيرة النبوية لابن هشام، مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، (ط٢)، ١٣٧٥هـ١٩٥٥م.
§ سيرة ابن هشام، تحقيق: محمد خليل هراس، مكتبة زهران، القاهرة.
§ شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
§ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، لعلي بن محمد الأشموني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، (ط١)، ١٩٥٥م.
§ شرح شواهد المغني لعبد الرحمن بن الكمال السيوطي، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.
§ شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، لابن عقيل: بهاء الدين عبد الله بن عقيل، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، القاهرة، (ط٢٠)١٤٠٠هـ١٩٨٠م _وطبعة أخرى مع كتاب منتخب ماقيل في شرح ابن عقيل ،تأليف: يوسف الشيخ البقاعي، دار الفكر،بيروت،لبنان ١٤١١هـ١٩٩١م .
§ شرح معاني الآثار ،لأبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي ،تحقيق : محمد زهري النجار، ومحمد سيد جاد الحق،(ط١) عالم الكتب، بيروت ١٩٩٤م .
§ شرح المفصل، لابن يعيش: موفق بن علي، مكتبة المتنبي، القاهرة، ١٤١١هـ١٩٩٠م.
§ شرح المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ،للزرقاني أبو عبد الله محمد عبد الباقي المصري المالكي ، وبهامشه زاد المعاد لابن القيم ،دار المعرفة، بيروت ١٩٩٣م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ شروح التلخيص، نخبة من العلماء، دار السرور، بيروت، لبنان .
§ شعب الإيمان ،لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق : محمد زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت(ط١)١٩٩٠م.
§ الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (ط٣)، ١٩٧٧م، وطبعة أخرى، دار صادر، بيروت.
§ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، لتقي الدين الفاسي المكي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
§ الصاحبي في فقه اللغة، لابن فارس، تحقيق: أ. السيد أحمد صقر، مطبوع ضمن سلسلة الذخائر.
§ الصحاح، لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط١) ١٤٢٠هـ ـ١٩٩٩م.
§ صحيح البخاري دار الفكر بيروت، ١٤١٤هـ ـ١٩٩٣م، وطبعة أخرى دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، (ط١)، ١٤١٠هـ ـ١٩٨٩م.
§ صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج القشيري، طبعة رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٠هـ ـ١٩٨٠م.
§ صفة جزيرة العرب، للهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، بيروت، ١٣٩٤هـ ـ١٩٧٤م.
§ صفوة التفاسير، لمحمد بن علي الصابوني، مطبعة دار القرآن الكريم، بيروت_وطبعة أخرى دار الصابوني، القاهرة(ط٩) (دت).
§ الصناعتين (الكتابة والشعر)، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم،طبعة الحلبي، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م.
§ طبقات ابن سعد (الطبقات الكبرى)،لمحمد بن سعد بن منيع الزهري ،تحقيق: علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي (ط١)١٤٢١هـ ـ٢٠٠١م .
§ طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، (ط١)، ١٤٠٧ هـ ـ١٩٨٧م.
§ طبقات الشافعية الكبرى ،للسبكي، تحقيق :عبد الفتاح الحلو ،ومحمود الطناحي، مطبعة عيسى البابي (ط١)١٣٨٨هـ .
§ طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجُمَحي، طبع في مصر، ١٩٥٢م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، طبع في مصر، ١٣٧٣هـ ــ١٩٥٤م.
§ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ،للإمام يحي بن حمزة العلوي، تحقيق: سعيد بن علي المرصفي، مطبعة المقتطف، مصر، ١٣٣٢هـ ــ وطبعة أخرى تحقيق :عبد الحميد هنداوي ،المكتبة العصرية ،صيدا،بيروت(ط١)،١٤٢٣هـ ــ٢٠٠٢م .
§ طرح التثريب في شرح التقريب ،لأبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ،مطبعة جمعية النشر والتأليف الأزهرية ١٣٥٣ .
§ العبر في خبر من غبر ،لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق : محمد زغلول، دار الكتب العلمية ، بيروت (ط١)١٩٨٥م .
§ العَرْف الطيِّب في شرح ديوان أبي الطيب، للشيخ اليازجي، دمشق.
§ عروس الأفراح ،لبهاء الدين السبكي ،ضمن (مجموعة شروح التلخيص) ،طبعة عيسى الحلبي،مصر،١٩٣٧م .
§ العقد الفريد، لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (ط٣) ١٤٢٠هـ ــ١٩٩٩م.
§ علم البيان د. عبد الفتاح بسيوني، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٨٧م.
§ علم البيان ،دراسة ميسرة لفنونه وصلتها بالرمز ،د/عبد الموجود متولي (ط١)،مكتبة المتنبي، الدمام ،السعودية .
§ علم المعاني- البيان- البديع ، للدكتور عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية، بيروت(دط)(دت) .
§ علم المعاني في ضوء تفسير روح البيان، لعبد الحافظ محمد عبد الحافظ، القاهرة.
§ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني ،تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،دار الجيل ، بيروت،لبنان (دت)(دط) .
§ عمدة القاري شرح صحيح البخاري ،للعلامة بدر الدين العيني ،تحقيق: عبد الله محمود عمر،دار الكتب العلمية ،(ط١) ١٤٢١هـ ــ٢٠٠١م .
§ عناية القاضي وكفاية الراضي «حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي»، ط. بولاق.
§ العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق : مهدي المخزومي ،وإبراهيم السامرائي ،مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،بيروت ،لبنان ١٤٠٨هـ .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ غاية النهاية في طبقات القراء، للجزري، مكتبة المتنبي، القاهرة.
§ الفاصلة القرآنية، د. عبد الفتاح لاشين، دار المريخ للنشر، الرياض، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
§ الفتاوى الكبرى لابن تيمية، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١)، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
§ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ،لشهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ،تحقيق : عبد القادر شيبة الحمد ، طبع على نفقة الأمير سلطان بن عبد العزيز (ط١)١٤٢١هـ-٢٠٠١م
§ فتح القدير للشوكاني، دار ابن كثير، بيروت (ط١)، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
§ الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ،للإمام سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل، صححه:إبراهيم شمس الدين ،دار الكتب العلمية ،بيروت، لبنان (ط١)١٤١٦هـ-١٩٩٦م _وطبعة أخرى دار الحديث(دط)(دت) .
§ الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٣هـ.
§ الفصل والوصل بين القاعدة والتطبيق، للدكتور عبد الحميد مصطفى إبراهيم ،مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ،العدد الثامن
§ الفوائد البهية في تراجم الحنفية، لمحمد عبد الحي الكنوي، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٤هـ.
§ الفوائد في اختصار المقاصد للسلمي، تحقيق: إياد خالد الطباع، دار الفكر المعاصر، ودار الفكر، دمشق، (ط١)، ١٤١٦هـ.
§ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط٢) ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.
§ في ظلال القرآن لسيد قطب ،دار الشروق (ط٣٤) ، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م .
§ القاموس المحيط، للفيروزآبادي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، (ط٢) ١٣٧١هـ-١٩٥٢م، وطبعة أخرى، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
§ قرى الضيف ،لابن أبي الدنيا ،عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس ،تحقيق :عبد الله بن حمد المنصور ،نشر أضواء السلف، الرياض (ط١)١٤١٨هـ-١٩٩٧م .
§ الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ، وحاشيته لابن العجمي ، تحقيق : محمد عوامة، وأحمد نمر الخطيب ، دار القبلة للثقافية الإسلامية (ط١)جدة، مؤسسة علوم القرآن ١٩٩٢م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ الكافية في النحو، لابن الحاجب، شرح الأستراباذي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

§ الكتاب، لسيبويه: أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.

§ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمرالزمخشري، تعليق:خليل مأمون شيحا ،دار المعرفة ،بيروت، لبنان ،(ط١)١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م _وطبعة أخرى مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م.

§ كشاف القناع عن متن الإقناع، للعلامة منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، دار الفكر، بيروت، (ط٢) ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

§ كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر ،لابن العماد شمس الدين محمد بن محمد، تحقيق:فؤاد عبد المنعم ،مراجعة:محمد سليمان داود،مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٧٧م .

§ الكليات لأبي البقاء الكفوي، دار الفكر، دمشق.

§ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين الهندي، ط مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

§ اللباب في شرح الكتاب على مختصر القدوري، للشيخ عبد الغني الغنيمي الدمشقي، دار الحديث للطباعة والنشر، (ط٢)، ١٤١٨ هـ-١٩٩٨م.

§ اللباب في علل البناء والإعراب، للعكبري، تحقيق: د. غازي طليمات، ود. عبد الإله نبهان، دار الفكر، دمشق، (ط١)، ١٤١٦هـ.

§ اللباب في علوم الكتاب لابن عادل، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط١)، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

§ لباب النقول في أسباب النزول للإمام جلال الدين السيوطي _عبد المجيد طعمة حلبي،دار المعرفة،بيروت،لبنان ط(٣)١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

§ لسان العرب، للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، بتحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين. دار المعارف، القاهرة_وطبعة أخرى جديدة محققة ،دار صادر،بيروت،لبنان (ط١)٢٠٠٠م .

§ لسان الميزان ،لشهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ،تحقيق : غنيم بن

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عباس غنيم ، مطبعة الفاروق الحديثة(ط١) ١٩٩٦م .

§ مباحث البديع في البحر المحيط ،لسيد أحمد حسين عوض الله ، رسالة دكتوراه ،كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر،القاهرة ١٩٨٨م .

§ المباحث البلاغية في كتاب معاني القرآن للفراء، لحمدي سيد عبد العال سيد ،رسالة ماجستير،مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية .

§ المبسوط، شمس الدين السرخسي، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ ـ١٩٩٣م.

§ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله ابن محمد بن محمد بن عبد الكريم، المعروف بابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا،بيروت، ١٩٩٥م.

§ مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنَّى التميمي ،تعليق: محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، (ط٢)، ١٤٠١هـ ـ١٩٨١م_وطبعة أخرى مكتبة الخانجي ،القاهرة،(دت)(دط).

§ مجمع الأمثال، لأحمد بن محمد الميداني، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، القاهرة.

§ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ،للهيثمي نور الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر ،تحرير :أبو الفضل العراقي ، وابن حجر العسقلاني ،مؤسسة المعارف، بيروت ، ١٩٨٦م .

§ المجموع شرح المهذب لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، مطبعة التضامن الأخوي بالقاهرة، الناشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

§ محاضرات في علم النحو، د. أبو السعود حسنين الشاذلي، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٣ - ١٩٩٤م.

§ المحبر ، لابن حبيب أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية ،تحقيق : ايلزه ليخستن شتيتر ،حيدر آباد ،الدكن، دائرة المعارف العثمانية ١٩٤٢م .

§ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي،تحقيق:عبد السلام عبد الشافي دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،(ط١)١٤٢٢هـ ـ٢٠٠١م .

§ المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ،لابن سيدة أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي ، تحقيق :يحي الخشاب،وعبد الوهاب سيد عوض الله ،معهد المخطوطات العربية، القاهرة (ط١) ١٩٩٦م .

§ المحلى لابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الظاهري ، تصحيح : زيدان أبو المكارم ،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وحسن زيدان طبلة، ط جديدة ومصححة ، مكتبة الجمهورية العربية ، القاهرة ١٩٧٢ .

§ مختار الصحاح، للعلامة محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، المطبعة الأميرية ببولاق، (ط٤)، ١٣٥٧هـ ـ١٩٣٨م _وطبعة أخرى تقديم :عبد الفتاح البركاوي ،دار المنار،(دت)(دط).

§ مختصر السعد ،(مجموعة شروح التلخيص) ،طبعة عيسى الحلبي، مصر١٩٣٧م .

§ مختصر المزني بهامش كتاب الأم: لإسماعيل بن يحيى المزني، ط بولاق.

§ مدارك التنزيل، للنسفي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

§ المدهش، لابن الجوزي، تحقيق: د. مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط٢)، ١٤٠٥هـ ـ١٩٨٥م.

§ مراصد الاطلاع، لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، (ط١)، ١٣٧٣هـ ـ١٩٥٤م.

§ المرشد على عقود الجمان، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأخيرة.

§ المزهر في علوم العربية وأنواعها، للسيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، عيسى الحلبي، القاهرة.

§ المستدرك على الصحيحين للحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، ط: دار الكتاب العربي، بيروت.

§ المستصفَى في علم الأصول لأبي حامد الغزالي، المطبعة الأميرية ببولاق، نشر دار المعرفة، بيروت، (ط١)، ١٣٢٢هـ.

§ المسلك المتقسط في المنسك المتوسط ،لنور الدين علي سلطان بن محمد ملا علي القاري،بهامشه أدعية الحج والعمرة ، جمع قطب الدين الحنفي ، مكة المكرمة، المطبعة الميرية ،١٣١٩ .

§ مسند الإمام أحمد بن حنبل، وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال، المكتب الإسلامي، بيروت، (ط٥)، ١٤٠٥هـ ـ١٩٨٥م.

§ مسند أبي يعلى، أحمد بن المثنى التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، (ط١)، ١٤٠٥هـ ـ١٩٨٥م.

§ مصابيح المغاني في حروف المعاني، لمحمد بن علي بن الخطيب الموزعي، ابن نور الدين، تحقيق: د. عائض بن نافع، دار المنار، (ط١)، ١٤١٤هـ ـ١٩٩٣م.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ المصباح في المعاني والبيان والبديع ،للإمام بدر الدين بن مالك الشهير بابن الناظم ،تحقيق:عبد الحميد هنداوي ،دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان ،(ط١)١٤٢٢هـ١٤٢٢ـ٢٠٠١م .

§ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للعلامة أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، دار المعارف، القاهرة، (ط٢).

§ مصنف ابن أبي شيبة، في الأحاديث والآثار، للحافظ عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة، دار الفكر، بيروت، (ط١).

§ المطلع على أبواب المقنع، لمحمد بن أبي الفتح الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

§ المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، لسعد الدين التفتازاني(سلسلة شروح التلخيص)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،(ط١)١٤٢٢هـ ٢٠٠١م .

§ معاني الحروف ،لأبي الحسن علي بن عيسى بن علي الرماني ، تحقيق : عبد الفتاح اسماعيل شلبي،مكتبة الطالب الجامعي،مكة المكرمة (ط٢) ١٩٨٦م .

§ معاني القرآن للأخفش، تحقيق: عبد الأمير محمد أمين الورد، عالم الكتب، بيروت (ط١)، ١٤٠٥ هـ١٩٨٥م.

§ معاني القرآن للفراء، تحقيق: محمد علي النجار، ط دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة (ط٣)، ١٤٢٢ هـ٢٠٠٢م.

§ معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج، تحقيق: د. عبد الجليل شلبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٧٣م.

§ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، لعبد الرحيم بن أحمد العباسي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٧م.

§ معترك الأقران في إعجاز القرآن ،للشيخ أبي الفضل جلال الدين السيوطي،صححه:أحمد شمس الدين،دار الكتب العلمية ،بيروت ، لبنان،(ط١)١٤٠٨هـ١٩٨٨م .

§ معجم البلاغة العربية ، للدكتور بدوي طبانة ،دار المنارة ،جدة _دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان (ط٤)مزيدة ومنقحة ١٤١٨هـ١٩٩٧م .

§ معجم البلدان،لشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، دار صادر،بيروت١٩٧٩م .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ معجم قبائل العرب، لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، (ط٥)، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

§ معجم لغة الفقهاء (عربي،انكليزي،فرنسي)مع كشاف(انكليزي،عربي،فرنسي)بالمصطلحات الواردة في المعجم،وضع :محمد رواس قلعه جي ،وحامد صادق ، وقطب مصطفى سانو، دار النفائس، بيروت،(ط١) ١٩٩٦م .

§ معجم ما استعجم، لعبد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، لبنان، (ط٣)، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

§ المعجم المفصَّل في علوم البلاغة: البديع والبيان والمعاني، إعداد الدكتور. إنعام فوال عكاوي، ومراجعة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط١)، ١٤١٣هـ ١٩٩٢م.

§ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي،دار إحياء التراث العربي،بيروت،لبنان،(دت)(دط) .

§ معجم مقاييس اللغة ،لابن فارس،تحقيق:شهاب الدين أبو عمر،دار الفكر،بيروت(ط٢)١٤١٨هـ١٩٩٨م_وطبعة أخرى تحقيق: عبد السلام هارون،دار الجيل،بيروت،(ط١)١٤١١هـ١٩٩١م .

§ معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

§ المعجم الوسيط، إخراج: مجمع اللغة العربية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٣٩٢هـ١٩٧٢م_وطبعة أخرى دار الفكر،(ط٢)(دت) .

§ المغازي للواقدي، طبع بمصر، ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.

§ المغرب في ترتيب المعرب، لناصر الدين المطرزي، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، سوريا، (ط١)، ١٣٩٩هـ١٩٧٩م.

§ المغني، لابن قدامة؛ عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، تحقيق: د. عبد الله التركي، ود. عبد الفتاح الحلو، دار هجر، القاهرة، (ط٢) ١٤١٣هـ١٩٩٢م.

§ المغني في أسماء رجال الحديث، لمحمد طاهر الفتني، ١٢٩٠ هـ - دلهي، الهند.

§ مغني اللبيب، لجمال الدين بن هشام الأنصاري، وبهامشه حاشية الشيخ محمد الأمير، دار إحياء الكتب العربية، فيصل الحلبي.

§ مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، محمد بن الخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية،

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(ط١)، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.
§ مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ،لأحمد بن محمد الشهير بطاش كبرى زادة، تحقيق:كامل بكري، وعبد الوهاب أبو النور،دار الكتب الحديثة ، القاهرة،(دط)(دت) .
§ مفتاح العلوم ،لأبي يعقوب يوسف السكَّاكي، طبعة الحلبي، ١٣٥٦هـ.
§ المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصرية، (ط١)، ١٩٨١م_وطبعة أخرى راجعها وضبطها: محمد خليل عيتاني ،دار المعرفة،بيروت،لبنان (ط٤)١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .
§ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ،د/جواد علي، القاهرة .
§ المفضليات، للمفضل الضبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة(ط٢)،١٩٥٢م .
§ المقادير الشرعية والأحكام الفقهية المتعلقة بها منذ عهد الرسول _ ﷺ _ وتقويمها بالمعاصر،لمحمد نجم الدين الكردي، مطبعة السعادة ،١٩٨٤م .
§ المقتضب، للمبرد، تحقيق: د. محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٢هـ.
§ من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ،للدكتور محمد الأمين الخضري ،مكتبة وهبة، القاهرة،(ط١) ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م .
§ من بلاغة القرآن ،للدكتور أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر٢٠٠٤م .
§ من بلاغة القرآن (المعاني_ البيان_ البديع)تأليف: د/ محمد شعبان علوان ، د/ نعمان شعبان علوان ،الدار العربية للنشر والتوزيع ،(ط٢)مزيدة ومنقحة ١٩٩٨م .
§ من جوامع الكلم في القرآن الكريم، عبد العظيم بن بدوي الخلفي، كمبيوساينس: العربية لعلوم الحاسب، القاهرة، (ط١)، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.
§ من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، الدكتور: السيد تقيِّ الدين، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة.
§ المنتقى شرح الموطأ، لسليمان بن خلف الباجي، دار الكتاب الإسلامي، (ط٢).
§ المنتقى من السنن المسندة عن رسول الله_ ﷺ_، لابن الجارود، (ط١)، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م، دار الجنان، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

§ المنصف، لابن جني، شرح فيه التصريف للمازني، تحقيق: إبراهيم مصطفى، وعبد الله أمين، (ط١)، ١٣٧٣هـ.
§ المهذب في فقه الإمام الشافعي، تأليف إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي الشيرازي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة.
§ الموافقات للشاطبي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد ،ويُعرف بعنوان: (التعريف بأسرار التكليف) ،تحقيق : أبو عبيدة مشهور بن حسن ،طبعة دار ابن عفان، الخبر ، ١٩٩٧م .
§ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح (سلسلة شروح التلخيص)،لأبي العباس أحمد بن يعقوب المغربي ،دار السرور،بيروت،لبنان _وطبعة أخرى تحقيق :خليل إبراهيم خليل ،دار الكتب العلمية ،بيروت،لبنان (ط١)١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م
§ الموطأ للإمام مالك بن أنس، ومعه كتاب إسعاف المبطأ برجال الموطأ، للإمام جلال الدين السيوطي، ط: دار الآفاق الجديدة، بيروت، (ط٣)، وطبعة أخرى، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء.
§ النجوم الزاهرة في تاريخ مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، المؤسسة المصرية العامة.
§ نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ،لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، دراسة وتحقيق : محمد عبد الكريم كاظم الراضي ،مؤسسة الرسالة ،بيروت (ط٢)١٩٨٥م .
§ نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ، للعلامة عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، طبعة ١٣٩٨ هـ.
§ نسب قريش، لمصعب بن عبد الله الزبيري، طبع بمصر، ١٩٥٣م.
§ نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، لابن سعيد الأندلسي، تحقيق: د. نصرة عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٢م.
§ النظام القرآني، مقدمة في المنهج اللفظي، عالم سبيط النيلي، دار أسامة، عمان، (ط١)، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
§ نظرات في البيان ،للدكتور محمد عبد الرحمن الكردي ،مطبعة السعادة ، القاهرة(ط٣) ١٩٨٦م .
§ نظرات في كتاب الله، لزينب الغزالي الجبيلي، دار الشروق، (ط١)، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
§ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، ط. الهند، ١٣٨٩هـ وطبعة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخرى خرجها ووضع حواشيها :عبد الرزاق غالب المهدي ،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (ط١)١٤١٥هـ ـ١٩٩٥م .

§ النظم القرآني في آيات الجهاد ،للدكتور ناصر عبد الرحمن الخنين ،مكتبة التوبة ،الرياض (ط١)١٤١٦هـ ـ١٩٩٦م .

§ النفاق والمنافقون من خلال القرآن الكريم، لمحمد البيومي عبد الحكيم، رسالة دكتوراه، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر.

§ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، (١٩٨٨م)، دار صادر، بيروت.

§ نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري، ١٩٢٢م، دار الكتب المصرية.

§ النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، ط: دار الفكر، بيروت.

§ نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، لشمس الدين محمد بن أبي العباس، أحمد حمزة بن شهاب الدين الرملي، وعليه حاشيتا الشبراملسي والمغربي الرشيدي، ط مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الأخيرة.

§ نيل الابتهاج بتطريز الديباج ،لأبي العباس أحمد بابا بن أحمد التنبكتي ،تحقيق : علي عمر ،مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة(ط١) ٢٠٠٤م .

§ هدية العارفين، على هامش كشف الظنون، دار الفكر، بيروت.

§ الوافي بالوفيات، للصفدي، طهران، إيران، وطبعة أخرى، تحقيق: أحمد الأرناءوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

§ وفيات الأعيان، لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان.

§ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (ط١)، ١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م.

****

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

(٢) فهرس الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	**المقدمة** .	٢
٢	**التمهيد** .	٦
٣	أولاً : الإساءة .	٧
٤	ثانياً : الأذى .	١٠
٥	العلاقة بين الإساءة والأذى اقتراباً وافتراقاً من حيث البنية والدلالة.	١٤
٦	أولاً : أوجه التشابه بين كل من الإساءة والأذى .	١٤
٧	ثانياً : أوجه التخالف .	١٤
٨	الجانب الدلالي .	١٥
٩	**الباب الأول : بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الإساءة**	
١٠	**الفصل الأول** : بلاغة القرآن الكريم في سياق التعبير عن الإســـاءة في بيان أفعال المسيئين وأقوالهم .	٢٠
١١	**الفصل الثـاني** : بلاغته في التعبير عن الإساءة في سياق التنفير منها، والبراءة من المتصفين بها .	١١٥
١٢	**الفصل الثـالث** : بلاغته في التعبير عن الإساءة في سياق الجزاء وعداً ووعيداً وعدلاً .	١٦٥
١٣	**الباب الثاني : بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى**	
١٤	**الفصل الأول** : بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في ســـياق التكليف .	٢٢٩

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

م	الموضوع	رقم الصفحة
١٥	**الفصل الثاني :** بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في سياق الدعوة إلى المصابرة .	٢٩٢
١٦	**الفصل الثالث :** بلاغة القرآن الكريم في التعبير عن الأذى في سياق التنفير منه .	٣٥٩
١٧	**الخاتمة** .	٤٠٤
١٨	**فهرس المصادر والمراجع** .	٤٠٩
١٩	**فهرس الموضوعات** .	٤٣٣

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

KINGDOM OF SAUDI ARABIA
MINISTRYOF HIGHER EDUCATION
UNIVERSITY OF PRINCESS NOURA BINT ABD EL-RAHMAN
AGENCY UNIVERSITY OF GRADUATE STUDIES & SCIENTIFIC RESEARCH
DOYENNE OF GRADUATE STUDIES
FACULTY OF ARTS
DEPARTMENT OF ARABIC LANGUAGE

ELOQUENCE OF THE HOLY KORAN IN EXPRESSING OFFENSE & INJURY

THESIS

Submitted in Partial Fulfillment of the requisites of the

Master Degree In Rhetoric & Criticism

BY

IBTESAM BINT IBRAHIM BEN FAWAZ AL-MAGHZAWY

Tutor, Faculty of Education & Arts

Supervised by

Fadilat Prof. Dr. SAAD-EDDIN KAMEL ABD EL-AZIZ SHEHATA

Professor of Rhetoric & Comparative Criticism

Faculty of Arabic Language – Islamic University

Academic Year

1431 - 2010

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

SUMMARY

Thanks are due to ALLAH, the Creator. He created man and taught him the Koran (Rhetoric), and ALLAH bless the Prophet, the best and most eloquent Arabic speaker, and grant him and his Kinsfolk and Companions – peace.

I often asked myself this question : Why has God Called the inspiration revealed to Muhammad – God bless him and grant him peace – Koran ? A name which catches the ear and captures the heart.

Is it because it is the only book that leads to the worship of God and manifests the names and attributes that deserve submission and concern ?

Or is it because, reading it, we realize and appreciate its magnificent eloquence and its wondrous nature ?

Or is it because it turns the attention to the secret implications of science that we need to explore and utilize for the advancement of human life, for the believers to take over the key positions of the world ? Then glory will be God's, His Prophet and the believers.

And ALLAH guided me to the right answer, and I thought why is it not for all these together ? Or rather it is God who gave it its name – "The Koran".

Hence, the commissioned was commanded to fulfill the message - despite the fact that he was illiterate - to read, once the revelation was inspired unto him, saying :

"Read : In the name of thy Lord who creates " (Alalak:١)

And the words filled my heart and – I trust – the hearts of all the believers. Therefore, I found that I was drawn tight to the Koran in the hope of finding an idea to choose as a topic for my study, to testify my scientific eligibility to get a scientific degree in the area that ALLAH has chosen and assigned for me, that it, Rhetoric and Criticism.

In spite of my strong tendency to carry out my study, I was scared and full of awe, as to how I dare to approach and tackle the eloquence of the Koran or some of it – the Koran which fascinated and bewildered the eloquent Arabs who could not but retell what ALLAH tells about tem :

"And if our revelations are recited unto them in plain terms, they say : This is nothing else than a man who could turn you away from what your

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

fathers used to worship and they say : This is nothing else than an invented lie. Those who disbelieve say of the truth when it reaches them : This is nothing else than mere magic." (Saba : ٤٣)

My dread came to an extreme. However, I begged ALLAH – the Most High – who never denies a request – for proper guidance. Overpowered by my strong desire, I started to hunt for my long-cherished wish, and it occurred to me to tackle the Koran from the point of view of OFFENSE & INJURY, and their impact on man. I went on to pick out the examples I could find in the Koran of Offense and Injury. And I had a considerable collection, and I coined the idea in the title "Eloquence of the Holy Koran in Expressing Offense & Injury".

I spoke to Professor Dr. Abd El-Mawgood about it and he thought it

I spoke to Professor Dr.Abd El-Mawgood about it , and he thought it was commendable and approved of it. So, I made up my mine and put myself in the hands of ALLAH and begged Him every success. And I went on, guided by ALLAH and under direction and supervision of Professor Dr. Saad-Eddin Kamel Abd El-Aziz Shehata.

Hence, I submit this humble research, trusting ALLAH with my affairs. And may God bless our Prophet Muhammad and grant him and his kinsfolk and Companions. Peace.

Why I chose to tackle this matter :

To work under the kind protection and patronage of the Holy Koran, that God may guide my steps and give me the strength and confidence :

- The novelty and strangeness of the subject, and besides it comprises a lot of eloquent topics.
- Showing how the Holy Koran tackles subjects of Offense and Injury from the point of view of the different forms using inspiring styles.
- Furnishing the Arabic library with a phase of the eloquence of the Holy Koran, to meet the wish of some researchers to recognize its eloquence, or to help others to explore some other phase.

Method of the Research :

The method can be summed up in tackling the significance of Offense

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

and Injury and their nearness to each other and their difference from one another.

CHAPTER ONE

The Eloquence of the Holy Koran in Expressing Offense

This chapter falls in three items :

* The eloquence of the Holy Koran in context of the expression of the offenders' words and actions.
* The eloquence of the Holy Koran in expressing Offense in context of aversion and dislike of it. We normally condemn offenders.
* The eloquence of the Holy Koran in expressing Offense in context of punishment and just repayment.

CHAPTER TWO

The Eloquence of the Holy Koran in Expressing Injury

This chapter falls into three items :

- Eloquence of the Holy Koran in expressing Injury in context of commission.
- Eloquence of the Holy Koran in context of the call for endurance and perseverance .
- Eloquence of the Holy Koran in context of the feeling of estrangement and repulsion from Injury.

CONLUSION

This is the summary of the research. It enlists the most important results and recommendations the research has come to.

INDEXES

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

- Index of references and resources.
- Index of subject matter.

PROCEDURE OF THE RESEARCH

The method to be followed – God will – is the analytical method. I move on from the properties of the singular word and its forms, definite and indefinite, explicit, implicit, and then to the properties of the sentence, statement or confirmation, the noun, the verb, and then the properties of the phrase as to being related to the precedent , moral or verbal, relationship, and then to exaggeration (prolixity) or succinct (terse), metaphor, metonymy, allusion and rhetorical.

CONCLUSION

Praise be to ALLAH for His true guidance that put me on the right way. And at the end of this lengthy exploratory journey in the depths and mysteries of the Holy Koran that took me six long years, searching in the "Eloquence of the Holy Koran in Expressing Offense & Injury", I came to the conclusion of my research of results and recommendations. But before I start on the results and recommendations, let me allude to the contents of the research which falls into a preliminary note, a preface, two chapters (of three items each), besides the conclusion and the indexes

* The preface deals with the importance of the subject of the research, why it was decided on, the method and plan of the research..

* The preliminary note covers the definition of Offense and Injury – similarity and difference, and the different meanings of each as it occurs in the Holy Koran.

- **Chapter One : Eloquence of the Holy Koran in Expressing Offense.**

It falls into three divisions :

١- Tackles the eloquence of the Holy Koran in context of expressing Offense, explaining the offender's words and actions.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٢- Speaks about the eloquence of the Holy Koran in expressing Offense in context of aversion and dislike of the offenders.
٣- Deals with the eloquence of the Holy Koran in expressing Offense in context of punishment and just repayment

- **Chapter Two: Eloquence of the Holy Koran in Expressing Injury.**

It falls into three divisions :

١- Tackles eloquence of the Holy Koran in expressing Injury incontext of commission.
٢- Speaks about eloquence of the Holy Koran in expressing Injury in context of endurance and perseverance.
٣- Deals with eloquence of the Holy Koran in expressing Injury in context of the feeling of estrangement and repulsion of those who commit injury.

- The Conclusion copes with the summary of the research, the most significant results and the recommendations

- The Indexes show the resources and references besides the index of subject matter.

As to the most significant results the research has come to, they can be listed as follows :

١- Looking up the meaning of Offense and Injury in the Arabic dictionaries, it was found that they are similar in some phases and different in some others.
٢- Induction of the definition of Offense and Injury in the Holy Koran shows that they are similar in some phases and different some others.
٣- Hence, it can be said that the significance of Offense and Injury in the Holy Koran arises from their significance in the language of the Arabs.

"In plain Arabic speech." (The Poets : ١٩٥)

٤- The rhetoric arts help each other in formulating the significance of Offense and Injury as they occur in the Holy Koran.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

٥- It has been confirmed through this study that it is only the study of the composition of the "ayas" in the Koran where the words Offense an Injury occur, that has helped the study of the rhetoric of the Koran in expressing Offense and Injury, following the method of the Master of Rhetoric – Abd El-Qaher El-Jerjani – considering the words and phrases and the relationship between the words and phrases and the tools that bind words and phrases, as Abd El-Qaher himself did in his study of some Ayas of

the Holy Koran. For example : "And it was said : O earth ! Swallow thy water and O sky be cleared of clouds ! and the water was made to subside. And the commandment was fulfilled. And it (the ship) came to rest upon (the mount) Al-Judi and it was said : A far removal for wrongdoing folk " (Huud : ٤٤)

The same was done by Garalla Mohamed Ben Omar Al-Zamakshari in his book named "Al-Kashaaf" where he applied the theory of composition to the words of ALLAH the Almighty.

٦- Introducing the meaning of the rhetorical idioms chosen from the best resource books on the margin – ib\n this research for general use.

٧- The word "Injury" occurs in context of the true stories of the Holy Koran and plays a significant role in picturing the repugnant and repulsive action, as in the story of Kain and Habel and the story of Joseph as related to our Prophet God bless him and grant him peace.

٨- The word "Offense" occurs in different forms in context of expressing words and actions of wrongdoers, both past and present tense verbs, passive .

٩- and active voice, singular and plural, and infinitive. The name also differs according to syntax : subject, object, subjoined, apposed, genitive, etc. which has a strong impact on the meaning in context of the Holy Koran.

١٠- The word "Offense" occurs in context of estrangement of it and repulse of those characterized by it, in the form of the singular name as a subject, subjoined, in apposition, definite, indefinite, which helps the significance of the text of the Holy Koran.

١١- The word "Offense" falls in different forms in context of punishment, promise and menace and justice – singular, plural, object, subjoined, adjective, definite, indefinite, masculine, feminine - which has a great impact on giving meaning.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

١٢- The word "Injury" occurs in context of submission in seven verses of the Suras "The Cow" and "Women". Expression of the word is different : name, verb, in , nominative, genitive, accusative, definite, indefinite – which helps render the meaning of the Holy Koran more distinctive.

١٣- The word "Injury" occurs in context of the call for endurance and perseverance in the Holy Koran in eight verses in each of the Suras : "The Family of Imran", "The Cattle", "The Heights", "Abraham", "The Spider",

And The Clans". The word is found in different forms : name, verb, past tense verb, active and passive voice, in apposition, accusative, indefinite, object, adjoined – which has a great effect on the functioning of the Holy Koran.

١٤- The word "Injury" occurs in context of expressing estrangement in seven locations in the Holy Koran, in Suras "Repentance", "The Clans" and "The Ranks" It occurs as present and past tense verbs, active and passive voice, infinitive, phrase, nominative and accusative – which renders the meaning beautiful and catching – in its best.

RECOMMENDATION :

It is recommended that further researches be done in the field of the study of eloquence of the Prophetic Tradition in context of expressing Offense & Injury..

Hoping that I have achieved some success, with the help and guidance of ALLAH, making a humble contribution in the service of the BOOK of ALLAh, , Most High, I can't but praise His kindness. And God bless our Prophet Muhammad and grant him and his kinsfolk and Companions – peace.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com